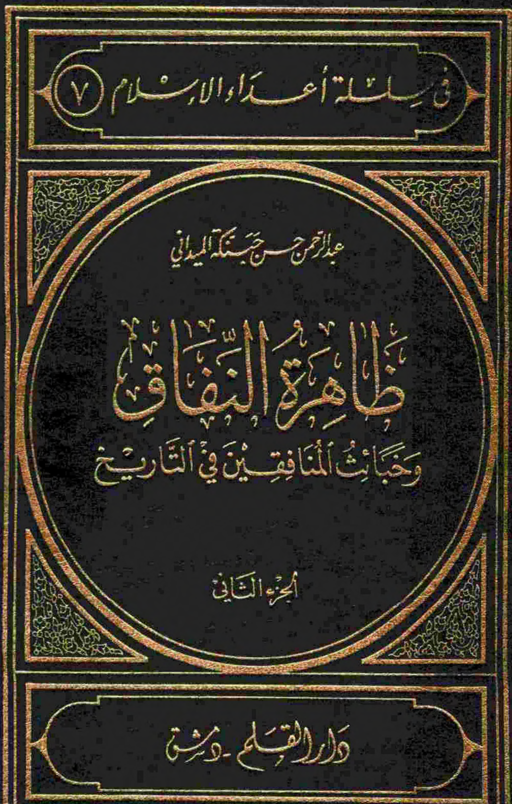

سلسلة أعداء الإسلام
٧
عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
ظاهرة النفاق
وخبائث المنافقين في التاريخ
الجزء الثاني
دار القلم - دمشق

في سلسلة
أعداء الإسلام
٧

ظاهرة النفاق
وخبائث المنافقين في التاريخ

دراسة تحليلية وتوجيهية للتعريف بالنفاق والمنافقين
تدبر موضوعي شامل للنصوص القرآنية في النفاق والمنافقين
نظرة استعراضية للمنافقين عبر التاريخ

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

الجزء الثاني

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

النصّ الثاني والعشرون

من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول)

«السورة (١٦) من التنزيل المدني»

الآيــة (١١)

حول موقف المنافقين من حادثة الإفك

* قال الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

* * *

(١)

القراءات المتواترة من الفرش

* قرأ جمهور القرّاء العشرة [كِبْرَهُ] بكَسْرِ الْكَاف.

وقرأ يَعْقُوبُ [كُبْرَهُ] بِضَمِّ الكاف.

الكِبْرُ: الإثْمُ الكبير، ومُعْظَمُ الشيء.

الكُبْرُ: مصدر كَبُرَ إذا عَظُمَ وجَسُمَ. تقول لغة: كَبُرَ يَكْبُرُ كِبَراً وكُبْراً.

فالقراءتان تتكاملان في أداء المعنى المراد، فـالمعنى: والّذي تـولّىٰ الإثمَ الكبير لحديث الإفْك، وتولّى معظم أحداث إشاعته والترويج له، وتـولّى تعظيمـه وتكبيره في صفوف المؤمنين.

* * *

(٢)
موضوع النص وسبب نزوله

هـذه الآية أُولَىٰ آيـات عشر أنزلها الله بمنـاسبة حـديث الإفْـكِ الـذي تـردّد بين المسلمين حول أمّ المؤمنين الطاهـرة عائشـة رضي الله عنها وأرضـاها، وتعـرّضت هذه الآية لمن تولَّىٰ قَذْفَ هذه الفرية وإشاعَتَها «عبدِ الله بن أُبَيّ ابن سلول» دون التصريح باسمه، وتوعّدته بالعذاب العظيم.

سبب النـزول:

في شهـر شعبان من سنـة «خمس» على الراجح، غزا رسـول الله ﷺ وأصحابـه بني الْمُصْطَلِق[1] من خُزَاعة.

وفي هذه الغزوة بدرت عدّة بوادر نفاق من عبد الله بن أبـي بـن سلول وأعانه فيها بعض جماعته من المنافقين.

ولمّـا قفل رسـول الله ﷺ ومعه أصحـابه من غـزوة بني الْمُصْطَلِق، ولم تَبْقَ بيْنَـه وبين المدينة إلاّ مـرحلة، آذن بالـرّحيل آخـر اللّيل، فلَمّـا علمت أم المؤمنين «عائشـة» رضي الله عنهـا بذلـك، خرجت من هَـوْدَجها، وابتعـدت عن الجيش لقضاء حـاجتهـا الطبيعية، كما هو شأن النساء قبـل التَرَحُّـل، فلمّا فـرغت أقبلت إلى رَحْلِها، فـافْتَقَدَتْ عِقْداً فيه جَزْعُ ظفار، كان في صدرها (جَزْعُ ظفار: أي خرز هو من صناعة مدينة ظَفَار باليمن قرب صنعاء) فَرَجَعَتْ تَلْتَمِسه.

قالت السيدة عـائشة رضي الله عنهـا (كما عنـد ابن إسحاق): ثُمَّ أُذِنَ في النـاس بالرّحيل، فارْتَحَلَ النّاس (أي: أخذوا يحملون أمتعتهم على رواحلهم) وخَرَجْتُ لبعض حاجتي، وفي عُنقِي عِقْدٌ لي، فيه جَزْعُ ظفارٍ، فلمّا فـرغتُ انْسَلَّ من عُنُقِي ولا أدْرِي،

---

(١) بنو الْمُصْطَلِق: حيٌّ من خُزاعة. وخزاعة قحـطانيون عنـد أكثر النسّـابين، كانت منـازلهم بقرب الأبـواء (بين مكة والمـدينة) وفي وادي غـزال، ووادي دوران وعـسفان في تهـامة الحجـاز. قال المسعودي: كانت ولاية البيت الحرام في خزاعة ثلاثمائة سنة.

والْمُصْطَلِقُ في اللّغة: هو المتمرّغ على جنبيه من الألم.

فلمّـا رجَعْتُ إلى الرَّحْـلِ ذهبْتُ ألتمسُهُ في عنقي، فلَمْ أجِـدْهُ، وقـد أخـذ النـاس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الّذي ذهبتُ إليه، فالتمستُه حتّى وجدته.

جَزْع: نوع من العقيق. وظَفَارِ: مدينة لحمير باليمن.

وجـاء القوم خـلافي، الذين كـانوا يُـرَحِّلُونَ لي البعير، وقـد فَرَغـوا من رحلتـه، فأخذوا الْهَوْدَج، وهم يظنّون أنّي فيه، كما كُنْتُ أَصْنَع، فاحْتَمَلُوهُ، فشَدُّوهُ على الْبَعِير، ولَمْ يَشُكُّوا أنّي فيه، ثمّ أخذوا برأس البعير فانْطَلَقُوا به، فرجعتُ إلى العسكر، وما فيـه من داعٍ ولا مجيب، قد انطلق الناس.

قالت رضي الله عنها: فتلفَّفْتُ بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني، وعَرَفْتُ أَنْ لِوِ افْتُقِدْتُ لَرُجِعَ إلَيّ.

قالت: فواللّهِ إنّي لمضطجعة إذْ مرّ بي «صَفْوانُ بن الْمُعَطَّلِ السُّلَمي».

وجاء في الرواية التي عند البخاري ومسلم هنا عن عائشة:

«وكَانَ صَفْوانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِي، ثُمَّ الذَّكْواني قَدْ عَرَّسَ[1] مِنْ وَرَاءَ الْجَيْش، فَادَّلَجَ[2]، فأَصْبَح عند منزلي، فـرأى سواد إنسـانٍ نائم، فـأتاني، فعـرَفني حِينَ رآني، وكان قد رآني قَبْلَ الحجاب، فاستيقظتُ بـاسْترجـاعه[3] حين عـرفَني، فخَمَّرْت وجْهِي بجلبـابي، والله ما كلّمني كلمـةً، ولا سمعتُ منْه كلمـة غير استرجـاعـه، حين أنـاخ راحلته، فوطِىءَ على يَدِها، فركبتها، فـانطلق يقُـودُ بـي الراحلة، حتى أتينـا الجيش، بعدما نزلوا مُوغِرِينَ[4] في نَحْرِ الظهيرة، فهلك من هَلَكَ في شأني، وكـان الذي تـولّى كِبْرَهُ عبد الله بن أبـي بـن سلول».

قـال علماء السيـرة: كان «صفـوان بن الْمُعَطَّل» على سـاقة العسكـر، يلتقط في

(١) عرَّسَ: أي: نزل آخر اللّيل للراحة.

(٢) ادَّلج: أي: سار في آخر اللّيل.

(٣) باسترجاعه: أي: بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٤) مُوغِرِين: أَوْغَرَ القومُ، إذا دخلوا في وقت الْوَغْرَة، وهي شِدَّةُ الحرّ.

مؤخرة الجيش ما يسقط من متاع المسلمين، حتّى يأتيهم به، ولذلك تخلّف عن الجيش.

وكان في الجيش «عبد الله بن أبي بن سلول» رأس المنافقين، فقال بين خاصّته: والله ما نجت منه ولا نجا منها. وانطلقت كلمته تتردّد، وانخدع بها بعض المسلمين من أهل الإيمان، فشاعت بينهم وذاعت.

وجاء في الصحيح أنّ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كانت تقول في عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول وحديث الإفك: «وهو الّذي كان يَسْتَوْشِيهِ ويَجْمَعُهُ، وهو الّذِي تَوَلّى كبره منهم».

يَسْتَوْشِيه: أي: يُحرّكه ويُرْسله ويُذيعه.

ويَجْمَعُهُ: أي: يعزم على إثارته ونشره، ويجمع عناصره ويرتّبها ليروجه بين الناس. يقال لغة: جمع الأمر إذا عزم عليه، ويقال: جمع الأمرَ إذا ضمّ بعضه إلى بعض.

وظلّت أم المؤمنين في كرب شديد، ومَرض مُمِضّ، حتى أنزل الله براءتها في كتابه، ونزل بشأنها عشر آيات من سورة (النور) من الآية (١١ ـ ٢٠).

جاء في رواية البخاري ومسلم عنها أنّ رسول الله ﷺ لمّا نزل عليه الوحي من السماء ببراءتها، قال:

«أَبْشِرِي يَا عائشة، امّا الله عزّ وجلّ فقد بَرّأَكِ».

قالت عائشة: «فقالت لي أُمّي: قومي إليه، فقلتُ والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلّا الله عزّ وجلّ، هو الذي أنزل براءتي».

وجاء في الروايات أن من الذين وَلَغُوا في هذا الأمر من المؤمنين وأقام الرسول ﷺ عليهم حدّ القذف: حسّان بن ثابت، ومِسْطَحُ بْنُ أثاثة، وحَمْنَةُ بنتُ جَحْش، أختُ أمّ المؤمنين زينبَ بنت جَحْش، أما زينب فلم تَقُلْ إلّا خيراً، عصَمَها ورَعُها ودينها.

* * *

(٣)
المفردات اللّغويّة في النصّ

﴿ بِٱلْإِفْكِ ﴾:

هو في اللّغة الكذب، والخديعة، يقال لغة: أفَكَ فُلانٌ يَأْفِكُ أفْكاً وإفْكاً وأُفوكاً، ويقال أيضاً: أفِكَ بكسر الفاء، يأفَكُ أفْكاً وإفْكاً، إذا كذب أو حدّث بكلامٍ كذبٍ.

قيل: وهو مشتقٌّ من الأفْكِ بفتح الهمزة، وهو قَلْبُ الشّيْء عاليَهُ سافله، ومنه سميت قرى قوم لوط «المؤتفكة» أي: التي قلب الله عاليها سافلها، وخَسَفَ بها.

وحديث الإفك: صار علماً بالغلبة على ما جرى في القصة التي سبق بيانها، ونزل بشأنه قرآنٌ يُتلَىٰ.

﴿ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾:

العُصْبَةُ: الجماعةُ من الناس، قال جمهور أهل اللّغة: العُصْبة الجماعة من عشرة إلى أربعين. وقيل: من الثلاثة إلى العشرة، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه.

﴿ تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ ﴾:

يقال لغة: تَوَلّىٰ فلانٌ الأمر، بمعنى: تقلَّدَهُ، وقام به، ولزم العمل به أو بما يتعلّق به.

أمّا كُبْرُهُ: فقد سبق لدى توجيه القراءات بيانه.

* * *

(٤)
مع النصّ في التحليل والتّدبُّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾.

يخـاطب الله في هـذا عمـوم المسلمين الـذين يجمعـون المؤمنين الصـادقين والمنافقين، فَيُبيِّن لهم أنّ الّذين جاءوا بحديث الإفك هم عُصْبَةٌ منهم.

أي: لم يُصَدِّرْه الذين كفروا صراحة، لا اليهود ولا النصارى، ولا المشركون من العـرب، ومع أنّ المنـافقين قد تـولّوا كِبْـره، إلاّ أنّ في قولـه تعـالى: ﴿عُصْبَـةٌ مِنْكُمْ﴾ إلماحاً إلى أن بعض المؤمنين قد تقع منهم معصية كبيرة، كمعصيـة قَذْفِ المحصنـات المؤمنات الغافلات بالشبهة، دون بيِّنَةٍ مقبولةٍ شرعاً.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾:

أي: لا تحسَبُوا يا أيّهـا المؤمنون وجـود ظاهـرة حـديث الإفْكِ في مجتمعكم الإسـلاميّ الأمثلِ والرَّسُولُ فيكم، شـرّاً لكُمْ، يُفْسِدُ مُجْتَمعكُمْ، ويكْسِـرُ وحـدتكم، ويمزّق صفَّكُمْ.

والمعنى: لا يقَـعْ في توهُّمكُمْ هـذا، ففعل «حَسِب» في القـرآن لم يُسْتَعْمَلُ إلاّ في التوهُّم المردود الذي لا يَنْبغي أن يُحْسَبَ له حِسَابٌ ما.

بـل هو خيرٌ لَكُمْ بسبب النتائج التي نجمت بعد ذلـك من وجود حـديث الإفك فيكم، وهي نتائج فيها خير عظيم.

ونتسـاءل عن هـذه النتـائج التي جعلت وجـود حـديث الإفـك في المجتمـع الإسلاميّ الأوّل خيراً؟

وبـالتأمـل ينكشف لنا أنّ العلل الـداخليّة، والأمـراض الكمينة، إذا بقيت خفيَّـةً تفاقم شرّها، وعَظُم ضُرُّها، وصارَ من المتعذّر معالجتها واستئصالها، فمِنَ الخير ظهورُ آثارها مع بداياتها، لتداركِ علاجِها، واستئصالِ دائِها.

وهـذا ما حصـل فعلاً بـالنسبة إلى ظهـور حادثـة الإفك، فقـد كشفت للمسلمين بالنسبة إلى مجتمعهم وظاهراته الاجتماعية أمرين:

الأمـر الأوّل: أنّ المنافقين لا يَفْتَـؤون ينتهزون كـلّ حدث، لـلإفساد، ولإشـاعة

البلبلة والاضطراب، وشقّ صفوف المسلمين، وهدم وحدتهم وتمزيقها، بما ينشرون من أكاذيبَ ومفتريات وأنواع من الإفك، وبما يذيعونه ويشيعونه من إرجافات.

فعلى جماعة المسلمين أن يكونوا يَقِظِين حَذِرِين، لا يستجيبون لدسائس المنافقين، ووساوس المغرضين، وهَمَسَاتِ الأعداء المخالطين.

الأمر الثاني: أنّ المجتمع المسلم مهما عَظُمَتْ تربيتُه الإسلاميّة، وصَلَحَ حالُه، وارتقىٰ فوق سائر المجتمعات، فإنّه لا يخلو من وجود أفرادٍ فيه يتأثرون بالشائعات الكواذب، ويَبْنُونَ على الظنون الضعيفة، ويُتابعون بتحرّكاتهم أصحاب الأغراض الخاصّة، وأهْلَ الأهواء، ويَسْتَجيبونَ لوساوس المنافقين ودسائسهم.

وانكشافُ هٰذين الأمرين في المجتمع الإسلاميّ الأول استدعىٰ إنْزالَ بَيَانَاتٍ وتَشْريعاتٍ ربّانيّة، يحمي الله بها المجتمعات الإسلامية القادمة من شرور هٰذَيْن الأمرين، إذا الْتَزموا بهذه البيانات وأحكام هذه التشريعات، وعملوا بما جاء فيهما.

وهذا خيرٌ عظيم جلبَهُ حدُوث هذه الظاهرة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي الأوّل، إذْ كان رسول الله فيه، وكانت آيات الله وشرائعه تنزل عليه.

وكان من حكمة الله أنّ المتَّهمَةَ في الحدَث من أعفّ العفيفات وأطهر الطاهرات وهي زوجةُ الرّسول المجتبى، وأنّ المتَّهم فيه من أهل بدر، ولم يَعْرِف النساء قطّ، واسْتُشْهِدَ بعد ذلك في سبيل الله، وسُئِلَ عنه فوجدوه رجلاً حصوراً، ما يأتي النساء.

* * *

* قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾:

أي: لكل امْرِىءٍ من أفراد العُصْبَةِ الّذِينَ جَاءُوا بالإفْكِ جزاءٌ بمقدار ما اكْتَسبَ من الإثم.

فأبان اللّهُ أنّ قَذْفَ المحصنات والمحصنين من المؤمنين إثْمٌ يترتّب عليه عقوبةٌ عند الله عزّ وجل، تعادل ما حمل من ثقل الذنب.

وجاء فعل ﴿اكْتَسَبَ﴾ بصيغة «افتعل» الدالّة على التكلّف، للدلالة على أنّ إثم القذف إثْمٌ ثقيلُ الحِمْلِ على ظهر حامله، لا يستطيع حَمْلَهُ إلاّ بكُلْفَة.

وحسْبُ هذا الإثم العظيم أن جعل الله له حدّاً شرعيّاً، أنْ يُجْلَد مرتكبه ثمانين جلدة، وأن يكون من الملعونين في الدنيا، وأن يكون له عذابٌ عظيم في الآخرة أيضاً، ما لم يَتُبْ من ذنبه، ويغفر الله له.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١﴾:

أي: والذي تولّى بثّهُ أوّلاً سرّاً بين جماعته، وتابع الوسوسة لترويجه وإشاعته، من أفراد هذه العصبة، له عذاب عظيم عند الله يوم الدين.

وقد سبق أن عرفنا أنه رأس المنافقين «عبد الله بنُ أُبَيِ بْنِ سَلُول». أُبَيٌّ: أبوه، وسَلُول: أمُّ أبيه.

ولم يثبت أن رسول الله ﷺ قد أقام عليه الحدّ، وأرى أنّ السبب في ذلك أنّه كان يبثّ مقالاته سرّاً بين المنافقين، ولم يصرّح بها أمام من يشهد عليه شهادةً شرعية بأنّه قاذف، بخلاف الذين أقيم عليهم الحدّ، فقد أدينوا بأقوالهم بمقتضى الشهود الذين شهدوا عليهم، والله أعلم.

• • •

النصّ الثالث والعشرون

من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول)

السورة (١٦) من التنزيل المدني

الآيــة (٣٣)

حول موقف بعض المنافقين من إكراه الإماء على البغاء

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣)﴾.

* * *

(١)

موضوع النصّ وسبب نزوله

موضـوع النـص:

خصّ الله عـزّ وجلّ الإمـاء في الإسلام بـأحكـام خـاصّـة تخفيفيّة في مـوضـوع تعرّضهنّ لفاحشة الزنا، على خلاف الأحكام الّتي أنزلها بشأن الحرائر، وذلـك مراعـاةً لأوضـاعهنّ في المجتمـع، بمقتضى كـونهنّ رقيقـاتٍ يَسْعَيْن في خـدمـةِ أوليـائهنّ، وبمقتضى كونهنَّ غيرَ مُلْزَماتٍ بالحجاب المفروض على الحرائر، وهو الحجاب الساتر لمفاتنهنَّ، من أجسادهن، إذْ حُكْمُ عورة المرأة الأمة كحكم عورة الرجل.

وبسبب ذلـك فقـد يتعـرّضْن في المجتمـع لأمـور لا تتعـرّض لمثلهـا الحـرائـر، فيصعُبُ عليهنّ أن يُحْصِنَّ أنْفُسَهُنَّ بـالعفّـة، كمـا أنَّهُنَّ يجـدن أنْفُسَهـنَّ عـرضـة دوامـاً

لمعاشرة من ينتقلْنَ إلى مِلكِه بعد التأكد من براءة أرحامهنّ من الحمل من قِبَل مالك أو زوج سابق.

وقد سبق في نجوم التنزيل بيان عقوبتهنّ إذا زنين برغبتِهنَّ دون إكراه من أولياء أمورهن، وهي نصف ما على الزانيات المسلمات الحرائر المحصنات بالضوابط الاجتماعية من العذاب. فالإماء إذا زنَيْن جُلِدْنَ خمسين جلدة دون تثريب، ولو كانت إحداهن يعاشرها مالكها، أو كانت زوجةً لعبد أو حرّ.

فالرّق حالة اجتماعية تستدعي الأحكام المخفّفة بحكمة الله عزّ وجلّ.

وما سبق في نجوم التنزيل هو قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بشأن الإماء:

﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ... ﴿٢٥﴾﴾:

أي: فإذا أسْلَمْنَ، فمنعهُنَّ إسلامهنّ من ارتكاب فاحشة الزنا، أو إذا كُنَّ متزوّجات، فإنْ أتين بعد ذلك بفاحشة الزنا فإنّهُ يكون عليهن من العذاب عقاباً لهنّ، نِصْفُ ما على المحصنات بالحرّيّة وضوابطها من العذاب، وهو حدٌّ مقداره خمسون جلدة فقط، أمّا الرَّجْمُ فلا يُرْجَمْنَ لأنّه لا يَنْصَفُ، ولو كُنَّ متزوجات.

هذا هو الحكم الذي دلّ عليه النصّ بالنسبة إلى الرقيقات المحصنات إذا ارتكَبْنَ فاحشة الزنا برغبتهن.

واختلف العلماء في المراد من إحصانِهنَّ، هل هو إسلامهن أو زواجُهُنَّ؟ وعلى هذا فالإماءُ غير المسلمات اللّواتي لم يُحْصِنَّ بالإسلام أنْفُسَهُنَّ قد اختلف العلماء بشأنهنّ على رأيَيْن:

الرأي الأول: وهو مذهب الجمهور، قالوا: إنّ الأَمَةَ إذَا زَنت فعليها خمسون جلدة، سواءٌ أكانت مسلمة أو كافرة، مزوّجةً أو بكراً، عملاً بما ورد في السنة.

الرأي الثاني: أنّ الأمة الكافرة لا تُجْلَدُ إذا زنت، عملاً بالمفهوم المخالف للشرط الوارد في الآية.

وقد ورد في السنة بشأن الأمة التي تزني عدّة أحاديث منها:

(١) روى مسلم في صحيحه عن عليّ رضي الله عنه، أنّه خطب فقال: (يا أيها النّاسُ أقِيمُوا الْحَدَّ عَلَىٰ إمائِكُمْ، مَنْ أُحْصِنَ مِنْهُنَّ وَمَنْ لَمْ يُحْصَنْ، فإنَّ أَمَةً لِرَسُولِ اللّهِ ﷺ زَنَتْ، فأَمَرَني أَنْ أَجْلِدَها، فإذا هِيَ حَدِيثَةُ عَهْدٍ بِنفاس، فَخَشِيتُ إِنْ جَلَدْتُها أَنْ أَقْتُلَهَا، فذكرتُ ذَلِكَ للنبيِّ ﷺ، فقال: «أَحْسَنْتَ، اتْرُكْها حَتَّى تَتَماثَل»).

يقال لغة: تماثل العليل، أي: قارب أن يبرأ من علته فصار أشبه بالصحيح.

(٢) وروى مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إذا زَنَتْ أَمَةُ أَحدِكُمْ فَتَبَيَّنَ زِناهَا فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، ولاَ يُثَرِّبْ عليها، ثُمَّ إنْ زَنَتْ الثانِيَة فَلْيَجْلِدْهَا الْحدَّ، ولا يُثَرِّبْ عَلَيْها، ثُمَّ إنْ زَنَتِ الثَّالِثَة فتبيَّنَ زِناهَا فَلْيَبِعْهَا ولَوْ بِحَبْلٍ من شَعَرٍ».

* * *

بَقِي حُكْمُ الإماء اللّواتي يُكْرِهُهُنَّ أولياؤهُنَّ على البغاء، وهُنَّ يُرِدْنَ التَّحَصُّنَ بالعفة والتزام حُكْمِ تحريم الزنا، فهل يُقامُ عليهِنَّ الحدّ الذي هو نصف ما على المحصنات من العذاب، أو لا؟

لقد ظلّ هذا الحكم معلّقاً مُدَّةً من الزمن، لأنّ أكثر أحوال الإماء أن يَزْنين برغبتِهِنَّ، لا بالإكراه على البغاء، في مَهْنَةٍ خاصّة، وقد تُتَّخذُ لها بيوتٌ ذاتُ علاماتٍ خاصّة، تُسَمّى المواخير، حتى نزلت سورة (النور) بعد نزول تسع سور من نزول سورة (النساء) فنزل فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

فنهى اللّهُ أَوْلياء الإماء نَهْيَ تحريم عن إكراهِهِنَّ على ممارسة مَهْنَة البغاء لكسب المال بكدّ فروجهنّ، زاعمين على عادات أهل الجاهليّة أنّ امتلاك رقابِهِنّ يبيح لهم تأجير فروجهنّ بالمال.

وأبان تبارك وتعالى أنّهُنَّ إذا تعرّضْنَ لممارسة الزنا بإكراه من أولياء أُمورِهِنّ،

وهُنَّ يُرِدْنَ التَّحَصُّنَ بالعفّة والالتزام بحكم تحريم الزنا، فإنَّهُنَّ حينئذٍ لا يُقامُ عليهِنَّ الحدُّ الذي سبق إنزاله في سورة (النساء).

ولمَّا كُنَّ قد يتعرَّضْنَ لمشاعر الاستمتاع عند الممارسة، مع عدم رغبتهنّ أصلاً بالبغاء، فقد ألمح الله لهنَّ أن يستغفرن، ووعدهُنّ بأن يغفر لهنّ ويَرْحَمَهُنَّ.

سبب النزول:

أورد الطبري في تفسيره عدّة روايات في سبب نزول هذا النصّ، وهي في معظمها تبيّن أنّها أنزلت لإلغاء عادة جاهلية، وقد بقي يفعلها رأس المنافقين في المدينة «عبد الله بن أُبَيّ بن سلول» وهي إكراه من يشاء من إمائه على البغاء، لكسب المال بالزّنا.

وقد أنزل الله هذا النّص للنّهي عن هذه العادة الجاهلية الخبيثة، ولبيان عُذْرِ المكرَهَة من الإماء، ورفع عقوبة الحدّ عنها، ودعوتها للاستغفار عمّا قد تستمتع به عند المعاشرة، مع كونها كارهة مُكْرَهَةً، ليغفر الله لها ويرحمها.

فمن الروايات التي أوردها الطبري ما يلي:

(١) روى الطبري بسنده عن جابر بن عبد الله قال:

«كانت جارية لعبد اللهِ بن أُبَيّ بن سلول، يقال لها (مُسَيْكة) فأجَرَها وأكْرَهَها، فأتت النبي ﷺ فشكت ذلك إليه فأنزل الله:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

يعْني: بِهِنّ».

(٢) وروى الطبريّ أيضاً بسنده عن عكرمة.

«أَمَةٌ لعبد اللهِ بن أبي بنِ سَلُول أمرها فزنت، فجاءت بِبُرْدٍ، فقال لها: ارجعي فازني، قالت: والله لا أفعلُ، إن يَكُ هذا خيراً فقد اسْتَكْثَرْتُ منه، وإن كان شرّاً فقد آنَ لي أنْ أدَعَهُ».

(٣) ويدلُّ على أنّها كانت عادةً متّبعة، ما رواه الطبري بسنده عن الزهري، أنّ رجلاً من قُريش أُسِرَ يوم بدر، وكان عبد الله بن أبي بن سلول أَسَرَهُ، وكان لعبد الله جارية، يقالُ لها: مُعَاذَة، فكان القرشيُّ الأسير يريدها على نفسها، وكانت مُسْلِمةً، فكانت تمتنع منه لإسلامها، وكان ابْنُ أُبيّ يُكرِهُها على ذلك ويضربُها، رجاء أن تَحْبِلَ للقرشيّ، فيَطْلُبَ فداءَ ولَدِه، فقال الله تعالى:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾.

قال الزهري:

﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

يقول: غفورٌ لَهُنَّ ما أُكْرِهْنَ عليه.

(٤) وروى الطبري أيضاً بسنده عن ابن عبّاس في الآية قال: كَانُوا في الجاهلية يُكرِهُونَ إماءَهُمْ على الزنا، يأخذون أجُورَهُنّ، فقال الله: لا تُكْرِهُوهُنّ على الزنا من أجلِ الْمَنالَةِ في الدنيا، ومن يكرههنّ فإنّ الله من بعد إكراههنّ غفور رحيم لهنّ، يعني إذا أُكرِهْنَ.

(٥) وروى بسنده عن مجاهد، قال:

كانوا يأمرون ولائدهم يُبَاغِين، يفعلْنَ ذلِكَ، فَيُصِبْنَ، فَيَأْتِينهم بِكَسْبِهِنّ، فكانت لعبد الله بن أُبيّ بن سلول جارية، فكانتْ تُبَاغِي، فكرهت، وحلفت أن لا تفعله، فأكرهها أهلها، فانطلقت فباغت بِبُرْدٍ أخْضر، فأَتَتْهُمْ به، فأنزل الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ...﴾.

وأورد الشيخ محمد بن الطاهر بن عاشور، أنّه كانت في المدينة إماءٌ بغايا، منهنّ ست إماء لعبد الله بن أبي بن سلول، وهنّ: «مُعَاذَة ــ مُسَيْكَة ــ أُمَيْمَة ــ عَمْرَة ــ أَرْوَى ــ قُتَيلَة». وكان يُكْرِهُهُنّ على البغاء بعد الإسلام.

قال: وقالوا: إنّ عبد الله بنَ أُبيّ قد أعَدَّ معاذة لإكرام ضُيوفه، فإذا نزل عليه ضَيْفٌ أرسلها إليه ليواقعها، إرادة الكرامة له.

فأقْبَلَتْ معاذةُ إلى أبي بكر، فشكت ذلِكَ إليه، فذكر أبو بكر ذلك للنبيّ ﷺ، فأمَرَ النبيّ ﷺ أبا بكر بقبضها، فصاح عبد الله بن أُبيّ، مَنْ يُعْذِرُنا[١] من محمّد، يغلبنا على مماليكنا، فأنزل الله هذه الآية.

قال: وكان بمكة تسع بغايا شهيرات، يجعلْنَ على بيوتهنّ رايات، وذكر أسماءهن.

* * *

(٢)
المفردات اللّغوية في النّص

﴿وَلَا تُكْرِهُوا﴾:

الإكْراهُ على العمل: القَهْرُ عليه، والحَمْلُ علىٰ فعله بالقوة، أو بالتّهديد بإنْزَالِ مكْرُوه.

﴿فَتَيَاتِكُمْ﴾:

أي: إماءكم، جمع «فَتَاة» وأصل «الْفَتَاة» مؤنث «الفتى» وهي الشابّة أوّل شبابها. وقد كرّم الله الإماء فسمّاهنّ فتيات.

وروى مسلم عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «لاَ يَقُولَنّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي، وأَمَتِي، كُلُّكُمْ عَبِيدُ الله، وكلُّ نِسَائِكُمْ إمَاءُ اللهِ، ولَكِنْ لِيَقُلْ: غُلاَمِي، وجَارِيتِي، وَفَتَايَ وفَتَاتِي».

﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾:

أي: على الزنا. «وبغاء» مصْدَرُ بَغَت المرأة وبَاغَت إذا زنت. يقال لُغَةً: بَغَتِ الأَمَةُ تَبغِي بَغْياً وبغَاءً، وبَاغَتْ تُبَاغِي مُبَاغَاةً وبِغَاءً، اي: فَجَرَتْ وارتكبت فاحِشَةَ الزنا.

﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾:

التَّحَصُّنُ: التَّمنُّع بالطّاعة من ارْتِكَابِ المعصية، وبالتعفّف من الوقوع في الزنا،

(١) مَنْ يُعْذِرُنا مِنْ محمد: اي: مَنْ يُنْصِفُنا من محمد.

وفي الصيغة معنى التكلّف وتحمُّل مشقّةِ مغالبة النفس، وهو في الأصل من الدخول في حِصْنٍ منيعٍ، للاحتماء به، يقال لغة: تَحَصَّنَ يَتَحَصَّنُ تَحَصُّناً، إذا دخل في حِصْنٍ واحْتَمَىٰ به.

ويقال: امرأةٌ حَصَان، وحاصِن، أي: عفيفة.

[والمحصنات]: العفائف من النساء. والْمُحْصَنةُ: الّتي أحْصَنَها زوجُها.

والمرأة تكونُ مُحْصَنَةً بالإسْلام، أو بالعفاف، أو بالحرّيّة، أو بالتزويج.

وأَصْلُ الإحصان يدلُّ على المنع، ويُسَمَّى الْمَكَانُ الْمنِيعُ حصناً، لأنّه يَمْنَعُ العدُوّ من الدخول فيه، والوصول إلى المحتمين به داخله.

﴿لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

أي: لتَطْلُبُوا بإكْراه إمائكم على البغاء مالاً، أو غير ذلك من متاع الحياة الدنيا الذي هو عَرَضٌ زائل.

﴿غَفُورٌ﴾:

أي: كثير المغفرة، كثير سَتْرِ الذُّنوب على عباده. يقال لغة: غَفَرَ الشيءَ إذا سَتَرَهُ، وغَفَرَ المتاع في الوِعاء، إذا أَدْخَلَهُ فيه وسَتَرهُ، وغَفَرَ الله للْعَبْد ذَنْبَه، غَفْراً وغُفْراناً ومَغْفِرَةً، إذا سَتَرَهُ له.

﴿رَّحِيمٌ﴾:

كثيرُ الرَّحْمَةِ وعَظِيمُها. الرّحمةُ: صفةٌ من آثارها العطاءُ، والمعونةُ وإزالةُ الْبُؤس، والإمدادُ بما يَسُرّ ويُسَكّنُ النَّفْسَ، ويُطَمْئِنُ القلْبَ، ويُمتِّعُ ذا الحياة بما يَطيبُ لدَيْه، ويكفُّه عن الشرّ والضُرّ والسُّوء، ويَهْديه إلى ما فيه خيرُه وسعادته، في عاجل أمره وآجله، ويُبيّن له ما فيه شرٌّ له وضُرٌّ وأذى، ونحو ذلك.

والرَّحْمَةُ صفةٌ من صفات الله الجليلة، وهي صفة نفسيّةٌ نُثْبِتُها لله عزّ وجلّ على ما يليق بجلاله، فقد أثبت الله لنفسه الرحمة، فقال تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ ... ١٥٦﴾:

* * *

(٣)

مع النصّ في التحليل والتدبّر

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾:

أي: ولا تُكْرِهوا إماءَكُمْ عَلَىٰ الزّنـا كَما كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ في الجاهليّة، لِيَجْلِبْنَ لكُمْ مَالاً أو غيرَه من عرض الحياة الدّنيا، بكَدِّ فروجِهِنّ، زاعمين أنّ لكم الحقّ أن تكتَسِبُوا بأجسادِ إمائِكُمْ اللّواتي تملكون رقابَهُنَّ على ما تشتهون، ولو كان في أمْرٍ حرَّمَه الله على الناسِ جميعاً، أحرارِهم وعبيدهم.

فحفظُ الفروج من الزنا هو من حقّ الله على عباده جميعاً، والاستمتاعُ بالفروج يخضع لضوابطَ حدَّدها الله بأوامره ونواهيه، وليس التصرّف بالفروج من توابع الملكيّة.

إنّ مالك رقبة الأمة له أن يبيعها، أو يهبها، أو يؤجرها في الخدمة، أو يكلّفها من الأعمال، أو يتسَرَّىٰ بها، أو يزوّجها، ولكن ليس من حقّه أن يؤجرها للقيام بعملٍ حرَّمه الله عليها، أو يكلّفها إياه كالزّنا واللوّاط، والسّرقة والغيبة والنميمة، والقتل بغير حقّ، وهكذا إلى سائر المحرّمات، أو يمْنَعها عن ممارسة حقوقها الشخصيّة وواجباتها الدينيّة.

بقي أن نفهم فائدة تعليق النهي عن الإكراه على الزنا بشرط إرادة الإماء التَّحَصُّنَ، أي: التمنُّع من الزّنا، والدخولَ في حِصْنِ طاعة الله لاتّقاء عذابه، وهل إنْ كُنَّ لَا يُرِدْنَ التَّحَصُّنَ فلأوليائهِنّ أَنْ يُكْرِهُوهُنَّ على البغاء؟

أشكل التعليقُ بهذا الشرط على عموم المفسّرين، واعتَبَرهُ بعضهم من المعضلات، وسلكوا مسالك متعدّدة لتأويل النّصّ بما يتفق مع ما يعلمون من حكم الشرع.

أقول:

إنّ سبب وقوعهم في الإشكال، ولجوئهم إلى التأويلات، أنهم لم يجمعوا بيْنَ ما نزل في سورة (النساء) بشأن زنا الإماء، وما نزل بعد ذلك في سورة (النور) ولم يَنْظُروا إلى النَّصّيْن على أنهما متكاملان، وأن الموضوع قد جُزِّىء عليهما، وفق أسلوب القرآن في تجزئة موضوعاته، وتوزيعها في السّور، وأنَّ علىٰ المتدبّر أن يَتَدَبَّرها متكاملة، يُضَافُ إلى هذا السبب أنّهم لم يتنبّهوا إلى التقسيم المنطقيّ بين النصّين، وأنهما يكوْنانِ معاً قضيّة شرطيّة منفصلة حقيقية، وهي الّتي تكون كما يقول علماء المنطق مانعة الجمع والخلوّ معاً، كقولنا: الإنسانُ إمّا شاكر وإمّا كفور، فإنْ كان شاكراً فمصيره أخيراً إلى الجنة، وإنْ كان كفوراً فليس له مَصِيرٌ إلّا النار.

والمعنى: لا يخلو الإنسان المكلف من واحد من الأمرين: (شاكر ـ كفور) ولا يمكن ان يكون معاً في وقت واحد (شاكراً ـ كفوراً) فالشاكر ولو بكلمة «لاإلّه إلّا الله» سيصير إلى الجنة، ولو عذّب في النار، والكفور المبالغ في كفره لا دار له يوم الدين إلّا النار خالداً مُخلّداً فيها أبداً.

هذه قضية شرطية منفصلة حقيقية، مانعةُ جمع ومانعة خلوّ معاً.

فلنجمع النَّصّيْن: الذي في سورة (النساء) والذي في سورة (النور) ولْنتدبَّرْهُما على أنهما يشتملان على قضيّة شرطيّة منفصلة حقيقية، وأنّ للمقدّم فيها حكماً، وللتالي فيها حكماً.

حينما نقول: العدد: إما زوجٌ (هذا مقدّم) وإمّا فَرْدٌ (هذا تالٍ):

ـ فإن كان زوجاً فهو ينقسم إلى متساويين دون كسر (هذا حكم المقدم).

ـ وإن كان فرداً فهو لا ينقسم إلى متساويين دون كسر (هذا حكم التالي).

على وفق هذا المقياس نعرض النّصّيْن.

(١) الذي في سورة (النساء) حول الإماء:

﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ... ﴿٢٥﴾﴾.

المحصنات: الحرائر.

ونصف ما عليهن من العذاب: هو خمسون جلدة.

(٢) والذي في سورة (النور):

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ... ﴿٣٣﴾﴾.

نضعُ مضمون هـذَيْن النّصين بصيغة قضيّة شرطيّة منفصلة حقيقية، فنقول: الإماء:

(١) إمّا أن يَزْنين باختيارهن دون إكراه، فيأتين الفاحشة بأنفسهنّ.

(٢) وإمّا أن يُكْرَهْنَ مِنْ قِبَلِ أوليائهنّ على الزنا.

أي: لا يخلو أمر زناهُنَّ عن أن يكون باختيارهنّ، أو بإكراه أوليائهنّ لهنّ، ولا يجتمع الأمران معاً، لأنه إن كان باختيارهنّ فلا إكراه، وإن كان بالإكراه فلا اختيار لَهُنَّ.

الحكم:

ـ فإن زنين باختيارهِنَّ فعليهنَّ نصفُ ما على الحرائر من العذاب، وهو جلدهُنَّ خمسين جلدة. وهذا الحكم هو ما جاء بيانه في سورة (النساء).

ـ وإنْ أردن تحصُّناً بطاعة الله لاتّقاء عذابه، وأُكْرِهْنَ على الزنا من قِبَلِ أوليائهنّ فلا يُقامُ عليهن الحدّ لأنّهنَّ معذورات، والله من بعد إكراههنّ غفور لهنّ، رحيم بهن. وهذا الحكم هو ما جاء بيانه في سورة (النور).

فتكامل النّصان، واستوفت القضيّة الشرطيّة المنفصلة كلّ عناصرها، وجاء حكم المقدّم فيها في سورة (النساء) وجاء حكم التالي فيها في سورة (النور) واقتضت الحكمةُ البيانيّةُ إيراد الشرط في سورة (النور) لتوضع القضيّة بكاملها ضمن ميزانها ومقياسها، على أنّها قضيّة شرطيّة منفصلة حقيقية، كما يلي:

ـ إنْ لم يردْنَ تحصُّناً فيُقامُ عليهنّ الحدّ، ولا يوجد حينئذٍ إكراه.

ـ وإن أردن تحصُّناً فلا يقامُ عليهنّ الحدّ، إذْ لا يزنين حينئذٍ إلا بالإكراه.

وأُضيفَ إلى هَذا نهي أوليائهنّ عن إكراههنّ على الزنا.

أليس هذا من روائع هذا الكتاب العجيب وإعجازاته.

هذا ما فتح الله به عليّ هنا، والحمد لله على فتْحه وتوفيقه.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٣﴾:

أي: ومَنْ يُكْرِههُنَّ فعليه إثْمُ إكراهِهنَّ، وهنَّ لا يُقامُ عليهنَّ حدّ زنا الإماء، لأنّهُنَّ أرَدْنَ تَحَصُّناً بطاعة الله، لاتّقاء عذابه، ولم يَفْعَلْنَ ما فعَلْنَ بإراداتِهِنّ، بل أعْلَنَّ رفْضَهُنَّ وَعَدَمَ رَغبتِهِنّ، كما حصل لإحدى إماء عبد الله بن أبَيّ بْنِ سلول.

والجملةُ التي تضمّنت جواب الشرط هذا قد طويت، للعلم بها ممّا تضمَّنَ رفع عقوبة الحدّ عن المكْرَهاتِ من الإماء، وهو قوله تعالى:

﴿فإن الله من بعْدِ إكراههنَّ غَفُورٌ رَحيمٌ﴾ أي: فإنّ الله من بعد إكراه أوليائهنّ لَهُنّ على الزنا غفورٌ لهنّ رَحيمٌ بِهِنّ.

ولم يأت التعبير بعبارة تقتضي رفع المؤاخذة عنهنّ مطلقاً وأنه لا مسؤوليّة عليهنّ، لاحتمال أنْ يكُنّ في حالة المعاشرة يشعُرْنَ بالاستمتاع بالزنا وإنْ كُنَّ كارِهَاتٍ غير راغبات، فهٰذه تحتاج استغفاراً، والله غفور رحيم.

● ● ●

النصّ الرابع والعشرون

من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) أيضاً
السورة (١٦) من التنزيل المدني
الآيات من (٤٧ ـ ٥٤)

حول كذب المنافقين في ادّعائهم الطاعة
ورفضهم التحاكم لله ورسوله

قول الله عزّ وجل:

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ
أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾
وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ
لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ
ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ
إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

* * *

(١)
القراءات المتواترات في هذا النّصّ
(من الفرش وبعض الأداء)

* في الآية (٤٨) والآية (٥١):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة: [لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ] بالبناء للفاعل في الآيتين.

وقرأ أبو جعفر المدني: [لِيُحْكَمَ بَيْنَهُمْ] بالبناء للمفعول في الآيَتَيْن.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني، وتكامل فكري، فقراءة الجمهور تفيد أنّ الدعوة في حياة الرسُول لِيَحْكُمَ الرّسولُ بينهم، وهذا المعنىٰ تفيده أيضاً قراءة أبي جَعْفَر، ولكن بصيغة البناء للمجهول، أمّا قراءة أبي جعفر فتفيد أيضاً أنّ هذه الظاهرة قد تحصلُ بعد حياة الرّسُول ليحكُمَ الحاكم العادل من المسلمين بحُكْم الله ورسوله، أي: بحكم الكتاب والسّنّة.

* في الآية (٥٢):

(١) القرّاء في أداء [وَيَتَّقه] كما يلي:

أولاً: قرأ حفص عن عاصم [وَيَتَّقْهِ] بإسكان القاف واختلاس كسرة الهاء.

ثانياً: وقرأ قالونُ عن نافع، وقرأ يعقوب [وَيَتَّقِهِ] بكسر القاف واختلاس كسرة الهاء.

ثالثاً: وقرأ أبو عمرو وشعبة عن عاصم [وَيَتَّقِهْ] بكسر القاف وإسكان الهاء.

رابعاً: وقرأ ورشٌ عن نافع، وابنُ كثير، وخلفٌ عن حمزة، والكسائيُّ، وخلف العاشر [وَيَتَّقِهِي] بكسر القاف وإشباع كسرة الهاء.

خامساً: وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر، وابنُ جمّاز عن أبي جعفر [وَيَتَّقِهِ ـ وَيَتَّقِهِي] بكسر القاف ولهما في الهاء الكسر مع الاختلاس، ومع الإشباع.

سادساً: وقرأ خلّادٌ عن حمزة، وابنُ وردان عن أبي جعفر: [وَيَتَّقِهْ ـ ويَتَّقِهِي] بكسر القاف ولهما في الهاء الإسكان، والكسر مع الإشباع.

سابعاً: وقرأ هشام عن ابن عامر [وَيَتَّقِهْ ـ وَيَتَّقِهِ ـ وَيَتَّقِهِي] بكسر القاف، وله في الهاء الإسكان، والكسر مع الاختلاس، ومع الإشباع.

وكلُّها وجوه من الأداءِ لا يختلف بها بيان ولا معنى، وهي تخضع للّهجات العربية.

* * *

(٢)
موضوع النصّ وسبب نزوله

موضـوع النـص:

يشتمل هذا النصّ على كشف ثلاث ظواهر من صفات المنافقين:

الظاهرة الأولى: أنّ المنافقين يقولون بألسنتهم: آمنّا بالله، وآمنّا بالرسول، وأطَعْنَا الأوامر والنواهي، ثم لدى التنفيذ لمقتضيات الإيمان وإعلان الطاعة يُدْبِرُون، ويَبْتَعِدون ابتعاداً كلّيّاً عن مواقع الإيمان والطاعة، وجاء التعبير عن هذا بأنَّهُمْ يَتَوَلَّوْنَ، أي: يُدْبِرُونَ وينأَوْنَ.

الظّاهرة الثانية: أنّه إذا وقعت خصومة بين أحد المنافقين وبين شخص آخر، ودُعي المنافق إلى حكْم الله ورسوله، فإنْ كان يعلَمُ أنّ الحقّ لخصمه أعْرَض متجاهلاً متغافلاً متحايلاً، وإنْ كان يعلَمُ أنّ الحقّ له، فإنّه يأتي متظاهراً بالإذعان والاستسلام لحكم الله والرسول، ليحكم له الرسول، أو ليحكُمَ له الحاكم المسلم العادل من بعده.

الظّاهرة الثالثة: أنّ بعض المنافقين أقسموا بالله للرسول قَسَماً مُشدّداً مؤكّداً بكلّ وسائل التأكيد، قائلين له: لَئِنْ أمرتنا بأن نخرج إلى القتال في سبيل الله، أو بأن نخرج من أموالنا وأهلينا لنَخْرُجَنّ طاعةً لك، وإيماناً واحتساباً.

ولدى التطبيق العملي ينكشف أنّهم كانوا كاذبين.

واشتمل هذا النصّ أيضاً على تعليقات ربّانيّة على هذه الظواهر، وعلى بعض معالجات تربويّة، اقتضاها الموقف عند نزول النصّ.

سبب النـزول:

(١) روى عبد بن حميد، وابْنُ المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، قال في الآية (٤٧) من هذا النص:

«أناسٌ من المنافقين أظهروا الإيمان والطاعة، وهم في ذلك يَصُدُّونَ عن سبيل الله وطاعته وجهادٍ مع رسوله ﷺ».

(٢) ورَوَوْا أيضاً عن الحسن قال: في الآيات (٤٨ ـ ٤٩ ـ ٥٠):

«إنَّ الرَّجُلَ كان يكون بينه وبين الرجل خصومة أومُنازعة على عهد رسول الله ﷺ، فإذا دُعِي إلى النبيّ ﷺ وهو محقٌّ أذعن وعلم أن النبي سيقضي له بالحقّ، وإذا أراد أن يَظْلِمَ فدُعي إلى النبيّ أعرض، وقال: انطلق إلى فلان، فأنزل الله سبحانه: ﴿وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله...﴾ إلى قوله: ﴿هم الظالمون﴾، فقال رسول الله ﷺ: «من كان بينه وبين أخيه شيء فدعاه إلى حَكَمٍ من حُكّام المسلمين فلم يُجِبْ فهو ظالم لا حقَّ له».

قال ابن كثير: وهذا حديث غريب وهو مُرْسل.

أي: فهو ظالم إذْ لم يُجِبْ الدعوة إلى حَكَمٍ يقضي بينهما من حُكَّام المسلمين الذين يحكمون بكتاب الله وسنَّة رسُوله، ويدلُّ عملُه هذا عَلَىٰ أنّه يخشىٰ أن يحكم بينهما بالحقّ وهو لا حقَّ له، بل الحقّ لخصمه.

فَرَفْضُ التَّحاكُمِ إلى كتاب الله وسنة رسوله أمارةٌ ظاهرة على أنّ الرافض لا حقّ له، فهو يُريدُ أن يتحاكم إلى غير حُكْم كتاب الله وسنّة رسوله، عسَىٰ أن يجد في أحكام الناس حُكْماً بالباطل ينفعه، وهذا ظاهر في معاملات كثير من الناس اليوم، إذا رأى أحدهم أنه هو صاحب الحق طلب التحاكم إلى الشرع، لأنّ الشرع يُنْصِفُه، وإذا رأى غير ذلك طلب أن يَحْكُم القانون بينه وبين خصمه، في المحاكم التي تحكم بمقتضى القوانين الوضعيّة البشرية، وهذه صفة من صفات المنافقين.

(٣) وروى ابن مردويه عن ابن عبّاس قال:

«أتَىٰ قَوْمٌ النبيّ ﷺ فقالوا: يا رسول الله، لو أمرتنا أن نخرج من أموالنا لخرجنا، فأنزل الله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أيمانهم...﴾ الآية...».

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في هذه الآية قال: «ذلك في شأن الجهاد».

* * *

(٣)
المفردات اللّغوية في النصّ

﴿وَأَطَعْنَا﴾.

أي: خَضَعْنا واتَّبَعْنَا مُنْقَادين بحسب ما يُطْلَبُ منا.

يقال لغة: أطاعَ يُطيع رَبَّهُ إطاعةً وطاعةً إذا خضع له وانقاد، ويقال طاع الولَدُ أباه طاعةً، وطاع له، أي: لانَ وانقاد له، ويأتي المصدر أيضاً طَوْعاً وَطواعية.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى﴾:

أي: ثُمَّ يُدْبر وينأىٰ مبتعداً، فالتولّي يدلّ على الإدبار، ويدلّ على النأي، وقد يجتمعُ الإدبار والنأي، وقد يكون النأي بدون إدبار.

﴿مُّعْرِضُونَ﴾:

الإعراض منزلة وسطىٰ بين الإقبال والإدبار، وأصْلُ الإعراض إعطاء الجانب. فَعُرْضُ الشَّيْءِ في اللّغة جانبه، وعارضا الإنسان صَفْحتا خدّيه.

﴿مُذْعِنِينَ﴾:

أي: مُنْقادين، يقال لغة: أَذْعَنَ فُلانٌ، إذا انقاد وأطاع. ويقال: ذَعِنَ يَذْعَنُ ذَعَناً، إذا خضع وذلّ. وأذْعَنَ بالْحَقِّ، إذا أَقَرَّ به واعترف.

﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾:

أي: بل أَخذَتْ الارتيابُ ـ وهو الشّك ـ لذيْهم؟

﴿أَن يَحِيفَ﴾:

أي: أن يَجُور ويَظْلِم، يقال لغة: حافَ عليه يَحِيفُ حَيْفاً، أي: جار وظلم. ويقال: حافَ الأبُ، إذا فَضَّل بعض أولاده على بعض في العطاء، فهو حائف.

﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾:

أي: غايَةَ ما لديهم من أيمانٍ مؤكّدة مشدَّدة، جَهْدُ الشيء في اللّغة يأتي بمعنىٰ نهايته وغايته، وبمعنى وُسْعِه وطاقته، ويأتي الْجَهْدُ بمعنىٰ الْمَشَقَّة.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾:

أي: فإنْ تتولَّوا مُدبرين ونائين.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾:

أي: فليس على الرسول إلّا ما كُلِّفَ حَمْلَهُ من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، وليس عليكم إلّا ما كُلِّفْتُمْ حَمْلَه.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾:

الْبَلاغُ والتَّبليغ والإِبْلاغُ، بمعنىٰ إيصال الشيءِ إلىٰ الموضع الذي هو له، فإبلاغ الأقوال أو المعاني يكون بإيصالها إلى من يُطْلَبُ إيصالُها إليه. والمعنىٰ: وما على الرسول من واجب تجاه أمّته في موضوع رسالته إلّا أن يُبَلِّغَهُمْ ما كلّفَهُ الله تَبْليغَهُ بصورة مُبيِّنَةٍ واضحة.

* * *

(٤)
مع النصّ في التحليل والتدبُّر

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾.

تكْشِفُ هذه الآية حالَ فريقٍ من المسلمين الذين يُعْلِنُون قائلين بألسنتهم: آمَنّا باللّهِ وبالرَّسُولِ وأطَعْنا، كما يَقُولُ سائر المسلمين، لكنَّ هذا القول يقتضي تحقيقَ مُقْتَضاهُ بالعمل، ليكون دالًّا بصِدْقٍ على ما في القلب من إيمانٍ وعزْمٍ علىٰ الطاعَة.

ثُمَّ يَمْضِي زمنٌ متراخٍ على هذا القول، ويُمْتَحَنُ هذا الفريقُ بالتكاليف التي

تُوَجِّهُ عـادةً لمن صَدَقَ في إيمـانه، وصـدق في إعلانـه عزمـه على الطاعـة، كالجهـاد بالأموال والأنفس، وكالدَّعوة إلى تطْبيقِ حُكْمِ كتابِ الله وسُنَّةِ رَسُوله في الْخُصُـومات، لإقامة الحقِّ والْعَدْلَ، إذا بهذا الفريق يَكْشِفُ حقيقةَ ما في باطنه، ويدلُّ بعمله وسلوكه على أنّه قد كان في إعلانه ما أعلنه بلسانه كاذباً، غيْرَ صَادق.

دلَّ على هذا قوله تعالى:

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾.

فـدلَّت كلمـة ﴿ثُمَّ﴾ على الـزمن المتراخي الـذي يَفْصِـلُ بين القـولِ الْمُعْلَن، والفعل المخالف له.

ودَلَّت كلمة ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾ علَىٰ أن هـذا الفريق يُـدْبِر عن التـطبيق وَينأَى، ولا يكتفي بمجرّد الإعراض، والتحايُل بالمراوغة.

ودلّت عبـارةُ ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ على أنّ الإعـلان يكـون عـادةً من قِبَـلِ جمـع من المسلمين، فيهم المؤمنون والمنافقون، ومن هم بين الفريقين، لكِنَّ الَّذين يَتَوَلَّـوْن هم فريقٌ من المشاركين في إعلان القول، لا جميعُهم.

ودلّت عبـارة ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ على شَنَاعَـةِ التَّبَايُن بيْنَ قـولهم السابق، وعَمَلِهِمُ اللاّحق، فالْمُشَارُ إليه بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو قولهم ضمْنَ القائلين:

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾.

فليست عبارة ﴿من بعد ذلك﴾ إطناباً، بل جيء بهـا لغرض، هـو إبراز شنـاعة التباين بين القول والعمل.

ونلاحظ أنّ عبارة الإعلان لم يُكْتَفَ فيها بعـطف ﴿الرسـول﴾ على لفظ الجلالـة دون إعادة حرف الجرّ [الباء] بـل أُعيد حـرف الجرّ، وفي هـذا إشارة إلى لـزوم فصل عناصر الإيمان لدى إعلان الإسلام بما يجعل كلُّ عُنْصرٍ مرتبطاً بكلمـة الإيمان ارتبـاطاً مباشراً.

وأبان الله عزّ وجلّ أنّ الذين يكشفون بالتـطبيق العملي أنّ أعمالهم مُبـايِنَةٌ مُبـايَنَةً كُلِّيَّةً لأقْوَالِهم لَيْسُوا بمؤمنين، فقال تعالى:

﴿ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾:

أي: ومَا أولَئِكَ الْبُعَداءُ إلى جِهةِ السُّفْلِ بالمؤمنين، وجاء في هذه العبارة تأكيد نفي إيمانهم بحرف الجرّ الزائد «الباء» سواءٌ أعْمَلْنا «ما» على رأي البصريين إعمال ليس، تبعاً للغة الحجازين، أو لم نُعْمِلْها على رأي الكوفيين تبعاً لِلُغَةِ التّميمِيّين.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

في هذه الآيات كشفٌ لحال فريق آخر من أصحاب الإعلان العام، هُمْ أخفُّ سُوءاً من الفريق السّابق.

الفريق السابق يَتولَّوْنَ مُـدْبِرينَ ونـائين، أمَّا أفـراد هذا الفـريق فحالُهم وَسَطٌ بين الإقْبَال والإدبار، إنّهم إذا كانت بينَ أحدهم وبين شخص آخر خصومـة على حقٍّ، فإنْ كان الحق لخصْمِه ودُعِيَ إلى الرسول في عَهْدِ الرَّسُول، أو إلى الحاكم المسلم الذي يحكم بكتـاب الله وسُنَّةِ رَسُولِه في عَهْـدِه أو مِنْ بَعْدِه، يكـونُ مُعْرِضاً يُعْطِي عـارضَـةُ ويتظاهر بالتجاهل والتغافُل، ويَتحايل، دون أن يُعْلِنَ صراحةً رَفْضَهُ. وإنْ كان الحقّ له أتَى مُنْقاداً مُذعناً مظهـراً استسلامـه لحكْم كتاب الله وسنّـة رسولـه، ومعلناً غَيْـرَتَهُ على تطبيق شريعة الله.

ولم يَدْمَغِ الله هـذا الفريق بعـدَمِ الإيمان جَزْماً، بـل طرح بـالنسبة إليـه ثلاثـة احتمـالات أوردها على سبيـل الاستفهام التقريري الـذي يتضمّن معنى الإنكار عليهم ما هم فيه.

الاحتمـال الأول: أن يكـون في قلوبهم مَرَضٌ قـريبٌ من مـرض النفـاق، منـذُ شارَكوا في إعلان الإيمان والطاعة، حتّى بَدَتْ منهم هذه الظاهرة، دلّ عليه:

﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾.

الاحتمال الثاني: أنْ يكونوا قد طرأ عليهم الشَّكُّ بما كانوا قَدْ آمَنُوا بـه سابقاً، وهو شكٌّ لم يصل إلى مستوى الكفر، وركوب مركب النفاق، حَتَّىٰ بـدَتْ منهم هذه الظاهرة، دلّ عليه:

﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾.

أي: بل أرتابوا؟، بمعنى: أطرأ عليهم الرّيب وهو الشك بعد أن كانوا مؤمنين حين شاركوا في إعلان الإيمان والطاعة؟.

الاحتمال الثالث:

﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾:

أي: بل أَهُمْ يخافون أن يَجُورَ اللّهُ عليهم ورسُولُه في الحكم، بمعنى: أيخافون أن تكون قواعد الحكم الشرعي في كتاب الله وسنّة رسُولِهِ قواعِدَ لا تَضْمَنُ إقامَةَ الْحَقّ والعدل بيْنَ الْخُصُوم، على تَقْدِيرِ أنّ الدّينَ يَفْرِضُ طاعَةَ حُكْمِ اللّهِ وَرَسُولِهِ تعبُّداً ولَوْ كانت أحكاماً جائرةً.

لكِنَّ هذا التصوُّرَ مَرْفُوضٌ حتماً فَحُكْمُ اللّهِ في كتابه، وحُكْمُ الرّسُولِ في سنّتِه قائمان على الحقّ والعدل، والنصوص الإسلامية تأمُرُ بهما دواماً بَدْءاً من الرسول، فكلّ حكّام المسلمين وقضاتهم، وهذا أمْرٌ اتفقت عليه الأديان الرّبّانيّة كلُّها، ومما أُنْزِل في هذا قول الله عزّ وجل لداود كما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

بعد طرح هذه الاحتمالات التي يَنْحصِرُ إعْراضُ هذا الفريق عن حُكْم الله ورسوله بأن يكون سبَبُهُ واحداً مِنْها، وصَفَهُمُ الله عزّ وجلّ بأنّهم هُمُ الظّالِمُون في هَذا الْمَجالِ بَعْدَ أولَئِكَ الكَفَرَةِ المنافقين، فقال تعالى:

﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿بل﴾: للإضراب الانتقالي.

﴿أولئك﴾: إشارة إلى هذا الفريق باسم الإشارة الموضوع للبعيد، للدلالة على بُعْدِهم عن صراط الله، وبُعْدِهم عن الالتزام بتطبيق مقتضى ما أعلنوا من إيمان وطاعة.

﴿هم﴾: ضمير فصل لتأكيد الحصر.

﴿الظّالمون﴾: أي: الآخذون من صفات الظلم بمخالفة مقتضيات الإيمان والطّاعة ما يجعلهم مُتميّزين، كأنهم وحدهم هم الظالمون، والقصْرُ هُنا من قبيل القصر الإضافيّ، أي: هُمْ وَحْدَهُمْ أشدّ الظالمين من جماعة المسلمين، بالإضافة إلى سائر الظالمين في موضوع الحكم بما أنزل الله في قضايا الحقوق بين الناس، إنْ لم يكونوا قد وصلوا إلى دركة الكفر ورُكُوبِ مَرْكَب النّفاق حقّاً، فإن وصلوا إلى هذه الدّرَكَة فهم مع أفراد الفريق الأوّل، وهذا أمرٌ يُفْهَمُ ذهْناً.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

في مقابل ما يفعل الفريق الأول الذين ليسوا بمؤمنين، إذْ يُدْبِرُون وينأوْنَ عن تطبيق مقتضيات إعلان الإيمان والطاعة، ومَا يَفْعَلُ الفريق الثاني الظالمون الّذين يتَرَدّدُ حالهم بين أن يكونوا مرضَى القلوب ابتداءً، أو طرأ عليهم الرّيب، أو يخافون أن يجور الله عليهم ورسوله في الحكم، يُبيّنُ الله عزّ وجلّ في هاتين الآيتين موقف المؤمنين الصادقين في إيمانهم وفي إعلانهم الطاعةَ لله ورسوله، إذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكُمَ بيْنَهُمْ، أي: إذا دُعوا للحكم في خصوماتهم بكتاب الله وسنّة رسوله.

إنّ موقف المؤمنين الصادقين مُنْحصِرٌ في أنْ يَقُولُوا: سَمِعْنَا وأطَعْنَا، أي: سَمِعْنا القولَ، فلَمْ تَكُنْ قُلُوبنا وأفكارنا شاردةً عنه غيْرَ واعيَةٍ لمضمونه، وأَطَعْنَا ما تَضمَّنَه من أوامر ونواهيَ وتكاليف، فنحن نستجيب لتحكيم كتاب الله وسنَّةِ رَسُوله، ونَقْبَلُ بما

يَصْـدُرُ من حُكْم وَلَوْ كـان علينا، وضـدّ هوانـا، لأنّنا نؤمنُ أن الحكم بكتـاب الله وسنّة رسُوله يضمن الحقّ لأهله، ولا يَجُورُ عليهم.

وصـارت عبارة: «سَمِعْنـا وَأَطَعْنَا» في الاستعمـال الـدينيّ دالـةً على الاستجابـة التطبيقيّة العمليّة للتكاليف الشرعية، وليست دالّة على مجرّد القـول، لأنَّ إتّبَاع الـدعوة إلى ممارسة العمل المطلوب بعبارة «سَمِعْنا وأطَعْنَـا» يقتضي في العرف المتّبـع مباشـرةَ التّنفيذ، أو البدء باتّخاذ الأسباب اللاّزمة له، دون تسويف ولا مراوغة.

وَوَعَـدَ اللّهُ عز وجـلّ هؤلاء المؤمنين الصـادقين في إعـلانهم الإيمـان والـطاعة بالفلاح، وهو الظفر بالسعادة الخالدة في جنات النعيم يوم الدين، فقال تعالى بشأنهم:

﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥١ ﴾.

يقال لغة: فَلَحَ، وأَفْلَحَ، أي: ظفر بما يريد، وفاز بنعيم الآخرة.

وبعد بيان حال المؤمنين الصّادقين في هذه الجزئية من جزئيّاتِ السُّلوك الديني، أتْبَعَهُ اللّهُ عزّ وجلّ ببيان شاملٍ في قضيّة كُلّيَةٍ تَعُمُّ كُلَّ جزئيّـات السلوك الدّينيّ في كـلّ المجالّات فقال تعالى:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾.

[مَنْ]: اسم شرط جازم يشمَلُ عموم العقلاء المكلّفين.

فالآيَة تشتمل على قضيّة كليّة شرطيّة متصلة موجبـة، وهي تتألّف كمـا هو معلوم من شرطٍ وَجزاء.

أمّا الشرط فيها فقد جمع ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: طاعةُ الله ورسوله، وهو عنصرٌ سلوكي في المؤمن، دل عليه قوله تعالى:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾.

العنصر الثاني: خشية اللّهِ عَزّ وجلّ، وهو عنصر قَلْبِيٌّ ونفسيّ، يتَدَفَّقُ دَوامـاً من منابع الإيمـان، وليَسْتِ الخشيةُ من الله مجرّد خوف ورهبـة، بل هي خـوفٌ مصحوبٌ

بإجلال وتعظيم وحبّ، وقد دلّ على هذا العنصر قوله تعالى:

﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾.

العنصر الثالث: تقوىٰ الله، وهو العنصر الوسيط بين الخشية القلبية النفسية، وبين سُلُوك الطاعة، فالتقوىٰ هي التحرّك لاتخاذ الوقاية من العقاب، وقد دلّ على هذا العنصر قوله تعالى:

﴿وَيَتَّقْهِ﴾.

الخشية: انفعالٌ داخليٌّ يُحدِثُه صِدْقُ الإيمان، وعن الخشية تتحرّك الإرادة لاتخاذ الوقاية من عقاب الله، وأثر التقوى في السلوك يكون بطاعة الله ورسوله.

فالنصّ أبانَ أوّلاً الأثر الظاهر، وبعده أبان الباعث من الداخل، وأخيراً أبان الواسطة بينهما، وفي هذا إتْقانٌ في الترتيب عجيب، وقد جمعت هذه العناصر الثلاث كلّ ما يلزم للشرط بعد صدق الإيمان الذي جاء بيانه في الآية السابقة.

وأمّا الجزاء لِمَنْ تحقّق فيهم هذا الشرط فقد جاء في قوله تعالى:

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

أي: فأولئك هم الذين انحصر فيهم كمال الفوز يوم الدين، **الفوز**: هو الظفر، والنجاةُ من الشرّ، والرّبحُ العظيم.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ كَشْفٌ لظاهِرَةٍ ثالِثَةٍ مِنْ ظواهر نفاق المنافقين، مع التوجيه الرّبانيّ لمعالجتها بما تستدعي من تربية حكيمة هنا، إضافةً إلى ما جاء من وسائل تربويّةٍ فيما سبق من نصوص مُنَزَّلة في نجوم التنزيل.

هذه الظاهرة تبدو من المنافقين (ويكفي أن تظهر من بعضهم أحياناً) هي أن يتظاهروا بإعلان حماستهم الشديدة لطاعة الرسول حتّى في مجال بذل أموالهم وأنفسهم جهاداً في سبيل الله، إنْ وجّه الرسول ﷺ لهم الأمر بذلك.

إنّ من المجرّب في سلوك الناس أنّ من بالَغ في أقواله الحماسيّة حالة الرخاء، قبل وقت الامتحان الفعلي، كان أكثر الناس تخاذلاً، ومعصيةً، وتَوَلِّياً لدىٰ الدّعوة إلى تطبيق ما كان يبالغ في التّحمُّسِ له، وكان أكثرهم فراراً عند الشدّة، والمطالبة بالتنفيذ العملي لبذل النفس أو المال.

والسبب في ذلك أنّه في حالة الرخاء يريدُ أن يكون ذا مكانة متفوقة بين الجماعة، بما يتظاهر بالحماسة له، انسجاماً مع مقتضيات النفاق، أمّا عند التطبيق العمليّ فإنه لا بدّ أن ينسجم مع ما يؤمن به، وما يؤمن به مخالف لما يتظاهر به، بل هو على النقيض منه تماماً.

وقد عرض الله عزّ وجلّ هذه الظاهرة على سبيل الحكاية لأمر كان من بعضهم، فقال تعالى خطاباً لرسوله:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾.

لم يكتفوا بأن يَعِدُوا الرسول بالطاعة إنْ أمرهم أن يخرجوا للقتال، أو يخرجوا من أموالهم، بل قدّموا هذا الوعد موثّقاً بأَبْلَغ الأيمان وأشدّها، فأَقْسَموا بالله من مستوى غاية ما لديهم من ألفاظٍ قَسَميّةٍ يُقْسِمُون بها، والمُقْسَمُ عليه قولُهم للرسول: لَئِنْ أمرتنا بأنْ نخرج للقتال، أو بأن نخرج من أموالنا وأهلينا لنَخْرُجَنّ.

القَسَمُ المشدّد، واللّام المؤكِّدة، ونونُ التوكيد الثقيلة، كلُّ هذه المؤكّدات وَثَّقوا بها وَعْدَهم، لكنّهم عند التطبيق لا يفعلون شيئاً، وتذهب وعُودُهُمْ مع أقوالهم الذاهبات لا أثر لها في واقعهم العملي، كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

جَهْدَ أيمانهم: صفة لمفعول مطلق محذوف، أي: وأقسموا بالله قسماً جَهْدَ أيمانهم، أي: موصوفاً بأنه غاية أيمانهم.

وعقب بيان هذه الظاهرة من صفات المنافقين، علّم الله رسوله فكلُّ قائد

للمسلمين من بَعْدِه، أن يقول لمَنْ يُقْسِمون مثل هذا القسم أربع جمل مُسْكِتَة، وكاشفة، ومحذِّرة، وهادية، فقال تعالى:

﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٥٣ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾.

أرْبَعُ جُمَل جَمَعَتْ ما يحتاجه الموقف من توجيهٍ وتربية:

الجملة الأولى:

﴿لَّا تُقْسِمُوا۟﴾:

أي: لا تتظاهر ساعةَ الأمن والرخاء بإعْلان حماستكم الشديدة في الالتزام بطاعتكم للرَّسُول حتى في أشدّ أوامره على نفوسكم، وهو الأمر بأن تخرجوا من أموالكم أو تخرجوا للقتال باذلين نفوسكم، فهذا التظاهر لا يرفع منزلتكم عند الرسول، وليس له أثر نافع لكم عند الله، لأنّ أمركم سينكشف قريباً حينما تُدْعَوْنَ فعلاً للخروج عن بعض أموالكم، أو الخروج مقاتلين في سبيل الله.

ومعلومٌ في طبائع الناس أنّ الصادق الذي يُريد أن يفعل حقّاً، يدَّخِرُ حَمَاسَتَهُ لساعةِ العمل التّنفيذي، ولا يُطْلِقُها صوتاً يصْرُخ في الفضاء، في ساعاتِ الأمن والرّخاء، وتقديمِ الوعود بالأقوال التي ليس وراءها تنفيذ مباشر.

الجملة الثانية:

﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾.

هذه الجملة تعطي عدَّةَ دلالات صالحة في هذا المقام لأن تُقْصَد:

الأولى: المطلوب منكم طاعةٌ عمليّةٌ فعليّة دواماً عند الأوامر والنواهي، وأن تكون هذه الطاعةُ معروفةً ظاهرةً بالتّطبيق، لا أنْ تكون مزعومةً مُدَّعاةً ادّعاءً غير مَشْهُودِ الأثر، كالذي يغيب عن الأنظار ويقولُ فعلتُ وفَعَلْتُ.

إذا دُعيتُمْ لبذل المال فابذلُوا، وعندئذٍ يكون بذلكم طاعةً معروفةً بأنها طاعةٌ للأمر.

وإذا دُعيتُم للخروج مجاهدين في سبيل الله فاخرجوا، وقاتلوا في سبيل الله مع المؤمنين، وعندئذٍ يكون خروجُكُم طاعةً معروفة بأنّها طاعةٌ للأمر.

وهكذا إلى سائر الأوامر والنواهي.

الثانية: طاعةٌ تَعِدُونَ بها قبل أوانها معروفةٌ لنا بأنّها طاعةٌ كاذبة، فلا تُتعِبُوا أنفسكم في التظاهر بالْوَعْد بها، وفي تقديم الْقَسَمِ المشدّد على حِرْصِكُمْ على الالتزام بها، وأنتم كاذبون.

إنّ هذا الكذب لا يجعلكم في نظرنا محلّ ثقة، ولا يُقَرِّبُكُمْ من قلوبنا ونفوسنا، حتّى نتّخِذَ منكم بطانةً تُسْتشارُ في الأمور المهمّة من أمور المسلمين العامّة، إنّكُمْ مكْشُوفُون مَعْروفُون بصفاتكم.

الثالثة: طاعةٌ عمليّةٌ معروفة ظاهرةٌ عند التطبيق خيرٌ لكم وأولى لاكتساب الثّقَةِ بكم، واغتنام مرضاة ربّكم وثوابه، من الوعود بالطاعة الموثّقةِ بالأيمان المغلّظة، وهذه الوعود إذا لم تفوا بها جرّتْ عليكم وبالاً، وجَلَبَتْ لكم نكالاً.

الجملة الثالثة:
﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾:

أي: إنّ الله يُتابعكم بعلمه، المستند إلى خبرته بأعمالكم التي تصْدُرُ عنكم من أعمالٍ باطنة، وأعمال ظاهرة، إيجابيّةٍ أو سلبيّة، فلا تخفى عليه من أعمالكم التي تعملونها خافية.

ومن أعمالكم الباطنة عزمُكُمْ في قلوبكم على عدم الوفاء بوعودكم، حالة كونكم تقدّمونَهَا بحماسة ظاهرة، وتُوَثّقُونها بالأيمان المغلظة، من مستوى جَهْدِ الأيمان.

ومن أعمالكم ما تكيدونَهُ سرّاً ضدّ الإسلام والمسلمين، وما تتركون من فُروضٍ وواجبات دينيّة حينما تشعرون بأنّكُمْ غيرُ مراقَبِينَ من المسلمين، وما ترتكبون من محرّمات ومحظورات في السّرّ، إلى غير ذلك من كلّ عَملٍ يَصْدُر عنكم.

فلا تحسَبُوا أنّ مخادعتكم بأقوالكم مخادعةٌ غَيْرُ مُتابعة بالمراقبة والعلم القائم على الخبْرَةِ بما جَرَىٰ ويَجْري منكم.

وبما أنّ الله خبيرٌ بما تعملون فإنّه سيُحْبِطُ أعمالكم التي تعملونها ضدّ دينه

ورسوله والمؤمنين حقاً، وسَيُجَازيكم على كفركم ونفاقكم بما أنتم له أهلٌ، من جزاء بالعدل، عقاباً لكم على كفركم ونفاقكم ومعاصيكم.

الجملة الرابعة:

﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾.

هذه الجملة تكشف أنهم كاذبون في ادّعاء الطاعة حالاً، والعزم عليها مستقبلاً، بسبب أنّهم منافقون.

فمن النُّصح لهم أن يُجَدَّد لهم توجيهُ التكليف بأن يطيعوا الله ورسوله، ليخرجوا من واقع العصيان الذي هم عليه، إلى مواقع الإيمان الصادق، والتزام صراط الله المستقيم.

بعد هذا خاطبهم الله بقوله:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿تَوَلَّوْا۟﴾: أصْلُها تتولّوا.

أي: فإنْ تتولَّوا مُدْبرين نائين عن طاعة الرسول، غيْرَ مُنفِّذين ما يجب عليكم تُجاهه، فإنّكُمْ لا تضُرُّونه أمام ربِّه بشيء، بل تَضُرُّون أنْفُسكم، لأنكم بعدم طاعتكم له تَضِلُّون، خارجين عن صراط الله المستقيم، فتُعَرِّضُون انفسكم لعقوبة ربكم بضلالكم.

- ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾:

أي: فَمَا على الرَّسُول من مَسْؤُولِيّة تُجاه ربِّه إلاّ ما كُلِّفَ حَمْلَه، والْعَمَلَ به، وتنْفِيذَهُ بنفسه من قول أو فِعْلٍ ظاهرٍ أوْ باطن، وليس هو مُلزماً بأن تُطيعوه، حتّى إذا لم تفعلوا كان مؤاخذاً على ذلك عند ربّه.

- ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾:

أي: ومَا عليكم من مسؤوليّةٍ تجاه ربكم إلاّ ما كُلِّفْتُمْ حَمْلَهُ، والْعَمَلَ به، وتنفيذَه

بأنفسكم من قول أو فِعْلٍ ظاهرٍ أو باطِنٍ، ومن ذلك أن تطيعوا رسُولَ ربكم فيما يأمركم به وفيما ينهاكم عنه، فإن عصيتم وتولَّيْتُمْ فأنتم الّذين تحملون أوزاركم بأنفسكم، ثم تحاسَبُون وتعاقبون عليها عند ربكم.

واسْتُفِيدَ الحصر في هذه الجملة من كونها معطوفة وتابعةً في الحصر للجملة السابقة لها: ﴿فإنّما عليه ما حُمِّل﴾.

ـ ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾:

أي: وإنْ تطيعوا رسول ربّكم تَهْتَدوا إلى ما فيه سعادتكم وفلاحكم وفوزكم في الدنيا وفي الآخرة.

ودلّ جواب الشرط في هذه الجملة [تَهْتَدُوا] على أن مُقَابِلَهُ في الجملة الأولى مطويٌّ، والتقدير فإن تَتَوَلَّوْا عاصين له تَضِلُّوا، وإن تُطيعوه تهتَدُوا.

ويُقدَّرُ هُنا مُقَابِلُ ما صُرِّح به في الجملة الأولى، أي: وإنَّما لَهُ مَا فعَلَ من خير، ولكم ما فعلْتُم من خير.

ـ ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾:

أي: ليس على الرسول من تكاليفَ يُسْأَلُ عنها عند ربِّه بالنِّسْبَةِ إلى قومه في شأن الرِّسالة الّتي حُمِّلَها، إلاّ أن يُوصِلَ إلى قومه ما أمرَهُ ربُّه بأن يُوصِلَهُ إليهم، وأن يكون ذلك بطريقة واضحة بَيِّنَةٍ صريحةٍ لا غُموض فيها، وهذا التوصيل الواضح البيِّن الصريح، هو البلاغ المبين.

ويُفْهَمُ من هذا أنّ الرّسول ليس مسؤولاً عن تحويل قومه من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، وليس مطالباً بأن يُكْرِه الناس على سلوك الصراط المستقيم إذا أبَوْا ورفضوا سلوكه، ولم يستجيبوا لدعوة رسول ربّهم، إذْ خُطَّة الامتحان الرّباني قائمة على اختبار الناس في أن يؤمنوا ويسلكوا صراط الله المستقيم، عن طريق إراداتهم الحرَّة، لا بالإلزام والإجبار.

أقول هنا: إنّ على الدعاة إلى الله والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أن يضعوا هذا المعنى نصْب أعينهم دواماً، حتى لاتضيق صدورهم إذا لم يستجب لهم الناس.

● ● ●

النصّ الخامس والعشرون

من سورة (النور / ٢٤ مصحف / ١٠٢ نزول) أيضاً
«السورة (١٦) من التنزيل المدني»
الآيات من (٦٢ ــ ٦٤)
حول تسلّل المنافقين من المجامع العامّة
بدون إذن وسوء أدبهم في خطاب الرسول

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟
حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ
لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾
لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ
مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾
أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم
بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

* * *

(١)
ما في هذا النصّ من القراءات المتواترة (من الفرش)

* في الآية (٦٤) مِنْه:

(١) قرأ جمهور القرّاء [وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إليه] بالبناء للمفعول.

وقرأ يعقوب [وَيَوْمَ يَرْجِعُونَ إِلَيْه] بالبناء للفاعل.

فبين القراءتين تكامل في الأداء البياني، وذلك لأنّ الله يُرْجِعُهم إليه يوم الدين للحساب وفصل القضاء والجزاء، فيُطَاوِعُونَ بالجبر فيَرْجِعُون.

* * *

(٢)

موضوع النّص وسبب نزوله

موضوع النص:

يشتمل هذا النصّ على كشف ظاهرتين من صِفَاتِ المنافقين:

الظاهرة الأولى: أنهم إذا حضروا المجامع العامّة ذاتَ الأهميّة العظيمة لـلإسلام والمسلمين، ضاقَتْ صُدُورهم، وثَقُلَ عَلَيْهم أنْ يَتَصَنَّعُوا الصَّبْرَ علىٰ ما يَجْري فيها مِمَّا لا يؤمنون به ولا يجدواه، وصعُبَ عليهم أن يحْبِسُوا أنفسهم مع المؤمنين طوال مدّة الاجتماع، ولا سيما إذا كانت فيه واجبات عَمَلِيّة يُضطرّون أن يشاركوا فيها، وهم لا يُريدون أن يكْشِفوا أنفسهم عن طريق الاستئذان بالانصراف، لقضاء بعض شؤونهم، لأنّ مدّة الغياب ستكون محسوبةً عليهم، ولأنّ كثرةَ تهرُّبِهم من مشاركة المسلمين في أمرهم قد تكشف نفاقهم.

لذلِكَ فَهُمْ يَتسلَّلُون مستخفين خروجاً، وغِياباً، وعودةً إنْ رجَعُوا، دون استئذان من الرّسول، أو من قائد المسلمين في الْمَجْمع العامّ.

فأبان الله عزّ وجلّ أن المؤمنين الصادقين إذا كانوا مع الرسول (أو مع قائدٍ منهم قياساً) على أمْرٍ جامع لا يذهبون لبعض شأنهم حتى يستأذنوه، ولا يفعلون ذلك إلّا مضطرّين، أو عند الحاجة الشديدة.

وألمح إلى أنّ الذين يذهبون متسلّلين دون استئذان هم من أهل النفاق، فنهاهم وحذّرهم من العقاب.

الظاهرة الثانية: سوء أدبِ المنافقين لدى مخاطبتهم للرسول، بسبب أنّهم

لا يؤمنـون به نبيّاً رسولاً، فهم لا يُكِنّـون له الحبّ والاحتـرام والتوقيـر والتعظيم، فهُمْ بالتّلقائيّة العاديّة التي لا يتصنّعُونَ فيهـا يُخاطِبُونه ويَـدْعُونـه كما يُخـاطِبُ بعضُ الناس بعضاً، وكَمَا يَدْعُو بعضُ النّاس بعضاً.

بخلاف المؤمن الصادق الإيمان الذي يُكِنُّ في صـدره للرُّسُول الحبَّ والاحترامَ وَالإجلال، فإنّه بالتّلْقائيَّةِ العـاديّة لا يستـطيع إلاّ أن يَـدْعُوَ الـرسول ويُخـاطبَه بـأسْلُوبٍ مشْبَعٍ بالحبّ والتعظيم والاحترام والتوقير والإجلال.

وكذلك الحالُ بالنسبة إلى القائد من قادة المسلمين قياساً فـالمؤمن يحترم قـائده المسلم بدافع إيماني، فيخاطِبُهُ بما يليق به، وغيرُ المؤمن لا يكترث له، فيستهين بـه، ويُخَاطبه كما يخاطب غيره من الناس الذين ليس لهم مكانة ولا سلطان.

فنهىٰ الله عـزَّ وجلّ عن خـطاب الرّسـول بمثـل خـطاب النـاس بعضهـم لبعض، وجعل هذا النهي ضِمْنَ الكـلام عن الظاهـرة الأولى التي تكون في المجـامع العـامّة، للإشعار بأهميّة مراعاة الأدب مع الرسول أو مع قائد المسلمين في الدُّعاء والخطاب في المجامع العـامة، التي ينبغي أن تُـراعىٰ فيها آدابُ احتـرام أفرادِ الجمهـور لقائـدهم، محافظةً على مقتضيات الطّاعَة والانقياد والضبط والنظام، بخلاف حـالات المباسـطات العامّة واللّقاءات العاديّة، الّتي لا يكون فيها الالْتِقَاء على أمْرٍ جامع ذي أهميّة لـلإسلام والمسلمين، كاجتماعٍ لأمور الدفاع، أو الإعداد لقتال العدو، أو الدعوة لبـذل الأموال، أو المشورة في أمر عامٍ، وكالمجـامع الـدينيّة العـامة لصـلاة الجمعة وصـلاة العيدين، ونحو ذلك.

وتُعْرَف هذه الاجتماعات في لغة عصرنا بأنها اجتماعات رسميّة.

سبـب النـزول:

(١) أورد ابن إسحـاق أنّ الرسـول ﷺ لمّا بلغـه خبـر مـا أجمعت عليـه قـريش ومعهم الأحزاب من قبائـل العرب من أمـر قتال الـرسول والمسلمين في المـدينة، أمـر بحفر الخندق لمنع جيش المشركين من اقتحامها.

وعمـل الـرسـول في حفـر الخنـدق تـرغيبـاً للمسلمين في الأجـر، وعمـل معـه المسلمون فيه، فدأب فيه ودأبوا.

وجعل يتباطأ رجالٌ من المنافقين في العمل، ويُوَرُّون بالضعيف من الأعمال تظاهراً حتى لا ينكشف نفاقهم، وكانوا يتسلّلون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن.

أمّا الرِّجُلُ من المؤمنين الصادقين فكان إذا انتابته النائبة من الحاجة الّتي لا بدّ له منها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ، ويستأذنه في اللّحوق بحاجته، فيأذَنُ له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من علمه، رغبةً في الخير، واحتساباً له.

فأنزل الله تعالى الآيات من سورة (النور):

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ ...﴾

[الآيات: ٦٢، ٦٣، ٦٤].

وأخرج نحو هذا ابن المنذر والبيهقي في دلائل النبوّة.

(٢) وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في الآيات قال: هي في الجهاد والجمعة والعيدين.

(٣) وأخرج أبو داود في مراسيله عن مقاتل، قال: كان لا يخرج أحد لرعافٍ أو أحداث حتّى يستأذن النبي ﷺ يشير إليه بأصبعه التي تلي الإبهام، فيأذن له النبيّ يشير إليه بيده، وكان من المنافقين من يثقل عليه الخطبة والجلوس في المسجد، فكان إذا استأذن رجلٌ من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج، فأنزل الله:

﴿الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾.

* * *

(٣)
المفردات اللّغوية في النصّ

﴿عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾: أي: على أمرٍ ما من أمور العلم أو العبادة أو أمور المسلمين العامة من قضايا السِّلْم أو الحرب، وهذا الأمر من شأنه أن يكون جامعاً للمسلمين.

﴿يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾:

أي: يطلبون أن تأذن لهم، الإذن: إباحة القيام بما هو ممنوع منه.

﴿ يَتَسَلَّلُونَ ﴾:

أي: يَذْهَبُون في خُفْيَة، دون أن يُحدِثوا جلبةً أو صوتاً يدلُّ عليهم، أو حركةً ظاهرة تَلْفِت الأنظار، يقالُ: تَسَلَّل في الظلام، وتسَلَّل من الزحام، بمعنى انْسَلَّ في خُفْيَة، كما تُسَلُّ الشعرةُ من العجين.

﴿ لِوَاذًا ﴾:

مصدَرُ «لاَوَذَ» بمعنى استتر، وحاد، وراوغ. فالذين يتَسلَّلونَ لِواذاً، هم الذين يذهبون في خُفْيَةٍ، مستترين بشيء يستُرُهُمْ عن نظر الرّسول، أو رئيس الاجتماع الذي هم فيه، حائدين، مراوغين، حتّى لا يُحَاسِبَهُمْ على انصرافهم عن الاجتماع بغير إذنه.

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾:

أي: فلْيَحْذَر الّذين يعْصُون مُعْرِضين عن أمر الرسول، أو مُدْبرين أو صادّين.

يقال لغة: خالَفَهُ: إذا عصاه، فالتعدية بحرف الجرّ «عن» على تضمين فعل «خالف» معنى فِعْلٍ: «أعرض، أو أدبر، أو صدّ».

﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾:

تُطْلَق الفتنة على التعذيب بالنار، وعلى ذهاب المال والعقل بمصيبة، وعلى إزالة الإنسان عما كان عليه من أمرٍ محمود العاقبة إلى أمر مكروه العاقبة، وعلى بلبلة الأفكار واضطرابها وتعارُضها في المجتمع، إضافة إلى أصل معناها وهو الاختبار بما هو شاقٌ على النفس.

ونظراً إلى مقابلة الفتنة هُنَا بالعذاب الأليم، ينبغي أن نستبعد من معاني الفتنة هنا معنى التعذيب والاختبار، فتكون بمعنى التحويل إلى ما يكرهون، جزاءَ مخالفتهم وتحوّلهم عن مقتضيات الطاعة، وبمعنى وقوع الخلاف والبلبلة بين مجتمعهم الخاص الذي يجتمع أفراده على النفاق، جزاء ما يكون منهم من خلخلة صفوف المسلمين،

وإحداث الخلاف داخل مجتمعهم القائم على وحدة القيادة والغاية والدين، وبمعنى إصابة أفرادهم المخالفين بمصائب إفرادية تذهب بها أموالهم، أو تطيش بها أحلامهم، وكلّ هذه العقوبات مطروحة في الاحتمال والله يختار منها ما يشاء، لمن يشاء، على ما يشاء.

﴿قَدْ يَعْلَمُ﴾:

«قَدْ» من معانيها التحقيق، وهي بهذا المعنى تدخل على الفعل الماضي والفعل المضارع، فتقول: «قَدْ عَلِمَ» بمعنى تحقق علمه فيما مضى. و «قَدْ يَعْلَمُ» بمعنى يَتَحَقَّقُ علمه في الحال والمستقبل.

* * *

(٤)

مع النصّ في التدبُّر

* قول الله عز وجلّ:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

تمهيداً لكشف سلوك المنافقين في المجامع الإسلامية العامّة، بقيادة الرّسُول، ثُمّ بقيادة أيّ قائد من قادة المسلمين من بَعْده، وهي المجامع التي تُعْقَد للتعليم والتوجيه، أو لإقامة العبادات الجماعية كصلاة الجمعة، وصلاة العيدين، وخطبتيهما، أو للمشاورة، أو للعمل في مصالح المسلمين العامّة، سواء أكانت للسّلم أو للحرب.

يُبيّن الله عزّ وجلّ في هذه الآية النموذج الكامل لسلوك المؤمنين الصادقين العاملين بمقتضى إيمانهم، الملتزمين بأحكام الإسلام وآدابه، ونظامه، والمهتمين بمصالح المسلمين العامّة.

فيبيّن الله عزّ وجلّ على سبيل الحصر بعبارة «إنّما» أنّ المؤمنينَ حقًّا في مثل هذه المجامع الإسلاميّة العامّة هم:

أولاً: الّذِينَ آمَنُوا باللّهِ ورسوله، وهذه هي القاعدة الإيمانية الأساسية في الدّين، فلا بدّ من ملاحظتها دواماً، بوصْفِهَا أوّل الشروط.

ثانياً: وإذا كانوا مع الرسول بوصفه قائد المسلمين، أو مع قائد من قادة المسلمين من أولي الأمر منهم، مجتمعين على أمْرٍ جامع، أي: له صفة الأمر الذي يجمع المسلمين، لِمَا لَهُ من أهميّة للإسلام أو للمسلمين، لم يذْهَبُوا من الاجتماع بأنفسهم، مُتخلّين عن مسؤولياتهم، ومُخِلّين فيه بواجب الحضور والمشاركة، وبواجب الالتزام بالنظام الجماعي، لكنْ إذا عرضت لأحدهم ضرورة، أو حاجة شديدة، استأذن الرسول في أن يفارق الاجتماع لقضاء شأنه، أو يستأذن قائد الاجتماع ورئيسه.

وينظر الرسول أو قائد الاجتماع في طبيعة شأن المستأذن، فيأذن له إن شاء، وذلك إذا رأى الشأن يستدعي انصرافه من الاجتماع، لأجل أو لغير أجل. وقد لا يأذن له إن شاء، وذلك إذا رأى الشأن لا يستدعي انصرافه من الاجتماع، فالمشيئة ليست تصرفاً بالْهَوَى، بل هي تصرُّف رشيد مستندٌ إلى تقدير المصلحة الخاصة والعامة.

وهذه هي القاعدة النظاميّة التي يجب التزامُها في المجامع العامة الإسلامية، فالمؤمنون الصادقون في إيمانهم يلتزمون بها، ولا يُخِلُّون بواجباتها.

ولبيان وجوب الالتزام بهذه القاعدة النظاميّة أبان الله عزّ وجل أنّ الالتزام بها من صفات الذين يؤمنون بالله ورسوله مرّتين:

الأولى: بقوله تعالى في صدر الآية بأسلوب الحصر في وصف المؤمنين:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾.

أي: ما المؤمنون الصادقون العاملون بمقتضى إيمانهم إلّا الذينَ آمَنُوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه مجتمعين على أمْرٍ مُهِمّ من أمور المسلمين جامع لهم، لم يذهبوا حتى يستأذنوه، فإن أذن لهم ذهبوا، وإن لم يأذن لهم أطاعوا ولم يذهبوا.

الثانية: بقوله تعالى في وصف المسْتأذنين الذين لا ينصرفون من المجامع العامة للمسلمين وهي قائمة إلّا بإذنٍ من قائدها أو رئيسها، خطاباً لرسوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾.

فأبان بهذا قضيتين:

القضية الأولى: أنّ الاستئذان في مثل هذه المجامع العامة هو من مقتضيات الإيمان، فمن كان صادق الإيمان التزم به، طاعةً لله ورسوله، ومن أبدى التزامه به أشعر بأنّه صادقُ الإيمان حسَنُ الطاعة.

القضية الثانية: الإلماحُ إلى أنّ الّذين لا يستأذنون، بل يَتَسَلَّلُونَ مُسْتَخْفين قد يُشْعِرُ عَمَلُهم بأنّهم من أهل النفاق، لا مُجَرَّدُ عصاة لما يجب عليهم في الدين، وذٰلِكَ لأهميّة المجامع العامّة في المجتمع الإسلاميّ لعموم المسلمين، والإخلال بها بعد انعقادها أمرٌ يسمح بتوجيه الشكوك حول أصل الولاء لـلأمة الإسلاميّة، وهُنا تتّجه الظنون للاتّهام بالنفاق.

ونظراً إلى احْتمال أنْ يكُون بعضُ المستأذنين ليسوا أصحاب عُذْرٍ حقيقيّ يقتضي الإذن لهم بمغادرة الاجتماع، قال الله لرسوله:

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٢﴾:

أي: واطلب من الله أنْ يَغْفِرَ لَهُم، لاحتمال أن يكون استئذانُهم لا يستحقُّ الإذن، وقد رأيْتَ أن تأذن لهم.

وجاء الإلماح إلى أن الله سيغفر لهم، ببيان صِفَتَيْن عظيمتين من صفاته، بجملة خبريّة استئنافية مؤكّدة ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿غفور﴾: صيغة مبالغة لغافر، أي: كثير الستر لذنوب عباده، وعظيمهُ.

﴿رحيم﴾: صيغة مبالغة لراحم، أي: واسع الرحمة وجَليلُها وعظيمها.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ ...﴾.

عقب بيان سلوك المؤمنين الصادقين في إيمانهم، الملتزمين بمقتضاه في المجالس الإسلامية العامّة.

نهى الله عزّ وجلّ عن مخاطبة الرسول ومناداته كما يخاطب الناس بعضُهُمْ بعضاً، بأسمائهم دون تكريم، أو بصياح يدلُّ على عدم التوقير والاحترام.

ونفهم من جعل الله هذا النهي بين أمرين مترابطين يتعلقان بآداب المجامع العامّة، ونظامِ مغادرتها بالإذن، ومخالفة هذا النظام بالانصراف عنها تَسَلُّلاً، ضرورةَ مراعاةِ أدب الخطاب بالاحترام والتوقيرِ للرسول في المجالس العامة، محافظةً علىٰ هيْبَةِ القائد، التي بها يكون الأفراد المجتمعون مُصْغِين مُنْصِتين، مشاركين بحواسّهم وقلوبهم، لا يسمحون للفوضى أن تتسلّل إلى اجتماعهم.

فَيُخَاطَبُ الرسولُ بلَقَبِه، يا رَسول الله، يا نبيَّ الله، وبصوتٍ ليس فيه خشونَةٌ ولا غلظةٌ ولاَ صِياحٌ، ويكون خطابه عند الحاجةِ الماسّة، للسؤال عن أمر، أو تقديم مشورة أو رأي أو خبر أو نحو ذلك.

ويقاسُ على الرسول قائِدُ الاجتماع أو رئيسه، فيخاطَبُ بلقبه، مثل: «يا أمير المؤمنين ـ يا خَلِيفَةَ رسول الله ـ أيّها القائد ـ أيُّها الزعيم ـ أيها الرئيس» ونحو ذلك من عبارات تتطلَّبها آداب المجلس.

دُعَاء: أي: نداء، يقال لغة: دعا الرَّجُلَ يَدْعُوهُ دعْواً، ودَعْوَةً، ودُعاءً، ودَعْوَىٰ، إذا ناداه وصَاحَ به.

أمّا في غير المجالس العامّة فَيُسْتَحْسَنُ التزام هذا الأدب، وإنْ كان التكليف به يخفّ، ولا سيما في مجالس المباسطات والمؤانسات.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

بعْدَ أن وصَفَ اللَّهُ تعالى سُلُوكَ المؤمنين الصادقين في إيمانهم، الملتزمين بمقتضياته في المجالس الإسلامية العامّة، أبان الله سلوك المخالفين لأدب هذه المجالس، بالتَّسَلُّل منها دون استئذان، وقد جاء هذا البيانُ بتأكيد تحقُّق علم الله بما

يكون من هؤلاء المتسلّلين، وبأنّهم مَهما تسلّلوا مُسْتَخْفِين فإنَّ اللّهَ يعْلَمُ ما يفْعلُون، ثمّ يُجازيهم بحسب أعمالهم، فقال تعالى:

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾:

أي: إنَّ اللّهَ يَعْلَمُ حالَ هؤلاء الّذين يُغادرون المجالس الإسلامية العامّة مُتَسَلّلين باستخفاءٍ في تَسَتُّرٍ ومراوغةٍ دون استئذانٍ من الرسول، أو من قادة هذه المجالس العامة.

وبما أنّ الآية الأولى من هذا النصّ دلّت على أنّ الله قد أمَر المؤمنين بعدم الانصراف من هذه المجالس قبل انتهائها، إلا بالإذن من قائدها، بمقتضى أنَّ من لوازم صدقِ الإيمان والتزامِ الطاعة عدمَ مغادرتها إلاّ بالإذن، قال الله تعالى:

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

فحذَّر مِنَ العقوبة الشديدة المخالفين العصاة الذين يتسلّلون منها بغير إذْنٍ، باعتبار أنّ الأمر للوجوب من درجةٍ يستحقّ معها المخالف العقوبة، فترتيب العقاب يدُلُّ على أن الأمر التكليفيّ أمْرٌ إلزاميٌّ مُشدَّدٌ، وليس من الواجبات الدنيا، أو ما هو قريبٌ منها.

والعقاب الذي حذّر الله منه قد جعله الله متردّداً بين أمْرَيْن:

الأول: أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ في أنفسهم أو أموالهم تضطرب فيها أحوالهم، ويتعكّر فيها نظام حياتهم.

الثاني: أن يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

ويظهر لي أن مقدار العقوبة ونوعها ممّا يناسبُ أحوال المخالفين، إذ قد يكون منهم مؤمنون عصاة، وقد يكون منهم من هم ضعفاء الإيمان، وقد يكون منهم منافقون، وهؤلاء أشدّهم، وهم الذين يستحقّونَ العذاب الأليم، والله أعلم.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

هٰذِهِ آيَةُ الْخِتامِ لِهٰذا النَّصّ، وهِيَ تَشْتَمِلُ بمُناسَبَةِ مَا جاء فيهِ على كُلِّيّاتٍ عَامَّةٍ مِنْ كُلِّيّاتِ الدِّين، أي: ومَا جاء في هـذا النصّ إنما هِيَ جزئيّاتٌ تنطبق عَلَيْها هـٰذِهِ الكليات العامّة كما تنطبق على غيرها.

الكليّة الأولى:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

أي: انْتَبِهوا ـ فـ ﴿أَلَآ﴾ أداة استفتاح للتنبيه ـ إنّ لِلّه جَميعَ ما في السَّماوَاتِ العظيمات السوابغات وجَميعَ مَا في الأرض، بكلّ أشيائها وأحيائها المكلّفةِ وغير المكلّفة، فهو مَالِكُها ومَلِكُها، ونواصي كلّ شيء فيها بيده يُصرّفها كيف يشاء بالإيجاد والإعدام والتغيير والتبديل والتحويل وغير ذلك.

والمقصود هنا بمناسبة ما جاء من تكاليف في النصّ وفي سورة (النور) كلّها، أنّ الله ليس بحاجة إلى إيمان من يؤمن، ولا إلى صالح عَمَلِ من يعمل صالحاً، ولا إلى طاعة من يطيع، وأنّ الله لا يضُرّه كُفْرُ من يكفُر، ولا سوء عمل من يعمل سيئاً، ولا معصيةُ من يعصي. وليس بحاجة إلى من ينصُرُ له دينه ورسوله، ولا يضُرُّهُ مَنْ يَخذُلُهما، فكلُّ ما في السماوات وما في الأرض مِلْكُه، يتصرّف فيه كيف يشاء، ولكن حكمته سبحانه أن يمتحن المكلفين في الحياة بالأوامر والنواهي، ليحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم، طبق ما يكشفه الابتلاء من أحوالهم، الخاضعة لعلمه الشامل، الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحاط بها وأحصاها، وكتَبها في صحائف الأعمال المخصصة لتسجيل أعمال المكلفين.

الكليّة الثانية:

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾:

أي: تأكّدوا وكونوا على يَقين بأنّ اللّهَ يَعْلَمُ لَحْظَةً بَعْدَ لحظة مَا أَنْتُمْ عليه من كلّ ذَوَاتكم وصِفَاتِكُمْ وأحْوالكم من خير أو شر، من صالح عملٍ أو سيّئه.

هـذا بيـان عن علمـه سبحـانـه بمـا هـو كـائن في الحـال مع كـلّ اللّحظاتِ المتجـدّدات، وفي نصـوص أخـرى جـاء بيـان أنـه يَعْلَمُ كـلَّ مـا سيكـون من أحـداث مستقبلاً، وأنّه يعلم كلَّ ما كان في الماضي، فهو سبحانه وتعالى عليم بكـلّ الماضي، وكلّ الحال، وكلّ المستقبل.

والمقصـود هنا التـذكيرُ بـأنّه سبحـانه عليم بكـلّ ما عليـه عبـاده، أي: فلْيُعِدُّوا أنفسهم للجزاء المعجّل، ثم لِلْحِسَاب وفَصْلِ القضاء والْجَزاء المؤجّل إلى يوم الدين.

الكليّـة الثالثـة:

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾:

أي: ويومئذٍ يُحَاسِبُهُمْ ويُجَازيهم على أعمالهم، فجُزْء الجملة المذكور دلّ على جزئها المحذوف، مع ما سبق العلم به من أحداث يوم الدين.

وفي بيان هذه الكليَّة تذكيرٌ بركن اليوم الآخر من أركان الإيمان، ومـا يتضمن من وعْدٍ ووعيد.

الكليّـة الرابعـة:

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وفي ذكر هذه الكليّةِ ثَناءٌ على الله بصفةِ علمه المحيط بكـلّ شيء، مع التـذكير بهـذه الصفة الجليلة من صفـاته تبـارك وتعالى، لتـرسيخ الإيمـان بها، وإحضـارها في النفس، لتكُونَ باعثاً على خشية الله، والعمل بمراضيه، لاتقاء عذابه، والظفر بثوابه في الدُّنْيا والآخرة.

• • •

النصّ السادس والعشرون

وهو سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول)

(السورة (١٨) من التنزيل المدني)

حول بيان حقيقة المنافقين وبعض صفاتهم
الظاهرة والباطنة وبعض مواقفهم والتحذير منهم

* قال الله عزّ وجل:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ
إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا
رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ
عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ
اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ
أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ
يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا
الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ

رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

* * *

(١)

ما في هذه السورة من القراءات المتواترة

(من الفرش وشيء من الأداء)

* في الآية (٤):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة [خُشُبٌ] بِضَمِّ الشين.

وقرأ أبو عمرو البصري، والكسائي الكوفي وقُنْبل عن ابن كثير المكي [خُشْبٌ] بإسكان الشين.

وهما لغتان عربيتان.

* في الآية (٥):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة [لَوَّوْا] بِتَشْدِيد الواو الأولى.

وقرأ نافع المدني، وَرَوْح عن يعقوب البصري [لَوَوْا] بتخفيف الواو الأولى.

وفي القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد فقراءة [لَوَّوْا] بالتشديد تدلُّ على أنَّ قسماً من المنافقين يُبَالغون في لَيِّ رؤوسهم بإمالتها وإدارتها تعبيراً عن الرفض، وأن قسماً آخَرَ منهم يلْوُونَ رؤوسهم بصفةٍ عاديّة لا مبالغة فيها، وذلك بحسب حالتهم النفسية، ومقدار كفرهم ونفاقهم.

* في الآية (١٠):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة [وأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ] بجزم [أكُنْ] على أنه جواب الطلب.

وقرأ أبو عمرو البصري [وَأَكُونَ من الصّالحين] بنَصْب [أكُونَ] عطفاً على فعل [فَأَصَّدَقَ].

والقراءتان وجهان عربيان من وجوه الإعراب.

* في الآية (١١):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة [يُؤَخِّرَ] بهمزة مفتوحة بعد الياء.

وأبدل أبو جعفر المدني وورش عن نافع المدني الهمزة واواً في الوصل والوقف.

وأبدلها حمزة واواً في الوقف فقط. ورقّق ورش الراء.

وهذه القراءات وجوه من الأداء تتبع اللّهجات العربيّة.

(٢) قرأ جمهور القرّاء [واللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ] بتاء الخطاب.

وقرأ شعبة عن عاصم [بما يَعْمَلُونَ] بياء الغيبة.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني.

* * *

(٢)
موضوع السورة وسبب نزولها

موضوع السورة:

تتحدث السورة عن كذب المنافقين في ادّعائهم للرسول ﷺ بأنّهم مؤمنون به، وكذبهم إذْ يحلفون الأيمان ليستروا بها نفاقهم، وليستروا بها عدم التزامهم بسلوك سبيل الله كلّما ابتعدوا عن أعين الرقباء من المؤمنين، إعراضاً أو إدباراً أو ابتعاداً عنه، وليستروا بها ما هم عليه من عدم توجيه اهتمامهم لفَهْم البيانات التي تبصّرهم بسبيل الله، مع بيان سبب ذلك.

وتصف حال فئة من المنافقين في عصر الرسول ﷺ، ذوي الأجسام التي تعجب من رآها، والأقوال المنمّقة التي تجذب لاستماعها فإذا حَضَرُوا مجالِسَ العلم والذكر مع المؤمنين اختاروا لأنفسهم الأماكن التي يُسْنِدون إليها ظهورهم كالجُذُوع والسَّواري، لأنّها مريحةٌ لهم، وذات وَجَاهة، لكنّهم لا يَعُونَ ممّا يُقَال في هذه

المجالس من علم وذكر شيئاً، لانصراف أذهانهم وقلوبهم، فهُمْ كالْخُشُبِ المسنّدةِ قاماتُها على الْجُدُر لئلا تسقط، وهذا دليلٌ على أنّهم كالنّائمين ظاهراً أو باطناً.

وتَصِفُ حالتَهُمُ النفسيّة بأنّهم خائفون حذرون دواماً، يخشون أن ينكشف أمرهم فيؤخَذُوا ويعاقبوا على كذبهم ونفاقهم وخياناتهم، ولشدَّةِ حذَرِهم وترقُّبهم افتضاحَ أمرهم يحسَبُونَ كُلَّ صيْحَةٍ تحذيرِ مُريبةٍ صيحَةً عَلَيْهِمْ، وأنَّهُمْ هُمُ المقصودون بها، وذلك بسبب أنهم في الباطن أعداءٌ حقيقيون، إلاَّ أنَّهم مُسْتخفون مُتَستِّرون.

ويحذِّرُ اللّهُ الرسولَ وكُلَّ مؤمنٍ منهم، ويبيّن أنّهم هم أشدّ الأعداء وألَدُّهم عداءً للإسلام والمسلمين، وأنّهم جديرون بأن يقاتلهم الله، إذْ لم يأذن للمؤمنين بأن يقاتلوهم ما داموا يسترون كفرهم وعداءهم، ويُظْهِرون إسلامهم وولاءهم.

وأبانت السورة من مواقفهم التي تدلُّ على كفرهم في الباطن، أنّهم إذا ارتكَبُوا ذنباً من الكبائر التي تمسُّ الرسول أو جماعة المؤمنين، أو الإسلام، ودعَاهُمْ بعض المؤمنين إلى الرسول ليعتذروا ويطلُبُوا منه أن يستغْفِر لهم الله أعلنوا الرفض بأن يَلْوُوا رؤوسهم، وبان يُحْجموا بأجسادهم، بسبب أنهم مستكبرون في صدورهم وغير مؤمنين.

وأبانت من مواقفهم دعوتهم المسلمين من قومهم من الأنصار أن لا يُنْفِقُوا على الذين يجلسون في مجالس الرسول حتى يَنْفضُوا عنه ويفارقوا مجلسه، وغرضُهُمْ من ذلك أن لا تكون له بهم قوة، وأن لا تكون له جماهير محيطةٌ به دواماً.

وأبانت من مواقفهم ما كان من عبد الله بن أبي بن سلول في غزوة بني المصطلق إذ قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعَزُّ منّا الأذلّ يعني أنّه هو الأعزّ الأقوى والرسول والمهاجِرُون من مكة إلى المدينة هم الأذلّون.

واشتملت السورة على توجيه توصيات ونصائح للمؤمنين تتعلّق بما جاء في السورة عن المنافقين.

سبب النزول:

(١) غزا الرسول ﷺ بني الْمُصْطَلِق من خُزاعَة في شعبان من سنة خَمْسٍ للهجرة، إذْ بَلَغَهُ أنّهم يَجْمَعُون جُموعهم ويُعِدّون لقتال المسلمين في المدينة.

والتقى الجمعان على ماء لبني الْمُصْطَلِقِ اسْمُهُ «الْمُرَيْسِيع» فسمّيت هذه الغزوة بهذا الاسم أيضاً، كما سمّيت غزوة بني المصْطَلِق.

وانتصر المسلمون وهزم الله بني المصطلق، وما غنمه المسلمون فيها وزّعه الرسول ﷺ بينهم من أموال ونساء وأبناء.

وممّا جرى في هذه الغزوة على ما روى ابن إسحاق، أنّ المسلمين لمّا كانوا عند ماء «الْمُرَيْسِيع» وردت واردة الناس، ومع عُمَر بن الخطاب أجير له من بني غفار، يقال له: جَهْجَاهُ بن مسعود، يقود فرسَه.

فازدحم على الماء جَهْجَاهُ أجيرُ عُمَر بن الخطاب، وسِنانُ بن وبَر الْجُهَني حليفُ بني عوف بن الخزرج، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جَهْجَاهُ يا معشر المهاجرين.

فبلَغَ الخبرُ «عبدَ الله بنَ أُبَيّ بن سَلُول» وعنده رهط من قومه الخزرجيين، وفيهم زيدُ بن أرقم غلامٌ حدَثُ السِّنّ، فقال ابن سلول:

«أَوَ قَدْ فَعَلُوها؟ قد نافَرُونا[١]، وكاثَرُونَا[٢] في بلادنا، والله ما أعدُّنا وجَلاَبِيبَ قُرَيْش[٣] إلّا كما قال الأوّل: سَمِّنْ كلْبَكَ يأكُلْكَ، أما والله لَئِنْ رجَعْنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ مِنْهَا الأذَلَّ».

---

(١) نافرونا: أي: افتخروا علينا بكثرة نفرهم وغلبونا بها.

(٢) وكاثرونا: وغلبونا بكثرة عَدَدهم.

(٣) جلابيب قريش: لقبٌ أطلقه المشركون على من كان أسلم من قريش وهاجر، لأنهم كانوا فقراء، ويلبسون الجلابيب، وهي أُزُر وأردية قليلة الثمن، الجلباب: يُطْلَق على الملاءة الساترة من الرأس إلى القدمين، ويطلق على الإزار والرداء في اللّغة، والجمع جلابيب، وإطلاق الجلابيب على الناس كناية.

ثمّ أقْبَلَ على من حضره من قومه، فقال لهم: «هذا ما فعلْتُمْ بأنْفُسِكُمْ، أحْلَلْتُموهُمْ بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أمَا والله لو أمْسَكْتُمْ عنهم ما بأيديكُمْ لَتحوَّلوا إلى غير دَاركم».

فأبلغ الغلام «زَيْدُ بن أرقم» ما سمع إلى رسول الله ﷺ بعد أن انتهت الغزوة، وكان عنده عُمَرُ بن الخطاب، فقال عُمَر: مُرْ بِهِ عبَّادَ بْنَ بِشْرٍ فلْيقْتُلْهُ.

فقال رسول الله ﷺ: فكيف يا عُمر إذا تحدَّث النَّاسُ أنَّ محمَّداً يقتل أصحابه؟! لَا ولكِنْ أذِّنْ بالرَّحيل، وذلك في ساعةٍ لم يكن يَرْتَحِلُ فيها.

فارتحل الناس.

وعَلِمَ عبد الله بن أُبَي بن سلول، أن «زيد بن أرقم» أبلغ الرسول ﷺ بما قال، فجاء إليه فحلف له بالله: ما قُلْتُ ما قال زيدٌ عنّي، ولا تكلّمت به.

فقال من كان عند رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسَى أن يكون الغلام قد أوْهَمَ في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرَّجُل، حدَباً على ابن سلول ودفعاً عنه.

ولقيَ «أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ» رسُولَ الله ﷺ في مَسِيرِهِ، فحيّاه بتحيَّةِ النُّبوّة، وسلَّم عليه، ثُمَّ قال:

يا نبيّ الله، واللّهِ لَقَدْ رُحْتَ في ساعةٍ مُنْكَرَةٍ، ما كُنْتَ تَرُوحُ في مِثْلِهَا.

فقال له رسول الله ﷺ:

«أَوَ مَا بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكُمْ؟».

قال أُسَيد: وأيُّ صاحبٍ يَا رسول الله؟.

قال: عبد الله بنُ أُبَيّ.

قال أُسَيد: وَمَا قال؟

قال: «زَعَمَ أَنَّهُ إِنْ رَجَعَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ».

قال أُسَيْد: فأنتَ يا رَسول الله تُخرِجُـهُ منها إنْ شئت، هـو واللهِ الذليـلُ وأنتَ العزيز.

ثم قال أسيد: يا رسُولَ الله، ارفُق بـه، فوالله لقـد جاءنـا الله بِكَ، وَإنَّ قَـوْمَه لَيَنْظِمُون له الخرَز لِيُتَوِّجُوه، فإنّه يَرىٰ أنَّكَ قد استلَبْتَه مُلْكاً.

ثمّ مشى الرسول بـالمسلمين يومَهُمْ ذَلِـكَ حَتّىٰ أَمْسَىٰ، وليلَتَهُم حتّىٰ أَصْبَح، وصَدْرَ يومهم ذلكَ حتّى آذتْهُمُ الشّمس، ثمّ نزل بالناس، فلم يَلْبَثُـوا أَنْ وَجَدُوا مَسّ الأرْض فوقَعُوا نِياماً.

وإنّما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أُبَـيّ بـن سلول.

ثم راحَ رسول الله بالناس فهبَّتْ على الناس ريحٌ شديـدةٌ آذَتْهم، وتَخَوَّفُـوها، فقال الرسول:

«لَا تخافُوها، فإنَّما هبَّتْ لمَوْتِ عَظِيمٍ مِنْ عُظماء الكفّار».

فلمّا قدموا المدينة بلغهم أنّ اليهوديَّ «رِفَـاعَةَ بْنَ زَيْـدِ بن التابـوت» أحَدَ بَني قَيْنُقَاع، قد مات، وكانَ عـظيماً من عـظماء اليهـود، وكهفاً للمنـافقين قبل أن يُجْلِيَ الرسول بني قينُقاع عن المدينة.

ونزلت السورة التي ذكـر الله فيها المنـافقين، في عبد الله بن أبـي بـن سلول، ومن كـان على مثل أمـره، فلمّا نـزلت أخذ رسـول الله ﷺ بـأُذُنِ «زَيْـدِ بنِ أَرْقَم» ثمّ قال:

«هَذَا الَّذِي أَوْفَى اللَّهُ بِأُذُنِهِ».

أي: صدَّقَ اللَّهُ مَا سَمِعَتْ أُذُنُهُ من عبد الله بن أُبَـيّ بـن سلول.

وبَلَغَ عبْدَ الله بْنَ عَبْدِ اللّهِ بن أُبَـيّ بـن سلول الَـذي كان من أمـر أبيه. وكـان رجُلًا مؤمناً صادقاً، فأتَى رسولَ الله ﷺ فقال له:

يا رسول الله، إنَّهُ بلغني أنَّكَ تُريدُ قَتْل عبْدِ اللّهِ بْنِ أُبَـيٍّ فيما بَلَغَكَ عنْـهُ، فإنْ

كنْتَ لا بُدَّ فاعِلاً، فمُرْنِي بِهِ، فَأَنَا أحمِلُ إِلَيْكَ رَأسَهُ، فواللّهِ لقد عَلمتِ الْخَزْرَجُ مَا كان لَهَا من رَجُلٍ أَبَرُّ بوالِدِهِ مِنّي، وَإِنّي أَخْشَى أَنْ تأمُرَ بِهِ غَيْرِي فيقتُله، فلا تَدَعني نَفْسِي أنْظُرُ إِلَى قَاتِلِ عبد اللّهِ بن أُبيّ يَمْشِي في الناس، فأقتلَه، فأقْتُلَ رَجُلاً مُؤْمِناً بكَافر، فأدخُل النار.

فقال رسول الله ﷺ:

«بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ، ونُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنا».

أمّا عبد الله بن أبي بن سلول، فكان بعد ذلك إذا أحدث الحدث الذي يسوء الرسول والمسلمين، كان قومُه هم الذين يُعاتِبُونه ويَأخُذُونَهُ وَيُعَنِّفُونَه.

فقال رسول الله ﷺ لعُمَر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنه:

«كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ؟!. أمَا وَاللّهِ لَوْ قَتَلْتُهُ يَوْمَ قُلْتَ لي: اقْتُلْهُ، لأرْعِدَتْ لَهُ آنُفٌ، لَوْ أَمَرْتُهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ».

قال عُمَر: قد والله علمتُ لأَمْرُ رسُولِ الله ﷺ أعْظَمُ بَرَكَةً مِنْ أَمْرِي.

(٢) وروى البيهقي بسنده عن جابر بن عبد الله، قال: كُنّا مع رسول الله ﷺ في غزاةٍ، فَكَسَعَ[1] رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجرين رجُلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا لَلأنْصَر، وقال المهاجريّ: يا للمُهاجِرين.

فقال الرسول ﷺ:

«مَا بَالُ دَعْوَى الجاهلية؟!. دَعُوها فإنَّها مُنْتِنَةٌ».

وقال عبدُ اللّهِ بنُ أبي بن سلول: وَقَد فَعَلُوها؟!. واللّهِ لَئِنْ رَجَعْنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ.

قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قَدِمَ رسول الله ﷺ، ثُمَّ كَثُرَ المهاجِرُونَ بَعْدَ ذَلِكَ.

فقال عمر: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هذا المنافق.

(١) فكَسَعَ: أي: ضرَبَ دُبُرَهُ بصَدرِ قدمِهِ، أو بيده، أو بغير ذلك.

فقال النبيُّ ﷺ: «دَعْهُ، لا يَتحدثِ الناس أنّ مُحمّداً يَقْتُلُ أصْحَابَهُ».

ونظير ما جاء عند البيهقي، روى الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة، وكذلك عند البخاري ومسلم.

وتوجد روايات أخرىٰ مشابهة تدلُّ على أن سورة (المنافقون) نزلت بمناسبة ما جرىٰ من المنافقين من أحداث أشارت إليها آيات السورة، وما تحدثت عنه هذه الروايات هو من هذه الأحداث، والله أعلم.

(٣) وروى الإمام أحمد بسنده عن «زيد بن أرقم» قال:

خرجتُ مع عمّي في غزاة، فسمعتُ عبد الله بن أُبيّ بن سلول يقول لأصحابه: لا تنفقوا على مَنْ عنْد رسول الله، ولَئِنْ رجَعْنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْها الأذَلّ، فذكرتُ ذلك لعَمّي، فذكره عمّي لرسول الله ﷺ، فأرسلَ إليَّ رسُولُ الله ﷺ، فحَدَّثْته، فأرسل إلى عبد الله بن أبي بن سلول، وأصحابه، فحلَفُوا بالله ما قالوا، فكذّبني رسول الله وصدّقه، فأصابني همٌّ لم يُصِبْني مثْلُه قطُّ، وجلست في البيت، فقال عمّي: ما أرَدْتَ إلاّ أنْ كَذَّبَكَ رسول الله ﷺ ومَقَتَكَ؟

قال: حتّىٰ أنزل الله:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾.

فبعث إليَّ رسول الله ﷺ، فقرأها رسول الله ﷺ عليَّ، ثمّ قال: «إنّ الله قَدْ صَدَّقَك».

(٤) وأورد ابن كثير في تفسيره قال: وذكر عِكْرِمَةُ وابْنُ زَيْدٍ وغيرهما، أنَّ الناس لمّا قفلوا راجعين إلى المدينة وقَفَ عَبْدُ الله بن عبد الله بن أُبيّ بن سلول على باب المدينة، واسْتلّ سيفه، فجعل الناس يمرُّونَ عليه، فلمّا جاء أبوه «عبد الله بن أبي بن سلول» قال له ابْنُه: وراءَك، فقال: مَا لَكَ؟ ويْلَك؟ فقال: والله لا تجوز من ههُنا حتّىٰ يأذن لَكَ رسُول الله ﷺ، فإنّه العزيز وأنت الذليل، فلمّا جاء رسول الله ﷺ وكان إنّما يَسِيرُ ساقَةً (أي: مع المشاة) فشكا إليه عبد الله بن أبي بن سلول ابْنه، فقال ابنُهُ عبد الله: والله يا رسول الله لا يَدْخُلها حتّى تأذَنَ له، فأذِنَ له رسولُ الله ﷺ، فقال: أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجُز الآن.

(٥) وروى ابن إسحاق تعقيباً على أحداث غزوة أُحُد عن ابن شهاب الزهري، أنّ عبد الله بن أُبَيّ بن سلول كان له مقامٌ يقومُه كُلَّ جُمعةٍ لا يُنْكَرُ، شرفاً له في نفسه وفي قومه، وكان فيهم شريفاً، إذا جَلَسَ رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس، قام فقال: أيُّها الناس، هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزّكُمْ به، فانْصُرُوهُ وعزِّروه، واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس.

حتّىٰ إذا صَنع يومَ أُحُدٍ ما صنع (وهو انخذاله عن الرسول بثلث الجيش) ورجع بالناس، قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه، وقالوا: اجلس، أيْ عدُوَّ الله، لسْتَ لذلك بأهل، وقد صنعتَ ما صنعتَ، فخرج يتخطّىٰ رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قُلْتُ بَجْراً (وفي رواية: هُجْراً ــ أي كَلاماً قبيحاً) أنْ قُمْتُ أشَدّد أمْرَهُ، فلقيه رجلٌ من الأنصار بباب المسجد، فقال: ما لك؟ ويْلَكَ! قال: قُمْتُ أُشَدِّد أمْرَهُ، فوثَبَ عليَّ رجالٌ من أصحابه يَجْذِبونني، ويعنّفونني، لكأنَّما قُلْتُ بَجْراً أنْ قُمْتُ أُشَدِّدُ أمْرَه، قال: ويلك، ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ، قال: «والله ما أبتغي أن يستغفر لي».

* * *

(٣)

المفـردات اللّغويـة

﴿ قَالُوا۟ نَشْهَدُ ﴾:

أي: قالوا: نعلن شهادة بألسنتنا مطابقةً لما نعتقده ونؤمن به في قلوبنا.

الشهادة: خبر باللسان عما هو مستقرّ في الجنان من علم أو اعتقاد أو عاطفة أو نحو ذلك.

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾:

أي: جَعَلُوا أيْمَانهم التي يحْلِفُونَها سُتْرةً تستُرُ نفاقهم. الْجُنَّةُ في اللّغة: السُّتْرَة، وكُلُّ ما وَقَىٰ من سلاحٍ وغيره.

﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أي: أحْجموا عن سلوكه، أو أعرضوا عنه، أو أدبروا وتولَّوا، ويأتي متعدّياً بمعنى صَرَفوا غيرهم عن سلوكه.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾:

الطَّبْعُ في المادّيات الملموسة، كالختم الذي يُخْتم عَلىٰ المقْفَلاتِ حتّىٰ لا تفتح.

واستعمل فيما يَحْدُثُ في القلوب للدّلالة على أنّها صارت محجوبة عن إدْراكِ أيِّ شيءٍ يتعلّق بما هي محجوبةٌ عنه.

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾:

أي: فهم لا يفهمون بواطن الأمور ودقائقها، وما تؤول إليه في المستقبل، لأنّ أذهانهم متشبّثةٌ بالظواهر والسُّطوح، والنتائج المستعجلة القريبة.

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾:

الْخُشْبُ، والْخُشُبُ: جَمْعُ خَشَبَة واحدة الْخَشَب، وهو ما غَلُظَ من الْعيدان، يُتّخَذُ منها السواري والأعمدة الخشبية، وتُحْمَلُ علَيْها السُّقوف.

﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾:

أي: جُعِلَ لَها سِنادٌ أو عِمادٌ كجدار تَستَنِدُ إليه وهي قائمة، يقال لغة: سَنَدَ الشيْءَ وَسَنَّدَهُ، إذا جَعَلَ لَهُ سِناداً أو عِماداً يستَنِدُ إليه.

﴿يَحْسَبُونَ﴾:

أي: يتوهّمون.

﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾:

أي: كيف يُصْرَفون؟! يُقَالُ لُغَةً: أَفَكَ الرَّجُلُ فُلاناً عَنِ الشيءِ أَفْكاً إذَا صَرَفَهُ عَنْهُ. وأَفَكَ الأمْرَ عَنْ وَجْهِهِ إذا قَلَبَهُ وَصَرَفَهُ عَنْهُ.

﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾:

أي: أمالُوهـا وأدارُوها تعبيراً عن الرفض، بتشديد الواو الأولى للمبالغة، أو بدون تشديدها لبيان حالة الإمالة دون مبالغة.

﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾:

أي: حتَّىٰ يَتَفَرَّقُوا، يقال لغة: انْفَضَّ الْجَمْعُ: إذا تفرّقَ. ويُقَالُ: فَضَّ الشيءَ وفضَّ القومَ إذَا فَرَّقَهُمْ. وفَضَّ المالَ على القوم إذا فَرَّقَهُ وقَسَّمَهُ عليهم.

الأعز: أي: الأقوىٰ القادر على أن يَغْلِب.

الأذلّ: أي: الأضعف الذي لا يقدر على أن يكون هو المنتصر الغالب عند المغالبة.

﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ . . .﴾:

أي: لا تشغلْكُمْ عَمَّا هو خيرٌ لكم في عاجلِ أمركم وآجله.

﴿فَأَصَّدَّقَ﴾:

أي: فأتَصَدَّقَ، سُكِّنت التاء وأدْغِمَتْ بالصّاد، فصارت صاداً مشدَّدة.

* * *

(٤)
مع النصّ في التحليل والتَّدَبُّر

* قول الله عزّ وجل خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١﴾.

الشهادة: تشتمل على قول ملفوظ به، وعلى ادّعاء بأنَّ معنى هذا القول الملفوظ أمْرٌ يُؤمن به ويعتقده مُقَدِّم الشهادة.

فاقتضى الأمْرُ أن يُعْطَىٰ القولُ الملفوظُ حُكْماً مُنْفصِلاً عن قائِله، وأنْ يُعْطَىٰ

ادِّعاءُ مطابقةِ الاعتقاد في القلب للمعنى الذي دلّ عليه القول الملفوظ في الشهادة حُكْماً آخَرَ مُنْفصلاً عن معنى القول، إذْ هُمَا قضيّتان:

ــ أمّا القول الملفوظ في عبارة المنافقين، فمعناه حقٌّ وصِدْق.

ــ وأمّا ادّعاء المنافقين بأنّهُمْ يُؤمِنُونَ بمضْمُون مَا شَهِدوا به فهو ادّعاء كاذب، وهم به كاذِبُون.

وبهذا أخَذَتْ كُلُّ قضيَّةٍ حُكْمَها، وقد جاءت الآيةُ رائعةً حقّاً في التّنبيه على الفصْل بيْنَ القضيّتين، وإعطاء القول الملفوظ في الشهادة حُكْماً مُخالفاً للحكم الذي يتعلّق بادّعاء المنافقين الكاذب.

وعَدَمُ وضوحِ هذه الرؤية قد أوْقَعَ بعض البلاغيين في ارتباك حين أرادوا أن يعرّفوا الصدق والكذب، هل الصدق المطابق للواقع أو المطابق للاعتقاد.

ومن وضحت له الرؤية، أدرك أنّ صِدْقَ الكلام يكون بمطابقته للواقع منفصلاً عن قائله، وأنّ كذِبَ الكلام يكون بعدم مطابقته للواقع منفصلاً عن قائله. وأنّ صِدْقَ المتكلم يكونُ بأن يُخْبِرَ بما يعتقد أنه حقّ، وأنّ كذب المتكلّم يكون بأنْ يخبر بما يعتقد أنه باطل، سواءٌ أكان مضمون كلامه مطابقاً للواقع أو غير مطابق له.

فالقضيتان منفصلتان تماماً، ويُعَلّمنَا اللّهُ عزّ وجلّ أن نفصل بينهما، بأسلوب بيانه في هذه الآية.

وبهذا التحليل يتّضح لنا معنى الآية تماماً، وهو: إذا جاءك يا مُحَمَّدُ الْمُنَافِقُونَ الكاذبون في ادّعاء الإيمان حين أعلنوا إسلامهم. قالوا: نَشْهَدُ إنَّكَ لَرَسُولُ اللّهِ، وهذه الشهادة منهم اشتملت على قضيّتين: ما تلفّظوا به من حقّ، وما ادَّعَوْه من إيمانهم به، أمّا ما تلفظوا به من حقٍّ فاللّهُ يعلمه: ﴿واللهُ يَعْلَمُ إنَّكَ لَرَسُولُه﴾ وأمّا ما ادّعَوْه من إيمانهم بمضمونه فهو كذب، واللّهُ يخبر بما يعلمُ عن حقيقتهم، ويُقَدِّمُ شهادته بذلك:

﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

وقد كُسِرَت همزة «إنَّ» لوجود اللام المزحلقة في خبرها ولـولاها لفُتِحَتْ وفق قاعدة فتح «أن».

* * *

* قَوْلُ اللهِ عز وجل:

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾.

من صفات المنافقين الظّاهِرَة أَنَّهُمْ يَحْلِفُونَ الأَيْمَان على صـدق ادّعائهم أنّهم مسلمون مؤمنون، وإذا ارتكبوا كبيرةً من الكبائر، أو أحدثوا حـدَثاً يكشف نِفاقَهم، ويدلُّ على عدم ولائهم للرَّسُولِ وجماعة المسلمين، وبلَغَ ذلِكَ الرسول ﷺ أو جمـاعة المؤمنين بادروا فحلفوا الأيمان على أنّ ما نُقِلَ عنْهُمْ لم يفعلوا منه شيئاً، وهم بذلك كاذبون.

إنهم ستروا ويسْتُرون فضـائحهم بأيمـانهم، فجعلُوا ويَجْعلون أيمـانهم جُنَّةً (= سُتْرَةً) يَقُونَ بها أَنْفُسَهُم من نِقْمَةِ الرسول أو المؤمنين عليهم، وهذا ديدنُهم دواماً في كلّ قرنٍ وفي كلّ عصرٍ وأمّة، فقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوا أيمانَهُمْ جُنَّةً﴾.

وإذْ سَتَـرُوا فضَائحهم بـأيمـانهم رأَوْا أَنَّهُمْ في مَـأْمَنٍ من أن ينكشفَ نفـاقُهُمْ، فأحْجَمُوا عن سُلوك سبيل الله، أَوْ أعرضوا عنه، أو أدبروا أو نَأوْا عنه، أو صَرفـوا من يتأثر بهم عن سلوكه، أو فعلُوا كلّ ذلك أو بعضه، كلُّ ذلك يفعلونـه في السِّرّ، حين يرون أنفسهم بعيدين عن أعين الرقباء من المؤمنين الصادقين، فقال تعالى:

﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

فما حُكْمُ عَمَلِهِمْ في ميزان الله العادل؟ هل هو محمود أو مذموم؟

لقد أبان الله أنّه مذموم، فقال تعالى:

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾.

فعل ﴿ساءَ﴾ المستعمـل في الذّم هنـا مع معنى التعجّب من سـوء ما عملوا، فَاعِلُه: ﴿مَا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ومن ساء عَمَلُه الذي يعمله بإرادته فقد ساءَ هو، فالمعنى: ما أشَدّ سوءَهُمْ بسبب ما كانوا يعملون من عملٍ شَديدِ السُّوء.

والحديث عمّا كانوا يعملون في الماضي من عمل شديد السُّوء، ينسحب على ما يعمَلُونَ مثْلَهُ في الحال أو المستقبل، هم وغيرهم من كلّ منافق كذّاب، يستُرُ قبائحه وفضائحه بأيمانه الكواذِبِ الغموس، ويَصُدُّ عن سبيل الله.

* قول اللّهِ عزّ وجل:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾.

المشار إليه بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾: هو الحُكْمُ على ما كانوا يعملون بأنه شديد السوء، الذي يسمح بأن يُقَالَ بَشأْنه: ما أشدّ سُوءَه.

﴿بأَنَّهُمْ﴾: أي: بسبب أنهم.

﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾: المنافقون المعنيُّون هنا قسمان:

ـ قِسْمٌ أعلن إيمانه بلسانه كاذباً مُتَسَرِّعاً، على سبيل التَّقيَّة، ظانّاً أنّ قضية الدِّين كالانتماء لحزْبٍ من الناس يُراد منه جلب منافع دنيويّة، ودفع مضارّ دنيوية، ثُمَّ لمّا فكّر في أنّه ليس مجرّد انتماء ظاهري، ولكِنَّهُ إيمانٌ قلبيٌّ يُرجَى منه جَلْبُ منافع ودفعُ مضارَّ أخروية عند الله يوم الدين، كَفَر، فلَمْ يُطابِقْ بين إيمانه بقلبه وبين ما أعلَنَ بلسانه.

ـ وقِسْمٌ كان صادقاً في إسلامِهِ وإيمانه، إلاّ أنّ إيمانه كان ضعيفاً، غير واضح الرؤية، ثم لمّا رأى أن الإيمان يستدعي منه تكاليف تخالف هواه كَفَرَ باطناً، واستَبْقَى ظاهر الانتماء إلى الإسلام، فكان بذلك منافقاً.

وعبارة ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ تَشْمَلُ القسمين، وكُلُّ قسْمٍ منهما يناسبُهُ المعنى الذي يُلائم حاله.

وبعد أن استَمرَّ المنافقون مدَّةً فيما اختاروا لأنفسهم من نفاق، ومرَدوا عليه كان من نتيجة ذلك بمقتضى سُنَنِ الله السببيّةِ أن يُطْبَعَ على قُلُوبِهِمْ، أي: ان يُقْفَلَ عليها إقفالاً كاملاً، ويُطْبَعَ على هذه الأقفال بالأختام، إيذاناً بأنّها صارت غير

مستعدّةٍ لأن تَستَقْبل واردات الهداية الموجَّهَة لها، من آيات الله في كتابه، أو في كونه، ومن بيانات الرسول ﷺ القولية والعملية، فقال تعالى:

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

وبعد أن وصَلُوا إلى حالةٍ مَرَضِيَّةٍ شَنيعَةٍ طُبِعَ فيهَا على قلوبهم، حتّى صَارتْ غيرَ مستعدّة لاستقبال أيّ وارد من واردات الهداية، فلا بدّ أن يكون واقِعُهم أنَّهُمْ لا يَفْقهونَ بواطِنَ الأمور ودَقائقَها وغاياتها، ومَا تؤول إليه في آجل أَمْرِهِمْ، في الدّنيا وفي الآخرة.

فأفكارُهم ومفهوماتهم وكلُّ طاقاتِ ذكائهم مُتَشَبِّثَةٌ بظاهرٍ من الحياة الدُّنيا، وبكلّ عاجلٍ قريبٍ منها، وأنظارُهُمْ لا تَمتَدُّ إلى ما وراء مواطِنِ أقدامهم من شؤون دنياهم.

وإذا كان أمرهم كذلك فكيف يفْقَهُونَ حقائق الأمور وبواطنَها وغاياتها ومصائِرَها؟! وكيْفَ يتدبّرون أمرهم؟!

وإشارة إلى كلّ هذه المعاني قال تعالى:

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾:

أي: فيترتب على مرَضِ الطَّبْعِ على قلوبهم، الذي هو أثرٌ لاستقرارهم في مواقع الكفر باطناً، وتمرُّسِهِم الدائم في النفاق أنّهم لا يفقهون.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾.

هذه آية اشتملت على ثماني جملٍ كلُّ جملةٍ منْها عنوانٌ لموضوع يَتعلَّق بالمنافقين، كُلِّهم أو بَعْضِهِمْ.

الجملة الأولى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾:

هذه الجملة معطوفة على ما سبق من بيان أوصاف المنافقين في السورة، وهي فيما يظهر تتحدّث عن منافقين معيّنين معروفين بأشخاصهم، ذوي وَجاهة وأجسام حسنة مَهيبة، وهيئات حسنة تعجب من يراها. وقد ذكروا أنّ عبد الله بن أُبَيّ بن سلول رأس المنافقين في المدينة كان رجلاً فصيحاً جَسِيماً وَسيماً، وكان يحضر مجلس النبي ﷺ، فإذا قال سَمِع النبيّ مقالته. وقال الكلبي: المراد: «عبد الله بن أبيّ بن سلول» و«جَدُّ بْنُ قَيس» و«مُعَتِّبُ بْنُ قَيْس» فقد كانت لهم أجسامٌ، ومنظرٌ، وفصاحة.

وهذا يَدُلُّ على أنّ العبارات العامّة في القرآن قد يُراد بها أفرادٌ معيّنون، وذلك لأغراضٍ سياسيّةٍ أو تربوية، ولتأخُذ مع ذلك صبغة احتمال تكرارها في فئاتٍ من المنافقين في كلّ حِين، فما وُجِدَ في وقتٍ من الأوقات قابل لأن يوجد نظيره في كلّ وقت، فعلى المؤمن البصير العاقل أن يكون على بصيرة بواقع حال النّاس.

الجملة الثانية:

﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾:

أي: وهم يُحْسِنُون القولَ فَصاحةً وبياناً وانتقاءً للمعاني التي يُريدون التعبير عنها، مخادعةً وتغريراً واستدعاءً لاستماع ما يقولون، والتنبُّه له.

ودلّ حرف الشرط [إنْ] على أنّهم غير ثرثارين، فهم لا يُطلقون ألسنتهم للمشاركة فيما تحسُن المشاركة فيه وفيما لا تَحْسُن، بل يضبطون ألسنتهم، وربُّما كان هذا حذراً من أن تندّ منهم فلتاتُ أقوال تدلُّ على نفاقهم.

حرف الشرط «إنْ» يُسْتَعْمَلُ فيما هو قليلُ الوقوع أو فيما هو مشكوكٌ في وقوعه كما يقول علماء البلاغة، فاستعماله هنا دلّ على قلّة مشاركتهم بالكلام في مجالس الرسول، ومجالس المؤمنين الصادقين.

الجملة الثالثة:

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾.

أي: كأنّهم أعمدة من خَشَبٍ مُسَنَّدَةٌ على الْجُدُر، فدلّ هذا التشبيه على عدة أمور:

(١) أنّهم لا يختارون الجلوس في أوساط المجالس مع حلقات المسلمين الذين يتقربون من الرسول للاستماع والانتفاع، بل يَبْتَعِدُون إلى الْجُدُر لِيُسْنِدُوا ظهورهم إليها بحسب الظاهر، وهم في الحقيقة لا يريدون الاستمتاع ولا الانتفاع.

(٢) أنّهم مُسْتَكْبِرون يَتَرَفَّعُونَ عن مشاركة عامّة المسلمين في المجالس العامّة.

(٣) أَنَّهُمْ إذا كانوا في مجالس المسلمين العامّة، التي يكون فيها علم وموعظة وتلاوةٌ لآيات كتاب الله، كانوا فيها أمثالَ الْخُشُب المسنّدة، لا يسمعون ولا يفقهون ما يقال فيها، وذلك لانصراف قلوبهم ونفوسهم وأفكارهم عن كلّ ذلك، إنّهم غير مؤمنين بالأصول فكيف يهتمّون بمعرفة الفروع وكلّ ما يتعلّق بما لا يؤمنون به.

ويُلاحظ هنا أنّ الْخُشُب عِنْدَ علماء تعبير الأحلام تُعَبَّرُ بالمنافقين، وبالنفاق.

الجملة الرابعة:

﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾.

الخائن الجبان المندَسُّ في صُفوف قوم، وهو ليس منهم، ويعمل لكيدهم وإفساد أوضاعهم، رِعْديدٌ شديدُ الحذر، مشدودُ الجملة العصبيّة دواماً، لأنه في نفسه غيرُ آمن، لذلك فهو يخشىٰ كلّ حركة تخالف الحركات المألوفة المعتادة، ويحسب أنه هو المقصود بها، فإذا نظر إليه أحدٌ نظرةً غير عاديّة حسب أنّه اكتشف أمره، وإذا أُذيعَ نبأٌ عن خائن مُنْدسّ حَسِب أنّه هو المقصود، وإذا طَرَقَ بابَ داره طارقٌ حسِبَ أنّه مطلوبٌ لمحاسبته ومحاكمته، وإذا سمِعَ صيحةً تدعو إلى إلقاء القبض على الأعداء الخونة حسب أنّه هُو المقصود بها، وأبْرَعُ تعبيرٍ جامعٍ يدُلُّ على كلّ ذلِكَ وأشباهه بالنسبة إلى المنافقين قول الله عزّ وجل:

﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾:

أي: يحسبُون كلّ صيْحةٍ يصيحُها صائحٌ ما بإنْذار نازلةٍ عليهم بما يكرهون، ويراد من عبارة «كلّ صيحة» بهذا التعميم نوع خاصّ من الصيحات، وهي التي تثير الخوف والحذر، مع ما في الإطلاق من تصوير حالة الذعر التي هم عليها في نفوسهم، حتى لو أن أحداً صاح صيحة لمنفعتهم لهزّ قلوبهم بخوفٍ وحذر، ولو كان قريباً أو حبيباً.

والسبب في ذلك أنّهم أعداء يلبسون ثياب أصدقاءٍ وأهل ولاء.

الجملة الخامسة:

﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾.

لفظ «عدوّ» معناه ذو العداوة، وهو يطلق على المذكر والمؤنث والواحد والمثنّى والجمع.

والتعريف في لفظ ﴿ٱلْعَدُوُّ﴾ لتعريف الجنس حتّى كأنّه مُعيَّن، فهو يدلُّ على وجود كامل حقيقة العداوة فيهم، وبهذا نفهم أن الحصر المستفاد من تعريف طَرَفَي الإسناد خاصّ بمن استوفَى كامل عناصر العداوة، وهذا ينطبق تماماً على المنافقين، لأنّهم أعداء للمسلمين من جهتين لا من جهة واحدة فقط:

الجهة الأولى: جهة كفرهم الّذي يُبْطِنُونَه، فهم من هذه الجهة يشاركون سائر الكافرين في عداوتهم للمؤمنين، ولا سيما رسول الله ﷺ.

الجهة الثانية: جهة نفاقهم الذي ألجأهم إليه جُبْنُهُمْ وحِرْصُهُمْ على مصالحهم في دنياهم، فجعلَهُم يُكَلِّفُونَ أنفسهم دواماً أن يتظاهروا بخلاف ما يُبْطِنون، وأنْ يَحْرِمُوا أنفسهم من أمور كثيرة يودّون أن يفعلُوها بحرّية، وأن يقوموا بأعمال يكرهون عملها، ويبذلوا أموالاً وهم كارهون، ويشاركوا في معارك قتالية لا مصلحة لهم منها، ولا يؤمنون بجدواها، إلى غير ذلك من أمور تزيد في نسبة عداوتهم، وهذه الأمور لا تُوجَدُ عند الكفار المصارحين بكفرهم وعداوتهم.

فمن الحقّ تماماً أن يُقال على سبيل الحصر همُ الْعَدُوّ، بمعنى: هم وحدهم الجامعون للعداوة الْقُصْوَى، بكلّ عناصرها المتصوّرة في الناس.

الجملة السادسة:

﴿فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾.

خطابٌ للرسول ﷺ. فلْنلاحظ أن الرَّسُول المؤيّد بالوحي والملائكة وحفظ الله له من الناس، مأمورٌ بأن يَحْذَرَ المنافقين، أي: بأنْ يتّخذ كُلَّ الوسائل التي تحميه والمسلمين من مكرهم ومكايدهم، وأن لا يدع لهم منفذاً ينفذون منه للإضرار بالإسلام والمسلمين وإفسادِ أحوالهم وأوضاعهم وهم داخل المجتمع الإسلامي يتربّصون الدوائر، وبأن يوجّه لهم عيون المراقبة الدائمة، حتى لا يأخذوا المسلمين على حين غرّة وغفلة عن تحرّكاتهم الخفيّة ودسائسهم الماكرة، وأن لا يتّخذ منهم بطانة تطلّع على الأسرار وخفايا الخطط والتدبيرات!!

وإذْ كان الرسول ﷺ مأموراً بأن يحذرهم كلّ هذا الحذر، لأنّهم هم العدوّ الأكبر، فكيف يكون حال سائر المؤمنين، من أولياء أمورهم في القمّة، حتّى عامّتِهِمْ في القاعدة العريضة الطويلة؟!

إنْ جميع المؤمنين من بعد الرسول ﷺ مأمورون بهذا الأمر، باعتبار أنّهم أكثر حاجةً إليه، وأولى بهم أن يلتزموه من الرسول المؤيّد من ربّه.

الجملة السابعة:

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾:

هذه جملة مُنَزَّلَةٌ منزلة جُمَل التعجّب، لجريانها مجرى الأمثال.

والمعنى: ما أشدّ قبائحهم وخباثاتهم التي بلغت مبلغ أن يَدْعُوَ عليهم كلّ داعٍ مستجابِ الدعوة بعبارة «قاتَلَهُمُ الله».

فالجملة إنشائية تحمل معنى التعجّب من أمرهم والدعاء عليهم، وإيرادُها عقب جُمَلٍ خبريّة تضمّنت بيان طائفة من صفاتهم، يُشْعِر بأنّ الله عزّ وجل يبيّن لنا أن لهم مع تلك الصفات التي سبق بيانها صفات أخرى ذاتَ شناعة لم تُذكَرْ في هذا البيان، فهم لا يليق بهم بحسب مجموع قبائحهم وخباثاتهم إلاّ أن يُقَاتِلَهُمُ الله ربّ العالمين، فلْيَقُلْ كلّ داعٍ يدعو ربّه: قاتَلَهُمُ الله. أي: اللّهم تابع مقاتلتهم

الخفيّة لـلإسـلام والمسلمين بمقـاتلةٍ من لـدنْك تُحْبِط بهـا أعمـالهم ومكـايـدهم وما يَمْكُرونَ تباعاً، والتـوجيه لهـذا الدعـاء يحثُّ المؤمنين على أن يكونـوا شديـدي الحذر من المنافقين.

الجملـة الثامنـة:

﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ؟!﴾:

أي: كَيْفَ يُصْرَفُونَ؟!

﴿أَنَّىٰ﴾: استفهـاميـة وهي هنـا بمعنى «كيف» مستفهم بهـا عن الحـال، والاستفهام هنا إنكاري فيه معنى التعجيب من أمرهم.

والمعنى: كيْفَ يُصْـرَفون عن الحقّ وهم في بيئة أمّةٍ مؤمنة مسلمةٍ تَسْمَعُ الحكمة، وتَتْلُو آيات الله، وتقوم بأفعـال الخير، ويتبـادل أفرادُهـا فيما بينهم مشـاعر الإيمان والرضا عن الله، والخوف من عـذابه، والـطمع في جنّتـه، ويندفعـون لبذل أموالهم وأرواحهم في سبيل الله؟؟!

إنّه لأمر يستحق العجب.

وإذا قلنا: إنّ ﴿أنّىٰ﴾ ظرف مكان، أو ظرف زمان فعبارة ﴿أنّى يُـؤْفكون﴾ من توابع جملة ﴿قاتلهم الله﴾، والمعنى: قاتلهم الله في أيّ مكـان يُصْرفـون إليه، وفي أي زمان يصرفون فيه، ولا مانع من إرادة كلّ هذه المعاني فيما أرى، والله أعلم.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

انتقلت السُّورة إلى بيان ظاهرةٍ من ظـواهر المنـافقين في السلوك، وهي أنّهم إذا بـدَرَتْ منهم بادرةٌ تَنِمُّ عن سُـوءِ طَـوِيَّتهم، أو تـدلُّ على عـدم صِـدْقٍ ولائهم لله ولرسوله وللمؤمنين، ثم دعاهم بعضُ المؤمنين إلى رسول الله ﷺ كي يطلبـوا منه أن

يدعوَ اللّٰهَ لهم بأن يغْفِرَ لَهُمْ، كانَ منهم ما يلي:

أولاً: ففي الحركة التلْقـائية الأولى التي يقـابلون بها هـذه الدعـوة، يُديـرون ويُميلون رؤوسهم بطريقةٍ يَدُلّون بهـا على رفْضِهم الذهـابَ إلى الرسـول، ورفضهم سؤاله أنْ يستغفر لهم، وعلى أنّهم لاَ يُريدون أن يستغفـر لهم، نظيـر الذي كـان من عبـد الله بن أبـي بـن سلول، كما جـاء في بعض الـروايـات التي سبق عـرضهـا في سبب النزول.

والسبب في ذلك أنّهم كافرون باطنـاً، فهم لا يؤمنـون بـأنهم عُصَـاة، حتى يَشْعُروا بالحاجة إلى أن يستغفـر الرسـول لهم، وقد دَلّ على هـذه الحركـة التّلْقَائية قولُ الله تعالىٰ:

﴿لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾:

أي: أداروا وأمالوا رؤوسهم بسرعة وعُنْف كَمَا جاء في قراءة الجمهور، وهذا يكون من فريق منهم، و﴿لَوَوْا رُؤُوسَهُمْ﴾: أي: بطريقة هادئة كما جـاء في القراءة الأخرى، وهذا يكون من فريقٍ آخر منهم.

ثانياً: وفي السُّلُوك الدائم مع تتابع الأوقات، تكونُ حركاتُهُمْ حركات إحجـام أو إعـراضٍ أو إدبار أو نـأيٍ وابتعاد، كُلّما دُعُوا لعمَـلٍ إسـلاميٍّ فيـه مـرضـاةٌ لله، أو طاعةٌ لرسوله، أوخدمةٌ صادقـة لجماعـة المؤمنين، ويصْرِفـونَ عن ذلك من يتـأثّر بأقوالهم ووساوسهم وتسويلاتهم.

وقد دلّ على هذا السلوك المتتابع قول الله تعالى:

﴿وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ﴾.

فعل «يَصُدُّون» كما سبق أن عرفنا لازمٌ ومتعدٍّ، ويمكن حمله هنا عليهما معاً، فهم بأنفسهم يَصُدُّون، ثُمّ هُمْ يَصُدُّونَ غيْرهم من الذين يتأثّرون بهم.

ثـالثاً: وفي حـالتهم النفسيّة التي قـد تبدو لهـا آثـارٌ ظـاهـرة في سلوكهم من جِنْسِهـا، هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ، يسْتكْبِـرُونَ عن اتّباع الـرسول وطـاعته ويَـرَوْنَ أنّهم أحقُّ بالزعامة والقيادة، وهذا ينطبق على طائفةٍ منهم، كعبد الله بن أُبَيّ بـن سلول، وقـد

دلّ على هذه الحالة قوله تعالى:

﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

هذه الظاهرات والصفات تتكرّر في فريقٍ من منافقي كلّ عصْرٍ، وكلّ أمّة.

وفي التعقيب على موضوع استغفار الرسول لهم لو حصل، أبان الله عزّ وجل أن استغفار الرسول لهم لا يَنْفَعُهُمْ، بسبب أنّهم كافرون باطناً، إنّما قد يَنْفَعُ دعاءُ الرّسُول بالمغفرة إذا دعَا لمؤمنٍ عاصٍ، فاستغفارُ الرسول وعدمُ استغفاره لَهُمْ سواءٌ، فلو دعا الرسول لهم بالمغفرة لما غفر الله لهم، إذْ لو غفَر الله لهم لجعلهم بالمغفرة من أهل الهدى، واللّهُ عزّ وجلّ قد قضت حكْمتُه وعَدْلُه أن لا يجعل فاسقاً من دركةِ الكفر من أهل الهدى، إنّما قد يَجْعَلُ من أهل الهدى عنده من كان مؤمناً عاصِياً إذا تاب واستغفر، أو دعا الرسول له بأن يغفر الله له، أو دعا له صالح من المؤمنين، أو نحو ذلك.

والقاعدة الربّانيّة مبيّنة في قَوْل الله عزّ وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ... ﴿٤٨﴾﴾:

ففي بيان أنّ استغفار الرسول لهم لو دعا لهم بالمغفرة لا يَنْفَعُهُمْ قال تعالى خطاباً لرسوله:

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

هذا البيان دمغ المنافقين بأنّهم كافرون باطناً، وقطع أمل من يرجو منهم أو من أقاربهم أن يغفر الله لهم، ولو استغفر الرسول لهم، فحالتهم حالة خالدٍ في النار ما لم يتب التائب منهم بنفسه، ويؤمن إيماناً صحيحاً، ويتخلّص من النفاق، قبل أن تدركه منيّته.

وبعد بيان هذه الجزئيّة الخاصّة بالمنافقين أبان الله عزّ وجلّ القضيّة الكليّة التي تشْمَلُ الْمُنافقين وسائر الكافرين والمشركين، فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾:

أي: لا يَهْدِي القَوْمَ الفاسقين فِسْقاً يُخْرِج من الإيمان إلى الكفر، بمعْنَىٰ: لا يَحْكُمُ لَهُمْ بالهداية، ولا يَغْفِرُ لهم حتَّى يكونوا بالمغفرة من المهديِّين، الّذين يكونون من أهل الجنّة، ولو بعد أن يأخذوا نَصيبَهُمْ من العذاب، فالحكْمُ بالهداية، والمغفرةُ التي تجعل العاصِيَ من أهل النجاة والهداية، إنّما يكونان لأهل الإيمان فقط، أمّا مَنْ هبَط عن أدنىٰ درجات الإيمان، وَدَخلَ في دَركاتِ الكُفْر ولَوْ من مستوىٰ أخفّها كُفْراً فلا حظّ له بشيءٍ منهما.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾.

تتحدّث هذه الآية عن ظاهرة تخذيلٍ عن الرسول ﷺ كان يمارسها ويكرّرها قادةُ المنافقين في المدينة، وعلى رأسهم عبد الله بن أبيّ بن سلول، إذْ كانوا يقولون لجماعتهم من الأنصار: لا تُنْفِقُوا مِنْ أموالكم على مَنْ عند رسول الله من فقراء المسلمين، حتّىٰ يتفرّقوا عنه، فإذا انصرفوا عن مجلسه أكرمتم رسول الله بما تريدون إكرامه به، وقد يعلّلون وصيتهم هذه بأنّ هؤلاء الفقراء من المسلمين يعتادون أن يلازموا مجلس الرسول لينالوا ممّا تقدّمونه أنتم للرّسول، وتضطرون أنتم لأن تزيدوا ممّا تقدّمون للرّسول، لأنّه سَيَدْعُوهم لمشاركته، ولا يستأثر به لنفسه.

وما يُريدونه ضمناً مع ذلك هو أن يتفرّقَ هؤلاء الناس عن مجالس الرسول ﷺ دواماً حتّىٰ لا يكون له مُحِبّون ملازمون من جماهير المسلمين، ولكِنَّ هذه الإرادة لا يصرّحون بها بل يُغَلِّفُونها بعبارةٍ تدلُّ على المعنى الأوّل، وهو انتظار انفضاضهم لتقديم ما يريدون إكرام الرسول به على وجه الخصوص.

وهذا الكلام يقولونه لجمهور المؤمنين من الأنصار الذين يستمعون لأقوالهم.

وفي التعقيب على هذه الظّاهرة أبان الله عزّ وجلّ للّذين آمَنُوا أنّه قد جعل لهم ظروفاً يغنمون عن طريقها سعادةَ دُنياهم وأخراهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، إذْ هيّأ لهم أن يُنْفِقوا من أموالهم التي وهبهم إياها في سبيله وابتغاء مرضاته،

ولو شاء لأغنَى ذوي الحاجات عن نفقات ذوي الأموال فَحُرِمُوا من ظروف اغتنام الأجر العظيم، أو لَعَكَسَ الأمر فجعل ذوي الأموال هم الفقراء أصحاب الحاجات، وجعل الفقراء هُمْ أصحاب المال واليسار، وذلك لأنَّ للَّهِ خزائنَ السماوات والأرض كلّها، يهَبُ منها بحسب حكمته ومشيئته من يشاء من عباده ما يشاء لِيَبْلُو عباده بالقبض والبسط، والفقر والغنى، ويحاسبهم على أعمالهم فيما ابتلاهم به، وفي الإشارة إلى هذه المعاني قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾:

أي: وبما أنّ خزائنَ السماوات والأرض لَهُ سبحانه فهو الذي يعطي منها، وهو الذي يمنع، وهو الذي يبسط وهو الذي يقبض، وقَضَتْ سنته أنّ من أنفق ابتغاء مرضاة ربّه أخلف الله عليه وضاعف له الأجر، وأنّ من أمْسَكَ أَمْسَكَ الله عنه، أو حَرَمَهُ من أن يَسْتَمْتِع أو ينتفع بما وهبه، ولكنَّ هذه المعاني الدقيقة التي تتفجّر من منابع الإيمان بالله وبعلمه وحكمته وأنّ له خزائن السماوات والأرض لا يفقهها المنافقون، لأنّ أذهانهم وأفكارهم لا تتجاوز ظواهر الحياة الدنيا، ومصالِحَهُمْ القريبة العاجلة منها، وهم عن الآخرة معرضون، أو منكرون، وعن العواقب في الحياة الدنيا غافلون.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾.

وتتحدَّثُ هذه الآية عن ظاهرةِ تحدّي رأسِ المنافقين عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول رسولَ الله والمهاجرين، بين جماعته في غزوة بني الْمُصْطَلِق، بأنّه إذا رجع إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّهُمْ منها، زاعماً أنَّهُ هُو وأنصاره في المدينة هم الأعزّ الأقوى، وأنّ الرّسول والمهاجرين هم الأضعف الأذل، كما سبق بيان هذا في روايات سبب النزول.

وذكر النصّ هذه الحادثة بأسلوب الحديث عن عموم المنافقين، دون ذكر قائلها بالتَّعْيين، لأنّ عُمُومَ المنافقين موافقون على مقالة رأسهم، ولَوْ وَجَدُوا أنّ الفرصة مواتية لهم لاجتمعوا ولقاتلوا الرسول والمؤمنين معه، ولأخرجوهم من المدينة.

وفي التعقيب على ظاهرة التحدّي هذه أبان الله عزّ وجلّ أنّ القوّة الغالبة في المدينة، هي لله ولرسوله وللمؤمنين، ولكنَّ المنافقين لا يعلمون هذه الحقيقة، ويحْسَبُون أنّ لديهم من القوة ما يستطيعون بها إخراج الرسول والمهاجرين إلى المدينة من المؤمنين خارجها مطرودين بالقوة، وبسبب ذلك قالوا مقالتهم: لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ مِنْها الأذلّ.

كما أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين الصادقين دائماً في كلّ حين.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

الحديث في السورة عن المنافقين وطائفة من صفاتهم وظواهر من سلوكهم وبعضِ مواقفهم من الإسلام والرسول والمؤمنين، استدعى تذكير الذين آمنوا ببعض ما يتطلب الموقف التذكير به، تحذيراً لهم من أن يُسْتدرجوا إلى مزالق قد تدفع بهم إلى النفاق، وتجعلُهُمْ ينْغمِسُون في أوحاله.

وهذا الاستدراج قد تكون بدايته بانحراف يسير عن صراط الله المستقيم، ثم يميل خط الانحراف بعيداً عن الصراط، فإلى المزالق، فإلى الهاوية، فإلى التهلكة العظمى.

وكأنّ بدايةَ علّة المنافقين النفسيّة بوجه عامّ هي تعلُّقُهُم الكامل وانشغالُ

قلوبهم بالأموال والأولاد من أمور الحياة الدنيا، فحذّر الله الذين آمنوا من أن تُلهِيَهُمْ أموالهم وأولادهم عن ذِكْرِ الله.

كما دعَتْ مُناسبةُ قولِ المنافقين لبعض المسلمين من الأنصار: لا تُنْفِقُوا على مَنْ عِنْدَ رَسُولِ الله حتَّى يَنْفَضُّوا، توجيهَ هذا التحذير نفسه للذين آمنوا، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

إنّ مَنْ وجّه كُلّ هَمّه في الحياة الدُّنْيا للأموال وجمعها وعدّها وتنميتها وتثميرها، وللأولاد وحاجاتهم ومشاكلهم الكثيرة الّتي لا تنتهي، اضطُرّ أن يُنْفِقَ في ذلك كلَّ طاقاتِ فكره وحركة نفسه، وأنْ يشغل به كلّ ساحة تصوّراته المتحرّكة العاملة، فتُلْهِيه الأموال والأولاد عن ذكر الله، أيْ: عن ذكر كلّ ما يتّصِلُ بالله من عقائد إيمانيّة، وواجباتِ أمَرَ الله بها، ومُحَرَّماتٍ نهى الله عنها، وصراطٍ مستقيمٍ كلّف الله عباده أن يسلكوه، وجزاءٍ بالثواب أو بالعقاب، إلى سائر ما جاء عن الله من أمور الدين.

ومتى ابتعد الإنسان عن ذكر هذه الأمور المتصلة بالله تعالى وطال عليه الأمد نَسِيَها، ومتى نَسِيَها أهمل العمل بمقتضاها، وحلّ محلّها في ساحة تصوّراته العاملة المتحركة مفهوماتٌ أخرى، هي من وادي مفهوماتِ أهل الكفر الّتي يجعلها الكافرون قواعد لتحقيق مطالبهم من الحياة الدنيا، وليس في هذه المفهومات شيءٌ يخدم قضايا الإيمان بالله واليوم الآخر.

ومن سيطرت عليه هذه المفهومات اتّفق في سلوكه في الحياة مع الكفرة الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وقد لا يبقى لديه إلّا بقايا الانتساب لدينٍ اسمه الإسلام، لكنّ مفهوماته منسيّةٌ متروكة غير معمولٍ بها، والمنسيُّ المتروك هو بحكم المعدوم، فيكون بذلك كالمنافق مُسْلِماً اسماً، غير مُسْلِمٍ في مفهوماته وسلوكه وأعماله في الحياة.

وكانَتْ بدايَةُ انحرافه أنّ الأموال والأولاد ألْهَتْهُ عن ذكْرِ الله، وما يتّصل بالله عزّ وجلّ.

فنهىٰ الله الذين آمنوا عن أن تُلْهِيهم أموالُهم وأولادُهم عن ذِكْرِ الله، حمايةً لهم من الانحراف، فالابتعادِ، فالانزلاقِ، فالسقوطِ في الهاوية، فالانغماسِ في أوحال النفاق.

وأبان الله عزّ وجل لهم أنّ من فعلَ ذٰلِكَ كانُوا هم أكبر الخاسرين، فقال تعالى:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾.

لقد كان لديهم كنز الإيمان العظيم، والعملُ بمقتضاه على مقدار اجتهاد كلٍّ منهم، ورغبتِه فيما عند الله من أجر جسيم، وثواب عظيم، فلَمَّا أَلْهَتْهُمْ أموالُهُمْ وأَوْلَادُهُم، وجرّهم ذلك إلى ما جرّهم إليه من أوحال، خَسِروا ذلك الكنز، فكانوا أكبر الخاسرين.

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾:

أي: فأولٰئِكَ البعداء عن مراتب المؤمنين العاملين.

﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾:

أي: هُمُ الذين يختصّ بهم عنوان «الخاسرين» من دركَةِ الْخُسْرَانِ الأكْبر، فالتعريف في لفظ [الخاسرين] هو لبيان أنّ لفظ «خاسر» قد جمع كُلَّ عناصر الخسران، والقصرُ هنا إضافيٌّ، أي: بالإضافةِ إلى سائر الخاسرين من فئة المؤمنين.

بعد ذلك نهاهم الله عن أن يستجيبوا لوساوس المنافقين ودَسائسهم، في موضوع الإنفاق في سبيل الله، بأسلوب الأمر بأن يُنْفِقُوا ممّا رزقَهُمْ رَبُّهُمْ من رزْق في الحياة الدّنيا، قبل أن يأتيهم الموت، فينقطع به عملهم في الحياة الدنيا، وحينئذٍ لا يستطيعون تَدَارُكَ الأمر بحالٍ من الأحوال، ويتركون أموالَهُمْ بسلطان الربّ القاهر في الحياة الدنيا، ليخلفهم عليها الوارثون، ويحاول من نزل الموت بساحته منهم أن يُؤخِّرَهُ رَبُّه إلى أجَلٍ قَرِيب، ليتصدَّقَ وليكونَ من الصالحين، لكنّهُ مَطْلَبُ لا يُسْتَجابُ له، فقد انتهت رحلة الامتحان عند حلول أجل الموت، وانقطع

كلّ عمل، ودخل الإنسان عتبة اليوم الآخر. فقال الله تعالى:

﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾﴾:

أي: هلاّ أخّرتني في الحياة الدنيا إلى أجلٍ قريب يسمح لي بأن آمُرَ أو أعمل متصدّقاً في سبيلك.

﴿فَأَصَّدَّقَ﴾:

أصلُها فأتصَدَّق، سُكّنت التاء وأدغمت بالصاد، فصارتا صاداً مشدّدة، التّصدّق هو بذل الصّدقة تقرباً إلى الله، والصّدقة هي المال المبذول في ذلك.

﴿وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾:

أي: فإذا بَذَلْتُ الصّدقات كنت من الصالحين، وذلك لأنه حينئذٍ يشْعُرُ بأنّ إمساكَهُ لمَا كان يجب عليه أنْ يبذُلَهُ منْ أموال جعَلَهُ من القوم غير الصالحين في موازين الرحمن.

لكنّ طلبه هذا يُرفَضُ كسائر طلبات تأخير الأجل عند نزول الموت من أيّ طالب، مؤمناً كان أو كافراً، وقد دلّ على أنّ طلَبَهُ لا يُسْتَجابُ له قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾:

أي: ولَنْ يُؤَخِّرَ الله نفساً ما، في الحياة الدنيا مهما علا شأن هذه النفس أو نزل إذا جاء أجل موتها، المقدّر لها في علْمِ الله عزّ وجل.

وختم الله السورة بالتذكير بكلّيّة من الكليّات الاعتقادية، وهذه الكلّية تناسب ما جاء فيها من أمر بالعمل الصالح، ونهي عن العمل السيِّىء، فقال تعالى:

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

الخِبْرَةُ هي العِلْمُ بالعَمَلِ عِنْدَ ممارسته، على سبيل الشهود والحضور، المصاحب لكلّ أجزاء العملِ ظواهِره وبواطِنه، وهي غير العلم بالعمل قبل

حصـوله، أو العلم بـه بعد حصـوله عن طـريق الأخبار، أو ما يُدَوّن في السّجلّات والصُّوَر.

إنّ الخبير بعَمَلٍ نفسه، هو الذي يمارسه، فيجمع عليه لدى ممارسته لـه كلَّ فكره ومشاعره النفسية، ويُحسُّ بكلّ بواطن عمله وظواهرها.

كذلك علم الله بأعمال الناس هو من قبيل عِلْم الخبير جلّ وعلا.

وانتهـت السـورة

● ● ●

النصّ السابع والعشرون

وهو من سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول)

«السورة (١٩) من التزيل المدني نزلت بعد سورة المنافقون»

الآيـات مـن (٥ ـ ١٠)

حول محادّة المنافقين لله ورسوله وتناجيهم في السرّ بذلك وتحيتهم الرسول تحيّةً منكرة

* قال الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍۚ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ
وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ
مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ
مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ
ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ
حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَاۖ
فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ
وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

* * *

(١)
ما في النصّ مِنَ القراءات المتواترة
(من الفرش وشيء من الأداء)

* في الآية (٧):

(١) قرأ جمهور القرّاء [مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوىٰ] بالياء التحتية من «يكون» وقرأ أبو جعفر المدني: [ما تَكُونُ] بالتاء الفوقية.

القراءتان وجهان عربيان، لأنّ كلمة [نَجْوىٰ] مجازيّة التأنيث، فيجوز في فعلها التذكير والتأنيث.

(٢) قرأ جمهور القرّاء العشرة: [وَلَا أَكْثَرَ] بفتح راءِ «أَكْثَرَ».

وقرأ يعقوب البصري: [وَلَا أَكْثَرُ] بضم الراء.

القراءتان وجهان عربيان، فالفتح على تقدير عطف «أكثر» على لفظ «نَجْوىٰ» المجرور بحرف الجرّ الزائد «مِنْ» والفتحة بدل الكسرة لِأن «أكثر» ممنوع من الصرف يجرُّ بالفتحة، والرّفع على تقدير عطف «أكثر» على محل «نجوى» المرفوع بـ «يكون» محلًّا، وإن كان مجروراً لفظاً.

* في الآية (٨):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة: [وَيَتَنَاجَوْنَ].

وقرأ حمزة ورُوَيس عن يعقوب: [وَيَنْتَجُونَ].

القراءتان بمعنى واحد: ففعل «تناجَىٰ» وفعل «انْتَجَىٰ» يأتيان بمعنى المسارّة في الحديث.

(٢) في كلمة [وَمَعْصِيَتِ] في هذه الآية وفي الآية (٩):

وقف جمهور القراء على آخر الكلمة بالهاء، ووقف ابن كثير المكي، والبصريان أبو عمرو ويعقوب، والكسائي الكوفي بالتاء الساكنة، وهي وجوه من الأداء.

* * *

(٢)

موضوع النصّ وما روي من سبب نزوله

موضوع النص: نزلت سورة (المجادلة) بعد نزول سورة (المنافقون) فجاء فيها متابعةُ بيانٍ ومعالجةٍ لطائفةٍ من أحوال المنافقين وسلوكهم ومواقفهم من الإسلام والرسول والمؤمنين.

وقد جاء في هذا النصّ من هذه السّورة بيان ما يلي:

الأول: أن المنافقين يمارسون تباعاً الوقوفَ في حدودِ معارضةٍ ومخالفةٍ لحدود الله ورسوله، بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، كما يفعلُ الكافرون الصرحاء، إلاّ أن المنافقين يستخفون بأعمالهم ومواقفهم.

الثاني: أنّ المنافقين يَتَنَاجَونَ بأحاديث سرّيّة تشتمل على ما فيه إثمٌ وعدوان ومعصيةٌ للرسول، مع أنّ الله عزّ وجلّ قد نهاهم فيما سبق عن هذا التناجي، وحذّرهم منه في الآية (١١٤) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) وقد سبق شرح ذلك.

الثالث: أنّ المنافقين يُقَلِّدُون اليهود في تحياتهم للرسول ﷺ، ضمن لحن القول الذي يمارسونه، وهو ما جاء بيانه في النص (٢٠) من سورة (محمد) الآية (٣٠) منه، كأن يقولوا: السّام عليك بدل «السّلام عليك».

ما رُوي من سبب النزول:

لم أجدْ في أسباب النزول المرويّة ما يُفيد في تدبُّر هذا النّصّ، وقد رأى مجاهد، ومقاتل بن حيان، وغيرهما من أهل التأويل، أنّ النصّ نزل بشأن ما كان يفعل اليهود من تَنَاجٍ على مرأى المسلمين لإغاظتهم، وإثارة الشكوك في قلوبهم.

لكنّي نظرت في جملة النصّ ودلالاته فرأيت أنّ المقصود به المنافقون، ويظهر هذا لدى تدبُّر فقراته، ولدَىٰ النظر في النصّ الذي جاء بعده في السورة، والله أعلم.

* * *

(٣)

المفردات اللّغويّة في النّصّ

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ﴾ :

المحادَّةُ هي ملازمة أحد الفريقين حدّاً مقابلاً أو مناقضاً أو معارضاً للحدّ الذي عليه الفريقُ الآخر، على سبيل الْعِداء والمخالفة والمضادّة. يقال لغة: حادَّ فُلانٌ فُلاناً إذا عصَاهُ وغاضبه.

قال الزجاج: المحادّةُ أن تكون في حدٍّ يخالف صاحبك، وأصلها الممانعة.

وهي فيما يظهر مشتقَّة من الحدّ الذي يوضع على الأرض لفصلها عن غيرها، وذلك لأنّ كلّ فَرِيقٍ من المتعادِيَيْن يَتَّخِذُ لنفسه حدّاً مضاداً لحدّ الفريق الآخر.

﴿ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ :

أي: أُذِلُّوا وأُخْزُوا وأُغِيظوا، كَمَا فُعِلَ بالَّذين من قَبْلِهِمْ من المنافقين، أمثال عبد الله بن أبي بن سلول، إذْ كُبِتَ عقب غزوة «بني الْمُصْطَلِق = الْمُرَيْسِيع» فلم يدخل المدينة إلاّ ذليلاً، وكان قد قال: لَئِنْ رَجَعْنَا إلى المدينةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ.

﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ :

أي: عذابٌ مُذِلٌ مُخْزٍ.

﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ :

أي: حاضرٌ مراقب له مراقبة تامَّةً، تتناول كلّ ما هو عليه من صفات وأحوال، وما يجري عليه أو فيه أو منه من أحداث، بالبصر والسمع وكلّ قوة مدركة، تدرك كلّ دقيقةٍ فيه ظاهرة وباطنة، بعلم محيط شامل، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، إذْ كُلُّ دقيقةٍ في الوجود مهما كانت خفيةً، أو أمراً معنويّاً فهي مما يُطْلَقُ عليه لفظ «شيء» والله شهيد عليه، ولفظ «شهيد» على وزن «فعيل» من الصِّيغ الدَّالة على غاية المعنى.

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ ﴾:

يقالُ لُغةً: نَجا فلانٌ فلاناً الْحديثَ، يَنْجُوهُ نَجْواً ونَجْوَى، أي: أسَرَّ إليه الحديث.

فالنجوىٰ: الإسرار بالحديث، ويُطْلَق هذا اللفظ أيضاً على المتناجين وهذا الإطلاق هو من قبيل الوصف بالمصدر، ويستوي فيه الواحد وغيره، يقال: هُو وهما وهُمْ نَجْوَىٰ.

ويقال: تناجىٰ الرجلان، إذا تسارّا، وتناجىٰ القوم إذا تسارُّوا وكذلِكَ يقال: انتجىٰ الرجلان، وانتجىٰ القوم، إذا تحدّثوا فيما بينهم سِرّاً.

﴿ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ ﴾:

«لولا» هنا بمعنى «هلّا» والمراد: لِمَ لم يُعَذِّبْنا الله على أعمالنا التي فيها محادّةٌ للرسول، لو أنّ محمّداً رسولُ الله حقّاً؟! أي: إنّهم يعتبرون عدم تعجيل الله معاقبتهم دليلاً على عدم صدق محمّد في ادّعائه أنّه رسول الله.

والله من سنته أن يُمْهلَ وَيؤخّر العذاب، على أن الدنيا هي في الأصل دار ابتلاء، وليست دار جزاء، وإذا نزل بعض العقاب فيها فللتّذكير والتّنبيه ومَوْعظةِ مَنْ لم ينزلْ به العذابُ بَعْدُ.

﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾:

أي: تكفيهم جهنّمُ بما تشتمل عليه من عذاب يوم الدين لَهُمْ ولكُلِّ من يستحقُّ العذاب من أهل الكفر والعصيان، فهل يريدون عذاباً معجَّلاً أيضاً؟!

﴿ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾:

الإثْمُ: الذنب، وقد أُطْلِق في القرآن على الكبائر والصغائر وما بينهما.

والْعُدْوان: الظُّلْمُ وتجاوز الحدّ المأذون به، وهو مصدر غَدَا عليه، بمعنى ظلمه، يَعْدُو عَدْواً، وعُدُوّاً، وعُدْواناً، وتَعْداءً.

وخُصّت معصيةُ الرسول ﷺ بالذكر هنا لأنّ المعْنِيِّين بالذكر كانوا يتقصَّدُون

معصيَة الرسول ﷺ على وجه الخصوص لنفاقهم، وكراهيتهم التي يبطنونها للرسول.

﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾:

الْبِرُّ: هو التوسُّع في أعمال الخير من نوافل العبادات فَوْقَ حُدُودِ الواجبات.

والتقوىٰ: تكون بفعل الواجبات وتَرْكِ المحرّمات.

﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾:

أي: لِيَحْزُنَ الشيطانُ الذين آمنوا. يقال لغة: حزَنَ الأَمْرُ فُلاناً يَحْزُنُهُ حُـزْناً، إذا أنزل به الْغَمَّ أو جَعَلَهُ يتألم على ما فات.

* * *

(٤)

مع النَّصّ في التحليل والتدبُّر

* قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾.

على الرغم من الذي حدث لرأس منافقي المدينـة عبد الله بن أُبَيّ بـن سلول وجماعته من المنـافقين، حين وصولهم إلى المـدينة، بعـد الانتهاء من غـزوة «بني المُصْطَلِق = الْمُرَيْسِيع» من إذلال وإهانـة وكَبْتٍ، وكان قـد تبجّح بين جمـاعته من قومه بقوله: «لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْها الأَذَلَّ» فلم يـدخل هـو إلى المدينةِ إلاّ ذليلاً، وبإذن من الرسول ﷺ، إذْ حبسه ابْنُهُ المؤمن الصـادق عند مكـان الدخول إليها حتّىٰ يأذن له الرسول ﷺ.

وعلى الرغم من نزول الآيات البيّنات الواعظات في سـورة (المنافقـون) التي نزلت قبل سورة (المجادلة)، والتي فضحتهم، وأبانت أنهم كـاذبون، ولا يفقهـون، وفاسقون، ولا يعلمون، وجاء فيها التحذير منهم، وإشعارُهُمْ بأنّ الله يُقاتلهم، أي: يحبط ما يقومون به من حرْبٍ خفيّة مَكْرِيّة باردة.

على الرغم من كلّ ذلك بَقِيَ فريقٌ من المنافقين يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أي: يقفون في حدٍّ مضادٍّ أو حُدُودٍ مضادّة لِحُدُودِ الله ورسوله، موقفَ المعادي المتربص للقتال، متى سنحت له الفرصة أن يقاتل.

لكنَّ الْمُنَافِقِينَ أَجْبَنُ مِنْ أَنْ يُقَاتلوا الرَّسُولَ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَه، إنَّ الرُّعْبَ الخالع لقلوبهم يجعلهم مكبوتين دواماً، أي: أذِلَّاءَ مَخْزِيِّين، بما قضَى اللَّهُ بشأْنِهِمْ مِنْ كَبْتٍ ملازم لَهُمْ لَا يُفَارِقُهُمْ، مُنْذُ اضطرّتهم خلائقهم أن يسلكُوا مَسْلَكَ النفاق، وهُمْ مُلاحَقُون بكَبْتِ اللَّهِ لهم دواماً.

فقال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾:

أي: إنّ الذين اسْتَمَرُّوا يقفون مواقف العداء ضدّ دين الله وضدّ رسوله في السِّرّ من المنافقين، هم قَوْمٌ قضَى اللَّهُ بشَأْنِهِمْ أنّهم أذلّاءُ مخزيّون مَكْبُوتون جبناء، لا يستطيعون أن يقفوا مواقف حرْب علنيّة ضدّ الرسول والذين آمنوا معه، شأنهم في هـذا كشأن ما حصل للذين من قبلهم في أعقاب غزوة بني الْمُصْطَلِق، من كَبْتٍ وإذلالٍ وخِزْي، بعد الذي كانوا قد تبجّحُوا به في السِّرّ.

﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾:

أي: بشأن أولئك الذين كُبِتُوا من قبلهم، وهي الآيات التي أنزلَها الله في سورة (المنافقون).

وفي هـذا إشارة إلى أنّ الذين استمرّوا يحادّون الله ورسوله لم يتعظوا بما حصل لإخوانهم في الواقع الذي كان قاسياً على نفوسهم وقلوبهم، ولا بالآيات البينات المنزّلات بشأنهم.

فلا يتصوّروا بعد هذا أنّ عقابهم سيقتصر على إذلالهم وإخزائهم في الحياة الدنيا، بل لهم أيضاً في الآخرة عذابٌ مُهِينٌ، فيه إذلالٌ وإخزاءٌ، إذا استَمرُّوا على نفاقهم، وماتوا كافرين، لأنَّهُمْ يَدْخلون ضمن عموم الكافرين، ويشْمَلُهُم العذابُ المقرّر للكافرين المستكبرين عن طاعة الله واتّباع رسوله وطاعته، فقال تعالى:

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾:

أي: ولجميع الكافرين ومنهم المنافقون الذين يبطنون الكفر عذابٌ مُذِلٌّ مخزٍ لَهُمْ، يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جميعاً للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء بالعدل، الذي سبق الوعيد به، منذ يوم الابتلاء، فيَبْدأُ يومئذٍ حسابُهُمْ لفصل القضاء بشأنهم بإنبائِهم بكلّ ما عَمِلُوا في الحياة الدّنيا.

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾:

أي: فَيُخْبِرُهُمُ الله عزّ وجلّ بكلّ مَا كانوا قد عملوا في الحياة الدنيا، وهذا الإنْبَاء يكون عن طريق صُحُفِ أعمالهم، وعن طريق الملائكة المُوكَّلِينَ بهِمْ، وربّما بإنباء اللّهِ لهم بنفسه مباشرةً:

﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾:

أي: حفظه بعلمه، وجَمَعَهُ جمعاً تامّاً لم يَدَعْ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا جمعها.

﴿وَنَسُوهُ﴾:

أي: ونَسُوا مَا كانُوا قَدْ عَمِلُوا في الحياة الدُّنيا، لكنَّهُمْ حِينَمَا يُذَكَّرُونَ به يَتذكَّرُونه تَذَكُّراً تامّاً، بدليلِ قولِ الله عزّ وجل في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥﴾:

أي: مَا عَمِلَ في الحياة الدُّنيا، وهذا تَذَكُّرٌ بَعْدَ نسيان، جمعاً بين النَّصَّيْن وإحصاءُ الله عزّ وجلّ لكلّ مَا عَمِلُوا هو جزئيّة من كُلّيّةٍ عامّةٍ من كليّات صفات الله تبارك وتعالى، هذه الكليّة دلّ عليها قولُهُ تعالى:

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾:

أي: والله مُهَيْمِنٌ على كلّ شيءٍ في الوجود، دقيقاً كان أو جليلاً، وهو عليه

شهيد حاضر معه، مراقب له، عليم بدقائقه، مُدْرِكٌ لكلّ صفاته وأحواله وتغيّراته، لا يَنِدُّ عن علمه منه شيءٌ.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾.

في هاتين الآيتين يُبَيِّنُ الله عزّ وجلّ مُنْكَرَيْنِ من مُنْكَرات المنافقين في السلوك:

المنكر الأول: تناجيهم في السِّرّ بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وهذا التناجي قد يكون في خلواتهم، وقد يكون وَهُمْ في مجالس المسلمين، إلاّ أنّهم يتهامسون فيما بينهم بما يريدون التحادُثَ به، وكان الله عزّ وجل قد نهى عن مثل هذا التناجي، وحذّر منه بقوله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

وقد سبق شرح هذه النجوى وهذه المشاقّة للرسول، في النصّ (١٧) من هذه الدراسة، ونلاحظ أنّ التعبير بعبارة: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرسول﴾ في سورة (النساء) نظير التعبير بعبارة: ﴿إنّ الذين يُحَادّونَ اللَّهَ ورَسُولَهُ﴾ في سورة (المجادلة).

ونلاحظ أن التناجي في السرّ بما لا خير فيه هو من مشاقّة الرسول التي حذّر الله منها في سورة (النساء) وأنّ هذا التناجي أمْرٌ قد نهى الله عنه وحذّر تحذيراً شديداً من ممارسته، قد دلّ عليهما الإحالةُ عليه في سورة (المجادلة) بقوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾:

وبهذا يتكامل النّصّان في البيان، ويدلّ اللاّحق على المراد من السابق إذا خفي على المتدبر فَهْمُ المراد منه، أو انْصَرَفَ ذِهْنُه لأمْرٍ آخر.

وأُنَبِّهُ هُنَا على أنّ المتدبّر الّذي لاَ يُلاَحظ ترتيب نزول النصوص القرآنية كما جاء في ترتيب النزول (وهو غير ترتيب سور القرآن المتّبع في المصحف) لا يستطيع إدْراك الإحالات القرآنية على ما سبق في النزول، ولا يستطيع معرفة التدرّج في الأحكام وأساليب التربية، وعمليات التكامل الفكري في الموضوعات، ولا معرفة الناسخ من المنسوخ إنْ وُجِد، وقد يعلّل نصّاً مكّيّ النزول بحادثة مدنيّة الوقوع على أنّها سبب لنزوله، إلى غير ذلك من أخطاء[1].

المنكر الثاني: تَحِيّةُ المنافقين للرّسول إذا قدموا إليه تحيّةً مُنْكَرَةً، على خلاف التحيّة التي حيّاه الله بها، وهي تحيّةُ الإسلام، السّلام عليكم.

وإذا كان المنافقون يفعلون هذا مع الرّسول مع علمهم بفطانته العظيمة، الّتي تكشف مقاصدهم فيما يتلفظون به من لحن القول، فهم يفعلونه مع المؤمنين الذين قد لا يفطنون لما يفعلون ولما يقصدون من باب أولى.

ويغلب على الظنّ أنّ المنافقين تعلّموا من شياطينهم اليهود أن يُسْرِعوا في لفظ «السلام عليكم» فيحذفوا اللاّم من «السلام»، فتكون التحية «السّام عليكم» والسّام في اللّغة هو الموت.

---

(١) انظر «القاعدة التاسعة» حول تتبّع مراحل التنزيل في كتاب «قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجل» للمؤلف.

ذكر العوفي عن ابن عباس (كما جاء عند ابن كثير في تفسيره) في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

قال: كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ إذا حيّوهُ: سَامٌ عليك.

وانصرف ذهن كثير من أهل التأويل إلى أنّ النصّ نزل بشأن اليهود علىٰ خلاف ما يدلّ عليه السِّبَاق والسِّيَاق، تأثُّراً بما صحّ من أنّ اليهود كانوا إذا جاؤوا إلى الرسول ﷺ قالوا له في التحيّة: «السّام عليك يا أبا القاسم» يُوهِمُون أنّهم يريدون السلام في ظاهر أمرهم، وهم يريدون الموت باطناً.

روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْيَهُودَ إِذَا سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ يَقُولُ أَحَدُهُمْ: السَّامُ عليكم، فقل: عَلَيْكَ».

وروى مسلم أيضاً عن عائشة أم المؤمنين قالت: اسْتأذن رهطٌ من اليهود على رسول الله ﷺ فقالُوا: السَّامُ عليكم، فقالت عائشة: بلْ عليكم السَّامُ واللّعنة، فقال رسول الله ﷺ:

«يَا عَائشة، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأَمْرِ كُلِّهِ».

قالت: أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا.

قال: «قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ».

وفي رواية عند مسلم أيضاً عن مسروق، عن عائشة قالت: أَتَى النبيَّ ﷺ أناسٌ من اليهود، فقالوا: السّامُ عليك يا أبا القاسم، قال: «وَعَلَيْكُمْ» قالت عائشة: قُلْتُ: بل عليكم السّام والذّام، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة لا تكوني فاحِشَة» فقالت: مَا سمعتَ ما قالوا؟ قال: «أَوَلَيْسَ قَدْ رَدَدْتُ عليهم الّذِي قالُوا، قلتُ: وَعَلَيْكُمْ».

وفي رواية أنّ عائشة فطنت بهم فسبّتْهم فقال رسول الله ﷺ: «مَهْ يَا عَائِشَةُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ».

وزاد الراوي في هذه الرواية، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَاؤوك حيَّوْكَ بما لم يُحيّكَ به الله﴾. وهذه الزيادة ليست مما روي عن عائشة فيما يظهر، فلا يعتمد عليها في أنّ

النصّ نزل في اليهود، بـل نقول: إنّ المنـافقين الذين نـزل بشأنهم النصّ تعلّموا هذه التحيّة من اليهود، لأنّ المنـافقين هم المطلوب منهم بحسب ظـاهر انتمـائهم أن يُحَيُّوا الرّسولَ ﷺ بما حيّاه اللّهُ به، وهو لفظ السّلام.

ونجـد تحيّة الله بـالسّلام على رسـوله في قـولـه تعـالى في سـورة (الصـافـات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾.

وهـذه هي تحيّـة الله لعبـاده الصـالحين في الـدنيـا والآخـرة، وتحيّـة المـلائكـة للمؤمنين، وتحيّـة المؤمنين فيما بينهم، وقـد جـاء في القـرآن: ﴿فقُـلْ: سـلام عليكم ـ ونادوا أصحاب الجنّة أنْ سَلَامٌ عليكم ـ دعواهم فيها سبحـانك اللّهم وتحيَّتُهم فيهـا سلام ـ ولقد جاءت رُسُلنَا إبراهيم بالبشرىٰ قالـوا: سلامـاً. قال: سـلام ـ سلام على نوح ـ سلام على إبراهيم ـ سلام على موسى وهَارون﴾ إلى غير ذلك من نصوص.

والسلام دعاء بالأمن، وتحيّة.

مع فقرات الآيتين:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ؟!:

الخطاب في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ موجّه لكلّ مَنْ يصْلُح للخطاب من الـذين يملكون رؤيـة فكرية علميّة.

فالمخاطب مفرد شائع، والخطاب على سبيـل الإفراد يقصـد منه أن يتحمّـل كلّ فرد مخاطَبٍ مسؤوليّتَهُ بصورة فردية.

والغرض من الاستفهام عن عدم الرؤية:

(١) تعليم غير العالم وحثُّهُ وَحَضُّه على التعلّم.

(٢) تنبيه الغافل وتذكيرُ الناسي.

(٣) توجيه العالم الذاكر لأن يهتم بالأمر المستفهم عنه ويعمل بمقتضى ما يعلم حوله.

ونتساءل: كيف يَعْلَمُ المخاطَبُ الصالحُ للخطاب أنْ اللّهَ يَعْلَمُ مَا في السماوات وَمَا في الأرض؟

أقول:

إذا كان المخاطَبُ من المؤمنين، فقد سبَقَ أنْ أعْلَمَهُ اللّهُ في آيات منزّلاتٍ كثيرات هذه الحقيقة، حتى صارت معلومة لديه، بمثابة الأمر المعلوم بالرُّؤيَةِ البصريّة.

وإذا كان من غير المؤمنين، فإنّ باستطاعته أن يصل إلى هذه المعرفة، بأنْ يَنْظُر إلى إتقان حركات كلّ ما في السماوات وما في الأرض، التي تجري بغير اختيار المخلوقات المدركة المريدة، فإنّ تفكّره في ذلك يَهْدِيه إلى أنها محتاجة حتماً إلى ربّ يُسَيِّرها ويُدبّر أمرها، ولا يملك ذلك إلاّ مَنْ لديه علم شامل بكلّ ما في السماوات وما في الأرض، وقدرةٌ على التصرف فيه، بالإحداث، والتغيير، والتحويل، والإيجاد، والإعدام.

والأمْرُ الموجّه له النظر هنا هو شمول العلم، وقد ذُكِرَتْ هذه الحقيقة الكليّة من حقائق صفاتِ الرّبّ جلّ وعلا، تمهيداً لتذكير الذين يتناجَوْنَ من المنافقين بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، بأنّ الله عليمٌ بما يتناجون فيه، خبير به، لا تخفى عليه من أحوالهم خافية، لذلك جاء التعقيب على التذكير بهذه الكليّة بقوله تعالى:

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾:

﴿نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾:

إذا كانت «نجوى» بمعنى حدَثِ التناجي، فالتعبير هو من قبيل إضافة نجوى إلى ثلاثة، بمعنى نجوى ثلاثة متناجين، والإضافة هذه هي على تقدير «مِنْ» أي: نجوى من ثلاثة أشخاص يتحادثون فيما بينهم سرّاً، أو على تقدير (اللام) أي: نجوى لثلاثة أشخاص فهي مختصة بهم.

وإذا كانت «نجوى» بمعنى أشخاصٍ يتناجون، فلفظ «ثلاثة» بدلٌ من «نجوى» أو عطف بيان.

﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ...﴾:

أي: إلاّ اللَّهُ مَعَهُمْ يعلم ما يكون منهم من نجوىٰ وغيرها، والمعنى: ما يكون من أحوال متناجين إلاّ حالاتٌ يكونُ اللَّهُ معهم فيها، ففي هذا حَصْرُ أحوالهم بأحوال وجود الله معهم.

﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾:

أي: مصاحب لهم بعلمه وكلّ صفاته المراقبة لهم.

واختير في البيان هنا التفصيل مع إمكان ذكر عبارةٍ عامّة مختصرةٍ، مثل: والله مع المتناجين أين ما كانوا، لبيان أنّ مؤامرات المكر تتألف في الغالب من أعداد أحادية: (ثلاثة ــ خمسة ــ سبعة ــ تسعة) ليكون بينهم صوت مُرَجّح عند الاختلاف في الرأي، وقد يحدث خلاف هذا، وهو يدخل في عموم:

﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ﴾.

ويكون عندئذٍ صوت رأس المتناجين بصوتين.

﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾:

أي: في أيّ مكان كانوا فيه «أَيْنما» اسم شرط جازم، وهو يدلُّ على عموم الأمكنة، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله، أي: أينما كانوا فالله معهم.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾:

أي: ليحاسبهم عليه، ويجازيهم، وقد دلّ هذا التعبير على أنّ التناجي الذي هو من قبيل القول ــ وقد يقتصر على مجرّد القول دون أن يتبعه أفعال وتطبيقات ــ يدخل في عموم العمل، إذِ القول من عمل اللّسان، كما أنّ النيّات والإرادات من أعمال القلوب.

ولبيان دخول هذه الجزئيّة من علمه سبحانه وتعالى ضمن كليّة عامّةٍ من كليّات صفاته، وهي شمول علمه لكلّ شيء، قال عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾.

وهـذا من أسلوب القرآن، لترسيخ الإيمـان بالكلّيـات الاعتقاديّـة، في كثير من خواتيم الآيات، أو الموضوعات.

وبعد التمهيد بأن الله عزّ وجلّ عليم بنجوى المتناجين، والتذكيـر بأنّ هـذا العلم جزئيّةٌ من جزئيات شمول علمه الدّقيق لكل شيء، ذكـر النّصُّ مَا يفعـل المنافقـون من التناجي بالإثم والعـدوان ومعصية الرسول، مُتَحَـدِّين النَّهْيَ الذي سبق أن أنـزل الله به قرآناً يُتْلَى في سورة (النساء)، وبدأ بالتذكير بهذا النهي السابق، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ؟!﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

أي: اعلم، أو تنبّـهْ، أو احـذر، أو تَعَجَّبْ، بحسب حـال كـلّ فَـرْدٍ يصلُحُ للخطاب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ؟﴾:

أي: ناظراً إلى، فالتعدية بحرف الجرّ ﴿إلى﴾ لتضمين فعل ﴿تَـرَى﴾ معنى فعل «تنظر» لتحمل العبـارة دلالَتَيْ الفعلين الرؤيـة العلمية والنـظر، وفي هذا إشـارة إلى أنّه ينبغي مراقبة المنافقين مراقبة بصريّة، لمعرفة ما يتناجون به مما يضُـرُّ الإسلام وجمـاعة المسلمين.

﴿الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾:

هُمُ المنافقون المتظاهرون بالإسلام، فقد سَبَقَ أَنْ نَهاهُمُ اللَّهُ عن النجوىٰ، كما ذكرنا آنفاً.

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾:

أي: ثُمَّ يَعُـودُون لفعل مـا نُهوا عنـه، غير متّعـظين ولا مُبَالِين، ويخبـر الله عنهم فيُبيِّن الكُلّيات التي يتناجون بها، فيقول تعالى:

﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾:

أي: إنّ ما يتسارُّون به في خلواتهم، وهمساتهم يدخل تحت واحدٍ من كليّاتٍ ثلاث:

الكليّة الأولى: الإثْمُ، وهو يطلق على كلّ ذنب، من صغائر الذنوب حتّى كبائرها.

الكليّة الثانية: العدوان، وهو يطلق على الظلم، وتجاوز الحدّ المأذون به شرعاً، ويراد منه هنا العدوان على الإسلام والمكرُ به، والعدوان على المسلمين، وظلمهم، وإفساد أوضاع جماعة المؤمنين.

الكليّة الثالثة: معصية الرسول ﷺ، وتشمل هذه المعصية أوامر الرسول ﷺ الدينيّة، والإدارية بوصفه قائد الأمة الإسلاميّة، ومن أجل هذا خُصّتْ معصية الرسول ﷺ بالذّكر.

وذكر النصّ كبيرةً أخرى من كبائر المنافقين، وهي ما جاء في قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾:

لقد تعلَّمُوا من اليهود أن يقولوا: سَامٌ عليك، كما رُوي عن ابن عباس، وهذه العبارة تنم عن كراهيتهم الشديدة للرسول، وعن غُلوّهم في الكفر، وتماديهم في النفاق، وعدم اتّعاظهم بالذلّ والخزي الذي أصاب رأس المنافقين في المدينة بعد غزوة بني المصْطَلِق.

أمّا تحيّة الله فهي السلام كما سبق البيان آنفاً.

ويتلاعبُ بهم الشيطان بالوساوس، فيستجيبون له، فيقولون في نفوسهم: لو كان ما نحن عليه من نفاق، وكفرٍ بمحمّد، وتناجٍ وشتيمة بعبارة التحيّة، عملاً يسخط الله علينا لعقابنا فعذّبنا، لكنّه لم يعاقبنا ولم يعذّبنا، مستبعدين عن تصوّرهم أنّ الله من سنّته أن يُمْهِل ولا يعجّل لعباده العقاب، وأنّ الحياة الدنيا كلّها هي في الأصل مرحلةُ امتحان، لا مرحلة جزاء، وزادوا تمادياً في هذه الوساوس، حتى قالوا: هلاّ يُعَذِّبنا الله، لو كنا مذنبين حقّاً، كما يقول محمّد.

هذه مقولة يقولونها سرّاً في أنفسهم، كشفها الله عزّ وجل، وربّما كانوا يقولونها

أيضاً وهم يتناجون سرّاً، لأنّهم إذا تناجَوْا بها فيما بينهم فقد قالوها في أنفسهم، فقال تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾:

أي: يقولون: هَلَّا يُعَذِّبنا الله بما نقول، ﴿لَوْلَا﴾ هنا تحضيضيّة بمعنى «هلّا».
ولا نتصوّر أنّهم يستحثّون ربّهم أن يُنْزِل بهم العذاب، ولكنْ يَدُلُّون بهذا التعبير على أنّهم لا يفعلون شيئاً يستدعي أن يُنْزِلَ الله بهم العذاب، والسببُ في ذلك أنّهم لم يُؤْمنوا بأنّ محمّداً رسولُ الله، وبأنّ القرآن كتابٌ منزَّلٌ من عند الله، فمعنى كلامهم: هلَّا يُعذِّبنا الله لَوْ كُنّا كافرين برسول الله وكتابه حقّاً، لكن محمّداً ليس رسولاً، وليس ما يتلوه كلاماً منزّلاً من عند الله.

وفي التعقيب على مقالتهم هذه التي قالوها في أنفسهم قال الله عزّ وجل:

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٨﴾:

أي: يكفيهم عذاب جَهنَّم حالَةَ كونهم يَصْلَوْنَها. جَهَنَّم: اسْمُ علم لدار العذاب يوم الدين.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾:

أي: يحترقون بلهب النار التي تتوقد فيها، يقال لغة: صَلِيَ النارَ، وصَلِيَ بِها، يَصْلَى صَلىً، وصِلِيًّا، أي: احترقَ فيها.

والمعنى: إذا كانت جهنم التي يحترقون بلهب النار فيها تكفيهم عذاباً على كفرهم ونفاقهم وشرورهم ومنكراتهم، أفيريدون فوقه عذاباً معجلاً آخر في الدنيا؟!

وهذا يتضمّن أنّ خطة الله في الجزاء أن يكون مؤجّلاً إلى يوم الدين.

﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾:

أي: فبئس المصير الذي سيصيرون إليه جهنّم، ويلزم من ذمّ المكان الذي سيصيرون إليه عقاباً لهم ذمُّهُمْ الشديد، لأنّهم بذنوبهم قد استحقوا هذا المصير الذميم، فالمكان الذميم بعدل الله يلائمُ نُزّلاءَه.

ونلاحظ أنّ هذا الوعيد يطابق الوعيد الذي سبق أن وجّه لهم في النص السابق الذي نزل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) إذ جاء فيه:

﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

والمعنى: لا يستعجلوا عذاباً في الدنيا، حسْبُهم ما سبَقَ أن أوعدناهم به من حريقٍ في جهنم.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

توبيخُ المنافقين على تناجيهم بالإثم والعدوان ومعصيةِ الرَّسُول، ووعيدُهُمْ بالعذاب في جهنم، اسْتِدْعَيًا تَوْجِيهَ تكليفٍ حول الموضوع نفسه للذين آمَنُوا.

فنهاهم الله عزّ وجلّ عن أن يفعلوا في التناجي مثلما يفعل المنافقون، وأمرهم إذا تناجوا مُتَسَارِّين في الحديث أن يتناجَوْا ضمن إحدى كليَّتَيْن:

الكليَّةُ الأولىٰ: الْبِرّ، وهو كلّ ما فيه توسُّعٌ في فعلِ الخير، من نوافل العبادات وفعل الصالحات، زيادةً على فعل الواجبات وترك المحرّمات، ومن ذلك التناجي للإصلاح بين الناس، والجهاد في سبيل الله، ومساعدة ذوي الحاجات.

الكلّيّة الثانية: التقوىٰ، وهي الالتزام بفعل الواجبات وترك المحرّمات، ومن ذلك التناجي لجمع الزكاة وتوزيعها على مستحقيها، والتناجي لنُصْح مُسْلمٍ عاصٍ لله، غير مقيمٍ لحدوده.

ولمّا كان تَرْكُ التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرّسول أمراً من مقتضيات كُلّيَّةٍ عامّة من كليّات منهج السّلوك الإسلاميّ للنّاجين، وجزئيَّةٌ من جزئيّاتها، كان مِنَ المناسب التذكيرُ بهذه الكليّة، لتأصيلها وتعميقها في نُفُوسِ المؤمنين، وهي تقوى الله

في كلّ حَركة وسكَنَة، خاطب الله الذين آمنوا بقوله:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩﴾.

﴿تُحۡشَرُونَ﴾:

أيْ: تجمعون مَسُوقين، الحشر: السَّوْقُ والجمْعُ.

أي: واجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية، وهي فعل ما أوجب عليكم على قدر استطاعتكم، وترْكُ ما حرّم عليكم، فمن صفاته عزّ وجلّ أنّه الذي إليه تُحْشَرُون يَوْمَ تبعثون إلى الحياة بعد الموت، لتحاسبوا على ما قدَّمتم في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا، وما أخَّرتُم فلم تعملوه، من خير أو شرّ، ثم لتُجازَوْا عليه بالفضل، أو بالعدل.

ولمّا كان تناجي المنافقين فيما بينهم ممّا يُحْدِثُ قلَقاً وضيقاً وغمّاً في صدور المؤمنين، وهُمْ مأمورون أن يكفُّوا أيديَهُمْ عن معاقبتهم وإنْزال نقمَتِهِمْ بِهِمْ، حتّى ينكشف من أمرهم ما يُدانُون به، الأمر الذي يُحْدِثُ حُزناً في صدور المؤمنين، كان من الحكمة التربوية والعلاجيَّة، أن يبيِّنَ الله للذين آمنوا ثلاث قضايا:

القضيّة الأولى: أنّ هذه النجوىٰ التي يُمارِسُها المنافقون هي من وساوس الشيطان لهم، لِيَحْزُنَ بها الّذِين آمنُوا، أي: ليلقي الشيطان في قلوب الذين آمنوا الحزن بسبب ما يفعل المنافقون من تناجٍ فيما بينهم بحضور المؤمنين، إذْ لَنْ يَنالَ المنافقون منها فائدةً ولا مغنماً، لأنّ الله مُحبِطُ كَيْدَهُمْ ومُبْطِلٌ أعمالهم، ما دام المؤمنون على منهاج الله مستقيمين يَقِظِين حَذِرين، فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

القضيّة الثانية: أنّ الشيطان ليس بضارّهم شيئاً إلّا بإذن الله، لا عن طريق النجوىٰ التي يَسْتدرج المنافقين إليها، ولا عن طريق غيرها، وإذْنُ الله بشيءٍ من ذلك لا يكون إلّا لحكمةٍ، للابتلاء، أو التّنبيه، أو التربية، أو العقوبة المعجّلة وتكفير السّيِّئات، أو الثواب ورفع الدرجات، وكلُّ ذلك خيرٌ لا شرّ فيه، فقال تعالى:

﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾.

القضيّة الثالثة: أنّ المؤمنين مطالبون بأن يتوكّلوا على الله بعد أن يتّخذوا كامل الأسباب التي أمرهم الله بها، ليدفع عنهم الوساوس، ويشدّ فيهم العزائم، وينوّر بصيرتهم، ويكشف لهم أعداءهم، ويُحْبط لهم مكايدهم، فقال تعالى:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾.

●●●

النص الثامن والعشرون

وهو من سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول) أيضاً

«السورة (١٩) من التنزيل المدني»

الآيات من (١٤ ـ ٢٢)

حول اتخاذ المنافقين اليهود أولياء لهم

وتسترهم بالأيمان الكاذبة واستحواذ الشيطان عليهم

* قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً
فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ
أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا
تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا
آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ
وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

* * *

(١)
ما في النصّ من القراءات المتواترة (من الفرش)

* في الآية (٢١):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة [وَرُسُلِي] بإسكان ياء المتكلم.

وقرأ المدنيان نافع وأبو جعفر، وابن عامر الشامي بفتح ياء المتكلم.

والقراءتان وجهان في اللّغة لنطق ياءِ المتكلّم.

* * *

(٢)
موضوع النصّ وما روي حوله من أسباب النزول

موضـوع النص:

(١) تناول هذا النصّ بيان كبيرتين منكرتين من كبائر المنافقين الشنيعة:

الكبيـرة الأولى: اتّخاذهم اليهـود الذين غضب الله عليهم أوليـاء لهم من دون المؤمنين، ينصرونهم ويستنصرون بهم، ويوادّونهم، ويحادّون الله.

الكبيرة الثانية: حَلِفُهُم الأيمان على صِدْق ما يقولونه أمام الرسول أو المؤمنين إثباتاً أو نفياً، كتقديم عـذر كاذب على تخلّف عن واجب، أو ادّعـاء القيـام بعمـل لم يعملوه، أو إنكار عمل عملوه أو قولٍ قالوه، أو ادّعاء إيمـانٍ أو حبٍّ في قلوبهم، وقلوبُهُمْ كافرة كارهة، إلى غير ذلك.

فهم يجعلون حَلِف الأيمان ستراً يَقُون به أنفسهم أمام الرسول والمؤمنين، من انكشـاف نفاقهم وخيـاناتهم، وظهـور قبائحهم، وكبـائـرهـم التي يـرتكبـونهـا سـرّاً، ومكـايدهم التي يكيـدونها ضـدّ الإسلام والمسلمين، ومـوالاتهم أعداء الله ورسـوله الصرحاء من اليهود والمشركين.

وليأمنوا بالأيْمان الكاذبة من العقاب، فيستمرّوا بـالنفاق صـادّين مُحْجمين عن اتّبـاع سبيل الله، وعـاملين سرّاً في صـرف غيرهم عن سلوكـه، من ضعفاء الإيمـان

الذين يستجيبون لهم، أو الكافرين الّذين يجدون لديهم ميلاً إلى الدخول في الإسلام.

(٢) وتناول النصّ أيضاً وعيد المنافقين بعذاب شديد مُهين.

(٣) وجاء في النصّ بيان أنّ المنافقين لن تغنيهم أموالهم ولا أولادهم، فلن تكون دافعةً عنهم من عذاب الله شيئاً، إذا أراد الله أن يُنْزِل بهم عقابه في الدنيا، بجائحة كونيّة من أمره، أو بمصيبة تنزل بهم على يَدِ رَسُوله وأَيْدي المؤمنين إذْ يكشف من خياناتهم ما يستحقّون عليه العقاب في الدنيا.

(٤) وجاء في النصّ بيان أن صفة الكذب، وحَلِفِ الأيمان على ما يقولون من كذب إثباتاً أو نفياً، ستلازمهم، حتّى مَوْقفِ حسابهم بين يَدَي ربّهم يوم الدين، فيحلفون لله الأيمان الكاذبة على ما ينكرون أو ما يدّعون، رجاء أن تُنَجيهم أيمانُهم من عذاب الله، ظانّين أن أكاذيبهم وأيمانهم تنفعهم عند الله، كما استطاعوا أن يَسْتُرُوا بها أنفسهم في الدنيا.

لقد أَمَرَ الله المؤمنين في الدنيا بأن يقبلوا من المنافقين ظاهرهم، إذا لم تثبت إداناتهم ببيّنةٍ شرعية، فلا يُعاقبوهم، ولكن ليس معنىٰ هذا أن لا يحذروهم، أوْ أن يتّخِذُوا منْهم بطانة، أو أن يَثِقُوا بهِمْ في أمور السّلْم أو الحرب، فهذه أمور لم يأذن بها الله، بل هي من الغفلات، أو التقصيرات، أو الخيانات، التي يؤاخذ الله المؤمنين عليها، وينزل بهم البلايا والنكبات بسببها، لأنّها من التفريط بالحقوق والواجبات العامّة، التي تضر بالإسلام وجماعة المسلمين.

أمّا إنزال العقاب على الرّدّة أو الخيانة بالتهمة دون بيّنة شرعية فهذا هو الذي كفّ الله يد المؤمنين عنه في التعامل مع المنافقين.

(٥) وجاء في النصّ بيان أنّ المنافقين استحوذ عليهم الشيطان، أي: استولَىٰ عليهم استيلاءً كاملاً، وساقهم في السُّبُل الضالة على ما يريد، فهم حزب الشيطان ضمن صفوف المؤمنين.

(٦) وجاء في النصّ بيان أن الله سيجعلهم في الأذلين، جزاء أنّهم يحادّون الله ورسوله.

(٧) وجاء في النصّ بيان إحدى سُنَن الله التي قضاها قضاءً مبرماً، وهي:

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾.

وما قضاه الله نافذ حتماً:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾.

(٨) وجاء في النصّ بيان الوصف الذي يتحلّى به المؤمنون، من أنّهم لا يُوادّون من حادّ الله ورسوله في أيّة حال من الأحوال، وبيان ما لهم عنده من تثبيت وتأييد وأَجْرٍ عظيم ورضا عنهم وإرْضاء لهم، على النقيض تماماً ممّا عليه المنافقون.

ما روي من سبب النزول:

(١) جاء عند ابن أبي حاتم والإمام أحمد وابن جرير والحاكم وصحّحه، وغيرهم عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ كان في ظلّ حُجْرَةٍ من حُجَره، وعنده نَفَرٌ من المسلمين، قد كاد يَقْلِصُ عنهم الظلّ (أي: ينكمش وينضمّ) قال:

«إنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ إنْسَانٌ يَنْظُرُ بِعَيْنَيْ شَيْطَانٍ، فإذَا أتَاكُمْ فَلا تُكَلِّمُوهُ»، فجاء رجلٌ أَزْرَقُ، فدعاه رسول الله ﷺ فكلّمه فقال:

«عَلامَ تَشْتُمُني أنْتَ وفُلانٌ وفُلانٌ، نَفَرٌ دَعَاهُمُ (أي الرسول) بأسمائهم.

قال: فانطلق الرجل، فدعاهم، فحلفوا له واعتذروا إليه، فأنزل الله عز وجل:

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٨﴾.

(٢) وذكر السُّدّي ومقاتل أنها نزلت في عبد الله بن أُبيّ، وعبْدِ الله بن نَبْتَل، كان أحدُهما وهو عبد الله بن نَبْتَل يجالس النبيَّ ﷺ، ويرفع أخباره إلى اليهود، ويسُبُّ النبيّ ﷺ، فإذا بلغ النبيَّ خَبَرُه، أو أطلعه الله عليه، جاء فاعتذر، وأقْسَمَ أنَّهُ ما فعل.

* * *

(٣)
المفردات اللّغوية في النصّ

﴿تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾:

أي: اتّخذوهم أولياء لهم من دون المؤمنين، ينصرونهم، ويستنصرون بهم، ويوادّونهم، وينقلون لهم أخبار المسلمين، ويستشيرونهم، ويتآمرون معهم للإضرار بالإسلام والمسلمين.

﴿جُنَّةً﴾:

أي: سُتْرَة واقية، وكلُّ ما وقَى من سلاحٍ وغيره يُسمَّى جُنَّة.

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أي: فأحْجَمُوا عن سلوكه، وانصرفوا عنه سرّاً، وصَرَفوا غيرهم من الذين يتأثّرون بهم عن سلوكه.

فعل «صَدَّ» يُستعمل في اللّغة لازماً بمعنى أحجم وأعرض وتولّى مدبراً، ويُستعمَل متعدّياً بمعنى صرف غيره وحوّله، أو منعه وأغْراه بأن يعرض أو يدبر.

﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾:

أي: عذابٌ فيه إهانةٌ لهم وتحقير.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾:

أي: أولئك ملازموها ملازمةَ الصاحب لصاحبه، الصاحبُ الرّفيق الملازم. ويأتي بمعنى مالك الشيء، أو مستحقه، أو القائم على أمره، والأصل في المعنى: المرافقة والملازمة.

﴿خَٰلِدُونَ﴾:

باقون دواماً.

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾:

أي: استولى عليهم الشيطان، وغلَبَهُمْ على أمرهم، وساقهم كما يريد.

يقال لغة: حَاذَ الشيءَ، أي: حاطَهُ وغلبَ عليه. وحاذَ الدّوابَّ، أي: ساقها سَوْقاً عنيفاً، ومنه الحوذي، وهو الطارد المستحث على السّير دوابّه، وسائق العربة.

ويقال: اسْتَحْوذَ علىٰ الشيء، إذا استولى عليه، واستحوذ فُلانٌ على فُلانٍ، إذا غلبه. وقد يأتي هذا الفعل بمعنى: أحاط به وحفظه، ومنه: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عليكم﴾، كما سبق بيانه، في النص (١٨) من سورة (النساء).

﴿حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾:

أي: الجماعة المتفقة فيما بينها على ما يريد منهم الشيطان، ويسوقهم إليه. ويأتي في مقابلهم حزبُ الله.

الحزبُ: الجماعة المتفقة المتناصرة على أمر، أو الجماعة الذين تشاكلت مبادئهم وأهواؤهم واتفقت أعمالهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ﴾:

سبق بيانه في النص (٢٧) من سورة (المجادلة).

﴿فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾:

أي: في الأضعفين المهينين، جمع «أذَلّ» أفعل تفضيل من «ذلّ» إذا ضعف وهان، يقال لغة: ذَلَّ يذِلُّ ذُلاً، وَذِلَّةً، ومَذَلَّةً.

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾:

أي: وقواهم بقوة خفيّةٍ منه، يُطْلَق لفظ «الروح» على القوّة غير المرئية، كما يطلق على ما تكون به الحياة، وعلى القرآن، والوحي، وغير ذلك.

* * *

(٤)

مع النصّ في التحليل والتدبُّر

* قَوْلُ الله عزّ وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

استفهام موجّه لكل من يصلُح للخطاب من الذين يملكون رؤيةً فكريّةً علميّة شبيهة بالمشاهدة البصريّة، فعبارة: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى﴾ هي على تقدير: ألم تر ناظراً إلى، وفق أسلوب التضمين الكثير في القرآن.

والغرض من الاستفهام عن عدم الرؤية هنا:

(١) الإعلام بما يفعل المنافقون والحث على التعلّم، بالنسبة إلى غير العالم.

(٢) التعجيب من أمرهم الشنيع، بالنسبة إلى كلّ فرد يصلح للخطاب.

(٣) التنبيه أو التذكير بالنسبة إلى الغافل أو الناسي.

(٤) توجيه العالم الذاكر أن يهتم بأمر المنافقين ويحذرهم.

(٥) إشعار المنافقين بأنّ كلّ أعمالهم معلومة لله عزّ وجل، مع الإلماح إلى إمكان فضحهم بأشخاصهم وأعيانهم.

والنصّ يتحدّث عن فريق من المنافقين اتّخذوا من اليهود الذين غضب الله عليهم أولياء لهم من دون المؤمنين، يوادّونهم ويناصرونهم ويستنصرون بهم، ويتآمرون معهم ضدّ الإسلام والمسلمين الصادقين، وينقلون لهم الأخبار، ويعملون بآرائهم، إلى غير ذلك ممّا يَدُلّ عليه فعل التولّي.

وحظّ اليهود من غضب الله هو الحظّ الأوفى من كلّ مَنْ غضب الله عليهم، حتى إذا ذُكرَ الذين غضب الله عليهم بالوصف غير مقيّد بقوم مذكورين، كان المتبادر من إطلاق الوصف أنّ المراد منهم اليهود، فمعظم النصوص القرآنية التي جاء فيها ذكر من غضب الله عليهم، يدل السياق أو السّباق على أنّ اليهود هُم المقصودون.

يضاف إلى هذا أنّ المنافقين في المدينة كانوا يُوالُون اليهود سرّاً، وقد

يصرّحون بموالاتهم لَهُمْ جهراً، كما فعل ابن سلول إبّان إجلاء يهود بني قينقاع، ثم إبّان إجلاء يهود بني النضير.

ودلّ على أنّ النص نزل في المنافقين قول الله فيه خطاباً للمؤمنين:

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾.

فهذا التعبير إنّما ينطبق على المنافقين، لأنّ اليهود ليسوا مظنّةً لأن يكونوا من المؤمنين، حتى يقول الله لهم: ﴿مَا هُمْ مِنْكُم﴾ بخلاف المنافقين، فظاهر حالهم أنّهم من المؤمنين، فجاء البيان كاشفاً لحقيقتهم.

ودلّ أيضاً على أنهم ليسوا من منافقي اليهود، بل من منافقي العرب المشركين، لأنّهم لو كانوا من منافقي اليهود لما قال الله: ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾، فالمنافقون من اليهود هم من اليهود باطناً، فكان هذا البيانُ وصفاً محدِّداً دالاً على أنهم من مشركي العرب المنافقين المتظاهرين بالإسلام، والمبطنين للشرك.

ولا يقتصر أمر هؤلاء على أنّهم يتّخذون اليهود الذين غضب الله عليهم أولياء سرّاً، بل يُضِيفون إلى هذه الخيانة الْعُظْمَىٰ أنّهم يحلِفُون الأيمان لتوثيق الأقوال الكاذبة التي يقولونها افتراءً، إذْ هم يَعْلَمُونَ أنّها أقوال كاذبة يقولونها في إثبات قضايا أَوْ نفي قضايا، فقال تعالى عطفاً على وصفهم السابق:

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤﴾.

أي: يَصنعُون الكذب، ويحلفونَ الأيمان عليه، للإغراء بتصديقه، فكأنّهم يغطّونَ رجْسَ الكذب بما للأيمان من قدسيّةٍ في قلوب المؤمنين، فيجعلون الأيمان أغطيةً على الكذب لِسَتْرِ كَوْنه كذباً، وخداع المؤمنين بأنّه صدق.

ولا بدّ أن يُلاحظ الأديب ما في هذا التعبير القرآني من إبداع في الفكرة، مع إيجازٍ في التعبير.

هاتان الخصلتان الذميمتان من خصال المنافقين تستحقّان توجيه وعيد خاصّ لهم بسببهما، فقال تعالى:

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

وهذا العذاب الشديد يذوقونه يوم الدين في جهنم دار عذاب الكافرين.

وإذا قيل يومئذٍ: لِمَ يُعَذَّبُونَ هذا العذاب الشديد؟ كان الجواب ما جاء في قوله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: ومن ساء عمله في حياة الابتلاء، اشتدّ عذابُه السّيّىء في حياة الجزاء يوم الدين.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾.

في هذه الآيات الثلاث من هذا النصّ يُبيّن الله عزّ وجلّ سَبْعَ قضايا تتعلّقُ بالمنافقين:

القضيّة الأولى: تتعلّق ببيان غرضهم من حَلِفهم الأيمانَ على الكذب، فقال تعالىٰ:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾:

أي: جعلوا أيمانَهُمْ سُتْرَةً يَسْتُرونَ بها نِفَاقَهُمْ، ومنكراتهم، وخياناتهم، وموالاتِهِمْ للّذين غضب الله عليهم، وسائر أعمالهم التي تُعَبّر عن هُوِيّتهم الحقيقيّة، وهو الكفر بالرسول، وبما جاء به عن ربّه، ولزومهم مواقع شركهم القديم في السّرّ.

الجُنّةُ: السُّتْرَةُ، وكُلُّ ما وقَىٰ مِنْ سلاحٍ وغيرِه، وسُمّيَ التُّرْسُ مِجَنّاً لذلك.

إنّهم في موقع المحارب الجبان، الذي يُريد أن يقاتل، ولا يستطيع

المواجهة، فيستُرُ نفسه بما يُخْفِي تحرّكاته العدائيّة الكيديّة، وستَارَتُهُم هي الكذب، والْحَلِفُ على الكذب.

القضيّة الثانية: تتعلّق ببيان صَدِّهِمْ عن سبيل اللّهِ، إذْ حَسِبُوا أنَّهُمْ أمِنوا بِسَتْرِ أنْفُسِهِمْ وتَحَرُّكاتِهِمُ الْمُرِيبة بأيمانهم التي يحلفونها على الكذب، فانْطَلَقُوا من وراء السّتر يَصُدُّونَ عن سبيل الله.

وصدُّهم عن سبيل الله له وجهان: لازمٌ، ومُتعدٍّ.

فالوجه اللاّزم: يكون بإحجامهم وانصرافهم عن سلوك سبيل الله ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً غير فاضِحٍ لهم.

والوجه المتعدّي: يكون بصرفِ ومَنْعِ من يتأثر بهم من ضعفاء الإيمان، أو الكافرين الذين لديهم مَيْل لأن يُسْلِمُوا، عن سلوك سبيل الله.

فقال تعالى:

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

القضيّة الثالثة: تتعلّق ببيان أنّ الله عزّ وجلّ قد قضىٰ بأنّ للمنافقين عذاباً مُهيناً، مُرَتَّباً على حَلِفهم على الكذب، وصَدِّهِمْ عن سبيل الله، وأنّ هذا العذاب الْمُهين مُعَدٌّ لَهُمْ ومُهَيّأٌ، فهم ينالونه بعد مفارقتهم عتبةَ حياة الابتلاء، ودخولهم عتبة يوم الجزاء، فقال تعالى:

﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾.

وقد يكون هذا العذاب المهين عند موتهم، وفي مدّة البرزخ بين الموت والبعث، وفي يوم الحشر.

القضية الرابعة: تتعلّق بأمْرِ اعتمادهم في الدنيا على أموالهم وأولادهم، لدفع نقمة الرسول أو المؤمنين عنهم، إذا انكَشَفَ لهم أمْرُهُمْ، وظهرَتْ لهم خياناتهم، والْبَيَانُ القرآني يُثْبِتُ أنَّ الله قضىٰ بأنّه لَنْ تغنيهم أمْوالهم ولا أوْلادُهم، فلا تدفع عنهم من عذاب الله شيئاً، إذا أراد الله أن يُنْزل بهم عقابه في الدنيا.

فإن أراد الله تعذيبهم بجوائح كـونية من أمره فَلَنْ تُغْنيَهُم أموالهم ولا أولادهم شيئاً، ولَنْ تدفع عنهم عذابه.

وإنْ سلّط الله رسولَه أو المؤمنين عليهم، وأغراهم بقتالهم فَلَنْ تُغْنيَهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً، وسيَنْصُرُ رسُولَهُ والذين آمنوا عليهم. وقَدْ حذّرهم الله عزّ وجلّ من هذا التسليط بقوله في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

وقد سبق شرح هذه الآيات في أواخر النص (١٣) من هذه الدراسة.

وفي بيان أنّ أموالهم وأولادهم لن تُغْنِيهم شيئاً، ولَنْ تَدْفَعَ عنهم عذاب اللّهِ، قال تعالى:

﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ﴾:

أي: لَنْ تَكْفِيَهُمْ فَتَصْرِف عَنْهم أموالُهم ولاَ أولاَدُهُمْ من عَذابِ اللّهِ شيئاً.

أصْلُ معنىٰ «أَغْنَاهُ» كَفَاهُ، والكفاية عند الحاجة إلى ما يدفع المكروه تتضمّن معنى الكفّ والصَّرْف، أي: كفاه فصَرَفَ عنه ما يكره، فَعُدّي فعل «أغنى» عند إرادة هذا المعنى تعدية فعل «كفّ أو صَرَفَ» وفق أسلوب التضمين، وقد استعمل العرب هذا التضمين في فعل «أغنى» فقالوا: أَغْنِ عَنّا شَرَّكَ، أي: اصْرِفْهُ وكُفَّهُ.

ورُوي أنّ عليّاً بعث إلى عثمان رضي الله عنهما بصحيفة، فقال عثمان للرسول: «أَغْنِهَا عَنَّا» أي: اصْرِفْهَا عَنّا.

وجاء تكرير النفي في: ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ للدّلالة على أن من المنافقين من لديه أموال فهو يستغني بأمواله ويرى أنّها تدفع عنه، ومنهم من لديه أولاد فهو يستغني بأولاده ويرى أنهم يدفعون عنه، ومنهم من لديه أموال وأولاد، فيأخُذُ كُلُّ فريقٍ حظَّهُ الخاصّ من النفي، وأمّا من لديه أموال وأولادٌ معاً فيؤكَّدُ له النفيُ مرّتين، أحدهما مع الأموال، والآخر مع الأولاد.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ هو على تقدير مضاف محذوف يُفْهَمُ من القرينة، والكلام على تقدير: لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً.

القضيّة الخامسة: تتعلّق ببيان مصيرهم الأخير يوم الدين، فقال تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أي: أولَئك البعداء عن رحمة الله، والبعداء في جهة الدرك الأسفل، هم مستحقو النار وملازموها، وهم فيها خالِدُون.

القضية السادسة: أنّهم يوم يُبْعَثُون ويُوقَفُون للحساب، يَحْلِفون على الكذب بين يدي الله، كما كانوا يحْلِفُونَ للرُّسول وللمؤمنين على الكذب في الحياة الدنيا، متوهمين أنّ هذا الخداع ينفَعُهم فيدفع عنهم عذاب الله، كما نفعهم في الدنيا، إذْ دفع عنهم انتقام الرسول والمؤمنين.

لكنّهم يجدون صحائفهم لم تغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصتها، ويجدون شريط أعمالهم معروضاً بالصورة والصوت والنيات والخواطر وأحاديث النفس والقلب، ويجدون جوارحهم تشْهَدُ عليهم بما قدّمُوا، ويجدون أنّهم مفضوحون بالكذب، وأنّ العذاب نازل بهم لا محالة.

دلّ على هذه القضية قول الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾.

أي: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جميعاً لِيَوْم القيامة، فَيُحْشَرُون، فَيُساقون لمحكمة العدل الربّانية، فَيُسْأَلُون لِيُحَاسَبُوا عَلىٰ أعمالهم فَيَحْلِفُونَ عَلَىٰ الكَذِبِ، كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ اليوم أيها المؤمنون في الحياة الدنيا، ويَحْسَبُون أنّهم بقدرتهم على الكذب بألسنتهم، وسَتْرِ أكاذيبهِمْ بما يحلفون من أيمان قابضُون أو مسيطرون على شيءٍ ينفَعُهم، فيدفَعُ عنهم عذاب الله.

هذا الكلام هو جزء جملة يتطلّبُ جزأها الآخر، وهو بمثابة المبتدأ الذي لم يأت بَعْدُ خبره، فأين جزءُ الجملة الآخر؟.

أقول:

هو مطويٌّ يمكن إدراكه بأدنى تأمّل، ومعناه، لكنّهم يفتضحون، وتُقام عليهم البينات التي لا يستطيعون جُحودَها، وتشهد عليهم جوارحهم، ويُدانون بكفرهم وَنِفاقهم، وبما ارتكبوا من جرائم، ويُحكَمُ عليهم بالعذاب في النار خالدين فيها، ويظهر لهم أنهم ليسوا على شيء يدفع عنهم أو يصرف عنهم عذاب الله.

لقد ماتوا وهم كذّابون، حلاّفون على الكذب، ويُبْعَثونَ يوم القيامة على ما ماتوا عليه كذّابين حلاّفين على الكذب.

روى الإمام مسلم وابن ماجه عن جابر، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَىٰ مَا مَاتَ عَلَيْهِ».

القضية السابعة: بيان أنّهم أكذب الكذّابين، حتّى كأنّ الكذب منحصر فيهم، على معنى تفرّدهم باحتلال الدرَكة السُّفْلَىٰ من دركاتِ الكذِب، فقال تعالى مستفتحاً بأداة التّنبيه:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾.

استُفِيد الحصر من تعريف طرفي الإسناد، مع التأكيد بضمير الفصل. أداة التعريف هي هنا للكمال، أي: للدلالة على أنّهم جمعوا كلّ أنواع الكذب، واستكملوا كلّ عناصره، وهذا الجمع لا يوجد عند غيرهم، فهم أخسّ الكذّابين، لا يشاركهم في دركة هذه الخسّة أحد.

هذا الحصر لم يرد في القرآن إلاّ ثلاث مرات:

الأولى: في سورة (النحل) في معرض من يفتري الكذب على الله، ولا يفتري الكذب على الله إلاّ منافق.

والثانية: في سورة (النور) بشأن الذين جاءوا بالإفك، والذين جاءوا بالإفك ابتداءً هم المنافقون، ورأسهم ابْنُ سلول.

والثالثة: هذا الذي في سورة (المجادلة) وهو بشأن المنافقين.

فلا اختلاف في دلالات النصوص القرآنية حول حصر كمال الكذب في المنافقين.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

في هذه الآية بيان أربع قضايا بشأن المنافقين:

القضية الأولى: بيان أنّ الشيطان استحوذ عليهم، أي: استولى عليهم، وغلب على أمرهم، وجعل إراداتهم طوع أوامره ونواهيه، وجعل أفكارهم ومفهوماتهم وتصوّراتهم في الحياة انعكاساً لوساوسه وتسويلاته، وساقَهُم كما يسوق الحُوذِي الدوابّ سوقاً سريعاً عنيفاً، وكانوا ممّن صدّق عليهم إبليس ظنّه، إذ قال لربّه حين لعنه وطرده، وأهبطه وأخرجه من مواطن القرب مع الملائكة، مذءوماً مدحوراً، كما جاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

أي: لأَسْتَميلَنَّهُمْ ولأَسْتَوْلِيَنَّ عليهم ولأسوقَنَّهُمْ كالدّوابّ منْ أحْناكهم.

﴿احْتَنَكَ الدابَّةَ﴾: أي: وضع في حنكها الأسفل حبلاً يقودُها به. فالكفرة والمنافقون من بَني آدم جعَلَهُمْ إبليس كالبهائم من الدواب والأنعام، وساقَهُمْ كما يَسُوقُ الحوذي دوابَّه.

أمّا الذين استعصَوْا على إبليس فهم الذين حافظوا على تكريم الله لهم إذْ جعلهم في أَحْسَن تَقْويم، ولم يستجيبوا للشيطان كما استجاب الذين ردّهم الله باستجابتهم له إلى أَسْفَل سافلين، الذين هم كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً، وقد دلّ على هذه القضية قول الله تعالى:

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

القضيّة الثانية: وهي تأتي أثراً من آثار القضية الأولى، وهي ما حصل لديهم من نسيان ذكر اللهِ تماماً، فمن استحوذ عليه الشيطان، وملأ ساحة فكره بما نثر فيها وزرع من وساوسه وتسويلاته وشبهاته وضلالاته، وسقَى وتَعَهَّد بالنَّماء، أنساهُ الشيطان ذكر الله، فَهُو لا يذكر الله حينما يتقلّب في نِعَمِه، ولا يذكر الله حين يتعرّض لبلائه ومصائبه، بل يَرَىٰ كلّ ذلك مصادفات من ظواهر الحركات الطبيعيّة، أو آثاراً لأعمال يقوم بها الناس لا سلطان لقضاء الله وقدره عليها، وإذا كانت له مطالب سعَىٰ يتخذ الأسباب المادّية لبلوغها دون أن يتحرّكَ قَلْبُه بالتّوكّل على الله عند اتّخاذها، وحينما تَتَعَسَّرُ عليه يلْجَأ إلى الغيبيّات التي يؤمن بها المشركون، وهنا تتلاعَبُ به الشياطين، وإذا كان لا يذكُر الله عند هذه الأمور فهو لا يَذْكُرُ اللَّهَ حَتْماً ليحْمَدَه ويشكُرهُ ويَعْبُدَه، وليفعل ما أمر به، ويتركَ ما نهى عنه، وقد دلّ على هذه القضية قول الله تعالى:

﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾.

دلت «الفاء» العاطفة، علَى الترتيب مع التعقيب، ودَلّت على السببيّة، ودلّ حدوث النسيان على أنّه أمر طارىء عليهم بسبب استحواذ الشيطان عليهم، ولم يكن من فطرتهم، ولا من أوائل رحلة امتحانهم قبل أن يستحوذ عليهم الشيطان عن طريق الأهواء والشهوات والشُّبُهَاتِ والضلالات.

القضيّة الثالثة: وَهي تأتي أثراً من آثار اجتماع القضيتين الأولى والثانية، وهي أنّ المنافقين حينما يتلاقَوْن على مبادىء ومفهومات وعقائد وأنواع سلوك في الحياة جرّهم الشيطان إلى سلوكها، فلا بدّ أنْ يتألَّفَ منهم حِزْبٌ تشاكلت مبادىء أفراده، وأهواؤهم، وتشابهت أعمالهم، ولمّا كان الشيطان هو الذي يوسوس بها ويسوّل، ويستدرج إلى سلوك سُبُلِها، فلا بُدّ أن يكون الشيطان هو رئيسها وقائدها، فحِزْبُهُمْ هو حزبُ الشيطان، لأنّه هو قائده، ورئيسه، وواضع برامجه، وموجِّهُ أفراده، وسائقهم سوق البهائم.

القضيـة الرابعة: تتضَمَّنُ بيان عاقبة هذا الحزب الشيطاني، وهي أنّه هو الحزبُ الوحيد الخاسِرُ لكلّ شيء، فكمالُ الخُسْران مُنْحَصِرٌ به، فقال تعالى:

﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

[أَلَا]: أداة استفتاح للتنبيه والتحذير.

[إِنَّ]: لتأكيد الخبر.

[هم]: ضمير فصل لتأكيد التأكيد، ولإفادة الحصر الذي يحصل بتعريف طرفَي الإسناد.

[الْخَاسِرُون]: أي: المستجمعون لخسارة كلِّ شيءٍ إذْ خَسِرُوا أنفسهم، ودفعوا بها إلى العذاب الأليم الخالد في دار العذاب. فهَلْ يوجد خُسْران أشدّ من هذا الخسران؟!.

أداة التعريف هنا لاستغراق أفراد جنس الخسران، فتحقّق بذلك القصر.

ولم يأت هذا القصر في القرآن إلّا وصفاً للكافرين، والكافرون جميعاً على اختلاف مذاهبهم وأهوائهم وبرامجهم هم حزب الشيطان.

أمّا غير الكافرين فقد يخسَرُون خسارات مختلفات الدرجات لكنَّهُمْ لا يكونون هم الخاسرين لكلّ شيء.

وهكذا يظهر لنا الانسجام والاتفاق في دلالات العبارات القرآنية، ولو كان هذا الكتاب من عند غير الله لوجد الباحثون المنقّبون فيه اختلافاً كثيراً.

فالحمد لله الذي هدانا لهذا الكتاب، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

والحمد لله على توفيقه وفتحه في تدبّر آيات كتابه.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

سبق في صدر النصّ السابق (٢٧) من سورة (المجادلة) بيان أنّ المنافقين يحادّون الله ورسوله، أي: يقفون في حدٍّ معارض ومضادّ لحدّ الله ورسوله سرّاً،

ويتربَّصُونَ أنْ تَسْنَح لهم الفرصة ليكونوا مقاتلين للتخلّص من الإسلام والمسلمين قتالاً علنيّاً، فهم أعداء حقيقيون سرّاً، إلاّ أنهم جبناء.

فاقتضت الحكمة البيانيّة تَطْمِين الرّسول والذين آمنوا، وَوَعِيدَ المنافقين، بأنّهم سيكونون بسلطان القهر الرّبّاني في الضعفاء المخذولين الأذلين، فقال الله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ۝٢٠﴾.

هذه الجملة خبرُ ﴿إِنَّ﴾ واسم الموصول وصِلَتُه اسْمُهَا، ومعنى: ﴿فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ أذِلّاءُ ضعفاءُ مخذولون في مَجْمَع الأذلّين من الإنس والجنّ، فهم رُكْمَةٌ مِنْ رُكَامِ الأذلّين الْمَغْلُوبين، ليسوا مؤهّلين لأن ينتَصِروا، مهما اتّخذوا من وسائل وأسباب.

وليس هذا الخبر عنهم أمراً معتمداً على ظنون وأمارات، بل هو قضاءٌ بقَدَرٍ ربّانِي، دلّ عليه قول اللّهِ تعالى:

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾.

قانون من قوانين الكون الربّانية، أو سُنّة من سُنَنِ الله، قضاها وألْزَم الله بها نفسه، في ظروف الحياة الدنيا، حياة الابتلاء، قَبْل حياة الجزاء، هذه السنّةُ هي:

﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾.

ويُلْحَقُ المؤمنون الصادقون بالرُّسل إذا التزموا منهج الله، ولم ينحرفوا عنه، أو يقصّروا بواجباتهم تجاهه.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾:

أي: سجّل الله كتابةً في اللوح المحفوظ، ثُمّ في الصُّحُفِ الّتي قد يُكْتَبُ فيها بعضُ ما فيه، كصُحُف الملائكة.

الكتابةُ تدوين لكلام يشتمل على علمٍ ما، وقد تَحْمِلُ الكتابة دلالَةَ الأمْرِ المكتوب، فإذا كان المكتوبُ يُعَبِّر عن قضاءِ اللّهِ وقَدَرِه، حمَلَ فعلُ ﴿كَتَبَ﴾

معنى: «قضى وَقدَّر». وإذا كان المكتوب يُعبِّر عن أمْرٍ أو نَهْيٍ، حمَلَ فعل ﴿كتَبَ﴾ معنى: «أَمَرَ أو نَهى» وإذا كان المكتوب يُعبِّرُ عَنْ شيءٍ فرضه اللَّهُ على عباده، حمل فعل ﴿كتَبَ﴾ معنى «فرض أو أوجب». وإذا كان المكتوب يُعبِّر عن حقيقة أزلية، كان معنى ﴿كتب﴾ دَوَّنَ معلومة من المعلومات الأزلية. وإذا كان المكتوبُ يُعبِّر عن أمْرٍ سيفعله العباد باختيارهم الحرّ، كان معنى ﴿كتب﴾ دوَّن معلومةً من المعلومات التي يحيط بها عِلْمُ اللَّهِ عزّ وجلّ، ولَوْ كانت ممّا سيفعله العباد باختيارهم الحرّ، وهذه من خصائص شمول العلم الرّباني لكلّ شيء، ولا يُقالُ في هذه: قضىٰ وقدّر، فمن فهم في هذه معنىٰ «قَضَىٰ وَقَدَّر» فقد أساء، وأفْسَدَ، ولم يتدبّر.

ولمّا كانتْ سُنَّةُ اللَّهِ في: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ سُنَّةً نافِذَةً، وكان نَفاذُها مظهراً من مظاهر قُوَّةِ اللَّهِ وَعِزَّتِهِ الْغَالِبَة، وجزئيّةً من جُزئيّات صِفَةٍ كلّيَّةٍ من صِفَاتِ اللَّهِ الْجَلِيلَةِ وهي أنّ اللَّهَ قويٌّ عزيزٌ، أي: غالِبٌ لكلِّ الْقُوىٰ متىٰ شاء، كان من الحكمة في البيان التذكير بهذه الكلّيّة الاعتقاديّة، لربط الفروع بالأصول، ولتعميق الإيمان وتثبيته في قلوب المؤمنين، ولإقامة الحجّة على الكافرين المعاندين، فقال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

عزيز: أي: ذو عزّة كاملة. العِزّةُ: هي القدرة على التغلّب، تقول العرب، عزّ إذا غلب، وفي المثل: (مَنْ عزّ بَزّ) أي: من غلبَ سَلَبَ.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

في مقابل ما عليه المنافقون من اتّخاذهم أعداء الله اليهودَ الذينَ غضب الله عليهم أَوْلِياءَ من دون المؤمنين، كان من الحكمة البيانيّة توضيحُ الموْقف المتجدّد باستمرار للذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، حَوْلَ موضوع موالاة من حادّ الله ورسُولَهُ من أهل الكفر الصّرحاء والمنافقين.

وهذه الآية قد ختم الله بها سورة (المجادلة) موضحةً مَوْقف المؤمنين في موضوع الموالاة.

إنّها آية خطيرة جداً، تَدْمَغُ الَّذين يُوادُّونَ مَنْ حادّ الله، موادَّةَ مُوالاةٍ بنُصْرةٍ وَمَعُونَةٍ وَتأييدٍ ضدَّ الإسلام والمسلمين، بأنّهم لَوْ كانوا يُؤْمِنُون باللَّهِ والْيَوْمِ الآخر لما فعلوا ذلك، إذْ:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾:

أي: لا تَجِدُ أيُّها الباحثُ الْمُنَقِّبُ الصّالِحُ للخطاب قَوْماً لهم كُتْلَةٌ أو جماعةٌ ما يُوادُّون مَنْ حَادّ الله ورسوله، وهم مع ذلك يؤمِنُون بالله واليوم الآخر.

إنّهم لو كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر لخافوا من عذاب الله الشديد الذي يجعلهم مع أوليائهم الكافرين في النار، إنّ هذه الموالاة للكافرين ضدّ المؤمنين خيانَةٌ عُظْمَىٰ تَقْذِفُ بالموالين إلى صفوف الكافرين الذين يحادّون الله ورسوله.

إنّ إنساناً لديه ذرّة من إيمانٍ وعقل لا يرتكبُ هذه الكبيرة العظمىٰ، فالآية لا تجعل هذه الموادّة إحدى المكفّرات، لكنّها تكشف أنّها تَدُلُّ على عدم وجود الإيمان بالله واليوم الآخر في القلْب بصورة صحيحة سليمة مقبولة عند الله، ففعلها بين المسلمين من خصائص المنافقين في الجملة.

أمّا ما فعل حاطب ابن أبي بلتعة فلم يكن مُوادّةً من هذا القبيل، مع أنّ ما فعله قد كان مَعْصِيةً كبيرة، إلّا أنّه لم يكن عن نفاق، وكان مع ذلك بصورةٍ فرديّة، لحماية أَهْلِه، لا موادّةً لمن حادّ الله ورسوله.

ويدخُلُ في عموم هذا الكلام الذين يُوادُّون المنافقين، وهم يعلمون أنّهم منافقون، أو ظهرت في أقوالهم وتصرّفاتهم علامات النفاق.

ويتساءل المتدبّر لهذا البيان الخطير: ماذا يفعل المؤمنون بـالله واليوم الآخـر، مع آبائهم وأبْنَائهم وإخوانهم وعشيرتهم الأقربين من أهل الكفر، ألاَ يُوادّونَهُمْ؟

ويأتيه الجواب في هذه الآية، مع تتابُع فقراتها:

﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

إنّ مـوادّة الأقـربين التي تستـدرج إلى مـوالاتهم من دون المؤمنين، هي من مناصرة الكفر ضدّ الإيمان، والكافرين ضدّ المؤمنين، وهذه كبيرة لا يفعلها إلّا كافر صريحٌ أو منافق.

حسناً: فما هو حال المؤمنين الذين لا يوادّون من حادّ الله ورسوله، ولو كـانُوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم؟.

لقد اشتملت الآية على بيان ستّ قضايا عظيمة كريمة تتعلّق بهم:

القضيّة الأُولى: أنّ اللّهَ تَعَالَىٰ كتب في قُلوبهم الإيمان، فقال عزّ وجل:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾:

أي: أولئك رفيعو المنزلة عند الله وملائكته كتب الله في قلوبهم كَلِمَاتِ الإيمان، لتكون هـذه الكلمات المكتوبات في قلوبهم شهـادةً من اللّهِ لَهُمْ بـأنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، ولمّا كان الإيمان محلُّهُ القلْب، كانت هذه الكلمات الشاهدات لهم بـأنّهم مؤمنون، مكتوبة بأمر الله أو بفعله ضمن قلُوبهم، وهذه الشهادة الرّبـانية في قلوبهم جـواز دخولهم الجنـة، وقد اعتـادت الشعوب القـديمة أن تكتب شعـار قبيلتها على أجساد أفراد القبيلة، ويسمونه: «التوتم» وهو بمثابة الهوية.

وفي المقابل نجد في النصوص النبويّة أنّ الدجّال مكتوب على جبينه «كـافر» شهادةً عليه بأنّه من أهـل النار، ولا تبـرز على جبينه ليقـرأها المؤمنـون، إلّا بعد أن كُتِبتْ في قَلْبِهِ.

فـالمؤمنون يحملون هُـويتهم الربّـانية في قلوبهم، وقـد يحمل الكـافرون في المقابل هوية كفرهم.

ولا أرى مقتضياً لتأويل هذه الكتابة، وحَمْلِها على معانٍ أخرى، كالْجَعْلِ، أو التثبيت، أو غير ذلك، فالأصل حمل اللفظ على ظاهره إلاّ عند التعذّر.

أقول:

وما يُكْتَبُ في القلوب يُقْرأ يوم القيامة كالذي يُقْرأ في الصحف، وقد يكون باستطاعة الملائكة الموكّلين بأعمال العباد أن يقرَؤوهُ في الدنيا أيضاً. والله أعلم.

القضية الثانية: أنّ الله عزّ وجلّ يُؤَيِّدهم بروحٍ منه، أي: بقوةٍ معنوية، مقابل تخلّيهم عن الأقربين من أرحامهم وعشيرتهم الكافرين، والاستنصار بهم ومناصرتهم، فقال تعالى:

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ﴾:

أي: وقوّاهم على الثبات في مواقف الإيمان وفي المعارك ضدّ الذين يحادّون الله ورسوله، بروحٍ منه، أي: بقوّة خفيّة غير منظورة.

وجاء التعبير بصيغة الفعل الماضي ﴿وَأَيَّدَهُمْ﴾ لبيان تَحقُّقِ وقوع هذا التأييد، في مجرى حياتهم، ومن جعله الله مؤيّداً منْهُ فتأييده لـه مستمرّ مدى حياته، ما دام على وصفه الذي أيّده من أجله.

القضيّة الثالثة: أنّ اللّهَ يُدْخِلُهُمْ يَوْمَ الدّين جنّاتٍ تَجْري من تحتها الأنهار خالدين فيها، فقال تعالى:

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾.

إنّها جنّاتٌ مُفصَّلاتٌ، ضمن جنّةٍ عُظْمَى جامِعَةٍ لَهَا، وكلُّ جنّةٍ مِنْها تَجْري مِنْ تحتِ قُصورِ أصحابها فيها الأنهار التي جاء وصْفُها في القرآن.

فالله عزّ وجل يُدْخلُ هؤلاء الذين كتب في قلوبهم الإيمان جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار حالة كونهم خالدين فيها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾:

حال من ضمير النصب في ﴿ويُدْخِلُهم﴾ وهذه الحال يسمونها حالاً مُقَدَّرَة، لأنّ الخلود ليس مقارناً لدخولهم الجنّات.

القضية الرابعة: أنَّ اللَّهَ رَضِيَ عَنْهُمْ إذْ قَدَّمُوا بإيمانهم وعملهم ما يُرْضيه، وَأَنَّهُمْ رَضُوا عن الله، إذْ أصابوا من عطاءاته العظيمة، في جنّات النعيم ما لم يكن يخطر على بالهم، فوق ما نالوا من تأييد ومجد وسعادة قبل ذلك، فقال تعالى:

﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾.

الرضا: هو الشعور بالارتياح والاكتفاء والقبول، وتحقيق المطلوب، أو إدْراكُ ذلِك في النفس.

القضيّة الخامسة: وهي تأتي أثراً من آثار اجتماع المؤمنين على عقائد ومبادىء ومفهومات وصراط ربّانيّ واحد، فلا بدّ أن يتألف منهم حزبٌ واحد، متّحد الوحدات الفكرية والنفسيّة والقلبية والسلوكية.

ولمّا كان الله هو الهادي إلى الإيمان، والمصطفي لعباده دين الإسلام، وكان هذا الحزب هو الحزب المؤمن بما هدىٰ الله له، والعامل بما شرع لعباده والسالك صراطه الذي وضعه لهم، كان هو الجدير بأن يكون عنوانه «حزب الله» فقال تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾:

أي: أولئك ذَوُو المنزلة العليّة والمقام الرفيع عند الله هم حِزْبُ الله، ومن كان من حزب الله جعله الله في كنفه، وأمَدَّه بمَدَدٍ من لدنه.

القضية السادسة: تتضمَّن بيان عاقبة حِزْبِ اللَّهِ، في مقابل ما سبق من بيان عاقبة حزب الشيطان، فقال تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾.

أي: هم الفائزون الظافرون بكلّ ما يتمنَّوْنَ، وفَوْقَ ما يَتمنَّونَ.

ويقال في هذه الجملة ما سبق شرحه لدىٰ تحليل الجملة المقابلة:

﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٩﴾.

فَلْيُرْجَعْ إليه، أو فَلْيُلاحظْ هنا.

وانتهى النص

● ● ●

النصّ التاسع والعشرون

وهو من سورة (التحريم/٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول)

«السورة (٢١) من التنزيل المدني»

الآيـة (٩)

حول مجاهدة الكفار والمنافقين والإغلاظ عليهم

* قال الله عزّ وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ⑨﴾.

* * *

مع الآية في التحليل والتدبُّر

تحليـلات لفظيّـة:

صُدِّرَتْ الآية بخطاب النبيّ بوصْفِهِ قائد الأمّة الإسلاميّة في حياته، لأنّه هو المسؤول عن إصدار القرار بمجاهدة الكفار والمنافقين، والإغلاظ عليهم، ضمن المستوى الجهاديّ الذي يراه.

ويُلْحَقُ بالنبيّ كلّ قائد للأمّةِ الإسلامية من المؤمنين المسلمين، لأنّ شرائع الله لعباده شرائع مستمرّة ولا تقتصر على عصر النبيّ، فخلفاء النبيّ من بعده وأمراء المؤمنين مسؤولون عن تنفيذ الأوامر الموجّهة للنبيّ من كلّ ما يعُمُّ أمور المسلمين، أو يتعلق بحقوق الإدارة وواجباتها.

وقد علّمنا الله عزّ وجلّ في صدر سورة (الطلاق/ ٦٥ مصحف/ ٩٩ نزول)

أنَّ خطابه للنبيِّ هو خطاب في الحقيقة لكلّ المؤمنين، لأن موضوع الطلاق الذي جاء فيه موضوع عام وليس من خصوصيات الرسول.

وكذلك في صدر سورة (التحريم) مع أنه نزل بمناسبة حادثةٍ جرت للنبيّ، إلاّ أنّ المضمُون عامّ يشْمَلُ كلّ من يجري له مثل ما جرىٰ للنبي ﷺ.

﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

يقال لُغةً: جاهَدَ يُجَاهد مُجاهَدة وجِهاداً، أي: بذل جَهْداً فيه معنى المغالبة أو المنافسة لمعارض يشارك ببذل الْجَهْدِ، مغالباً، أو منافساً، أو مقاوماً صادّاً.

هذا ما تدلُّ عليه الصيغة، وفي الجهاد على هذا المعنى يُبْذَلُ عادةً جَهْدٌ زائد، وقد يُطْلَقُ الجهاد ويُراد منْهُ مُجرَّدُ بذْلِ الْجَهْدِ الزائد، ولو لم يكن في مُقابله مُشارِكٌ مُغالبٌ أو منافسٌ أو مقاوم.

والجهادُ المستعمل في القرآن تعبيرٌ يدخُلُ في عُمُوم الْمَعْنَىٰ اللُّغوي بشكل عامّ، إلاّ أنّ له قيداً عامّاً، وهو أنْ يكون في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وقيوداً تفصيليّة لكلّ نوعٍ من أنواع الجهاد، وهذه القيود مبينة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفيما استنبطه علماء المسلمين وفقهاؤهم.

ومن استعراض النصوص القرآنية في الجهاد يتبيَّنُ لنا أنّ المراد من الجهاد في سبيل الله أن يبذل المؤمن المسلم في سبيل الله ممّا يَمْلِك مِنْ جَهْدٍ، أو طاقةٍ، أو مالٍ، أو فكر، أو علم، أو دعوة إلى الله، أو جدالٍ بالّتي هي أحسن، أو أيّ شيءٍ ذي نفع، أو ذي تأثيرٍ ما، من أيّ شيءٍ يخُصُّه، أو من أيّ شيءٍ له عليه سُلْطةٌ ما، أو قدرةٌ على التصرّف فيه إذا كان مأذوناً بذلك شرعاً، لنصرة الإسلام والمسلمين بالحقّ.

ومجالات الجهاد كثيرة، منها:

- بذل طاقة الفكر، لنصرة دين الله بالحقّ.
- بذل المال لنصرة الإسلام والمسلمين.
- بذل قُدرات اللّسان في البيان النافع المؤثر للهدف نفسه.

- بذل قدرات الكتابة والتأليف، والنشر والتوزيع.
- بذل حركة الجسد، في المشي، والسعي، والسفر، والتنقل في الأرض.
- التضحية بمطالب النفس من شهوات ولذات وأهواء ونحو ذلك.
- إعداد المستطاع من القوّة للإرهاب، وكف العدوان القائم أو المحذور منه.
- القتال، والتضحية بالحياة حين تدعو الضرورة أو الحاجة الملحة لذلك، دفعاً لخطر قائم أو خطر مُتوقّع، أو لتأمين وصول دعوة الإسلام إلى الناس، وحماية الشعوب من الظلم، والعدوان، والفتنة في الدين.
- قول الحق مع الخوف من التنكيل عقاباً على قوله، من أدنى درجات التعذيب حتى القتل.
- القيام بأعمالٍ لخدمة الإسلام والمسلمين يتعرّض القائم بها لمصائب في ماله أو نفسه حتى بذل حياته، كالتجسّس ضمن صفوف الكافرين.

إلى غير ذلك من أمور، بشرط أن تكون مأذوناً بها شرعاً.

﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾:

أي: كُنْ شديداً عليهم، فعاملهم بقَسْوةٍ وتعنيف، فقد تمادوا فيما هم فيه منذ أوائل العهد المدني ولم يرتدعوا بمختلف الأساليب الرفيقة، وقد مضى من العهد المدني قُرابة ثلثيه، ولم تجدِ معهم سياسة التغاضي، والتخويف بعذاب الآخرة، ثم التهديد بالإذن بمحاربتهم.

﴿وَمَأْوَنٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾:

أي: منزلهم الذي سيصيرون إليه، ويقيمون فيه دواماً جهنم دار العذاب يوم الدين.

* * *

تدرج البيان الربّاني
حول معاملة المنافقين مع تدبر النصوص

نلاحظ أنّ التوجيه الرّبّاني في نجوم التنزيل القرآني الموجّه للرسول والمؤمنين حول معالجة المنافقين داخل المجتمع الإسلاميّ الأوّل، قد تدرّج على الوجْهِ التالي:

(١) ففي المرحلة الأولى وجّه الله عزّ وجلّ رسوله لعدم مقابلة أذاهم بالعقاب، ولأنْ يتوكّل على الله في كفّ أذاهم عنه، ويُلْحَقُ المؤمنون بالرّسُول في هذا التوجيه، فقال الله عزّ وجلّ له في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) وهي رابع سور مدنية:

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

ويظهر أنّ المراد من الكافرين في هذه الآية قسمٌ منهم لم يكن قد أذن الله بعْدُ بقتالهم، ولعلّهم من كفار اليهود في المدينة.

(٢) وَعقِب ذلك وجّه الله عزّ وجلّ التحذير للمنافقين في سورة (الأحزاب) نفسها بقوله تعالى متحدّثاً عنهم بأسلوب الحديث عن الغائب:

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾:

أي: لَنُحَرِّضَنَّك على مُلاحقتهم وتقتيلهم.

فالله عزّ وجلّ يُنذِر المنافقين في هذا النصّ بأنّهم إذا لم يَنْتَهوا ويكُفُّوا عن

أعمالهم، وحركاتهم العدائية الكيديّة السّرية للرسول والإسلام والمسلمين، فَسَيُسَلِّط الله رسوله والمؤمنين عليهم، ويُنْهي أسلوب التغاضي عنهم، والصَّبْرِ عليهم، والتسامحِ معهم، كمَا سلَّط على أمثالهم من أهل الأمم السالفة فيما شرع لرُسُلِهِ الماضين، من مُلاحَقَةٍ بالأخْذِ والتقتيل الشديد أيْنما وُجِدُوا.

فإذا تمادىٰ المنافقون في الرسالة الرّبّانيّة الخاتمة، معتبرين إمهالَهُمْ فرصةً سانحةً يكيدون خلالها كيدهم، ويتابعون فيها شرورهم وخبائثهم، فسينزل الله الإذن لرسوله بالبحث عنهم، وملاحقتهم، وتقتيلهم، أو يأمره بذلك.

وهذا الإشعار، مع بيان أنّ أخذهم وتقتيلَهُمْ قد كان من سُنَّة الله في الأمم السابقة يدُلّ على أنَّهُمْ إذا تفاقم أمْرهم، وصاروا خطراً حقيقيّاً ضمن المجتمع الإسلاميّ، فإنّ القيادة المؤمنة المسلمة مأذونة بتطبيق سُنَّةِ اللّهِ فيهم، بدليل قوله تعالى:

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾﴾.

وقد قسّم الله المنافقين في هذا النصّ إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأول: المنافقون الذين ينطبق عليهم كلّ صفات المنافقين.

القسم الثاني: وهم الذين في قلوبهم مرض لم يبلغ مبلغ النفاق الأقصى، لكنهم يسيرون مع المنافقين، ويتحرّكون مثل تحرّكهم.

القسم الثالث: المرجفون، وهم الذين تظهر على ألسنتهم عبارات التخذيل، والإرجاف بأن المسلمين مهزومون.

الإرجاف: الإخبار بالأكاذيب، لإثارة الفتن والاضطرابات.

(٣) وبعد ذلك أمر الله رسوله بأن يحذّرهم، ويُلْحِقُ بالرسول جميع المؤمنين ولا سيما الخلفاء والأمراء، فقال عزّ وجل بشأن المنافقين في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول) السورة (١٨) من التنزيل المدني:

﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ

يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

فاشتملت هذه الآية على قضيَّتَيْن مهمتين:

القضيَّة الأولى: التحذيرُ منهم، والحذر منهم يقتضي مراقبتهم الشديدة، ومحاصرتهم بمن يَرْصُد حركاتهم، لأخذ من ينكشف منهم بالجرم المشهود.

القضيَّة الثانية: التدخُّل الربَّاني لمقاتلتهم لإحباط أعمالهم الكيديَّة.

(٤) وبعد ذلك ألمح الله عزّ وجلّ إلى أنّ المنافقين يتوهَّمون أنّ أموالهم وأولادهم ستحميهم من نقمة الرسول والّذين آمنوا إذا انكشف حالُهم وظهرت خياناتهم، ومع هذا الإلْمَاح أبان الله عزّ وجلّ أنّ أموالهم وأولادهم لن تَصْرِفَ عنهم شيئاً من عذاب الله بأيدي أوليَائه المؤمنين، فقال تَعالى في سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول) السورة (١٩) من التنزيل المدني:

﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

وقد سبق شرح هذا النص.

(٥) وَلمَّا لَمْ يَكُفَّ المنافقون عن التمادي في خباثاتهم، وأعمال الكيد السّرية الّتي لا بُدَّ أنْ يظهر شيءٌ منها بين حين وآخر، أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله في سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول) السورة (٢١) من التنزيل المدني ولم ينزل بعدها من القرآن إلّا سبع سور.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴾.

فجاء في هذا البيان الأمرُ بمجاهدة المنافقين والإغلاظِ عليهم، والأمر بمجاهدة الكفّار الذين سبق أن أمر الله رسوله بالصبر على أذاهم في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) ولعلّهم فريق من كفار اليهود في المدينة.

وجاء اللّفظُ عامّاً شاملاً لأنواع الجهاد، لإلقاء الرُّعْب في قلوب المنافقين،

بأنّ باستطاعة الرسول والذين آمنوا أن يُدْخلُوا في هذا العمـوم أعمال القتـال، الّتي هي من مجالات الجهاد الكثيرة.

ولم يَـأْتِ نصّاً صَـرِيحاً بـالقتال لئـلاّ يُضْطَرَ الـرسول والمؤمنـون إلَىٰ مبـاشـرة البحث عن المنـافقين وتقتيلهم، لكنّ النصّ صالـح لأن يفهمـوا منـه الإذن بقتـالهم ضمن القيام بصور الجهاد الأخرى.

ومع الأمر بمجـاهدتهم أبـان الله عاقبتهم يـوم القيامـة فمـأواهم جهنم وبئس المصير.



النصّ الثلاثون

وهو من سورة (الفتح / ٤٨ مصحف / ١١١ نزول)
«السـورة (٢٥) مـن التـنزيل المـدني»
الآيـات مـن (١ ــ ١٧)
حول أثر الفتح المبين الذي حصل في صلح الحديبية
على نفوس المنافقين المخلّفين وموقفهم

* قول الله عزّ وجل:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ
عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى
قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا (٤) لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ
سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ
وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ
وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا (٧) إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ
وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ
فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا (١٠) سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا

يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ
أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ
أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَن لَّمْ
يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن
يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا
انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن
تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا
قَلِيلًا (١٥) قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ
فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَّيْسَ
عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) ﴾.

* * *

(١)
ما في النصّ من القراءات المتواترة (من الفرش)

* في الآية (٦):

(١) قرأ جُمْهور القُرّاء العشرة [السَّوْء] بفتح السين.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو [السُّوء] بضمّ السّين.

القراءتان بمعنى سينزل بهم ما يكرهون ممّا يكون مؤلماً لهم ماديّاً أو معنويّاً.

* في الآية (٩):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة: [لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ] بتاء الخطاب في الأفعالِ الأربعة.

وقرأ ابن كثير وأبو عَمْرو: بياء الغائب في الأفعال الأربعة.

وفي القراءتين تكامُلٌ في الأداءِ البياني، أمّا قراءة الجمهور فهي تُخَاطِبُ الناس بعد خطاب الرسول وفق الأسلوب الذي يُسَمَّى عند البلاغيين «الالتفات» وأمّا القراءة الأخرى فهي تتابع خطاب الرّسول.

* في الآية (١٠):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة: [بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ] بكسر هاء الضمير وصلاً.

وقرأ حفْصٌ عن عاصم بضَمِّ هاء الضمير من [عَلَيْهُ] وصلاً.

أما في الوقف فتسكُنُ عند الجميع وفق قاعدة الوقف.

والقراءتان لغتان عند العرب في نُطْق هاء الضمير.

(٢) قرأ نصف القراء العشرة: [فَسَيُؤْتيه] بياء الغائب.

وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر وروح عن يعقوب [فَسَنُؤتيه] بنون المتكلم العظيم.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني.

* في الآية (١١):

(١) قَرأ جُمْهور القرّاء [ضَرّاً] بفتح الضاد.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر [ضُرّاً] بضم الضاد.

والقراءتان وجهان في نطق هذه الكلمة عند العرب، ضَرّ وضُرّ.

* في الآية (١٥):

(١) قرأ جمهور القراء: [كَلاَمَ الله] «كلام» اسم جنس يقع علىٰ القليل والكثير.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر [كَلِمَ الله] «كَلِم» جمع كَلِمة، مثل: نَبِقَة ونَبِق، ويعرف مثل هذا الجمع باسم الجنس الجمعي الذي يفرق بينه وبين واحده بالتاء.

والقراءتان وجهان عربيان بمعنى واحد.

* في الآية (١٧):

(١) قرأ جمهور القرّاء [يُدْخِلْه ـ يُعَذِّبْهُ] بياء الغائب في الفعلين.

وقرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر: [نُدْخِلْهُ ـ نُعَذِّبْهُ] بنون المتكلّم العظيم في الفعلين.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني.

* * *

(٢)
موضوع النص وما ورد من أسباب النزول حوله

(١) تدور سورة (الفتح) حول أحداث ونتائج صلح الحديبية، الذي كان في شهر ذي القعدة من سنة ست للهجرة، ونزلت السورة في طريق عودة الرسول والمسلمين إلى المدينة عقب صلح الحديبية، وقد مُنِع المسلمون من أداء عمرتهم في ذلك العام، فأحصروا فذبحوا هديهم، وتحلّلوا من إحرامهم محلّقين ومقصّرين، بعد أن أبرم الرسول ﷺ صلح الهدنة مع قريش، في قصة تُستوفىٰ إن شاء الله مع بيان سبب النزول.

(٢) وحظّ المنافقين من هذا النّص بيان ثلاث قضايا:

القضية الأولى: بيان أنّ صُلْح الحديبية وَعَوْدَةَ الرسول والمسلمين ممكنين من نشر الإسلام بين أكبر خصومهم وهم مشركو مكة، قد طَعَن آمال المنافقين في العمق، أو ذبحها ذبحاً، فكان ذلك مؤلماً لقُلُوبِهِمْ ونفوسهم، ومعذِّباً لهم تَعْذِيباً أشدّ عليهم من كُلِّ ما أصابهم سابقاً من خيبة آمال.

القضية الثانية: بيان أنّ المنافقين من الأعراب وهم من قبائل بدويّة حول المدينة، قد دُعُوا إلى الخروج مع الرسول لأداء العمرة، فلم يخرجوا، ظانّين أنّ الرسول والمسلمين لن يَعُودوا سالمين من سفرهم ذلك، لأنّ أهل مكة سيُبيدونهم

إبادة تامة، فالمسلمون قلّة، وقد خرجوا بسلاح خفيف معتمرين، والمشركون سينتهزونها فُرصةً لاستئصال خضرائهم.

وقد أخبر الله بأنّ هؤلاء المنافقين المخلّفين من الأعراب سيعتذرون عند عودة الرسول والمسلمين إلى المدينة قائلين للرسول وهم يكذبون: شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا.

وكشف الله عزّ وجلّ سبب تخلّفهم الحقيقي، وهو نفاقهم، وظنُّهم أنّ المسلمين سيُقْضَىٰ عليهم، وسَتُسْتَأْصَلُ شأفَتُهُمْ.

القضيّة الثالثة: بيانُ أنَّ المخلّفين عن الخروج مع الرسول ﷺ لأداء العمرة عام الحديبيّة، سيقولون حين يعلمون أنّ المؤمنين خارجون لغزو قومٍ ليسوا ذوي بأسٍ شديد ومن السهل الظفر بمغانم كثيرة لديهم: ذَرُونَا نتبِعْكُمْ، يبتغون المشاركة في الغنائم المطموع بتواردها وتكاثرها في الانتصارات والفتوحات، دون أن يكونوا قد شاركوا في أيّام الشدائد، حين كانوا يظنُّون أنَّ المسلمين قلّة، غير مؤهلين للانتصار على أعدائهم، أهل القوّة والبأسِ يَوْمئذٍ، فإذا منعوهم من الخروج معهم، من أجل نفاقهم وسابق تخلّفهم أيّام الشدائد وتوقُّعهم هزائم المسلمين المنكرة قالوا لهم: إنّكم تمنعوننا من مشاركتكم لأنَّكم تَحْسُدوننا حين نأخذ معكم من الغنائم، إذْ تُريدون أن تكون لكم وحْدَكم لا نُشَاركُكم فيها.

وجاء في التعقيب على هذا توجيه الرسول أن يقول لهم ما معناه: هذه الأماكن القريبة في الحجاز قد أصبحت سهلة المنال ويكفي مسلمو المدينة للسيطرة عليها، والتخلّص من سلطان أعداء الإسلام والمسلمين فيها، ولكن ستأتي بعدها خطوة أعظم، تمتدّ حركة الجهاد والفتح فيها إلى دوائر أخرى وراء دائرة الحجاز، دوائر في جزيرة العرب، ودوائر خارج جزيرة العرب، وفي بعض هذه الدوائر قوم أهل بأسٍ شديد، وعندئذٍ سيُحتاج إلى خروجكم مقاتلين فاتحين، مع جيوش المؤمنين المسلمين، وسَتُدْعَوْن إلى مواجهة هؤلاء القوم، فإن أطعتم يومئذٍ وخرجتم صادقين معدّين أنفسكم لنيل الشهادة في سبيل الله، لا لمجرّد الظفر بالغنائم التي ترون الحصول عليها أمراً سهلاً، يُؤْتِكُمُ الله أجراً حسناً عنده، مع ما قد تنالونه من

غنائم. وإنْ توليتم مدبرين مبتعدين، كما تولّيْتُم من قَبْلُ حين كنتم تظنّون أنّ مواجهة المؤمنين لأعدائهم مواجهةٌ خاسرة حتماً، فأنتم منافقون، طالبو مغانم، ولستم طالبين رضوان الله ونشر دينه، والمنافِقُ له عذابٌ عند الله أليم يستحقه ويناله، وكذلك العاصي أمر الرسول، أو أمر أمير المؤمنين الداعي إلى القتال في سبيل الله بإلزام لا بندب.

(٣) وجاء في النصّ بيان مِنّةِ الله على المؤمنين، وإشارات إلى بدْءِ انتهاء دور رسول الله ﷺ في الحياة الدنيا، بتحقيق الفتح المبين، وإلى قُرْب إكمال إنْزال ما لم ينزل بَعْدُ من نِعْمةِ الله في هذا الدين.

(٤) وجاء في النصّ الثناء على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله في الحديبية، وأنّ الله بارك بيعتهم، فجعل يَدَهُ فوق أيديهم، فهم مطالبون بالوفاء بعهدهم وعدم الإخلال به ونكثه.

* * *

ما ورد من أسباب النزول

(١) اتّفق الرّواة على أنّ سورة (الفتح) نزلت في طريق رجوع الرسول ﷺ من الحديبية، في شهر ذي القعدة، من سنة ستّ من الهجرة، حين صدّه مشركو مكة عن الوصول إلى المسجد الحرام ومعه المسلمون المعتمرون، ليقضوا عمرتهم فيه، وحالوا بينهم وبين ذلك، ثمّ بعد مفاوضات قبلوا المصالحة والمهادنة، وأن يرجع الرسول والمسلمون معه عامَهُم هذا، ثم يأتي ومعه المسلمون في السنة القادمة إن شاء، وتمّ الصلح على هذا، وبنود أخرى، وتحلّل الرسول والمسلمون من عمرتهم تحلّل المُحصَرين، بعد أن ذبحوا هدْيَهم، وكان هذا التحلّل أمراً صعباً على كثير من أصحاب الرسول، إلاّ أن إرادة الله الحكيمة شاءت ذَلِكَ، وبينما هم قافلون متجهين للمدينة، أنزل الله على رسوله سورة (الفتح) بمَوْضع يقال له (كُرَاعُ الْغَمِيم)(١).

---

(١) كُرَاعُ الْغَمِيم: موضع بين مكة والمدينة، وهو وادٍ أمام عُسْفَان بثمانية أميال أقرب إلى مكة، أي: بينه وبين عُسْفان نحو (١٣)كـ م.

وقد نزلت بمناسبة الأحداث التي رافقت أو سبقت أو جاءت بعد صُلح الحديبية.

(٢) رأى رسول الله ﷺ رؤيا تأْويلها أنّ الرَّسُولَ ومعه أصحابه سيدخلون المسجد الحرام زائرين معظمين البيت الحرام، ودعا الرسول المسلمين أن يخرجوا معه لأداء العمرة، ودعا من حول المدينة من الأعراب ليخرجوا معه معتمرين، لكي تطمئن قريش أنّ الرسول جاء معتمراً ولا يُريد حرباً، فاستجاب له بعضهم، وتخلّف الكثيرون.

وخرج مع الرسول ﷺ قُرابة ألف وخمسمائة، معتمرين من المهاجرين والأنصار ومن لَحِقَ بهم من الأعراب، وساق الرسول معه الهدي سبعين بعيراً إيذاناً بأنّه لم يُرِدْ حَرباً، وإنما خرج معتمراً زائراً للبيت ومعظماً له.

وسار الرسولُ بالركب المعتمرين في اتّجاه مكة، ولمّا بلغ «عُسْفَان»[١] لقيَهُ بِشْرُ بن سفيان الكعبي، فأخبره أنّ قريشاً سمعت بمسيره، فخرجوا ومعهم النساء والأولاد، قد لبسوا جلود النمور، ونزلوا بذي طُوىً (مكان هو الآن داخل مكة) يعاهدون الله لا تدخُلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خَيْلِهِمْ قَدِمُوا إِلَىٰ كُرَاعِ الْغَمِيمِ.

فقال رسول الله ﷺ:

«يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ قَدْ أَكَلَتْهُمُ الْحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ، فَإِنْ هُمْ أَصَابُونِي كَانَ ذَٰلِكَ الَّذِي أرادوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَافِرِينَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّة، فَمَا تَظُنُّ قُرَيش؟! فَوَاللَّهِ لَا أَزَالُ أُجَاهِدُ عَلَىٰ هَٰذَا الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ حَتَّىٰ يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَٰذِهِ السَّالِفَةُ»[٢].

وتفادى الرسول الاصطدام بخيل المشركين، فقال:

(١) عُسْفَان: قرية بينها وبين مكة مرحلتان، أي: مسير يومين.

(٢) السَّالِفَة: جانب العنق، وانفراد السالفة يعني انفصالها عن الجسم، أي: حتى أُقتل.

«مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَىٰ طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِهِمُ الَّتِي هُمْ بِهَا؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ «أَسْلَمَ»[1]: أنا يا رسول الله.

فسلك بهم طريقاً وعراً كثير الحجارة بين شعاب، فلمّا خرجوا منه، وقد شقّ عبوره على المسلمين، وأفضَوْا إلى أرضٍ سهلةٍ عند منقطع الوادي، قال رسول الله ﷺ للناس:

«قُولُوا: نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ».

فقالوا ذلك، فقال:

«وَاللَّهِ إِنَّهَا لَلْحِطَّةُ الَّتِي عُرِضَتْ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمْ يَقُولُوهَا».

ولمّا رأت خيل قريش أنّ المسلمين سلكوا طريقاً آخر، رجعوا مسرعين إلى قريش.

وسلك المسلمون في اتّجاه الحديبية من أسفل مكة، فلمّا وَصَلُوا قُرْبَ الحُدَيبية، بركتْ ناقة رسول الله ﷺ.

فقال الناس: خلأتِ الناقة (أي: عَرَضَ لها مثلُ ما يعرض للدواب من جِرَان).

قال رسول الله: «مَا خَلأَتْ، وَمَا هُوَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ، لاَ تَدْعُونِي قُرَيْشٌ الْيَوْمَ إِلَىٰ خُطَّةٍ يَسْأَلُونَنِي فِيهَا صِلَةَ الرَّحِمِ إِلاَّ أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا».

ثمّ قال للنّاس: «انْزِلُوا».

قيل: يا رسول الله، ما بالوادي مَاءٌ ننزل عليه، فأخْرَجَ سَهْماً من كنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل به في قليب، من تلك الْقُلُب، فغرزه في جوفه، فتدفّق بالماء العذب الكثير، فشرب المسلمون وسَقَوْا دَوَابَّهُمْ وارْتَوَوْا جميعاً.

---

(١) أَسْلَم: بطن من خُزاعة، من قراهم «وَبْرَة» قرية ذات نخيل من أعراض المدينة، أي: من القرى التابعة للمدينة.

ورُوي عن جابر رضي الله عنه أنه قال: «لَوْ كُنَّا مئة أَلْفٍ لَكَفَانَا» وهذا من معجزات الرسول ﷺ الّتي أكرمه الله بها.

فلمّا اطمأنّ المسلمون في المنزل الذي نزلوا فيه عند الحديبيَة، أقبلت إليه الوفود:

ـ أَتَاهُ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِي فِي رِجَالٍ مِنْ خُزَاعَة، فكَلَّمُوهُ، وسَأَلُوهُ: مَا الَّذِي جَاءَ به؟.

فأخبرَهم أنّه لم يأتِ يُريدُ حرباً، وإنّما جاء زَائراً للبيت، ومُعَظّماً لحرمته.

فرجعوا إلى قريش، فقالوا: يا معشر قريشٍ إنّكُمْ تَعْجَلُونَ على محمّد، إنَّ محمّداً لم يأتِ لقتال، وإنّما جاء زَائراً هذا البيت.

فاتَّهَمُوهُمْ وَخَاطَبُوهُمْ بما يكرهون، وقالوا: وإنْ كانَ جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لا يَدْخُلُهَا علينا عَنْوَةً أبداً، وَلَا يَتحدَّثُ بذلكَ عَنَّا العرب.

وكانت خزاعة ذاتَ ولاءٍ لرسول الله ﷺ مُسْلمها ومُشركها، لا يُخفونَ عنْهُ شيئاً كان بمكة.

ـ ثم بعثت قريش إلى الرسول «مِكْرَزَ بْنَ حَفْصِ بن الأَخْيف» فَلَمَّا رآه رسول الله ﷺ مقبلاً، قال: «هَذا رَجُلٌ غَادِرٌ».

فلمّا انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلّمه، قال له الرسول مثل الذي قاله لِبُدَيلِ بن ورقاء وأصحابه.

فرجع إلى قريش، فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ.

ـ ثم بَعثَتْ قريش إلى الرسول «الْحُلَيْس بْنَ عَلْقَمَة، أو ابن زبّان» وكان يومئذٍ سَيِّد الأَحَابيش[1]، فلمّا رآه رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْم يتألَّهُونَ (أي: يَتَعَبَّدون ويُعظِمُون أمر الإلَـه) فابْعَثُوا الْهَدْيَ

(١) أحابيش قريش: جماعة من قريش، وكنانة وخزاعة، اجتمعوا عند حُبْشِي. وهو جبل بأسفل مكة، وتحالفوا.

فِي وَجْهِهِ حتَّىٰ يَراهُ».

فلما رأىٰ «الْحُلَيْسُ» الهدْيَ يَسِيلُ عليه من جانب الوادي في قلائده[1]، وقد أَكَلَ أَوْبَارَهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحِلِّه[2]، رجَعَ إلى قريش، ولم يصل إلى الرسول إعظاماً لما رأىٰ، فأنبأهم عمّا رأىٰ.

فقالت قريشٌ له: اجلس، فإنّما أنت أعرابيٌّ لا عِلْمَ لك. فغضب الْحُلَيْس، وقال: يا مَعْشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولاَ على هذا عاقدناكم، أَيُصَدُّ عن بيْتِ الله من جاء معظِّماً له؟! والذي نَفْسُ الْحُلَيْس بيده، لَتُخَلُّنَّ بين محمّد وبين ما جاء له، أو لأَنْفِرَنَّ بالأَحابيشِ نَفْرَةَ رجُلٍ واحد.

فقالت قريش له: مَهْ، كُفَّ عنّا يا حُلَيس، حتَّىٰ نَأْخُذَ لأنفسِنا مَا نَرْضَىٰ به.

- ثم بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ «عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ الثقفي» فقال: يا معشر قريش، إنِّي قَدْ رأَيْتُ ما يَلْقَىٰ مِنْكُمْ مَنْ بَعَثْتُمُوهُ إلى محمّد إذْ جاءكم، مِنَ التعنيف وسُوء اللّفظ، وقد عرفتم أنّكُمْ والِد (أي: بمثابة الوالد لي) وإنِّي ولد، وقد سَمِعْتُ بالّذي نابكُمْ، فجمعتُ من أطاعني من قومي، ثم جئتكم حتَّىٰ آسَيْتُكُمْ بنَفْسي (أي: جعلتكم مثل نفسي فشاركتكُمْ في الأَمْر).

قالوا: صدَقْتَ، ما أَنْتَ عندنا بمُتَّهَم.

فخرج «عُرْوَةُ بن مَسْعُودٍ الثقفي» حتَّىٰ أَتى رسول الله ﷺ، فجلَسَ بين يديه، ثُمَّ قال: يا محمّد، اجْمَعْتَ أَوْشابَ الناس (أي: أخلاط الناس) ثُمَّ جِئْتَ بهم إلى بَيْضَتِك[3] لِتَفُضَّها بهم. إنّها قُرَيْشٌ قد خرَجَتْ مَعَهَا الْعُوذُ المطافيل[4]. قَدْ لَبِسُوا جُلُودَ النُّمورَ، يُعاهدون الله لاَ تَدْخُلُها عليهم عَنْوةً أبداً، وايمُ الله، لكأنّي بهؤلاءِ قَدِ انْكَشفُوا عنْكَ غداً.

---

(١) القلائد: ما يعلّق في أعناق الهدي، إشعاراً بأنه هدي.

(٢) مَحِلّه: أي: الموضع الذي يُنْحَرُ فيه هدياً بالغ الكعبة.

(٣) بيضة الشيء أصله، وبيضة القوم: حوزتهم وحماهم.

(٤) عبارة يستعملها العرب كناية عن إخراج النساء والأولاد معهم، العوذ من الإبل ما كان حديث النتاج، والمطافيل التي معها أولادها جمع مُطْفِل.

وكان أبو بكر الصدّيق جالساً خلف رسول الله ﷺ، فقال له: امْصُصْ بظر اللاّت، أَنَحْنُ ننكشفُ عنه؟!

قال: مَنْ هذا يا محمّد.

قال: هذا ابن أبي قُحَافة.

قال: أما والله، لَوْلاَ يَدٌ كانت لَكَ عِنْدِي، لكافأْتُكَ بها، ولكن هذه بها.

وجعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه، والمغيرة بن شعبة يَقْرَعُ يَدَهُ كلّما تناول لحية الرسول يقول له: اكفف يدك عن وجْهِ رسول الله قبل أن لا تصلَ إليك، وكان المغيرة واقفاً في الحديد (أي: بلباس الحرب) فلم يعرفه عُروةُ لأن وجهه مستور بالزرد.

وكان عروة يقول له: وَيْحَكَ، ما أفظّكَ وأغْلَظَكَ!

فتبسّم رسول الله ﷺ، فقال له عروة: من هذا يا محمّد؟ قال: هذا ابْنُ أخيكَ المغيرةُ بن شُعْبَة (وكان المغيرة من ثقيف من أقرباء عروة). قال عروة للمغيرة: أي: غُدَر، وهل غَسَلْتُ سَوْءَتَكَ إلّا بالأمس. (وكان المغيرة بن شعبة الثقفي قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف، فوَدَىٰ عروةُ المقتولين ثلاث عشرة دية، وأصلح بين الحيَّيْنِ من ثقيف).

فكلّمه رسول الله ﷺ بنحو ما كلّم به من سبقه من الوفود، وأخبره أنّه لم يأت يريد حرْباً.

ورجع عروة إلى قريش، فقال: يا معشر قريش، إنّي قد جئت كسْرىٰ في مُلْكه، وقيصَرَ في مُلْكِه، والنجاشيَّ في مُلْكه، وَإِنّي والله ما رأيْتُ مَلِكاً في قَوْمٍ قطُّ مثْلَ محمّد في أصحابه، ولقد رأيتُ قوْماً لا يُسْلِمُونه لشيْءٍ أبداً، فرَوْا رَأيَكُمْ.

وبعث الرسول إلى قريش «خِراشَ بن أُميَّةَ الْخُزاعي» على بعير له يقال له: الثعلب، ليبلّغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل الرسول، وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، فخلّوا سبيله، ورجع إلى رسول الله ﷺ وأنبأه بما حدث.

ورُوي عن ابن عبّاس: أنّ قريشاً بعثوا أربعين رجلاً منهم، أو خمسين رجلاً،

وأمروهم أن يُطيفوا بعسكر المسلمين ليُصيبوا لهم منهم أحداً.

فأدركهم المسلمون وأخَذُوهُمْ أخذاً، ولمّا جيء بهم إلى رسول الله ﷺ عفَا عنهم، وخلّىٰ سبيلهم، وكانوا قد رمَوْا في عسكر المسلمين بالحجارة والنّبل.

ثم دعا الرسول ﷺ عُمَر بن الخطّاب، ليبعثه إلى مكة، فيبلّغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال عمر: يا رسول الله، إنّي أخاف قُرَيشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عديّ بن كعب أحدٌ يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إيّاها، وغِلْظتي عليها، ولكنّي أدُلُّكَ علىٰ رَجُلٍ أعَزّ بها منّي: عُثمان بن عفّان.

فدعا الرسول عثمان بن عفّان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنّه لم يأت لحرب، وأنّه إنّما جاء زائراً لهذا البيت، ومعظّماً لِحُرْمته.

فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص، فحمله بين يديه، ثم أجاره، حتّىٰ بلّغ رسالة رسول الله ﷺ.

فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة الرسول إليهم: إنْ شئت أن تَطُوفَ بالبيت فطُفْ.

فقال عثمان: ما كنتُ لأفعل حتّى يطوف به رسول الله ﷺ، واحْتَبَسَتْهُ قريْشٌ عندها، فبلغ الرّسولَ والمسلمين أنّ عثمان بن عفّان قد قُتِلَ.

فقال الرسول حين بلغه أنّ عثمان قد قُتِلَ:

«لاَ نَبْرَحُ حتّىٰ نُنَاجِزَ القَوْمَ»(١).

فدعا الرسول ﷺ إلى البيعة على مقاتلة القوم حتّى الموت، وبايعه من كان معه من المسلمين، لم يتخلّف إلاّ الجدّ بن قيس، أخو بني سَلِمة، (وهو من منافقة بني سلمة من الخزرج، لم ينل رضوان البيعة لأنه كان منافقاً).

يقول جابر بن عبد الله: والله لكأنّي أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته، قد ضَبَأَ إليها (أي: لَصِقَ بها مُتَسَتّراً) يستتر بها من الناس.

---

(١) أي: حتى نقاتلهم، يقال: ناجَزَهُ إذا نازله وقاتله، وتناجز القوم: تقاتلوا.

وسميت هذه البيعة بيعة الرضوان، لأنّ الله رضي عن المبايعين، وكانت عند شجرة من أشجار السَّمُر، وكان أوّلَ المبايعين أبو سِنان الأسْدي، وورد الخبر عن عثمان بن عفان بأنّه لم يُقْتَلْ، ولكن احتبسته قريش عندها فبايع رسول الله عنه وهو غائب، فضرب بإحدى يديه على الأخرى.

ثم بعثت قريش «سُهَيْلَ بْنَ عَمْرو» إلى رسول الله ﷺ، وقالوا له: ائْتِ محمّداً فَصَالِحْهُ، ولاَ يَكُنْ في صُلْحِهِ إلاَّ أن يَرْجع عنّا عامَهُ هـذا، فوالله لا تَتَحَـدَّثُ العربُ عنّا أنه دخلَها علَيْنا عَنْوَةً أبداً.

فأتى «سُهَيْلُ بن عمرو» رسول الله ﷺ، فلمّا رآه مُقبلاً قال: قد أراد القوم الصُّلح حين بعثُوا هذا الرَّجل.

ولمّا وصل إلى الرسول تكلَّم فأطال الكلام، وتراجَعا، ثم حصل الاتفاق على المصالحة.

ولمّا التأم الأمر، ولم يبْقَ إلاّ أن يُكْتَب كتابُ الصُّلح، وثَبَ عُمَر بن الخطاب، فأتَىٰ أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟

قال أبو بكر: بلىٰ.

قال عُمَر: أولسنا بالمسلمين؟

قال أبو بكر: بلىٰ.

قال عُمَر: أولَيْسُوا بالمشركين؟

قال أبو بكر: بلىٰ.

قال عُمَر: فَعَلاَمَ نُعْطَىٰ الدّنيَّةَ في ديننا (الدّنيّة كالدنيئة أي: الخسيسة الحقيرة الذليلة).

قال أبو بكر: يَا عُمَرُ، الْزَمْ غَرْزَهُ (أي: الزم أمر الرسول، الغرْزُ للرحْل بمنزلة الركاب للسّرج، والتعبير على سبيل الكناية) فإنّي أشْهَدُ أنّهُ رَسُولُ الله.

قال عمر: وأنا أشهدُ أنّه رسول الله.

وأتى عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ فقال له مثلما قال لأبي بكر.

فقال رسول الله ﷺ: أنا عَبْدُ الله ورسولُه، لنْ أُخالِفَ أمْرَهُ، ولَنْ يُضَيّعَني، وسأل عُمَر الرّسول عن الرّؤيا وعدم تحققها، فقال له:

«أفاخبَرْتُكَ أنّكَ تأتِيهِ هذا العام؟!» قال: لا. قال: «فإنّكَ آتيه ومطوّفٌ به».

فكان عمر بعد ذلكَ يقول: ما زلتُ أتصدّق وأصومُ وأصلّي وأعْتِقُ، مِنَ الّذِي صنعتُ يومئذٍ، مخافة كلامي الذي تكلَّمْتُ به، حتّى رَجَوْتُ أن يَكُونَ خيْراً.

ثم دعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب، ليَكْتُبَ كتاب الصُلْح، فقال له بحضور سُهَيْل بْنِ عَمْرو، ومن معه من وفْد قريش:

«اكتب، بسم الله الرحمن الرحيم».

قال سُهَيل: لا أعْرِفُ هذا، ولكن اكْتُبْ باسْمِكَ اللَّهم.

فقال الرسول: «اكْتُبْ: باسْمِكَ اللّهُمّ» فكتبها.

ثم قال: «اكْتُبْ: هَذا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمّدٌ رَسُولُ اللَّهِ سُهَيْلَ بن عَمْرو».

قال سهيل: لَوْ شَهِدْتُ أنّكَ رسُولُ الله لم أقاتِلْكَ، ولكِن اكتب اسمك واسم أبيك، فأمر عليّاً بمحو ما كتب، فتوقف عليٌّ تأدُّباً، فأخذ الرسول الصحيفة فمحاها. وقال لعلي: اكتب: هذا ما صالح عليه محمّد بن عبد الله سُهَيْلَ بن عمْرو، اصْطَلَحَا على وَضْعِ الْحَرْبِ عن الناس عشْرَ سِنِينَ، يَأْمَنُ فِيهِنَّ النّاسُ، ويَكُفُّ بعضُهُمْ عَنْ بعض، على أنّه من أتَى محمّداً من قُرَيش بغَيْرِ إذْنِ وَلِيِّهِ، رَدّهُ عليهم، ومن جاء قريشاً مِمّنْ مَعَ مُحَمّد لم يَرُدُّوهُ عليه، وإنّ بَيْنَنا عَيْبَةً مَكْفُوفَة[1]، وأَنّهُ لاَ إسْلاَلَ[2] ولا إغلالَ[3] وأنّهُ مَنْ أحبَّ أنْ يدخُلَ في عَقْدِ محمّد وعَهْدِهِ دخل فيه، ومن أحبَّ أنْ يَدْخُلَ في عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فيه».

---

(١) العيبة: حافظة من خوص أو جلد أو غير ذلك توضع فيها الأمتعة، وكفُّها إغلاقُها، وهي عبارة تستعمل للكناية عمّا في النفوس، وطيّه إلى غاية الأجل.

(٢) الإسلال: السّرقة الخفية، التي تُسَلّ بها المسروقات سلّاً.

(٣) الإغلال: الخيانة.

وحصل الاتفاق على أن يرجع الرسول بالمسلمين دون أن يعتمروا عامَهم ذاك، وعلى أنْ يأتوا معتمرين في العام القادم، وكتب كتاب الصلح من نسختين توزعان على الفريقين.

وشهد على كتاب الصُّلح رجالٌ من المسلمين، ورجالٌ من المشركين، وكانت مضارب خيام المسلمين في الحلّ، فإذا أراد الرسول الصلاة دخل حدود الحرم فصلّىٰ في أرضِ الحرم.

وحين فرغ الرسول من الصُّلْح قال لأصحابه:

«قوموا فانحروا ثُمَّ احْلِقُوا» ثلاث مرّات. فما قام منهم أحَدٌ، فدخل على زوجه أم سلمة التي كانت معه في سفره هذا، فذكر لها ما وَجَدَ من الناس، فقالت: يا نبيّ الله، اخرج، ثُمَّ لاَ تُكلّمْ أحداً منهم كلمةً حتّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وتَدْعُوَ حالِقَكَ فيحلق لك.

فأخذ الرسول برأيها، فلمّا رأى المسلمون ما فعل الرسول قاموا فنحروا، فحلق بعضهم وقصّرَ آخرون.

فقال الرسول: «يرحم الله المحلّقين».

قالوا: والمقصّرين يا رسول الله؟.

قال: «يرحم الله المحلّقين».

قالوا: والمقصّرين؟

قال: «يرحم الله المحلّقين».

قالوا: والمقصّرين؟

قال: «والمقصّرين».

قالوا: لِمَ ظَاهَرْتَ[١] التَّرْحِيمَ للمحلّقين دون المقصّرين؟

قال: «لأَنَّهُمْ لَمْ يَشُكُّوا».

(١) ظاهرت، أي: قوّيتَ وأكّدْتَ بالتكرير.

وقفل رسول الله ﷺ والمسلمون راجعين إلى المدينة، ونزلت في الطريق سورة (الفتح) كما سبق بيان ذلك.

(٣) روى ابن أبي حاتم بسنده عن إياس بن سَلَمة عن أبيه بَيْنَما نَحْنُ قَائِلُون (أي: نائمون وقت القيلولة في الحديبية) إذْ نادى منادي رسول الله ﷺ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ، نزل روح القدس.

فَثُرْنَا إلَىٰ رسُول الله ﷺ، وهو تَحْتَ شَجَرةٍ سَمُرَة، فبايَعْنَاهُ، فذلك قول الله تعالى:

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾:

فبايع رسولُ الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه بإحدى يَدَيْه على الأُخْرَىٰ.

فقال الناس: هنيئاً لابن عفّان، يَطُوفُ بالبيت ونَحْنُ هَهنَا، فقال رسول الله ﷺ:

«لَوْ مَكَثَ كذَا وَكَذَا سَنَةً مَا طَافَ حَتَّىٰ أَطُوفَ».

(٤) وجاء عند البيهقي عن أنس بن مالك قال: لمّا أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرّضوان، كان عثمان بن عفّان رسولَ رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايعَ الناس، فقال رسول الله ﷺ:

«اللَّهُمَّ إنَّ عُثْمَانَ في حَاجَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَحَاجَةِ رَسُولِه» فَضرَبَ بإحْدَى يَدَيْهِ على الأُخْرَىٰ، فكانت يَدُ رسول الله ﷺ لعثمان خَيْراً من أيديهم لأنفسهم.

* * *

(٣)
المفردات اللّغوية في النصّ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾:

يأتي الفتح بمعنى القضاء بين الخصمين، يقالُ لغة: فَتَحَ بين الخصْمَيْن يَفْتَحُ فَتْحاً، أي: قضىٰ بينهما وأمضى قضاءه.

ويأتي الفتح بمعنى إزالة العائق، يقال لغة: فتح الله له، إذا أزال ما كان عائقاً في طريقه من أَمْرٍ ماديٍّ أو معنويّ، فهيّأ له أن ينطلق إلى ما يريد، ويَدخُلُ في عموم هذا الفتح إزالةُ العوائق الصّادّة في سبيل الدعوة إلى الله، وإزالةُ العوائق المانعة من هداية الشعوب، وحكْمِها بالعدل، وإقامة حكْم الله فيها.

وأصل معنى الفتح مأخوذٌ من فتح الأبواب الذي هو ضدّ إغلاقها، ثُمّ عُمِّم بالاستعمال فشمل كلّ ما يتضمّن إزالة العوائق الماديّة والمعنوية، كالعوائق الفكرية والنفسيّة والقلبية وغير ذلك.

ولمّا كان النّصر في محاربة جيوش الممالك يأتي غالباً قَبْلَ الفتح، قال الله عزّ وجل في سورة (النصر/ ١١٠ مصحف/ ١١٤ نزول):

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾.

﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾:

يفهم الناس أنّ الذنب المتقدّم هو ما فُعِل في الزّمانِ الماضي، وأنّ الذَّنْبَ المتأخِّرَ هُو الذّنْبُ الذي سيُفْعَلُ في الزّمانِ المستقبل، هذا هو الفهم الشائع.

لكنّي رأيت أنّ القرآن جاءت فيه ثلاثة نصوص حول التقديم والتأخير معاً بالنسبة إلى أعمال العباد:

النص الأول: قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۢ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾.

أي: يُنَبَّأُ الإنسانُ يَوْمَ القيامة بأعْمَالِه الْحَسَنَةِ والسيئة التي عَمِلَها فقدَّمَها إلى الآخرة، أو إلى سجلّ أعماله.

ويُنَبَّأُ بأعمالِهِ الّتي لم يَعْمَلْها، فأخّرها بتركه لها، من الأعمال الواجبة التي كان عليه أن يعملها فعَصَىٰ الله بتركها، ومن الأعمال السيئة المحرمة فأطاع الله بتركها، فاستحقّ على تأخيره لها ثواباً.

النصّ الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الانفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾.

أي: علمت يومَ القيامة كلّ نفْسٍ كاسبة حينما تُعْرَضُ عليها صحف أعمالها، ما عَمِلَتْ من عملٍ طاعةٍ أو معصيةٍ، فقدّمته إلى الآخرة، أو إلى التسجيل في صحف الأعمال، وما لم تَعْمَل من عَمَلٍ بطاعةِ الله أو معصيته، فأخّرَتْهُ عن العمل ولَمْ تُقَدِّمه، فهي تستحقّ الثواب على ما أخَّرَتْ فلَمْ تَعْمَلْ من عَمَلٍ فيه معصيةٌ لله، وتستحقّ العقاب على ما أخّرَتْ فلَمْ تعملْ من عَمَلٍ كان يجب عليها أن تعمله طاعةً لله.

فالتّقديم في النّصين يدلُّ على القيام بالعمل خيراً كان أو شرّاً.

والتأخير في النّصين يدلُّ على ترك العمل الذي ينبغي فعله أو ينبغي تركه.

ويقال لغة: قَدَّمْته فتقَدَّم، ويقال: أخَّرْته فتأخَّر.

ويمكن أن نفهم من قوله تعالى لرسوله:

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾:

بمقتضى هذا المعنى القرآني: ليغفر لك الله ما عَمِلْتَ من عَمَلٍ كانَ الأَوْلى بكَ أن لا تعمله، فَفِعْلُه من إمام المرسلين يعتبر ذنباً، وإن كان من غيره قد يعتبر برّاً أو إحساناً، فهو عمل قدّمته فتقدَّم، وليغفر لك الله ما تركت من عمل كان الأولى بك أن تعمله، فتَرْكُهُ من إمام المرسلين يُعْتَبَرُ ذنباً، وإن كان من غيره قد لا يُخِلُّ بمرتبة البرّ عنده، ولا بمرتبة الإحسان فهو عَمَلٌ أخَّرْتَهُ فلَمْ تَعْمَلْهُ فتَأَخَّر.

وبهذا الفهم تنحلّ كلّ الإشكالات المطروحة على أساس الفهم الشائع لمعنى: ما تقدّم من ذَنۢبِكَ وَمَا تَأخَّر، ولا يبقى لها وجود أصلاً، ولا يحتاج النصّ بهذا إلى تأويلات، واللَّهُ أَعْلَم.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾:

جاء في القرآن استعمال تعبير «بِنْعمةِ اللَّهِ» بمعنى: ما أنزل الله لعباده من الدين الذي اصطفاه لهم في نصوص متعدّدة، منها ما يلي:

(١) في سورة (الضحى/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول) قال الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾:

أي: فحدِّثِ النّاسَ بما أنزل عليك من نعمة القرآن وعقائد الإيمان ومبادىء الإسلام وشرائعه وأحكامه، وبما أنعم عليك من نعمة البيان، وقوّة الحجّة والبرهان، والقدرة على الإقناع، والتأثير في الأفكار والقلوب والأسماع.

(٢) وفي سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول) قال الله عزّ وجل لرسوله:

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾:

أي: ما أنت يا مُحمَّد بنعمة رَبّك التي أنعم بها عليك إذْ جعلك نبيًّا رسولاً، تبلّغ عن ربّك ما أنزل عليك من الدين الذي اصطفاه الله لعباده بمجنون، كما يزعم الكفرة المشركون، حين اتّهمُوك بالجنون بسبب ما أنعم الله به عليك من بيانات دينه وأمرَك بتبليغه للناس.

(٣) وفي سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) قال الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: فذكّر الناس بما كنتَ بلّغتهم إياه، وتابع تذكير من ترجو أن تنفعه الذكرى، فما أنت يا محمّد بنعمة ربّك التي أنعم بها عليك إذْ جعلك نبيًّا رسولاً، تبلّغ عن ربك ما أنعم به عليك من نعمة تعاليم دين الإسلام وبياناته، بكاهن ولا مجنون، كما يزعم الكفرة المشركون، إذِ اتّهموك مرّةً بالجنون، وأخرى بالكهانة، فالمجنون لا يمكن أن يأتي النّاس بالحقّ والهدى، وأنت بسبب نعمة الله عليك قد جئت الناس بالحقّ والهدى، والكاهن الذي يتلقّى عن الجنّ والشياطين إنما يأتي الناس بالباطل والضلال، وأنت تأتيهم بالحقّ والهدى.

(٤) وفي سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خاطب الله الذين آمنوا

بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ... ﴿٣﴾﴾:

أي: اليوم أكْمَلْتُ لَكُمْ بيان شرائع دينكم وأحكامه، وأتممتُ عليكم بهذا البيان نعمتي التي أنعمتُ بها عليكم إذ اصطفيت لكم الدين الذي يُحقّق لكم اتباعُهُ سعادةَ الدارين، ورضيتُ لكم أن تستسلموا منقادين لما أنزلت عليكم ديناً تدينون به لي.

وبعد النظر في هذه النصوص أرى أن قوله تعالى لرسوله في سورة (الفتح):

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾.

يراد منه إتمام شرائع الدين وأحكامه، وهو ما أبانه تعالى في الآية من سورة (المائدة) الآنفة الذكر.

﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾:

أي: نصراً غالباً لأعدائك، فالنصْرُ قد يكون بنجاة المنصور من عدوّه، كما حصل للرسول إذْ كان ثاني اثنين في الغار، فقال تعالى:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾.

وقَدْ يكون نصراً بالْغَلَبَة، فالعزيز هو القويُّ الغالب، والنَّصْرُ العزيز الغالب هو الّذي تكون به النجاة للفئة المنصورة، والهزيمة أو الهلاك لعَدُوّها.

﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾:

الطمأنينة والاستقرار، وتُطْلَقُ على الرَّزانة والوقار، وضدّهما الخفَّةُ.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾:

أي: ولِتُعِينُوهُ، وتقوّوه، وتَنْصُرُوهُ، فمن معاني: «عَزَّرَهُ يُعَزِّرُهُ تَعْزِيراً» أعانَهُ وقَوَّاهُ ونَصَرَهُ، وهذا المعنى هو المراد هنا، وتحقيق هذا المعنى يكون بالدفاع عن دين الله وعن رسوله، وبالجهاد معه، وبنشر دينه، وتبليغ ما بلّغه رسوله، وتعليمه

للناس، والإقناع به، والجهاد في سبيل الله بكل وسائل الجهاد، من مجاهدة النفس، إلى جهاد الدّعوة، حتى الجهاد بالقتال.

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾:

أي: ولِتُعَظِّمُوا الله وتبجّلُوه بقلوبكم ونفوسكم، وتُثْنوا عليه بتمجيد صفات العظمة والجلال التي هي له بألسنتكُمْ في ذكْرِكم وعباداتكُمْ.

﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾:

أي: ولِتُنَزِّهوا الله وتقدّسُوه عن كلّ ما لا يليق به من صفات النقص التي تتنافى مع أزليته، ووحدانيته، وكمال علمه وحكمته وقدرته وأنّه يفعل ما يشاء ويختار، إلى سائر صفات الكمال التي هي له سبحانه.

﴿يُبَايِعُونَكَ﴾:

أصل المبايعة عقد بيع بين طرفين، يبذل أحدهما فيه من جهته شيئاً للطرف الآخر، مقابل أن يبذل له الطرف الآخر شيئاً آخر من جهته على سبيل التبادل والمعاوضة.

والمبايعة مع الله بذلٌ من النفس أو المال مقابل ثواب الله ورضوانه وجنته.

واعتاد المتبايعون أن ينجزوا عقد مبايعاتهم بكلام مصحوب بوضع كَفّ يمين كلٍّ منهم بكفّ يمين من يبايعه.

ثم صارت المبايعة تعني المعاهدة على أمر ما، ودلّ على أنها معاهدة مع الله قول الله تعالى في الآية:

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾:

النَّكْثُ نَقضُ البَيْعَةِ، أو العهد، أو اليمين، وعدَمُ تَنْفِيذِ ما تَمَّ عليه العقد أو العهد، وأصْلُ النَّكْث مأخُوذٌ من نَقْض الحبْلِ بعْدَ إبرامه.

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾:

أي: قوماً فاسِدِين لا خَيْرَ فيكُمْ، وفسادكم يؤدّي بكم إلىٰ أن تكُونوا هلكَىٰ.

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾:

المُرَادُ من المخلّفِينَ هُنَا الَّذِينَ دُعُوا للْخُروج مع الرسول لأداء العمرة، فتخلّفُوا ولم يستجيبوا لدعوة الرسول.

﴿ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ ﴾:

أي: إذا ذهبْتُمْ مُسْرعين، وذلك لأنّ المقيّد إذَا أُطْلِقَ من قيده انْطَلَق مُسْرِعاً شطْرَ الجهة الّتي يُريد الذهاب إليها، ومنه انطلاق الخيل في حلْبَةِ السّباق، وأصل الإطلاق التحرير من القيد.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾:

الحرجُ: الإثم، والضيق، وأصل الحرج، الموضع الذي تكثر فيه الأشجار متشابكة فلا تصلُ إليه البهائم التي ترعىٰ الكلأ، قال ابن عباس:

الْحَرَجُ: الموضع الكثير الشجر الذي لا يصل إليه الراعية.

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾:

أي: ومَنْ يُدْبِرْ، ويَبْتَعِدْ عن طاعة اللّهِ ورسوله.

﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾:

أي: يُعَاقِبْهُ عِقَاباً مُؤْلِماً، العذابُ: والعقاب، والنَّكال بمعنى الجزاء على العمل السّيِّىء، وعقابُ الله وعذابُهُ يكون بالعدل.

ويأتي العذاب بمعنى ما يَنْزِلُ بالإنسان من مشقّات مُتْعِبَات ومؤلمات.

* * *

(٤)

مع النصّ في التحليل والتدبُّر

* قول الله عزّ وجل:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ

عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾.

لقد وصف الله عزّ وجلّ صُلْحَ الحديبية الذي جرى بين الرسول ومشركي مكة بأنّه فتحٌ مبينٌ، أي: جَليٌّ واضحٌ، إذْ كان من ثمراته أمران عظيمان:

الأمر الأول: أنّ الدعوة إلى الله قد انطلقت بسببه دون أنْ تقف في وجهها عوائق من ألدّ أعدائها، وهم مشركو قريش، سواءٌ في مكة، أو فيما حولها، أو في قبائل العرب، فقد أخذ بعدها الإسلام ينتشر بحرّيّة، وأخذ الدعاة المسلمون من أصحاب رسول الله يدعون إلى الإسلام آمنين مطمئنّين في أهل مكة وفي مختلف قبائل العرب، ودخل في الإسلام بعده خلْقٌ كثير.

قال الزهري: فما فُتِحَ في الإسلام فتحٌ قبْله كَانَ أعْظَمَ مِنْهُ، إنَّما كانَ القتالُ حيْثُ الْتَقَى النّاس، فلمَّا كانت الْهُدْنةُ، وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ، وأمِنَ النـاسُ بعضهُم بعضاً، والْتَقَوْا فتفاوَضُوا في الحديثِ والمنازعة، فلَمْ يُكَلَّمْ أَحَدٌ بالإسلام يَعْقِلُ شيئاً إلّا دخَلَ فيه، ولقد دخلَ في تَيْنِكَ السَّنَتَيْنِ (أي: منذ صُلْح الحديبيَةِ حتَّى فَتْحِ مَكَّةَ عَسْكَرِيّاً) مِثْلُ مَنْ كَانَ في الإسلام قَبْلَ ذَلِكَ أو أكثر[١].

قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أنّ رسول الله ﷺ خرج إلى الْحُدَيبية في ألف وأربع مئة، في قول جابر بن عبد الله، ثُمَّ خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف.

أقول:

إنّ الوضع الّذي يَتَهَيَّأُ بِهِ انتشار الإسلام عن طريق الدّعوة إلى الله هو الفتح الحقيقي الأعظم عند الله، أمّا نصر المسلمين على أعدائهم وسقوطُ بلدانِ الكفر في أيدي المسلمين بالقوّة المسلّحة، فهو فتح من الدّرجة الثانية، إلّا أن يكون سبباً لانتشار الإسلام ودخول الناس فيه أفواجاً.

فعلَىٰ المسلمين ولا سيما الدعاة إلى الله أن يَضَعُوا هذه الحقيقة ماثلة نُصْبَ أعينهم دواماً.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (في أخبار صلح الحديبية).

الأمر الثاني: أنّ صُلْح الحديبية قد نجم عنه نَقْضُ المشركين لبعض بنوده، وسقُوطُهُم في الغَدْرِ، الأمر الذي مكّن الرسول ﷺ من التوجّه لهم بجيش المسلمين الّذي بلغ قوامه عشرة آلاف مقاتل بعد أقل من سنتين، ودخولهم مكّة فاتحين لها فتحاً عسكريّاً مظفّراً، مؤيداً بنصر الله وفتحه المبين.

فقال الله تعالىٰ لرسوله:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾.

وذكر الله عزّ وجل من حكمِ هذا الفتح المبين الذي منحه الله لرسوله ﷺ في التاريخ الذي حصل فيه عِدَّةَ حِكَم:

الْحِكْمَةُ الأولى: أنّ أجَلَ الرّسول محمد ﷺ في الحياة الدنيا قد اقترب، فمن الحكمة إكرامُه بالفتح المبين، الذي هو بداية نصر الله وفتحِه العظيم للأمّة الإسلامية، ودخولِ الناس في دين الله أفواجاً، وأن يستخلف الله الذين آمنوا في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، ويُمكِّنَ لهم دينهم الذي ارتضىٰ لهم.

فكان الفتح المبين إشعاراً بانتهاء مُهِمَّة الرسول في الحياة الدنيا، إذ اقترب أجله، وجاء التعبير الإيمائيُّ عن ذلك بقوله تعالى:

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

أي: ليغفر لَكَ اللّهُ ما عَمِلْتَ من عَمَلٍ كان الأولى بك أن لا تعمله، أو أن تعمل أفضل منه، بحسب مقامك العظيم عند ربّك وإن كان ما عملته لو عمله غيرك لكان من درجة من درجات الإحسان أو البرّ أو التقوى، لكنّ من يَحتَلُّ أسْمىٰ دَرَجاتِ المحسنين يُطْلَبُ منه أسْمَىٰ دَرَجات الإحسان، فحقوق هذه الدرجة تختلف عن حقوق ما دونها من الدرجات.

وليغفر لك الله ما أخَّرتَ مِنْ عَمَلٍ فلم تَعْمَلْهُ، وقَدْ كان الأولى بك أن تَعْمَلَهُ، فتأخير العمل كما وضح لنا في شرح المفردات يكون بتركه وعدم عمله، وهذا الفهم هو الذي لا ترد عليه الإشكالات التي ترد على الفهم الشائع، وهو الفهم الذي يتلاءم مع إيماء النصّ إلى اقتراب أجل وفاة الرسول ﷺ، أي: منحك

الله هذا الفتح المبين، لِيُنهِيَ وظيفَتَك في الحياة الدنيا، وليَتوفَّاكَ، وليغْفِرَ لَكَ عند الْوَفاة ذنوبَكَ كُلَّها، مَا كان منها بسبب فعلٍ قَدَّمْتَهُ، إذْ فعلته، وما كان منها بسبب مطلوبٍ مِنْكَ أخَّرْتَه، إذْ لم تفعله.

الحكمةُ الثانية: أنَّ اقتراب انْتهاءِ مُهِمَّةِ الرسول ﷺ في الحياة الدنيا يستَدْعِي إكْمَالَ إنْزَالِ شَرائِعِ الإسلام وأحكامه عليه من ربِّه، وهذه الشَّرائع والأحكام هي المبيِّنَةُ لدين الله الذي هو نعمة الله العظمى على رسوله وعلىٰ الناس أجمعين، إذْ يُحَقِّقُ الله به لمن اتَّبعه السعادة العظمى في الدارين.

فمن حِكَم الفتح المبين الإشعارُ بأنَّ ما تبقَّىٰ من أحكام الإسلام ووصاياه وشرائعه سيُتِمُّه الله ويكمّله عمّا قريب، وهذا هو الذي حصل في الواقع، وأتمَّ الله الدين في حجّة الوداع بقوله:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴿٣﴾﴾

[المائدة/ ٥ مصحف ١١٢ نزول].

دل على هذه الحكمة الثانية قول الله عزّ وجل في النصّ لرسوله:

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾.

ونفهم من إتمام نعمة الله على رسوله بإنزال ما بقي من شرائع الإسلام وأحكامه ووصاياه، إتْمَامَ نعْمَةِ اللهِ على الناس جميعاً بذلك، لكن الذين يستفيدون من هذه النعمة العامّة الشاملة هم الذين يؤمنون بها، ويعملون بمقتضاها.

الحكمةُ الثالثة: أنَّ ما بَقِي للرسول في الحياة الدنيا من سنوات قليلات، يسْتَدْعِي أنْ يهْدِيَهُ اللَّهُ فيها صِراطاً مستقيماً، يحقِّقُ اللَّهُ لَهُ به أوْفَرَ نَصِيبٍ مِنَ النَّصْرِ والتوفِيْقِ والنجاحِ العظيم، الذي يِنْتَشِرُ بِهِ الْفَتْحُ وَيَدْخُلُ به الناس في دين اللّٰهِ أفْوَاجاً، وهذا ما تحقَّقَ فِعْلاً، إذْ توالَتِ الانتصارات، ففتَحَ اللَّهُ لرسوله حصون خيبر وسائر أرضها في سنة سبع للهجرة، وبعث الرسول بعثاً إلى جهة الشام في غزوة مؤتة، في جمادى الأولى من سنة ثمانٍ للهجرة، ودخل مكَّة فاتحاً في شهر رمضان من سنة ثمانٍ للهجرة، وبعث البعوث لهدم الأصنام في أنحاء الحجاز، ونصرَهُ الله

على هوازن وثقيف في غزوة حنين، عقب فتح مكّة، وغزا أطراف الشام في شهر رجب من سنة تسع للهجرة، فيما يُعْرَفُ بغزوة «تبوك» لدعوة الرّوم إلى الإسلام، أو فتح بلادهم لدعوة الإسلام، أو مناجزتهم القتال، وبعث الرسول البعوث، وجاءته الوفود، وكتب الكتب إلى الملوك، وجاء نصر الله والفتح من كلّ الجهات، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

دلَّ على هذه الحكمة الثالثة قول الله عزّ وجل في النص لرسوله:

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾.

الصراطُ المستقيمُ يُفَسَّر في كلِّ موضع من مواضع استعماله بما يلائم القرائن من سِيَاقِ النَّصِّ وسِياقِهِ، فمنه ما يكون في العبادات، ومنه ما يكون في المعاملات، ومنه ما يكون في الإدارة والسياسة، ومنه ما يكون في الدعوة، ومنه ما يكون في القتال، إلى غير ذلك.

ولمّا تمّ كلّ ذلك أنزل الله عزّ وجل على رسوله سورة (النصر/ ١١٠ مصحف/ ١١٤ نزول) وهي آخر سور القرآن نزولاً:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾.

فأشارت هذه السورة، إلى انتهاء مهمّة الرسول، واقتراب أجل وفاته ﷺ.

وقد أدرك هذه الإشارة بعض الصحابة منهم عُمَرُ بْنُ الْخطّاب، وعبد الله بن عباس، كما صحّ عند البخاري.

وهو فَهْمٌ فهمه الرسول ﷺ، فقد روى الإمام أحمد، عن محمّد بن فُضَيْل، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال:

(لمّا نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ والْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ:

«نُعِيَتْ إليَّ نَفْسي».

فإنّهُ مقبوضٌ في تلْكَ السَّنَة).

ومن هذا نفهم تدرُّج النصوص من التلميحات البعيدة التي لا يُدْركها إلاّ أهل الفطانة العالية، إلى الإشارات التي قد يَسْهُل إدراكُها لدى بعض الأذكياء، في أمر هو من الرّموز القرآنية بين الله ورسوله.

وقد نصر الله رسوله نصراً عزيزاً في حياته، ونصره بعد أن انتقل إلى جوار ربّه، فكلّ الفتوحات التي كانت للمسلمين بعد الرسول هي نصر عزيز للرسول ﷺ، ولذلك قال: أوتيت الكنزين، وفتحت لي فارس والروم، وآتاني الله ما زَوَىٰ لي من الأرض، وكلّ ذلك كان بعد وفاته صلوات الله عليه، خظيت به أمّته في الحياة الدنيا.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾.

يصفُ الله عزّ وجلّ حال المؤمنين الّذين كانُوا مع الرسول معتمرين مُحْصَرين في الحديبية، قد منعهم مشركو قريش من دخول مكّة، وأداء مناسِكِ عُمْرَتِهِمْ فيها، فأبان الله أنّهم على الرغم من قلّتهم، إذْ لم يكونوا يزيدون على ألف وخمسمائة، فقد كانُوا مطمئنّين، ثابتين، وقُورِين، لم يستخفُّهُمْ خوفٌ ولا حذر، وكانوا على استعداد لمناجَزَةِ جيش قريش من المشركين القتال، ولو بالدخول عليهم عَنْوَةً وهم مُحَصَّنُونَ في مكّة، ومعهم كامل أسلحتهم وعتادهم وتَمْوينهم.

فَقَدْ أنزل الله عزّ وجلّ السَّكِينَة في قلوبِهم، وهي الطُّمأنينة والاستقرار، ثقةً بتأييد الله لهم ونصره، وتحقيق وَعْدِه.

وهذه السَّكينةُ تأتي معونةً من اللهِ للتَّثبيت، وشدّ العزائم، فمن أنزل الله في قلبه السكينة كان هادئاً رازناً وقُوراً، لا يعتريه طيشٌ ولا خفّة، ولا يُقلقه خوفٌ، ولا تستخفُّه أراجيفُ ولا تهديدات تأتي من قِبلِ الأعداء، فقال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾.

وهٰذِهِ السَّكِينةُ هي من جُنْدِ الله، كما أنَّ مِنْ جُنْدِ اللهِ الرُّعْبَ يُلْقيه في قُلُوبِ أعْداءِ المؤمنين، ومن جنده الريحُ، والصواعقُ وحجارةٌ من سجيل، والملائكة، وغيرُ ذَلِكَ.

وإنْـزال السُّكُونِ والطُّمأنينَـةِ في قُلُوبِ الْمُؤْمِنينَ يـزيدُهُمْ إيمـاناً مـعَ إيمانهم السّابق قبل إنْزالها، لأنهم بها يواجهون أعداءَهُمْ ثابتين مطمئنين أقوياء، غير هيَّابين ولا وَجِلين، وهذا يجعلهم واثقين مؤمنين إيماناً كاملاً عن وعيٍ وبصيرة وكمالِ إدراك بأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ سيَمْنَحُهُمْ حتماً إحدى الحسنين: إمّا الشهادة وجنّات النعيم، وإمّا النّصر والفتح المبين، وهذا نموٌّ في الإيمان عند أشدّ الأزمات.

بخلاف الْقَلَقِ والْخَوْفِ والاضطراب فإنَّها عَوارضُ تأتي بالشُّكُوكِ، فتَنْقُصُ من مشاعرِ الإيمانِ، ومن مشاعر الثقة التامّة باللّهِ التي هي من آثار كمالِ الإيمان.

إنّ درجة حرارة الإيمان الفاعلة في السُّلوك تزداد بالسكينةِ الّتي تُثَبِّتُ الْقَلْبَ وتدفع عنه الخوفَ والْقَلَقَ والاضطراب، وتنقُصُ بعوارض الشُّكُوكِ التي تتلاعب بالأفكار، وتجلُب الأوهام، وتثير الخوف والقلق والاضطراب.

ولا تقتصر المعونة الربّانيّة للمؤمنين على الإمداد بالسكينة التي هي من جُنُودِ اللّهِ، بل قد يُعِينُ المؤمنين بجنودٍ غيرها من جنوده الكثيرة في السَّماواتِ والأرض، فهو يعين بما يشاء منها بمقتضى علمه بعباده، وحكمته في قضائه وقدره، وإشارةً إلى ذلك قال الله تعالى في النصِّ:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾.

أي: فهو يُعِينُ المؤمنين من عباده بما يشاء من جنوده، معونةً ما على وفق علمه وحكمته، فكُلُّ جنودِ السماوات والأرض مِلْكُه، يصرّفها كيف يشاء، ويسخّرها فيما يريد، وهو العليم الحكيم دواماً.

ويتساءلُ المتدبّر: لِمَ يُوضَعُ المؤمنون في ظُروف يُضطَّرُون معها أن يُقاتِلُوا في سبيل الله عدوَّ الله وعدُوَّهم؟! أليس الله بقادر على إهلاك الكافرين والمنافقين دون أن يكلّف المؤمنين قتالهم، ودون أن يكونُوا بحاجة إلى معونةٍ من الله بجنودٍ منه؟!.

ويجيب النّصّ على هذا السؤال المطويّ غير المذكور في اللّفظ، بما يدلُّ على أنّ حكمة الامتحان في الحياة الدنيا تستدعي ذلك، فلو شاء الله لانتصر لدينه من الكافرين، ولكن ليبلُو الناس بعضهم ببعض، ونتيجة لوضع الناس موضع الامتحان تأتي النتائج يوم الدين بمنح المؤمنين ثوابهم في جنّات النعيم، وتعذيب الكافرين بالعدل في دار العذاب المعدّة لهم، وتأتي النتائج في الحياة الدنيا بِنَصْرِ المؤمنين الصادقين على عدوّهم، وتَعْذِيب المنافقين والمنافقات الذين انْخَذَلُوا عنهم، ولم يُشَارِكوهم فيمَا دُعُوا إليه، بعَذابٍ من الغيظ والكمَدِ والهمّ والغمّ، إذْ جاءت النتائج على غير ما كانوا يظنّون، فخابت آمالهم، وتحطّمت أوهامُهم، وتَعْذِيب المشركين والمشركَاتِ كذلك، إذْ خابَتْ آمالهم بصُلْح الحديبيَّة، فقد صار الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، وكانوا يظُنُّونَ أنَّهم انْتَصروا على محمّد والّذين قدموا معتمرين معه، فصدُّوهم عن مكة، واحتفظوا لأنفسهم بالسلطان عليها تُجاه جميع قبائل العرب.

دلَّ على هذه المفهومات عن طريق صريح اللفظ وعن طريق لوازمه والمطويات فيه، قول الله عزّ وجل في النصّ:

﴿لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾.

فدلّ التعليل: ﴿لِيُدْخِلَ المؤمنين...﴾ والعطفُ عليه بعبارة ﴿وَيُعَذِّبَ المنافقين...﴾ على السؤال المطوي، الذي سبق بيانه.

ودلّ قوله تعالى:

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

عطفاً على جملة:

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾.

على أنَّ هذا التعذيب تعذيب معجّل في الدنيا، لأنّ العطف يقتضي التغاير، كما أنَّ الأصل فيه تأسيس فكرة جديدة.

ودلّ التعذيب المعجّل للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، مما يقتضيه التناظر على مقابله الذي هو إكرام الله المؤمنين بما يحبّون من نصر وفتح ومغانم، وقد جاء مطوياً في اللفظ اكتفاءً بما دلّ عليه، فتأييدُهم بالنصر، وتسليطُهم على أموال أعدائهم يأخذونها مغانم، هو الّذي كان به تعذيب المنافقين والمشركين المعجّل مع دلالات نُصوص لاحقة في السورة.

إنّ امتحان المؤمنين بتكليفهم قتالَ عدُوّهم، قد جعله الله لِيُثيبهم فضلاً منه إذا أطاعوا ثواباً مؤجّلاً وثواباً معجَّلاً.

- فالثوابُ المؤجّلُ إلى يوم الدّين قد دلّت عليه الآية (٥) من النصّ، ويكون:

(١) بأن يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها.

(٢) وبأن يكَفّر عنهم سيئاتهم، فلا يحاسبهم عليها.

وهذا عند الله فوز عظيم، الفوز: النجاة من الشر، والظفر، والربح.

- والثواب المعجّل الذي يحبّونه يكون:

(١) بأن ينصرهم الله على عدوّهم.

(٢) وبأن يفتح لهم بلاد أعدائهم ويستخلفهم في الأرض.

(٣) وبأن يستولوا على مغانم كثيرة.

وهذا الثواب المعجّل يُفْهم ممّا يقتضيه التناظر في مقابل التعذيب المعجّل للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات مع ما جاء تفصيله في سورة (الفتح) نفسها، في قوله تعالى لرسوله بعد (١٣) آية:

﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾.

ـ والعقاب المعجّلُ للمُنافقين والمُنافِقاتِ والمشركين والمشركات الَّذين تتحدّث السورة عنهم بمناسبة صُلْحِ الحديبيَة، دلّ عليه قول الله تعالى:

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ ... ﴿٦﴾﴾.

إنّ المنافقين الذين دُعُوا للخروج مع الرَّسُول في عُمْرتِه، ليُكثّروا أعداد المسلمين، فيَرْهَبَ مشركو قريش كثْرَةَ العدد، فيُخلّوا السبيل للرسول والمسلمين حتى يؤدّوا عمرتهم آمنين، لم يَسْتجيبوا لهذه الدَّعْوَة، وظَنُّوا أنَّ عَدَدَ المؤمنين لا يكْفِي لمواجَهَةِ قُوّاتِ المشركين في مكّة، وأنّ المشركين سيقْضُونَ قضاءً تامّاً على الرسول والذين خرجوا معه من المؤمنين، وأنّهم لن يرجعوا إلى مساكنهم وأهليهم أبداً، وزعَمُوا أنّ الله لن ينصُرَهُمْ بجُنُودٍ من عنده.

وكذلك ظنُّ المشركون حين رأوا أنّ الرَّسُولَ ومَنْ معه من المعتمرين لا يزيدون على ألف وخمسمائة، وأنّ الفرصة سانحة للقضاء عليهم.

لكنّ تدبير الله بما أجْرى من أمور انتهت بصلح الحديبيَة، قد كان من نتائجه تَعذيبُ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، بما منح الرسول والذين آمنوا من فتح إسلاميّ مبين، أنزل بالطرف المقابل خيبة الأمل، والحسرة والكمد، والغمّ

والهمّ، لقَدْ ظنُّوا بـاللَّهِ ظنَّ السَّوْء، وهـو أنّه لن يتـدخل بتـدبيراتـه الحكيمة لنصـرة رسوله والّذين آمنوا معه.

فخيَّبَ اللَّهُ ظنَّهُمْ، وكانُوا يحْسَبُون أنّ دَائِرَة السَّوْءِ، وهو الشَّرّ والضُّرُّ والْهَـلاَكُ ستَـدُور على محمّـد ومن معـه من المؤمنين، فـدارت دائـرة السَّـوْءِ على المنـافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات.

ومع هذا العقاب المعجّل عاقبهم الله بعقاب دائم دلّ عليه قوله تعالى:

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾.

ومن غضب الله عليه نكّد عليه أمور حياته في نفسه، وأمواله، وأولاده وأهله، وكلّ ما يتعلّق به، وهذا من التعذيب المستمرّ.

ومن لعنـه الله أبعـده عن مـواطن تنـزّل رحمـاتـه، ووكَلَه لنفســه، وهـذا من التعذيب المستمرّ.

ـ والعقاب المؤجّل للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، دلَّ عليـه قول الله تعالى:

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

أي: وهيّأ لَهُمْ داراً هي لعذاب المعذّبين يوْمَ الدِّين، ومن أسمائهـا جهنّم فإذا ماتُوا وهم منافقون أو مشركون كانوا من المعذّبين فيها.

ودلّ العـطف بجملة الذّم: ﴿وَسَـاءَتْ مَصِيراً﴾ على معـطوف عليـه محـذوف يتعلّق بـوصف جَهَنَّم، ويمكن فَهْمُهُ من القـرائن واللّوازم الفكريّـة، أي: وأعـدّ لهم جهنَّم يُعَذَّبُونَ فيهـا، وتكونُ هي مصيرهم الذي سيصيـرون إليه، وسـاءتْ مصيراً. ولَسْتُ أرى أنّ العطف على محذوف مقدَّر ذهناً يقتصـر على الفاء التي تسمّى الفـاء الفصيحة، بل قد تكون الواو فصيحة أيضاً، وكذلـك غيرهمـا من حروف العـطف، وفي القرآن من ذلك الشيء الكثير.

وكمـا طمأن الله المؤمنين في الآيـة (٤) من السّورة بـأنّ له جنـود السمـاوات والأرض، فهو يؤيّدهم بجنوده بحسب علمه وحكمتـه، لوّحَ للمنـافقين والمنافقـات

والمشركين والمشركات في الآية (٧) من السورة بأنّ لـه جنودَ السمـاوات والأرض، أي: فهـو يُسَلِّطُ من جنوده عليهم فينكّلون بهم وينتقمـون منهم إذا شـاء، بمقتضى عِزَّتِه الغالبة، وصفة حكمته التي يُدَبِّر على وفقها مقاديره، فيقضي بالنصـر للمؤمنين الصـالحين، ويقضي بـالهـزيمـة والخـذلان والتَّعْذِيبِ والتنكيـل على الكـافـرين والمنافقين، فقال تعالىٰ:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾.

خاطب الله رسُولَهُ ببيانِ مهمَّةِ رِسَالَتِـه، توطئةً لخطاب النـاس ببعض ما يجب عليهم تُجاهَ رَبِّهم، وليكونَ هذا الخطابُ تمهيداً للحديث عن المبايعة التي حصلت بين الرسول والمؤمنين عند الشجرة في الحديبية، وهذه المبايعـة حدَثٌ مِنْ أحـداث رحلةِ الْعُمْرَة الّتي أُحْصِرَ بها الرَّسُـول والمؤمنون معهُ، وكان فيهـا صُلْحُ الحديبيـة، وكان فيها تحلُّلُ المسلمين دون أداء منـاسكهم باعتبـارهم مُحْصَرين، وعـودتُهم إلى المدينة بفتح للإسلام مبين، كما سبق بيان ذلك.

وقد جاء في الآية (٨) بيان أنّ مُهِمَّـة الرسـول في رسالتـه تشتمل على ثـلاثة عناصر:

العنصـر الأول: أنَّهُ شـاهِدٌ، أي: هـو مُبلِّغٌ رسالَـةَ رَبِّه الّتي أمَـرَهُ الله بتبليغها للناس، ويأتي يوم القيامة فَيُسْتَدْعَىٰ للشهادة بأنه قَدْ بلَّغ جميـع ما أَمَرَهُ الله بتبليغهِ، لم ينقُصْ منه شيئاً، وبشهادتِه هذه الموثّقة بالأدلّة تَنْتَقِلُ المسؤولية فتكونُ على الّذِين تبَلَّغُوا عنه، لأنَّهم مكلَّفونَ بدورهم أن يُبَلِّغـوا الرسـالة إلى غيرهـم كما تَبَلَّغـوهَـا،

وهكذا تباعاً في الأجيال وفي الشعوب، وهم مدعُوُّون لتقديم شهاداتهم، ومسؤولية التبليغ هذه مسؤوليةٌ مُلْقاةٌ على الأمّة الإسلامية التي أجابت فآمنت وأسلمت، ويحملُ منها كلٌّ منهم على قَدْرِه، ويؤاخذ على مقدار تقصيره.

ونلاحظ بهذا التحليل أنَّ مِنَ الإيجاز في التَّعْبير ذِكْرَ كَوْنِ الرسُولِ شاهِداً، لِيَدُلَّ باللُّزوم الذِّهْني على ما يكونُ قَبْلَ الشهادة من أمور، وأوَّلُ هذه الأمور تَبليغُ ما أمره الله بتبليغه للناس.

العُنْصُر الثاني: أنَّهُ مُبَشِّر، أي: هو مُبَشِّرٌ من استجاب وآمَنَ وأطاع، بأنَّ له رضوانَ الله والجنّة يوم الدين، وبما جاء في النصوص من بشريات معجّلَةٍ ومؤجّلَة دون ذلك.

العنصر الثالث: أنّه نَذِير، أي: هو مُنْذِرٌ مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ، ولم يُؤْمِنْ، ومُنْذِرٌ مَنْ عَصَىٰ، بعذابِ الله وسخطه وغضبه، والطَّرْدِ من رحْمَتِهِ، في العاجلة وفي الآجلة، ويكون لكلٍّ من كفر وعصى من ذلك على مقدار جرمه وإثمه.

فقال تَعالى لرسُولِهِ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨﴾.

والتفت ربُّنا تعالى بعد هذا الخطاب الموجّه للرسول فخاطب الناس مبيناً أُولَىٰ واجباتهم نحو ربهم، بعد إرساله رسوله إليهم، وهي تشتمل على أربع واجبات عظمىٰ:

الواجب الأوّل: أنْ يُؤْمِنُوا باللّهِ ورَسُوله، فقال تَعالَى:

﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

ويدخل في هذا الإيمان كلّ ما يتعلق بذات الله وصفاته وأفعاله، وكلّ ما يتعلّق بالرسول وصفاته وبلاغاته، وفق ما أنزل الله على رسوله وأمره بتبليغه للناس.

الواجب الثاني: أن ينصروا الله بنُصْرَة دينه ونُصْرَة رسُولهُ، ويبلّغوا آيات كتابه ويُعلّموها الناس، ويبلّغوا سنة رسُوله وبياناته ويجاهدوا في سبيل الله بأموالهم

وأنفسهم، بمختلف أنواع الجهاد، على قدر الاستطاعة، وهذه الأمور تدخل في معنى «التعزير» فقال تعالى:

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾:

أي: وتنصروا الله.

الواجب الثالث: أن يعظّموا الله ويبجّلوه بقلوبهم ونفوسهم، وأنْ يُثْنوا عليه بتمجيد صفات العظمة والجلال التي هي له بألسنتهم، في ذكرهم وعباداتهم، وهذه الأمور تدخل في معنى «التوقير» فقال تعالى:

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾:

أي: وتوقّروا الله.

الواجب الرابع: أن يُنزّهوا الله ويُقدّسوه عنْ كلّ ما لا يليق به من صفات النقص، التي تتنافى مع أزليته، ووحدانيته، وكمال علمه وحكمته وقدرته، وأنّه يفعل ما يشاء ويختار، إلى سائر صفات الكمال التي هي له سبحانه.

وتنزيه الله عن كلّ ما لا يليق بكمال صفاته يدخل في معنى «تَسْبيحه» فقال تعالى:

﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾

التسبيح: التنزيه.

البُكْرَة: أوّلُ النهارِ إلى طُلُوعِ الشمس، وهو وقت صلاة الصّبح.

الأصيل: هو الوقت الذي يكون من حين اصفرار الشمس إلى غروبها.

فمن واجبات الدين الأولى تسبيح الله في هٰذين الوقتين، ومن صلّى الفجر والعصر يوميّاً فقد أدّى هذا الواجب.

وعوداً إلى بيان أمور تتعلّق بأحداث موضوع السورة الأصلي، بعد التمهيد بكلّيات دينيّة عامّةٍ للرّبط بها، والتفريع عليها، ذكر الله حادثة مبايعة من كان مع الرسول من المؤمنين في رحلة العمرة التي كان فيها صُلْح الحديبية، فأبان الله

عزّ وجلّ ثلاث قضايا حول هذه البيعة:

القضيّةُ الأولى: أنّ الذين يبايعون الرسول المأذون من اللّهِ عزّ وجلّ بإجراء هذه البيعة إنّما يُبَايِعُونَ الله، فبيعَتُهُمْ هي مع الله، لأنّه تعالى هو الذي يحاسِبُ بعد ذلك عليها، فيُثِيبُ من أوفى بعهده بأجْرٍ عظيم، ويُجازي من يَنكُثُ بالعدل، فنقض العهد مع الله من المعاصي الكبرى، والْقَصْدُ ملاحظٌ فيه الغرض الأساسيُّ من البيعة وهو نُصْرةُ دين الله، فالمبايعة في الحقيقة هي مع الله.

وأبان تعالى أنّ يدَهُ عزّ وجلّ فَوْقَ أيدي الذين يُبايعون رسُوله، مشارِكَةً في توثيق البيعة، ومبارِكَةً لها، مع الإشعار بالتزام كلّ ما يترتب عليها عنده من معونة وأجر عظيم، فقال تعالى لرسوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

وجاء استعمال الفعل المضارع «يُبَايِعُونَكَ» لتصوير حركة المبايعةِ المتابعةِ التي أجراها المؤمنون يومئذٍ.

القضيّة الثانية: تحذير من ينقض بيعته وهو قادر على الوفاء بها حتى آخر نفس من حياته، فإنّه يَضُرُّ بذلك نفسه، ولا يَضُرُّ اللّهَ ورسُولَهُ وجماعةَ المؤمنين شيئاً، فقال تعالى:

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

أي: فهو الخاسر بنكثِه.

القضيّة الثالثة: ترغيب مَنْ يفي بعَهْدِهِ في بَيْعته بأنّ الله سَيُؤْتيه أجراً عظيماً، وهو يشمل الأجر المؤجّل إلى يوم الدين، والأجر المعجَّل قبل ذلك، فقال تعالى:

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾:

أي: ومَنْ أتمّ الْعَمَلَ بكُلِّ ما عاهد عليه الله في مبايعته التي بايع عليها، فسَيُؤتيهِ في المستقبل غير البعيد أجراً عظيماً، أمّا في المستقبل البعيد يوم الدّين فقد أبانه الله في الآية الأخيرة من آيات سورة (الفتح) فقال تعالى:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾.

الوفاء بالعهد: إتمام العمل بكل ما جاء في عناصره.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ
يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا
أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ
أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن
لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾.

يخبر الله رَسُوله وهو في طريق عودته إلى المدينة من صُلْح الحديبية، أنَّ الّذين لم يستجيبوا لدعوة الخروج مع الرسول لأداء العمرة، من الأعراب الذين حول المدينة، وكانُوا من المنافقين، سيعتذرون بألسنتهم عن تخلُّفهم قائلين: شغلتنا أموالُنا وأهلونا فاسْتَغْفِرْ لَنا، أي: لم يكن تخلُّفنا خِذْلاناً لك وتباطُؤاً عن مناصرتك وعن تكثير سواد المسلمين.

قيل: وكانُوا من أعراب غِفَار، ومُزَيْنة، وجُهَيْنَة، وأَسْلَم، وأَشْجَع، والدُّئِل (أو الدّيل)، وكانَتْ مَنَازِلُهُمْ حَوْلَ المدينة.

وهذا خَبَرٌ عمّا سيكون، لأنّ الله عالم بنفوسهم، وعالم بما بيَّتُوا أن يقولوه للرّسول، حين بلغهم نبأُ الصُّلح، وخاب أَمَلُهم بأنْ يُحارِبَهُ ومَنْ معه من المؤمنين مشركو مكّة، ويَقْضُوا عليهم، ويتخلّصُوا من الرسول ودعوته.

وسمَّاهُمُ الله مخلّفين (اسم مفعول) ولم يسمّهم متخلفين، إشارة إلى عدّة عوامل جعلتهم يتخلّفون، ومنها حكمة الله بأن يتخلفوا لأنهُم منافقون، حتّى ينصُرَ

رسوله بدونهم، وليكشفهم للرسول والمؤمنين، وليغيظهم ويعذّبهم بما يقضي لرسوله من فتح مبين.

وأبان الله لرسوله أنّ ما سَيَقولونه من الاعتذار وطلب الاستغفار إنّما هو قول بألسنتهم على خلاف ما يُضمِرُونه في قلوبهم، إذْ هم مُنافقون، لم يكُنْ لهم عذْرٌ، ولا يؤمنون بأنّهم قد ارتكبُوا ما يحتاجون أن يستغفروا الله منه، ولا يؤمنون بأنّ محمّداً رسول الله حتّى ينفعهم استغفارُه لهم، ولكنّهم يجارون المسلمين في مفهوماتهم، التي من ضمنها أنّ التخلّف الذي كان منهم خطيئة تحتاج استغفاراً.

فما سيقولونه لا يَعْدُو أنْ يكون وسيلةً من وسائلهم التي يسترون بها كفرهم، ضمْن خطّة النفاق الّتي اختاروها لأنفسهم، فقال تعالى:

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

وعلّم الله رسوله ما يقوله لهم، وهو في الحقيقة خطابٌ من الله لهم بأسلوب تكليف رسوله أن يقول لهم ما جاء في التعليم، ومع ما في هذا الأسلوب من إشعارٍ بالإعراض عنهم، فهو يتضمّن توجيه الرسول أن يبيّن لهم ويشرح ويُفَصّل ما جاء في التعليم، وأن يُبْرز ما فيه من مطويات لم تذكر بصريح اللّفظ، لكنّها تُفْهَم باللّوازم الذهنيّة، وبالجمع بين مفهومات الجمل والربط بينها، وبدلالات بعض الألفاظ.

وبالتدبّر نُلاحظ أنّ هذا التعليم قد اشتمل على بيان القضايا التالية للمخلّفين من الأعراب، وهي قضايا موجّهة لكلّ ذي استعداد لأن يُدْرِكَ حتّى آخرِ الدّهر:

القضية الأولى: أنّ التعامل في أمور الدّين تعامُلٌ مع الله الرّبّ الخالق، ولو كان من خلال التعامل مع الناس والأحياء والأشياء، فالله هو الذي يراقب أعمال العباد، ويحاسبهم عليها، ويعلم ما في صدورهم من أغراضٍ ونياتٍ وعقائدَ، ويعلَمُ مطابقة الظاهر للباطن ومخالفته له، ثم هو الذي يجازي على الأعمال، إن خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشرٌّ، فهو الربّ الخالق مالك الوجود كلّه لا شريك له.

وهذه القضية هي من أصول الدين.

القضيّة الثانية: أنّ الذي يَمْلِكُ الضرّ والنفع في الوجود هو الله وحده لا شريك له، فإنْ أراد الله نَفْعَ عبْدٍ من عباده لم يمْلِكْ أحَدٌ في الوجود منْعَ هذا النفع عنه، وإنْ أراد الله ضرّ عبْدٍ من عباده لم يَمْلِكْ أحَدٌ في الوجود دفْعَ هذا الضّرّ عنه.

أي: فإذا كان غرض المخلّفين من الأعراب عن الخروج مع الرسول ﷺ لأداء العمرة خَذْلَهُ، وتمكينَ مشركي قريشٍ من القضاء عليه وعلى المؤمنين معه، وكان الله قد أراد حفظهم، ومنحهم الفتح المبين، وتهيئةَ الوسائل لِيَنْصُرَهُمْ بها نصْراً عزيزاً، فإنّه لا تُوجَدُ قُوّةٌ قادرة على منع هذا الخير الذي أراده الله لهم.

دلّ على هذه القضية من النصّ قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا... ﴿١١﴾﴾.

لَمْ يأتِ التعبير بأسلوب: إنّكُمْ لا تَسْتَطِيعُونَ بوسائلكم حجْبَ نَفْعٍ أرادَهُ اللّهُ لِرَسُولِه والمؤمنين معه، فتخلُّفُكُمْ لَمْ يجْلِبْ ضرراً لهم، وذلِكَ لأنّ الله أراد خلاف ذلِكَ، بل جاء التعبير بقلْب الأمْر عليهم أنفسهم، فهم لا يملكُونَ دفْعَ ضرٍّ عن أنفُسِهِمْ إنْ أراد اللّهُ بِهِمْ ضَرّاً، ولا يمْلِكُ أحَدٌ حجْبَ نفْعٍ أراد اللّهُ أنْ يَنْفَعَهُمْ به، فليعَمِّموا هذه القاعدة الإيمانية، وليطَبِّقُوها على الرّسُولِ والمؤمنين إنْ كانوا أهل فكرٍ وَتَدَبُّر.

وهذا من روائع أساليب الإقناع، ومن الحجج المسكتة الدامغة، لأنّهم متى قالوا: إنّ اللّهَ إذا أراد بنا نفعاً أو ضرّاً فلا أحد يدفع ذلك عنّا، لزمهم أن يطبقوا هذه القاعدة على جميع الناس، إذ ليست لهم خصوصية تحصُر القاعدة فيهم.

وهذه العبارة دلّت أيضاً على القضية الأولى عن طريق اللُّزوم الذهني، باعتبار أنّ القضية الأولى هي الأساس الذي تتفرّع عنه القضيّة الثانية، وتُفْهَمُ أيضاً من دلالة النفي الذي دلّ عليه الاستفهام، إذْ معنى الكلام: لا أحدَ يملك شيئاً من ذلك غير الله، لأنّ الله هو الرّب الخالق المالك للوجود كلّه وحده لا شريك له، ولا أحد يستطيع أن ينازعه في أمر، وهو الذي خلَق الناس ليبلوهم ويحاسبهم ويجازيهم.

ودلّ حرف العطف (الفاء) في صدر جملة ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ...﴾، وهو كلامٌ تعليميٌّ مستأنَف، دلّ على أنه يوجَدُ كَلامٌ مطويٌّ ملاحظٌ ذهناً غير مذكورٍ في اللّفظ، وقد عطفت الجملة المذكورة عليه، وأفْصَحت الفاء العاطفة عنه، وهذا الكلام المطويّ لا بدّ أن يكون حول إثبات توحيد الربوبية والإلٰهيّة لله وحده، وأنّ التعامل الديني هو تعامل معه وحده لا شريك له، وأنّه هو الذي يحاسب ويجازي، وهذا المطويُّ قَدْ تُرِكَ للرّسُولِ ولأهل التدبّر العميق بيانُه.

القضية الثالثة: إشعارُ المخلّفين من الأعراب بأنّهم على ضلال، إذْ يتصوّرون أنّ ما يقومون به من أعمال، وما يُخْفونه من كُفْر يسترونَهُ بأعمال ينافقون الرسول والمؤمنين بها، وما يدبّرون ويُبَيّتون من مكر وكَيْدٍ، أمُورٌ مستورةٌ غير مكشوفة، بل كلُّ أمرهم معلومٌ مشهودٌ لله عزّ وجلّ شُهُودَ حضُورٍ مَعَهُمْ في ظواهرهم وبواطنهم حتّىٰ أعماقهم، في خِبْرةٍ تامّة.

دلّ على هذه القضيّة من النصّ قول الله تعالى:

﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾:

أي: هو خبير دواماً بما تعملون، ودلّ حرف العطف «بَلْ» على إبطال قضيّة مائلةٍ في أذهان المنافقين، وهذه القضية غير مذكورة في اللّفظ، للعلم بها لزوماً من إبطالها بحرف العطف «بل» وهي تصوُّرُهم أنَّ كفرهم ومكرهم وكيدهم أمورٌ مستورةٌ لا يعْلَمُ بها غيرهم، فأبَانَ اللّهُ عزّ وجلّ أنّه عليم بما هم عليه من مستوىٰ الخبرةَ، وعِلْمُ الخبرة هو الذي يكون مع الممارسة والمشاهدة للدقائق والخفايا.

القضيّة الرابعة: تتضمَّنُ تَكْذِيبَ المخلَّفين المنافقين من الأعراب في ادّعائهم أنهم شغلَتْهُم أمْوالُهُمْ وأهْلُوهم عن مصاحبةِ الرّسُول وشدِّ أزره في خروجه إلى العُمْرة، وتَكْذِيبَهُمْ في طَلَبِهِمْ أنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، وتتضَمَّن بيان حقيقة مَا كان في أذهانهم ومَا كان في قُلُوبهم، وبيان حقيقتهم الكليّة.

* فالذي كان ماثلاً في أذهانهم هو أن عدَدَ المسلمين الخارجين لأداء العمرة مع الرّسول عددٌ قليل بالنسبة إلى القوّة الحربيّة الّتي يملُكُها مشركو قريش، وعَلِمَ المنافقون أنّ قريشاً لا يُمَكّنون الرسول والمؤمنين معه من أداء عمرتهم، وغلَبَ على

ظنّهم أنّ القتال سينشب بين الفريقين، وأنّ الدائرة ستدور على المسلمين، وسينتهي أمرهم وأمْرُ الإسلام كلّه، وأنّ الرّسول والمؤمنين معه لن ينقلبوا من هذه الرّحلة إلى أهليهم أبداً، وفرح المنافقون بهذا الظنّ حتّى صار أمراً مُزَيَّناً في قُلُوبِهم، أي: صار عقيدةً ثابتةً ممتزجةً بعاطفةِ رغْبةٍ وَطَمَعٍ وتلَهُّف، لأنّهم يريدون التخلّص من هذا الدين، ومن خطّة النفاق التي يمارسونها دواماً، في ازدواجيّة متناقضةٍ بين السلوك الظاهر، وما يضمرونه في الباطن.

وهذا الظنّ منهم قد كان مُسْتَنَدُه الظواهر السببيّة التي بدَتْ لهم، في موازين القوى المنظورة، ولذلك جاء التعبير بمادّة «ظَنّ» التي تستعمَلُ في الظنّ الضعيف المردود، وفي الظنّ المتوسط، وفي الظنّ الراجح، بخلاف مادّة «حَسِبَ» فهي لم تستعمل في القرآن إلاّ في الظّنّ الضعيف المردود، وفي التوهّم الذي لا تقترن به أمارات ولا أدلّة.

وكان لهم ظنٌّ آخر نابع من منابع كفرهم، وهو يتعلّق بالقوىٰ غير المنظورة التي قد يُمِدُّ اللّهُ بها، فظنُّوا بالله ظَنَّ السَّوْءِ، وهو أنّ الله لن ينصُر محمّداً والمؤمنين معه، لأنّهم على غير الحقّ في محاربة شركائهم من الأوثان وغيرها، أو أنّ الله استخرجهم من المدينة ووجّههم لمكّة ليقضيَ عليهم بأيْدي مشركي قريش.

دلّ على هذه القضيّةِ بكُلّ فُروعها قول الله تعالى:

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾.

الظَنُّ الأول هو الظنُّ المستند إلى الظواهر السببيّة التي بدت لهم في موازين القوى المنظورة.

والظَّنُّ الآخر هو الظنُّ المستند إلى عقائدهم الشركيّة الّتي يُبْطِنُونها.

وتزيين الظّنّ الأول في قُلوبهم قد اشتركت في توليده عدّة عوامل: وساوسُ الشياطين، وأهواؤهم، ورغبتُهم في أن يتخلّصوا من الازدواجية المتناقضة بين ظاهرهم وباطنهم، وكراهيتُهم للرسول والمؤمنين، وحسَدُهُمْ مَنَ القوّة والسلطان

الذي وصَلُوا إليه في المدينة وفيما حولها، ولذلك جاء التعبير بصيغة الفعل الذي لم يُسَمَّ فاعِلِه، ليشْمَلَ كُلَّ هذه العوامل والله أعلم.

ويُلاحظُ أنّ ظَنَّهم قد كان ظنّاً قويّاً في نفوسهم، بدليل وُصُولِهِ إِلَىٰ أن يَكُونَ مُزَيّناً فِي قُلوبِهِمْ، فمن المعلوم أن ما يصل إلى القلب لا بُدَّ أن يكون قويّاً.

وجاء عطف جملة: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَنْ لَنْ...﴾ بحرف «بل» الذي يدلُّ على الإضراب الإبطالي للدّلالة على كَذِب ادّعائهم أنهم شغلتهم أموالهم وأهلوهم، وكذِبِ اعترافهم بالخطيئة وبرغبتهم في أن يستغفر الرّسول لهم.

القضية الخامسة: بيان أنّهم قومٌ فاسدون، مصيرهم إلى أن يكونوا هالكين.

دلّ على هذه القضيّة قوله تعالى:

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾:

أي: وكنتم قوماً فاسدين لا خير فيكم، وفسادكم يُفْضي بكُمْ إلى أن تكونوا هالكين، إنهم فاسدون وهالكون حتماً لأنّهم منافقون.

«بُور» يقال للواحد وغيره، وقد يكون جمع «بائر» يقال لغة: بَارَ يَبُورُ بَوْراً فهو بائر، أي: هلك. ويقالُ: أباره الله إذا أهلكه.

و«الْبَوار» في اللغة الهلاك، و«الْبُورُ» الهلكىٰ. قال الجوهري: الرجُلُ البور، الفاسِدُ الهالك الذي لا خير فيه.

أقول:

ويمكن أن نفهم أنّ كلّ ذي فسادٍ يؤدّي به فسادُه إلى الهلاك فهو «بُور» واللفظ يطلق على الواحد وغيره.

القضيّة السادسة: بيان أنّهم مشمولون بحُكْمِ قرارٍ جزائي ربّانيّ عامّ يدخل فيه الكافرون جميعاً سواءٌ أكانوا مجاهرين بكفرهم أو منافقين، وهذا القرار ينصّ على أنّ الكافرين جميعاً سَيُعَذَّبون بعذاب السَّعِير، أي: بعذاب النار، إذا ماتوا على كفرهم ولم يتوبوا.

السّعيرُ في اللّغة: يأتي بمعنى النار، وقيل: السّعير، لهبُ النـار. ويُقالُ: نـارٌ سَعِيرٌ، أي: نارٌ مَسْعُـورَةٌ، بمعنى مُوقَـدة. ويقالُ: سَعَـرَ النارَ يَسْعَـرُها، وأَسْعَـرَهَـا وسَعَّرَها، إذا أوقدها وهيّجَها.

دلّ على هذه القضيّة قول الله تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾:

أي: ومنْ لمْ يؤمِنْ باللَّهِ ورَسُولِهِ مستقبلاً، أو مرّ عليه عمْـرُهُ في الحياة الـدّنيا ولم ينشىء هذا الإيمان، أو لم يستبْقـه حتى يلقى ربَّهُ وهـو عليه، فسيُعَـذَّبِ بعذابِ نارٍ محرقةٍ، وهذا السّعِير مهيّأً قَدْ أعْتَدَهُ اللَّهُ بعناية، ليجازي الكافرين به.

أعْتَدَ الشيءَ: أي: أعَدَّهُ وهيَّأَهُ بعناية، ويقالُ: شيءٌ عَتِيدٌ، أي: مُعَدٌّ حَاضِرٌ. و «الْعَتَادُ» الشيءُ يُعَدُّ لأمرٍ ما وَيُهيّأُ له.

وقد جاء الاستغناء بجملة: ﴿فَإِنَّـا أَعْتَدْنَـا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً﴾ جواباً للشـرطِ: ﴿وَمَنْ لَمْ يُـؤْمِنْ باللَّهِ ورَسُـوله﴾ عن ذكـر جملة الجواب الأصليّـة وهي: نُعَذِّبُـهُ يَوْمَ القيامة بعذابِ السّعير، للعلم بها لزوماً، وهو من الكنايات.

والتنكير في لفظ ﴿سَعِيراً﴾ لتعظيم أمْرِ نار جهنم، أي: سعيراً عـظيماً شـديداً على المعذّبين به، أعاذنا الله منه وحمانا بالإيمان والإسلام والاستقامة على الطاعة.

القضية السابعة: تتضمّن الإغراء بالتوبة والحثّ عليها، والإشعارَ بأن من تاب قبـل فوات الأوان تـاب اللَّهُ الـرَّبُّ الخـالق عليـه، فهـو الـذي لـه مُلْكُ السمـاوات والأرض، ومن صفاته أنّه غفور رحيم، يغفر لمن يشاء، ومشيئتـه لا تفارق حكمتـه، ويُعَذِّبُ من يشاءُ، ومشيئتُه لا تفارق حكمته.

فالمخلّفُون المنافقون من الأعراب كغيرهم، ما دَامُوا في الحياة، وَما دام بابُ التوبة مفتـوحاً للعبـاد، فإنّهم يملكـون أن يتوبـوا ويستغفروا ربّهم، فـإذا فعلوا ذلك وجَدُوا الله توّاباً غفوراً رحيماً.

وفتح باب التوبة والغفران والتذكيرُ به عند كلّ مناسبة داعيـة، هو من أسـاليب

الإصلاح التربوي للنّاس، في خطّة الرّبّ الخالق وحكمته، وهو من كمال حِلْمِهِ ورحمته.

دلّ على هذه القضيّة في النّص قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

لمّا كان النصّ موجّهاً بالدّرجة الأولى لمنافقين من المشركين، كان من الحكمة لدَىٰ إغرائهم بالتّوبة وإطماعِهِمْ بأن يغفر الله لهم، أن يُبْنَىٰ ذلِكَ على تصحيح الاعتقاد حول توحيد الربوبية وتوحيد الإلٰهيّة لله الربِّ الخالق وحْدَه لا شريك له، فجاء التمهيد بقوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

أي: هو الرّبّ الخالق وحدَهُ للسّماوات الأرْض، فهو المالك لهما وحْدَهُ، ومن كان هو المالك لهما وحده فهو المستحقّ وحده للعبادة، فلا إلٰه إلاّ هو.

فالتّوجيهُ للتوبة اقتضىٰ تصحيح الاعتقاد أوّلاً حوْلَ توحيد الربوبية وتوحيد الإلٰهيّة لله وحده، لأنّ الكلام موجّه بالدرجة الأولىٰ لمنافقين من المشركين.

وبناءً على هذا الأساس تأتي الدعوة إلى التوبة التي يستحقّ بها التائب المغفرة، وقدْ جاءت هذه الدّعوة بأسلوب التذكير بقضيّةٍ كلّيّة من قضايا صفات الله عزّ وجلّ، وهِيَ أنّهُ يغفِرُ لِمَنْ يَشاءُ ويُعذِّب مَنْ يشاء، فقال تعالى:

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾:

أي: فلا سلْطان لأحد عليه في قضايا المغفرة والتعذيب، لا من شريك، ولا من شفيع، وفي هذا تأكيد لتوحيد الربوبية والإلٰهيّة لله عزّ وجلّ.

وليس في هذا دلالةٌ على أنّ مشيئة الله مشيئةٌ مزاجيّةٌ، غيْرُ موجَّهةٍ بحكمة الله وعَدْلِه ورحمته، فقد دلّت النصوص على أن مشيئته تعالى لا تُفارق حكمته، ومن حكمته تبارك وتعالى رحْمَتُه بعباده، وفضْلُه وعَدْلُه، فهُوَ يضَعُ الأشياء في مواضعها

بحكمة تامّة، ومن حكمته أن يتوب على التائبين إذا تابُوا وهم في رحلة الابتلاء، وأن يغفر للمستغفرين إذا استغفروا ربّهم ضمن الضوابط التي وضعها للمستغفرين.

إنّ صفات الله عزّ وجلّ صفاتٌ متكاملاتٌ فيما بينها، لا ينْقُضُ بعضها بعضاً، ولاَ يَطْغَى بعْضُها على بعض، فلا تطْغَىٰ طلاقة المشيئة على صفة الحكمة، ولا تطْغَىٰ الْقُدْرَة الكاملة على صفات العدل والرحمة والعفو والغفران، ولا تعمل القدرة والإرادة بدون أن تكونا محاطتين بشمول العلم وقيود الحكمة، وهذا من مقتضيات كمال صفات الله عزّ وجل.

فلا بُدّ أن يُفْهَم هذا النّصّ ضمن إطار الفهم المتكامل لصفات الله عزّ وجلّ.

وإطماعاً بغفران الله ورحمته قال تعالى:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾:

أي: والله غفور رَحيمٌ دواماً، لأنّ ما كان لله من صفات فلَهُ صفةُ الكينونة الدائمة المستمرّة.

وفي عَرْضِ أنّ الله غفور رحيم دواماً دعوةٌ ضمنيّة للاستفادة من هذه الصفة العظيمة من صفات الله عزّ وجلّ، وذلك بالتوبة والاستغفار.

أمّا التوبة من النفاق وآثاره في السلوك فتكون بإعلان التوبة، وبالإيمان الصحيح الصادق، وبالعمل الصالح بمقتضى الإيمان الصحيح.

وأمّا الاستغفار فيكون بسؤال الله أن يغفر ما سلف من نفاق وعمل سيِّىء، مع اجتنابِ ممارسته عند الاستغفار.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ

أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

أُعِيدُ التذكيرَ بأنّ سورة (الفتح) نزلت في أواخر السنة السادسة من الهجرة عقب صُلْح الحديبية في طريق عودة الرسول والمؤمنين معه إلى المدينة، وهذا النصّ منها.

وقد اشتمل هذا النصّ على أخبارٍ بأحداثٍ قبل وقوعها، وهي من معجزات القرآن، واشتمل على تعليماتٍ وأوامر ونواهي ربّانية تتعلّق بهذه الأحداث، أو كان ذكرها مناسبة لبيانها.

الخبر الأول: أنّ الرسول والذين كانوا معه من المؤمنين، وبايعوه عند الشجرة في الحديبية سينطلقون بتوجيه الله لهم إلى قوم بنصرهم الله عليهم، دون عناءٍ كبيرٍ، ويهبهم من الأرض والقرى والأموال والأرزاق مغانم كثيرة، وأنّ هذه المنحة الرّبّانية ستكون إكراماً من الله لرسوله ولأهل بيعة الرضوان، والإعلام بهذا الخبر المستقبلي فيه إلماح إلى الخطة الربانية المدبّرة في حركة الفتوح الإسلامية.

وتحقّق هذا الخبر الذي تضمّن وعداً من الله بالنصر، ووعداً بحيازة مغانم كثيرة، فلم يُقِم الرسولُ في المدينة بعد عودته من الحديبية إلاّ شهر ذي الحجّة من سنة ست من الهجرة، وأيّاماً من شهر محرّم لسنة سبع من الهجرة، ودعا من كان معه في الحديبية إلى الخروج لغزو خيبر بتوجيه من الله عزّ وجل، وكانت خيبر مساكن ومزارع لنزلاء الحجاز من اليهود، الذين سبق أن نزحوا إليها من بلاد الشام.

والأمر الرّبّانيّ المتعلّق بهذا الخبر هو منْع الذين تخلّفوا عن الخروج مع الرسول في عمرته، من الخروج معه في غزوته هذه، لأنّ شرف الانتصار فيها والمغانم التي تؤخذ بها هبة من الله لأهل بيعة الرضوان إكراماً لهم.

وقد أشار النصّ إلى هذا الخبر بقول الله تعالى فيه:

﴿ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾.

ودلّت سوابق هذا القول على أن الخطاب فيه موجّه للرّسول وأهل بيعة الرضوان، ودلّت العبارة على أنّ الانطلاق السّريع سيكون لأخذ المغانم مباشرة، دون حاجة إلى قتال يذكر ويسجّل بعبارة تتلىٰ.

وأشار النص إلى التكليف الرّبّاني المتضمّن منع المخلّفين عن اتباع المؤمنين ومشاركتهم في غزوة خيبر، بقوله تعالى:

﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾.

فهذا تكليف من الله لرسوله نزل مقارناً للخبر عمّا سَيَقَعُ قبل وقوع الحدث.

الخبر الثاني: أنَّ الْمُخَلَّفِين عن الخروج مع الرسول في عُمْـرَته، سيُطالِبُونَ بأنْ يخرجوا مع الرسول والمؤمنين إلى غزو خيبر، حين يعلمون بأنّ الرسول خارج لغزوها، لِعِلْمِهم بأنّ سقوطها في أيدي المسلمين أمْرٌ سهل، ولِعِلْمِهم بأنَّ فيها مغَانم كثيرة.

لكنّ الأمر الرّباني قد نزل بمنْعِهم من الخروج مع المؤمنين، ولو على سبيل اتّباعهم في آخر صفوفهم، قبل الإعلان عن التوجّه لغزو خيبر.

إنّهم مع علمهم بما جاء في القول التكليفيّ الرّبّانيّ المنزّل من قبل أن يقع الحدث ـ فقد تليت عليهم سورة (الفتح) ـ يُريدون أن يبدّلوا كلام الله التكليفي، محرّضين المؤمنين على معصيته، طمعاً في المشاركة بالمغانم، فيقولون للمؤمنين: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ ويظهر أنّهم لا يجرؤون أن يقولوا هذا الكلام للرّسول بعد أن تَخلَّفُوا عن الخروج معه إلى العمرة، واعتذروا بأنّهم شغلتهم أموالهم وأهلوهم كاذبين، وخذلوه، وأعلن القرآن أنّهم ظنّوا أنّ مشركي قريش سيقضون عليه وعلى المؤمنين معه، وأنّهم ظنّوا بالله ظنّ السّوْء.

فيجيبهم المؤمنون بأنّ الله عزّ وجلّ أمر رسوله بأن يقول لهم:

﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾:

أي: في هذه الغزوة. وأن يقول لهم:

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾:

أي: مُنْذ أنزلَ سُورة (الفتح) وقَبْل أنْ يتوجّه الأمر بالخروج إلى غزو خيبر، وقَبْلَ أن تُطالِبُوا بالمشاركة في هذا الخروج.

فيردّ عليهم المخلّفون وقد طمس الطَّمَعُ بصائرهم عن إدْرَاكِ دلالة التعليم الرّبّاني المنزّل في القرآن قبل الأمر بالخروج إلى غزو خيبر، فيقولون للمؤمنين: ليس الأمر كما تزعمون من التزام التعليم الربّاني، ولكنّ الأمر مدبّر، لأنكم تكرهون أن نشارككم في غنائم خيبر حسداً، فأنتُمْ لا تُحبّون لَنا أن نُصيب من الخير الذي ستَحْصُلُونَ عليه في غزوتكم هذه، وتريدون أنْ تَسْتأثِرُوا بِهِ لأنْفُسِكُمْ.

الحسَدُ: كراهية الحاسِدِ أن ينالَ المحسُودُ الخيرَ الذي حسَدَهُ فيه، وتمنّي زواله عنه إذا ناله، وإمساكه عنه قبل أن يناله، وقد يصاحِبُه إرادةُ الحاسد ذلك الخير لنفسه.

هذه طبيعة المنافقين دواماً، يتخلّفون عند المغارم، ويتهافتون عند المغانم، ويفجرون عند المخاصمة، فيتهمُونَ أهل الفضل والبرّ والتقوى بما يعْلَمُونَ مِنْ أنفسهم من سيّئات.

إنّهم حَسُودون، ويتّهمون بالحسد الفضلاء الشرفاء الذين لا يحسُدُونَ النّاسَ على ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فضله. وهم جبناء ويتّهمون الشجعان بالجبن. وهم بُخَلاء ويتّهمون الكرماء بالبخل، وهكذا.

وقد أخبرنا الرسول أن من خصال المنافق أنّه إذا خاصم فَجَرَ، أي: تجاوز في الخصومة حدّه، فاستخدم فيها الاتّهام بالباطل، والسّباب والشتائم بغير الحقّ.

ويتوجّه هنا سؤال: هَلْ كان هؤلاء المخلّفون من الأعراب يُدْرِكون حقيقةَ مفهومات الدّين، وحقيقةَ كونِ محمّدٍ رَسُولَ ربِّ العالمين، يُبَلِّغُ عنه رسالاته، وَحَقيقَةَ كَوْنِ الْقُرْآن كِتَاباً يَنْزِلُ به الوحْيُ على مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله، أو أنّهم لا يفهمون من الإسْلاَم إلاّ أنه دعوةٌ قامَ بها رجلٌ عربيٌّ من قُرَيشٍ يَطْلُبُ مُلكاً، ويجمع من استطاع لمناصرته من العرَب، فَهُمْ إنْ وَجَدُوهُ انتصر اتّبعُوه ليشاركوه في الغنائم، وإنْ لم ينتصر انقلَبُوا عليه وانحازوا منضمّين إلى أعدائه؟

القرآن يجيب على هذا السؤال المطوي، فيُبْطِلُ بحرف «بَلْ» الاحتمال الأول، ويثبت الاحتمال الثاني، فيقول تعالى:

﴿ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾:

أي: لا يَفْقَهُونَ من قضايا الدّين إلاَّ شيئاً قَليلاً، لا يكَوِّن لديهم عقيدةً صالحة، ولا إيماناً صحيحاً مقبولاً، بسبب أنهم مشركون باطناً.

أقول:

وقد خفي في هذه الآية (١٥) على بعض أهل التأويل أنَّ النّصّ استخدم الكلام عمّا سيقول المخلّفون، وعمّا ينبغي أن يجابوا به، للدّلالة على التوجيه الرّباني لغزوجهةٍ ما، ولمنع المخلّفين عن مشاركة أهل بيعة الرضوان فيه، وللدّلالة على أنّ الغنائم فيه هبة من الله لهم ولرسوله، وليس للمخلّفين نصيب منها، وأنّ هذا الكلام نفسه قد تضمّن كلام الله الذي يُرِيدُ المخلّفون أنْ يُبَدِّلُوه، فبحثوا عن نصٍّ غيره، فلم يجدوا فأحالوا الأمر على وحيٍ غير مَتْلُوّ، وبعضهم أحال الأمر على نصّ في سورة (التوبة) وهو متأخر النزول عن كلّ أحداث صلح الحديبية وغزو خيبر.

فالنصّ القرآني هُنَا قد دمَجَ عدّة بلاغات في بلاغ واحد، نظير أن تقول لمن تُرِيدُ أن تُكْرِمه: إذا جئت غداً لأطعمك طعاماً فاخراً فقل لفلان الطفيلي لا تَتَّبِعْني.

فقد دلّ هذا الكلام على وعد المدعوّ، ونهي الطفيليّ عن الحضور، مع دلالته على أنّ الأمر قد أعدّت العدّة له، وأنّ الحدث سيقع غداً حسب الوعد، ما لم يأت مانعٌ قاهر، ولا شيء في الوجود يمنع تحقيق وعد الله وخبره عمّا سيحدث.

الخبر الثالث: أنّ حركة الفتح الإسلامي المتطلّعة شطر ممالك الأرض ودُولها العظمَى يومئذٍ، ستتوجّه إلَىٰ قَوْمٍ أولي بأسٍ شديدٍ بجيُوشهم النظامية، وأسلحتهم وعتادهم، وتدريباتهم، وأنّ المخلّفين من الأعراب عن مشاركة الرسول في عُمْرَتِه، والمَمْنُوعِينَ عن مشاركته في الغزوة القريبة التي يُصيب المؤمنون فيها مغانم كثيرة، سَيُدْعَوْن مُسْتقبلاً للخروج لقتال قوم أُولي بأس شديد، في حركة فتح داخل الجزيرة

العربية وخارجَها، وأنّ هؤلاء القوم سيَمْتَنِعُون عن دفع الجزية، وعن تأمين حركة انتشار الدّعوة الإسلامية، وإعطاء الحريّة لشعوبهم تختار من الدين ما تشاء، فلا يبقىٰ أمام الجيش الإسلامي إلاّ أن يقاتِلُوا جُيُوش هذه الممالك وقياداتها، حتّىٰ يُسْلِمُوا أَوْ يَسْتَسْلِمُوا، وسكت النّص عن ذكر احتمال هزيمة المُسْلِمِين، لأنّهم إذا صَدَقُوا واستقاموا على صراط الله في جهادهم فهم منصورون حتماً بمقتضى وَعْدِ الله، إنّ الله لا يُخْلفُ الميعاد.

وقد دلّت الآية (١٦) من النصّ على هذا الخبر ضِمْناً وعن طريق اللّوازم الذهنية، لكنّ صريح اللّفظ فيها يشتمل على تكليف الرسول أن يقول للمخلّفين من الأعراب:

﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾:

أي: ستُدعَوْنَ إلى قِتال قَوْمٍ أولي بأس شديد، وسَيَرْفُضُون ما يُعْرضُ عليهم، وستُقَاتلونهم إنْ خرجتم لقتالهم مع المؤمنين، أو يُسْلِمُون بالدخول في الإسلام، أو بالاستسلام للمؤمنين، والتخلية بينهم وبين بلادهم وشعوبهم ينشرون الإسلام، ويقيمون فيها حُكْم الله.

ويشتمل أيضاً على تكليف الرسول ﷺ أن يقول للمخلّفين من الأعراب، وهو خطاب يصْلُح توجيهه للجميع:

﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾:

أي: فإنْ تُطِيعوا أَمْرَ الدَّعْوَةِ إلى قتالَ الْقَوْم المشار إليهم أُولِي البأس الشديد، فتخرجوا للقتال مع المؤمنين الصادقين، يؤتكم اللّٰهُ أجراً حسناً معجّلاً، وأجراً حسناً مؤجّلاً إلى يوم الدين مشروطاً بصحّة إيمانكم وابتغائكم رضوان الله والجنة، وهذا الشرط يُعْلَمُ من نصوص أُخْرَىٰ كثيرة، فينبغي ملاحظته هنا، وفي كلّ نصٍّ لم يصَرَّحْ به فيه.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾:

أي: وإنْ تُدْبِرُوا وتَبْتَعِدوا ولم تستجيبوا لأمر الدعوة إلى قتالهم:

﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾.

حينَ دُعِيتُمْ للخروج مع الرَّسُولِ في عُمْرَته، لشدّ أزره، وتقوية جيشه:

﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

لأنّ أمْرَ الرَّسُولِ بالخروج إلى القتال يجعل الخروج واجباً، وكذلك أمْرُ قائد المؤمنين وإمامهم من بعده، وإنْ كان هو من دون أمر القائدِ عَمَلاً من أعمال البرّ التي لا تجب إلاّ في أحوال النفير العامّ، فأمْرُ قائد المؤمنين به يجعله فرضاً، وبناء على ذلك يستحقُّ مخالِفُهُ العذابَ الأليم.

واستثنى الله عزّ وجل ذوي العاهات، فهم لا يكلّفون الخروج للقتال، فقال تعالى:

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ... ﴿١٧﴾﴾.

ويُقاس على أصحاب هذه العاهات أشْبَاهُهُم.

واقتضت الحكمة البيانيّة ذكر القاعدة الكليّة التي تندرج فيها الحالة الخاصّة التي وردت في النصّ، وفق أسلوب القرآن الذي يختم غالباً ببيان الكليّات العامّة بعد ذكر الجزئيّات الّتي تندرج فيها، لتثبيت القواعد الدّينيّة الكليّة في أذهان المؤمنين، فقال الله تعالى:

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

وانتهى النص

● ● ●

النصّ الحادي والثلاثون

وهو من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول)
«السورة (٢٦) من التنزيل المدني»
مــن الآيــة (٤١)
حول تكليف الرسول أن لا يحزن
من أجل المنافقين الذين يسارعون في الكفر

* قال اللّهُ عزّ وجل خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ . . . ﴿٤١﴾﴾.

* * *

(١)
ما في النصّ من القراءات المتواترة (من الفرش)

قرأ جمهور القراء العشرة: [لَا يَحْزُنْكَ] من حَزَنَهُ يَحْزُنُهُ حُزْناً.

وقرأ نافع [لَا يُحْزِنْكَ] من أَحْزَنَهُ يُحْزِنُهُ إِحْزاناً (الرباعي).

والقراءتان بمعنى واحد، وهما لُغتان عربيتان، قال الجوهري: حَزَنَهُ: لُغة قريش، وأَحْزَنَهُ لغةُ تميم.

الْحُزْنُ والْحَزَنُ: ضدّ الفرح والسُّرُور، وهو غمٌّ وكَرْبٌ يُصيبُ النّفس، بسبب أمْرٍ مكروه.

* * *

(٢)
موضوع النصّ وسبب نزوله

أخذ بعضُ الحزن يدبُّ إلىٰ نفس الرسول ﷺ بسبب بعض المسلمين، وهم في الحقيقة منافقون، إذِ اكتشف من تصرُّفاتِهِمْ ما يَدُلُّ علىٰ أنّهم يُسارِعُون مُتَوَغِّلين في طريق الكُفْر.

فنهاه اللّٰهُ عن أن يَحْزُنَهُ أَمْرُهُمْ، وأبان لَهُ أنّهم ليسوا بمؤمنين حقّاً، بل هم منافقون، قالُوا: آمَنّا قَوْلاً بأفْوَاهِهِمْ، ولَكِنَّ قُلُوبَهُمْ لَمْ تُؤمِنْ، فهم لا يستحقُّونَ أَنْ يَحْزَنَ مِنْ أَجْلِهِمْ، على تصوُّر أنّهم كانوا مؤمنين وأخذُوا يتحوّلون إلى طريقِ الكفر، ويُسارعون فيه.

ويظهر ممّا جاء في توابع هذا النصّ من الآية وممّا بعدها أخذاً من دليل الاقتران، أنّ المشار إليهم هم من منافقي اليهود، وأنّ الرسول اكتشف بفطنته أنّ هؤلاء المسلمين بحسب الظاهر يتصرّفون تصرفات تتنافىٰ مع صدق الإيمان بمناسبة مَقْدَمِ وفدٍ من اليهود ليحكم في أمْرِ زانِيَيْنِ منهم، رجل وامرأة مُحْصَنَيْن، رجاء أن يحكم بجَلْدِهما وَفضْحِهما والتشهير بهما فقط دون رجمهما، على ما اصطلحوا عليه مخالفين حكْمَ التوراة، وقد جاء خبر هذه القصة عند البخاري ومسلم وغيرهما.

روى البخاري عن عبد الله بن عمر: (أنّ اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكَرُوا لَهُ أنَّ رجلاً منهم وامرأةً زَنيَا، فقال لَهُمْ رسول الله ﷺ:

«مَا تَجِدُونَ في التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْم؟».

فقالوا: نَفْضَحُهم ويُجْلَدُونَ.

قال عبد الله بن سلام: كَذَبْتُم، إنَّ فيها الرَّجْم.

فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاة فَنَشَرُوها، فوضعَ أحدُهُم يَدَهُ علىٰ آيَة الرجم، فقرأ ما قبْلَها وَمَا بَعْدَها.

فقال له عبد الله بن سلام: ارفَعْ يدَكَ، فرفع يَدَهُ، فإذا آية الرّجم، فقالوا: صدَقَ يا مُحمَّدُ، فيها آيَةُ الرَّجْم، فأمَرَ بهما رسول الله ﷺ، فَرُجما.

قال عبد الله بن عمر راوي الحديث: فرأيت الرجُلَ يَحْني على المرأة يقيها الحجارة).

فما جاء بعد هذا النصّ في السورة يعالجُ موضوع هذه القصة كما ذكر المفسّرون.

* * *

(٣)

المفردات اللُّغوية في النصّ

﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾:

سَارعَ بمعنى «أَسْرَعَ» مع زيادة في المعنى أخذاً من صيغة «فاعل» التي تدلّ في الأصل على المشاركة والمنافسة، والمنافسة تكون عادة مصحوبة بمضاعفة الجهد، فإن لم تكن مشاركةٌ ومنافسة بقيت دلالة الصيغة على زيادة بذل الجهد في السّرعة.

والسُّرْعَةُ: ضدّ البُطْءِ والسَّيْرِ الْهُوَيْنَى.

يقال: أَسْرَعَ السَّيْرَ، وأسْرَعَ في السَّيْر، ويقال: سَارعَ إلَى كذا، وسَارَعَ في الطريق.

فمعنى: ﴿يُسَارِعُونَ في الكفُر﴾ يُسارعونَ السَّيْرَ في سُبُلِ الكُفْرِ.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾:

أفواه: جمْعٌ مفردُه: «فُوهٌ» وهو الفم. ويقال لواسعة الفم فوهاء.

أي: قالوا: آمنا بسَعَةِ أفواهِهِمْ، ولم يقولوا ذلك بألسنتهم فقط، وفي هذا إشارة إلىٰ تنطُّعِهم وَتَشَدُّقِهم بادِّعاء أنّهم آمنوا، وهذا من سِمَات أصحاب الدعاوى الكواذب، فاختيار لفظ «الأفواه» بدل «الألسنة» قد دلّ على أنهم يملؤون أفواههم بقولهم: آمَنّا.

* * *

(٤)

مع النّص في التحليل والتدبُّر

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾.

نادى الله عزّ وجلّ النبيّ محمّداً ﷺ بوصف كونه رسولاً، إشارة إلى أنّ الرّسول مُبلّغُ رسالَةِ ربّه، فليس من مُهِمّاته في رسالته تحويلُ الناس من الكفر إلى الإيمان، أو إمساكهُمْ في الإيمان ومَنْعُهم عن أن يخرجوا منه، وعن أن يسارعوا السَّيْر في سُبُل الكفر، حتّى إذا اختار بعض قومه لنفسه أن يكفر حَزِن من أجله، بدافع شعورٍ خفيّ لذَنْبٍ أنّه لم يُؤَدِّ واجبَهُ الكامل نحوه.

إنّ الرسول مبلِّغٌ نَاصِحٌ أمِين، وليس مُكْرِهاً ولا مُجْبِراً ولاَ محوِّلاً عن غير طريق إرادة المبلَّغ الحرَّة، فالمبلَّغونَ همُ المسؤولُونَ عن أنفسهم، وقد وهبهم الله الإرادات الحرَّة ليختاروا بها في حياة الامتحان ما يشاءون لأنفسهم، وعليهم بعد ذلك أن يتحمّلوا نتائج ما اختاروا لأنفسهم، ولا يتحمَّلُ غيْرُهُمْ عنْهُمْ شيئاً من المسؤولية.

وهذا أَحَدُ نداءَيْن نادى الله بهما النبيّ محمّداً بقوله له: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾، والنداء الآخر قول الله له في سورة (المائدة) أيضاً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

فالنداءان اللّذان ناداه الله فيهما بوصف كونه رسولاً يتعلّقان بتحديد مهمّاتِ رسالته، وإيقافه عند حدودها، ومِنْ تَجاوُزِ حُدُودِ الرّسالة أن يَحْزن من أجل الذين يُسَارعون في الكُفر، وهُمْ في باطن الأمر منافقون:

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾:

أي: ملَئوا أفواهَهُم بكلمة «آمَنَّا» تَنَطُّعاً وَتَشَدُّقاً.

﴿وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾.

مع أنّ المطلوبَ الأوّلَ في الدِّين أنْ يُؤمنَ الْقلبُ، فَمَنْ لم يؤمِنْ قَلْبُهُ لم يصِحَّ من إسلامه ولا من عَمَلِه شيءٌ، وهو من الكافرين، واللّهُ لا يهدي بالجبْرِ الْقَوْمَ الكافرين، لأنّ المطلوب أن يؤمنوا باختيارهم، ولا يَحْكُمُ بالهداية للقَوْم الْكَافِرِين، لأنّه لا يحكُمُ ولا يقضي إلاّ بالحقّ والعدل.

• • •

النصّ الثاني والثلاثون

وهو من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) أيضاً
«السورة (٢٦) من التنزيل المدني»
الآيات من (٥١ ـ ٥٣)

حول اتخاذ الذين في قلوبهم مرض
من النفاق اليهود والنصارى أولياء

* قال الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم
مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥١) فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ
فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ
أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ
إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ (٥٣)﴾.

* * *

(١)
ما في النص من القراءات المتواترة (من الفرش)

* في الآية (٥٢):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة: [يُسَارِعُونَ فِيهِمْ] بكسر هاء الضمير.

وقرأ يعقوب: [يُسَارِعُونَ فِيهُمْ] بضمّ هاء الضمير.

والقراءتان لغتان عربيتان في هاء الضمير.

* في الآية (٥٣):

(١) قرأ الكوفيون (عاصم وحمزة والكسائي وخلف): [وَيَقُولُ الَّذِينَ آمنوا] بإثبات حرف العطف (الواو) ورفع لام «يَقُولُ».

وقرأ البصريان (أبو عمرو ويعقوب): [وَيَقُولَ] بإثبات حرف العطف، ونَصْبِ لام «يَقُولَ».

وقرأ نافع وأبو جعفر (المدنيان) وابن كثير (المكي) وابْن عامر (الشامي) [يَقُولُ] بدون حرف العطف الواو، وبرفع لام «يَقُولُ».

فالرّفع عند من قرأ [وَيَقُولُ ـ يَقُولُ] وجْهُهُ الاستئناف في الجملة، فالفعل المضارع في الاستئناف يُرْفَعُ، أو الجملة معطوفة على جملة: [فَعَسى الله أنْ].

والنصْبُ عند مَنْ قرأ [وَيَقُولَ] مع إثبات حرف العطف، وجْهُهُ أنّ الفعل معطوف على الفعل المنصوب في الآية السابقة وهو [فَيُصْبِحُوا].

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني، فالاستئناف لا يقتضي ترتيب هذا القول على مجيء الفتح أو أمر من عند الله، وهذا يكون لدى المؤمنين الذين لهم معرفة بالمنافقين، والنصْبُ يقتضي هذا الترتيب، وهو يكون لدى المؤمنين الذين لا يكتشفون نفاق هؤلاء المنافقين إلّا بعد مجيء الفتح أو أمْرٍ من عند الله.

وإثبات واو العطف وحذْفُها وجهان أيضاً من الأداء البياني في حالة الرفع، فإثبات الواو وجْهُهُ أنّ جملة [وَيَقُولُ] مستأنفة، أو معطوفة على جملة [فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ] في الآية السابقة، وحذف الواو وجهه أن الجملة مسْتأنفة وهي واقعة جوابَ سؤالٍ مقدّرٍ ذِهْناً، وهو: «مَاذَا يقول الذينَ آمَنُوا حينئذ؟» الجواب: [يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ؟!!] على وجْهِ الاستفهام التعجُّبي من التّباين بين قولِهِمْ وحقيقةِ أمرهم.

* * *

(٢)
موضوع النصّ وسبب نزوله

يحذِّر الله الذين آمنوا بالنَّهْي المشدّد عن أن يتّخذوا اليهود والنصارى أولياء، يُحالِفُونهم، ويناصرونهم، ويُطْلِعُونهم على أسرار المسلمين، ويسْتَنْصِرون بهم ضدّ إخوانهم المؤمنين، ويُداخلونهم ويخالطونهم، إلى غير ذلك ممّا يدخل في معنى الموالاة.

وقد جاء هذا التحذير بمناسبة وجود فريق ضمن صفوف المؤمنين هم منافقون يوالون الكافرين سِرّاً بكلّ جرأة وتصميم، وفريقٍ آخر في قلوبهم مرضٌ من الشّك والريب وضعف الإيمان يُسارعون مشياً في طريق موالاة الكافرين، وباعث ذلك في نفوسهم تخوُّفُهُمْ من أنْ تدور الدائرة ضدّ المسلمين، فيُصِيبَهم بذلك ما يكْرَهُون من أعداء الإسلام والمسلمين، فيُسْرِعون إلىٰ عقد صفقاتٍ ولاءٍ في السّرِّ مع اليهود والنصارى، لحماية أنفسهم من الدوائر السَّيِّئة التي قد تأتي بها الأيام.

يقولون هذا الكلام في أنفسهم سِرّاً، ولا يُصَرِّحون به أمام المؤمنين الصادقين، ولم يبلُغُوا أن يكونوا منافقين كاملي النفاق.

وقد جاء في هذا النصّ كشفٌ لحال هذا الفريق المستخفي بما يُحَدِّث به نفسه، وبما يحاول أن يَعْقِده من صفقات ولاءٍ مع النصارى أو اليهود.

والمدّة الزمنية التي نزلت فيها سورة (المائدة) تقع في أواخر العهد المدني، بعد الانتصارات التي تحققت للرسول والمؤمنين في جزيرة العرب، وبدايةِ التوجُّه لفتح البلدان خارجها، بدءاً بنصارى العرب جهة تبوك.

وتوجّس الذين في قلوبهم مرض من تعرّض المسلمين لحرْب جيوش لا قِبَلَ لَهُمْ بها تأتي من جهة البلاد الواقعة تحت حكم القياصرة الرّوم.

فنزول سورة (المائدة) قد كان في الغالب بعد السنة الثامنة من الهجرة، وقد اختلفت الروايات في المدّة التي نزلت فيها، ولكنّ معظمها يدور حول السنتين الأخيرتين من حياة الرسول ﷺ.

أمّا روايات سبب النزول التي دارت حول عبد الله بن أبي بن سلول وتدخّله لحماية بني قينقاع والاكتفاء بإجلائهم، ثم لحماية بني النضير والاكتفاء بإجلائهم، وقد كان إجلاء بني النضير سنة أربع من الهجرة، فلست أراها تستقيم مع تاريخ نزول سورة (المائدة) وهي أيضاً لا تنسجم مع قول الله تعالى في هذا النصّ من سورة (المائدة):

﴿فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ۝٥٢﴾.

لأنّ ما كان من عبد الله بن أُبَيّ بن سلول قد كان أمراً قد صرّح به علناً، ولَمْ يكُنْ أمْراً مكتوماً في سِرِّهِ، وهو معروف النفاق، ومعلومٌ ولاؤه لليهود.

وكذلك ما ذُكِرَ من أنها نَزَلَتْ في أبي لُبَابَة وما كان منهُ في حصار بني قريظة عقب غَزْوةِ الخندق، وذلك لأن الذي حصل منه لم يكن نفاقاً، ولا قريباً من النفاق، ولكنْ أخذته الرّقة على النساء والأطفال من بني قريظة، فلمّا استشاروه فيما سيفعل الرسول بهم إذا نَزَلُوا على حُكْمِه أشارَ بيده إلى حلْقِه، وأدرك خيانته فوراً، ورجع نادماً تائباً وربط نفسه إلى سارية في المسجد، حتّى تاب اللّهُ عليه.

ولكن قد كان ضمن صفوف المسلمين منافقون، وكان فيهم الذين في قلوبهم مرضٌ دون النفاق من الشكّ وضعف الإيمان، وقد ظهر الفريقان في غزوة تبوك، التي خرج إليها الرسول بالمسلمين في شهر رجب من سنة تسع للهجرة، وعقب غزوة تبوك، وما كان من أمر مسجد الضرار الذي أعدّه المنافقون بالاتفاق مع النصراني الخزرجي أبي عامر الذي كان يقال له أبو عامر الراهب، وأطلق عليه المسلمون اسم أبي عامر الفاسق في غزوة أحد، وانتهى به الأمر إلى قيصر الروم، واستنصره على النبيّ ﷺ، فوعَدَهُ ومَنّاهُ، وأقام عنْدَهُ، وكتب إلى جماعته من قومه من أهل الريب والنفاق يَعدُهم ويُمَنّيهمْ أنّه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويردُّه عمّا هو فيه، وأمرهم أنْ يتخذُوا له مَعْقِلاً يقدم عليهم فيه من يأتي من قِبَلِهِ، فأقاموا مسجد الضرّار مجاوراً لمسجد قُباء، حتّى أمر الرسول بهدمه عقب خروجه إلى غزوة تبوك، ونزُول الوحي عليه بغرض المنافقين من بنائه.

وليس من الضروري فيما أرى ذكْرُ أسماءٍ بأعيانهم، أو حادثةٍ معيّنة، في بيان

سبب نُزول النّصّ، ولا سيما قد جاء فيه بيان أنّ الذين في قلوبهم مرضٌ لَمْ يُصَرِّحُوا بما أَسَرُّوا في أنفسهم.

والله أعلم.

* * *

(٣)
المفردات اللُّغوية في النّص

﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾:

أي: لَا تَجْعَلُوا، وهذا من التوسع في استعمال فعل «اتّخذ» بمعنى فعل «جعل» لذلك فهو ينصبُ مفعولين، فقال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا اليهودَ والنَّصارَىٰ أولياءَ﴾.

﴿أَوْلِيَآءَ﴾:

أي: قوماً تتبادلون معهم التوادّ، والتعاونُ، والتواعد على التناصر والتأييد والإمداد بالأخبار وبالقوى، أو ببعض ذلك.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾:

أي: ومن يجْعلْ لنفسه منهم أولياء فإنّه يكون منهم في انْطِباق الأحكام الإداريّة عليه، كما تَنْطَبقُ عليهم، فيُعاقَبُ من قِبَل الجهات الإداريّة لِلْأُمّة الإسلاميّة كما يُعاقَبُ الواحِدُ منهم، فيؤخذ بخيانة التجسّس، ويعامل معاملة العدوّ المحارب إذا كانُوا أعداء محاربين، وتُحْجَبُ عنه امتيازات المسلم الأمين داخل المجتمع الإسلامي، إلى غير ذلك من أمور تراها الجهات الإدارية للأمّةِ الإسلامية.

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾:

هو مَرَضٌ دون النفاق، كالشكّ والشبُهات القويّة وضعف الإيمان، وغلَبَة الأهواء والشهوات.

﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾:

سبق شرح هذا الاستعمال في النص السابق (٣١).

﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾:

الدائرة في الأصل ما أحاط بالشيء مستديراً حوله. واستعمل العرب الدائرة بمعنى الداهية التي تأتي بالشرّ والسّوء، لأنّها تحيط بمن نزلت به، وتأتي بمعنى الهزيمة، يقولون: دارت على القوم الدائرة في الحرب، أي: غُلِبُوا وانتصر عليهم عدُوّهم، ويقولون: دارت عليهم الدوائر، أي: نزلت بهم الدواهي والمصائب والنكبات.

﴿أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾:

أي: أقسموا بالله قَسَماً موصوفاً بكونه غاية ما لديهم مِنْ أيمان مؤكّدة مشدّدة. جَهْدُ الشيء في اللّغة يأتي بمعنى نهايته وغايته، وبمعنى وُسْعِه وطاقته، ويأتي الْجَهْدُ بمعنى المشقة.

﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾:

أي: بَطَلَتْ أعمالُهم، وكلّ عملٍ لا يُحقّق الغاية منه فقد حَبِطَ، أي: بطل. ويقالُ: أحْبَط الله أعمالهم، أي: أبْطَلَها. ويُقال: حَبِطَ مَاءُ البِئْرِ، إذَا ذَهَبَ ذهاباً كلّيّاً لا يُرجَىٰ معه أن يعود.

* * *

(٤)

مع النصّ في التحليل والتدبُّر

* قول الله عزّ وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾.

لمّا ضعُف مشركو العرب وتحطّمت مراكز قواهم وأخذت القبائل العربية تدخل في دين الله أفواجاً، بدأت نفوس الذين في قلوبهم مرضٌ من الشكّ وضعف الإيمان تتوجّهُ شطْرَ موالاة بعض اليهود الذين لهم صلات خارج حدود مواطن السلطة

الإسلامية، وشطر موالاة النصارى الذين لهم ملك عربيٌّ عند الغسّانيّين، مدعوم بأمبراطورية عظيمة هي دولة الرّوم، إضافة إلى المنافقين الضليعين في الكفر والنفاق.

وتمهيداً لبيان حال الموالين للكافرين من الفريقين، حذَّرَ الله الذين آمَنُوا مِنْ أنْ يتّخذوا الْيَهُودَ والنصارى أولياء، يُوادُّونهم، ويتعاونون معهم، وينصرونهم ويستنصرون بهم، ويُطْلِعُونَهُمْ على أسرارهم، لأن ذلك يُضِرّ بمصلَحةِ الأُمّة الإسلامية، فناداهم الله بأداة نداء البعيد، وبوصف كونهم مؤمنين لبيان الاهتمام، وللإشعار بأنّ اتّخاذهم اليهود والنصارى أولياء، يخالف مقتضى الإيمان، الذي يوجب طاعة الله في أوامره ونواهيه.

والتكليفُ بالأمر أو النهي حين يُوَجَّهُ لجماعةٍ ذاتِ وصفٍ خاصّ باعتبار اتّصافها بذلك الوصف، فإنّه يشْمَلُ كلَّ فردٍ مُنْتَمٍ لهذه الجماعة، ولو كان انتماؤه لها كاذباً.

فالنداء بقوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾.

يتضمّن تكليفاً لجميع الذين يَدَّعُونَ أنّهم مؤمنون، فمن خالف منهم ولو كان في الحقيقة منافقاً غَيْرَ مُؤْمن أُجْرِيَت عليه في الدنيا أحكام الْعُصَاةِ المخالفين، أمّا في الآخرة فهو فيها يعاقبُ على نفاقه وكفره.

ومنْه خطابُ الله الملائكةَ بالسُّجود لآدم فقد شمَل مَنْ كانَ ضِمْنَهُمْ مُنْتمياً إليهم نفاقاً، ولِذلِكَ حكَمَ اللّهُ على إبليس بالمعصية والطّرْد، والخلود في العذاب بسبب عناده وكُفْره، ولو لم نُقَدّرْ أنّ الخطاب قد كان في الأصل للملائكة ولِمَنْ كان معهم من الجنّ، فقد كان في صفوف الملائكة مُنافقاً مُنْدَسّاً، وكان من الكافرين.

بعد هذا التكليف الرّبّانيّ للّذين آمنوا أبان الله تعالَىٰ أنّ اليهود والنصارىٰ من صفاتهم أن يتولّى بعضُهُمْ بعضاً، لأنهم حرّفُوا دينَ الله، وانْحَرَفُوا عن صراطه المستقيم، فقد يتولّى اليهوديّ النصارىٰ ضدّ اليهود، وقد يتولّى النصراني اليهودَ ضدّ النصارىٰ، لأنّهم لا دين لهم، لا هؤلاء ولا هؤلاء، فقال تعالى:

﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾.

هذه العبارة تنطبق على موالاة النصارىٰ للنصارىٰ، وموالاة اليهود لليهود، وتنطبق

أيضاً على موالاة اليهود للنصارىٰ وموالاة النّصارىٰ لليهود، لأنّها لا تبيّن حكماً دينيّاً، إنّما تصف واقعاً.

ولست أرىٰ أن نستخرج منها أحكاماً شرعيّةً تتعلّق باليهود والنصارىٰ فيما بينهم، إنّ أحكام الشريعة الإسلامية هي لمن آمن بها، لا لمن كفر بها، وغير المسلمين يتحاكمون فيها بيْنَهُمْ بأحكامهم الطاغوتية.

فالحكم بالتوارث فيما بينهم أو عدم التوارث لا علاقة لشريعة الإسلام به فيما ظهر لي، واللَّهُ أعلم.

أمّا موالاة اليهود للنصارىٰ وموالاة النصارىٰ لليهود ضدّ الأمّة الإسلامية، وضدّ كثير من شعوب الأرض، فقد برزَتْ في عصرنا الحاضر بشكْلٍ قويّ جداً، والأمّة الإسلامية تُعاني منه عناءً مُرّاً، ويشترِكُ الفريقان في خطط المكر والكيد ضدّ شعوب الأمّة الإسلامية، وفي الأعمال التنفيذية أيضاً، على الرغم من العداء الشديد الذي يحمله كُلُّ فريقٍ منهما للآخر، ولا سيما عداءُ اليهود للنصارىٰ، مع أنّهم يسخّرونهم في كلّ الأرض لتحقيق مخطّطاتهم اليهوديّة الرامية للسيطرة التامّة على الشعوب النصرانيّة ودُولها، قبل السيطرة على الشعوب الأخرىٰ.

وبعد هذا البيان للواقع وجّه الله التحذير الشديد للمؤمنين، فقال تعالى لهم:

﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾:

أي: ومَنْ يتولّ اليهود والنصارى كُلّهم أو بعضَهم مجتمعين أو مفترقين موالاةَ تعاوُنٍ وتناصُرٍ ضدّ شيءٍ من مصالح المسلمين الدينيّة أو الدنيوية ممّنْ هو منْكُمْ ـ ولو بالانتماء الظاهر إليكم ـ فإنّهُ في حُكْمِ اللّهِ مِنْهُمْ، تُجْرَىٰ عليه الأحكام الإدارية التي تُجْرَىٰ عليهم حتّىٰ أقصىٰ العقوبات، ومنها اجتماع المسلمين لقتال الموالين، ولو لم يكفُروا بالإسلام، وكانت موالاتُهم للكافرين من قبيل سقوط العاصي في المعصية اتباعاً لأهوائه ومصالحه من دنياه، ورغبته في السلطان والعلُوّ في الأرض، لأنّ المعصية في هذه الموالاة معصيةٌ من درجة الخيانة العظمى للأمّةِ الإسلاميّة، فيعامَلُ الموالون لليهود والنصارىٰ معاملةَ أوْليائهم في القضايا الإداريّة، ولا تكونُ غالباً هذه

الموالاة موالاةً كاملةً إلاّ ممّنْ هُمْ كافرون حقيقةً فهم منهم كفراً وخروجاً عن ملّة الإسلام.

أمّا موالاة غير اليهود والنصارىٰ من الكافرين فهي أشدُّ جُرْماً، وأعظَمُ إثماً، ويُطَبَّقُ هذا الحكم عَلَىٰ من يواليهم من باب أولى، لأنّ النصارى واليهود هم أهْلُ كتاب ربّانيّ بوجه عامّ، وإنْ كانوا قد حرّفُوا وبدّلوا وغيّروا ما أُنـزِلَ إليهم، فذِكْرُ اليهود والنصارىٰ يُغْني عن ذكر سائر الكافرين.

بعد هذا البيان وصف الله الذين يُوالُون الكافرين بأنّهم ظالمون، ولكنْ جاء هذا الوصف من خلال دلالةٍ بأسلوبِ الكناية، دلّتْ عليها جملة مستأنفة، واقعةٌ موقع التعليل للحكم السابق، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾:

أي: حَكَمَ الله على الذين يُوالُون الكافرين بأن يُعاملوا إداريّاً مِنْ قِبَلِ الدَّوْلَةِ الإسلامية الرّشيدة مُعامَلَةَ الكافرين، لأنهم ارتكبُوا ظُلْماً هو من أقْبح دركات الظُّلم وأخسِّها، فاستَحَقُّوا أنْ يُبرَزُوا ويُعرَفُوا دون سائر منْ يظلم نفسه من المسلمين بأنّهم القَوْمُ الظالمون، وليس من حكمة الله أنْ يَهْدِيَ القَوْمَ الظالمين، بأن يتجاوز عن ظُلْمهم الشنيع، ولا يُنْـزِل فيهم الحكمَ الذي يستحقّونه، والذي يحمي به الأمّة الإسلامية من أعدائها، ولولا هذه الأحكام المشدَّدة لانقطع نظام الأمّةِ الإسلاميّة، وانْتَثَرَ عِقْدُها، فأمْرُ موالاة أعداء الأمة الإسلامية من الأمور الخطيرة جدّاً، التي إنْ لم تكن دالّةً على الكفر الحقيقيّ، فهي ذاتُ عُقُوبةٍ في الدنيا تُشْبه عُقُوبَة الرِّدّة عن الإسلام.

وهكذا أبانت هذه الآية من النصّ فريقَ المؤمنين الصادقين، وفريق الذين يوالون الكافرين حتّى أحطّ دركات الموالاة، وبقي الذين هم بين الفريقين.

* قول الله عزّ وجل:

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

يوجد فريق ثالث وهم الذين في قلوبهم مرضٌ لم يبلغ مبلغ النفاق المميت لها، لأنّ المنافق كافرٌ في الباطن فهو لا حياة لقلبه، بمقتضى المفهومات القرآنية، فالذين في قلوبهم مرَضٌ هُمْ أهل الشّكّ والرّيب، وضعفاءُ الإيمان، ومنْزِلَتُهُمْ في مراتب المسلمين بين المؤمنين الصادقين، وبين المنافقين الذين استقرّوا في النفاق، وهم في الكفر المكتوم مُقِيمون.

قولُهُ تعالى:

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ ﴾.

أي: فَبَعْد النَّهْي المشدَّدِ عن اتّخاذ الْيَهُودِ والنصارى أوْلِيَاء، تَرَىٰ أيُّها الباحِثُ المتفكِّرُ فريقَ الذينَ في قلوبهم مَرَضُ الشّكّ والرَّيْب وضَعْفِ الإيمان يُسْتَدْرَجُونَ إلى مُوالاةِ اليهود والنصارى، فيُسَارِعُونَ المشيَ في مُصَادَقتِهم، وإحداث العلاقات معهم، وتبادُلِ الزيارَاتِ واللّقاءات والمعاملات، حتى دركةِ عقْدِ صفقاتِ تَبَادُلِ تناصُرٍ وتعاون، قد تفضي في نهاية المسيرة المتسارعة إلى اتّخاذهم أولياء.

فإذا شَعَرُوا بوخز الضمير ممّا يفعلون، طَرَحُوا على أنفسهم السؤال التالي: أليس ما نفعَلُهُ من الكبائر ونَحْنُ مُسْلِمُون، وقد نهى اللّهُ نَهْياً مُشدّداً عن اتّخاذ الكافرين أولياء؟

ويجد الشيطانُ سبيلاً إلى نفوسهم، فيُسَوِّلُ لَهُمْ أنُ المسلمين لا يَقْوَوْن على مُواجَهة جُيوش النصارىٰ ومكْرِ اليهود في الأرض، والْمُسْلِمُون متوجّهون لحرب الرّوم وفتح فارس، فإذا لم نُصانعِ اليهود والنصارى دارت الدائرة المهلكة علَيْنا، فنُكِبْنا في أنفسنا وأهلينا وأموالنا، مع سائر المسلمين، فيقولون في أنفسهم قولاً يجعل لهم عُذراً فيما يفعلون، عبّر عنه الله عزّ وجلّ بقوله:

﴿ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ ﴾:

أي: نخشى أن تُصِيبنَا داهيةٌ بشَرٍّ وَسُوءٍ تُحيطُ بنا من كلِّ جانب، فلا نَجِدُ

لأنفسنا نجاةً مِنْها، فإذا كانت لنا يَدُ مصانَعَةٍ مع اليهود والنصارى أمْكَنَ أنْ نجِدَ لأنفسنا وأهلينا وأموالنا مخارج سلامة.

وقد أجابَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ عمَّا يقُولُونَ في أنفسهم.

﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾:

أي: فَمِنَ المرْجُوّ أنْ يأتيَ اللَّهُ بالْفَتْحِ لِلأمّةِ الإسلاميّة في انتصارات متلاحقات، أو أنْ يأتي بأمر آخر من عنده يُحقّقُ به وعْدَهُ لرسوله والمؤمنين، كالأمْر الذي حصل للتتار إذْ فتحوا بلاد المسلمين بالقوّة العسكريّة الغالبة، فدخلوا في الإسلام إعجاباً به.

فإذا وهب الله المسلمين الفتح المبين، أصبح الذين في قلوبهم مرض نادمين على ما كانوا قد أسَرُّوا في نفوسهم، إذْ قالوا: نخشَى أنْ تُصيبنا دائرة.

﴿نَٰدِمِينَ﴾:

أي: كارهين ما كان منهم فيما سبق، مُتَمَنِّين لو لم يكن قد حصل، وهذا دليل على أن مرض قلوبهم لم يكن من دركة النفاق.

وحين يكتشف الذين آمنوا حال هؤلاء الذين في قلوبهِمْ مَرَضٌ، وكانُوا قدْ أقْسَمُوا من قبل بأيمان هي غاية ما لديهم من أيمان يحلِفُونها، مؤكّدِينَ بها أنّهم مؤمنون مع المؤمنين الصادقين فإنّهم يقولون متعجّبين:

يا عَجباً أهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أقْسَمُوا جَهْدَ أيْمَانِهِمْ: إنَّهُمْ لَمَعَكُمْ، وفي بيان هذه المقولة التعجبيّة التي يقولها الذينَ آمَنُوا حين اكتشافهم حال الذين في قلوبهم مرض وكانوا يظُنُّونهم صادقين في إيمانهم حقّاً، قال الله عزّ وجل:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْۚ﴾.

بعد هذا أبَانَ الله عزّ وجَلّ أنّ هؤلاء الَّذِينَ في قُلوبهم مَرضٌ من الرّيب والشّك وضَعْفِ الإيمان، الَّذِين لم يَصِلُوا إلى دركةِ المنافقين، يُعاقَبُون على مُسارَعَتِهِم في طُرُقِ مُصَانعة الكافرين بإبطال أعمالهم التي عَمِلُوها من الأعمال الإسلاميّة التي

لم يَعْمَلُوها نفاقاً، وإنّما عَمِلُوها مع الشّكّ والرّيب وضعْفِ الإيمان، ضمن احتمال كون الإسلام حقّاً وصدقاً، وضمن احتمال صدْقِ الوعود التي جاءت في القرآن وفي أقوال الرسول ﷺ، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝٥٣ ﴾:

أي: بطلَتْ صَالِحاتُ أعمالِهِمُ الإسلامية بسبب شَكّهم ومصانعتهم الكافرين، وعدَمِ ثَباتِهِمْ في مَوْقفِ الإيمان الصحيح، وبعْدَ اللَّيْلِ الّذي كانوا فيه من ظُلُماتِ الشُّكُوك والشُّبُهاتِ وضعْفِ الإيمانِ يَجدُونَ أنْفُسَهُمْ في صَبَاحِ الحقيقةِ الّتي يكتَشِفونَها خَاسِرِينَ أعمالَهُمْ، وأزمانهم الّتي أمْضَوْهَا في الباطل، وأعمارهم وطاقاتهم التي ضيَّعُوها فيما لا خير فيه.

● ● ●

النصّ الثالث والثلاثون

وهو من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) أيضاً

«الســورة (٢٦) مـن التـنزيل المـدني»

الآيــات مــن (٥٧ ــ ٦٢)

بشأن المنافقين من اليهود

الذين دخلوا في الإسلام منافقين مكراً وكيداً

* قال الله عزّ وجل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ
قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ۚ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ
وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا
جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَىٰ كَثِيرًا
مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ
الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣) ﴾ .

* * *

(١)
ما في النصّ من القراءات المتواترة
(من الفرش وبعض الأداء)

* في الآية (٥٧):

(١) قرأ حفص عن عاصم: [هُـزُواً] بإبـدال همزة «هـزُؤاً» واواً مع ضم الـزاي وصلاً ووقفاً.

وقرأ حمزة: [هُـزْءاً] بالهمـزة مع إسكـان الزاي وصـلاً فقط، ويقف عليها بنقـل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها وبإبدال الهمزة واواً على الرسم.

وقرأ خلف العاشر: [هُزْءاً] بالهمزة مع إسكان الزاي وصلاً ووقفاً.

وقرأ باقي القراء العشرة: [هُزُءاً] بالهمزة مع ضمّ الزاي وصلاً ووقفاً.

وهذه وجوه من الأداء في نُطْق الكلمة ضمن اللّهجات العربية.

(٢) قرأ أبو عمرو، والكسائي، ويعقوب: [وَالكُفَّارِ] بالجرّ عطفاً على الموصول في قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكتابَ من قَبْلِكُمْ﴾.

وقـرأ باقي القـرّاء العشرة: [وَالكُفَّـارَ] بالنصب، عـطفاً على المـوصول في قـوله تعالى: [لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً].

وفي القـراءتين تكامـل فكري، وذلـك لأنّ من الكفار من غيـر أهـل الكتـاب من اتّخذوا دين الإسلام لَهْواً ولَعِباً، ومنهم من لم يفعل ذلك، وكـلٌّ من الفريقين لا يجـوز للمؤمنين أن يتّخِذُوا منْهم أولياء.

* في الآية (٥٨):

توجد في كلمة [هُزُواً] القراءات التي سبق بيانها في نظيرتها من الآية (٥٧).

* في الآية (٦٠):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة: [وَعَبَدَ الطّاغـوتَ] بفتح البـاء والدال من [عَبَـدَ] ونصْب [الطاغوت] على أنّ «عَبَدَ» فعل ماضٍ.

وقرأ حمزة فقط [وَعَبُدَ الطَّاغُوتِ] بضَمِّ الباء وفتح الدال من [عَبُدَ] وجَرّ [الطاغوتِ]. قال الأزهري: والمعنى فيما يقال: وخادِمَ الطّاغوت.

أقول:

واسْمُ الجنس إذا أضيف يعُمُّ، فالمعنَى: وعُبَّادَ الطاغوت.

وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني، فالذين عبَدُوا الطاغوت، أي: الطواغيت، يكونُون عُبَّاداً وخُدَّاماً للطّواغيت.

* في الآية (٦٢) والآية (٦٣):

(١) قرأ نافع، وابنُ عامر، وعاصم، وحمزة، وخلف: [السُّحْتَ] بإسْكانِ الحاء.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر، ويعقوب [السُّحُتَ] بضمّ الحاء. والقراءتان وجهان عربيان لنطق الكلمة.

(٢) للقرّاء في: [قَوْلِهِم] وفي [أَكْلِهِمْ] وجوه من الأداء:

فقرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم وصلاً. وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بضم الهاء والميم وصلاً، وقرأ باقي القراء العشرة، بكسر الهاء وضمّ الميم وصْلاً، أما في الوقف فكلُّهم يكسرون الهاء ويسكنون الميم.

* * *

(٢)
موضوع النصّ وسبب نزوله

يشتمل هذا النصّ على نهي الله عزّ وجلّ الّذينَ آمَنُوا عن اتّخاذ أولياء من أهل الكتاب (والسياق يتحدّث عن اليهود) أو من الكفّار الآخرين من غير أهل الكتاب، كاشفاً من صفاتهم أنّهم اتّخذوا دين الإسلام شيئاً يستَهْزأُ به، ولُعبَةً يُلْعبُ بها، كأنّه خرافة من الخرافات، وأمْرٌ لا يشتمل على حقائق، حتّى يتعاملوا معه بطريقة جادة، مع أنّه دين الله المؤيّد بالمعجزات الباهرات، والمشتمِلُ على الحقائق الجليّات، والبراهين الدامغات.

ولمّا كان الدخول في الإسلام نفاقاً هو من الاستهزاء واللّعب بدين الله، وكان من اليهود من دخلوا في الإسلام نفاقاً، وما زالوا يكيدون الإسلام وهم بين صفوف المسلمين، وقلوبهم قلوبٌ يهودية، وجدنا هذا النصّ يكشف هذه الخيانة من خياناتهم باعتبارهم من أهل الكتاب المعنيين في النصّ، ويحذّر المؤمنين من أن يتخذوا منهم أولياء، باعتبارهم من اليهود باطناً وإن كانوا مسلمين في الظاهر، فأمارات نفاقهم تدلُّ على حقيقتهم.

أما سبب النزول فلمْ أجِدْ في المرويات الّتي لم تَبْلُغْ مَبْلَغ الصحيح ما يصلُح أن يكون سبباً ظاهراً مباشراً لنزول هذا النصّ أو شيء منه، وذلك لأنّ اليهود الظاهرين لم يبق لهم وجودٌ يكوّن مشكلة واضحة من بعد إجلاء اليهود عن المدينة والتخلّص من بني قريظة، وسقوط خيبر في أوائل سنة سبع للهجرة، وسورة (المائدة) قد نزلت بعد السنة الثامنة للهجرة غالباً، لكنّ القرآن استمرَّ يحذّر المؤمنين من مكايد اليهود وسائر أهل الكتاب، نظراً إلى أنهم ستكون لهم معهم مستقبلاً علاقات كثيرة حربيّة وسلمية، فيجب عليهم أنْ يلتزموا تعاليم الله في التعامل معهم، ويتّبعوها، حتّى لا يظنّوا أنّ متاعبهم مع اليهود قد انتهت بالتخلّص منهم في المدينة، أو تنتهي بإجلائهم من جزيرة العرب، فمشكلة المسلمين مع اليهود وسائر أهل الكتاب مشكلة مستمرّة.

* * *

(٣)
المفردات اللغوية في النّص

﴿ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾:

أي: جعلوا دينكم شيئاً يُهْزَأ به ويُسْخَرُ مِنْهُ. ولُعْبَةً يَلْعَبُونَ بِهَا.

الْهُزْءُ ــ والْهُزُوُ: السُّخْرِية. يُقَالُ: هُزِيءَ به وهُزِيءَ منه. ويُقَالُ: هَـزَأَ بِه وهَـزَأَ منه، ويقال: هَزِئَ بِهِ وهَزِئَ مِنْه، أي: سَخِرَ مِنْهُ.

اللَعِبُ: ضِدُّ الجدّ، يقالُ لُغَةً: لَعِبَ يَلْعَبُ لَعِباً وَلَعْباً. ويقال لكلّ من يعمل عملاً لا يُجْدِي عليه نفعاً إنّما أنت لاعب.

والمعنى جعلوا دينكم شيئاً مَهْزُوءاً به، ومَلْعُوباً به، فهو من إطلاق المصدر على

اسم المفعول، أو جعلوا أصل دينكم صورة من صور الهزء واللَّعِب، فاعتبروا الصلاة مثلاً وبعضَ أعمال العبادات شكلاً من أشكال اللَّعِب، وزَعَمُوا أنَّ الغرض من الدِّين السُّخْرية من الناس.

ومن اتِّخاذ الدِّين هزُواً ولعباً الدخولُ فيه نفاقاً، كأنَّه شيء صالحٌ لأنْ يُلْعبَ به، ويُسْخَرَ منه، مع أنَّ الدِّين كلّه جِدٌّ لا هزْل فيه، إذْ يَرْتبط به مَصيرُ الإنسان، إمَّا إلى الجنَّةِ وإمَّا إلى النار، وقَضِيَّةُ الدِّين قضية الرَّبِّ الخالق، وهل هذا شيء يصحُّ أنْ يُلْعَب به؟ هل يدخل الإنسان في النار لهواً ولعباً.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾:

أي: لا يعقلون أهواءهم وشهواتهم بإرادة حازمة عن التعرُّض لعذاب الله بارتكاب معصيته. ولا يعقلون في مراكز المعرفة لديهم الحقائق الخطيرة التي يرتبط بها مصيرهم من قضايا الدين.

﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ . . .﴾:

أي: هل تكرهون منا إلّا إيماننا، وهل تُنْكِرُونَ علينا شيئاً آخر غيْرَه.

يُقالُ لغة: نَقِمَ الشَّيْءَ وَنَقَمَهُ إذا أنْكرَهُ وكَرِهَهُ.

﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾:

الْمَثُوبَةُ جَزاءُ الْعَمل إنْ خيراً فخير، أو شرّاً فشرّ.

﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾:

كثير الطغيان، وكلّ رأسٍ في الضلال، ويطلق على الشيطان، وكلّ ما عُبِدَ من دون الله (يستوي فيه الواحد وغيره). وقد يجمع على طواغيت.

﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾:

السُّحْتُ والسُّحُت: كلُّ مَكْسبٍ حَرَام كالرِّشوة، والرِّبا والسَّرقة، وأكل أموال الناس بالباطل، وسُمّي سُحْتاً لأنّه يَسْحَتُ البركة أي: يُذْهِبُها. وأصلُ السَّحْتِ قَشْرُ الشيءِ قليلاً قليلاً، ويُطْلَقُ السَّحْتُ على العذاب.

* * *

(٤)

مع النصّ في التحليل والتدبُّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ٥٨﴾.

يظهر لي من السّياق أنّ الله عزّ وجلّ يحذّر بأسلوب عام من اتّخاذ اليهود والنصارىٰ، واتّخاذ الكفّار الآخرين من غير أهل الكتاب أولياء، لأنّهم أعداء، ويَخُصُّ بالذكر المنافقين منهم، ولا سيما اليهود، وأحلافهم من منافقي المشركين، فالمدّة الزمنية التي نزلت فيها سورة (المائدة) قد بقيت فيها مشكلة المنافقين من اليهود والمشركين هي المشكلة البارزة، بعد أن اضمحلّت مشكلات عداء القبائل اليهوديّة المجاهرة بعدائها، ومشكلات مشركي الحجاز المجاهرين بكفرهم وعدائهم.

فمن خلال العبارة العامّة يَنْهىٰ الله الذين آمنوا عن موالاة أهْلِ الكتاب، لأنّهم لم ينظروا إلى الإسلام على أنه دين ربّاني، فاتّخذوه هزُواً ولَعِباً، متهمين الرسول بأنه يهزأ بعقول الناس، ويلعب بهم، وينهاهم أيضاً عن موالاة الكُفّار بوجه عامّ أيضاً، لأنَّهُمْ يعادون هذا الدّين، ويعادون الرّسول والمؤمنين، فجاءت قراءة نصْب كلمة [والكُفّارَ] دَالَّةٌ علىٰ هَذا العموم.

ومن خلال دلالة السّياق ينهىٰ الله الذين آمنوا عن موالاة خُصوص المنافقين من أهل الكتاب ولا سيما اليهود، لأنهم دخلوا في الإسلام مستهزئين لاعبين، متّخِذين دين الله شيئاً يُسْتَهْزَأُ به ويُلْعَب. وينهاهم أيْضاً عن موالاة المنافقين من سائر الكافرين، ولا سيّما المشركون، لأنّهم في ذلك الوقت كانوا النسبة الأكثر من المنافقين، مع أحلافهم من منافقي اليهود، فجاءت قراءة جرّ كلمة [وَالكُفّارِ] دالّةٌ على هذا الخُصوص، لأنّهم بنفاقهم قد اتّخذوا دين الله شيئاً يُسْتَهْزَأ به ويُلْعَب، كما فعل المنافقون من اليهود.

وربّما يتساءل بعض الناس: كيف نعرف المنافقين حتّى لا نتخذهم أولياء؟

ونجيب بأنّ الأمارات والصفات التي يتصفون بها، وقد أعلمنا الله بها، في مختلف النصوص، كافية لأن تدلّ عليهم، فيحذرهم المؤمنون، ولا يتخذوا منهم أولياء.

ولمّا كانت مخالفةُ هذا النهي معصيةً لأنه نَهْيُ تحريم، وليس مجرّد نهي إرشاد قال الله عزّ وجلّ بعده:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾:

أي: فإذا اتّخذتُمْ منهم أولياء، عرَّضْتُم أنفسكم لعقاب الله، ولم تتّخذوا وقاية منه بالطاعة.

وقَيْدُ: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِين﴾ فيه استثارة إيمانهم لالتزام طاعة الله، والمعنى: إنْ كنتم مؤمنين حقّاً صادقين في إيمانكم كان إيمانكم باعثاً على تقوى الله بطاعته، فأنتم حينئذٍ تتقون الله ولا تتخذون منهم أولياء.

وقد تكرر هذا الأسلوب في القرآن، وهو على معنى: واتّقُوا الله وأنتم ستتّقونه ما استطعتم إن كُنْتُمْ مُؤْمنين حقّاً وصدقاً ملتزمين بمقتضاه.

وجاء استعمال حرف الشرط «إنْ» التي تُسْتعمل عادة في المشكوك فيه، إشارةً إلى أن جمهور المؤمنين يغفلون عن الالتزام بهذا التعليم الرّبّاني، والعمل بطاعة الله في عدم اتّخاذهم المنافقين أولياء، لأنّهم مخالطون مداخلون، ولهم ضمن المؤمنين علاقات قربىٰ، ومصاهرة، وغير ذلك من العلاقات الاجتماعية.

وَأبَان الله عزّ وجلّ من مظاهر اتّخاذهم دين الإسلام هزواً ولعباً، أنّهم إذا سمعوا النداء إلى الصلاة اتّخذوا الصَّلاة هُزواً ولَعِباً، أي: قاموا إلى الصلاة نفاقاً مستهزئين بمن يؤدّيها بصدقٍ من المؤمنين، ومشاركين في أدائها مشاركةَ اللاّعب بالحركات، لا مشاركة المؤمن بطاعة الله والصلة به في أدائها، فقال الله تعالى:

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾.

وأشارت عبارة ﴿وإذا ناديتم﴾ إلى أنّهم لا يصلّون إذا لم يكونوا معكم ويسمعوا نداءكم للصلاة.

وأبان الله عزّ وجلّ سبب اتخاذهم دين الله هزواً ولَعِباً، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

المشار إليه بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ اتّخاذُهُم الدين هزُواً ولَعِباً.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾: أي: بسبب أنّهم ﴿قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فقِسْمٌ مِنْهُمْ لا يعلمون قيمة الدين، ولا يُدْرِكون ما سيلاقون من مصير عند ربّهم، لأنّهم لم يُريدوا أن يَعْقِلُوا المعارف الدينيّة وحججها وبراهينها، مع أنّ الرسول والدُّعاة إلى الله بلّغوهم إيّاها، ومع وجودها في كتاب الله الذي عليهم أن يقرؤوه ويتدبّروه، وهؤلاء هم المنافقون من المشركين. وقِسْمٌ منهم لا يعقلون بإراداتٍ حازماتٍ أهواءهم الأنانية المقيتة، وهم المنافقون من اليهود، فمنهم من يعلم قيمة الدين، ولكن كرهوا أن يتبعوا رسولاً من غير بني إسرائيل، وينهاهم عن اتّباع أهوائهم وشهواتهم، ويصحّح ما حرّفوا من دين الله.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾.

في الآية (٥٧) نهيُ الله الذين آمنوا نهي تحريم عن أنْ يتّخذوا أولياء من الذين اتّخذوا دين الإسلام لهواً ولعباً من أهل الكتاب، سواءٌ أكانوا مجاهرين بكفرهم، أو منافقين مخالطين يكيدون وهم ضمن صفوف المؤمنين، فدلّ هذا على أنّهم أعداء، يكرهون إيمان المؤمنين بالإسلام، ويُنْكرونه عليهم، فهم يَنْقِمُونَ مِنهم ذلك، فاقتضى حالُهم أن يُوضَعُوا موضع المناظرة والمجادلة بالّتي هي أحسن، فعلّم الله رسوله وكلّ

مؤمن قادر على مجادلتهم للإقناع أو للإفحام والإلزام، أن يطرح عليهم سؤالاً عن سبب نقمتهم من المؤمنين، وكراهيتهم لطريقتهم، وما يُنْكرونه عليهم.

والسؤال هو: يا أهل الكتاب (أي: يا من تدّعون أنكم تؤمنون بكتاب من عند الله منزَّل على رسول من رسله موسىٰ أو عيسى عليهما السلام) أيَّ شيء تنقِمُونَ منّا، كارهينَهُ مِنّا، أو منكرينه علينا، فنحن لا نَجدُ شيئاً يُمْكِنُ أن تُنْكِرُوهُ إنْ كُنْتُمْ أهلَ كتاب ربّانيّ حقيقةً، وذلك لأنّنا آمَنّا باللهِ، وأنتم تَزْعمون أنَّكُمْ آمَنْتُمْ بالله، ونحن آمنّا بما أُنزلَ إلينا من لَدُنْ رَبّنا على رسولٍ من رسلُه مؤيَّد من قِبلِه بالمعجزات والآياتِ البيّنات، كما أنكم آمَنْتُمْ بما أُنْزِلَ إليكم من ربكم على رسولٍ من رُسله، ونَحْنُ آمَنّا بِكُلِّ مَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ عن الله عزّ وجلّ علَى أيّ رسولٍ من رُسُلِ الله، فلم نَكْفُرْ بما أُنزِلَ إليكم، حتى يكون كُفْرُنَا به مثيراً لنقمتكم؟!

فهلْ في كلّ هذا داعٍ لأنْ تَنْقِمُوا مِنّا؟!

بقي شيءٌ أخِيرٌ يمكن أن يكون سبب نقمتكم هو أنّ رسول هذا الدين الذي آمنا به ليس من بني إسرائيل، وهذا شيء قد أغضبكم من ربّكم لأنكم فاسقون، فنقمتم منّا اتّباعَهُ، وأنّ هذا الدّين قد كشف تحريفاتكم في دين الله، وجاء بالحقّ، وهذه التحريفات قد أدخلتموها في دينكم اتباعاً للأهواء والشهوات، وطاعةً لكبرائكم، بسبب أنكم فاسقون، فنقمتم منا أن نستقيم على دين الله الحقّ مخالفين طريقتكم التي هي نتيجة فسقكم، لا ثمرة تديُّنِكُمْ بدين الله الحق، فإنْ كان هذا هو الذي تنقِمُونَهُ منّا فليس سبَبُه أنّنا مخطئون أو مخالِفُون منهج الحقّ والصّواب، ولكنّ سببه أنّ أكْثَرَكم فاسقون، ولا نقول لأنّ جميعكم فاسقون لأنّ منكم من أسلم معنا إسلاماً صحيحاً صادقاً، وآمن بما آمَنّا به، فهو منّا، وإنْ كان هو أيضاً من أهل الكتاب باعتبار ما كان عليه، قبل أن يدخل في الإسْلام.

هذه المناظرة الجدلية قد جاء التعليم القرآنيُّ لها على طريقة تسليم مفاتيح أبوابها، وترك تفصيلات عناصرها للرسول، وللمؤمن العالم الحصيف الكُفْءِ من بَعْدِه.

فمفتاح الباب الأول: هل تنقمون منّا أنْ آمنّا بالله؟ فإنْ قالُوا: لا، جاء دور الباب الثاني.

ومفتاح الباب الثاني: هل تنقمون مِنّا أن آمَنّا بما أُنزِلَ إلينا من رَبّنا، وكلّ ما أُنْزِلَ من قَبْلُ من لَدُنه؟ فإن وصل المناظر معهم إلى أنّ هذا لا يستدعي نقمتهم، واعترفوا بذلك، جاء دور الباب الثالث.

ومفتاح الباب الثالث: هل تنقمون منّا أنْ آمَنّا بالرسول محمّد النبي العربي، المتصل نسبه بإسماعيل بن إبراهيم. وخالفناكم في تحريفاتكم في دين الله؟

وهنا تحتدم المناظرة، والمناظر الكفء قادرٌ على أنْ يُقْنعهم أو يُلْزمهم أو يفحمهم أخيراً بأنّ السبب لا يرجع إلى أنّ المؤمنين بالإسلام على باطل، ولكن يرجع إلى أنّ الكافرين بالإسلام من أهل الكتاب هم المبطلون، بسبب أنّهم فاسقون، دفعهم فسقهم إلى إنكار الحقّ وجحوده، والإصرار بعناد على التمسّك بتحريفاتهم التي يُرْضُونَ بها أهواءَهم وشهواتِهم وكبراءَهم.

وهذا الباب الثالث لم يُعْطِ النَّصُّ القرآنيُّ مفتاحه صراحةً، بل أشار إليه بالتنبيه على إقفاله بعد جولات المناظرة، التي تنتهي بإقناعهم أو إلزامهم أو إفحامهم، ويتمّ إقفال المناظرةِ بدمغهم بأنّ أكثرهم فاسقون، وأكثرهم هم الذين لم يُسْلِمُوا أصلاً، أو كانوا في إسلامهم منافقين.

فجاء التعليم حاصراً المناظرة بثلاث جولات كبرى:

الجولة الأولى: عنوانها: هل تنقمون منّا أن آمنّا بالله؟!

الجولة الثانية: عنوانها: هل تنقمون منا أنْ آمنّا بما أُنزِل إلينا وما أُنزِل مِنْ قبل؟!

الجولة الثالثة: قُفْلُها عند الانتهاء منها: علّتكُمْ أنْ أكثركم فاسقون.

وقد أشكل على المفسّرين قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ۝٥٩﴾.

لدى حصر أسباب نقمة كَفَرَةِ أهل الكتاب من المؤمنين، إذْ فِسْقُ أهل الكِتاب ليس من كَسْبِ المؤمنين حتّى يَنْقِمُوا مِنْهُمْ بسببه، وقد نَدَّ عَنْهُمْ أنْ يُدْرِكُوا أنّ الله

عزّ وجلّ يُعْطِي المناظر المجادل من المؤمنين إشارات لجولات المناظرة، فالجولتان الأولى والثانية أعطاه الله مفتاحَيْهما، والأخيرة أعطاه الله قُفْلَها.

فالتعليم الذي بدأه الله بقوله:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

قد جاء حَصْرُ مناظرة المناظر لهم فيه بقوله:

﴿هَلْ تَنقِمُونَ﴾:

أي: هل تَكْرَهُونَ وتُنْكِرُون منا ﴿إِلَّآ﴾ واحداً من أمور ثلاثة:

(١) ﴿أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾.

(٢) ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾.

(٣) وإيمانَنَا بمحمَّد النبيِّ الرسول العربي الّذي ليس من بني إسرائيل، وما جاء به من كشفٍ لتحريفاتكم في دين الله، وهذا أمْرٌ لا نُعَابُ عليه نَحْنُ، بل تُعَابُونَ أنتم عليه، إذْ لم تُؤْمِنُوا به ولم تَتَّبعوه ﴿وَ﴾ علّتكم ﴿أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾.

ولا شَكَّ أنَّ هذا أسلوبٌ من الإيجاز عجيب، وهو فنٌّ من فُنُونِ البيان، ويُعَبِّرُ بعْضُ كبار المربِّين بنظيره.

ومن الأمثلة أن يَشْتَكِي طلابٌ من مادّة مقرّرة عليهم، فيأتي المدير أو عميد الكليّة فيقول لهم، ممّاذا تشتكون؟ إنَّكُمْ لاَ تَشْتَكُونَ إلاَّ:

(١) من أستاذها الذي هو أفضل الأساتذة في نظر الجميع.

(٢) أو من الكتاب الذي هو أفضل كتب الموادّ الدراسية.

(٣) أو من المادّة نفسها التي يجب أن يتعلّمها الطلبة في نظر جميع المربين.

(٤) أو من بناء المدرسة وحجرة الفصل الدراسي التي تدرسون فيها، وهي أفضل حجر المدرسة على الإطلاق.

(٥) أو من أنَّكُمْ كُسَالَىٰ لاَ تُحِبُّونَ أنْ تَبْذُلُوا جُهْداً لتعلّم ما ينفعكم وينفع أمّتكم.

وهذا أسلوب من الإلجاء لردّ شكواهم على أنفسهم، فقد كان الحق أن يشتكوا من أنفسهم، لا من غيرهم.

وعلى هذا الأساس نفهم أنه كان من الحقّ أن ينقم أهل الكتاب من أنفسهم بسبب أنّ أكثرهم فاسقون، لا أن ينقموا من المؤمنين الذين آمنوا بالرسول الخاتم، وبالدين الذي لم يدخل فيه تحريف ولا تبديل.

وبعد إقفال باب المناظرة بإدانتهم بأنّ أكثرهم فاسِقُونَ، يأتي دور إنْذارِهم بعذابِ الله على فِسْقِهِمْ، على سبيل موعظتهم بالترهيب، وأنّ مكانَهُم عند الله يوم الدِّين سيكون مكان شرٍّ وضُرٍّ وعقاب أليم.

وقد طَوَى النصّ توجيه الداعي المؤمن لهذا، اكتفاءً بتوجيهه لأنْ يُبَيِّن لهم طَرَفاً من حال بعض أسلافهم الذين كانوا شرّاً منهم مكاناً، وأضلّ عن سواء السبيل، مَنْ عَبَدَ منهم الطاغوت، ولَعَنَهُ الله وغضب عليه وجَعَلَ منهم القردة والخنازير، على سبيل العقوبة المعجّلة من جملة عقوباتهم.

والتربيةُ هنا تربيةٌ بالتوجيه للاعتبار بما جرى للكفّار مِنْ أسلافهم، الذين تمادَوا في الإثم والفسق ومعاندة الحقّ والمكابرة بالباطل.

فقال تعالى للمناظر الداعي:

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم ﴾:

أي: يا أهل الكتاب، والخطابُ مع واحدٍ منهم هو مَنْ جَرَتْ معه المناظرة السابقة:

﴿ بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴾:

أي: بما هو أشدّ عقوبَةً عند اللهِ من ذَلِكَ الْفِسْقِ الّذي أَنْتُمْ الآن عليه، والذي جعلكم تنقمون منّا؟

هذا السؤال يتطلّبُ جواباً، ولو لم يَقُلِ المناظر منْهُمْ أَنبِئْنَا.

والجواب:

﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾:

أي: من أسلافكم من اليهود المذكورين في تواريخكم.

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ﴾:

أي: من جملة الملعونين المغضوب عليهم:

﴿الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾.

وكان قد مسخ الله فريقاً من كفرة اليهود قردةً وَخنازيرَ، وهلكوا دون أن يكون لهم ذُرِّيَّةٌ بعد مسخهم ﴿وَ﴾ مَنْ ﴿عَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ من أسلافكم تاركاً عبادة الله، فهؤلاء أشدّ عقوبة عند الله أيضاً من فُسّاقكم.

وجمع الله هؤلاء المشار إليهم من أسلاف اليهود المخاطبين بقوله:

﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: أولَئِكَ البعداءُ عن رحمة الله من أسلافكم شرٌّ مكاناً منحطّاً سافِلاً منكم، وأكثر ضَلاَلاً وبُعْداً عن سَوَاءِ السَّبِيل.

سواء السبيل: هو وسط سبيل الله المستقيم، إنّ السبيل المستقيم يُحْسَبُ من وسطه فهو أعدله وأعلاه، والبعدُ عنه يُقاس بالْبُعْدِ عن وسطه من ذات اليمين، أو ذاتِ الشمال.

وفي بيان هذا عن أسلافهم تحذيرٌ لهم من اتّباع طريقتهم لئلا ينزل بهم من عقاب الله ما نزل وسينزلُ يوم الدين بأولَئِكَ البعداء عن رحمة الله من الأسلاف الأخباث.

وقد صحّ عن النبيّ ﷺ قوله: «إنّ الله لم يُهْلِكْ قوماً أو قال لم يَمْسَخْ قوماً فيجعل لهم نسْلاً ولا عَقِباً، وإنّ القردة والخنازير كانت قَبل ذلك».

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾

لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

أخذ البيان بهذا يكشف هُوِيَّةَ المقصودين الأوّلين بعمومات النصّ سابقاً، فهم منافقون من اليهود، وهم الذين يشير إليهم النصّ بالدّرجةِ الأولى، مع من يشاركهم في صفاتهم من سائر أهل الكتاب، والمشركين من المجاهرين بكفرهم ومن المنافقين.

فالله يخاطب الذين آمنوا فيُبيِّن لهم أنّ المقصودين الأولين بالنّهي عن اتّخاذهم أولياء من أهل الكتاب، من صفاتهم أنّهم إذا جاءُوكم قالُوا: آمنّا، وقَدْ دخلُوا بالكُفْرِ وهُمْ قَدْ خرَجُوا به، والله أعْلَمُ بِمَا يكْتُمُون.

وهذه صفة المنافقين، فهم الذين يدخلون في الإسلام ظاهراً، ويدَّعُونَ كاذبين أنّهُمْ آمَنُوا، مع أنّهم حين دخلوا في الإسلام كانُوا مُصَاحبين للكفر به في باطنهم وسرِّهم، ومنذ دخلوا في الإسلام مصاحبين للكفر فقد خرجوا منه فوراً مصاحبين للكفر أيضاً، لأنّ الله عزّ وجلّ لا يَقْبَلُ إسلاماً في الظاهر مصاحباً لكُفْرٍ في الباطن، إنّ طبيعة الإسلام الحقّ لا تقبل تلقائياً مُسْلِماً مزيفاً كاذباً، فمن دخل كذلك نفته فوراً وأخرجته، من دخَل وفي باطنه الكفر، أخرجته مطروداً وفي باطنه الكفر، لأن الإسلام هو دين الله، والله أعلم من كلّ عليم حتى من أنفسهم بما يكتمون من كفر، كيف يقبلهم الله مسلمين، وقد أسلموا بألسنتهم كاذبين مخادعين؟

إذا استطاعوا أن يَخْدَعُوا عوامّ المسلمين فهل يستطيعون أن يخدعوا الله العليم بما في صدورهم وسرائرهم.

وكشف الله من الظواهر الدالّة على نفاقهم أنّهم يندفعون بسرعة سيراً في سُبُل الإثم والعدوان وأكل المال الحرام، فقال الله عزّ وجل:

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ ﴾:

أي: وتَرَى أيُّها الرّائي المتتبّع لأحوالهم المراقبُ لسلوكهم، أنّ كثيراً مِنْهُمْ لا يملكون أنفسهم في المحافظة على السلوك الذي يفرضه عليهم تظاهُرُهُم بالإسلام، مخالفين مقتضيات كفرهم في قلوبهم، الذي يدفعهم بقوة إلى ممارسات الأعمال التي

تدخل تحت عنوان الإثم، والأعمال التي تدخل تحت عنوان العدوان، والأعمال التي تدخل تحت عنوان أكْلِ السُّحْت.

الإثم: هو في اللّغة الذنب، وهو في الاستعمال القرآني يشمل كلّ المعاصي التي نهى الله عنها، بدءاً من صغائرها حتى أكبر كبائرها.

العدوان: الظلم، وتجاوز الحدّ المأذون به، وهو مصدر عدا عليه بمعنى ظَلَمَهُ، تقول: عدا عليه يعدو عَدْواً، وعُدُوّاً، وعُدْواناً وتَعْداءً.

والجمع بين الإثم والعدوان يُشِير إلى أن المراد من العدوان ما يكون ظلماً واعتداءً على حقوق الآخرين من خلق الله.

أكْلُ السُّحْت: هو تَمَلُّكُ المال الحرام، وسُمّي تَمَلُّكُ المال الذي يَحْرُمُ تملّكُهُ ولو كان برضىً باذله أكْلاً، لأنّ الأكْلَ أعظم ما تُسْتَهْلَكُ به الأموال، وآخذ المال الحرام يَجْرُؤ على أنْ يأكُلَهُ ويبني به جسمه، مع أنّه قد يتعرّض بأكله له لعذاب السُّحْت، وهو الاستئصال، أو القَشْر شيئاً فشيئاً.

ومِنْ تَمَلُّكِ المال الحرام بإذن باذله الرّشوة والرِّبَا، وأَجْرَأُ الناس على أخذ الرشوة وأكل الربا اليهود، والمنافقون في المسلمين من اليهود هم في الباطن يهود.

وقد ذمّ اللّهُ عزّ وجلّ كلّ عملهم السابق فقال تعالى:

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

أي: لقد كانوا قبل أن يدخلوا في الإسلام منافقين أصحابَ أعمال سيّئة في اليهوديّة، عنوانُها: «لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

وأبان تعالى أنّهم حين كانوا يهوداً ظاهِراً وَبَاطناً، لم يكن الذين يزعمون أنّهم ربّانيون من اليهود، والذين يُقال لهم أحبار منهم ينهونهم عن قولهم الإثم، ولا عَنْ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ.

الرَّبّانيون: همُ العبّاد عن علم.

الأحبار: هم العلماء بالدّين اليهودي، المفرد «حَبْر» بفتح الحاء وكسْرها، والفتح أغلب وأشهر.

فقال تعالى :

﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ :

أي : هلاَّ يَنْهَاهُمُ الرُّبَّانيـون والأحْبـار الـذين هم منهم في البـاطن عن قبيحتين ظـاهرتين من قبـائحهم، هما قبيحة قولهم الإثم، وقبيحـة أكلهم السُّحت، ومن قولهم الإثم إعلانُهُم الإسلام وإبطانُهم الكفر.

وأخيراً ذمَّ الله عزّ وجلّ ما يصْنَعُ هؤلاء وهؤلاء، فقال تعالى :

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ .

وانتهـى النـصّ

● ● ●

النص الرابع والثلاثون

من سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول)
«السورة (٢٧) من التنزيل المدني»
ولم ينزل بعدها من السّور إلاّ سورة «النصر»
الآيات من (٤٢ ـ ١٢٩ آخر السورة)
حول عدّة ظواهر سلوكية للمنافقين
بمناسبة أحداث غزوة تبوك وأخرى إبّانها

وتشتمل دراسة هذا النصّ على قسمين:

القسم الأول: مقدمات حول أحداث غزوة تبوك وما رافقها.

القسم الثاني: دراسة النصّ دراسة تدبّرية.
وهو مفصّل على سبعة عقود.

القسم الأول

مقدمات حول أحداث غزوة تبوك وما رافقها

قبل دراسة هذا النص الرابع والثلاثين وهو من سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول). الآيات من (٤١ ـ ١٢٩ آخر السورة) أقدّم مقدمات يستدعي تدبّر النصّ تقديمها.

إنّ هذا النصّ الموضوع للدراسة التدبريّة يشتمل على بيانات متعدّدات فضحت المنافقين، بمناسبة الأحداث التي اشتملت عليها غزوة تبوك، التي كان خروج الرسول والمؤمنين إليها في شهر رجب من سنة تسع للهجرة، وبمناسبة الأحداث التي كانت قُبَيْلَها وبَعْدَها حتّى نزول سورة (التوبة).

ومع أنّ بعض هذه الآيات يشتمل على بيانات لا تتعلّق بالمنافقين، فقد آثرت وضع النصّ كلّه للدراسة، لأنّ الحديث عن المنافقين وظواهرهم السلوكية وجزائهم، يستدعي الحديث عن المؤمنين وثوابهم عند ربّهم، وهو مااشتملت عليه الآيات الّتي لا تتعلّق بالمنافقين من هذا النصّ الذي يُعادلُ ثُلُثَي السُّورة تقريباً، أمّا ثلثها الأول فهو يتعلّق بالمشركين، والبراءة منهم ومن عهدهم، وأحكام تأمينهم وقتالهم، ومنعهم من أن يقربوا المسجد الحرام، وقتال الكافرين من أهل الكتاب، وعرض بعض كفريّاتهم، ومكايدهم ضدّ الإسلام، وصور من سلوك أحبارهم ورهبانهم، وعرض بعض تحريفات المشركين، وحثّ المؤمنين على القتال، وتلويمهم على التثاقل والتباطؤ، تمهيداً للدخول في التوجيهات والتعليقات النافعات بمناسبة أحداث غَزْوَةِ تبوك، وما رافقها، أو حدث إبّانها، أو قُبَيْلها، أوْ بُعَيْدها.

* * *

موجز غزوة تبوك

(١)

تاريخ هذه الغزوة

وقعت هذه الغزوة في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة، وهي آخر غزوة غزاها الرسول ﷺ.

وفي هذه السنة حجّ أبو بكر رضي الله عنه بالمسلمين، فقد أمَّرَهُ رسول اللَّهِ على الحجيج عامئذٍ.

وفي السنة العاشرة حجّ الرسول بالنّاس حجَّةَ الوداع. وفي يوم الاثنين من أوائل شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة توفي رسول الله ﷺ.

* * *

(٢)

السبب الداعي

تواردت الأنباء إلى الرسول ﷺ بأنّ الروم قد جمعوا الجموع لغزوه، والقضاء عليه وعلى المسلمين في المدينة، وكان من حكمة الرسول العسكريّة أن يغْزُو القوم الّذين يُعدُّونَ العُدَّة لغزوه، ويَهُمُّون بمباغتته، قبْل أنْ يغزوه.

* * *

(٣)

الأمر بالتهيؤ للخروج

وجّه الرسول ﷺ أمره للمسلمين بأنْ يتهيّؤوا لغزو الروم الذين يُعدُّون ما يلزم لغزو المسلمين، حتّى لا يجعل للرّوم مطمعاً في أن يَلجُوا بجيوشهم في جزيرة العرب، التي بدأت تجتمع قواها تحت راية الإسلام.

وكان الوقت الذي وجّه الرسول فيه أمْرَه وقْتَ عُسْرَةٍ، وحرٌّ شديد، وأرضٍ مُجْدِبة لا خضرة فيها إذا خرجوا إلى البوادي، بينما طابت الثمار في البساتين

والأشجار، والنّاسُ يُحبُّون المقام في ثمارِهم وظلالهم، ويكرهون الأسفار، فكيف يكون الحال إذا كانت الدعوة إلى غزوٍ وقتال، وهم في هذه الحال.

وكان من سياسة الرسول الحكيمة أنّه قلّما يخرج في غزوةٍ إلاّ كنّى عنها ولم يُصَرِّح بوجهته، وربّما أشْعرَ بالتوجه لجهة ما دون تصريح ولا تكون هي وِجْهَته، تعميَةً على الذين يتوجّه لغزوهم، وهذا من قواعد الحكمة في أصول السياسة الحربية، باستثناء غزوة تبوك، فإنّ الرسول بيّن يومئذٍ للمسلمين وجهته، وذلك لبعد المسافة بين المدينة وأطراف البلاد التي يحكمها الروم عند تبوك، ولشدّة الزمان، ولكثرة العدو وقوّة جيشه.

لذلك أمر الرسول المستطيعين بأنْ يتجهَّزُوا لحرب الرّوم، ويُعِدُّوا ما يستطيعون من عُدَّةٍ وعتادٍ.

وحثّ صلوات الله عليه أهل الغنىٰ واليسار على البذل والإنفاق في سبيل الله، لتجهيز هذا الجيش، الذي عُرِف بجيش العُسْرة، وقال: «من جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فله الجنّة».

وأقبل المؤمنون الصادقون يتبرعون:

ـ فقدّم عثمان بن عفان رضي الله عنه (٣٠٠) بعير عليها أحلاسها (الحِلْسُ: الكساء الذي يوضع على ظهر البعير تحت الرحل) وعليها أقتابها (القَتَب: هو ما يوضع على ظهر البعير للركوب). وقدّم أيضاً ألف دينار، جاء بها فصبّها في حِجْرِ النبيّ ﷺ، فجعلَ الرسول يقلّبها ويقول: «اللّٰهُمَّ ارْضَ عَنْ عُثْمَانَ فَإِنِّي عَنْهُ رَاضٍ» ويقول: «مَا عَلَىٰ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ».

ـ وقدّم أبو بكر الصديق رضي الله عنه كلّ ماله، وكان أربعة آلاف درهم، فقال له الرسول:

«هَلْ أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ شيئاً؟».

فقال: أَبْقَيْتُ لَهُم الله ورسوله.

ـ وقدّم عُمر بن الخطاب رضي الله عنه نصف ماله.

ـ وقدّم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه مائة أوقيّةٍ من ذهب، أي: نحو (٣ كيلوغرام من ذهب) تقريباً. فالأوقية من الرطل البغدادي تعادل «٣٤» غراماً.

ـ وقدّم عاصم بن عديّ رضي الله عنه مائة وَسْقٍ من تمر (الْوَسْقُ: مِكيالٌ سعته ستون صاعاً) أي: قدّم نحو (١٢٠) طنّاً من التمر، أو تزيد.

ـ وقدّم أحد الأنصار صاعاً من تمر هو قَدْرُ استطاعته.

ـ وأرسلت النساء المسلمات ما جُدْنَ به من حليّهنّ.

وكانت دعوة القادرين على الخروج دعوة عزيمة، لا دعوة نَدْبٍ على الاختيار.

فكان المسلمون يومئذٍ على أربعة أقسام:

القسم الأول: الذين تجهَّزوا وخرجوا مع الرسول.

القسم الثاني: الذين تشوّقوا للْخُروج، لكنّهم لم يجدوا ما يحْملهم في هذا السفر البعيد الشاق، فسألوا رسول الله أن يحْملهم فلم يجد فيما تجمّع لديه ما يحْمِلُهم عليه، فتولَّوا وأعينهم تفيض من الدّمع حزناً لأنّهم لم يجدوا ما ينفقونه، للتزوّد لهذه الرحلة، وعرفوا بالْبَكّائين، وكانوا سبعة رجال.

القسم الثالث: الذين تخلّفوا تباطؤاً وتكاسُلاً، وإيثاراً للراحة والاستمتاع بأهْلٍ وظلٍّ وثَمَر.

القسم الرابع: الذين تخلّفوا نفاقاً، فمنهم المثبطون، وهم نفر من المنافقين كانوا يقولون للناس لا تنفروا في الحرّ، وكان من المثبطين نفر يجتمعون في بيت سُوَيلم اليهودي، يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فبعث إليهم النبيّ طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه، وأمره أن يُحرّق عليهم بيت سُوَيْلم، ففعل طلحة، فاقتحم الضحّاك بْنُ خليفة وهو واحد منهم من ظهر البيت فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفلتوا. ومنهم من جاء يستأذن الرسول ﷺ بعدم الخروج قبل مسير جيش المسلمين إلى تبوك وينتحلون المعاذير فيأذن لهم. ومنهم من تخلّف دون استئذان، فلمّا عاد الرسول ﷺ إلى المدينة أقبلوا يعتذرون عن تخلّفهم، ويحلفون

الأيمان الكاذبة، ويُلَفِّقُون المعاذير، فيُعْرِض الرسول عنهم، ويترك حسابهم لله عزّ وجل.

ومن هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول فقد تخلّف وتخلّف معه كثير من المنافقين، وقال بعضهم لبعض: يغزو محمد بني الأصفر (أي: الروم) والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرّنين في الحبال.

وكان قد خرج عبد الله بن أبي ابن سلول وعَسْكَرَ مع الذين معه دون معسكر الرسول، عنْدَ جَبَلِ ذُبَاب، أمّا معسكر الرسول فقد كان عند ثنيّة الوداع، خارج بيوت المدينة، فلما سار رسول الله تخلّف بن سلول ومعه جمع من المنافقين وأهل الرّيب، وهلك ابن سلول بعد رجوع الرسول من غزوة تبوك، في ذي القعدة من سنة تسع للهجرة[١].

وقد تعرّضت سورة (التوبة) لبيانات تتعلق بهؤلاء الأقسام الأربعة، ونحاول اكتشاف ذلك لدى تدبّر النصوص إن شاء الله.

* * *

(٤)

خروج الجيش بقيادة الرسول وذكر بعض ما حصل في الطريق

ولمّا رأى الرسول ﷺ أن المسلمين تجهّزوا للخروج معه ابتغاء غزو الروم من أطراف مواقع سلطانهم في تبوك، خرج بالمسلمين يوم الخميس[٢]، وقد بلَغُوا ثلاثين ألفاً ويزيدون، يتقدّمهم قُرابة عشرة آلاف فارس، وعسكر بالجيش عنْد ثنيّة الوداع، واستخلف على المدينة محمّد بن مسلمة الأنصاري[٣]، واستخلف على أهله عليّ بن

---

(١) قال ابن حجر في شرح الحديث (٤٦٧٠) من الفتح: ذكر الواقدي ثم الحاكم في «الإكليل» أنّ عبد الله بن أبيّ بن سلول مات بعد منصرف المسلمين من تبوك، وذلك في ذي القعدة سنة تسع، وكانت مدّة مرضه عشرين يوماً ابتدأت من ليالٍ بقيت من شوال.

(٢) وكان الرسول ﷺ يحبّ أن يخرج يوم الخميس.

(٣) وقيل: استخلف سباع بن عرفطة الغفاري.

أبي طالب، فقال المنافقون: ما خلّفه في أهله إلّا استثقالاً له وتخفُّفاً مِنْه، فبلغ ذلك عليّاً رضي الله عنه فأخذ سلاحه وخرج حتى أتىٰ رسولَ الله ﷺ وهو نَازِلٌ بِالْجُرْفِ (موضع على ثلاثة أميال من المدينة ـ نحو ٥٥٤٠م) فقال: يا نبيَّ الله، زعم المنافقون أنك إنّما خلّفْتني أنّكَ استثقَلْتني وتخفُّفْتَ منّي.

فقال رسول الله ﷺ: «كذَبُوا، ولكِنّي خلّفتُكَ لما تركْتُ ورائي، فارْجِع فاخلُفْني في أهلي وأهلك، أفلا ترضَىٰ يا عليُّ أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنّه لا نبيَّ بَعْدِي؟».

فرجع عليٌّ رضي الله عنه إلى المدينة، ومضى رسول الله ﷺ إلى وجهته، وأعطى اللّواء الأعظم الصدّيق أبا بكر رضي الله عنه، وأعطى الزُّبَيْرَ بن العوامّ راية المهاجرين، وأعطىٰ أُسَيْدَ بن حُضَيْر راية الأوس، وأعطىٰ الْحُبَابَ بن المنذر راية الخزرج.

وسار الجيش في جَهْدٍ شديد، فكان الرجلان والثلاثة يعتقبون على بعير واحد، وتعرّضت أحمالهم من المؤن والأزواد إلى اقتراب النفاد، فجمع الرسول ما فضل من الأزواد فدعا بالبركة، ثم قال: «خذوا في أوعيتكم» فأخذوا حتى ما تركوا في العسكر وعاءً إلّا ملؤوها، وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ:

«أشهد أنْ لا إلّه إلّا الله وأنّي رسول الله، لا يلقىٰ اللّهَ بها عبْدٌ غير شاكٍّ فيُحْجَبَ عن الجنّة».

وتعرّضُوا لنفاد ما معهم من الماء، حتى عطشوا عطشاً شديداً، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنَّ الله قد عوَّدك في الدعاء خيراً، فادْعُ الله لنا، فرفع يديه نحو السماء، فلم يُنْزلهما حتى أغاثهم الله، فأمطرت السماء، فشربوا ومَلَؤُوا أوعية الماء التي لديهم، وكان هذا حين مرَّ الرسول ومعه الجيش بالحجر، مساكن ثمود، قوم النبيِّ صالح عليه السلام، فنزلها، وأخذ الناس يستقون من بئرها، فقال لهم الرسول لا تشربوا من مائها شيْئاً، ولا تتوضّؤوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئاً، وأصبح الناس ولا ماء معهم.

قال محمود بن لبيد من بني عبد الأشهل: أخبرني رجالٌ من قومي عن رجلٍ من

المنافقين معروف بالنفاق، كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلمّا كان من أمر الناس بالحجر ما كان، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله السحابة، فأمطرت حتى ارتوى الناس، قالوا: أقبلنا عليه نقول: ويْحَكَ، هل بعد هذا شيء؟! قال: سحابةٌ مارّة، ثم ارتحل الرسول بالناس حتى نزل عند البئر التي كانت تشرب منها الناقة.

وسار الرسول ومن معه، حتّىٰ إذا كان ببعض الطريق ضلّت ناقته، فخرج بعض أصحابه في طلبها، وكان عند رسول الله عُمَارةُ بن حزْم (عَقَبِيٌّ بَدْري) فسمع رسول الله ﷺ يقول: إنَّ رجُلاً قال: هذا محمَّدٌ يُخبركُمْ أنه نبيٌّ، ويَزْعُمُ أنَّهُ يخبركُمْ بأمْر السماء، وهو لا يدري أين ناقته، وإنّي واللّهِ ما أعلم إلاَّ ما علّمني الله، وقد دلّني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شِعْب كذا وكذا، قد حَبَسْتْها شجَرَةٌ بزمامها، فانْطَلِقُوا حتّىٰ تأتُوني بها، فذهبوا، فجاءُوا بها.

فرجع عُمَارَةُ بن حزم إلى رحله، فقال: والله لعجَبٌ من شيء حدّثناه رسول الله ﷺ آنفاً، عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا، كما سمع من الرسول.

فقال رجُلٌ ممّن كان في رحْل عُمَارة، ولم يكن عند رسول الله ﷺ: زَيْدُ بْنُ اللُّصَيْت (وَيُقَالُ: ابنُ لُصَيْب) واللّهِ قال هذه المقالة قبل أن تأتي.

فأقْبَل عُمَارَةُ على زَيْدٍ يَجَأُ فِي عُنُقِه (أي: يدفعُه بجُمْع كَفّه) ويقول: إليَّ عبادَ الله، إنَّ في رحْلِي لداهيَةً وما أشعر، أُخْرُج أيْ عَدُوَّ اللّهِ من رحْلي فلا تَصْحَبْني.

زيدُ بن اللُّصَيْت: كان من منافقي يهود بني قينقاع.

وكان رهط من المنافقين منهم «وديعة بن ثابت» يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحْسَبُونَ جِلادَ بني الأصفر (أي: الروم) كقتال العرب بعضهم بعضاً، والله لكأنّا بكُم غداً مُقَرَّنين في الحبال.

وروي أن رسول الله ﷺ قال لعمّار بن ياسر:

«أدْرِكِ الْقَوْمَ فإنَّهُمْ قَدِ احْتَرَقُوا، فَسَلْهُمْ عَمَّا قَالُوا، فإنْ أنْكَرُوا فَقُلْ: بلى، قُلْتُمْ كَذا وَكذا».

قد احترقوا: أي: عرّضوا أنفسهم للهلاك بسبب ما كانوا يخوضون فيه من إرجاف.

فانطلق إليهم عمّار بن ياسر، فقال لهم ذلك، فأتَوْا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، وقال وديعة بن ثابت: يا رسول الله، إنّما كُنّا نخوضُ ونَلْعَبُ، أي: نقول على سبيل الْمُزاح لا الجدّ.

* * *

(٥)
وصول الرسول بجيشه إلى تبوك

بلغ الرُّومَ مَسِيرُ جَيْشِ محمّد إليهم، فرأت قيادتُهم الانسحاب بجموعهم من جهة تبوك إلى بلاد الشام ليتحصّنُوا بحُصُونها، وحقق الله لرسوله بذلك التمكين والرّهبة داخل جزيرة العرب، وأقام الرسول بالجيش عند تبوك مُشْعِراً أمراء المواقع الحدودية بأنه مُتهيِّىءٌ لقتال من شاء القتال منهم، فرهبوه، وتوافَدُوا إليه طالبين تأمينهم وتأمين حدودهم، مقابل جزية يدفعونها، فكتب لهم الرسول كتباً بذلك، وكانت إقامته بتبوك بضعة عشر يوماً.

* * *

(٦)
كُتُبُ الصُّلْح

أمير أيلة (بلْدَةٌ على خليج العقبة):

أَتَىٰ صَاحِبُ أَيْلَةَ «يُحَنَّةُ بْنُ رؤبَة» فسأل رسول الله الصُّلْح، مقابل جزية يدفعها إلى المسلمين، فقبل الرسول ذلك منه، وكتب له كتاب الصُّلْحِ التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هٰذِهِ أَمَنَةٌ مِنَ اللّٰهِ ومُحَمّد النَّبِيّ رسول الله، لِيُحَنَّة بْنِ رؤبة، وأهْلِ أَيْلَة، سُفُنِهِمْ وسيّارتهم في البرّ والبحْرِ، لَهُمْ ذِمّةُ الله، وذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النّبيّ، ومَنْ كانَ معهم من أهل الشام، وأهْلِ الْيَمَن، وأهْلِ الْبَحْرِ، فَمَنْ أَحْدَثَ مِنْهُمْ حَدَثاً، فإنّه لَا يَحُولُ مالُهُ دُونَ نَفْسِهِ، وإنَّهُ طَيِّبٌ لِمَنْ أخذَهُ مِنَ النَّاسِ، وإنَّهُ لَا يَحِلُّ أَنْ يُمْنَعُوا مَاءً يَرِدُونَهُ، ولَا طَرِيقاً يُرِيدُونَهُ، مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ».

وأهدى صاحبُ أيلة النبيّ ﷺ بغلةً بيضاء، وكَساه بُرْداً، وأعطاه النبيّ ﷺ بُـرْدَهُ مع كتاب الصُلْح.

أهل جَرْبَاءَ وَأذْرُح:

وأتى أهْـلُ جَرْبَـاءَ وأذْرُح⁽¹⁾ إلى النبي ﷺ، وطلبوا منه أنْ يصالحهم، مقابل جزية يدفعونها، فقبل الرسول ذلك منهم، وكتب لهم الكتاب التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم: مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رسُولِ اللَّهِ لأهْـلِ جَرْبَـاءَ وأذْرُح، إنَّهُمْ آمِنُونَ بأمَانِ اللَّهِ وَأمَانِ مُحَمَّدٍ، وإنَّ عَلَيْهِمْ مِائَةَ دِينَارٍ في كُـلِّ رَجَبٍ، ومِائَـةَ أُوقِيَّةٍ طَيِّبَـةٍ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ كَفِيلٌ بـالنُّصْـحِ والإِحْسَـانِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، وَمَنْ لَجَـأَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

أهلُ دُومَةَ الجندل، وملكها «أُكَيْدِرُ بْنُ عبد المَلِك» من كِنْدَه، وكان نصرانياً:

بَقي على الحدود إلى جهة الشام، أهلُ دُومَة الجندل، لم يفدوا إلى الرسول ﷺ طالبين الأمان والصلح.

فبعث الـرسول خـالـد بن الـوليـد إلى مَلِكهم «أُكَيْـدِر بْن عبـد الملك» وقـال لـه الرسول ﷺ: إِنَّكَ سَتَجِدُهُ يَصِيدُ الْبَقَر.

فخـرج خالـدٌ أميراً على سريّةٍ من خمسمـائة فـارس، حتَّى إذَا كـان من حِصْنِـه بِمَنْظَرِ الْعَيْنِ، وفي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ صَائِفَةٍ، وهُـو على سَطْحٍ لـه ومعه امـرأته، فبـاتت بَقَرُ الوحش تَحُكُّ بقُرونها بابَ القصر، فقالت له امرأته: هَلْ رَأَيْتَ مِثْلَ هذا قطّ؟!

قال: لَا والله. قالَتْ: فَمَنْ يَتْرُكُ هٰذِه؟ قال: لا أحد، فنزل فأمر بفرسه، فأُسْـرِجَ له، وركِبَ معه نفرٌ من أهْلِ بيتـه فيهم أخٌ له يُقَـالُ له حَسَّـان، فركب، وخـرجوا معـه لمطاردة البقر، فلمَّا خرجوا تلَقَّتْهُمْ خيلُ رسول الله ﷺ.

فقَبضَ الفرسان علىٰ أُكَيْـدِر، مَلِك دُومَة الجنـدل، وقاتـل أخوه حسَّـان، فقتلوه، وكـان على أُكَيْدِر قَبَـاءٌ من دِيباج مُـزَيَّنٌ بالـذهب، فاسْتَلَبَـهُ خالـدٌ منْـهُ، وبعث بـه إلى

---

(١) جَرْباءُ وأذْرُح: قريتان متقاربتان.

رسـول الله ﷺ قبل أنْ يقْـدَمَ بِأُكَيْـدر عليه، فلمَّـا وُضِعَ القبـاءُ بين يَدَي الـرسول جعـل الصحابة يلْمَسُونه بأيديهم ويتعجّبون منه، فقال الرسول لهم:

«أتَعْجَبُونَ مِنْ هَذَا؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَـدِهِ لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَـاذٍ فِي الجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا».

وقَدِمَ خَالِدُ بْنُ الوليد بِأُكَيْدِرٍ على رسول الله ﷺ، فحَقَنَ الرَّسُول دَمَـه، وصالَحَـهُ على الجزية، ثمّ خلَّىٰ سبيله، فرجع إلى بلده وقومه.

وحقّق الله لرسوله النصر، وأحسَّتْ قبـائلُ العـرب أنّ الرسـول مَلَكَ أمْرَ الجـزيرة العربية، وأنّ الإسلام صار قوّة مرهوبة الجانب، من قِبَلِ دولة الرّوم، واستشار الرسول أصحابه في ملاحقة جموع الرّوم وراء تبوك، فأشار عليه عمـر بالاكتفـاء في هذه السنـة بما حصل، فاستحسن رأيه وعمل به.

* * *

(٧)
رحلة العودة إلى المدينة

بعد أن أقام الرسول ﷺ ومعه الجيش بتبوك بضع عشرة ليلة، آذَن بالرحيل عائداً إلى المدينة.

حادثة الوشـل:

يوجَدُ في طريق العودة وادٍ يقال له: وادِي الْمُشَقَّق، فيه وشَلٌ (أي: نبع ماء قليل يتحلّب متقاطراً ويتجمّـع) ما يُرْوِي الراكب أو الراكبين أو الثلاثة.

فقال الرسول ﷺ: «من سبقنا إلى ذلـك الوادي، أو إلى ذلـك الماء فـلا يستقِيَنَّ مِنْهُ حتَّىٰ نأْتِيَه».

فسبقه إليه نفرٌ من المنافقين، فـاسْتَقَوْا مـا فيه، فلمَّـا أتاه وقف عنـده فلم يَرَ فيـه شيئاً، فقال مستنكراً:

«مَنْ سَبَقَنَا إلَىٰ هَذَا الْمَاءِ؟؟»

فقيل له: يا رسولَ الله، فُلانٌ وفُلانٌ، فقال:

«أَوَلَمْ أَنْهَهُمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنْهُ شيئاً حَتَّىٰ آتِيَهُ؟!»

وغضب من معصيتهم ودعا عليهم، ثمّ نزل عن راحلته، فوضع يدَهُ تحت الوشَل حيث يتقاطر منه الماء، حتّى إذا تجمّع فيها مقدارٌ ما منه نَضَحَ مَكان تقاطر الماء بما تجمّع في يده منه، ومَسَحَهُ بيده، ودعا بما شاء الله أن يدعو به، فتفجّر منه الماء تفجُّراً، وقال من سمعه: إنّ لَهُ حِسّاً كَحِسِّ الصّواعِقِ، فشرب الناس، واسْتَقَوْا مِنْه حاجتهم.

• • •

حادثة تآمر بعض المنافقين لمزاحمة الرسول

في الطريق ابتغاء إلقائه عن راحلته في مُنْحدر:

روى البيهقي عن حذيفة بن اليمان قال: كنْتُ آخذاً بخطام ناقة رسول الله، وعمّار يسُوقُ الناقة، حتّىٰ إذا كُنّا بالْعَقَبة (العقبة: مرقًى صعْبٌ من الجبال) إذا باثْنَيْ عَشَرَ رجُلاً قد اعترضوه فيها، قال: فأنْبَهْتُ رسُول الله ﷺ، فصرخ فيهم، فولَّوْا مُدْبِرينَ، فقال رسولُ الله: «هلْ عرَفْتُمُ الْقوْمَ؟» قلنا: لا يا رسول الله، قد كانُوا مُتَلَثِّمين قال: «هَؤُلاءِ الْمُنافِقُونَ يَوْمَ الْقِيامَة، وهل تَدْرُونَ ما أَرادُوا؟» قُلْنا: لا، قال: «أَرادُوا أَنْ يَزْحَمُوا رَسُولَ اللّهِ فِي الْعَقَبَةِ فَيُلْقُوهُ منها» قُلْنا: أو لا تبعثُ إلى عشائرهم حتّىٰ يَبْعثَ إِلَيْكَ كُلُّ قَوْمٍ بِرأسِ صاحبهم؟ قال: «لا، أَكْرَهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ أَنَّ مُحَمّداً قاتَل بِقَوْمِهِ، حتّىٰ إِذا أَظْهَرَهُ الله بهم أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ يَقْتُلُهُمْ» ودعا عليهم.

وروى الإمام أحمد في مسنده نحو هذا الذي رواه البيهقي، وزادَ أنّ عمّاراً صار يضرب وُجُوه رواحِلِهِمْ يُنَحّيها عن رسول الله، حتّىٰ قال: «قَدْ. قَدْ» أي: كفى كفى.

وهم الذين عناهم الله بقوله في سورة (التوبة):

﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ... ﴿٧٤﴾ ﴾.

كماسيأتي إن شاء الله لدىٰ تدبُّر النَّصّ.

• • •

قصّة مَسْجِد الضّرار:

كان في المدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجُلٌ من الخزرج يقال له أبو عامر

الراهب، واسمه «عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان» أحدُ بني ضبيعة، وكان قد تنصّر في الجاهلية، وقرأ علْم أهل الكتاب، وكانت له عبادةٌ في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلمّا قدم الرسول مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمةٌ عالية، وأظهرهم الله يوم بدر على مشركي مكّة، بارز أبو عامر الراهب بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فارّاً إلى كُفّارِ مكة من مشركي قريش، يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ والمؤمنين به، وخرج معه خمسون غلاماً أو دون ذلك، وكان الرسول قد دعاه إلى الله وقرأ عليه من القرآن، فأبى أنْ يُسْلِمَ وتمرّد، فدعا الرسول عليه أن يموت بعيداً طريداً، فنالته دعوة الرسول ﷺ.

كان يُطلقُ عليه في الجاهلية لقب «الراهب» لعباداته على دين النصرانية، فلمّا كان منه ما كان من عداء للإسلام والرسول والمؤمنين أطلق الرسول عليه لقب «الفاسق» فكان المسلمون يلقّبونه بالفاسق.

وكان يَعِدُ قُريشاً أنْ لو قَدْ لَقِي قومَهُ لم يختلف عليه منهم رجلان، فلمّا كانت غزوة أُحُد، قدم لحَرْب المسلمين مع مشركي قريش، وكان مُقدَّماً بين الأحابيش وعُبْدان أهل مَكّة، فدعا إلى حَفْرِ حَفائرَ بين الصَّفَّيْن، لِيَسْقُط فيها المسلمون، وهم لا يعلمون بوجودها، وسقط الرسول ﷺ في إحداها.

وحين الْتَقَىٰ المسلمون بالكافرين للقتال كان أوّل من لقي المسلمين أبو عامر الفاسق في الأحابيش وعُبْدان أهل مكّة، فنادىٰ قومه من الأنصار يستميلهم إلى نُصْرَته ومُوافقته، وقال لهم: أنا أبو عامر، فلمّا عرفوه قالوا له: لا أنْعَمَ اللَّهُ بِكَ عَيْناً يا فاسِق، يا عَدُوّ الله، ونالوا مِنْهُ وسَبُّوه، فرَجع وهُوَ يقولُ: والله لقدْ أصابَ قومي بعدي شرّ.

وعاد إلى مكة بعد أحد، ورأى أنّ أمر الرسول آخذ في الارتفاع والظهور، فرأى أن يذهب إلى هرقل مَلِك الرّوم، يستنصره على محمّد وصحبه، فوعَدَهُ ومَنّاهُ، وأقام عِنْدَه، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار، من أهل النفاق والرِّيَب يَعِدُهم ويمنّيهِمْ أنه سيَقْدَمُ بجيش يقاتِلُ به الرّسول، ويَغْلِبُه ويردُّه عمّا هو فيه، وأمَرَهُمْ أنْ يَتّخِذُوا له مَعْقِلاً يَقْدَمُ عليهم فيه من يَقْدَمُ من عِنْدِهِ لإيصالِ كتبه، ويكون مَرْصَداً لَهُ إذا قَدِمَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ.

فشَرَع المتآمِرُونَ مَعَهُ فِي بناءِ مسجِدٍ مجاورٍ لِمَسْجِدِ قُباء، فَبَنَوْهُ وأَحْكَمُوهُ قَبْلَ خُرُوجِ الرسول إِلَىٰ تَبُوك، وجاءوا إلى الرسول فسألوه أن يأتي إليهم فيُصَلِّيَ في مَسْجِدِهم، لتكون صلاة الرسول فيه حجّةً لهم على أنّه قَدْ بُنِيَ بإِذْنِهِ ومُبارَكته، وذكروا أنّهم إنّما بَنَوْهُ للضعفاء منهم وأهْلِ العلّةِ والحاجَةِ في اللَّيلة الْمَطيرة، فعصَمَهُ الله من الصلاة فيه، وقال لهم: إنّي عَلَىٰ جَنَاحِ سَفَرٍ، ولَوْ قَدْ قَدِمْنَا إِنْ شاء الله لأتيناكم، فصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيه.

ولمّا قفل الرسول ﷺ راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يَبْقَ بينه وبين المدينة إلّا يومٌ أو بعض يوم، نزل عليه جبريلُ عليه السلام بخبر مَسْجِدِ الضِّرار، وما أُعِدَّ له هذا المسجد، فدعا ﷺ مَالِكَ بْنَ الدُّخْشُم، أخا بني سالم بن عوف، ومَعْنَ بْنَ عَدِيّ، أَوْ أخاه عاصم بْنَ عديٍّ، أخا بني العجلان، فقال لهما:

«انْطَلِقَا إِلَىٰ هٰذَا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ، فاهْدِمَاهُ وَحَرِّقَاه».

فخرجا سَرِيعَيْن، حتّىٰ أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهْطُ مَالِكِ بْنِ الدُّخْشُمْ، فقال مالكٌ لمَعْنٍ: أَنْظِرْنِي حَتَّىٰ أُخْرِجَ إِلَيْكَ بنارٍ مِن أهلي، فدخل إلى أهله، فأخذَ سَعَفاً من النَّخْلِ، فأشْعَلَ فيه ناراً، وخَرجا يَشْتَدَّان، حتّىٰ دَخَلا الْمَسْجِدَ، وفيه أهلُهُ فحرَّقاهُ وَهَدَمَاه، وتفرق بُنَاتُهُ عَنْهُ.

وذكر ابن إسحاق كما جاء في السيرة النبوية لابن هشام أسماء المنافقين الذين بنوا مسجد الضرار، وأنّهم اثنا عشر رجُلاً، وهم:

(١) خِذَامُ بن خالد، من بني عُبَيْدِ بْنِ زَيْد، أحَدِ بني عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، ومِنْ دارِه أُخْرِجَ مَسْجِدُ الشّقاق.

(٢) ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِب أو ثَعْلَبَةَ بْنُ أبي حاطب، وهو الذي رُوِي أنّه منع الزكاة لمّا اغْتَنَىٰ، وتركَ الجُمُعةَ والجماعة، وهو غير ثَعْلَبة بن حاطب الأنصاري مِنْ بني أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، فهذا من أهل بدر، وقد ذكر ابْنُ الكلبي أنّه مات بأُحُدٍ، ونَبَّهَ على الفرق بين الشّخصين الحافظ ابن حجر في الإصابة (ج ١ ص ١٩٨).

(٣) مُعَتِّبُ بْنُ قُشَيْر، من بني ضبيعة بن زيد.

(٤) أبو حبيبة بْنُ الأَزْعر، من بني ضبيعة بن زيد أيضاً.

(٥) عَبَّادُ بْنُ حُنَيْف، أخو سَهْلِ بْنِ حُنَيْف، من بني عمْرِو بْنِ عَوْف.

(٦) جَارِيَةُ بْنُ عَامر.

(٧) مُجَمِّعُ بْنُ جارية بْنِ عَامر.

(٨) زَيْدُ بنُ جارية بْنِ عامر.

(٩) نَبْتَلُ بْنُ الحارث، من بني ضُبَيْعة.

(١٠) بَحْزَجُ، من بني ضُبَيْعة.

(١١) بِجَادُ بْنُ عثمان، من بني ضُبَيْعَة.

(١٢) وديعةُ بْنُ ثابت، من بني أميَّة بْنِ زَيْد، رهط أبي لُبَابَة بن عَبْدِ المنذر.

وقد نزل بشأن مسجد الضرار الآيتان (١٠٧ ــ ١٠٨) من سورة (التوبة) كما سيأتي بيان ذلك لدى تدبُّر النص إن شاء الله.

* * *

(٨)

الوصول إلى المدينة

وصل الرسول والمسلمون معه مظفَّرين منصورين، وتلقَّاهم النساء والصبيان والولائد عند ثنيَّة الوداع مبتهجين فرحين بنصر الله، ودخل المدينة، وبدأ بالمسجد، فصلَّى ركعتين، كعادته إذا قدِم من سفر، ثم جَلَسَ للنَّاس، وكانَ لا يَقْدَمُ من سَفَرٍ إلَّا نهاراً في الضحىٰ.

● ● ●

المخلَّفون من المنافقين:

فجاءه المتخلِّفون عنه في هذه الغزوة، وأخذوا يعتذرون إليه، ويحلِفُونَ لَهُ، وكانُوا بضْعةً وثَمانين رجُلاً، فيقْبَلُ منْهُمْ رسُولُ اللَّهِ علانيتَهُم، ويَسْتَغْفِرُ لَهُمْ، ويَكِلُ سَرَائِرَهُمْ إلىٰ اللَّهِ تعالى.

● ● ●

الْمُخَلَّفُونَ الصادقونَ المؤمنون الثلاثة الذين جاءُوا إلى الرسـول وأعْلَنُوا أنهم لـم يكن لهم عـذر:

وكـانَ قد تخلّف عن الـرسول في هـذه الغزوة ثـلاثة مؤمنـون صادقـون، قـدمـوا للسلام على الرسول ﷺ، فسألهم عن سبب تخلُّفهم، فاعترفوا بأنّهم لم يكن لهم عُذْرٌ يجيز لهم أن يتخلّفُوا بسببـه، إلاّ أنّهم تباطَـوُوا وآثَرُوا الـرّاحَة، والبقـاء في أهلٍ وظـلٍّ وثمرٍ وماء، وقال الرسول بشأنِ كُلِّ واحدٍ منهم: «أمَّا هذا فقـد صدَق، فَقُمْ حتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فيك» وهم:

(١) كَعْبُ بْنُ مَالِك، لم يتخلّف عن غزاة غزاها الرسول قط إلاّ في غَزاة تبوك.

(٢) مُرَارَةُ بن الربيع العامري، ممّن شهد بدراً.

(٣) هِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ الواقفي، ممّن شهد بدراً أيضاً.

وأمر الرسـول بمقاطعـة هؤلاء الثلاثـة، ونهى المسلمين عن مكالمتهم، من دون سائر الذين تخلّفوا، ولو كانوا كاذبين في معاذيرهم.

واشتـدَّ عليهم الأمـر، حتّى ضَـاقت عليهم الأرض بمـا رَحُبَتْ، ووصـل خبـر مقاطعتهم إلى مَلِكِ غسّان، فكتب كتاباً لكَعْبِ بْنِ مَالِكِ، وبعثه إليه مع تاجـر نَبَطِيّ من أنباط الشّام[1]، من الذين قدمـوا بطعـام يبيعونـه في المدينـة، وجعل يقـول في سوق المدينة: مَنْ يدُلُّ على كَعْب بْنِ مالِك؟ قال كعبُ بن مـالك: فـطفق الناس يشيـرون لَهُ إليّ، حتى جاء فدفع إليّ كتاباً من ملك غسّان، وكنْتُ كاتباً، فإذا فيه:

«أما بعد: فقـد بلَغَنا أنّ صـاحبَكَ قـد جفاك، وإنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْكَ في دارِ هَـوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَة، فالْحَقْ بِنَا نُواسِك».

قال مالك: فقلْتُ حينَ قرأتُه، وهذا أيضاً من البلاء، فتيمَّمْتُ بِهِ التَّنُور، فسَجَّرْتُهُ به.

ومضت أربعون ليلة، فوجّه الرسول لهم أمراً بأن يعتزلوا نساءهم ولا يَقْرَبُوهُنَّ.

(١) الأنباط: شعْبٌ ساميٌّ كـانت لهم دولة في شمـاليّ شبه الجـزيرة العـربية، وعـاصمتهم «سَلْع»، وتُعْرَفُ الآن بـ «الْبَتْراء».

ومرّتْ عشر ليالٍ أخرى على هذه المقاطعة التأديبيّة الجزائية، فأنزل الله عزّ وجلّ قرآناً بتوبته عليهم، فأرسل الرسول إليهم من يبشّرهم بذلك، ففرحوا بتوبة الله عليهم فرحاً لم يفرحوا مثله في حياتهم قطّ، وقال الرسول ﷺ لكعب بن مالك:

«أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ».

قال كعب: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ الله أَمْ مِنْ عِنْدِ الله؟.

قال: «لاَ، بَلْ مِنْ عِنْدِ الله».

نزلت بتوبة الله عليهم الآيتان (١١٨ ـ ١١٩) من سورة (التوبة) كما سيأتي بيان ذلك لدى تدبُّر النصّ إن شاء الله.

● ● ●

المخلّفون من المؤمنين الذين أوثقوا أنفسهم

في سواري المسجد دون أن يأتوا إلى الرسول:

قال ابن عباس وآخرون في قول الله عزّ وجل في سورة (التوبة):

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾:

نزلَ في أبي لُبابة وجماعةٍ من أصحابه (قيل: هم معه ستة، وقيل: ثمانية وقيل: عشرة) تخلّفوا عن رسول الله في غَزْوةِ تبوك، فلمّا رجع رسول الله ﷺ من غزوته رَبَطُوا أنفسهم بسَواري المسجد، وحَلَفُوا لا يَحُلُّهُمْ من رباطهم إلاّ رسول الله ﷺ، فلمّا نزلت الآية أطلقهم الرسول وعفا عنهم.

ورُوِيَ أنهم جاءوا بأموالهم إلى رسول الله وقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا، فتصدّق بها عنّا، واستغفر لنا، فقال: «مَا أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ شيئاً» فأنزل الله عزّ وجلّ قوله:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

فأخذ رسول الله ﷺ ثُلُثَ أموالهم وترك لهم الباقي.

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحّاك وآخرون، نزلت توبة الذين ربطوا أنفسهم بسواري المسجد (أبي لُبَابَةَ وأصحابه) قبل أن تنزل توبة الله على الثلاثة الذين خُلِّفوا (كعْب بن مالك، ومُرَارة بن الربيع، وهلال بن أميّة).

* * *

(٩)

خاتمة

هذه خلاصة أحداث غزوة تبوك، وسيأتي تفصيلاتٌ وشروحٌ وبياناتُ أخرى إنْ شاء الله لدى تدبُّر النصّ من سورة (التوبة) والله هو المستعان، ومنه التوفيق والفتْحُ والتسديد.

● ● ●

القسم الثاني

دراسة النصّ دراسة تدبّرية

وفيه سبعة عقود

يلاحظ في آيات هذا النصّ أنها سارت وفق أسلوب ازدواجيّة البيان نشراً وطيّاً بين المنافقين على اختلاف صفاتهم وظواهرهم السلوكية، ودركاتهم في النفاق، وبين المؤمنين على اختلاف صفاتهم ودرجاتهم في الإيمان، كحبلين مختلفين أبيض مختلف الصفات ومتدرج الألوان، وأسود مختلف الصفات ومندرج الألوان، وقد فتل كل منهما على الآخر، فظهر في السطح المنظور مقطع من الحبل الأبيض، وبعده مقطع من الحبل الأسود، وهكذا إلى النهاية.

العِقْدُ الأوّل: استعراض أكبر وقائع المنافقين وغيرهم، إبّان أحداث غزوة تبوك وتجربتها، مع التعقيبات والتوجيهات الرّبّانية، وبعض المقدمات.

العِقْدُ الثاني: بيان أقسام مجتمع المسلمين يومئذٍ بعد استعراض أهم الوقائع، مع التعقيبات والتوجيهات الرّبانية.

العقد الثالث: قصّة مسجد الضرار مع التعقيبات والتوجيهات الرّبانية.

العِقْدُ الرابع: بيانات وتوجيهات تتعلّق بقضايا وردت في العقود السابقة.

العِقْدُ الخامِسُ: تعليمات وتوجيهات حول الخروج للقتال في سبيل الله.

العقد السادس: بيان موقف المنافقين تجاه ما كان ينزل من القرآن تباعاً في مقابل موقف المؤمنين.

العِقْدُ السّابع: آخر توجيه من الله للناس بالنسبة إلى الرسول محمّد ﷺ، ومعه وصية من الله للرسول.

الْعِقدُ الأوَّلُ

هذا استعراض أكبر وقائع المنافقين وغيرهم من المسلمين إبّان أحداث غزوة تبوك مع التعقيبات والتوجيهات الرّبّانية وبعض المقدمات.

* قول الله عزّ وجل خطاباً للذين آمَنُوا:

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

سبق هذه الآية تَوْجِيهُ اللّوم للّذين آمنوا بسبب تثاقلهم إلى الأرض وعَدَمِ نهوضهم بهمّة ونشاط، إذا أُمِرُوا أن ينفروا في سبيل الله، وتَبِع هذا اللّوم تهديدُهم بعذابٍ أليم إنْ لم ينْفِرُوا استجابة لأمر الرسول لهم بأنْ يَنْفِرُوا مقاتلين في سبيل الله، وتهديدُهم باستبدال قومٍ غيرهم لنصرة رسوله ولنصرة دينه، يقاتلون في سبيله غير متثاقلين ولا متباطئين ولاَ مُتَكاسِلِين.

وجاءت هذه الآيةُ تَتَضَمَّنُ أمراً مُباشراً من الله لهم بأن ينْفِرُوا على أيَّةِ حالَةٍ صالِحَةٍ لقتالِ العدوّ خِفَافاً وثِقالاً.

والخطاب موجّه لغير ذوي الأعذار التي تعفي أصحابها من القتال في سبيل الله، بمقتضى بياناتٍ أخرى، جاءت في القرآن، كالمريض والأعمى والأعرج وأشباههم.

وتتضمَّنُ أيضاً أمراً مباشراً من الله عزّ وجل لهم بأن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، بمختلف أنواع الجهاد.

الأَمْرُ بالنَّفْر أمْرٌ بالخروج من مكان الإقامة، والضرب في الأرض بِسُرْعةٍ لتأديَةِ عَمَلٍ يُبَيِّنُه الأمرُ بالنَّفْر، وهو في الدين الجهادُ في سبيل الله على اختلاف أنواعه وأشكاله وصوره، ومنه جهاد الدعوة إلى دين الله، وجهادُ القتال في سبيل الله.

يقال لغة: نَفَرَ يَنْفِرُ نَفْراً ونُفُوراً إذا أَسْرَعَ مُفارقاً مكان إقامَتِه، ضارباً في الأرض مُرْتحلاً مسافراً.

ومنه يُقَال: نَفَرَ الْحُجّاج من مِنًى، إذا دفَعُوا مُتوجِّهين لمكّة، والنَّفْرُ تُصاحبه عادَةً الهِمَّة وسُرْعَةُ الحركة والنشاط.

والنَّفْرُ لتأديَةِ وظيفةٍ دينيَّة يكونُ بحَسَب هذه الوظيفَةِ، فإنْ كانت هذه الوظيفةُ لا تحتاج أن يكونَ النافر ثقيلاً بعتادٍ وأسلحةٍ ومؤونَة، نفَرَ خَفِيفاً، كأن تكون وظيفتُه المأمورُ بأن يقوم بها، دعوةً إلى دين الله، أو استطلاعاً لأخبار العدوّ، أو مناوشةً خفيفةً تعتمد على الكرّ والفرّ. وإنْ كانت هذه الوظيفة تحتاجُ أن يكون النافر ثقيلاً بعتادٍ وأسلحة ومؤونةٍ ونحو ذلك، نَفَرَ ثقيلاً، أي: مستصحباً هذه الأثقال.

لذلك جاء النص يخاطب اللّهُ فيه الذين آمنوا بقوله:

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾:

أي: إذا أُمِرْتُمْ بأَنْ تَنْفِرُوا خِفَافاً فانفِرُوا خفافاً، وإذا أُمِرتُم بأَنْ تَنْفِرُوا ثِقالاً فانفِروا ثِقالاً، فالتكليف يَتْبَعُ طبيعةَ العمل المطلوب في النَّفْر، ويكونُ على التوزيع بحسب القدرات والاختصاصات، ويتمُّ ذلك من قِبَلِ القيادة الآمرة بالنَّفْر.

ولمّا كانَ النَّفْرُ الذي يأمُرُ به الرسولُ أو أميرُ المؤمنين من بعده وسيلةً للقيام بعَمَلٍ جهاديٍّ لنُصْرَةِ الإسلام أو جماعةِ المسلمين، سواءٌ أكان جهاداً بقتالٍ أو بغيره، أَتْبَعَ الله عزّ وجلّ الأمْرَ بالنَّفر بقوله خطاباً للّذينَ آمَنُوا:

﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

الْمُجَاهَدَة: هِيَ بَذْلُ جَهْدٍ زائدٍ لتحقيق الغاية من العمل المطلوب، وهي تكون بالبَذْلِ من الأموال، وبالبذل من الأنفس، أي: من طاقةِ الجسمِ وقُدراته، حتّى تعريضِ الحياة للقتل، وهو غاية البذل المستطاع لذي الحياة.

وجاء في النصّ تقديمُ المجاهدة بالأموال على المجاهدة بالأنْفُس، لأنَّ المجاهدةَ بالأموال هي الوظيفةُ الأولى الّتي يتحقّقُ بها الإعداد بالأسلحة والعتاد والمؤن والخطط والتدبيرات اللاّزمة للتنقّل والارتحال والسّفر قبل المجاهدة بالأنفس.

وجاء تَقْييدُ الجهاد بأنْ يكون في سبيل الله، لأنّ بذل الْجَهدِ إنْ لم يكن في سبيل الله، فهو إمّا عملٌ غير مأجور عند الله، أو عملٌ يَتَحمَّلُ به باذِلُه وزراً، والعمل غير المأجور هو ما كان للحصول على شهوةٍ مباحة دون اقترانه بنيّة تجعله بحكم الشرع طاعةً لله، والعملُ الذي يتحمّل به باذلُه وزراً هو ما كان في معصية الله.

وسبيل الله هو دينه، وصراطه المستقيم الذي رسمه لعباده حتىٰ يسيروا فيه. وهو أيضاً ابتغاء مرضاته في اتّباع أوامره واجتناب نواهيه، والتقيّد بأحكام شريعته، والوقوف عند حدوده، والمراد من الجهاد في سبيل الله هنا ما يكون به نشر دين الله، والدعوة إليه، ونصرةُ المسلمين والدفاعُ عنهم، وإقامة الحقّ والعدل في الأرض.

وبعد الأمر بالنفر وبالجهاد بالأموال والأنفس طاعةً لأمر الرسول أو أمْرِ أمير المؤمنين من بعده، استحثّ الله عزّ وجلّ عواطفَ الذين آمنوا لتنفيذ ما أُمِرُوا به، بأنَّهُ خَيْرٌ لَهُمْ ممّا يتصوَّرُونَ المحافظةَ عليه من أموالٍ أو أنفس، فيما لو اثّاقلُوا إلى الأرض وتباطَؤُوا وتَكَاسَلُوا، ولم يَنْفِرُوا مجاهِدِين في سبيل الله، فقال تعالى لهم.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤١﴾.

المشار إليه بـ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ هو النَّفْرُ والجهاد بالأمْوالِ والأنْفس.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾:

أي: أكْثَرُ نفعاً وفَائِدةً لكم عاجلةً وآجلةً من إيثار الإمْسَاكِ والسّلامة.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤١﴾:

أي: إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ما يُعْطيكُمُ الله من خير عاجل وآجل عِلْمَ يقين، عَلِمْتُمْ أنّ النَّفْرَ والجهاد طَاعَةً للرسول أو لأميركم من بعده أكْثَرُ نفعاً وفائدة لكم، فلَمْ تُقصِّرُوا بالقيام بهذا الواجب الجهاديّ.

• • •

* قول الله عزّ وجلّ يتحدّث عن المنافقين الذين تخلّفوا عن الخروج مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

في هـذه الآية يتحـدّث الله عزّ وجـلّ عن عمـوم المنـافقين المتخلّفين عن الرّسول ﷺ في غـزوة تبوك، سـواءٌ من استأذن منهم ومن لم يسْتـأذنْ، ولكِنْ جاء بعـد الغزوة معتذراً، مع أنّ الرّسول قد أمر المسلمين بأنْ يَنْفِرُوا أمْرَ إلزام، ولم يقتصر على الندب، باستثناء ذوي الأعذارِ الشرعية، فعموم المنافقين سيحلفـون للرسول وللمؤمنين مقسمين بالله على أنهم لو استطاعوا الخروج مع المؤمنين لخرجوا، وهم كاذبون، فقـد كانوا يستطيعون الخروج، ولكن وجدوا أنّ الخروج إلى هذه الغزوة محفوف بـالمتاعب الشديدة، والمخاطر الكثيرة، فالمواجهة ستكون مع جيش دولة عظيمة ذاتِ إمبراطورية كبرى، لا مع جموع قبائل عربيـة، وهم إنّما يخرجون للمشـاركة في تحقيق مغـانم، أو في غـزوات قريبـة يسترون بـالخـروج مـع المسلمين فيهـا نفـاقهم، ويقـدّرون أنّهم يملكون فيها سلامتهم.

جاء في سيرة ابن هشام: أنّ ناساً من المنافقين كانُوا يجتمعون في بيت «سُوَيْلم» اليهـودي، يثبّطُون النـاسَ عن رسـول الله ﷺ في غـزوة تبـوك، فَبعَثَ إليهم النبـيُّ ﷺ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ الله في نَفَرٍ مِنْ أصحابـه، وَأَمَرَهُ أَنْ يحـرّق عليهم بيْتَ «سُوَيْلم» ففعَـلَ طَلْحَةُ، فاقْتحَمَ «الضَّحَّاكُ بْنُ خليفَةَ» من ظَهْرِ البيتِ فانكَسَرَتْ رجْلُه، واقْتحَمَ أصحابُهُ فأفلَتُوا، وكان منهم «ابْنُ أُبَيْرق» كما ذكر الضَّحَّاكُ في شِعْرٍ له.

فيقولُ الله عزّ وجلّ بشأن المتخلفين من المنافقين:

﴿لَوْ كَانَ﴾:

أي: المأمور بالخروج إليه.

﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾:

أي: شيئاً من متاع الـدنيا قـريباً يُمْكنُ الحصـول عليه وتنـاوُلُهُ من قُـرْبٍ، كَشأْنِ غنائِمِ خيْبَر.

الْعَرَض: كلُّ ما كان من متاع الحياة الدنيا قلَّ أو كثُر، سُمِّيَ عَـرَضاً لأنّـهُ يَعْرِض ويَزُول.

﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾:

أي: ولو كان المأمور بـالخروج إليـه سَفراً سَهْـلاً، فالقـاصِدُ من الأسفـار السَّهْلُ الذي لا عُسْرَ فيه ولاَ شدّة، يقـال لغة: بيْنَنـا وبين الماء ليلَةٌ قـاصِدَةٌ، أي: هيِّنَـةُ السَّيْرِ لاَ تعَبَ فيها ولاَ مشقَّة.

﴿ لَّاتَّبَعُوكَ ﴾:

أي: لاتَّبعك يَا مُحَمَّدُ هؤلاء المتخلّفون من المنافقين.

﴿ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾:

أي: ولكن بَعُـدَتْ عليهم المسافةُ التي يَشُقُّ اجتيازهـا. تُطْلَقُ الشُّقَّـةُ في اللّغـة ويُرادُ منْها السَّفَرُ البعيدُ، والمسافَةُ الّتي يَشُقُّ اجتيـازُها، والمعنى: ولكنْ بعُـدَتْ عليهم الشُّقَّة فلم يَتْبعُوك ﴿و﴾ أخْبَرَ الله عز وجلّ المؤمنين عنهم قائلاً لهم: إنَّهم بَعْدَ عَـوْدَتِكُمْ من غزوة تبوك سيحلفون بالله لكم لو استَطَعْنا لخرجنا معكم، دل عليه:

﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾:

أي: لَكُمْ ﴿ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾وأبان الله عـز وجلّ أنَّهُم بهٰـذِه الأيمـان الكاذبة﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾أي: لأنهم يُعَرِّضُـونها لعقـاب الله المعجّل والمؤجّـل، وفي العقاب المعجّل هلاك لهم، **الهلاك**: الموت، والتناقُصُ المتـدرجُ حتَّى الفناء، وذلـك لأنّ الله الذي يحلفون باسمه كاذبين يَعْلَمُ أنَّهم كاذبون، فيُعَاقبهم عقـاباً مهلكـاً لهم في الحياة العاجلة على كذبهم الْمُوثَّقِ عِنْدَ النَّاس بِالْقَسَم باسمه، فقال تعالى:

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

فأكَّدَ سُبْحانَهُ أنَّهُمْ كاذِبون بعدّة مؤكّدات، هيَ: إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللاَّم المزحلقة، وكُسِرَتْ همزَةُ «إنَّ» بعد فعل «يَعْلَم» لوجود اللاّم المزحلقة في خَبَرِها.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟
بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

جاء فريق من المنافقين قبل خروج الرسول إلى غزوة تبوك يستأذنونه في أن لا يخرجوا معه، مُتَعَلِّلين بأعذار لفّقوها، فقبِلَ الرسُولُ منهم أعذارَهُمْ بِحَسب ما أظهروا من أحوالهم، وأذِنَ لهم بعدم الخروج، فعاتبه الله عزّ وجلّ وتلطّف معه بالعتاب، إذْ قَدَّمَ عبارَةَ الْعَفْوِ عنه، قَبْلَ سُؤالِهِ سؤالَ عِتابٍ عن سبب تعجّله في الإذن لهم، دون أن يتبيّن أحوالهم، ويَعْلَم الصّادقين منهم في أعذارهم ويعْلَمَ الكاذبين، فقال له:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ؟﴾.

الْعَفْوُ أَبْلَغُ من الْغُفْران، لأنّ العفو مَحْوٌ للأثر، أمّا الغفران فهو سترٌ له.

وعبارة ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ؟﴾ استفهامٌ فيه معنى العتاب.

وعبارة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ مبنيّةٌ على جُمْلَةٍ محذوفةٍ تقديرُها: كان ينبغي أنْ تتريَّثَ في الإذن لهم، أو أنْ لا تأذن لهم حتّى يَتَبيَّنَ لك الذين صدقوا وتَعْلَمَ الكاذبين، وهذه الجملة المحذوفة يمكن إدْراكُها من توجيه السؤال العتابي.

ولم يكن إذن الرسول لهم ذنباً أصلاً، لأنه لم يخالف فيه تكليفاً ولا توجيهاً سابقاً، وإنّما أرشده الله بهذا الأسلوب التعبيري إلى ما هو الأكمل والأحسن من تصرُّفٍ إداري في هذا الموضوع، فلقد كان من الأحكم والأحزم أن يتبيّن أحوالهم قبل أن يأذَنَ لمن أذن له منهم، ليكشف حقيقة هُوِيّاتهم صدْقاً وكذباً، وبذلك يكشف نفاق المنافقين من المستأذنين، وهذا الإرشاد له يتضمّن أيضاً إرشاداً لقادة المسلمين وأمرائهم من بعده، إنّ المفروض فيمن يُولّى الإمارة أن يكون مأذوناً له بأن يتصرّف بما

يراه الأصلح ولو أخطأ في اجتهاده ولم يوافق ما هو الأصلح والأحكم، والتعقيب عليه يكون بلفت نظره إلى ما هو الأحكم والأحسن والأصلح.

وبعد هذا أبان الله عزّ وجلّ أن من صفات الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صادقاً متجدّداً حيّاً في قُلوبهم وتصوّراتهم، أنّهم لا يَسْتَأْذِنون الرَّسُول في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم على قدر استطاعاتهم، إذا أمرهم بذلك أمْرَ إلزام، بل تدفعهم بواعث تقوى الله إلى طاعة الرسول، فمن استطاع أن يبذل من ماله بذل منه، ومن استطاع أن يبذل من نفسه على قدره بذل، ومن استطاع أن يبذل من ماله ونفسه فعل، وذو العُذْرِ يعرض حاله على الرّسول عرضاً منتظراً ما يأمره به، إن لم يكن من أهل الأعذار الظّاهرة الذين جعل الله لهم استثناء، كما فعل البكّاؤون حين جاءوا إليه عارضين عليه أنّهم لا يملكون ما يحتاجون إليه في هذه الغزوة، وطالبين أن يعطيهم ما يحملهم فيها، فقال لهم الرسول: لَا أجِدُ ما أحملكُمْ عليه، وأذن لهم بالتخلّف، فانصرفوا وهم يبكون حزناً لِأَنَّهُمْ لا يجدون ما يُنْفِقُون.

إنّ عرض الحال مع بيان الاستعداد للقيام بالعمل المستطاع يُمَكّن الرسول من توجيه كلِّ فردٍ للعمل الذي يستطيعه مقيماً أو مسافراً، ضمن الخطّة العامّة.

وفي بيان هذا الوصف من صفات الذين يؤمنون باللّهِ واليوم الآخر قال الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

استُعْمِلَ الفعلُ المضارع ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ للدّلالة على أنّ إيمانهم متجدّد متحرك حاضرٌ في التصور، غير ساكن ولا غافل ولا غائب.

وذُكِرَ من أركان الإيمانِ الإيمانُ باللّهِ واليوم الآخر لأنّهما الركنان الرئيسان الباعثان على التقوى، بالطاعة في فعل ما أمر الله به وترك ما نهىٰ عنه، وطاعةِ من أمر الله بطاعته.

وجاء المطلوبُ الإذن به بصيغة ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ وهذه الصيغة على تأويل مصدر

هو المجاهدة، والإذنُ بالمجاهدة يكون بفعلها، ويكون بتركها، أمّا فعلُها فهو مأمور به كما دلّت سوابق الآية، فبقي أنّهم يطلبون الإذن بترك المجاهدة، فالكلامُ إذن على تقدير: لا يَطْلُبُ الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر الإِذْنَ بتَرْكِ المجاهَدَةِ بأموالهم وأنفسهم.

ولمّا كان من الّذِين يخرجون ولا يستأذنون بالتخلّف مؤمنون متقون ومنافقون، قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: من الّذِين خَرَجُوا ولَمْ يستأذنوك، فالمتقون هم الذين يثيبهم الله على خروجهم مجاهدين بأموالهم وأنفسهم، وهو عليم أيضاً بكلّ المتقين سواء الذين جاهدوا والذين لم يجاهدوا لسقوط الجهاد عنهم بسبب أعذارهم الحقيقيّة.

وأكّد اللّهُ حَصْرَ طَلَبِ الاستئذانِ بأقْسَامٍ من المنتمين إلى المسلمين أخَفُّهُمْ الّذِين لا يكون إيمانُهُمْ باللّهِ واليوم الآخر إيماناً مُتَجدّداً حيّاً عاملاً حاضراً في تصوّرهم المثير لإراداتهم، لذلك فهم يتعرّضون لِوَارِدَاتِ الشّكوك التي ترتاب بها قلوبهم حول قضايا الإيمان، فإذا ارتابت صاروا في ريبهم يتردّدون، لا يثبت فيهم إيمانٌ مستقرٌ يدفعهم بلا تردّد إلى الجهاد بأموالهم وأنفسهم، وهؤلاء هم قسم ضعفاء الإيمان، وأشدّ منهم المنافقون المذبذبون بين الإيمان والكفر، وهم إلى الكفر أقرب، وأشدُّ الأقسام المنافقون المستقرّون في الكفر الذين مَرَدُوا على النفاق.

واستغنى النصّ بذكر أخفّ الأقسام لأنّ ذِكْرَهم يدلُّ من باب أولى على الذين هم أشدّ منهم، فقال الله عزّ وجل:

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾:

أداة حصر.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

أي: الذين لا يجدّدون إيمانهم حتى يكون حيّاً فاعلاً ماثلاً في تصوّرهم: «أخذاً من صيغة الفعل المضارع» ولم يقُل: الذين لم يؤمنوا، أو الذين ما آمنوا.

﴿ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾:

أي: وبسبب عدم تجديد إيمانهم، تعرّضوا للشكوك، فأثّر توارُدُها على تصوّراتهم حتّىٰ ارْتابتْ قُلوبهم.

﴿ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴾:

أي: فهم في الشُّكُـوك التي انتقلت من تصـوّراتِهم إلىٰ قلوبهم، فـزاحمتْ إيمانَهم، فصاروا في قلوبهم وإراداتهم يتردّدُون بين دواعي الإيمان، ونـوازغ الشُّكُوك، وهذا من أمراض القلوب التي قد يتعرّض لها أهل الإيمان.

التردّد: هو التنقل بين طرفين ذهاباً ورجوعاً.

إنّ فهم الآية وفق هذا التحليل يكشف مدى العمق القرآني المعبّر عن حركات النفوس البشريّة فيما تتعرّض إليه، ويكشف مدى دقته في الأداء.

ومن أساليب القرآن ذكر الأخف تنبيهاً على ما هو أشد منه، وذكر أعلى المراتب وأدناها تنبيهاً على ما بينهما، وكذلك ذكر أعلى الدرجات وأدناها، وذكرُ أوّل الأقسام وآخرِها.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ۝٤٦ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٧ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ۝٤٨ ﴾.

يتابع الله بهذا بيان حقيقة المستأذنين عن الخروج مع الرسول إلى غزوة تبوك، فيكشف أنّهم منذ وجّه الرسول الأمر بإعداد العدّة والتجهُّز لغزو الروم في جهة تبوك لم تتوجّه إراداتهم لطاعة الأمر، ومشاركة الرّسول والمؤمنين معه في هذه الغزوة، بل كانوا عازمين على عدم الخروج، وكارهين له.

والدّليل على ذلك أنهم لم يُحاوِلوا إعداد عُدّةٍ ما، منذ بدْءِ توجيه الأمر، فأعذارُهم الطارئة التي ذكروها أعذارٌ مخترعة كاذبة، إنّهم لو أرادوا الخروج مُنْذُ توجيه الأمر بالاستعداد له، لأخذوا في محاولة إعداد عُدّةٍ ما، ولو كانت دُون المطلوب لهذه الغزوة، لكنّ شيئاً من ذلك لم يحصل فهم إذن ما أرادوا الخروج منذ بداية الأمر.

إنّ الله عزّ وجلّ يُعلّمنا بهذا أن ننظر إلى الأمارات الظّاهرات وأن نبحث عنها، لنستفيد منها في معرفةِ ما تُخفي النفوسُ من إراداتٍ ونيّاتٍ ومُعتقدات وعَواطِفِ حبٍّ وكراهية، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾:

أي: عُدّةً ما، ولو كانت عُدّةً قليلةً لا تفي بالمطلوب لهذه الغزوة.

لقد علم الله أحوال قلوبهم على اختلاف درجاتهم، من ضعفاء الإيمان الذين ارتابت قلوبهم، حتّى المنافقين المذبذبين بين الإيمان والكفر وهم إلى الكفر أقرب، فأخسِّ المنافقين وهم الّذين مرَدُوا على النفاق مستقرين في الكفر.

وعلم سبحانه وتعالى كَراهِيَتَهُمُ الخروجَ مع الرسول ﷺ لغزو الروم، الأمر الذي كان قد ألمح الله إليه في الآية (١٦) من سورة (الفتح) كما جاء في النص (٣٠) من هذه الدراسة، وهو قوله تعالى فيها:

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

وإذْ قد علم الله منهم كراهِيَتَهم طاعةَ رَسُوله والجهادَ في سَبيله قابلَهُمْ بمثْلِ مَا في قُلُوبهم، فكَرِهَ انْبعَاثَهُمْ مِنْ مَقاعدهم، فثَبَّطَهُمْ عن النّهوضِ للخروج مع الرسول في غزوة تبوك، فقعدوا مع القاعِدِينَ من أهل الأعذار العَجزة.

التَّثْبِيطُ: إقامَةُ العوائق المادّية أو النفسيّة عن القيام بالْعَمَل.

وكراهيَةُ اللّٰهِ انْبِعـاثَهُمْ وَتَثْبِيطُهُ إِيَّـاهُمْ من مظاهـر سُنَّةِ اللّٰهِ في عبـاده، في الإقبال والإدبـار، في الحبّ والكراهيـة، في إرادة الخير وإرادة الشّـرّ، ونحـو هـذه الأضـداد المتقابلة.

فمن أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن كَرِهَ لقَاءَ الله كَرِهَ اللّٰهُ لِقَاءَه.

ومَنْ أقبل نحو ربّه أقبل الله إليه، ومن أعرض عن ربّه أعرض الله عنه.

ومن أرَادَ طاعَةَ اللّٰهِ وفِعْلَ الخير أعانه الله وأمدّه بالقوّة والنشاط، ومن لم يُرِدْ فعل الخير ولم يُرِدْ طاعَةَ الله ثَبَّطَهُ الله وأقْعَدَه عن فعل الخير، ولم يُعِنْه على فعله.

ومن أراد معصيةً من المعاصي سخّر الله له الأسباب ومكّنه من تعاطيها.

وهكذا إلى سائر أعمال العباد ضمن دائرة قضـاء الله وقدره وخلْقـه، وحكمته في امتحان عباده.

فـالمعنى: ﴿وَلَكِنْ﴾ مـا أرادوا الخـروج، بـل كـرهُـوا الانبعـاثَ من مقـاعـدهم ومشاركةَ المؤمنين الجهادَ بأموالهم وأنْفُسِهم في سبيل اللّٰه فـ ﴿كَرِهَ اللّٰهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ فَيَسَّرَ اللّٰهُ لَهُمُ الأسْبَـابَ الّتي تُحقّقُ لَهُم مَا يُـريدُونَ ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ بها، فَقَعَـدُوا عَنِ الْخُـرُوجِ وَتَخَلَّفُوا ﴿وَقِيلَ﴾ لهم على سبيلِ التحقير والإهانة والازدراء: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَـاعِدِينَ﴾ من أولي الضّـرر كالْعُمْيَـانِ والْعُرْج والمـرضىٰ والْعَجزة، ومـع القـاعـدين من الصبيـان والنساء.

ولمّا كان هذا القول يَصْلُح أن يقوله لهم كلُّ ذي بصيرة، كانَ المناسب أن يـأتي بصيغة المبنيّ لما لَمْ يُسَمَّ فاعلُهُ.

فـالله والرسـول والملائكـة والمؤمنون يـزدرونَهُمْ على تخاذُلِهم وجُبْنِهم وخـذْلِهم للرسول والمؤمنين، فيقولـون لهم: اقْعُدُوا مـع القاعـدين من الضّعفاء والْعَجَـزةِ وأولي الضّرر.

بعد هذا الكشف لهويّة المستأذنين عن الخروج مع الرسول إلىٰ غزوة تبوك، أبان الله عزّ وجلّ للرسول والمؤمنين أنّه قد كان مِنَ الخيـر لهم أن لا يخرجـوا معهم في هذه

الغزوة ولا في غيرها، وذَلِكَ لثلاثة أسباب:

السبب الأول: دلَّ عليه قول الله تعالى:

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾:

أي: لـو خـرجـوا معكم مختَلِطِينَ فيكُمْ مَـا زَادُوكُمْ قُـوَّةً وَمَنَعةً وتمكينـاً، وإنْ يَزِيدُوكُمْ شيئاً فإنَّهُمْ يَزِيدُونَكُمْ خبالاً.

الخبـالُ: الفسادُ في الفِكْـر، أو في عُضْوٍ من الأعضـاء بسبب داءٍ فيـه كـالشّلل، أو بسبب قَـطْعِـه، ويـأتي الخبـال بمعنى النقصـان، وبمعنى الهـلاك، وبمعنى السُّمّ القـاتـل، وأعمـالهم التي تـزيـد في الخبـال هي الكـذب والنميمـة، وإثـارة الشكـوك والشبهات، وتثبيط العزائم بالأراجيف، والانخذالُ عند الشدائد وغير ذلك.

ولمّا كان يوجد ضِمْن الذين خرجوا مع الرسول منافقون قد خرجـوا لا ليجاهـدوا ولكن لِيُفْسِـدُوا، وليكونـوا كعضْوٍ أشَـلّ، وليَـدُسُّـوا الـدّسـائس، وليُسْـرِعُـوا في الفتنـةِ ما وجدوا لها سبيلاً، كان الذين استأذَنُوا في التخلُّف لو خرجـوا مع الخـارجين ما زادوا المؤمنين إلّا جـانب الخبال الـذي يصنعه المنـافقون الخـارجون معهم مختلطين فيهم، وقد ظهر بعض هذا الخبال من المنافقين المشاركين في الغزوة.

فالاستثناء على هذا استثناء مُتّصل، ولا داعي لتصوّر كونه استثناءً منقطعاً، ولا للبحث عن تخريجات متكلّفة.

السبب الثاني: دلّ عليه قول الله تعالى:

﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾.

﴿وَلَأَوْضَعُوا﴾:

أي: ولَأفْسَدُوا، وفي الشرّ والضُّرّ أسرعوا.

يقال لُغَةً: أوْضَعَ الرَّجُـلُ بين القوم إذا أسـرع في الإفساد بينهم، ويقـال: أوْضَعَ في الشّرّ إذا أسْرَع فيه، ويُقال من الثلاثي: وضَعَ الرَّجُلُ إذا أسرع في سَيْرِه.

﴿خِلَالَكُمْ﴾:

أي: في أماكنِ الفُرَجِ بين جَمْعِكُمْ أيُّها المؤمنون.

الخِلالُ: جَمْعُ «الخلَةِ» وهي الفُرْجَةُ بين شيئين.

﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾:

أي: يَطْلُبُون لكم الفتنة، ساعِينَ في فِتْنَتِكم عن دينكم، واجتماع كلمتكم، وترابط قُواكُمْ.

يقال لُغةً: بَغَيْتُ لَكَ الأَمْرَ، وَبَغَيْتُكَ الأَمْرَ، أي: طلبتُه لَكَ.

الفتنة: تُطْلَقُ للدّلالة على معانٍ متعـدِّدة، منها: الضـلال وارتكاب الإثم، ومنها الاضطراب وبلبلة الأفكار وتعارُضُها في المجتمع، ومنها إزالة الإنسان عمّا هو عليه من أمر محمود العاقبة إلى أمر ذي عاقبة سيئة ذميمة. وهذه المعاني مجتمعةً تصلُحُ لأن تراد هنا.

فالمعنىٰ: ولو خرجوا معكم مختلطين في جماعاتكم لأسْرَعُوا دَاخِلَ الفُرَجِ التي يجدونها بين صفوفكم وتجمُّعاتِكُمْ مُفْسدين، قاذفين شرارات الشرّ والضّرّ، طالبين مع سعي خبيثٍ فِتْنَتَكم عن دينكم، وتشكيكَكُم بـوعـد الله لكم، وتمـزيقَ وحـدتـكم، وإضعافَ قوّتكم، وإثارةَ الاضطراب والبلبلة بين أفرادكم وأُسَرِكُم وجَمَاعاتكم.

فمن الخير لكم أن لا يخرجوا معكم ولا يختلطوا فيكم.

السبب الثالث: دلّ عليه قول الله تعالى:

﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾:

أي: وفيكم من أهل الإيمان والصَّلاح مَنْ ليست لديهم حصـانَةٌ فكـريّةٌ ونفسيّـة ضِدَّ وساوسهم ودسائسهم وتسويلاتهم، فهم يُحْسِنون الظّنّ بهم، ويتأثـرون بأقوالهم وآرائهم، وقـد يندفعـون معهم بحُسْنِ ظَنّ، وهم يحسَبُونَ أنّهم يُحْسِنُـونَ صُنْعـاً، ففي هؤلاء المعتـذرين أفرادٌ هُمْ وُجُـوهُ قومهم قبـل الإسلام، وهم أهـلُ رأيٍ وحُسْنِ بيـان، ولهم صفـاتٌ قيـاديّـةٌ مؤثّـرة، فمن الخير أن لا يخـرجـوا معكم ويختلطوا فيكم حتّىٰ لا يؤثّروا على فريق من أهل الإيمان والصلاح منكم بوساوسهم وتسويلاتهم وما يقذفون به من دَسائس وشُبُهاتٍ وشكوكٍ وإرجافاتٍ مغلّفةٍ بمكْرٍ شديد.

وعلى المسلمين أن يعملوا بهذه النصيحة حتّى آخر الدهر، فيستبعدوا في المواقف الحاسمة الرهيبة المنافقين والمرجفين والمتخاذلين وضعفاء الإيمان، لأنّ وجودهم سيكون له تأثير عكسيّ عليهم، فلا يزيدُ وجودهم عدداً ولا مدداً، ولكن يزيد ضعفاً ووهناً وتخاذلاً وتفرّقاً.

ووصف الله هؤلاء المعتذرين بأنّهم ظالِمُونَ، لأنّهم إمّا مرتابون أو منافقون، وأبان تعالى أنه عليم بهم، ظاهراً، وباطناً، فقال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: والله عليم بكلّ الظّالمين، ومنهم المتحدّث عنهم في النصّ.

وبعد بيان الأسباب الداعية إلى اعتبار عدم خروج المعتذرين مع المؤمنين خيراً للمؤمنين، وأكثر أمناً وسلامةً لهم، لفت الله عزّ وجلّ أنظار المؤمنين إلى الشواهد التجريبيّة السابقة مع المنافقين وأهل الرّيب، فهذه الشواهد كافية للإقناع بأنّ من الخير أن لا يخرجوا معهم إلى قتال، وأن لا يكونوا معهم في المواقف الرهيبة الحاسمة، وأنّ من الخير لهم أن يعزلوهم عنهم، فقال الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾:

أي: فيما كَانَ مِنْهُم من أحداثٍ وتصرُّفاتٍ مِنْذُ بداية ظُهُورِ النفاقِ في هذه الأمّة الإسلاميّة، فسوابِقُ النصوص القرآنية كافية شافية لمن أراد أنْ يطّلِعَ علَى تصرّفاتهم في ابتغاء الفتنة، ومراجعةُ نصوص هذه الدراسة تكفي الباحث المتدبّر.

﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾:

يقال لغةً: قَلَبَ الشيءَ يَقْلِبُهُ قَلْباً، إذا جعل أعلاه أسفله، ويمينَهُ شِمالَهُ، وبَاطِنَهُ ظاهره، بحثاً عن كلّ دخائله وخفاياه.

وفعل «قَلَّبَ» مُضَعَّفَ اللاّم ففيه زيادةٌ في اللفظ تدلّ على زيادة في حركة القَلْب بحثاً

وتنقيباً. والتاجرُ حين يُقلِّبُ السلعة يتفحَّصُها، ليعرف مواضع العيوب والجودة فيها، والباحثُ حين يقلّبُ عناصر بحثه يُحاوِلُ اكتشاف جُذُور هذه العناصر وفروعها وعلاقات بعضها ببعض، والماكر المحتال يجمع أكوام حِيَلِه ويُقلِّبُ بها وينتقي منها واحدةً فواحدة ويُصَرِّفُ أمره بها، فإنْ حقَّقتْ له مُراده فذاك ما يتمنَّىٰ، وإلاّ عاد يُقلِّب في أكوام حيله لينتقيَ منها ما يمكرُ به، وهكذا، حتى يستنفد اخْتبارَ كُلِّ ما يستطيع من حيلة، كذلك فعل المنافقون ضدّ الرسول محمّد ﷺ ودعوة الإسلام التي جاء بها، منذ مقدمه مهاجراً إلى المدينة، وكانت تبوء مكايدُهُمْ وأنواع مكرهم بالفشل والخيبة.

والأمور التي قَلَّبُوها هي ما كان لديهم من أمور المكر والكيد والحيلة ممّا يستطيعون اختباره أو ابتكاره، وتَقْلِيبُها يكون بالبحث فيها، والانتقاء منها، وتطبيق المنتقىٰ منها بالعمل.

﴿ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾:

أي: وظَلُّوا كذلك يبتغون الفتنة، ويجرِّبون أنواع مكرهم وكيدهم وحيلتهم ضدّ الرسول والإسلام والمسلمين، حتّىٰ أدركوا أنّهم منهزمون خائبون في كلِّ تصرفاتهم، وذلك حين جاءَ الحقّ بفتح مكّة، وزهق الباطل، وظهر أمْرُ اللّهِ وهو الإسلام على الشرك والمشركين، وسائر الكافرين في الحجاز، وهُمْ كارهون، لأنّهم كانوا يتربّصون بالرسول والمؤمنين الدوائر، ويترقبون أن ينتصر العرب المشركون في آخر الأمر، فلمّا صارت مكّة دار إسلام، وانتهت زعامة مشركيها، وقامت فيها دولة الإسلام سُقِطَ في أيديهم، ولم يبْقَ لديهم إلاّ محاولات ضعيفة يخشون عواقبها، وأنْ يتهرّبوا من مشاركة المسلمين في المواقف الصعبة والرهيبة، والّتي تكلّفهم جهاداً بأموالهم وأنفسهم.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

روي أنّ هذه الآية نزلت بشأن رأسٍ من رؤوس النفاق وواحد من أعيانهم هو «الْجَدُ بْنُ قَيْس» أحدُ بني سَلِمَة، وكان من أشرافهم.

وذلك أنّ الرسول ﷺ بعد أن أمر بالتَّجهُّز لقتال بني الأصفر (= الروم) في غزوة تبوك، لَقِيَ الجدَّ بن قَيْسٍ والمسلمون يتجهّزون ويُهَيِّئون ما يلزم لهذه الغزوة، فقال الرسول له: «هَلْ لَكَ الْعَامَ في جِلادِ بَني الأَصْفرِ؟».

فقال الْجدُّ بْنُ قَيْس: يا رسولَ اللّهِ، أَوْ تأْذَنُ لي، ولاَ تَفْتِنِّي، فواللّهِ لقد عرف قومي أنّه ما من رجُلٍ بأشَدَّ عُجْباً بالنّساء منّي، وإنّي أخشى إنْ رَأَيْتُ نِسَاءَ بَني الأَصْفَرِ أَنْ لا أَصْبِر.

فأَعْرَضَ عنه رسُول الله ﷺ وقال له: «قَدْ أَذِنْتُ لَكَ».

ففيه نزلت هذه الآية.

﴿وَمِنْهُم﴾: أي: ومن المنافقين الذين استأذَنُوا بأن لا يخرجوا مع الرسول في غزوة تبوك ﴿مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لي﴾: أيْ: دأبه أنْ ينخذل عن الرسول في المواقف الصعبة، ففي حادثة بيعة الرضوان عند الحديبية، بايع جميع الذين كانوا مع الرسول يومئذٍ على أن يُقاتلوا ولا يفرّوا إذا لزم الأمر، إلّا الْجَدّ بْن قَيْسٍ هذا، فقد توارى عن الناس مُسْتَتِراً لاصِقاً بإبط ناقته، حتّى لايَرَوْه فيدعوه إلى المبايعة، وكانَ جابرُ بْنُ عبد الله يقول: واللّهِ لَكأَنّي أَنْظُرُ إليه لاصقاً بإبط ناقتِه، قَدْ ضَبأَ إليها (أي: لجأَ إِلَيْها) يَسْتَتِرُ بها من الناس.

﴿وَلاَ تَفْتِنّي﴾ ولا تُلْزِمْني بالخروج، فإنّي إذا خرجت ورأيت نساء بني الأصفر افْتَتَنْتُ بهنَّ، فتكون بإلزامك لي أن أخرج قد فتنتني، أي: تسبَّبْتَ بفتنتي، والمراد من الفتنة هنا الميل إلى النساء والشغف بهنّ المؤدّي إلى الخروج عن المطلوب الجهادي الذي يخرج من أجله، أو الوقوع في كبيرة الزنا.

وجاء في الصحيح على ما ذكر ابن كثير، أنّ رسول الله ﷺ سأل بني سَلِمَة: «مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَني سَلِمَةَ؟».

قالوا: الْجدُّ بْنُ قَيْسٍ، عَلى أَنّا نُبَخِّلُهُ.

فقال رسول الله ﷺ: «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوأُ من الْبُخْلِ؟! ولَكِنَّ سَيِّدَكُمُ الْفَتَى الْجَعْدُ الأَبْيَضُ بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ».

وفي التعليق على المعتذرين بأعذار مختلفة كاذبة كاعتذار الجدّ بن قيس قال الله تعالى:

﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾.

أَلَا: حرفٌ يستفتح به الكلام لغرض التنبيه، والإشعار بأهميّة مضمون الكلام الذي يأتي بعده، وهو يدخل على الجملتين الاسمية والفعلية.

في الفتنة سَقَطُوا: تُطْلق الْفِتْنة على الضّلال وارتكاب الإثم، وتُطْلَقُ على الإحراق والتعذيب بالنار، وهٰذان المعنيان من معاني الفتنة هما الملائمان هنا، فاعتذارُهم الكاذب للتهرّب من واجب الخروج للقتال الذي أمَرَ به الرسول إلزاماً، هو من المعاصي الكبيرة التي سقطوا بها في أوحال الإثْم العظيم. وفي استحقاق التعذيب بالإحراق في نار جهنّم.

وجاء التعبير بالسقوط ملائماً لكلٍّ منْ مَعْنَيَي الوقوع في حفرة الإثم الكبير، والوقوع في حُفْرة عذاب السعير، الذي يستحقونه بنفاقهم.

وجاء تقديم المعمول وهو «في الفتنة» على عامله وهو فعل «سَقَطُوا» للدلالة على أنّ اعتذارهم الذي أوهموا أنّهم قد حَمَوْا به أنفسهم مِنَ السقوط في الفتنة، لم يكن من نتائجه إلاّ أنّهم سقَطُوا في الفتنة الأشدّ، وبهذا نفهم معنى القصر الذي دلّ عليه تقديم المعمول على عامله، أي: ما اكتسبوا إلاّ السقوط في الفتنة الأشد.

وإذْ سقطوا في الفتنة التي يتعرّضون بسببها لعذاب جهنّم، فلْيعلَمُوا أنّ جهنّم محيطةٌ بالكافرين جميعاً، سواءٌ أكانوا معلنين كُفرهم، أو كانوا مخفين له مخادعةً ونفاقاً، فلْيُعدّوا أنفسهم لعذابها إنْ كانوا منافقين، فهم يكونون داخلين في عُمُوم الكافرين، فقال تعالى:

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

واستعملت الإحاطة للدلالة على أنَّ من تحيط به النار لا يجد لنفسه مخرجاً ينجيه من عذاب الحريق فيها، متى جاء زمن تعذيبه فيها بالعدل عقاباً على ما كان منه من كُفْر وظلم وإثم.

● ● ●

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

في هذه الفقرة بيانٌ لحالة المنافقين النّفسيّة بالنسبة إلى النِّعم والمصائب التي تنزل بالرسول أو بالمؤمنين، ولا سيما في المواجهات الحربيّة التي تكونُ بينهم وبين أعدائهم من المشركين، أو من الكافرين الآخرين، فسوابق هذه الفقرة قد تحدثت عن غزو الرُّوم في غزوة تبوك، وهم نصارى أهل كتاب.

إنّ حالة المنافقين النفسية التي يكتمونها وقد تظهر أماراتها أمام الرسول والمؤمنين الصادقين، أنّهم إذا نزل بالمسلمين ما يسُرُّهم ويُفْرِحُهُم، ساءهم ذلك، وإذا نزل بالمسلمين ما يسوؤُهم ويُحْزِنُهُم، سرَّهم ذلك وأفرحهم.

والسبب في هذه الحالة النفسيّة التي يتَقَلَّبُون فيها أنّهم في حقيقة أمرهم كافرون، وأنهم أعداءٌ للرسول وللمؤمنين الصادقين، وأنّهم يتربَّصُون بهم الدوائر، وأنّ قُلُوبَهُم ونفوسهم وعواطفهم مع إخوانهم الذين هم مِثْلُهُم في الكفر، فالمنافقون من المشركين هم مع المشركين، والمنافقون من اليهود هم مع اليهود، والمنافقون من النصارى هم مع النصارى، وجميعهم على وجه العموم يتمنّون الشرّ والضرَّ والهزائم للرسول وللمؤمنين معه، فيفرحون إذا نزل بهم شيءٌ من ذلك، ويستاؤون إذا نزل بهم خيرٌ، أو حقّق الله لهم النّصر والظفر بالغنائم.

وإذْ جاء هذا البيان في معرضِ الأحداث التي تكون بسبب المواجهات الحربية بين المسلمين وأعدائهم، فإنّ أوّل ما يدخل فيما يَسُوءُ ويَسُرُّ، نَصْرُ المسلمين وظفرهم بالغنائم، وهزيمتُهم ونَيْلُ عَدُوّهم مِنْهُم، فما يسُرُّ المسلمين منها يسُوءُ المنافقين، وما يَسُوءُ المسلمين منها يَسُرُّ المنافقين.

ولمّا كان الرسولُ صلوات الله عليه هو قائد الأمّة الإسلامية فإنّ أيّـة حسنة تُصيبُ أُمّتَهُ فهي حسنة تُصيبُه، وإنّ أيّة سيّئة تُصيبُ أمّته فهي سيّئة تُصيبُه، فقال الله تعالى له:

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠﴾.

وقد سبق أن أنزل الله عزّ وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) في النصّ الثامن من هذه الدراسة قوله بشأن المنافقين خطاباً للّذين آمنوا:

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ... ۝١٢٠﴾.

وكان إنزال هذه الآية في أوائل العهد المدني، ثم أنزل الله عزّ وجل في أواخر العهد المدني في سورة (التوبة) الآية المسوقة للتدبّر.

ونلاحظ في هٰذَيْن النَّصَّيْن أنَّ الحالة النفسية للمنافقين قَدْ بقيت على ما كانت عليه لم تتغير، مع مرور السنين المتعدّدة على مخالطتهم للمؤمنين، ومشاركتهم لهم في كثير من ظواهر السلوك، وهذا يدلّ على أنّ العدُوّ المنافق الكافر بما يؤمن به المؤمنون لا تتغيّر حالةُ قلبه ونفسه بطول المعاشرة والمخالطة، ما لم يتخلّص من كفره بالإيمان الصحيح الصادق.

وإضافةً إلىٰ هذه الدّلالة ذات الفائدة العظيمة للمؤمنين فقد جاء في النصّ الذي نزل متأخّراً في أواخر العهد المدني دلالات لم يَدُلَّ عليها النصّ السابق.

الدلالة الأولى: أنّ ما ينزل بالمسلمين من حسنات ومصائب فهي تُصيب الرّسول ﷺ، وهو يشعرُ بأعظم المشاعر التي يَشْعُر بها المؤمنون، إذْ هو قائدهم، وإمامُهم، وهمُّه من أجلهم على مقدار همومهم مجتمعة، فقضيّتُهُمْ جميعاً هي قضيّتُه، فهذه الدلالة قد دلّ عليها النصّ اللاّحق.

الدلالة الثانية: أنّ المنافقين يُحَاوِلُون دواماً التهرّب من المواقف التي يتوقَّعُونَ أن تنزل فيها بالرّسول والمؤمنين معه مصيبة ما، كَهَزِيمةٍ وانْكسار في معركة قتاليّة مع عدُوّهم، فإذا حصل شيءٌ من ذلك، وقد كانوا ممّن تخلّف أو انْخذل قالُوا: قد احْتَطْنَا لأنْفسنَا، فلم نتورّط مع الذين تورّطُوا من الذين غرَّهُمْ إيمانُهم وهذه الدلالة قد دلّ

عليها النصّ اللاّحق أيضاً، وربّما أعلنوا أنهم كانوا أهل عقل ورويّة وحكمة من قبل.

الدّلالة الثالثة: أنّ المنافقين إذا كانوا في بعض مجالس المؤمنين، وبلَغَهُمْ مَا نزلَ بالرسول والمؤمنين من مصيبة في غزوة من الغزوات، قاموا وأدْبَروا وابتعَدُوا إلى بيوتهم أو مجامعهم الخاصة فرحين بالمصيبة التي نزلت، وهذه الدلالة قد دلّ عليها النصّ اللاّحق أيْضاً.

الدلالة الرابعة: أنّ المنافقين إذا مست المؤمنين حسنةٌ ما مسّاً سطحيّاً خفيفاً ساءهم ذلك، لأنّهم لا يريدون أيّ خيرٍ مَهْما كان قليلاً أنْ يُسَرّ به المؤمنون، إذْ هم أعداءٌ حقيقيُّون، وهذه الدلالة قد دلّ عليها النصّ السابق فقط.

فتكاملت دلالات النصّين بصورة بديعة:

﴿ إِن تُصِبْكَ ﴾:

أي: إنْ تنزل بكَ يا مُحمّد، وما نزل بالمؤمنين فقد نزل بك.

﴿ حَسَنَةٌ ﴾:

أي: نِعْمةٌ سارّةٌ لَكَ.

﴿ تَسُؤْهُمْ ﴾:

أي: تَجْعَلُهم يشْعُرُونَ بالألم أو النفور والكراهية.

﴿ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ ﴾:

أي: وإنْ تَنْزِلْ بكَ يا مُحمّد مُصيبَةُ ما، وما نزل بالمؤمنين فقد نزل بك.

المصيبة: كُلُ مَكْرُوه ينزل بالإنسان، وتجمع على مصائب.

﴿ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾:

أي: يَقُولُوا: قد أخذْنَا لأنفُسِنا بالرأي السّديد العَمَلَ والتّصرُّفَ الذي نَحْفَظُ به أمْرَ سَلامتنا من التعرّض للمصيبة، من قَبْلِ أن تقع المصيبة، إذْ لم نُعرّض أنفسنا لأسباب حدوثها، بالعقل والرويّة والحكمة.

﴿ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾:

التولّي: الإدبار والابتعاد والانصراف من المجلس. والمعنى أنهم يبتعدون من مجالس المؤمنين وهم فرحون. إذْ لم تنزلْ بهم المصيبة التي نزلت بالمؤمنين، بسبب أنّهم لم يُشاركوهم فيما اتّجهوا له.

وبعد بيان هذه الحالة النفسيّة للمنافقين، التي قد تظهر أماراتها أمام الرسول والمؤمنين الصادقين من أهل الفطنة والْخِبْرَةِ بالناس، علَّمَ الله رسوله وكلّ مؤمنٍ أن يُبَيّنَ لهم بأسْلوب الخطاب أو بأسلوب التعريض، بحسب مقتضيات الأحوال ستّ مَقُولاتٍ تعالج موقفهم هذا:

المقولةُ الأُولى: دلّ عليها قول الله في التعليم:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾:

أي: لَنْ يُصيبَنا من حَسَنةٍ تَسُرُّنا أو مُصيبَةٍ تَسُوؤنا إلاّ شَيْئاً قد سَبَقَ أنْ قضاه اللّهُ وقدّره وكَتَبَهُ لَنا قَبْلَ أنْ يَحْدُثَ، وكلُّ ما قضاه الله ممّا يَسُرُّناأو يَسُوؤنا فهو لخيرنا ومصلحتنا، فما كتبه الله من ذلك ــ ونحنُ مؤمنون به، لم نَتَّخِذْ وَلِيّاً غيره ــ فهو لَنا، أي: لخيرنا ومصلحتنا، وليس علَيْنا، وإن كان بحسب الظاهر مصيبةً تسوؤنا، ونَحْنُ نكرهها لأنّها تُخالِفُ ما نحبُّ ونهوى من أمور دُنْيانا. فكم يكْرَهُ الإنسان بنظره القاصرِ وحُبِّهِ النَّفْعَ الْعاجلَ شيئاً، ويَجْعَلُ الله فيه خيراً كثيراً.

المقولة الثانية: دلّ عليها قول الله تعالىٰ في التعليم:

﴿هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ﴾:

أي: الله مولانا، لا مولىٰ لنا غيره، فهو ربّنا، وسيّدنا والمتولّي جميع أمورنا، ونحن عبيده المعترفون له بالعبوديّة التامّة، المسلمون له كلّ أمورنا، المنتمون له، والمستنصرون به، والمفوّضون له، ومن اتّخذ الله وليّاً تولاّه الله، فلم يَقْضِ له إلاّ ما هو خير لَهُ في عاجل أمره وآجله، وإنْ كان بحسب الظاهر مصيبةً تَسُوءُ قاصري النظر، الذين لا يُحيطون علماً بالعواقب.

المقولة الثالثة: دلّ عليها قولُ اللّهِ في التعليم:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾:

أي: ونَحْنُ قَدْ توكَّلْنَا على الله، لأنَّنا مُؤمِنون به، مع اتّخاذنا الأسباب الّتي أمرنا بها، وأوصانا باتّخاذها، وعدم التفريط بشيءٍ منها، طَاعَةً له، فالمؤمنون بالله الرّبّ الخالق الذي هو مولاهم في جميع أمورهم، يجب عليهم مع قيامهم بما يأمرهم به من أسباب أنْ يتوكّلوا عليه وحْدَهُ لا شريك له، ليحقّق لهم أفضل ما يرجون من خيْرَي الدنيا والآخرة، ويُمِدُّهم بعونه وتأييده ونصره، ويَصْرِفَ عنهم في سُبل حياتهم الموانعَ والعقباتِ، ويُيَسِّر لهم الأسباب.

المقولة الرابعة: دلّ عليها قول الله في التعليم:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ؟﴾.

التَّرَبُّصُ: الانْتِظَارُ، يقال لغة: تَرَبّصَ فلانٌ بفلان، أي: انتظر خيراً أو شرّاً يَحُلُّ به.

تَرَبَّصُون: تَتربَّصُون حذفت إحدىٰ التاءين تخفيفاً.

أي: إنّكم بتصوُّرِكم وبحسَبِ رغباتكم وما تَتَمَنَّوْنَ أنْ يحُلَّ بنا تنتظرونَ أن تدور الدوائر علينا، وينتصر علينا الذين كفروا، الذين أنتم منهم في الباطن ولكنَّكُمْ في الواقع وحقيقة الأمرِ لا تَتَرَبَّصُون بنا ـ واللَّهُ مَوْلَانا ـ إلَّا إحْدَىٰ الْحُسْنَيَيْنِ:

الْحُسْنَىٰ الأولى: هي أن يَنْصُرَنا الله، ويُحقّق لنا التمكين في الأرض، والمجْدَ، وما يَتْبَعُ ذلِكَ من تأييد الدِّين، وانتشاره، والفتح المبين، مع ما نظفر به من غنائم ومنافع دنيوية، وأجر عظيم أخرويّ عنده.

الْحُسْنَىٰ الثانية: هي أن يقضي الله بالشهادة لمن انتهىٰ أجَلُهُ في الحياة الدنيا منّا، فينالَ عند الله من الأجر والكرامة ما هو خيرٌ له من مُلْكِ الدُّنْيا كُلِّها.

الْحُسْنَىٰ: مُؤنّث «أحْسَن» الذي هو على وزْن «أفْعَل» للتفضيل، والْحُسْنَى وصْفٌ لموصوفٍ مؤنث محذوف تقديره: النِّعْمَةُ، أو العطيّة الربّانيّة، أو المقضيَّةُ بقضاء اللّهِ الْحُسْنَىٰ، أو نحو ذلك.

وهل تُوجَدُ مِنَحٌ هي أفضل وأحْسَنُ من النَّصْرِ او الشّهادة.

والتَّرديدُ بين هَاتَيْنِ الْحُسْنَيَيْنِ لا يَمْنَعُ منْ تحققهما معاً، فَبَعْضُ المؤمنين ينالون

الشهادة والباقون ينالون النَّصْرَ والتمكين، فهما بالنِّسْبَةِ إلَىٰ مَجْمُوعِ المؤمنين لا يمْتَنِعُ اجتماعُهما(١).

المقولة الخامسة: دلّ عليها قول الله في التعليم:

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾:

أي: ونَحْنُ أيضاً ننتظر أنْ تَحِلَّ عليكم إحدى نقمَتَيْن مُعَجّلتين في الحياة الدنيا من ربّكُم، ولا مانع من اجتماعهما:

النقمة الأولى: أنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بعذابٍ من عنْدِه، كما أنزل بالّذين كفَرُوا ونَافقوا من قَبْلِكُمْ، إنّ العقوبات الّتي تأتي بالكوارث والمصائب مختلفة الأشكال والأنواع، منها الزلازل، والفيضانات، والصواعق، والأمراض الوبائية، والرياح والصَّيْحَات المهلكة، وتقاتل الناس بعضهم مع بعضٍ، في فِتَنٍ قوميّة أو إقليمية، أو غير ذلك.

النقمة الثانية: أنْ يُسَلِّطَنَا اللَّهُ عليكم، فيأذنَ لَنَا بقتالكم، وأخذكم حيث وجدناكم، واستئصالكُمْ، حتّىٰ لا يكون بين صفوفنا ومجتمعنا الإسلاميّ منافقون.

المقولة السادسة: دلّ عليها قول الله في التعليم:

﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾:

أي: فتربَّصُوا بنا كما يَحْلُو لكُمْ، فَنَحْن واثِقُون من رَبّنا الذي هو مولانا ولا مولىٰ لنا غَيْرُه، وعليه توكَّلْنَا.

وإنّا مَعكُمْ مُتَرَبِّصُونَ مَا يُحَقِّقُهُ الله لنا من خير، وما يحقِّقُهُ لكُمْ من عذابٍ ونِقْمَةٍ، ضمن مجاري حكمته في قضائه وقَدَرِه، ونُصْرَتِه لأوليائه، وخِذْلانه لأعدائه.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

---

(١) هذه القضية (هل تَرَبَّصُون بنا إلّا إحدى الحسنيين؟) تصلُحُ مثالاً لما يُسَمَّىٰ في المنطق بمانعة الخلوّ فقط، أي: لا يخلو الأمْرُ من إحداهما، مع إمكان اجتماعهما.

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

في هـذه الفقرة يُعلّم الله رسولـه وكـلّ مؤمن كيف يَغيظُون المنافقين في شأن النفقات الإسلامية التي ينفقونها مضطرين كارهين، لستر نفاقهم ببذلها كما يَبْذُلها أهلُ الإيمان، وهي قسمان من النفقات:

القسم الأول: النفقات الواجبة التي تؤخذ منهم بسلطان الدولة الإسلامية كالزكاة، وهذه يبذلونها أو تؤخذ منهم على سبيل الإكراه.

القسم الثاني: النفقات غير الواجبة التي يبذلونها طائعين كما يبذل المؤمنون الصادقون، ولكنهم لا يبذلونها إيماناً مُحْتَسِبين عند الله أجرهم عليها، بل يبذلونها تقيّةً، وليحقّقوا ببذلها مصالح لهم عند الرسول أو جماعة المؤمنين، كالمعونات التي يقدّمونها للجهاد في سبيل الله، وكالصدقات التي يُنْدَبُ المسلمون لبذلها، من أجل الفقراء والمساكين، أو المصالح العامة.

وإغاظة المنافقين بشأن ما يُنفِقُون من أموال طائعين أو مُكرهين، تكون بإعلامهم أنّها تؤخذ منهم بحسب ظاهر إسلامهم، ثم لا تكون لها ثمرةٌ عند الله، لأنّ الله لا يَقْبَلُها مِنْهُمْ، ولا يُثِيبُهم عليها، أي: لا يُدوِّنها لهُمْ ضمن الأعمال الصالحة التي يثيب عليها، فشرط قبول العمل الصالح عند الله، أنْ يكون مبنيّاً على القاعدة الإيمانية الصحيحة بالله عزّ وجلّ وبكلّ ما أَمَرَ بالإيمان به، وأن يُبْتَغَى به وجه الله، وأن يكون على ما شرع الله أو أذن به.

والمنافقون كافرون باطناً، ولا يعملون الصالحات ابتغاء مرضاة الله، فالله لا يقبل منهم الأعمال التي يرى الناس أنها تَدْخُلُ في جداول الأعمال الصالحة.

ولذلك جاء في التعليم:

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

طَوْعاً أو كَرْهاً: أي: مختارين أو مجبورين.

الطَّوْعُ: هو الانقياد للفعل بالاختيار.

والكَرْهُ: هو أداءُ الفعل بالجبر دون اختيار.

قرأ جمهور القراء العشرة [كَرهاً] بفتح الكاف، وقرأ حمزة والكِسَائي وخَلف [كُرهاً] بضمّ الكاف. وهما مصدران بمعنى الإكراه، فالقراءتان اشتملتا على وجهين لنُطْقِ الكلمة في العربيّة.

وانتصب [طَوْعاً أو كرْهاً] على الحالية بتأويلهما بمشتق، أي: طائعين أو مُكْرَهين.

﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾:

أي: عند الله يوم الدِّين ضمن قبوله لصالحات أعمال العباد، أمّا في الإجراء البشري فتؤخذُ مِنْهُمْ النفقات الواجبة إذا تمنّعوا من أدائها، وهُمْ مُكْرَهُونَ، وتُؤخذ منهم النفقات التي يبذلونها طائعين في أبواب البرّ، مع أنّهم غير منتفعين بها عند الله.

ويقال لكم يوم الدين:

﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

أي: إنّكم كنتُمْ خارجين عن دائرة الإيمان بما كان يجب عليكم أن تؤمنوا به، وعن دائرة الطاعة لربكم التي كان يجب عليكم أن ترعَوْها.

بعد هذا أبان الله عزّ وجلّ السبب في عدم تقبُّل الله نفقاتهم التي يبْذُلونها في وجُوه الخير بحسب الظاهر، فقال تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

كان المتبادر بحسب مفهومات الناس أنْ يُقالَ: وَمَا مَنَعَ اللَّهَ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُمْ نفقاتهم إلّا أنهم... إلى آخر ما جاء في الآية.

لكنَّ اللَّهَ لا يمنعُهُ شيءٌ لَوْ شاء أن يَقْبَلَ مِنْهُمْ نَفقاتِهِمْ بقِيَ أَنَّهُمْ هُمُ الممنوعون من أن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفقاتُهم، فجاء التعبيرُ القرآنيُّ مبيِّناً أنْ كُفْرَهم في الباطن الذي تدلُّ

عليه أماراتُه في الظاهر، هو الذي كان مـانعاً لهم منْ أنْ تكُـونَ نفقاتُهُمْ واصلةً إلَىٰ اللّٰهِ ومقبولةً عنده، إنّ ما كان لغير الله فهو لا يَصِلُ إلى الله، فالمانع له من الوصول إلى اللّٰهِ هو كونه لغير الله بسبب أنهم كفـرُوا باللّٰهِ وبِـرَسُولـه، والفاعـل الحقيقيُّ في هذا المنـع هو اللّٰهُ عزّ وجلّ.

قرأ جمهور القرّاء العشرة [أنْ تُقبَل] بالتأنيث لأنّ نائب الفاعل مؤنث.

وقرأ حمزةُ والكسائي وخلف [أنْ يُقبل] بالتذكير لأن نائب الفاعل مجازيّ التأنيث فيجوز فيه التذكير.

فالقراءتان وجهان عربيان جائزان.

قد يقال: إنّ كُفْرَهُمْ هو المانع من وصول نفقاتهم إلى الله ومن قبولها عنده، فَلِمَ عُـطِفَ عليه كَـوْنُهُمْ لاَ يأتـون الصّلاة إلاّ كُسَـالَى، ولاَ يُنفِقُونَ إلاّ وهُم كَـارِهُون؟ فهـل المانع مركَّبٌ من هٰذهِ الثلاثَة؟

ويُمكنُ أنْ نُجيبَ بـأنّ حـرف العـطف الـذي هـو «الـواو» في قـولـه تعـالى: ﴿وَلاَ يأتُونَ...﴾ هو بمعنى «الفاء» فقد ذكر علماء اللّغة العربية أنّ «الواو» تأتي أحياناً بمعنى «الفاء» فالمعنى على هـذا أنّ المانـع هو كُفْرهم الذي تـرتّب عليه في سلوكهم أنّهُمْ لاَ يأتُون الصلاة إلاّ في حال أنّهم كُسَالَىٰ، ولاَ يُنفِقُونَ طوعاً أو كَـرْهاً إلاّ في حـال أنّهم كارِهُونَ أن يُنْفِقوا، غَيْرُ راغبين في البـذْل، وقد جـاء هذا البيـان لإعلام المؤمنين بأنْ يسْتَدِلُّوا بظواهر السُّلوكِ وأمارات هذه الظواهر على ما في الضمائر.

سبق أن كشف الله من صفات المنافقين أنّهُمْ إذَا قَامُوا إلى الصـلاة قامـوا كُسَالَىٰ يُـرَاءُون الناس، وذلـك في الآيـة (١٤٢) من سـورة (النسـاء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نـزول) وسبق شـرح هـذه الآيـة في النص (١٨) من هـذه الـدراسة. والسبب في تكـاسلهم وكراهيتهم أنهم غير مؤمنين بجَـدْوَىٰ ما يُؤدّون، ومن المعلوم في طبـائع النـاس أنّ من يعمل عملاً ما وهو غير مؤمن بجدواه لنفسه، فإنّـه لاَ يؤدّيه إلاّ كـارهاً، وإذا كـان يحتاج إلى بذل طاقةٍ جسَدِيّة فإنّه لا يبذلُ هذه الطاقة إلاّ بتثاقل وكَسَلٍ وفُتور، لا بنشاطٍ وهمّـة ورغبة.

وفائدة إعادة ظاهرة تكاسلهم في أداء الصّلاة ما في النصين من تكامل، مع لفت أنظار المؤمنين هنا إلى أنّ هذه الظاهرة هي إحدى الأمارات المهمّة الدالّة على نفاق المنافقين.

فالآية التي في سورة (النساء) توجّه لملاحظة تكاسلهم حين القيام إلى الصلاة ضمن جماعة المصلين من المؤمنين.

والآية التي في سورة (التوبة) توجّه لملاحظة تكاسلهم حين إتيانهم من بيوتهم أو مواقع وجودهم إلى أداء الصلاة مع المصلّين، وأنهم لا يأتونها إلا كُسالىٰ.

فالربط بين الملاحظتين يقوّي دلالة الأمارة على نفاقهم مع دلالة الحصر في آية (التوبة).

والآية التي في سورة (النساء) تكشف أنهم يراءون الناس بصلاتهم، ولا يؤدّونها إيماناً بجدواها وابتغاء مرضاة الله منها.

والآية التي في سورة (التوبة) تكشف أنّهم يؤدّون الأعمال الإسلامية وهُمْ كارهون لأدائها، وذلك عن طريق دلالة قياس أدائهم للصلاة التي لا يأتونها إلاّ كُسَالَىٰ على الإنفاق الذي لا يفعلونه إلاّ وهم كارهون فعله.

فتكاملت الدلالات في النّصين.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله فكلّ مؤمنٍ بأسلوب الخطاب الإفرادي:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ﴾:

الإعجاب بالشيء استحسانه، وقد يصاحب هذا الاستحسانَ الشُعورُ بأنه أمْرٌ مفاجىءٌ جاء على خلاف التوقُّع بالنسبة إلى سابق التصوّر.

لذلك فقد يولّد عند الجاحد إنكاراً، وقد يولّد شكوكاً حول حقيقته، وقد يولّد

تساؤلات حول سبب وجوده، وقد يولّد إعظاماً وإكباراً عند المندهش به، وقد يقتصر الإعجاب على الاستغراب دون الاستحسان.

يقال لغة: عجِبَ من الشيء يعجَبُ عَجَباً، وعَجْباً، وعُجْباً، ويقال: أعْجَبَهُ الأمْرُ، إذا حَمَلَهُ على الْعَجَبِ منه، وكذا إذا عَجِب منْه وسُرّ به، وأُعْجِبَ بالأمْرِ، أي: عَجِب منْهُ واستحسنه.

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾:

أي: وتزول أنفسهم وتضمحلّ بخروج أرواحهم وانفصالها عنهم بشدّة وصُعُوبة.

أصل الزهوق السبق والتقدم، وزهوق الباطل يكون بسرعة زواله واضمحلاله، وزهوق النّفس يكون بأن تسبق إلى أن تذوق الموت وغصّته قبل أن تحقّق مراداتها من دُنياها.

والخطابُ في الآية موجّه بأسلوب الخطاب الإفرادي للرّسول فلكلّ مؤمنٍ قد يتعرّض للإعجاب بأموال وأولاد المنافقين، والمقصودُ إقناع المؤمنين، وخُوطِبَ الرسولُ باعتباره أولَهُمْ وقائدهم، مع أنه صلوات الله عليه وسلاماته لا يتعرّض لمثل هذا الإعجاب، فهو عالم بحكمة الله في تصاريفه في كونه، وعطائه ومنعه لعباده.

لكن المؤمن الذي لم يُدْرِكْ بَعْدُ حكمة الله في مقاديره، قد يتعجّبُ إذا رأى المنافقين قد وسّع الله عليهم في الرزق، فكثّر أموالهم، ومَنَحَهُمْ أولاداً يحمونهم ويشدّون أزرهم في الحياة الدنيا.

وإجابةً على التساؤلات التي قد يطرحها المؤمن في نفسه عن الحكمة من إمداد الله بعض المنافقين بالأموال الكثيرة وبالأولاد الذين يكونون لهم قوّةً في الحياة الدنيا، ولئلا يتعجّب تَعَجُّبَ المعترض على حكمة الله، قال اللّهُ له:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾:

أي: إذا نظرت إلى بعض المنافقين فوجدتهم يتقلّبون في أموال كثيرة، ومَحُوطين بأولادٍ متعدّدين، فلا تُعْجِبْكَ أمْوالُهم ولا أوْلادُهم.

وهنا يتساءل هذا المؤمن: أليسَ إمدادهم بالأموال والأولاد إكراماً لهم في الحياة الدّنيا، وتقوية لهم ضدّ المؤمنين؟!

وأجاب الله عزّ وجلّ على هذا التساؤل بقوله:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝٥٥﴾:

أي: مَا يُريدُ الله إكرامَهُمْ ولاَ تَقْويتَهُم بِها في الحياة الدنيا، إنَّما يُريدُ مُرَادَاتٍ أُخرَىٰ، منها ابتلاؤهم وابتلاءُ المؤمنين بهم، ومنها استدراجُهُمْ وتَعريضُهم بسبب أموالهم وأولادهم لمُشْكِلاَتٍ ومصاعِبَ ومتاعِبَ وهُمُومٍ وغُمُومٍ وعَوَارِضَ وكَوارِثَ، وكَدٍّ في الجمع والحفظ والمراقبة، دون أن يستمتعوا بما يجمعون وما يملكون، ودون أن يَسْعَدوا بأولادهم، إذْ يجعل الله أولادهم أعداءً لهم، يتمنَّوْنَ موتهم ليرثوا أموالهم.

فما يريدُ الله من إمدادهم بالأموال والأولاد إلاّ أنْ يجعلهم في محيط من المشكلات التي تُسبِّبُها لِيُعذِّبَهُمْ بها.

ولا يدُلُّ هذا على أنّ كلّ من يُمِدُّهُمُ اللّهُ بالأموال والأولاد إنّما يُمِدُّهُمْ بها لِيُعَذِّبَهُمْ بها في الحياة الدنيا، ولكن هذا الْحَصْرَ خاصٌّ بذوي الأموال الكثيرة والأولاد المتعدّدين من المنافقين، إذْ يجعل الله أموالهم وأولادهم من أسباب شقائهم وآلامهم ومتاعبهم في الحياة الدنيا، وهذا مُشَاهد لدى بعض أصحاب الأموال الكثيرة والأولاد المتعدّدين، فما ظاهره في أعين الناس نعمة، قد يكونُ في الواقع بتصاريف الله وتدابيره نقمة، وقد يُعذّب الله غير المنافقين بمثل هذا العذاب من أهل الكفر والمعاصي.

ولَمّا اقتضت حكمةُ امتحانِهم إمدادَهُمْ بالأموال والأولاد، باعتبار أنّ نفوسهم شديدةُ الحبّ لها والتعلّق بها، فامتحانُهُمْ بها هو الذي يكشف حقيقتهم، كان من مقتضَى هذه الحكمة أيضاً إبقاء هذا الإمدادِ لهم بالأموال والأولاد حتّىٰ مَوْتهم، وبما أنّ امتحانهم على الوجه الأمثل لا بدّ أن يكشف كُفْرهم فإنَّهُمْ سيظلّون على كفرهم حتّىٰ تزهق أنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافرون.

هذا ما نفهمه من عموم الآية، فكيف نستخرجه من ألفاظها؟

الـجـواب:

إذا نـظرت أيّهـا المؤمن إلى بعض المنـافقين فـوجـدتهم محـظوظين بكثـرةٍ من الأمـوال والأولاد ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم﴾ إعجـابَ مستغربٍ من إمـداد الله لهم بـذلك وهم كفـرة منافقـون، فإنّ الله لا يـريد إكـرامهم وإسعادهم بهـا، إنّما يُريدُ مرادَاتٍ أُخرى: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ أي: بأموالهم وأولادهم ﴿في الحياة الدّنيا﴾ بما تُسبِّبه لهم من متـاعب وهموم وغمـوم ومشكلات ﴿وَ﴾ لـ ﴿تَزْهَقَ أنفسهم﴾ عنـد مـوتهم في ختـام رحلة امتحانهم مفتـونين بما يحبّـون ويهْوَوْنَ من أمـوالٍ وأولادٍ ﴿وهُمْ كافـرون﴾ وبعد ذلك يلْقَوْنَ عذابهم الأكبر على كفرهم ونفاقهم.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

قرأ جمهور القرّاء العشرة: [مُدَّخَلاً] بضمّ الميم وتشديد الدال المفتوحة.

وقرأ يعقوب [مَدْخَلاً] بفتح الميم وسُكون الدال.

الْمُدَّخَلُ: مكـانٌ يُدَّخَـلُ فِيه لـلاختباء، دُون المغـارة ذات الجوف الـذي يختفي الداخل فيه اختفاءً كاملاً.

الْمَدْخَلُ: مكانٌ ما يَدْخُلُ الـداخل فيـه للاختبـاء، ولو لم يَبْلُغ أنْ يكـونَ مُدَّخَـلاً شبيهاً بالمغارة، كحُفْرَةٍ في الأرض، أو فراغ بين صخرتين، أو جـدارين، أو أيّ جوفٍ ساترٍ.

فبين القراءتين تكامُلٌ فكري.

﴿مَغَارَاتٍ﴾:

جمع «مغارة» وهي الْغَارُ في الْجَبَل، جَوْفٌ فارغ داخـل جبلٍ مـا، كَبيتٍ يحتمي فيه إنسان أو حيوانٌ من الوحش، كالضَّبُع.

﴿مَلْجَـًٔا﴾:

المَلْجأُ المكان المحصَّنُ الَّذي يَلْتَجِىءُ إليه الْخَائفُ ليحتميَ ويتحصَّنَ به، وهو في العادة أحْصَنُ من المغارة، كقلعة أو حِصْنٍ.

فشملت الآية الاحتمالاتِ الأربع ذات المستويات المختلفات، في نسبة حمايتها وإخفائها مَنْ يختبىءُ بها خائفاً.

فأحْصَنُها المَلجأ، ثم المَغَارَاتُ العظمىٰ والصُّغرىٰ الَّتي تكون في الجبال عادة، ثم يأتي دُونَ المغاراتِ المُدَّخَلُ الذي يُشْبه المغارة لكنّه دُونَها إخفاءً وحمايَةً، ثم يأتي دُونه مَدْخَلٌ ما يختبىء به من لا يجدُ ما هو أسْتَرُ مِنْهُ وأحْصَن.

﴿يَجْمَحُونَ﴾:

أي: يَجْزَعُون ويخافون خوفاً شديداً، يُقَال لغة: فَرِقَ مِنْهُ يَفْـرَقُ فَرَقـاً، إذا اشتَدَّ خَوْفُه منه وجَزِع.

﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ﴾:

أيْ: لأدْبَرُوا وابْتَعَدُوا مُلْتَجِئِين إليه ومختبئين فيه.

﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾:

أيْ: حالة كَوْنِهِمْ يَجْمَحُونَ حين تَوَلِّيهم إلى المكان الذي يجدونه للاختباء به.

يُقَالُ لُغَةً: جَمَحَ الفرَسُ يَجْمَحُ جَمْحاً وَجُمُوحاً، إذا خرج عن طاعة صاحِبِه بعُنْفٍ وانْطَلَق في غير ما يريد منه. ويقالُ: جَمَحَ الرَّجُلُ إذا ركب هواه، وانْطلق على غير هدىً، واستعصَىٰ على من يُريدُ ردَّه، ويقال: جَمَحتِ السفينة إذا خرجت عن طريقها الصالح فلم يَضْبِطْها الملاحُون، فالْجُمُوحُ هو الانطلاق بعنف ومعاندة مع ركوب الهوى.

كشفت هاتان الآيتان ثلاث صفاتٍ من صفات المنافقين:

الصفة الأولى: أنّهم لا يكتفون بادّعاء أنّهم مؤمنون مسلمون، وهم في الحقيقة كاذبون، بل هم يحلفون الأيمان بالله قائلين للمؤمنين وهم يكذبُون: واللّهِ إنّنا لمِنْكُمْ،

وما هم في الحقيقة مِنْهُمْ، بل هم كافرون، قُلوبُهُمْ مع إخوانهم في الكُفر لا مع الذين آمنوا.

دَلَّ علَىٰ هذه الصِّفة قول الله تعالى:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾.

واو العطف في ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ يحتمل أن تكون عاطفةً على ما جاء في سوابق هذه الجملة من صفات المنافقين، ويحتمل أن تكون استئنافية، وفائدة الاستئناف التنبيهُ على أنّ ما بعده غير متّصلٍ بما قبله اتّصالاً مباشراً ضمن عناصر موضوعه.

فهم إذا كانوا بين المؤمنين وخافوا افتضاح حقيقتهم، وأن يكْتَشِفَ المؤمنون أنّهم مُنافقون، فَيُنْزِلُوا بهِمْ عُقوبَةَ الرِّدَّةِ عن الإسلام، سارعوا إلى سَتْرِ أَنْفُسِهِم بأن يَحْلفُوا باللَّهِ كاذبين، وذلك كلّما ظهر من بعض المؤمنين عباراتُ أو إشارات استفسار عن حقيقةِ صِدْق إيمانهم، وهلْ هم من أهل الإيمان أم من أهل الكُفر، ويكون هذا عادة حينما يتصرّف المنافقون تصرّفاتٍ مُثيرةً للشّكّ في أمرهم، فيقول المنافقون حينئذٍ للمؤمنين: نَحْلِفُ بالله إنّنا لَمِنْكُمْ وَلَسْنا مع الذين كفروا من المشركين أو أهلِ الكتاب، أو غيرهم.

ويُبيّن الله كذِبَهُمْ بقوله:

﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾.

الصفة الثانية: أنّهم يَتَجدَّدُ خَوْفُهُمُ الشّديد إلى حدِّ الجزَع من أن يُنْزِل المؤمنون بهم عقوبةَ الرِّدّة، كلّما اكتشف المؤمنون بعض أمارات نفاقهم، وارتابوا، ووجّهوا لهم عباراتِ الاستفسار عن هوّيتهم الحقيقية، أو نظراتِ الارتياب، وهو الأمر الذي يجعلهم يبادرون بِحَلفِ الأيمان الكاذبة، لِيَدْرَؤوا عن أنفسهم العقوبة.

دلّ على هذه الصفة قول الله تعالى:

﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾.

عبارة ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ مساويةٌ لعبارة: وَمَا هُمْ صادقون فيما يحلفون بالله عليه، فيأتي قوله تعالى: ﴿ولَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُون﴾ لبيان السبب الذي يجعلهم يحلفون باللَّهِ

كاذبين، أي: لَيس غَرَضُهُم إِثْبَاتَ أنّهم مع المؤمنين حقّاً، ولكنّ غرضَهُمْ سَتْرُ كُفْرِهم ونِفَاقِهم، بسبب أنّهم يَخَافُونَ خوفاً شديداً مُجْزِعاً من معاقبة المؤمنين لهم، إذا تأكّد لهم كُفْرُهم ونفاقُهُمْ.

الصفة الثالثة: أنّهم لو يَجِدُونَ ـ حينَ يكتشف المؤمنون أماراتِ كُفْرِهم في الباطِنِ ـ أيَّ مَخْبَأٍ يَخْتَبِئون به، فوق سَتْرِ أَنْفُسِهِمْ بالأيمان الكاذبة، لأداروا ظُهورَهُمْ وأَسْرَعُوا للاختباء به من شدّة خوفهم وجَزَعِهم، شُعوراً مِنْهُمْ في داخل نفوسهم بأنّهم يَستحقُّون أنْ يُنْزِل المؤمنون بهم أشدّ العقاب، فهم أعداء مخادعون، وهم مخالطون مداخلون.

وقد عبّر الله عزّ وجل عن حالة نفوسهم هذه بقوله:

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

إنّهم يفكّرون أوّلاً بان يجدوا ملجأً يلجؤون إليه ويتحصّنُونَ فيه، وهذا في حركة نفوسهم السريعة.

فإن لم يَبْدُ لهم مَلْجأٌ فكّروا بأن يجدوا مغارات في الجبال يَخْتَبِئونَ بها.

فإن لم تكن المغارات قريبة مِنْهُم فكّروا بأَنْ يَجِدُوا مُدَّخَلاً يستترون به، كما جاء في قراءة جمهور القرّاء العشرة.

فإن لم يَجدوا مُدَّخلاً قريباً مِنْهُمْ اكتفَوْا بأَنْ يجدوا مَدْخلاً ما يسترون أنفسهم فيه، كما جاء في قراءة يعقوبَ.

كلُّ ذلك في حركة فكريّة نفسيّة تمرّ داخلهم، صوّرها القرآن أبدع تصوير، فدلّ على الحركة النفسيّة السّريعة التي تعتريهم عند شدّة خوفهم من عقاب المؤمنين لهم، وعلى تهالكهم النفسيّ على أن يجدوا مخبأ، بدءاً من أحصن المخابىء، حتّى أهونها وأضعفها.

ولو أنّهم يَجِدُون على توالي أزمانهم شيئاً من ذلك لأدْبَروا عن المؤمنين، وأسْرَعُوا إليه بعُنفٍ إسراعَ الْجَمُوحِ الذي يعاند الحقّ وسَبيل الهدى، ولآثَرُوا

المخابىء على الإيمان بالحق، واتّباع سبيل الهدى بصدق، مع أنّ هذا متيسّرٌ لهم بالتوبة وصدق الإيمان، وبالتخلّص من مَضَلَّاتِ النّفاق بالإرادة الصادقة الحازمة.

وهذه الصفات من صفات المنافقين يصْلُح تعميمها على مختلف الأحوال، والقياس عليها.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾.

قرأ جمهور القرّاء العشرة: [يَلْمِزُكَ] بكسر الميم.

وقرأ يعقوب فقط: [يَلْمُزُكَ] بضمّ الميم.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق فعل «يلمز» يقال لغة: لَمَزَهُ يَلْمِزُه ويَلْمُزُهُ لَمْزاً إذا عابهُ، أو أشار إليه إشارةً تدلّ على أنه يَعِيبُه بشيء ما، والإشارة تكون بحركات العين أو الشفة أو نحوهما مع كلامٍ خفيّ. ورجلٌ لَمّازٌ ولُمَزَةٌ، إذا كان دأبُهُ أن يفعل ذلك.

﴿فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾:

أي: في توزيع الصّدقات على مستحقيها، والمراد من الصدقات هنا ما يُجْمَع من الزكاة، بدليل الآية التي جاءت بعد هذا النصّ التي تحصر مصارف الصدقات في الأصناف الثمانية، وهي مصارف الزكاة.

لكنّ «الصّدقات» قد تُطْلَقُ على ما يُبْذَلُ تطوُّعاً فوق الزكاة، ويُستدلُّ عليها بالقرائن، كما سيأتي في الآية (٧٩) من سورة (التوبة): ففيها قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ . . .﴾.

مما روي في سبب النزول:

(١) قال ابن جريج، أخبرني داود بن أبي عاصم قال: أُتِي النبيُّ ﷺ بصدقة،

فقسّمها هَهُنا وههنا حتّى ذهبت، قال ووراءه رجلٌ من الأنصار، فقال: ما هذا بالعدل، فنزلت هذه الآية، أي:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾.

(٢) روى البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: بَيْنَا النَّبيُّ ﷺ يَقْسِمُ وفي رواية «قَسْماً»، جاء عبدُ الله بنُ ذِي الْخُوَيْصِرَة التَّمِيْمِي فقال: اعْدِل يا رسولَ الله.

فقال: «وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إذا لَمْ أَعْدِلْ؟!».

قال عُمَرُ بن الخطاب: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ.

قال ﷺ: «دَعْهُ، فإنَّ لَهُ أَصْحاباً يَحْقِرُ أَحَدُكُم صَلاتَهُ مَع صَلاتِه، وصِيامَهُ مَعَ صِيامِهِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينَ كَما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ فِي قُذَذِهِ فَلا يُوجَدُ فِيه شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَىٰ نَصْلِهِ فَلا يُوجَدُ فِيه شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَىٰ رِصَافِهِ فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَىٰ نَضِيِّهِ فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ إحدَىٰ يَدَيْهِ ـ أو قال ثَدْيَيْهِ ـ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، أَوْ قالَ: مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، يَخْرُجُونَ على حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ».

قال أبو سعيد: أَشْهَدُ سَمِعْتُ مِنَ النبيِّ ﷺ، وأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيّاً قَتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ، جِيءَ بالرَّجُلِ عَلَى النَّعْتِ الَّذِي نَعَتَهُ النبيُّ ﷺ، قال: فَنَزَلَتْ فِيهِمْ:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ...﴾.

«انظر فتح الباري ج (١٢) الحديث (٦٩٣٣) وأخرجه غير البخاري»

يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّين: أي: يخْرُجُونَ مِنْه، يُقالُ لُغَةً: مَرَقَ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ يَمْرُقُ مُرُوقاً، إذا اخْتَرقَها وخَرَجَ مِنَ الجانب الآخرِ في سُرْعَة.

الرَّمِيَّة: الْهَدَفُ والغَرَضُ الَّذِي يُرْمَىٰ إليه السَّهْمُ لإصابته، صيداً كان أو غيره.

يُنْظَرُ فِي قُذَذِه: قُذَذٌ: جمع «قُذَّة» وهي رِيشَةُ الطائر بعد تسويتها وإعْدادها لتُرَكَّب في السَّهْم من جهة ذيله مع أشباهها، لحفظ توازن السهم عند انطلاقه.

ثم يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ: نَصْلُ السَّهم الحديدة الحادّة التي توضَعُ في رأسِ عُودِه.

ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ: «رِصاف» جَمْعُ «رَصَفَة» وهي عَصَبَةٌ من الأوتار، ويقال لها «عَقَبَة» تُلْوَى فَوْقَ مَدْخل أسْفَلِ نَصْلِ السهم في عُودِه، وتُشَدُّ لِتثبيتِ النُّصْل، وهذا القِسْمُ الأسفل من النّصل يُسَمَّى «سِنْخاً».

ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ: نَضِيُّ السَّهْم هو ما بين رِيشِهِ ونَصْلِه.

والمرادُ من هذا البيان التفصيلي أنّه لم يَعْلَق في السَّهْم من الرَّمِيَّةِ التي هي الصَّيْدُ شَيْءٌ، لأنّه مَرَقَ منها بسُرْعَةٍ فائقة، أي: لم يبق فيهم من الإسلام شَيْءٌ.

سَبَقَ الْفَرْثَ والدَّمَ: أي: سبَقَ السَّهْمُ بسُرْعَتِهِ أن يَعْلَقَ به شيءٌ من الحيوان الذي هو هدف الرّامي، لا شيءٌ من فَرْثِهِ، ولا شيءٌ من دَمِه.

مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ: الْبَضْعَةُ: اي: قِطْعَةٌ من اللّحم.

تدَرْدَرُ: أي تَتَرَجْرَج وتَضْطرب كما يترَجْرَجُ ثَدْيُ المرأة.

وقد ظهر هؤلاء القوم في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهُمُ الْقَوْمُ الذين خرجوا عليه وقاتلهم، واستأصل مُعْظمهم وقتل آيَتَهُم، أي: العلامة التي تدلّ عليهم، وهو رجل منهم، ولمّا بحثوا عنه في القتلىٰ وجدوا أنّه على الوصف الذي جاء في كلام الرسول ﷺ، ولمّا رآه علي بن أبي طالب كبّر شُكْراً لِلَّهِ، وسُروراً بأنَّهم هم الذين عناهم الرسول ﷺ في حديثه عنهم.

* * *

التـدبُّـر

في هاتين الآيَتَيْن يبيّن الله عزّ وجلّ ظاهرةً من ظواهر النفاق، توجد لدى بعض المنافقين، وهي لَمْزُ الرّسول ﷺ والطعن فيه بالقول أو بغيره، في تصرّفه لدى توزيعه الصدقات على المستحقّين، واتّهامِهِ بمجانَبةِ العدل إذا لم يُعْطهم منها، فإنْ أعطاهم من الصدقات ولو لم يكونوا من المستحقّين رضُوا، وإن لم يُعْطِهم وهم غير مستحقين فاجَؤُوا عدلَ الرسولِ وحكمته بإعلان سخطهم، كأنهم كانوا يترقبون أن يُعْطِيَهُمْ منها مُتحلِّبَةً أشْداقُهُمْ للأخذ من الصّدقات دون استحقاق، وحين يرى الرسول بحكمته أنهم

أغنياء ليس لهم حقٌّ في الصدقات، إذْ هي تصرف في مصارف الزكاة، تَنْطَلِقُ منهم عباراتُ أو إشارات السُّخط واللَّمْز طعْناً في الرسول بصورة مُفاجِئةٍ غَيْرِ مُرْتقَبة.

إنّ تسخُّطَهُم يأتي مُفاجِئاً للرسول ولحاضري مجلس توزيعه الصّدقات، لأنّه لا داعي له مطلقاً، فهو أمْرٌ مستغرب جدّاً، باعتبار أنّهم غَيْرُ مستحقين، أمّا من جهتِهم فإنّهم لا يملكون إلّا أنْ تنفجر فيهم قُنْبلَةُ التَّسَخُّط، لأنّهم كافرون باطناً، ومشحونون بالطّمع، ومُتَرقِّبون أنْ يكون لهم من الصدقات نصيب، ويُفَاجَؤُون بخيْبَةِ الأملِ حين لا يعطيهم الرسول، فينفجر فيهم السخط مما تجمّع بداخلهم من غضب.

فقال الله تعالى خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾.

أي: ومن المنافقين من يَلْمِزُك يا مُحمَّدُ في توزيع الصُّدقاتِ على مستحقيها، طاعناً لك بأنّك لا تَقْسِمُ بالعدل، وحالُ هذا الصِّنْفِ من الناس أنَّهم إن أعْطُوا مِنَ الصّدَقاتِ ولو لم يكونوا من أهل الاستحقاق رَضُوا فلم يلمزوا، وإنْ لم يُعْطَوْا مِنْها وهم غير مستحقّين فاجَؤُوا بالتسخُّط والتذمّر، واللَّمْزِ طَعْناً وعَيْباً.

وأرْشَدَهُمُ اللّهُ إلى ما هو خيرٌ لَهُمْ، دون أن يُواجههم بالخطاب، إعراضاً عَنْهُمْ، وإشعاراً لهم بسوء أدبهم مع الرسول، وأنّ لَمْزَهُمْ له كبيرَةٌ من الكبائر، وهي تدلّ على نفاقهم وعدم صحة إيمانهم بالرسول فقال الله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾.

﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾:

أي: إنّا إلى الله مُبْتَهِلُون متضرّعون سائلون، يُقالُ لغة: رَغِبَ إليه في كذا، إذا سأله إيّاه، ورَغِبَ إليْهِ، إذا ابْتَهل وتضرَّعَ وطَلَبَ.

وقد جاء في الإرشاد بيان أربع وصَايا لو اتّبعُوها لنالوا خيراً عظيماً، وهذه الوصايا

جاءت بصيغة جُمَلٍ شرطيَّةٍ مُصدَّرَة بحرف الشرط «لو» والجواب محذوف لأنّ الذهن يستطيع إدراكه بيُسْر، فاقتضت بلاغة الإيجاز حذفه.

الوصية الأولى: دلّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾:

أي: ولو أنّهم رضُوا ما آتاهُمُ اللّهُ باعْتِبَارِ أنّه هو المعطي الْمُتَفَضِّل، وما آتاهم الرسول باعتبار أنّه القاسم المنفذ لعطاء الله، ورَضُوا أيضاً ما لَمْ يُؤْتِهم الله ورسوله، وآتى غيرهم ما لم يؤتهم منه لمَا له في تدبيره من حكْمة.

وأغنىٰ ذكر إيتائهم عن ذكر عدم إيتائهم، لإشعارهم بأنّ نِعَم الله عليهم عظيمة جدّاً، فعليهم أن يَرْضَوْا بها ويشكُرُوا الله عليها، لا أن يلُوموا على ما لم يُعطهم وأن يتسَخَّطوا، وأنْ يلمزوا الرسول.

الوصيّة الثانية: دلّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾:

أي: قالوا: يَكْفِينا اللّهُ بعطاءاته، فهو المعطي، وهو الذي بيده الأمر كُلُّه، يجري مقاديره بمقتضىٰ مشيئته الحكيمة.

الوصيّة الثالثة: دلّ عليها قول الله تعالى:

﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾:

أي: وقالوا: إذا سألْنَا اللّهَ وتوكلنا عليه فَسَيُؤْتِينا اللّهُ من فضلِهِ مستجيباً دُعاءَنا، ففضله عظيم، وخيرُه كثير، وإذا كان عَطاءُ الله عن طريق توزيعِ رسُولِه فسَيُؤْتِينا رسولُهُ من فضل الله، وسيُلْهِمه الله أن يُؤتِينا.

الوصية الرابعة: دلّ عليها قول الله تعالى:

﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ۝٥٩﴾:

أي: وقالوا داعِين ربَّهُمْ مبْتهلين مُتضَرِّعين، رَبَّنا آتِنا من فَضْلِكَ، إنّا إِلَيْكَ رَاغِبُون، نسألك ونبتَهِلُ إليك ونتضرّع.

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

* قرأ جمهور القراء العشرة [والْمُؤَلَّفَةِ] بتحقيق الهمزة.

وقرأ ورش وأبو جعفر [والمُولَّفَةِ] بإبدال الهمزة واواً في الوصل والوقف، وحمزة كذلك في الوقف فقط.

بمناسبة الحديث عن المنافقين الذين كانوا يَلمِزون الرسول ﷺ لدَى توزيعه الصَّدقات، إن لم يعطهم منها، لأنّهم ليسوا من الأصناف الذين تُبْذَلُ لهم، أبان الله عزّ وجلّ بنصٍّ صريحٍ مفصّل الأصنافَ الّذين تُدْفَعُ إليهِمُ الصَّدقات، وأبان أن توزيعها يجب أن يكون محصوراً بهم، بدلالة أداة الحصر «إنّما» التي بدأ الله بها الآية، فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾:

أي: لا تُبْذَلُ الصَّدَقات إلاّ للأصناف المذكورين في الآية.

الصنف الأول: الفقراء، جمع «الفقير» وهو من كان ذا حاجة حقيقيّةٍ لنفقاته ونفقات من يعولهم، سواءٌ أكان مُعْدِماً أوْ دون ذلك إلى ما دُون الكفاية، ولكنْ قدْ لا تكونُ هذه الحاجة ظاهرة عليه، فيحسبه الجاهل بحاله غنيّاً، من تعفّفه، أو من نشاطه وجلادته في العمل، فيظنّ أنّه يكْسِبُ ما يكفيه.

وأصل الافتقار إلى الشيء الحاجةُ إليه.

الصنف الثاني: المساكين، جمع «المسكين» وهو من كان ظاهره يدلّ على أنّه ذو حاجة، بسبب تعرُّضه لصدقات الناس، بما يبدي من حالٍ تُشْعر بأنّه فقير محتاج، أو بتصريحه بأنّه ذو حاجة، وبسؤاله صدَقات الناس وزكوات أموالهم، وربّما يكون في واقع حاله على خلاف ما يظهر بأقواله وأعماله.

فالمسكنة صفةٌ تظهر على الإنسان، تُشْعِرُ بأنّه فقير ذو حاجة، سواءٌ أكان صادقاً بمسكنَتِهِ أو كاذباً فيها.

فالبذلُ لكلٍّ من الفقير والمسكين سببه الحاجة لنفقاته، وأنه لا يملك كفايته، والفرق بينهما أنّ الفقير هو من كان فقيراً في حقيقته، ولو كان ظاهره قد يشعر بأنّه غنيّ، فيحسبه الجاهل بحاله غنيّاً. أمّا المسكين فهو من يتظاهر بالفقر ويتعرّض لأخذ صدقات الناس، أو يسألهم صراحة، وقد يكون في حقيقة أمره فقيراً، وقد يكون غير ذي حاجة.

هذا ما ظهر لي من الفرق بين الفقير والمسكين، من خلال سَبْرِ النصوص واستقرائها، ومن خلال النظر في جذور كلمتي الفقر والمسكنة لغة[1].

واختلف فقهاء المذاهب في الفرق بين الفقير والمسكين إلى حدّ اختلاف التضادّ، لكن سَبْرَ النصوص أكد لي صحة ما انتهيت إليه والله أعلم، وهو ما يُفْهَمُ ممّا روي عن ابن عبّاس، فقد أخرج ابن المنذر والنحاس عنه أنّه قال: الفقراء فقراءُ المسلمين، والمساكين الطّوّافون.

الصنف الثالث: العاملون عليها، وهُمْ جُبَاةُ الزكاة، السُعاةُ المكلّفون أن يجمعوها من ذوي الأموال، تُبْذَلُ لَهُمْ أجورهم ورواتبهم من الصَّدقاتِ التي يجمعونها. ويُطْلَق على العامل الذي يَجْبِي الزكوات ممّن تجب عليهم اسم «مُصَدِّق».

وكذلك كلُّ من يعمل في دائرة جمع الزكوات ونقلها وحفظها وتسجيلها وتوزيعها على ذوي الاستحقاق.

الصنف الرابع: المؤلّفةُ قُلُوبُهم، وهم الذين يرى إمام المسلمين، أنّه إذا أعطاهُمْ استمالهم لنُصْرَةِ الإسلام ونَشْرِهِ وتثبيته ونُصْرَةِ المسلمين، فلَهُ أنْ يُعْطِيَهُمْ من الأموال العامة التي أعطاه الله حقّ التصرّف فيها، ولَهُ أن يُعْطِيَهُمْ أيضاً من الزكاة التي

(١) انظر القاعدة السادسة عشرة من كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ وجل» للمؤلف (المثال الرابع).

يجمعها من المسلمين إذا اقتضى الأمْرُ ذلك، فأمر إعطائهم يرجع إلى تقدير أمير المؤمنين، بعد استشارة أهل المشورة في هذا الأمر.

واختلف الفقهاء: هل يُعْطىٰ من الزكاة مَنْ يُسْتَمال للإسلام أو لخدمة المسلمين من أهل الكُفر، فيُتَأَلَّفُ بذلك قَلْبُه، أمْ يُعْطَىٰ فقط من الأموال العامّة كأموالِ الفيء، فمنهم من يرَى أنّ للإمام أن يتألف بأموال الزكاة غَيْرَ الْمُسلِمين، ومنهم من يرىٰ أنّ ذلك لا يكون من أموال الزكاة، بل يكون من الأموال العامّة أو من الأموال الخاصة التي يتبرع بها المتبرّعون.

ولكلٍّ من الفريقين حُجَّتُه، والأمْرُ في ذلك يَسِير، وهو يرجع إلى تقدير إمام المسلمين وأهل مَشورته.

ومصرف المؤلفة قلوبُهم مصرفٌ يَرْجِعُ الْبَذْلُ فيه لتقدير إمَام المسلمين، ومراعاته المصلحة العامة للإسلام والمسلمين، فإن رأىٰ أن يبذل فيه من الزكاة أو من الأموال العامة بذل، وإن رأىٰ أن المصلحة لا تستدعي ذلك في عهد من العهود لم يبذل، فالمؤلفة قلوبُهُم ليس لهم حقٌّ في الزكاة أو في الأموال العامّة، حتّى يُطالبوا به، كَحَقّ الفقراء والمساكين في الزكاة، ولكن من حقّ إمام المسلمين أن يبذل من الزكاة للمؤلفة قلوبُهم إذا رأىٰ في ذلك مصلحة للإسلام والمسلمين، وهذا الفهم هو الذي فهمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين توقف عن إعطاء المؤلفة قلوبُهم، يوم أنْ وجد الإسلام عزيزاً منصوراً.

وفَهِمَ بعضُ الناس فعل عمر رضي الله عنه على غير وجهه، فاتّخذوا فعله هذا ذريعةً لإباحة إيقاف بعض شرائع الإسلام، بدعوى أنّ الأحكام تتبدّل بتَبَدُّلِ الأزمان، مع أنّ عُمَر قد فهِمَ النّصّ وطبّقه على ما فهمه، ولم يُوقف العملَ بالنّصّ القرآني.

الصنف الخامس: الأرقاء، أي: لإمام المسلمين، ونائبه في توجيه الزكاة لمصارفها، أن يَبْذُل من الزكاة لعِتْقِ الأرقاء، عبيداً أو إماءً، ويكون ذلك بتسديد أقساط الْمُكاتَب، وبشراء العبيد والإماء وإعتاقهم، وبمساعدة من يشتري الأرقاء ويعتقهم، أو يريد أن يعتقهم وهم في ملكه، وبأن يُعْتق مالِكُ الرقيق ويحتسب قيمة مَنْ أعْتَق من زكاة ماله.

الصنف السادس: الغارمون، أي: المدينون، تسديداً لديونهم، والذين أصابتهم جوائح تعويضاً لهم عمّا نزل بهم، والـذين يغرمـون من أموالهم لإصـلاح ذات البين، فيتعَهَّدون أن يبذلوا قدراً من المال للإصلاح، ويلتزمون ذلك في ذمتهم، فيُسَـدُّد عنهم من الزكاة، أو يُسَاعَدُونَ في ذلك.

الصنف السابع: سبيل الله، فما المراد من إنفاق السهم السابع من أسهم الـزكاة في سبيل الله؟

(١) رأى معظم فقهاء المذاهب أنّ المراد بذلُه في المقاتلين لإعلاء كلمة الله.

(٢) ورأى آخرون جواز صرفه في كلّ مصالح الإسلام والمسلمين العـامة، فهي تدخل في عموم عنوان «في سبيل الله» لأنّ سبيل الله هو دينه، وكلُّ الأحكام والـوصايـا التي أبانها فيه لعباده.

(٣) والرأي الثالث المعاصر المتوسط بين الرأيين السـابقين، وهو ما تنطبق عليـه عبـارة «الجهاد في سبيـل الله» بمعناهـا الواسـع الـذي دلّت عليـه نصـوص الجهـاد في سبيل الله في القرآن، وقد سَبَرْتُها في كتاب «بصائر للمسلم المعاصر» في الباب الرابـع منه، فوجـدت أن هـذا الجهـاد يشمـل تعليم الإسـلام وتـربيـة الـدعـاة إلى دين الله، ومساعدتهم وتوظيفهم للقيام بواجب الدعـوة إليه بـالحكمة، وللقيـام بالأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر بالفكر والقلم واللسان، وغير ذلك من وسائل مؤثرة تُكْتَشَفُ لتوصيل دين الله إلى عباد الله، في مختلف بقاع الأرض كالإذاعة، ويَشْمَلُ إعداد المستطاع من القوّة لإرهاب أعداء الله، ويشمل إمداد المقاتلين في سبيل الله لإعلاء دينه والدفـاع عن المسلمين وبلدانهم ودولته بما يحتاجون إليه من أسلحة ومُؤَن، ويشْمَلُ كفـالَةَ أُسَـرهم ورعايةَ هذه الأُسَر ما داموا غزاة في سبيل الله، فمن جَهَّـز غازيـاً في سبيل الله فقـد غزا ومن خلف غازياً في أهله فقد غزا، وهكذا إلى أشباه هذه المجالات.

أمّا إطلاق عبـارة «في سبيل الله» لتشمـل كلّ إنفـاقٍ فيما يُـرْضي الله من مصالـح المسلمين العامّة والخاصة، دون تقييدها بمفهوم كلمة الجهاد الشاملة لما سلف بيانـه، والتي لا تقتصـر على القتـال في سبيـل الله، فهـو أمْـرٌ مستبعَـدٌ، لأنّ البـذل في سـائـر

الأصناف الثمانية ينطبق عليه أنّه بذلٌ في سبيل الله، فلا يكون لتحديد الأصناف الثمانية في الآية كبير فائدة، وبلاغة البيان القرآني يُسْتَبْعَدُ مَعَها مثل هذا الإجراء.

وأمّا تقييد عبارة «في سبيل الله» بالمقاتلين في سبيل الله، فلا دليل عليه من القرآن، ولا دليل عليه من السُّنة.

بقي أن نفهم أنّ المراد هو الجهاد في سبيل الله بمعناه الواسع الذي دلّت عليه نُصُوص القرآن المجيد، فهو الذي أراه الأرجح والأقرب إلى التدبّر الصحيح في هذا الموضوع، والله أعلم.

وأنبّه هنا على أنّ العالم الداعية الدكتور الشيخ «يوسف القرضاوي» قد ذهب إلى هذا الرأي فيما انتهى إليه بكتابه «فقه الزكاة» بعد أن عرض آراء الفقهاء والباحثين المتقدّمين والمحدَثين، وأنْعِمْ بما ذهب إليه.

الصّنفُ الثامن: ابْنُ السبيل، فما المراد من إنفاق السّهم الثامن من أسهم الزكاة في ابن السبيل.

السبيل: هو الطريق، والمسافر الذي انقطع في الطريق فعجز عن أن يعود إلى بلده، لأنّ ما يحتاج إليه في سفره من زادٍ أو كساءٍ أو مركبٍ أو مأوى قد نفد يقال له: «ابْنُ السبيل» وهو على سبيل المجاز، أي: كأنّه لا أَبَ له يُؤْوِيه أو يَحْميه أو يُغذّيه إلّا الطريق، والطريق العامّ لا يفعلُ شيئاً من ذلك، فهو منقطع.

فهذا الصنف يُصْرف له من الزكاة ما يحتاجه حتّىٰ يَعُودَ إلى بلده، ولو كان في بلده غنيّاً، ولا يُسْتَرَدُّ منه ما بُذِلَ له إذا وصل إلى بلده وماله.

وقد ذكر الفقهاء الشُّروط التي يجب توافرها في ابن السبيل حتّى يكون ممّن يستَحِقُّ أن يُبْذَل له من هذا السهم الثامن من أسهم الزكاة الثمانية.

وهل يدخل في هذا الصنف من يريد إنشاء سفر في طاعة، وهو لا يملك ما يحتاج إليه في هذا السفر، فيُعْطَىٰ من الزكاة ليسافر؟

جمهور الفقهاء على أنّ المراد من «ابن السبيل» المسلم المنقطع في سفره، يُعْطَىٰ أو يصرف من أجله ما يحتاج إليه حتى يصل إلى بلده أو ماله، وأمّا من يريد أن

ينشىء سفراً فلا يُعطى إلاّ أنْ يدخل في صنف آخر من الأصناف الثمانية، كأن يكون داعياً إلى دين الله فيدخل في صنف «في سبيل الله».

ورأى بعض الفقهاء جواز إعطاء من يريد أن ينشىء سفراً في طاعة ولو لم ينقطع بَعْدُ في سفره، ويَبْعُد هذا الرأي، لأنّ من يريد إنشاء سفر لا ينطبق عليه اسم «ابن السبيل» بل هو ابن بلده والله أعلم.

ملاحظة حول: ﴿للفقراء...﴾ و ﴿وفي الرقاب...﴾:

جاء التعبير الحاصر في الأصناف الثمانية بجانب الأربعة الأولى بعبارة:

﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

فاستخدم حرف الجر «اللام».

أما بجانب الأصناف الأربعة الأخيرة فقد جاء التعبير بعبارة:

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

فاستخدم حرف الجر «في».

فما السّرّ في هذا؟

رأى الزمخشري أنّ استعمال «في» بجانب الأربعة الأخيرة، قد كان لأنّ هؤلاء الأصناف الأربعة أرسخ في استحقاق الزكاة من الأصناف الأربعة الأولى، أخذاً من دلالة لفظ «في» على الظرفيّة، فالزكاة تُصَبُّ فيهم، وقد خالف في هذا من اهتم بهم القرآن في الترتيب فذكرهم أوّلاً، وهُمُ الفقراء والمساكين، وما جاء في نصوص أخرى من بيان أنّهم المستحقون الأوّلون للزكاة، كقوله تعالى في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول):

﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾.

ورأى ابن المنيّر في تعليقه على الزمخشري، أنّ الأربعة الأولين يملكون مَا يُدْفع إليهم، فيأخذونه ملكاً، فكان استعمال اللام هو اللائق بهم، وأما الأربعة الآخرون فالأصل أن تُصْرَفَ أسْهُمُهُمْ من الزكاة في المصالح التي تتعلّق بهم، لا أنْ تُدْفع إليهم تمليكاً، فالأرقّاء تُعْتَق رقابهم بالبذل لمالكيهم، والغارمون تُدْفع دُيونُهم للدّائنين.

أقول:

هذا فهم سليم، وعليه يكون سهم «في سبيل الله» وسهم «ابن السبيل» يمكن أن يوضعا في مؤسسات لتحقيق الأهداف منهما، وهو الأصل الذي جاءت الإشارة إليه بحرف الجرّ «في» ولا يُمْنَع من بذلهما مباشرة للأفراد المجاهدين، ولأبناء السبيل المنقطعين.

وجاء تكرير حرف الجر «في» بجانب الصنفين الأخيرين، للإشارة إلى أنهما صنفان متشابهان، كما أنّ الخامس والسادس صنفان متشابهان ذُكِرا مبدوأين بحرف الجر «في».

أمّا الأصناف الأربعة الأولىٰ فيملّكونَ استحقاقاتهم، فَبُدِئَتْ بحرف الجر «اللّام» داخلاً على الصنف الأول منها وعُطفت الأصناف الثلاثة عليه دون إعادة حرف الجرّ، لتشابه الأصناف في التمليك، والله أعلم.

قوله تعالى:

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

أي: قِسمةٌ محدَّدَةٌ من الله أوجبَ اللّهُ اتّباعَها، يقال لغة: فَرَضَ الشيء إذا أَوْجَبَهُ وأَلْزَمَ به، وحدَّد له حُدُوداً.

وأَصْل الفَرْض في اللُّغَةِ: القَطْعُ، والحزُّ في الشّيء لبيان الحدّ الذي ينتهي عنده مقدار ما، ويبدأ عنده مقدار آخر، كخشبةٍ أو حديدةٍ يُقاسُ بها الذّراع مثلاً، يُحَزُّ فيها عند نهاية الذراع وعند بدايته حزّان، هذا الحزُّ يقالُ له في اللّغة فَرْض، ومنه الحزوز التي تُجْعَلُ على حَجَرَةِ السّاعة الشمسية، أو في المكاييل، أو في غيرها، فهي تُسَمّى فُرُوضاً، فكلّ تحديد يجب اتباعُهُ شرعاً فهو فَرْض.

وعلى هذا فالقسمة المحدّدة، والنفقة التي يجب بذلُها، بأمْرٍ من الله عزّ وجل، هي فريضة من الله، أي: قِسْمَةٌ ذاتُ حُدود يجب اتباعُها. ومنه سُمّيت الفرائض، أي: القسمة التي حدّدها الله في المواريث، وعلم الفرائض هو العلم الذي يبحث في قسمة المواريث.

وختم الله عزّ وجلّ الآية بقوله:

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

أي: وبما أنه سبحانه عليم بكلّ شيءٍ، وحكيم فيما يـدبّر من أمـر، وفيما يُنـزّل لعباده من شرائع وأحكام وفرائض، فإنّ حَصْـرَهُ للصّدقـات التي هي زكاة الأمـوال، في الأصناف الثمانية هو الأمر الذي تقتضيـه الحكمة المستنـدة إلى العلم الشامـل المحيط بكلّ شيء.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

ـ قرأ جمهور القرّاء العشرة [أُذُنٌ ـ أُذُنُ] في الموضعين بضم الذال.

وقرأ نافع [أُذْنٌ ـ أُذْنُ] في الموضعين بإسكان الذال.

والقراءتان وجهان عربيّان لنُطْق الكلمة.

ـ قرأ جمهور القرّاء العشرة [وَرَحْمَةٌ] بالـرفع عـطفاً على [أُذُنُ] من [أُذُنُ خيرٍ] أي: هو أُذن خيرٍ، وهو رَحْمَةٌ للّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ.

وقرأ حمزة فقط [وَرَحْمَةٍ] بالجرّ عطفـاً على [خيرٍ] أي: هـو أُذُنُ خيرٍ لكم، وأُذُنُ رَحْمَةٍ للّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم.

وفي القـراءتين تكامـل فكري، فقـراءة الجمهور تـدلّ على أنّ النّبيّ كُلَّهُ رَحْـمَـةٌ لِلّذِينَ آمَنُوا، فيما يسمع بأذُنِه وفيما يتلَقّى بسائر جوارحه، وفي قلبه ونفسه وفكـره وكلّ مشاعره.

وقراءة حمزة، تدلُّ على أنه ﷺ أُذُنُ رَحْـمَـة للّذين آمَنُوا، وهـذه جاءت للرّدّ على

اتّهام المنافقين لَهُ بأنّهُ أذُنٌ، أي: يتأثّر بما يَسْمَعُ ويَنْقُلُ النّاقِلونَ إليه من أخبار، دون بَحْثٍ وتنقيبٍ عن الحقيقة وتَبَيُّنٍ لها.

وقد تضمَّن هذا الرَّدُّ أنّ ما يسْمَعُهُ بأذنه من أخبارٍ لا ينتج عنه إلاّ رحمةٌ للذين آمَنُوا، أمّا غير المؤمنين وهم أهل النفاق الذين يتهمونه بأنّه أذُنٌ، وَيؤْذونَهُ مَعَ أنَّهُ رسُولُ الله، فَلَهُمْ عند ربِّهِمْ عذابٌ اليم.

قولُهُ تَعالَىٰ:

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾.

يُتابعُ اللّهُ عزَّ وجلَّ الحديث عن المنافقين فيُبَيِّن أنّ فريقاً منهم يتطاوَلُون على مقام النُّبُوَّة، فيُؤْذُونَ النبيَّ في صفةِ نُبُوَّتِهِ الّتي اصطفاه الله بها، وهيَ أنهُ يُنَبَّأُ عن طَرِيقِ الْوَحْيِ، فَيَتَلَقَّىٰ مَا يُنَزَّلُ عليه، ويُبَلِّغُهُ كَما تَلَقّاهُ لا يزيد فيه ولا ينقص منه شيئاً.

﴿يُؤْذُونَ﴾:

الأذىٰ هو ما يُزْعِجُ ويؤلم ألماً ليس بالشديد، كالكلام بشأنه في غيبته بما يَنْتَقِصُ من كمالاته صلوات الله عليه.

وأشارت عبارةُ ﴿النَّبِيَّ﴾ الدالةُ على وصْفِهِ بالنبوّة، إلى أنّ إيذاءَهُمْ له يتعلَّقُ بما هو من خصائصه التي رشّحَتْهُ عِنْدَ ربّه لأن يصطَفِيَهُ بالنُّبُوّة، وجاء بَيَانُ إيذائهم له عامّاً لِيَشْمَلَ صُوراً كثيرة من الأذىٰ يمارسُها المنافقون بشأنه في غيبته، وقد يَبْلُغُه بعضُ منها، وعطَفَ الله عزّ وجلّ على هذه الأذيات الّتي لم يأْتِ في النّصّ تفصيلها صورةً تَدْخُل في عمومها، من قبيل عطف الخاص على العام: فقال تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾:

أي: يؤذون النبيّ أذياتٍ تَمَسُّ خصائص نُبُوّته، ومع هذه الأذيات، أو من هذه الأذيات أنّهم يَقُولُون: هُوَ أُذُنٌ، أي: هو يسمع ما يقال له ويُصدِّقه، فإذا آذيناه بكلامٍ ما في غيبته وبلغه ما تكلّمنا بشأنه، جئْنا إليه فاعْتَذَرْنا إليه بكلامٍ يقبله منا، لأنّ من طبعه أنّه يَسْمَعُ ما يُقالُ له فيُصدّقه، إذْ هو أُذُنٌ، فلا خوف من أن نبسط فيه ألسنتنا فيما بيننا، أو أمام بعض المؤمنين به، لإضعاف إيمانهم به، وقد ورد في سبب النزول ما يلي:

(١) أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عبّاس قال:

كان نَبْتَلُ بْنُ الحارث (وهو من بني لَوْذان بن عمرو بن عوف) يأتي رسول الله ﷺ فيجلس إليه فيستمع منه، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، وهو الذي قال: إنّما محمّد أُذُنٌ، من حدّثه بشيءٍ صدّقه فأنزل الله فيه هذا النص.

وقال ابن إسحاق: وهو الذي قال له رسول الله ﷺ فيما بلغني: من أحبّ أن ينظر إلى شيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم عن السّدّي قال: اجتمع ناسٌ من المنافقين، مِنْهُمْ جُلاسُ بْنُ سُويد بن الصامت، ومُخَشِّنُ بن حُمَيِّر، ووديعةُ بْنُ ثابت، فأرادوا أن يقعوا في النبيّ ﷺ، فنهى بَعضُهم بعضاً، وقالوا: إنّا نخاف أن يبلُغ مُحمّداً فيقع بكم، فقال بعضهم: إنّما محمَّدٌ أذن، نَحْلِفُ له فيُصدّقنا.

هُو أذن: أي: هو كالأذن التي تنقل ما تسمع، دون تمحيص ولا محاكمةٍ عقلية.

قال أهل اللّغة: تقول العرب لمن يسمع ما يقالُ له فيُصدّقه: أُذُنٌ، ويطلق بالإفراد هكذا على المذكر والمؤنث والمثنى والجمع، فيقال: رجل أذن، وامرأة أذن، وهما وهم وهُنَّ أذن.

ولا يخفى ما في قول المنافقين هذا من طعنٍ في النبيّ وإيذاءٍ له.

وقد علّم الله كلّ مؤمن بأسلوب التعليم الإفراديّ كيف يَرُدُّ مقالة المنافقين في الرسول إنّه أُذُن، فقال تعالى:

﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ . . .﴾.

ونُدْرِك من هذا التعليم أنّ الله عزّ وجلّ يُعَلِّم كُلَّ مؤمنٍ أن يُعْلن عند مقتضيات الأحوال أمام من يواجه من جماعة المسلمين بصفةٍ عامَّةٍ، مُلاحظاً مَنْ في صفوفهم من المنافقين، مضمون القضايا الّتي اشتمل عليها التعليم، لإيجاد رأي عامّ بها، وهي القضايا الأربع التالية:

القضية الأولى: ما تضمّنهُ قول الله عزّ وجلّ:

﴿أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾:

أي: هو بحُسنِ تلَقيهِ بأذُنِهِ مَا يُتْلَىٰ عليه من الْوَحْيِ المعصوم من الخطأ، أُذُنُ خَيْرٍ، فهو بضبط تَلَقيه عن ربّه، وضَبْطِ تَبْليغه لِمَا تَلَقَّاهُ عَنْهُ، قد جلَبَ لَكُمْ خيراً عظيماً، يضْمَنُ لَكُمْ خَيْرَ الْعَاجِلةِ وخَيْرَ الآجِلَةِ.

فإذا كُنْتُمْ تَرَوْنَه ضابطاً لما يَسْمَعُ، وأميناً فيما يُبَلِّغُه، فهذا من كمالاته التي اصطفاه الله بها للنُّبُوَّة، فجعله نَبِيّاً، يُنَبِّأُ بأخبار السماء ويُنَبِّىءُ عَنْهَا كما تَبَلَّغَها.

هذه الإجابة تتضمّن قَبُولَ ما أَطْلَقُوا من وصف، مع تحويله من صفَةِ ذمٍّ إلى صفةٍ مدحٍ عظيم، ولكن في موضوع ما يتلقّى من الوحي عن ربّه، لا ما يتلقّاه من أمور أخرىٰ، ومعلومٌ أنّ ما ينزل به الوحي معصوم عن الخطأ وَالشّرّ والفساد، فهو خير كُلّه.

والسَّبَبُ في أنّه لا يُفَكِّرُ بطرح أيّ شَكٍّ حول ما يأتي به الوحْيُ عَنِ اللَّهُ أَنَّهُ يُـؤْمِنُ باللَّهِ إيماناً كاملاً، لا يُخالطُهُ شكٌّ ولاَ تردّد، فمن آمَنَ باللَّهِ الرَّبِّ الخالق العليم الخبير الذي لا يخفىٰ عليه شيءٌ في السماوات والأرض، المتّصف بكل صفات الكمال، والمنزّه عَنْ كلّ صفاتِ النُّقصَان، لا يُمْكِنُ إلاّ أن يُسَلِّم تسليماً تامّاً بكلِّ ما يُوحِيه الله إليه، وكلُّ عمله تُجاهَهُ أن يتلقّاهُ ويَفْهَمَهُ، لأنه يؤمن بأنّه لا يمكن إلاّ أن يكون حقّاً أو خيراً ورُشْداً وسَبَبَ سعادةٍ ونجاحٍ وفلاحٍ.

القضيّة الثانية: دلّ عليها قول الله عزّ وجل:

﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

أي: وهو يصدّق المؤمنين في أخبارهم لأنّهم مؤمنون بالله، وبسبب إيمانهم به وخوفهم من عذابه لا يكذبون مفترين على أحد، إنّما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون، فمعنى ﴿يُؤْمِنُ للمؤمنين﴾ يطمئن لإيمانهم فيصدّقهم.

وبيان أنّه يصدّق المؤمنين في أخبارهم يشير إلماحاً إلَىٰ أنّه لا يُصَدِّق أخبار الفاسقين، حتّىٰ يتبيَّنها ويَتَثَبَّتَ مِنْها، ولاَ يُصَدِّق أخبار المنافقين، عملاً بما أمر الله به في الآية (٦) من سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول) ففيها قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾.

ففي بيان أنّ النبيّ يُؤْمِن للمؤمنين إشعارٌ للمنافقين بأنّ ما تَصَوَّروه من أنّهم يستطيعون أن يُرضوه بالكذب عليه في اعتذارهم له عمّا يَبْلُغه عنهم، أمْرٌ لا ينطلي على الرسول، ولو تغاضىٰ عنهم في الظاهر، فإذا لم يكتشف بفراسته أحوالهم، نزل عليه بشأنهم خبر الوحي، فحِلْمُه وصَبْرُهُ عليهم وتغاضيه عنهم غرّهم، فظنوا أنّ ما يقولونه في معاذيرهم الكاذبة له يصدّقه.

القضية الثالثة: دلّ عليها قول الله عزّ وجل:

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾:

أي: والرسول هو رحمةٌ للّذين آمنوا مِنْكُم أيُّها المعلنون إسلامهم، أو هو أُذُنُ رحمةٍ لهم، وتظهر رحمته لهم في مجال ما يسمع بأذنه منهم في أمور كثيرة، منها ما يلي:

ـ إذا عرض أحَدُ المؤمنين عليه شكوى من أمرٍ في نفسه، أو ماله، أو أهله، وطلَبَ منه مساعدةً ما أسرع إلى نجدته، ما وجد إلى ذلك سبيلاً، أو دعا الله له، فكان بذلك رَحْمةً له، أي: سبباً في استفادته خيراً هو من آثار الرحمة.

ـ إذا جاء أحَدُ المذنبين من المؤمنين فسأل الرسول أن يستغفر الله له، استجاب لطلبه، فاستغفر له، فغفر الله له، فكان بذلك رحمة له، أي: سبباً في استفادته خيراً عظيماً هو من آثار الرحمة.

ـ إذا جاءه مؤمن يسأله عن شيء من أمور دينه يجهله، سمع سؤاله وعلّمه، فكان بذلك رحمةً له، أي: سبباً في استفادته علماً دينيّاً هو خيرٌ عظيم له، وهو من آثار الرحمة.

إلى غير ذلك من أمور.

القضية الرابعة: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

هذه القضيّة تتضمّن توجيهَ تَحْذِيرٍ للمنافقين من العذاب الأليم الذي أعده الله عزّ وجلّ للذين يؤذون رَسُوله.

واختير هنا من صفات النبيّ ﷺ كونُه رَسُول الله، لـلإشارة إلى أنّ الله عزّ وجلّ لا بُدّ أن ينْتَصِرَ لرَسُوله الذي اصطفاه لتبليغ رسالاته للناس، وللإشعار بأنّ إيذاء الرسول إيذاءٌ لله، لأنّه مبعوث من قِبَله، ويَحْمِلُ لَهُمْ ما أوحىٰ الله به إليه، وكان عليهم أن يَسْتَجيبوا له ويُعَزِّروه ويُوقِّروه ويَنْصُروه، لا أنْ يكفروا به ويُؤْذُوه.

فالمؤمن مُطالب في الردّ على المنافقين الذين يؤذون النبيّ بأن ينذرهم أخيراً بعذاب الله الأليم، مُعَلِّلاً بأنّ النبيّ هو رسول الله، والله لا يترُكُ رسولَهُ يُؤْذَىٰ دون أن يُعاقِب الذين يؤذونه بعذابٍ أليم.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

سبق في عِدّة نصوصٍ بيان أنّ المنافقين يلجؤون إلى ستر قبائحهم، وأنواع سلوكهم الدّالة على نِفاقهم، بأن يحلفوا بالله أيماناً كاذبة، ليصدّقهم الرسول وليصدّقهم المؤمنون، على اعتبار أنّ الأصل في المسلم أن لا يَحْلِفَ بالله كاذباً، وما دامت البيّنة التي تُثْبِت جريمتهم لم تصل إلى مستوى إدانتهم إدانةً شرعيّة، فإنّهم يجدون أنّ أيمانهم الكاذبة تَدْرأُ عَنْهُمُ العقوبة على يد الرسول، أو على أيدي المؤمنين.

ولمّا كان المنافقون يتّخذون وسيلة حلف الأيمان الكاذبة مع كلّ نوع من أنواع سلوكهم الدالّ على نفاقهم، اقتضىٰ فضح حالهم تكرير بيان أنّهم يحلفون الأيمان

الكاذبة لسَتْرِ نفاقهم، عند المناسبات الداعيات لذلك، مع إضافات تعليليّة أو توجيهيّة أو تحذيرية، ليُعْطِيَ التكرير فائدة التأكيد مع التمهيد لإضافة البيان الجديد.

وفي مناسبة بيان إيذاء بعضهم للنبيّ ﷺ أذْيات تزعج الرسول وتغضب المؤمنين، الأمر الذي قد يدفع بعض المؤمنين للانتقام منهم، أبان الله عزّ وجلّ أنّ الذين تبدُرُ منهم بادرات الأذىٰ للرسول، بمقتضىٰ ما يضمرونه من كفر وعداء، يسارعون للتخلّص من تَبِعةِ ما بَدر مِنْهُمْ بأنْ يجْحَدُوا ما نُقِل عنهم، ويُنْكروه إنكاراً كلّيًا، وبأن يؤكّدوا إنكارهم له بحلف الأيمان الكاذبة، فيحلفون بالله على أنهم بُرَءَاءُ ممّا نُسِبَ إليهم، من أقوال أو أفعالٍ آذَوْا بها رسول الله، فخاطب الله المؤمنين بقوله:

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾:

أي: يحْلفون باللّهِ لِيُطْفِئوا حرارة الغضب الذي توهّج في قلوبكم ضدّهم، فيُرْضُوكم بالأيمان الكاذبة، فتسكُنَ ثائرتكُمْ، فلا تنتقموا منهم.

وقد جاء في كثير من الأخبار أنّ الرّسول كان إذا تعرّض لأذىٰ من أحَدٍ من الناس، ثار بعض أصحابه كعمر بن الخطاب غاضباً، وقال: دعني يا رسول الله أضرِبْ عنقه، فيأبىٰ رسول الله ﷺ، ويأخذ الرجل بالحلم والصفح، وبالإكرام والعطاء أحياناً، وربّما صلح حال الرجل، وصار بعد ذلك من فُضلاء المسلمين.

بعد بيان هذا من سلوك المنافقين وجّه الله عزّ وجل موعظة عامّة، يستفيد منها من كان مؤمناً بالله واليوم الآخر، فقال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

أي: وإن كانوا مؤمنين حقّاً عَلِمُوا بأنّ الله أحقُّ بأن يُرضُوه من محاولتهم إرضاء المؤمنين بالأيمان الكاذبة ليدفعوا عن أنفسهم النقمة، وعَلِمُوا بأنّ الرسول أحق بأن يُرضوه كذلك، وإرضاء الله ورسوله يكون بالحذر الشديد من أذى الرسول الذي يعرّضون أنفسهم بسببه لعذاب أليم، من قِبَلِ الرَّبّ العزيز العليم.

وإذا أدركوا هذه الحقيقة وآمَنُوا بها أرْضَوُا الله ورسوله، باجتناب ما يسخطهما من أذىً وغيره.

فمعنى العبارة باختصار: وإنْ كانوا مؤمنين وجُّهوا همَّهُمُ الأكبر لإرضاء الله ورسوله، فالله أحَقُّ بأن يُرضوه، ورسوله أحقُّ بأن يرضوه، لِيَدْرَؤوا عن أنفسهم العقاب الشديد، فهو عقابٌ لا تحمي منه الأيمان الكاذبة، بل تزيد منه لأنّها هي أيضاً تستوجب عقاباً.

وإذا تركنا الصناعة النحويّة، ونظرنا إلى معنى الجملة، وجدنا أنّ جواب الشرط الذي في: ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ قد جاء سابقاً له، وقد دلّ عليه قوله تعالى: ﴿واللّٰهُ ورَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ أي: إن كانوا مؤمنين أرضوا الله ورسوله، فالله ورسولُه أحقّ أن يُرْضوهما، من إرضاء المؤمنين بالأيمان الكاذبة. ويقول النحاة البصريون: إنّ جواب الشرط في مثل هذا محذوف دلّ عليه ما قبله.

أمّا إفراد الضمير في ﴿يُرْضوه﴾ مع أنّ المراد يُرضوهما، فهو على تقدير: واللّٰهُ أحَقُّ أن يُرضوه، ورسولُهُ أحقُّ أنْ يرضوه، والغرض الدلالة على انّ كُلّاً منهما أحَقّ بأن يرضوه من محاولتهم إرضاء المؤمنين بالحلف الكاذب، وعليه يكون الكلام من قبيل عطف الجمل، فتأخذ كلّ جملة حقها من الدلالة المستقلة.

ولبيان كون الله ورسوله أحقّ بالإرضاء من محاولة إرضاء الناس قالَ الله تعالى بشأن المنافقين:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾:

﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾:

الْمُحَادَّةُ هِيَ التَّصدّي للمقاومة والمحاربة، وذلك بملازمة أحد الفريقين حدّاً مقابلاً أو مناقضاً أو معارضاً للحدّ الذي عليه الفريق الآخر، على سبيل العداء والمخالفة والمضادّة، وهي مشتقَّةٌ من الحدّ الذي يوضع على طرف الأرض لفصلها عن غيرها، ولمّا كان كلُّ فريق من المتعادِيَيْن يتّخذ لنفسه حدّاً مضادّاً لحدّ الفريق الآخر سميت حالة التقابل العدائي بينهما أو من أحدهما مُحادّة، وتظهر المحادّة بممارسة بعض الأعمال الكيدية.

والمحادّة كالمشاقّة، إذْ كلُّ فريقٍ من المتعاديَيْن يتّخذ لنفسه شِقّاً من الأرض مضاداً لشقّ عدوّه.

في هذه الآية يخاطب الله عزّ وجلّ المؤمنين متحدثاً عن المنافقين بما سبق أن أعلمهم به بشأن الذين يحادّون الله ورسوله، وذلك فيما أنزله سابقاً في سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول) فقد جاء فيها قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾.

وجاء فيها قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

وجاء فيها قوله تعالى بشأن المنافقين الذين يحادّون الله ورسوله:

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾.

وقوله تعالى فيها:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

وقد سبق تدبُّر هذه النصوص في النّصين (٢٧) و(٢٨) من هذه الدراسة عن المنافقين.

ولمّا كان إنزالُ هذه النصوص فيما سبق إعلاماً تعليميّاً، وكان المنافقون متظاهرين بأنّهُمْ مسلمون مؤمنون، كان من المفروض أنّهم قد علموا مضمونها، فكان من المناسبِ أن يُقالَ بشأنهم:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ... ﴿٦٣﴾﴾.

أي: فجزاؤُه أنّ له نار جهنم حالة كونه خالداً فيها. والضمير في ﴿أَنَّهُ﴾ ضمير الشأن الخطير العظيم، والاستفهام هنا استفهام تقريرٍ وتقريعٍ وإدانة، أي: قد علموا

ذلك فَلْيُعِدُّوا أنفسهم لتحمُّل العذاب في نار جهنّم خالدين فيها، ما لم يَتُوبُوا إلى الله، ويُؤْمِنُوا، ويُقْلِعُوا عن محادّة اللّهِ ورسوله، ويتخلّصُوا من خسّة النّفاق، ودَرْكِه اللّئيم ذي العاقبة الوخيمة.

وبعد تذكيرهم بما سبق أن عَلِمُوهُ من عذاب في نار جهنم مَعَ الخلود فيها، لمن يحادِدُ الله ورسوله، أبان الله تعالى أنّ من يصير أمره يوم القيامة إلى هذا العذاب يكون يومئذٍ في خزي عظيم، فقال تعالى مشيراً إلى العذاب المذكور باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد:

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٦٣﴾:

أي: ذلك العذاب في قَعْرِ جهنّم البعيدِ مع الخلود فيها هو الْخِزْيُ العظيم. أو ذلك الحكْمُ عليهم يوم الدين باستحقاق العذاب المذكور هو الْخِزْيُ العظيم.

الخِزْيُ: الوقوعُ في الشرّ والعذاب، والذُّلُّ والْهوان، والافْتِضَاحُ بالقبائح والسيئات والآثام المكتومة المورثة للخجل الشديد منها، والاستحياء ممّا نزل من ذل وَهوانٍ وعذابٍ بحقّ.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ۝٦٤ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ۝٦٦﴾.

القراءات:

* قرأ جمهورُ القرّاء العشرة: [أَنْ تُنَزَّلَ] بالبناء للمجهول مع تشديد الزاي.

وقرأ ابْنُ كثير وأبو عَمْرو ويعقوب: [أَنْ تَنْزِلَ] بالبناء للمعلوم مع تخفيف الزاي.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني، فإذا نَزَّلَ اللّهُ السّورة الّتي يحْذَرُ المنافقون من تَنْزِيلها، نتَجَ عَنْهُ نُزُولُها الذي هو أثر التنزيل.

* قرأ جمهور القراء العشرة: [عَلَيْهِمْ] بكسر هاء الضمير.

وقرأ حمزة ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضمّ هاء الضمير.

والقراءتان وجهان عربيان لنُطْقِ الكلمة.

* قرأجمهورالقرّاء العشرة [اسْتَهْزِءُوا ـ تَسْتَهْزِءُونَ] بكسر الزاي فيهما وإثبات الهمزة المضمومة.

وقرأ أبو جعفر [اسْتَهْزُوا ـ تَسْتَهْزُونَ] بضمّ الزاي فيهما وحذْف الهمزة في الوصل والوقف. وهو وجه لحمزة عند الوقف فقط.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق هذا الفعل.

* قرأ عاصم فقط [إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً] بنون المتكلّم العظيم في: [نَعْفُ] و[نُعَذِّبْ] مع البناء للفاعل ونصب [طائِفةً].

وقرأ جمهورُ القراء العشرة [إِنْ يُعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذَّبْ طَائِفَةٌ] بالياء مع البناء للمجهول في [يُعْفَ] وبالتاء مع البناء للمجهول في [تُعَذَّبْ] ورفع [طائفةٌ] على أنّ اللفظ نائب فاعل.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني وتكامُلٌ فكريٌّ، فقراءة عاصم يتحدّث الله فيها عن نفسه بنون العظمة، وقراءة جمهور القرّاء يتحدّث الله فيها ببناء الفعلين لما لم يُسَمَّ فاعله، لتشمل القراءة في دلالتها ما يحتمل أن يَصْدُرَ من الرسول أو من المؤمنين من عفوٍ وتعذيبٍ للمنافقين.

* * *

التدبُّر

جاء في النصّ الثاني من هذه الدراسة عن المنافقين، وهو ما جاء في الآيات من (٨ ـ ٢٠) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بيان أنّهم إذا لقُوا الذين آمنوا قالوا: آمنّا، وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا: إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون.

وكان هذا في أوائل المرحلة المدنية، وأوائل ظهور النفاق في المسلمين، واستمرّ المنافقون الذين لم يهلكوا ولم يتوبوا من نفاقهم بـإيمانٍ صحيح صادق، على حالهم إبطاناً للكفْر، وتظاهراً بالإسلام على سبيل الاستهزاء بالمؤمنين.

ولمّا صارت الآيات القرآنية تنزل مع مراحل التنزيل فاضحة صفاتهم، ومتحدّثة عن تصرّفاتهم الدّالّة على نفاقهم، ومحذّرة لهم، ومُنْذِرة بإنـزال النقمة بهم، صاروا يحذرون أن تنزل على رؤوسهم مصيبةُ سُورَةٍ كـاشفةٍ أشخاصَهُمْ بالأوصاف المعينة، أشَدُّ من سورة (المنافقون) وأن تخاطبهم هذه السورة بصورة مباشرة، فتنبّئهم بكلّ ما في قلوبهم من كُفْر وكيدٍ ومكرٍ وعداوةٍ للرّسول والمؤمنين، وأنْ تُحاصرهم بالأوصاف التّعيينية التي تُوضّح أشخاصهم، وعندئذٍ يقعون تحت طائلة المساءلة والمحاسبة والانتقام، من قِبَلِ الرسول والمؤمنين.

وقد كشف الله حالة حذرهم المتجدّد في نفوسهم، والمثير فيهم القلَقَ والاضطراب وعدم الشعور بالأمن، بقوله:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾:

أي: تـواجِهُهُمْ بالخطاب، وتُنَبِّئُهم بما في قلوبهم من كُفْـرٍ وكَيْدٍ وَمَكْـرٍ وعداوةٍ للرسول والمؤمنين، وتكشف أنّهم في استمرار تظاهرهم بالإسلام مـا زالوا يستهـزئون، فهم على حـالهم منذ بـدؤوا رحلتهم مع النفـاق، كـافرون بـاطنـاً ويعلنـون إسـلامهم استهـزاءً، ويعـاملون الـرسـول والمؤمنين معـاملة المستهـزئين بـالـدّين، والمستهـزئين بـأشخاص الـذين يتعاملون معهم من أهـل الإيمان، على اعتبـار أن حِيَلَهُمُ الخداعيـة منطليَةٌ عليهم، إذْ هُمْ سُفَهاءُ ناقصو الذّكـاء، لا يستطيعـون كشف أعدائهم المخـالطين لهم، والمتظاهرين لهم بالولاء.

وحين تنزل مثل هذه السورة التي يتخوّف المنافقون من نزولهـا إلى الرسـول ﷺ وفيها مواجهة للمنافقين بإنبائهم بما في قلوبهم من كفر وكيد ومكْرٍ وعداوة، فإنّهـا تَنْزِلُ نِقْمةً عليهم، بوساطة تبليغ الرسول ﷺ.

وقد جاء في القرآن التعبير بإنزال الكتب الرّبانيّة إلى الناس، وإنزالُها على الناس في عدّة نصوص، مُلاَحَظاً في هذا الإنزال تبليغُ الرسول لهم، مثل:

(١) قول الله تعالى بشأن اليهود في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ... ﴿٩١﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجل في سورة (البقرة) أيضاً خطاباً للمسلمين:

﴿وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ بشأن اليهود والنصارى في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

ونُلاحظُ أنّه عُدّي فعل الإنزال بحرف الجرّ «على» في قوله تعالى:

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

لما في إنزال مثل هذه السورة التي يحذرونها من نقمة نازلةٍ عليهم بسببها.

وقد يلاحظ في النصوص التي عُدّيَ فيها الإنزال بحرف الجرّ «على» ما في النصوص المنزّلة من تكاليف أَلْزَمَ بها الرّبُّ العليّ الأعلى.

وأكثر النصوص قد عُدّيَ فيها الإنزال بحرف الجرّ «إلى» إشارةً إلى ما في المنزّلِ من خير عظيم يهديه اللَّهُ لعباده.

وبعد كشف هذا الحذر الذي يتجدّد في نفوس المنافقين حتّى عُمّيَ قلوبهم كلّما نزلت آياتٌ تكشف بعض صفاتهم دون تعيين أشخاصهم لعامّة المؤمنين، علّم الله عزّ وجلّ رسوله وكلّ مؤمنٍ معه أن يقول لهم مضمون ما جاء في قوله تعالى:

﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

أي: قل لهم بأسلوب التوجيه العام لا بأسلوب الخطاب الإفرادي: استهزئوا بالله والرسول والمؤمنين بتظاهركم بالإسلام مخادعة وكذباً كما يَحْلُو لكم، فإنّ الأمْرَ لن يطول بكم كثيراً، فقد أخبرنا ربُّنا بأنّه مُخْرِجٌ من بواطنكم إلى ظواهركم ما تَحْذَرُونَ أن يظهر وينكشف للرسول وللمؤمنين.

وجاء التعبير باسم الفاعل «مخرج» الذي يُسْتَعْمَل في الحال بحسب الأصل، للدلالة على أنّ عمليات إخراج ما في صدورهم بالبيان القرآني، أو بالامتحانات القاسية، كالامتحان في غزوة تبوك، عمليّاتٌ قد بدأت فِعلاً.

وما يحذرونه هو كَشْفُ هُوِيَّاتهم المشيرةِ بالتعيين إلى أشخاصهم.

وقد كشفت أحداث غزوة تبوك عدداً من أفرادهم بالتعيين، فمنهم من كشفهم الرسول ﷺ بما نزل عليه من وحْيٍ بشأنهم، ووضعهم موضع المساءلة للإدانة، ومنهم من كشفهم بعض المسلمين وأخبر الرسول بمقالاتهم.

وخاطب الله رسوله بقوله:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾:

أي: ولَئِنْ وَضعتهم موضع المساءلة في مجلس محاكمة عن أقوالهم التي يقولونها فيما بينهم من أقوال تدلُّ على كفرهم واستهزائهم، وأثْبتُّ عليهم أنّهم قالوها باعترافهم أو بالبيّنة، لَيَقُولُنّ: إنّما كُنّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، اي: لم نكن جادّين فيما قُلْنا، وإنّما كان ذلك منّا على سبيل الْمُزاح والمداعبة واللّعب بالأقوال والخوضِ فيما لا يُرادُ منه معناه، بقصد الترويح عن النفس، وعبارتهم فيها قصر.

وهذا دفاعٌ اعتذاريٌّ منهم، بأنّهم لم يقصدوا مضمون ما قالوا، وإنما كانوا يخوضون ويلعبون في الأقوال على سبيل الْمُزاح.

ومن وقائع هذه الظاهرة من ظواهر المنافقين السلوكية ما يلي:

* جاء في السيرة عند ابن إسحاق قوله:

وقد كان رهطٌ من المنافقين، منهم وديعة بْنُ ثابت، أخو بني عَمْرو بْن عَوْف،

ومنهم رجلٌ من أشجع، حليفٌ لبني سَلمة، يُقَالُ لَهُ مُخَشِّنُ بْنُ حُمَيِّر[1]، يُشِيرون إلى رسول الله ﷺ وهو مُنطَلِقٌ إلَىٰ تبوك، فقال بعضُهُمْ لبعْض: أتَحْسَبُونَ جِلادَ بَني الأَصْفَرِ (أي: الروم) كقتالِ العرب بعضهم بعضاً، واللهِ لَكَأنّا بِكُمْ غداً مُقَرَّنِينَ فِي الْحِبَالِ، إرْجافاً وَتَرْهيباً للمؤمنين.

فقال مُخَشِّنُ بْنُ حُمَيِّر، واللهِ لَوَدِدْتُ أنِّي أُقاضَىٰ علَىٰ أنْ يُضْرَبَ كُلُّ رجلٍ مِنَّا مِئَةَ جَلْدَةٍ، وَإنَّا نَنْفلِتُ أَنْ يَنْزِلَ فينا قُرْآنٌ لِمَقَالَتِكُمْ هذه.

وقال رسول الله ﷺ لعمّار بْنِ ياسِرٍ: أَدْرِكِ القومَ فإنَّهُمْ قدِ احْتَرَقُوا[2]، فَسَلْهُمْ عمّا قالوا، فإنْ أنْكَرُوا فقُلْ: بلىٰ، قُلْتُمْ كذا وكذا.

فانطلَق إليْهِمْ عمّار، فقال لهم، فأتَوا رسُولَ اللّهِ يَعْتَذِرُونَ إليه، فقال وديعةُ بْنُ ثابت، ورسول الله واقفٌ على ناقتِه، فَجَعَلَ يَقُولُ وهو آخِذٌ بحَقَبِهَا (وهو حَبْلٌ يُشَدُّ على بَطْنِ البعير غير الحزام الذي يُشَدُّ به الرَّحْلُ) يا رَسُولَ الله، إنّما كُنّا نخوض ونلعب.

* وروي عن عبد الله بن عمر قال: قال رجُلٌ في غزوة تبوك في مجلسٍ: ما رأيتُ مثل قرّائنا هؤلاء، أرْغَبَ بُطوناً، ولا أكْذبَ ألْسُناً، ولا أجْبَنَ عِنْدَ اللّقاء، فقال رجلٌ في المجلس: كذبت، ولكنّك منافق، لأُخبِرَنَّ رَسُولَ الله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ.

وقد علّم الله رسوله كيف يستكمل محاكمة المنافقين على مقالاتهم واعتذارهم بأنهم إنّما كانوا يخوضون ويلعبون، أي: يخوضون في الكلام ويلعبون، كما يخوض اللّاعبون في نهر أو بركة من الماء بقصد الترويح عن النفس، فقال تعالى:

﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ...﴾.

---

(١) قال ابن هشام ويُقال: مَخْشِيّ.

(٢) احترقوا: أي: هلكوا بسبب المقالة التي قالوها فيما بينهم.

اشتمل هذا التعليم على بقية عناصر مجلس محاكمتهم بعد إثبات ما قالوا باعترافهم أو بالبيّنة، وبعد اعتذارهم بأنهم كانوا يخوضون ويلعبون.

أولاً: رفض الاعتذار وإثبات أنَّ ما كان منهم هو من قبيل الاستهزاء بالله وآياته ورسوله.

ثانياً: توبيخُهم وتقريعُهم على استهزائهم بالله وآياته ورسوله وهم يدّعون أنهم مسلمون.

دلّ عليهما قول الله في التعليم.

﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ؟!﴾:

أي: إنّ الخوضَ واللّعِبَ في القضايا الجادّة التي تتعلّق بأمور الدين، سواءٌ أكانت من العقائد، أو العبادات، أو الأخلاق، أو الجهاد في سبيل الله، أو سياسة الدولة الإسلاميّة، أو غير ذلك، من الاستهانة والاستهزاء باللّهِ وآياته المنزّلات بالوصايا والأحكام، وبِرَسُولِه المبعوثِ لتبليغ دينه، ودعوة الناس إلى سبيله، وقيادة من آمن به، وتوجيههم لمجاهدة من أبىٰ وكفر حتى تكون كلمة الله هي العليا.

فمن سخر بعَمَلٍ ما يُقْصَدُ منه تحقيقُ مطلوبٍ ما من مطالب الدّين في أيّ أمرٍ من أموره فهو في الحقيقة يسخَرُ ويستهزىء بالله وآياته ورسوله.

لذلك فهو يُقاضىٰ على عمله الذي يتنافى مع مقتضى ولائه للإسلام الذي أعلنه، ولجماعة المسلمين الذين انتمىٰ إليهم، ويُوبَّخُ ويُقرَّعُ ويُدَانُ بجريمته.

وعبارة:

﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ؟!﴾:

فيها تقديم المعمول على عامله للإشعار بشناعة الاستهزاء بالله وآياته ورسوله، أو للدلالة على القصر، أي: ما حلا لكم أن تستهزئوا إلاّ بالله وآياته ورسوله.

ثالثاً: إيقاف محاولتهم الدفاع عن أنفسهم بتلفيق المعاذير، دلّ على هذا قول الله تعالى في التعليم:

﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾:

أي: قد انكشف أمركم، وظهر جُرْمُكم، فلا تُتعِبُوا أنفسكم وتُتعبوا من يحاكمكم بأن تنتحلوا الأعذار الكاذبة، لتخلّصوا أنفسَكُمْ من جريمة المقالات التي تدينكم بالكُفْر، بعد أن كنتم أعلنتم مقالات إسلامية جعلتكم بحسب الظاهر ضمن أهل الإسلام والإيمان.

رابعاً: إصدار الحكم عليهم بالرِّدّة، أي: بالكفر بعد الإيمان.

دلّ على هذا قول الله تعالى في التعليم:

﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

وقد دلّ هذا على أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله من التصرّفات التي تدين بالكفر.

وبعد الحكم عليهم بالكفر يكونون بين حالتين:

* إمّا أن يتوبُوا، ويتخلّصوا من النفاق، ويَصْلُحَ حالُهم ظاهراً وباطناً.

* وإمّا أن يُصِرُّوا على كفرهم ونفاقهم.

وقد أبان الله عزّ وجلّ أنّ المنافقين بعد أن تتواتر عليهم أدلة صدق الرسول، وأنّ الإسلام حقّ، ولا سيما حينما يَكْشِفُ الرسول من أمرهم بما ينزل عليه من الوحي، ما لم يَطّلِعْ عليه أحدٌ من الناس غَيْرُهُمْ، يكونُون طائفتين:

* طائفة تتوب إلى الله، وتؤمن إيماناً صادقاً، فيعفو الله عنها، ما دامت على قيد الحياة ولم ينزل بها عقاب الله.

وتَصْدُق الطائفة بواحدٍ فأكثر.

* وطائفة يُصِرُّون على كفرهم ونفاقهم، فيعذّبُهم الله يوم الدين، بسبب أنهم كانوا في الدنيا مجرمين.

فقال الله عزّ وجلّ:

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

أي: إنْ نَعْفُ عن طائفة منكم تُرْجَىٰ توبتُهُمْ نُعَذِّبْ طائفةً أخْرَى لا ترجىٰ توبتهم لأنهم مَرَدُوا على الكفر والنفاق، وتعذيبهم يكون بسبب أنّهم كانوا في الدنيا مجرمين، أي: كافرين منافقين.

وفي هذا البيان إلماح إلى أنّ المنافقين يُسْتَتَابون بعد إدانتهم بما يُثْبِتُ ردّتهم، فمن تاب عُفِيَ عنه، وَوُضِعَ مَوْضِعَ المراقبة، ومن لم يُعْلِنْ توبته أُدِينَ بالرِّدّة، وعُوقِبَ عقاب المرتدين.

وقد روي أنّ أحد الذين قالوا: إنّما كنا نخوض ونلعبُ قد تاب وتخلّص من النفاق، وهو «مُخَشّنُ بْنُ حُمَيِّر ــ أو اسْمُهُ مَخْشِيّ» وقد غيّر اسْمَهُ وجعل اسْمَهُ عبد الرحمن، وسأل الله أن يُقْتَل شهيداً لا يُعْلَمُ بمكانه، فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر.

قال عكرمة في تفسير هذه الآية، كان رجُلٌ مِمَّنْ إنْ شاء اللَّهُ عفا عنه يقول: اللَّهُمَّ إنّي أسمع آيةً أَنا أُعْنَى بها، تقشعرُ مِنْها الجُلُودُ، وتَجِلُ مِنْهَا الْقُلُوبُ، اللَّهُمَّ فاجعل وفاتي قَتْلاً في سبيلك، لا يقول أحدٌ أنا غَسَّلْتُ، أنا كفَّنْتُ، أنا دَفَنْتُ.

قال: فأصيب يوم اليمامة فما من أحد من المسلمين إلاّ وَقَدْ وُجِدَ غَيْرُهُ.

قال ابن إسحاق: وكانَ الذي عُفِيَ عنهُ في هذه الآية مُخَشّنُ بْنُ حُمَيِّر، فتسمّى عبد الرحمٰن، وسأل الله تعالى أن يقْتُلَهُ شهيداً لا يُعْلَمُ بمكانه، فقُتِلَ يومَ اليمامة، فلم يُوجَدْ له أثر.

الجُرْم والجريمة: التعدّي، والذنب الكبير. وقد أُطلق لفظ «المجرمين» في القرآن مقابلاً للمسلمين، ووصفاً للمعذّبين في النار.

فيظهر أنّ المراد منهم في الاصطلاح القرآني مرتكبو الآثام من مستوى دركة الكفر، لذلك فهم من أهل النار.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ

ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ
فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟
أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا
ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

إنّ تشابُهَ الظواهر السلوكيّة يَدُلُّ على تشابُه الصفات النفسيّة، وهو الأمر الذي يجعل المتشابهين جنساً واحداً، أو نوعاً واحداً أو صنفاً واحداً متميّزاً من سائر أصناف النّاس، فبعضهم من جنس بعضهم الآخر، أو من نوعه أو من صنفه.

هذا ما دلّ عليه قول الله تعالى يُميِّز صنف المنافقين من سائر أصناف الناس:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾:

أي: هم ذكورُهم وإناثهم صنف متميّز من سائر أصناف الناس، وإذا تركنا مصطلح علماء المنطق قُلْنا: بَعْضُهُمْ مِن جِنْسِ بَعْضِهِم الآخر، إذْ هم متشابهون في ظواهرهم السلوكية، وفي صفاتهم النفسية، فإذا نظرت إلىٰ بعضٍ منهم فرداً أو جماعة وجَدْتَهُ من جِنْسِ بعضٍ آخر منهم، للتشابه الشديد بين أفراد المنافقين والمنافقات، والضمير في [بعضهم] يعود على المنافقين والمنافقات جميعاً، واستُخْدِمَ ضميرُ الذكور من باب التغليب.

والدليل على أنهم جنْسٌ مُتميّزٌ تَشابُهُ أفرادِهم في ظواهرهم السلوكيّة، وفي صفاتهم النفسيّة.

* فمن ظواهرهم السلوكيّة ظاهرتان:

الظاهرة الأولى: أنّهم يأْمُرونَ بالمنكر وينهون عن المعروف، وقد دلّ على هذه الظاهرة قوله تعالى:

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾:

أي: يأمرون بما نهىٰ الدّينُ عنه، وينْهَوْنَ عمّا أمَرَ الدّين به، على نقيض ما هو

مطلوبٌ منْهم، بمقتضى انتمائهم إلى الإسلام وجماعة المسلمين، فالمؤمنون يأمُرونَ بالمعروف وينهَوْنَ عن المنكر، أمّا المنافقون فعلى النقيض من ذلك.

الْمَعْرُوفُ: بعد نزول الوصايا الرّبّانية والشرائع والأحكام الدينية، هو ما جاء في الدين الأمْرُ به إلزاماً أو ترغيباً، وكلّ ما أمر به الدّين هو خيرٌ، وكلُّ ما هو خيرٌ للناس فقد أمر به الدين إلزاماً أو ترغيباً.

والمنكر: بعد نزول الوصايا الربّانية والشرائع والأحكام الدينية، هو ما جاء في الدين النهي عنه، إلزاماً أو ترغيباً، وكلّ ما نهى الدين عنه فهو لا خير فيه، أو ما فيه من شرٌّ وضرٌّ أكثر ممّا فيه من خير ونفع، وكلّ ما شرُّهُ أو ضُرُّهُ أكثر من نفعه فقد نهى عنه الدين إلزاماً أو ترغيباً.

الظاهرة الثانية: أنّهُمْ بُخَلَاءُ شحيحون، وقد دلّ على هذا الخلُق من أخلاقهم أنّهم يقبضُونَ أيْدِيَهُمْ عن الإنفاق في سبيل الله وفي وجوه الخير بوجه عام، كما قال تعالى:

﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾.

أصل قبض اليد يدلّ على ضمّ أصابعها على بطن الكف، واستعمل قبض اليد كناية عن البخل والشح، لأنّ البخيل بالعطاء يقبض أصابعه على بطن كفّه، ولا يبسُطها.

* ومن صفاتهم النفسية أنّهُمْ نَسُوا الله، أي: تركوا العمل بكلّ ما جاء عن الله في كتابه، وعلى لسان رسوله.

دلّ على هذه الصفة قول الله تعالى:

﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾:

أي: تركوا العمل بما أمر الله بالعمل به وأهملوه، حتى لم يَبْق له في ذاكرتهم وجود، فتركهم الله لأنفسهم ولم يَعْتَنِ بهم، ولم يمدّهم بالتوفيق والمعونة.

أصل النسيان في اللّغة: هو التّركُ، والتركُ ينشأ عن الاستهانة بالشيء والإهمال له، والإنسان متى ترك شيئاً زمناً طويلاً ذهب من ذاكرته، فلم يبق له فيها وجُود، وهذا

هو النسيان المشهور. لكنّ الله عزّ وجلّ لا يضلّ ولا ينْسَى وفق هذا المعنى للنسيان، فبقي أنّ المراد التّركُ، وفق أصل المعنى اللّغويّ للنسيان.

ولا دَاعي لفهم النسيان بالنسبة إلى الله على معنى الغياب عن دائرة التذكّر الحاضر، وحملِ الاستعمال على المشاكلة التي يذكرها علماء البلاغة، ما دام أصل المعنى اللّغوي صحيحاً ولا يحتاج إلى تأويل.

* ولهم صفات أخرى كثيرة في ظواهرهم السلوكية، وفي صفاتهم النفسيّة، يجمعها عنوان عامٌّ هو أنّهم فاسقون.

دلّ على هذه الكليّة الجامعةِ لكلّ صفاتهم السلوكية الظاهرة والباطنة، قولُ الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٦٧ ﴾:

الفسق: هو العصيان، والخروج عن طريق الهدى والدين القويم، والخروج عن طاعة الله، وهو استعمال إسلامي، وأصل الفسق في اللّغة خروج الرطبة من قشرتها، فالعرب تقول: إذا خرجت الرُّطَبَةُ مِنْ قِشْرَتها: فَسَقَتْ الرُّطَبَةُ، ومعلومٌ أنّه متى خرجت الرُّطَبَةُ من قشرتها تعرّضت للفساد بسرعة، وكذلك الفاسق من الناس.

وجاء تعريف طرفي الإسناد في [هُمُ الفاسِقُونَ] للدّلالة على أنّ المنافقين هم المستوفون في أنواع سلوكهم كلّ عناصر الفسق، حتى كأنّهم هم المنفردون باستيعاب كمال حقيقة الفسق.

وبعد أن ميّز الله عزّ وجلّ صنف المنافقين من سائر أصناف الناس، أبان عقوبتهم التي وعدهم بها هم وسائر الكفار، فقال تعالى:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٦٨ ﴾.

يُستعمل فعل «وَعَدَ» في الخير والشر، وكذلك فعل «أوعد» يقال وعَدَهُ وأوعده خيراً أو شرًّا. فإذا لم يُذكرِ المَوْعُودُ كانَ فعل «وَعدَ» في الخير، وفعل «أوعد» في الشرّ، على رأي الأزهري.

ويُعَدّيان إلى المفعول به الثاني دون حرف فيقال: وَعَدَهُ كذا وأوعده كذا، ويُعَدّيان إلىٰ المفعول به الثاني بالباء، فيقال: وعده وأوعده بكذا.

دلّت هذه الآية على أن العقوبة المقرّرة للمنافقين والمنافقات والكافرين والكافرات تشتمل على ثلاثة أشياء:

الأول: أن يدخلوا نار جهنّم خالدين فيها يوم الدين، لا يخرجون منها.

الثاني: طردُهم من رحمة الله، وإبعادهم عن مجالات تنزّلاتها.

الثالث: أن عذابهم في نار جهنم عذابٌ مقيمٌ لا يتحوّلُ ولا يَفْتُر ولا يَسْكُنُ. كما قال تعالى في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿مُبْلِسُونَ﴾:

أي: ساكتون، يائسون، نادمون.

﴿جَهَنَّمَ﴾:

اسم علم من أسماء دار العذاب التي أعدّها الله ليعذّب فيها الكافرين والعصاة يوم الدين، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث.

ويقال للقعر البعيد في اللّغة: جهنّم، وبئرٌ جهنّم، أي: بعيدة القعر.

واستُعْمِل هنا لفظ جهنم اسماً للمكان، لذلك أضيف إليه لفظ [نَار] على معنى ما في المكان من أجرامٍ مشتعلة ولَهَب.

ومعنى وعَدَهُمْ نَارَ جهَنّم: وعَدَهُمْ دُخُولَ نَارِ جهَنّم.

﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾:

أي: هي تكفيهم بما فيها من عذابٍ لا يحتاج مزيداً.

﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

أي: وطردهم من مواطن تنزّلات رحماته، وأبعدهم عنه.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾:

أي: لا يقتصر عذابهم في جهنم على عذاب يأتيهم فيها حيناً بعد حين، تتخلّله فتراتُ راحة وسكون، بل لهم فيها عذاب مقيم دائم، لا يتحوّل عنهم، ولا يفترُ ولا يسكن.

بعد هذا أبان الله عزّ وجلّ أنّ المنافقين والكفّار بعد بعثة محمّد ﷺ حالُهم كحال الكافرين والمنافقين الذين كانوا من قبلهم من أهل القرون الأولى، فقال تعالى:

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾:

الْخَلاقُ الحظُّ والنَّصيبُ من الأمور المحبوبة المرغوبة للنفوس.

﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ﴾:

الاستمتاعُ هو الانتفاع بالشيء مدّة طويلة من الزمن ولكن لا بُدّ أن يأتي على المستَمْتَعِ به الفناء والزوال.

﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾:

أصْلُ الخوضِ المشيُ في الماء وتحريكُهُ، وإثارةُ ما في أرض النهر من طينٍ يُعَكِّر صَفاءَ الماء، ثمّ اسْتُعْمِل في التَّلبُّسِ بالأَمْرِ والتَّصَرُّف فيه.

ومن التوسُّعِ استعمالُ الْخَوْض بمعنى اللُّبْسِ في الأمر للتضليل، والخوض في الكلام اللَّبْسُ فيه، بإدخال الباطل والكذب فيه ضمن الحق.

وأُطْلِقَ الْخَوْضُ في مال الله بمعنىَ التصرّف فيه بما لا يرضاه الله، وأُطْلِقَ الخوضُ بمعنى الطعْنِ والكُفْر والاستهزاء بآيات الله.

والمراد اللعب واللّهو في دين الله للناس، وعدم أخذه بجدّ، رغم أنّ عواقب المخالفة وخيمة.

الّذي: موصول حرفي يؤوّل هو وما بعده بمصدر، والتقدير: وخضتم كخوضهم، هذا على مذهب الفرّاء ويونس، وهو واضح وله شواهد عربية.

وموصول اسميّ على رأي الآخرين، والتقدير: وخضتم خوضاً كالخوضِ الذي خاضوه.

* * *

التدبُّر

كما أبان الله عزّ وجلّ التشابه بين أفراد المنافقين الأمر الذي يجعلهم صنفاً مميّزاً من سائر أصناف الناس، أبان أيضاً أنّ الكافرين والمنافقين بعد بعثة محمد ﷺ يشبهون الكافرين والمنافقين السابقين من أهل القرون الأولى، في ظواهرهم السلوكية وفي أحوالهم النفسيّة، فالإنسان هو الإنسان، متى اتّخذ لنفسه مبدأ في الحياة، تشابهت تصرّفاته مع الذين اتّخذوا مثل مبدئِه، في باطنه، وفي ظاهره، فخاطب الله المنافقين والكافرين الذين جاء ذكرهم في الآية السابقة بأسلوب الحديث عن الغائب، وهذا من الالتفات في أساليب الكلام، وهو هنا من الغيبة إلى الخطاب، فقال تعالىٰ لهم:

﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾.

أي: أنتم أيها المنافقون والكافرون المخاطبون كالكافرين والمنافقين الذين من قبلكم من أهل القرون الأولى.

فالذين كانوا من قبلكم:

﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةً وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلًا وَأَوۡلَٰدًا ﴾:

أي: فأنتم أشباههم في هذا مع نقصٍ في قوّتكم عنهم وفي أموالكم وأولادكم، ولم تَحْمِ السابقين قوتُهُمْ وكثْرَةُ أموالهم وأولادهم، من نقمة الله، فأهلَكَهُمُ اللَّهُ بسبب كفرهم وفسقهم وفجورهم وعدوانهم على رسُل ربهم.

ووجد الذين من قبلكم ما لديهم من قُوَّةٍ وأموالٍ وأولادٍ فاغترّوا.

﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾:

أي: فاستمتعُوا مُـدَّةً من الزَّمنِ بنصيبهم المقـدَّرِ لهم من متاع الحيـاة الدنيـا في رحلة امتحانهم فيها.

ووجدتم أنتم ما لديكم من قوّةٍ وأموالٍ وأولادٍ فاغْتَرَرْتُمْ.

﴿فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ﴾:

أي: فاسْتَمْتَعْتُمْ مُدَّةً مِنَ الـزّمَنِ بنصيبكم المقدَّرِ لَكُمْ من متـاع الحياة الـدنيا في رحلة امتحانِكُمْ فيها، كما اسْتَمْتَعَ الـذين من قبلكُمْ، فأنتم عُـرْضَةٌ لأن ينـزل بكُمْ مثلُ ما نزل بهم من عذاب الله.

واستَهَنْتُم بأُمُورِ الدِّين كما استهـان الذين من قبلكُمْ، واتّخـذتُمْ دينَ الله لكم لَهْواً وَلَعِباً.

﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾:

أي: وسلكتُمْ مَسْلَكَ الـطُّعْنِ والكُفْرِ والاستهـزاء بـآيـات الله، وبـدينـه لعبـاده، وبـرسولـه المبعوث إليكم، كمـا فعل الـذين كفروا ونـافقوا من قبلكم من أهـل القرون الأولى بآيات الله وبدينه لعباده وبرُسُلِهِ الذين أرسلهم إليهم.

أفتريدون أن تعـرفوا كيف كـانت عاقبـة الذين كَفَـرُوا ونافقـوا من قبلكم من أهل القرون الأولى، ليكون ما جرى لهم موعظة لكُمْ؟

﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

حَبِطَتْ: أي: بَطَلَتْ وذهبتْ دون أن تحقّق لَهُمْ ما يَرْجُونَ، وكلّ عَمَلٍ لا يُحَقِّقُ الغاية المرجوّة منه فقد حَبِط، أي: بطَلَ، فلا يُرْجَى منه نفع.

إنّ أعمـال الكافـرين والمنـافقين التي عملوهـا لتحقيق غـايـاتٍ غيـر الاستمتـاع

بحظوظهم المقدّرة لهم في الحياة الدنيا، ذاتُ غايتين:

الغاية الأولى: انتصارُهم على رسُلِ الله والذين آمنوا بهم واتّبعوهم بصدق، وهذه الغاية لم تتحقّق لهم، لأنّ الله نصَرَ رُسله والذين آمنوا معهم، وأهلك الكافرين والمنافقين، فأحبط أعمالهم التي كانوا قد عملوها ضدّ الرُّسل والمؤمنين، وهذا من إحباط أعمالهم في الدنيا.

الغاية الثانية: تحقيق فوائد ومنافع أخروية لهم على أعمال صالحة يعملونها، على تقدير صحّة أنباء يوم القيامة وما فيه من دينونة، أو منافع وفوائد أخروية على أعمال يتقرّبُ بها المشركون إلى شركائهم، لتُقَرِّبهم إلى الله زلْفَى، فيثيبُهُم عليها يوم الدّين.

وهذه الأعمال كُلُّها أعمال باطلة لا يقبلها الله عزّ وجلّ، فلا يكون لهم منها نفع عند الله في الآخرة، لأنّ شرط قبول الأعمال عند الله، أن تكون في طاعته، وابتغاء مرضاته، وأن لا يُشْرِكَ فيها العامل مع الله أحداً، وأنْ تكونَ أثراً من آثار الإيمان الصحيح الصادق، بكل عناصر القاعدة الإيمانية.

وهذا من إحباط أعمالهم في الآخرة.

وبهذا التحليل نَفْهَمُ معنى قوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾.

وإذ قَدْ حَبطَتْ كُلُّ أعمالهم في الدنيا والآخرة، فقد استحقوا بعدل الله الخلود في عذاب جَهَنَّم، فكانوا بذلك أشدّ الخاسرين، لأنهم خَسِروا أنفسهم، وخَسِرُوا نجاتهم، وخَسِرُوا سعادتهم، وادخلوا أنفسهم بكسبهم في العذاب الأليم الخالد، فمن الواضح الْبَيِّن أن يكونُوا هُمُ الخاسِرينَ المستجمعين لكلّ عناصرِ الْخُسْران، فقال الله تعالى:

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٩﴾:

أي: أولئِكَ البعداء عن رحمة الله، والبعداء في عُمْقِ جهنّم دار العذاب هُمُ الخاسرون من أهل القرون الأولى، ويُلْحقُ بهم أمثالهم من الكافرين والمنافقين بعد

بعثة محمّد ﷺ، في إحباط الأعمال، وانْطِباقِ وصف الخسران الأكبر، لأنّ سنّة الله في عباده واحدة.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠)﴾:

* قرأ جمهور القرّاء العشرة [رُسُلُهُمْ] بضم السين.

وقرأ أبو عمرو فقط [رُسْلُهُمْ] بإسكان السين.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق الكلمة، فالتسكين تخفيف يَسْتَعْمِلُه بعض العرب.

بعد أن واجه الله عزّ وجَلّ المنافقين والمنافقات وسائر الكفّار بالخطاب في الآية السابقة بقوله: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ...﴾ عاد إلى الكلام عنهم بأسلوب الحديث عن الغائب، وفق الأسلوب الذي يسمّيه البلاغيون الالتفات، والغرض إثارة الأفكار والنفوس لتكون في حالة انتباه، مع إشعار سائر زُمَرِ الناس بأنّهم معنيُّون بالخطاب، ولو لم يكونوا من الزمرة المتحدّث عنها، ففهم مختلف البيانات الدينيّة أمرٌ مطلوبٌ من الجميع، يضاف إلى ذلك أغراض أخرى تستفاد من الالتفات، كالإعراض عن المعرضين، أو المدبرين، واستخدام الأسلوب غير المباشر.

فقال الله تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾:

أي: ألم يَصِلْ إلى المنافقين والمنافقات وسائرِ الكفّار خَبَرٌ بارزٌ مُثير مخيف عن إهلاك الكفّار الذين كانوا من قَبْلِهم من أهل القرونِ الأولى.

جُعِلَ وُصُول الخبر بوساطة تبليغ المخبرين بمثابة إتيان الخبر بنفسه، فَعُبِّر عن

وصوله بالإتيان، ولمّا كان خبر إهلاكهم أمراً عظيماً بارزاً مثيراً سمّاهُ الله نَبَـأً، فالنبأ من الأخبار ماله بروز وظهوز ويهتمّ به الناس عادةً.

ونبأ إهلاك كُفّار أهل القرون الأولى قد كـان متداوَلاً مستفيضـاً عند أهـل الأخبار ورُواتها، باعتبار أنّ آثار إهلاكهم في بلدانهم ما زالت بـاقية، وجـاء أيضاً التـذكير بـه، وتفصيـل ما تستـدعي الحكمة تفصيلَهُ من أحـوالهم التي كانـوا عليهـا، والتي أدّت إلى إهلاك الله لهم، فيما نزل قبل سورة (التوبة) من قرآن.

واستـدعت الحكمة البيـانية ذكـر أسماء بعض الـذين أهلكهم الله من كفّار أهـل القرون الأولى، فذكر الله ستة أقوام منهم كانُوا يعيشون في الأرض التي تتحـرّك ضمنها قبائل العرب من عَدَن إلى الشام وإلى العراق، وقـد جاء ذكـرهم في الآية على طـريقة بدَلِ بعضٍ من كلٍّ، اكتفاءً بذكـر معظمهم الـدّالّ على المقصود من لفت الأنـظار إلى مواطن العظة.

فقال الله تعالى:

﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾.

(١) أمّا قوم نُوحٍ فقد أهلكهم الله بالطوفان، كما هو مبين في القرآن وعنـد أهل الأخبار.

(٢) وأما عادٌ قومُ هود عليه السلام فقد أهلكوا بريح صَرْصَرٍ عاتية.

(٣) وأما ثمود قوم صالح عليه السلام فقد أهلكوا بالصيحة.

(٤) وأمّـا قومُ إبـراهيم عليه السـلام فقد كـانـوا في العـراق، وقـد كـان ملكهم النمرود، كان ملكاً جبّاراً ذا سلطانٍ عظيم، وقد أراد إحراق إبراهيم عليه السلام بالنار، فجعلها الله على إبراهيم بـرداً وسلامـاً، ورُوِي أنّ الله أهلك جيش النمرود بـالبعوض، وأنّه عذّب النمرود ببعوضـة دخلت أنفه، وأنّهـا سببت له أوجـاعاً شـديدة مستـديمة في رأسه، والله أعلم كيف تمّ إهلاك كفار قوم إبراهيم عليه السلام.

(٥) وأمّا أصحاب مـدين قوم شعيب عليـه السلام فقـد أهلكوا بـالرجفـة، أي: بزلزالٍ دَمّر ديارهم وكان سبب إهلاكهم.

(٦) وأمّا المؤتفكات فهي قرىٰ قوم لوطٍ عليه السلام، وقد أهلكهم الله برفع أرضهم وكفئها، أي بقلبها، وجعل أعاليها أسافلها، وبقذفها بحجارة من سجّيل مسوّمة، ولأنها ائتفكَتْ أي انْقلبت، سمّاها الله مُؤْتفِكَاتٍ، بمعنى منقلبات.

واكتفى القرآن بالإشارة الضمنيّة إلى إهلاك هؤلاء الأقوام، وبعد ذلك أوجز الله سبب إهلاكهم فقال تعالى:

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾:

أي: أتَتْهُمْ رسُلُهُمْ بالمعجزات البينات، والآيات المنزّلات البينات، والحجج والبراهين البينات، فلم يستجيبوا وأصرّوا على عنادهم وكفرهم ومقاومة رسُلِ ربّهم، فأنذرهم رُسُلهم بعذاب الله، فلم يرتدعوا، فأهلكهم الله.

فهل كان إهلاك الله لهم ظُلْماً؟!

الجواب: هذا لا يمكن أن يكون بحالٍ من الأحوال، فقال الله تعالى:

﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

اللّام في: ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ جاءت بعد كونٍ منفي، فهي على ما يقول علماء العربيّة لَامُ الْجُحُود، ويؤتى بهذه اللّام بعد كَوْنٍ منفي لتأكيد النفي بأبلغ تعبير.

ولكنّ لله في كونه قوانين وسُنَناً ثـابتَةً لا تبـديل لهـا ولا تحويـل فيها، ومن هـذه السنن ما يظهر في الأشياء المادّيّة، فمن أدخل يَدَهُ في النار أحرق الله بـالنار يـده، ومَنْ رمَىٰ نفسه من شاهقٍ على صخرة، حطّمه الله وأهلكه بالصخرة التي رمَىٰ نفسه عليها، ومن هذه السنن ما يظهر في غيـر الأشياء المـادية، فمن أسرف في الفواحش من الأمم سلّط الله عليهم الأمـراض والأوجاع التي لم تكن في أسـلافهم، ومن كفر وفسق وفجـر من الأمم سلّط الله عليهم المهلكات.

إذن، فـالـذين يبـاشـرون الأسبـاب المهلكـة بمقتضىٰ سنن الله في الأسبـاب والمسببات هم الذين يظلمون أنفسهم، فقال الله تعالى:

﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

أَنفُسَهُمْ: مفعـول بـه لـ ﴿يَظْلِمُونَ﴾ قُـدِّمَ على فعله لإفادة الحصـر، أي: لم يظلمهم أحدٌ ولكن ظَلَمُوا أنفسهم بأنفسهم.

وجاء التعبير بـ ﴿كَانُوا﴾ لأنّهم ساعة إهلاكِهِمْ لَمْ يكونوا مباشرين لظلم أنفسهم، ولكنّهم كا نوا قبل ذلك مباشرين الأسبـاب التي ظلموا بهـا أنفسهم، باعتبـار أنّها تؤدّي بمقتضى سنن الله لإهلاكهم.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

* قرأ جمهور القراء العشرة: [وَرِضْوانٌ] بكسر الراء.

وقرأ شعبة عن عاصم: [وَرُضْوانٌ] بضم الراء.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق الكلمة.

* * *

التدبُّر

في مقابل بيـان أنّ المنافقين والمنـافقات يكـوِّنون في المجتمـع البشري صنفاً متميزاً في صفاته النفسيّة، وظواهره السلوكية، وبيان ما وعد الله هذا الصنف من الناس مع سائر الكفّار من جزاء يوم الدين، وذلك في الآيات من (٦٧ ـ ٦٩).

أبـان الله عـزّ وجـلّ في هـاتين الآيتين من السـورة (٧١ ـ ٧٢) أنّ المؤمنين والمؤمنات يكوِّنون في المجتمع البشري صنفاً متميّزاً أيضاً، في صفاته النفسية وظواهره السلوكية، وأبان أيضاً ما وعد الله هذا الصنف المقابل من الناس من جزاء يوم الدين.

فالمؤمنون والمؤمنات لا يقتصرون على أنّهم صنف متميّز في صفات أفراده النفسية، وظواهرهم السلوكية، فبعضهم من بعض، وبعضهم أيضاً أولياء بعض، واقتصر النصّ على ذكر أنّ بعضهم أولياء بعض، لأنّه يلزمُ من كون بعضهم أولياء بعض، أن يكون بعضهم من بعض، أي: وهم صنف واحد متميّز من بين سائر أصناف الناس، في الصفات النفسية والسلوكية، فقال الله عزّ وجل:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾:

أي: المؤمنون والمؤمنات يتبادلون فيما بينهم الحبّ والودّ والتناصر والتآخي والتعاون والتكافل، وكلّ ما يدخل تحت مفهوم الموالاة.

وجاء في غير هذا النص بيان أنّ اليهود والنصارىٰ بعضهم أولياء بعض، وأنّ الظالمين بعضهم أولياء بعض، وأن الكافرين أولياء الشيطان.

وفي مقابل كون المنافقين والمنافقات يأمُرُون بالمنكر ويَنْهَوْن عن المعروف، لأنّ حالة نفوسهم منكوسة، فالمؤمنون والمؤمنات يأمُرون بالمعروف ويَنْهَوْن عن المنكر، لأنّ حالة نفوسهم سويّة، متلائمة مع الفطرة التي فطر الله الأشياء عليها، لم تفسد ولم تنتكس، فقال الله تعالىٰ في وصفهم:

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

وقيامهم بهذه الوظيفة يحمي المجتمع الإسلاميّ من الانحراف والفساد، ومن تَغلُّبِ عوامل الشرّ فيه على عوامل الخير.

وفي مقابل كون المنافقين والمنافقات قَطَعُوا صلتهم بالله حتى نسوا الله، وقبضوا أيديهم شُحّاً فلا يؤدُّونَ زكواتِ أموالهم، فالمؤمنون والمؤمنات يجدّدون صلتهم بالله دواماً؛ فيقيمون الصلاة ويبذلون ما يجب عليهم أن يبذلوه من أموالهم فيؤدّون الزكاة، فقال الله تعالىٰ في وصفهم:

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

وفي مقابل كون المنافقين والمنافقات فاسقين عصاةً لله ورسوله، فالمؤمنون والمؤمنات يُطيعُون الله ورسوله ويبذلون جهدهم حتى يكونوا عاملين بما أمر الله

ورسوله، ومجتنبين ما نهى الله عنه ورسوله، فقال الله تعالى في وصفهم:

﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾:

أي: ويجدِّدُون طَاعتهم لله ورسوله، مع كلّ عمل لله فيه أو لرسوله أمْرٌ أو نهي.

وإذا غلبتهم أهواؤهم وشهواتهم فوقعوا في المعاصي فسيرحمهم الله ويغفر لهم، إذا استغفروا وأَتْبَعُوا السيئات الحسنات، وإشارة إلى هذا قال الله عزّ وجل:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾.

وهذا للمؤمنين والمؤمنات مقابل معاملة المنافقين والمنافقات بالنسيان أي: بالترك والإهمال ﴿فَنَسِيَهُمۡۚ﴾. إن سقوط المؤمنين والمؤمنات في المعاصي يستدعي أن يُعَامِلَهُمُ الله بعزّتِهِ وقُوّتِه الغالبة، تطبيقاً لمقتضى العدل، لكنّ رحمة الله سبقت غضبه، فهو يُعَامِلهم برحمته فيغفرُ لهم ويعْفُو عنهم، وقد يُبَدِّل اللَّهُ سيئاتهم حسنات، فقال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١﴾:

أي: فمن حكمته تعالى أن يعامل المؤمنين والمؤمنات التائبين المستغفرين بالرَّحْمَةِ، فيعفُو عنهم، أو يغفرَ لهم، ولا يعاملهم بالعزّة الّتي من مقتضاها أن يُجازِيَهُمْ بالعدل.

وفي مقابل وَعْدِ اللّهِ المنافقين والمنافقات والكُفّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالدين فيها هي حسبُهم ولعَنَهُمُ اللّهُ ولَهُمْ عَذَابٌ مُقِيم، أبان الله عزّ وجلّ أنه وعَدَ المؤمنين والمؤمنات وعداً يشتمل على ثواب عظيم جاء تفصيله في قوله تعالى:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾.

الجنّة: اسم لما يحتوي على أشجار وثمار وزروع وأنهار وقصور، وكلّ ما يُمْتِع النَّفْسَ والحواسّ، وأُطْلقت اسماً لدار النعيم التي أعدّها الله لسكنى المؤمنين يوم الدين، وهي تشتمل على جناتٍ باعتبار أقسامها، ووصفت الجنات في القرآن غالباً

بأنّها تجري من تحتها الأنهار، لأنّ الجنات لا تستوفي عناصر كمالها إلاّ بالأنهار التي تجري من تحتها.

وأضيفت جناتُ يوم الدين إلى كلمة «عَدْنٍ» إحدى عشرة مرّة في القرآن، ومعنى «جَنّات عَدْن» جنّات ثبات واستقرار دائم، وجنات عَدْنٍ هي ما يكون منها وسط الجنّات أيضاً.

يقالُ لغة: عَدَنَ بالمكانِ يَعْدِنُ وَيَعْدُنُ عَدْناً وعُدُوناً إذااستَقرَّ فيه وثَبَتَ، ومَرْكَزُ كُلّ شيءٍ مَعْدِنُه. وتقول لغةً: عَدَنْتُ الْبَلَدَ إذا تَوَطَّنْتَهُ.

وقد أبانت هذه الآية أنّ الله عزّ وجلّ قد وعَدَ المؤمنين والمؤمنات أنْ يُدْخِلَهُمْ يوم الدّين جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، أي: أقساماً مُفَصَّلَةً، كُلُّ قِسْمٍ مِنْها يُسَمَّى جَنَّةً، ضِمْنَ الجنّة العظمى الجامعة لهذه الجنّات، وتَجْرِي تَحْتَها جَمِيعاً الأنهارُ المختلفة الأصناف والأوصاف.

ووَعَدَهُمْ أيْضاً أنْ يُسْكِنَهُمْ مَساكِنَ طَيِّبَةً هي قُصُورٌ عظيمة، فيها كلُّ ما يشتهي ساكنوها، وفوق ما يخْطُر على بالِهِمْ حتّى يَرْضَوْا، وحتّى لا يجدوا في تَصَوُّرِهم ما يَطْلُبُون، وهذه المساكن الطيّبةُ قد جعلها الله عزّ وجلّ لهم في جنات عَدْنٍ، أي: في جناتِ ثبات واستقرار دائم، ولعلّها تكون في وسط جنّاتٍ من حولها كثيرة واسعة وممتدة فوق ما يطمع الطامعون.

ورِضْوانٌ من اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ كلّ مَا في الجنّاتِ من نعيم يُفْرِغه الله عزّ وجلّ عليهم بعد أن يجدوا أنهم قد نالوا ما لا يتصوّرون مزيداً عليه، فإذا أفرغ الله عليهم رضوانه وجدوا هذا الرّضوان أعظم من كلّ ما نالوا من نعيم الجنات.

روى البخاريّ ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ اللّهَ تَعالَىٰ يَقُولُ لأهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنا وَسَعْدَيْكَ، والْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فيقول: هل رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَالَنا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: ألا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟. فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وأيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟. فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً».

فهذا الرّضوان الذي يُحِلُّهُ اللَّهُ عزّ وجلّ على المؤمنين والمؤمنات في جناتِ النعيم يوم الدّين، هو أكْبَرُ وأَعْظَمُ مِنْ كلّ ما فيها من نعيم.

وبعد بيان هذا الجزاء العظيم الذي أعَدَّه الله عزّ وجلّ للمؤمنين والمؤمنات يوم الدين قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٧٢﴾:

أي: ذَلِكَ الجزاءُ الرَّفيعُ النَّفيسُ الذي ينالُهُ المؤمنون والمؤمنات يوم الدين، هُو الفوز العظيم.

الفوز: يأتي بمعنى النجاة من الشر، وبمعنى الظفر، وبمعنى الرِّبْح، وكلّ هذه المعاني تتحقّق للمؤمنين والمؤمنات في الجنات، إذ قد خلصوا من عذاب النار، وظفروا بالجنة، ونالوا ربحاً عظيماً جليلاً.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٧٣﴾.

سبق في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) في أواسط العهد المدني أن أنذر الله عزّ وجلّ المنافقين والذين في قلوبهم مَرَضٌ والمرجفين في المدينة، بأنّهم إن لم ينتهوا عن أعمالهم الكيديّة ضدّ الرسول والإسلام وجماعة المسلمين، فإنّه سيسلّط رسوله عليهم، فيُغْرِيه بالانتقام منهم، وعدم الإغضاء عن أعمالهم، حتّى يُلجئهم ذَلِكَ إلى الخروج من المدينة، وعدم مجاورة الرسول فيها، أو يُخْرَجوا طرداً، وعندئذٍ ينكشف ما في قلوبهم من كفر، وما في نفوسهم من شرّ، ويَسْقُط قناعُ النفاق، فَيُلاحَقونَ بأنَّهُمْ مُرْتَدُّون كافرون، فيُؤْخَذُون بأيْدِي المؤمنين ويُقَتَّلُونَ تَقْتِيلاً أيْنما وُجِدُوا، وهو ما جاء بيانه في الآيات من (٦٠ ـ ٦٢) من سورة (الأحزاب).

وقد سبق تدبُّر هذه الآيات في رقم (٣) من توابع النصّ (١٣) من هذه الدراسة، وهو الآيات من (٩ ـ ٢٧).

وفي الثلث الأخير من المرحلة المدنية اقتضت الحكمة الْبَدْءَ بالمراحل الأولى من تسليط النبيّ ﷺ على المنافقين، إذْ ما زالت طوائف منهم تمارس الأعمال الكيدية ضدّ الرسول والإسلام وجماعة المسلمين، فأنزل الله عزّ وجل على رسوله في سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف ١٠٧ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾.

وقد سبق تدبُّر هذه الآية في النص (٢٩) من هذه الدراسة عن المنافقين، فَلْيُرْجَعْ إليه.

وهذه الآية نَفْسُها قد أعاد الله إنزالها في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) مع اقتراب انتهاء مُهِمّة الرسول ﷺ في الحياة الدُّنيا، واستمرار بعض أهل النفاق في ممارسة أعمالهم الكَيْدِيَّة ضدّ الرّسول والإسلام وجماعة المسلمين.

ونتساءل عن الحكمة من إعادة تَنْزِيلها دون تغييرٍ في أيّ لفظ من ألفاظها؟

الذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ ما يلي:

إنّ الجهاد المأمور به في القرآن ذو مستويات بعضها أشدّ من بعض، وهو بالنسبة إلى جهاد الكفّار الصرحاء يبدأ بجهاد الدعوة، فجهاد الجدال بالتي هي أحسن، فجهاد الصّبر على أذاهم، فجهاد مضايقتهم بما يكرهون، فجهاد عدم التغاضي عن سيئاتهم بالعقاب عند القدرة على ذلك، وهكذا حتى جهاد قتالهم قتالاً عامّاً، مع جهاد تأليف قلوبهم بالمال.

أمّا المنافقون فإنّ جهادهم يتّخذ في مراحله الأولى أسلوباً غير أسلوب الكافرين الصرحاء، وهو الأسلوب الذي اتّبعه الله معهم، والذي تدلّ عليه نجوم التنزيل الّتي عالجت أمورهم ومشكلاتهم ومكايدهم ونفوسهم وأفكارهم منذ بدء المرحلة المدنيّة، ويظهر في هذا الأسلوب كشف صفاتهم دون تحديد أشخاصهم، ومعالجتهم بالبيان والإقناع والإنذار مع الإغْضاء، وعدم تنفيذ العقوبات التي تقتضيها بعض أعمالهم، ما داموا يتستّرون، ويتذرّعون بالمعاذير، والأكاذيب، ويشاركون في ظواهر الأعمال

الإسلامية الجماعيّة، ويحلفون الأيمان بالله على الكذب لستر مكايدهم، وتغطية نفاقهم المحشوّ بالكفر.

ثمّ إبّانَ نُزولَ سورة (التحريم) في أوائل الثلث الأخير من العهد المدني، اقتضت الحكمة الرّبّانية التوجيه لمجاهدتهم مثل مجاهدة الكفّار المجاهرين بكفرهم، فأشركهم الله مع الكفّار في توجيه النبيّ لمجاهدتهم.

ويفهم من هذا التوجيه اتّباعُ أسلوب التدرج في مجاهدتهم، وهو الأسلوب الذي أبانه الله عزّ وجل في كتابه حول جهاد الكافرين الصرحاء، منذ بدايات العهد المكيّ، حتّى مرحلة التوجيه لمقاتلتهم فالأمر به، والذي كانت الدعوة الحكيمة أوّله، وكان القتال قِمّتَهُ وذِرْوة سنامه[١].

ولمّا استَمَرَّ بعضُ أهل النفاق يمارسون أعمالهم الكيديّة، واقتربت مهمة الرسول ﷺ تنتهي في الحياة الدنيا، وكان هذا إبّان نزول سورة (التوبة) اقتضت الحكمة تكرير إنزال هذه الآية بنصّها دون تغيير في أيّ لفظ من ألفاظها.

وفي تكرير هذا الإنزال إشارة إلى أنَّ الوقت قد حان لاتخاذ بعض أساليب القوّة والعنف ضدّ المنافقين، تحت عنوان الجهاد المأمور به بشكل عام، لأنّه يشمل كلّ مستوياته.

وهذا يؤذن بأنه إذا اقتضت الحكمة معاقبتهم ولو بالقتل فإنّهم يعاقبون بذلك، ويبقىٰ اختيار معاملتهم بما تقتضيه أحوالهم متروكاً للرسول ﷺ، فلخلفائه من بعده، ولأمراء المؤمنين ما دام للمسلمين دولة قائمة، تعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن

(١) انظر «باب الجهاد» في كتاب «بصائر للمسلم المعاصر» للمؤلف.

يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾.

في هذه الآية بيان خمس ظواهر سلوكية لبعض المنافقين هي من آيات كُفْرِهِمْ باطناً، وسترهم لهذا الكفر بقناع النفاق:

الظاهرة الأولى: أنّهم يَحْلِفُون بالله كاذبين على أنهم لم يقولوا ما نُقِلَ عَنْهُمْ من كلامٍ يَدِينُهُمْ بالكُفر.

الظاهرة الثانية: أنّهم قالوا كلاماً يدلّ على أنّهم كافرون باطناً، فما نُقِلَ عَنْهُم حقّ، وهذه شهادة من الله يُصدِّقُ بها مَنْ أخبر الرسول عنهم بما قالوا من المؤمنين.

دلّ على هاتين الظاهرتين قول الله تعالى في الآية:

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾.

عبارة ﴿كَلِمَةَ الكُفْرِ﴾ تنازع عليها عاملان هما الفعلان في: ﴿مَا قَالُوا﴾ وفي ﴿وَلَقَدْ قَالُوا﴾.

أمّا على رأي البصريين من النحاة فـ ﴿كَلِمَةَ﴾ مفعول به لـ ﴿وَلَقَدْ قَالُوا﴾، ومعمول: ﴿مَا قَالُوا﴾ ضميرٌ محذوف يعود على ﴿كلمة﴾ وجاز حذفه لأنه فضلة، وليس عُمْدَةً (أي: ليس أحد رُكْنَي الإسناد). وأما على رأي الكوفيين فيجعلون المتنازعَ عليه معمولاً للفعل الأول على عكس رأي البصريين.

﴿ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾:

أي: كلاماً مُكَفِّراً يَدُلُّ علىٰ أنّهم كافرون.

وقد ورد في سبب نزول هاتَيْن الظاهرتين أنّه لمّا كَثُرَ نُزولُ القرآنِ في أحداث غزوة تبوك بشأن المنافقين وذمّهم، قال الجُلاسُ بْنُ سُوَيْدِ بْنِ الصامت، ووديعةُ بْنُ ثابت: لَئِنْ كان محمّد صادقاً على إخواننا الّذين هُمْ سادتُنَا وخيارُنا لَنَحْنُ شرٌّ من الحمير، فقال عامِرُ بْنُ قَيْسٍ للْجُلاسِ: أجَلْ، والله إنّ محمّداً لصادقٌ مُصَدَّقٌ، وإنّكَ لَشَرٌّ مِنَ الْحِمَار، وأخبر عامر بن قيسٍ النبيَّ ﷺ بذلك، وجاء الْجُلاسُ فَحَلَفَ بالله إنَّ

عَامِراً لكاذب، وحلف عامِرٌ: لَقَدْ قال، وقال: اللَّهُمَّ أَنزِلْ على نبيِّك شيئاً، فنزل قول الله تعالى:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾.

وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن كعب بن مالك قال: لمّا نزل القرآن فيه ذكر المنافقين، قال الْجُلاسُ: واللّهِ لَئِنْ كانَ هذا الرَّجُلُ صادِقاً لَنَحْنُ شَرٌّ من الحمير، فَسَمِعَها عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ، فقال: وَاللّهِ يا جُلاسُ إِنَّكَ لأَحَبُّ النّاسِ إليّ، وأَحْسَنُهُم عِنْدِي أثراً، وأعَزُّهُمْ عَلَيَّ أنْ يَدْخُلَ عليه شَيْءٌ يَكْرَهُهُ، ولقَدْ قُلْتَ مقالةً لَئِنْ ذَكَرْتُها لَتَفْضَحَنَّكَ، ولَئِنْ سَكَتُّ عَلَيْهَا لَتُهْلِكَنِّي، ولإحداهُما أشدُّ عليَّ من الأخرى، فَمَشَى إلى رسول الله ﷺ فذكَرَ لَهُ ما قال الْجُلاسُ. فَحَلَفَ بِاللّهِ ما قَالَ، ولَكِنْ كَذَبَ عَلَيَّ عُمَيْرٌ، فأنْزَلَ الله تعالى:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقيّ في الدلائل عن أنس بن مالك قال: سَمِعَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَم رَجُلاً من الْمُنافِقِينَ يقول والنبيّ ﷺ يخطب: إنْ كان هذا صادقاً لَنَحْنُ شرٌّ من الْحَمِير، قال زيد: هُوَ واللّهِ صادقٌ وأنت شرٌّ من الحمار، فرفع ذلك إلى النبيّ ﷺ فجحد القائل، فأنزل الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللّهِ ما قالوا...﴾ الآية.

وأخرج ابنُ جرير، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابْنِ عبّاسٍ قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظِلِّ شَجَرَةٍ فقال:

«إِنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ إِنْسَانٌ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِعَيْنَيْ شَيْطَانٍ، فإذا جَاءَكُمْ فَلَا تُكَلِّمُوهُ».

فلم يلبثُوا أنْ طَلَعَ رجلٌ أَزْرَق، فدعاهُ رسُولُ الله ﷺ فقال:

«عَلامَ تَشْتُمُني أَنْتَ وأصْحابُكَ؟!».

فانْطَلَقَ الرجلُ فجاء بأصحابه فَحَلَفُوا بِاللّهِ ما قالوا، حتَّى تجاوز عَنْهم، وأنزل الله:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا...﴾ الآية.

أقول:

هذه الروايات تدلُّ على أنّ الآية تتحدّث عن ظاهرة للمنافقين تكرّر حدوثُها من عدّة أفراد أو جماعات منهم، وأنّ الأقوال التي قالوها تعبّرُ عن كُفرِهم برسول الله ﷺ، وبما جاء به عن ربّه.

الظاهرة الثالثة: وصُولُ بعضِهم بعْدَ الصبر الطويل على كتم ما في قلوبهم، إلى أن يتفجّر ما في باطنهم، فيُعْلِنُوا في بعض مجالسهم الخاصة أمَام بعض المسلمين الصادقين كُفْرَهُمْ، بعد أن كانوا قد أعْلَنُوا إسْلاَمَهُمْ واستسلامهم.

دلّ على هذه الظاهرة قول الله تعالى في الآية:

﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾.

إنّ عطف هذه الجملة بحرف العطف «الواو» يدلُّ على أنّها تتحدّث عن ظاهرة غيرِ ما بَدَرَ من بعضِهم إذْ قالوا كَلِمةَ الْكُفْرِ، لأنها لَوْ كانت هي سَبَبَ الحكم عليهم بالكُفر لكان الظاهر أن يكون العطف بالفاء، فيُقَال: ولقد قالوا كَلِمةَ الكُفْرِ فكَفروا بعد إسلامهم، لكِنْ لما جاء العطف بالواو كان علينا أن نفهم أنّ ما بعدها يُؤَسِّسُ قضيّةً جديدة، يضاف إلى هذا أنّ النطق بكلمة الكفر قد لا يدلُّ على الكفر لاحتمال أن يكون نطقها عن إكراه، أو عن غلط، أو عن تأويل لمعنى غير مكفّر.

الظّاهرة الرابعة: أنَّهُمْ هَمُّوا بإحْداثِ حدَثٍ خطيرٍ بَيْنَ المسلمين، لكِنَّ الله عزّ وجلّ خيَّبَهُمْ، وأفْسَدَ خططهم، وقد دَلّ على هذه الظاهرة قول الله تعالى في الآية:

﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾.

الْهَمُّ تَوَجُّهُ النَّفْسِ للقيام بفعلٍ مَا، دون أن يَصِل إلى مستوى الإرادة القويّةِ الجازمة، التي من أثرها التنفيذ بحزم.

ونوال الشيء هو الحصول عليه.

ورد في حادثة هذا الهمّ أنّ اثني عشر رجلاً من المنافقين اتفقوا فيما بينهم، حينما كان الرّسول راجعاً إلى المدينة من غزوة تبوك مع جيش المسلمين، أن يترصَّدُوه

عند عَقَبَةٍ بالطريق مشرفة على وادٍ، فإذا اعتلاها ليلاً زحموا راحلته بـرواحلهم، ودفعوه عن راحلته إلى الوادي.

وبينما كان رسول الله ﷺ سائراً، وقد أخذ عمّار بن ياسرٍ بخطام راحلته يقـودُها، وكـان حذيفـة بْنُ اليمان يسـوقها، إذْ أحسَّ حـذيفة بن اليمـان بأنّهم مقبلون نحـو ركب رسول الله ﷺ، فصاح بهم حذيفة ففـرّوا وتفرّقـوا، وقد سبق في الفقـرة (٧) من موجـز غزوة تبوك عرض قصّة هؤلاء كمـا جاءت في روايـة البيهقي عن حذيفـة، وما جـاء عند الإمام أحمد من زيادة.

الظاهرة الخامسة: أنّهم ناقمون من الإسلام والرسول والمسلمين على الرغم من كلّ الخيرات التي استَغْنَوْا بها بسبب الإسـلام، والفوائـد التي حصلوا عليها من غنـائم وغيرها، وقد دلّ على هذه الظاهرة قول الله تعالى في الآية:

﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦ. . . ﴿٧٤﴾﴾.

يقـال لغة: نَقَمَ الشَّيْءَ ونَقِمَـهُ يَنْقِمُهُ، إذا أنْكَـرَهُ وكَرِهَـهُ، فمعنى ﴿وَمَا نَقَمُـوا﴾: وما أنكرُوا ومَا كَرِهوا ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ من فَضْلِهِ﴾.

أي: لا يُوجد في الواقع أمْرٌ يقتضي نِقْمَتَهُمْ من الله ورسوله بسبب الإسلام الذي اضْطُروا أن يَنْتَمُوا إليه نفاقاً، إنّهم لم يحْصُل لهم بسبب إسلامهم إلاّ غِنىً بعْدَ فقـر، وعزٌّ بعد ذلّ، وأمْنٌ بَعْـدَ خوْفٍ، وهـذه أمور لا تُثِيـر نِقْمَـةَ إنْسَـانٍ عـاقـلٍ سَـوِيّ، إنّ ما أظهروه من إسْلَام ومُتَابَعَةٍ للرّسُولِ على سبيـل المخادعـة والنفاق لم يجلب لهم إلاّ خيراً دُنيويّاً، فما بـالُهُمْ يكيدون ويعْمَلُونَ أعمـالاً يقْصِدون بهـا التخلّص من الإسلام، ومن الـرّسُولِ ومن جمـاعة المسلمين، أيـريدون أنْ يَقْلِبُـوا الأوضاع ليُحْرَمُوا مِنْ هـذا الخير الذي أصابوه؟!

ففي حصـر دواعي نِقْمَتِهِمْ بإغنـاء اللّهِ لهم من فضله تأكيـدٌ لنفي وجود أيّ شيء يقتضي نقمَتَهُمْ بأبْلَغ تعبير.

وهـذا من تأكيـد مضمون الخبـر بما يشبـه ضدّه، ويُعْـرف عن البلاغيين بتـأكيـد المدح بما يشبه الذمّ، إلاّ أنّ عبارة البلاغيين قاصرة على موضوع المدح، مع أنّ الأمـر يشمل كل خبر في المدح وغيره.

والضمير في ﴿من فَضْلِهِ﴾ يعود على الله عزّ وجلّ، وعطاء الرسول الذي كان سبب إغنائهم إنّما هو عطاء من فضل الله.

الفَضْلُ: هو في الأصل الزيادة، والبقية من الشيء، واستعمل الْفَضْلُ بمعنى الابتداءِ بالإحسان والْعَطَاءِ من الخير ماديّاً كان أو معنوياً، واشتهر بهذا المعنى.

بعد بيان هذه الظواهر الخمس من ظواهر المنافقين السلوكية فتح الله لهم باب التوبة وأغراهم بها، وأتبعه بالتحذير والإنذار بالعذاب الأليم إنْ تولَّوْا ولم يتوبُوا، ولم يكترثوا للإغراء ولا للتحذير، فقال الله تعالى:

﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾:

أي: فإنْ يرجعوا إلى الإيمان الصادق الصحيح الذي فُطِرُوا عليه، وإلى الطاعة والاستقامة عملاً بدواعي فطرتهم الأولى يَكُنْ رُجُوعهم ذلك خيراً لهم.

﴿يَكُ﴾ أصْلُها ﴿يَكُنْ﴾ حُذِفت النونُ تخفيفاً، وهذا الحذْفُ عند العرب جائز في فعل ﴿يَكُونُ﴾ بشرط كونه مجزوماً بالسّكون، غيرَ متّصلٍ بضمير نَصْب، وَلاَ بساكِنٍ، كما في النصّ هنا.

والخير الذي يغريهم الله به يكون بتوبة الله عليهم، وبالظفر بالجنّة مع أهل الإيمان، ورُوي أنّ الجلاس بن سويد تاب وحَسُن إسلامه.

وفي التحذير قال الله تعالى:

﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾:

أي: وإن يُدْبِرُوا ويَبْتَعِدوا عن الإيمان والطاعة مصرين على الكفر والنفاق يُعَذِّبْهُمُ الله عذابين: عذاباً أليماً مُعَجّلاً في الدّنيا، وعذاباً أليماً مؤجلاً يذوقونه في الآخرة يوم الدين.

وحين ينزل بهم العذاب المعجل في الدنيا، لا يكون لهم في الأرض أدنَى وليٍّ يتولّى أمرهم لدفع عذاب الله عنهم، أو التخفيف منه، أو الشفاعة لهم فيه، ولا يكون

لهم في الأرض أدنَى نصير ينْصُرُهُمْ ضدّ جُنْدِ الله الذين يُسلّطون عليهم.

أمّا في الآخرة فالأمر كلّه يومئذٍ لله وحده، ويومئذٍ لا يدع الله لذي سلطان سلطاناً، ولا لذي سبب سبباً، لقد انتهى يوم الابتلاء والتسخير، وحلّ يومُ الجزاء الذي لا يكون فيه سلطان إلّا لله، ولا يشفَعُ فيه أحدٌ لأحد إلّا بإذنه.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾.

* قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿الْغُيُوبِ﴾ بضمّ الغين.

وقرأ حمزة وشعبة عن عاصم: ﴿الْغِيُوبِ﴾ بكسر الْغَيْن.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق الكلمة.

تتحدّث هذه الآيات عن بعض المنافقين، وقد كان من شأنهم أنّهم قالوا: لئن آتانا الله من فضله مالاً كثيراً لنَصَّدَّقَنَّ ولَنَكونَنَّ من الصالحين، فلمّا آتاهم الله من فضله مالاً كثيراً نقضوا عهدهم، وبَخِلوا به، فلم يؤدّوا ما فرض اللّهُ في أموالهم، فكان نقضُهُمْ لِعَهْدِهِمْ وبُخْلُهُم بما أوجب الله عليهم سبباً في استقرار النفاق في قلوبهم بمقتضى سنة الله في القلوب والنفوس، حتى نهَاية آجالهم في الحياة الدنيا، ولقائهم ربَّهم للحساب والجزاء.

وفي قِصَصِ من نزلت هذه الآيات بسبب ما كان منهم، ذكر الرواة عدّة روايات:

(١) أخرج أبو الشيخ عن الحسن، أنّ رجلاً من الأنصار عاهد الله هذا العهد، فمات ابن عمٍّ له فورث منه مالاً، فبخل به، ولم يَفِ بما عاهد الله عليه، فأعْقَبَهُ بذلك نفاقاً في قَلْبه إلى أن يَلْقاهُ.

(٢) وأخرج ابن جرير، وابنُ أبي حاتم، وابن مَرْدَوَيه، والبيهقي في دلائل النبوة: عن ابن عباس، في قول الله تعالى: ﴿ومِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ...﴾ الآية: أنّ رجُلاً من الأنصار يُقالُ له ثَعْلَبَةُ، أتَى مَجْلِساً فأشْهَدَهم فقال: لَئِنْ آتاني اللَّهُ مِنْ فضله آتَيْتُ كُلَّ ذِي حقٍّ حقَّهُ، وتصدّقت منه، وجعلتُ منه للقرابة، فابْتَلاهُ الله، فآتاه اللَّهُ من فضله، فأخْلَفَ ما وَعَدَهُ، فأغْضَبَ اللَّهُ بما أخلفه ما وعده، فقصّ الله شأنَهُ في القرآن.

(٣) قصة ثَعْلَبَة بن حاطب، أو ابن أبي حاطب، المنافق، أحدِ بناة مسجد الضرار كما ذكر ابن هشام، وهو غير ثعلبةَ بن حاطب الأنصاريّ الذي هو من بني أُمَيَّةَ بن زيدٍ، فهذا صحابيٌّ مؤمن، وهو من أهل بدر، وذكر ابن الكلبيّ أنّه مات بأحد[١].

وقصة ثعلبَةَ بن حاطب أو ابن أبي حاطب أخرجها ابْنُ المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والعسكري في الأمثال، والطبراني، وابن منده، والبارودي، وأبو نعيم، وابنُ مَرْدَويه، والبيهقي، وابنُ عساكر (بأسانيد لا يصحّ الاعتماد عليها لضعفها)[٢].

(١) أخذاً من محمد بن محمد أبو شهبة في كتابه (السيرة النبوية) في بحث (هدم مسجد الضرار وتحريقه) ص (٥٠٧) من الجزء الثاني، قال: وقد نبّه على ذلك الحافظ ابن حجر في الإصابة (ج ١ ص ١٩٨)، وساق أدلّة على ذلك، وقد وهِمَ ابن إسحاق حيث عدّ الثاني ممّن بنى مسجد الضرار، ووهم ابن عبد البرّ في الاستيعاب حيث نسب إليه القصة في شأن من عاهد الله ثم نقض عهده.

(٢) كتب الأخ الفاضل الشيخ «عداب الحمش» رسالة بعنوان «ثعلبة بن حاطب المفترى عليه» نقل فيها عن طائفة من العلماء بالأسانيد، أنّ هذه القصة التي نقلها المفسّرون ضعيفة، لا يصحّ الاعتماد عليها، واستنتج من كون أصحاب رسول الله ﷺ عدولاً بطلانها، ووجوب ردّها وعدم الاستشهاد بها، ولا بمثلها.

أقول: أمّا نسبتها إلى صحابيٍّ من أهل بدر، فهي نسبة باطلة حتماً، وأمّا نسبتها إلى مسلمٍ عاصر الرسول ﷺ فليست باطلة، لأنّ المنافقين الذين تحدّث القرآن عنهم باستفاضة هم مسلمون في الظاهر، وقد عاصروا الرسول وكان لهم معه لقاءات، ولا بدّ أن ينطبق قول الله عزّ وجل على بعضهم، ولكن ينبغي عند تعيين الاسم التوثق من أنّه ليس من المشهود لهم بالإيمان، أو من أهل الجنة، أو من فضلاء الصحابة، كما ينبغي التحرّي عن صحة الرواية. =

عن أبي أمامة الباهلي، قال:

جاء ثعلبة بْنُ حاطب (هو غير ثعلبة بن حاطب البدري) إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ادْعُ اللَّهَ أن يرزقني مالاً، قال:

«وَيْلَكَ يَا ثَعْلَبَةُ، قَلِيلٌ تُؤدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لا تُطِيقُهُ» قال: يا رسول الله ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنِي مالاً، قال:

«وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ، أَمَا تُحِبُّ أَنْ تَكُونَ مِثْلِي، فَلَوْ شِئْتُ أَنْ يُسَيِّرَ رَبِّي هٰذِهِ الْجِبَالَ مَعِي ذَهَباً لَسَارَتْ».

فَقَالَ: يا رسول الله، ادْعُ الله أن يَرْزُقَنِي مالاً، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ آتاني مالاً لأُعْطِيَنَّ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، قال:

«وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ، قَلِيلٌ تُطِيقُ شُكْرَهُ خَيْرٌ من كَثِيرٍ لَا تُطِيقُهُ».

قال: يا رسول الله ادْعُ اللَّهَ تعالَىٰ، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ مالاً».

قال الراوي: فاتخذ غَنَماً، فَنَمَتْ كما تَنْمُو الدّود، حتّى ضاقت بها المدينة، فتنَحّىٰ بها، فكان يَشْهَدُ الصَّلاة بالنهار مع رسول الله ﷺ، ولا يشهدها باللّيل.

ثُمَّ نَمَتْ كَمَا تَنْمُو الدّود، فتنَحّىٰ بها، فكان لا يَشْهَدُ الصلاة باللَّيْلِ ولا بالنّهار، إلّا من جُمُعةٍ إلى جُمُعَةٍ مع رسول الله ﷺ.

ثمّ نَمَتْ كما تَنْمُو الدود، فضاق بها مكانُهُ فتنَحّىٰ بها، فكان لا يَشْهَدُ جُمُعةً ولا جنازةً مع رسول الله ﷺ.

فجعلَ يتلَقَّىٰ الرُّكْبَانَ ويَسْأَلُهُمْ عن الأخبار.

وفَقَدَهُ رسول الله ﷺ فسأل عنه، فأخبروه أنّه اشترى غنماً، وأنّ المدينة ضاقت به، وأخبروه خبره، فقال رسول الله ﷺ:

= وهذه القصة يمكن الاستئناس بها لمعرفة صفات فريق من المنافقين، عاصروا الرسول وكانوا بين المسلمين حتماً، وكان بعض المؤمنين يجهلون حقيقتهم، وهذا لا يطعن بـرواة الحديث من أصحاب رسول الله العدول، لأنّ رواة الحديث منهم عدول عند جمهور الصحابة.

«وَيْحَ ثَعْلَبَةَ بْنَ حَاطب، وَيْحَ ثَعْلَبَةَ بْنَ حَاطِبٍ».

ثُمَّ إنّ الله أمر رسوله أن يأخذ الصَّدقات (أي: الزكاة) وأنْزَلَ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا...﴾ الآية (١٠٣) من سورة التوبة.

فَبَعَثَ رسول الله ﷺ رجُلَيْن: رجُلاً من جُهَيْنَةَ، ورَجُلاً من بني سَلِمَةَ يَأْخُذَانِ الصَّدقات، وكَتَبَ لهما أسنان الإبل والغنم كيْفَ يأخُذانِها على وجوهها، وأمَرَهُمَا أنْ يَمُرَّا على ثَعْلَبَة بْنِ حاطب، وبرجُلٍ من بني سُلَيْم، فخرجا، فمَرَّا بثعلبة، فسألا الصَّدَقة، فقال: أرِياني كتابكُما، فنظر فيه، فقال: ما هذه إلاّ جزية، انْطلِقا حتّى تَفْرَغا، ثُمّ مُرّا إليّ، فانْطلَقا، وسَمِعَ بهما السُّلَمِيُّ فاسْتَقْبَلَهُمَا بخيار إبله، فقالا: إنّما عليك دون هذا، فقال: ما كنْتُ أتقرَّبُ إلى اللَّهِ إلاّ بخيْرِ مالي، فقَبِلا.

فلمّا فَرَغا مرًّا بثَعْلَبَةَ، فقال: أرِيَاني كِتَابَكُمَا، فنظَرَ فيه، فقال: ما هذه إلاّ جزية، انْطلِقَا حتّى أرَىٰ رأيي.

فانْطلَقَا حتّى قَدِما المدينة، فلمّا رآهما رسول الله ﷺ قال قبل أن يُكلِّمهما:

«وَيْحَ ثَعْلَبَةَ بْنَ حَاطِبٍ» ودعا للسّلَميّ بالبركة، وأنزل الله:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ: لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ...﴾ الآيات الثلاث من (٧٥ ـ ٧٨).

قال الراوي: فسمع بعضُ أقارب ثعلبَةَ، فأتى ثعلَبَةَ فقال: ويْحَكَ يا ثَعْلَبَةُ، أُنْزِلَ فيك كذَا وَكذا.

قال: فقدم ثعلَبَةُ على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه صدقة مالي، فقال رسول الله ﷺ:

«إنَّ الله قَد مَنَعَني أنْ أَقْبَلَ مِنْكَ».

فجعل ثعلَبَةُ يبكي ويَحْثي الترابَ على رأسه، فقال رسول الله ﷺ:

«هٰذا عَمَلُكَ بنفْسِكَ، أَمَرْتُكَ فَلَمْ تُطِعْني».

فلم يَقْبَلْ مِنْهُ رَسُول الله ﷺ حتّى مضى، ثُمّ أتى أبَا بكْرٍ، فقال: يا أبا بكْرٍ، اقْبَلْ منّي صَدَقَتي، فقَدْ عَرَفْتَ منْزلتي من الأنصار.

فقال أبو بكر: لم يَقْبَلْهَا رَسُول الله ﷺ، وأَقْبَلُهَا؟! فلم يَقْبَلْهَا أبو بكر.

ثمّ وُلّيَ عمرُ بن الخطّاب، فأتاه فقال: يا أبا حَفْص، يا أميرَ المُؤْمِنِينَ، اقْبَلْ مِنّي صَدَقَتِي، وجَعَلَ يُثْقِلُ عليْهِ بالْمُهاجِرِينَ والأنْصارِ وأزواجِ النبيّ ﷺ.

فقال عُمَر: لم يَقْبَلْهَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ، ولا أبو بَكر، أَقْبَلُهَا أنا؟! فَأبَىٰ أنْ يَقْبَلَهَا.

ثُمّ وُلّيَ عُثْمانُ، فسأله أن يقْبَلَ صَدَقَتَهُ، فقال: لم يقْبَلْهَا رسولُ الله ﷺ، ولا أبو بكر، ولا عُمَرُ، وأنا أَقْبَلُهَا مِنْكَ؟! فلَمْ يَقْبَلْهَا مِنْهُ.

فَهَلَكَ فِي خِلاَفَةِ عُثْمَانَ.

أقول:

إذا كان لهذه القصة أصْلٌ، فالمانع من قبول زكاة مال هذا المنافق بعد أن امتنع عن بذلها أوّل مرّة، هو معاقبتُهُ بعزله عن جماعة المسلمين عزْلاً جزئيّاً، بسبب نَقْضه ما عاهد الله عليه، وكان قد سأل الرسول أن يدعُوَ الله بأن يؤتيه مالاً، فمن سنة الله أنّ من طَلَبَ آيَةً على صِدْقِ الرّسُولِ، فدعا الرّسُولُ ربّه، فأعطاه ما طلب، فنقَضَ عَهْدَهُ، أنزل الله به العقوبة لا محالة.

لمّا طلبَتْ ثمود آية الناقة، فآتاهم الله ما طلبوا، أهلكهم الله عقوبة لهم على عقرهم لها، ونقض عهدهم بشأنها.

ولمّا طلب هذا المنافق كثرة المال، وعاهد الله على أن يتصدّق ولا يبخل، فلَمّا امْتُحِنَ وَنقَضَ عَهْدَهُ، اسْتَحَقّ العقوبة بعزله جزئيّاً عن المجتمع الإسلاميّ، لانكشافِ حاله في موضوع بذل الصّدَقات، ولَمْ يُعامَلْ حول موضوع الصّدَقاتِ معاملة سائر المنافقين، الذين أعلم الله رسولَهُ بحقيقة نفاقِهِمْ، لأنّه كشَفَ أمْرَ نفسه في هذا الموضوع الخاصّ الذي عاهد اللّهَ عليه.

وهذا من الأسلوب الحكيم في معاملة المنافقين، وتربية الذين لم يَنْقضُوا بَعْدُ عُهُودَهُمْ مِنْهُمْ، بالذين نَقَضُوا عُهُودَهُمْ، والتربيَةُ تكْفِي فيها الحادثَةُ الواحدة.

* * *

التـدبُّـر

﴿وَمِنْهُم﴾:

أي: ومن المنافقين، لأنّ الآيات السابقات تتحدَّثُ عَنْهُم.

﴿مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾:

أي: فريقٌ عَاهد اللّهَ، ويكْفِي أن ينطبق هذا على أقلّ الجمع فأكثر، لأنّ التعبير جاء بصيغة جماعةٍ عَاهَدُوا اللّهَ.

﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾:

أي: قال في معاهَدَتِه اللّهَ: واللّهِ أو نُقْسِمُ لَئِنْ آتانا الله مالاً وفيراً من زيادات إحسانه.

﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾:

هذا جواب القسم، وقد أغنى ذكره عن ذكر جواب الشرط لاتحادهما في المعنى، والمعنى: لنبذُلَنَّ زكوات أموالنا، وقد يدلّ اللّفظ على صدَقاتٍ فوق الواجب أيضاً، ولَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ، بِصِدْقِ الإيمان وحُسْنِ العمل الذي هو أثر الإيمان الصحيح الصادق.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾:

أي: فاستجاب الله لهم دون إبطاء، وحين آتاهُمْ ما طلبوا من أموال، من زيادات إحسانه على غير سبيل العوض أو الجزاء.

﴿بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾:

أي: لم يَبْذُلوا الواجبَ الذي فَرَضَهُ الله فيما يُؤْتِيهم من أموال، فَضْلاً عن أن يَبْذُلوا ممّا آتاهم اللّهُ من فضله تَطَوُّعاً.

﴿وَتَوَلَّوا۟﴾:

أي: ابتَعدُوا واجْتَنبُوا طاعَةَ الله.

﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾:

أي: والحال أنّهم يُعْطُونَ للتكاليف الربّانيّةِ عارضهم، أي: جانبهم، لأنّهم في ظاهر أمرهم مسلمون لا يستطيعون أن يُدْبِروا، ويُظْهِرُوا بإدْبارِهِمْ كُفْرَهُمُ الّذي يُبْطِنُونه.

فالإعراضُ حالةٌ وُسْطَى بَيْنَ الإدْبار والإقبال، والتولّي قد يكون إدْباراً وابتعاداً، وقد يكون ابتعاداً واجتناباً في حالة إعراضٍ دون إدبار ظاهر، لكن التولّي بمعنى الابتعاد مع حالة الإعْرَاض يُساوي في الحقيقة المستورة الإدْبارَ، أي: الكُفْرَ في الباطن، فجاء التعبير: ﴿وَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ بالِغَ الدقّةِ في الدلالَةِ علَى سلوكهم الذي هو أثرٌ من آثار نفاقهمْ الذي هو كُفْرٌ في الباطن، وإسلامٌ في الظاهر، مصحوبٌ بمعصيةٍ لا تَنْقُضُ الإسلام بحسب الظاهر.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾:

أي: فجازاهُمُ اللّهُ عَقِبَ نَقْضِهِمْ مَا عاهَدُوا اللّهَ عليه، ضمن مجاري سُنَنِه في قُلوب عباده ونُفوسِهِمْ.

﴿نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾:

أي: نِفاقاً مُتمكّناً رَاسِخاً مُتَغَلْغِلاً فِي قُلُوبِهِمْ، لا يُشْفَوْنَ منه، حتى نهاية آجالهم في الحياة الدُّنيا، ولقائِهِمْ رَبَّهُمْ مُنْذُ دُخولِهِمْ عَتَبَةَ الآخرة بالموت.

وذلك لأنَّ من كان منافقاً من دركةٍ قابلةٍ للشفاء، إذا عاهَدَ اللّهَ عَهْداً مشروطاً بشرط على ربِّهِ، فحقَّقَ اللّهُ لَهُ مَا شَرَطَ، فنقضَ مَا عَاهد عليه ربّه، كان من نتائج عمله هذا في سُنَنِ اللّهِ السببيّة، أن يَنْزِلَ فيه النفاق إلى أخسّ الدَّرَكات، ويَرْسَخ في قَلْبِه، كمن يضَعُ جِسْمَهُ في النار فإنّ الله يُحْرِقُه بالنار التي وضع جِسْمَهُ فيها ضمن مجاري سننه العامّة.

﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝٧٧﴾:

أي: جازاهم الله ضمن مجاري سننه العامّة برسُوخ النفاق في قلوبهم، واستقراره فيها حتى ملاقاتهم له بعد انتهاء رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، بسبب أمْرَيْن:

الأمر الأول: إخْلاَفُهُمْ في التطبيق العمليّ ما كانوا عـاهَدُوا اللّٰهَ عليـه بألسنتهم، فقوله تعالى:

﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾:

أي: بسبب إخْلاَفهم مـا عـاهـدوا اللّٰهَ عليـه، وهـو أن يتصـدَّقُـوا ويكـونـوا من الصالحين. ﴿ما﴾ في ﴿بِمَا أَخْلَفُوا﴾ مصدرية تُؤَوَّلُ مع ما بعدهـا بمصدر، والعهـد قد تضمَّن وعداً.

الأمر الثاني: أنّهم كانُوا يكْذِبُون حينما وعَدُوا الله، يقولون بـالسنتهم ما لَيْسَ في قُلُوبِهِمْ، فهُمْ مُنْذُ البداية قد أعْطَوْا بألسنتهم العهـد والوعْـدَ وهـم لا يُريـدون الوفـاء بـه، لأنّهم منافقون غير مؤمنين، يعطون العهود بألسنتهم فقط، فإذا حقَّقَ الله لهم ما شـرَطُوا أحالوا ما تحقّق لهم على الأسباب، وهم لا يؤمنـون بأنّ الله هـو الذي أجـراها ليمتحن إيمانهم وطاعتهم ووفاءهم بوعودهم، فقوله تعالى:

﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾:

أي: وبسبب كـذِبهم الذي كـانوا يكـذِبُونَـهُ في إعطائهم وعُـودَهُمْ، وفي أصـل ادّعائهم أنهم مؤمنونَ ومسلمـون صادقـون، وصفة الكـذب هذه صفـة متكرّرة متجـدِّدة فيهم، وكذلك كلّ المنافقين.

﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾:

أي: ألم يعلموا مما سَبَقَ لهم في تجارِبِهِمُ الكثيرة الّتي كشَفَ اللّٰهُ لهم بها فيما أنزل من بياناتٍ قرآنيّة مَا كانوا يُسِرُّون في قُلُوبهم، ومَا كـانُوا يُسَـارُّون به إخـوانَهُمْ في نجواهم (النجوى: الإسرار بالحديث) أنَّ الله يَعْلَمُ سِرَّهم ونجواهُمْ؟!

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٧٨﴾:

أي: وَأَلَمْ يَعْلَمُوا مِنْ هٰذِهِ التجارب وغيرها مما يُشاهِدُون في الـظاهرات الكـونية التي تجري بمقادير الله المحكمة، والّتي لا يتمّ إتقانها وإحكامُها إلاّ بعلْمٍ محيط بكـلّ شيءٍ مشهـودٍ وغائبٍ في السمـاوات والأرض، أنّ اللّٰهَ الرّبّ الخـالق البارىء المصـوّر الذي يُصَرِّفُ الأمور بحكمته عَلاّمُ الْغُيُوب كُلِّهَا، لا يخفىٰ عليه شيءٌ منها؟!

عَلَّام: صيغةُ مبالغةٍ وتكثيرٍ لِعَالِم، على وزن «فَعَّال».

الغيوب: جَمْعُ الغيب، وهو ما غاب عن حواسّ وإدراكات المخلوقات، و«الْ» في الغيوب لاستغراق الجنس، أي: عَلَّامُ كُلِّ أنواع الغيوب وأفرادها في السماوات والأرض.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

* قرأ جمهور الْقُرَّاء الْعَشَرَة: [يَلْمِزُونَ] بكسر الميم.

وقرأ يعقوب فقط: [يَلْمُزُونَ] بضَمّ الميم.

والقراءتان وجهان عربيّان لنُطْقِ الكلمة.

اللَّمْزُ: نِسْبَةُ الْعَيْبِ إلى الملموز، يُقَالُ لغة: لَمَزَهُ يَلْمِزُهُ ويَلْمُزُهُ إذا عابَهُ، أو أشار إليه إشارة تدلُّ على أنّه يعيبُه بشيءٍ ما، والإشارةُ تكونُ بحركات العين أو الشفة أو نحوهما مع كلامٍ خفيّ.

﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾:

أي: المتطوّعين، المتطوّع هو المتنفّل الذي يتقرّب إلى الله بعمل صالح غير واجب عليه.

﴿فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾:

المرادُ من الصّدقات هنا صَدَقاتُ التَّطَوُّعِ لا الزكاة الواجبة، بدليل قرينة «المطّوّعين» أو هي أعمّ فتشمل الزكاة وغيرها.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾:

أي: لَا يَجِدُونَ إِلَّا الشيْءَ الْقَلِيلَ، وهو ما في وُسْعِهِمْ أنْ يَبْذُلُوهُ.

الْجُهْدُ: بضمّ الجيم الْوُسْعُ والطَّاقةُ والشيءُ الْقَلِيلُ الَّذِي يَعِيشُ به الْمُقِلُّ، أمّا الْجَهْدُ بفتح الْجِيمِ فهو مصْدَرُ جَهَدَ يَجْهَدُ بمعنى «جَدَّ» وبمعنى بذل طاقته وقُدْرَتَهُ حتى بلغ الغاية وحلَّتْ به المشقّة.

هذه الآية تتحدَّث عن ظاهرة من ظواهر سلوك المنافقين، وهي ظاهرة لَمْزِ المتطوّعين ببذل صدقاتهم عموماً، مع السخرية من الأشياء القليلة التي يبذُلُها المؤمنون الصادقون الفقراء، الذين لا يَجِدُونَ فيما يملكون أشياء ذات قيمة كبيرة يبذلونها.

أمّا من يبذُلُ الكثير فيلمزونه بالرياء، وأمّا من يبذُل الشَّيْءَ القليل الذي هو جُهْدُهُ، فيَلْمِزُونه بأنّه يُذَكِّرُ بنَفْسِهِ وحاجَتِهِ حتّى يُعْطَى من الصَّدقات، ويَسْخَرُونَ ممّا قدَّم لقلَّتِهِ.

وورد في قصّة هذا اللّمز ما يلي:

(١) روى البخاري بسنده عن أبي مسعود قال:

لمّا أُمِرْنَا بالصَّدَقَةِ كُنّا نَتَحامَلُ (أي: نعْمَلُ حمَّالِينَ بالأُجْرَة) فَجاء أَبُو عَقِيلٍ بِنِصْفِ صَاعٍ، وجَاءَ إِنْسَانٌ بأكْثَرَ مِنْهُ، فقال المنافقون: إنّ اللّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هٰذا، وما فعلَ هذا الآخَرُ إلَّا رياءً، فنزلت:

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ...﴾ الآية.

وعند مسلم نظيره، واسم أبي عقيل هذا «الْحَبْحَابُ».

(٢) وذكر عبد بن حميد بسنده عن قتادة «مُرْسَلاً» في تفسير الآية، قال:

جاء رجلٌ من الأنصار يُقالُ له: «الْحَبْحَابُ أبو عقيل» فقال: يا نبيَّ الله بِتُّ أجُرُّ الْجَرِيرَ علَى صاعَيْنِ من تمر، فأمّا صاعٌ فأمسكته لأهلي، وأمّا صَاعٌ فها هو ذا.

فقال المنافقون: إنْ كَانَ اللّهُ ورَسُولُه لغَنِيَّيْنِ عن صَاعِ أبي عقيل، فنزلت.

ووصل الطبراني والباوردي والطبري هذا الحديث من طريق آخر إلى أبي عقيل.

وسمّى الواقديُّ من المنافقين اللاّمزين: «مُعَتِّبَ بْنَ قُشَيْر» و«عَبْدَ اللَّهِ بْنَ نَبْتَل».

(٣) وجاء عند الطبري عن قتادة، وكذلك عند ابن أبي حاتم عن عكرمة، قال: حثَّ رسول الله ﷺ على الصَّدَقة ـ يعني في غزوة تَبُوك ـ فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف، فقال: يا رسول الله، مالي ثمانية آلاف، جئتك بنصفها وأمْسَكْتُ نِصْفَها، فقال:

«بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا أَمْسَكْتَ وَفِيمَا أَعْطَيْتَ».

وتصَدَّق يومَئِذٍ عاصِم بنُ عديّ بِمِئَةِ وَسْقٍ[1] من تَمْرٍ، وجاء أبو عقيل بصاعٍ من تَمْرٍ.

فقال المنافقون: ما أخرج هؤلاء صدقاتهم إلاَّ رياءً، وأمّا أبو عقيل فإنّما جاء بصاعه ليذكّر بنفسه، فنزلت الآية.

* * *

التدبُّر

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾:

أي: الذين يَعِيبُون المتطوّعين من المؤمنين ذوي اليسار في بذلهم الصَّدَقاتِ بأنّهم مراءون، إذا كانوا من المكثرين من صدقاتهم، كعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وعاصم بن عَدِيّ، وأمثالهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾:

أي: ويَلْمِزُون المتطوّعين من المؤمنين الفقراء الذين لا يجدون إلاَّ الشّيء القليل الذي يستطيعون بذله، فَهُو جُهْدُهم، يلمزونهم بأنهم يريدون التذكير بأنفسهم، والإشعارَ بأنّهم فقراء، لتُبْذَلَ لَهُمُ الصَّدَقات.

﴿والَّذين﴾ معطوفة على المطّوّعين على تقدير حذف مضاف، أي: والمطّوعين الذين لا يجدون إلاَّ جُهْدَهم، أو منصوبة بفعلٍ محذوف تقديره: وأخصّ الذين. . .

﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾:

(١) الوَسْقُ ستون صاعاً، والصاع يعادل (٢١٧٥) غرام من القمح.

أي : فَيُقَابِلُونَ صدقاتِ المقلّين الفقراء عَقِب إحضارهم لها بالسُّخْرية، كأن يضحكوا ساخرين منهم ومن الشيء القليل الذي تقدَّموا به.

﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ :

أي : جازاهم على عملهم بمثلِهِ، فأعْلَنَ لملائكتِهِ وأنزل في كتابه أنه سَخِرَ مِنْهم، لأنَّهُمْ بسفاهتهم التي جعلتهم يسخرون من أعمال المؤمنين عرَّضوا أنفسهم لعذاب الله، فهم الأحرىٰ بأن يكونوا مسخوراً منهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ :

أي : وأُعِدَّ لَهُمْ أنْ يذوقوا عذاباً أليماً، فهو لهم سيذوقونه لا محالة، ما لم يتوبوا من كفرهم ونفاقهم، وهذا القيد مفهوم من مختلف النصوص القرآنية، فلا حاجة إلى إعادته مع كلّ بيان يقتضيه.

* * *

* قول الله عزّ وجل :

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

خاطب الله عزّ وجلّ بهذه الآية الرسول ﷺ ويُلْحَقُ بِهِ جميع المؤمنين، فقال له بشأن المنافقين :

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ . . .﴾.

فَهِمَ الرَّسُولُ من هذه الآية أنّ الله عزّ وجلّ خَيَّرَهُ بين أن يستغفر للمنافقين أو لا يَسْتَغْفِرَ لهم، وأنَّهُ إنْ يسْتَغْفِرْ لهم سبعين مرّة فلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لهم، ولم يفهم الرسول من هذه الآية أنّ الله حرَّمَ عليه أن يستغْفِرَ للمنافقين، وفَهِمَ أنّه مأذون له بأنْ يُعامل المنافقين في موضوع الاستغفار والصلاة على موتاهم بحسب ظاهر إسلامهم، كسائر الإجراءات في الحياة الدّنيا، ولو كان يَعْلَمُ أنّهم منافقون، ولا سيّما إذا كان في الأمر مصلحة سياسية أو إدارية.

وفهم صلوات الله عليه من حصر العدد الأعلى بالسبعين احْتِمَالَ أنّ الزيادة على السبعين قد تُفِيد مَنْ يستغْفِرُ لهم، ولو بتخفيف العذاب عنهم.

وقد سبق أن أنزل الله في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول) قولَهُ لرسوله بشأن المنافقين:

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦﴾.

وسبق أن أُنزِلَ قبل هذه الآية في سورة (الممتحنة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول) قوله خطاباً للرسول والمؤمنين:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤﴾.

فوجههم لاتّخاذ إبراهيم والذين معه أسوة حسنة لهم باستثناء وعْدِ إبراهيم أباه أنْ يستغفر له، فدَلَّ هذا على أنّ المؤمن لا يسأل الله أن يغفر لكافر.

لكنَّ مَوْضُوعَ المنافقين يختلف عن الكافرين الصُّرحاء، باعتبار أنَّ الله جعل معاملتهم في الإجراءات الدّنيويّة كمعاملة المسلمين بحسب ظاهر انتمائهم إلى الإسلام، ما لم يَنْزل نصٌّ صريحٌ بخلاف ذلك.

والدليل على هذه المفهومات التي فهمها الرّسول ﷺ، ما رواه البخاري عن عبد الله بن عمر، قال:

لَمَّا تُوُفِّي عَبْدُ اللّهِ بْنُ أُبَيّ جَاءَ ابْنُهُ عَبدُ اللّهِ بْنُ عَبْدِ اللّهِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يُكَفِّنُ فِيهِ أَبَاهُ، فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَامَ عُمَر وَأَخذ بِثَوْبِ رَسُول الله فَقَال: يَا رَسُول الله، أَتُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّي عليه؟! فَقَالَ رَسُول الله ﷺ:

«إنَّمَا خيَّرني اللَّهُ فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لهم﴾ وَسَأَزِيدُهُ عَلَىٰ السَّبْعِينَ».

قال: إنَّهُ منافق!!

قال: فصلّىٰ عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة].

فتح الباري رقم الحديث (٤٦٧٠)

وما رواه البخاريّ عن عمر بن الخطّاب، أنّه قال:

لمّا مَات عبدُ الله بنُ أُبيّ بـنُ سَلُول، دُعِيَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فلمّا قامَ رسول الله ﷺ وَثَبْتُ إلَيْـهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُـولَ الله، أتُصَلّي علىٰ ابْنِ أُبيٍّ وقد قـال يوم كذا: كذا وكذا؟! أُعَدِّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ(١). فَتَبَسَّم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وقَالَ:

«أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ».

فلمّا أَكْثَرْتُ عليه قال:

«إنّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ، لو أَعْلَمُ أنِّي إنْ زِدتُ عَلَىٰ السَّبْعِينَ يُغْفَرْ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا».

قال: فَصَلَّىٰ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمْ يَمْكُثْ إلَّا يَسِيراً حَتَّىٰ نَزَلَتِ الآيَـةُ مِنْ بَـرَاءَة: ﴿وَلاَ تُصَـلِّ عَلَىٰ أَحَـدٍ مِنْهُمْ مَـاتَ أَبَـداً... إلى قـولـه: وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

قال عُمَر: «فَعَجِبْتُ بَعْدُ مِنْ جُرْأَتِي عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، واللَّهُ ورَسُولُهُ أعْلَمُ».

وروى الطبريّ عن الشعبي أنّ النبي ﷺ قال: «فأنا أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ وسَبْعِينَ وسَبْعِينَ».

ورُوي عن قتادة، ومجاهد، وعن هشام بن عُروة عن أبيه، أنّ النَّبيَّ ﷺ قال:

---

(١) يشير إلى مثل قوله: ﴿لا تنفقوا على من عند رسول الله﴾ وقوله: ﴿ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ﴾.

«قَدْ خَيَّرَنِي رَبِّي فَوَاللَّهِ لأَزِيدَنَّ عَلَىٰ السَّبْعِينَ».

قال ابن حجر في الفتح: وهذه طرق وإنْ كانت مراسيل فإنّ بعْضَها يَعْضُدُ بعضاً[1]. وذكر عن الواقدي، أن مجمع بن جارية قال: ما رأيت رسول الله ﷺ أطال على جنازة قطُّ ما أطال على جنازة عبد الله بن أُبَيّ من الوقوف.

قال ابن إسحاق في المغازي: «حدثني الزهري بسنده قال: فما صلّىٰ رسول الله ﷺ على منافق بعده ولا قام على قَبْرِه حَتّىٰ قَبَضَهُ اللَّهُ».

ونقل ابن حَجَر عن الخطابي أنّه قال: إنّما فعل النبيّ ﷺ مع عبد الله بن أبيّ ما فعل لكمال شفقته على من تعلّق بطرفٍ من الدّين، ولتطييب قَلْب وَلَدِهِ عبد الله الرجُل الصالح، ولتألُّف قومه من الخزرج لرياسته فيهم، فلو لم يُجِبْ سؤال ابنه، وتركَ الصلاة عليه قَبْلَ وُرُود النَّهْي الصريح لكَانَ سُبَّةً على ابْنِهِ وَعاراً عَلَىٰ قومه، فاستعمل أحْسَنَ الأمْرَيْنِ في السياسة، إلَى أنْ نُهِيَ فانْتَهَىٰ.

أقول:

هذا الذي ذكره الخطابيّ فهم سديد، وأمّا قول عُمَر رضي الله عنه للرُّسول: «أتُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أن تُصَلِّيَ عَلَيْهِ؟!». فقد بناه على ما فهمه هو من قوله تعالى: ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: فلا تستغفِرْ لهم، والنهي عن الاستغفار يلزم منه النهي عن الصلاة عليهم، وقد أبان الرسول ﷺ لِعُمَر أنّ الآية تُفِيدُ التخيير بين الاستغفار وعدمه بالنسبة إلى المنافقين، ولا تُفِيدُ النهيَ عن الاستغفار، ولو كان الله لا يغفر لهم، فالعمل بظاهر أحوالهم قد تكون له مصلحة غير تحقيق المغفرة لهم.

ودلّت الرّوايات الأخرى على أنّ الرسول ﷺ فهم من تحديد «سبعين مرّة» احتمال أنّه لو زاد على السبعين لنفعهم ذلك ولو بتخفيف العذاب عنهم، وهذا يدلّ على أنّ الأصل في العدد إرادةُ معناه، فيبقىٰ المفهوم المخالف أمراً مسكوتاً عنه، والمَسْكوتُ عنه محتمل أمْرَيْن: أن يوافق حكم العدد المذكور، وأن يخالفه.

وبعد أن أبان الله عزّ وجلّ أنّه لا يغفر للمنافقين ولو استغفر لهم الرسول سبعين

---

(١) فتح الباري ص ٣٣٥ من الجزء الثامن.

مرّة، أبانَ سببَ ذلك، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾:

المشارُ إليه ما تضمّنه قول الله تعالى: ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾:

أي: بسبب أنّهم كفَرُوا بالله ورسوله.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾:

أي: لو غفر الله لهم وهُمْ كافِرُونَ فاسقُونَ لكانَ ذلِكَ مُساواةً لَهُمْ بالمُؤْمِنِينَ المَهْدِيين، ولكان ذلك هدايةً من الله لهم، أي: حكْماً منه بأنّهم قَدْ سَلَكوا مسْلَكَ الهداية، على خلاف واقع حالهم، ولو كانَ ذلِكَ عن طريقِ المغفرة، والله لا يحكم للمجرم بأنّه مسلم، ولا يحكُمُ للكافِرِ الفاسق بأنّهُ ذو هداية، فهذا الحكم مناقضٌ لواقع حالهم.

الفاسق: هو الخارج عن طاعة الله خروجاً كلّيًا إيماناً وعملاً، فـ (أل) للكمال.

وهذه الجملة هي من متمّمات بيان سبب عدم مغفرة الله للمنافقين، أي: فالسبب يرجع إلى أمرين:

الأول: أنّهُمْ كافرون بالله ورسوله.

الثاني: أنّ الله لا يجعل الكافر الفاسق ذا هداية فهو لا يحكُمُ إلاّ بالحقّ.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ

مِنْهُمْ فَاسْتَئْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

* * *

القراءات

* قرأ جُمْهور القراء العشرة: [مَعِيَ أَبَداً] بِفَتْح ياءِ المتكلّم.

وقرأ شعبة عن عاصم، وحمزةُ والكسائي وخلف: [مَعِي أَبَداً] بإسكان الياء.

والقراءتان وجهان لنطق ياء المتكلم عند العرب.

* وقرأ جمهور القراء العشرة: [مَعِي عَدُوّاً] بإسْكَانِ ياء المتكلّم.

وقرأ حفصٌ فقط: [مَعِيَ عَدُوّاً] بفتح ياء المتكلّم.

اشتملت هذه الآيات على ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: تضمَّنَ بيان ثلاث ظاهرات من ظواهر المنافقين النفسية، والسلوكية مع أحداث غزوة تبوك، وهي ظاهرات لم يَسْبق الحديث عنها في السورة:

الظاهرة الأولى: أنّ الذين قَعَدُوا عن الخروج إلى غزوة تبوك، بَعْدَ أن خرج الرسول والمؤمنون معه إليها، فرحوا بقعودهم، وفرحوا بمكان قُعودهم الذي وجدوا فيه الظلّ والأنس والأمْن والعيش الذي لا مشقة فيه، وفرحوا بزمان قعودهم إذْ كان الزمان زمان حرٍّ شديد، والمريحُ فيه أن يسكن الإنسان في مكانه الظليل، لا أن يخرج مجاهداً، ويعرّض نفسه لتحمُّل المشقّات.

الظاهرة الثانية: أنهم كرهوا أن يجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.

الظاهرة الثالثة: أنهم كانوا يثبّطون من يطمعون في أن يسْتَجيبَ لهم من المسلمين أو من إخوانهم المنافقين، بقولهم لهم: لَا تَنْفِرُوا في الحرّ.

وقد جاء بيان هذه الظواهر الثلاث في الآية (٨١).

الفصل الثاني: تَضَمَّنَ إِنْذار المنافقين بعذابٍ مؤجّل إلى يوم الدين، وعذابٍ معجل، جزاء تخلّفهم عن واجب الجهاد الذي أُمِرُوا به في غزوة تبوك أَمْرَ إلزام لا أمر ندب، وجَزَاءَ تثبيطهم المسلمين عن الخروج.

فالجزاء المؤجّل جاء بيانه في الآيتين: (٨١ ـ ٨٢) والجزاء المعجّل جاء بيانه في الآية (٨٥).

الفصل الثالث: تضمَّنَ توجيهَ تعليمات من الله لرسوله حوْل ما ينبغي أن يقوله لهؤلاء المنافقين المتخلفين المثبّطين، وما ينبغي أن يعاملهم به، وما ينبغي أن تكون عليه مشاعره نحوهم.

والتعليمات الموجّهة للرّسول تعليمات موجُهةٌ لسائر المؤمنين، ولا سيما وُلاة أمورهم.

وقد جاء بيان هذه التعليمات في الآيات (٨٣ ـ ٨٤ ـ ٨٥).

* * *

التـدبُّـر

قول الله تعالى:

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾.

﴿فَرِحَ﴾:

الفرحُ السُّرُور والابتهاج، وهو حالة نفسية من مشاعر السعادة، يُحِسُّ بها الإنسان في داخله، إذا حظي بما هو محبوب لديه.

﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾:

أي: الْمُؤَخَّرُونَ في منازلهم وراء الخارجين إلى الجهاد في غزوة تَبُوك.

تقول: خلّف فُلاَنٌ خادِمَهُ في الدار وسافر، إذا أَخَّرَهُ، أو جَعَلَهُ خَلْفَهُ.

وسَمّاهُمُ اللّهُ «مُخَلَّفِين» باسم المفعول للدّلالة على أن من تخلّف عن خير عظيم

بإرادته فهو في الحقيقة الْمَتْروك لا التَّارك، والْمَهْجُورُ لا الهَاجر، وقد أدرك المتنبي هذا المعنى بابداعاته الفكريَّة الأدبية فقال لممدوحه سيف الدولة:

إذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وقَدْ قَدَرُوا   أنْ لا تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ

﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾:

الْمَقْعَدُ يَصْلُح أن يكون مصدراً ميميّاً بمعنى القعود، ويَصْلُحُ أن يكون اسم مكانِ القعود، ويصلُح أن يكون اسم زمانِ القعود.

ويمكن حملُهُ هنا على هذه المعاني الثلاثة، إذ المنافقون قد فرحوا بقعودهم وعدم خروجهم إلى الغزوة، وفرحوا بمكان قعودهم الآمِنِ الرَّخْي الظليل، وفرحوا بزمان قعودهم لأنّ الوقت قد كان شديد الحرّ، والخروج فيه للجهاد في سبيل الله عمل شاقٌّ، فتخصيص زمن الحرّ بجعله زمن قعود أمْرٌ يَفْرحُ به المنافقون.

﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾:

خِلاَف: يأتي بمعنى بَعْد، يقالُ: جاء خِلاَفَهُ، أو قَعَدَ خِلافهُ، أي: بَعْدَه. ويأتي بمعنى المخالفة أي: المضادة يقال لغة: خالَفَهُ مخالفةً وخِلافاً، إذا عمل عملاً ضدّ عَمَله أو أمره، وهذان المعنيان يصلحان هنا، فالمنافقون قَعَدُوا بعد انصراف الرسول إلى غزوة تبوك فلم يلحقوا به، وعلى هذا تكون كلمة [خِلاَفَ] مَنْصُوبَةً على الظرفية.

وهم أيضاً خالفوا الرسول في قوله وعمله، وعلى هذا تكون كلمة [خِلاَف] منصوبة على أنها حال، أي: فرح المخلّفون بمقعدهم مخالفين رسول الله ، أو صفة لمفعول مطلق محذوف، أي: فرحوا بمقعدهم قعوداً خِلاَفَ رَسُول الله، وهما على تأويل المصدر بمشتقّ، أي: على تأويله باسم الفاعل.

هذه الظاهرة الأولى من ظواهر المنافقين في بيانات هذا النصّ، وهي فرحهم بالقعود وعدم الخروج مع الرسول إلى غزوة تبوك، وفرحهم بأنهم تمكّنوا من مخالفة الرسول باصطناع المعاذير الكواذب.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

وهـذه هي الظاهـرة الثانيـة من ظواهـر المنافقين في بيـانـات هـذا النصّ، وهي كراهيتهم في نفوسهم أن يُجـاهِدُوا في سبيـل الله، سواء بـأموالهم في إمـداد من يريـد الجهـاد بنفسه، لكنّـه لا يملك ما يَحْمِلُه، أو بـأنفسهم بـالخـروج على نفقـة غيـرهم، أو بهما معاً.

كُرْهُ الشيء: حالةٌ نفسيّة من آثارها النُّفورُ منه والابتعادُ عنه.

فهؤلاء المخلَّفون المنافقون اجتمعت في نفوسهم وقلوبهم رذيلتان:

الأولى: فَـرَحُهُمْ بأن يقعـدوا في مكان طـريٍّ آمِنٍ وزمانٍ يَشُقُّ فيه السفـر، بَعْـد خروج الرسول للجهاد في سبيل الله، وفرَحُهُم بأنّهم آمِنُون من معاقبة الرسول لهم على مخالفتهم له، بتلفيق المعاذير الكواذب، وقبول الـرسول لهـا معاملةً لهم بحسب ظـاهر أحوالهم.

الثانية: كـراهيَتُهُمْ أن يجاهـدوا في سبيل الله بـأموالهم وأنفسهم معـاً، أو بواحـدٍ منهما لأنّهم لا يؤمنون بجَدْوَىٰ هذا الجهاد لكفرهم بالرسول ويوم الدين.

وهاتان الرذيلتان لا تجتمعان في قلب مؤمن صادق الإيمان.

* قول الله تعالى:

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾:

هذه مقالة نفر من المنافقين كانوا يثبطون الناس بها عن الخروج مع الـرسول ﷺ في غزوة تبوك، كما سبق لدى استعراض ملخّص الغزوة.

وقد سبق شرح النفر لدى تدبّر الآية (٤١) من هذا النص من سورة (التوبة).

وسبق لدى استعراض ملخّص غزوة تبوك أنهـا قد كـانت في وقت شديـد الحرّ، وفي ظروف عسيرة صَعْبة.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾.

يُعلّم الله بهذا البيانِ الرّسولَ وكُلَّ مؤمنٍ يَجِدُ مُناسبةً مُواتيةً لِنُصْحِ المُخَلَّفِينَ عن الرّسول تَعَلُّلاً بالحرّ، مع أن التكليف للخروج معه قد كان عزيمةً وأمراً واجباً، باستثناء أهلِ الأعذار الحقيقيّة، ولإنْذارِ المخذِّلِينَ المثبِّطين عن الخروج من المنافقين، أن يقولَ لهم مُذَكِّراً ومُخوِّفاً: نارُ جهنّم التي يَسْتَحِقُّ التعذيبَ بها عصاةُ اللّهِ ورَسُولِهِ، ويَسْتَحِقُّ الخلودَ فيها الكافرون والمنافقون أشدُّ حرّاً، من حرِّ الصّيف الذي أُمروا أن يخرجوا مجاهدين فيه، فلم يَفْعلُوا.

بعد هذا التعليم قال الله تعالى:

﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾.

«لَوْ» هنا يُمْكِنُ أن يكون لبيان أنّ ما جاء بعدها أمْرٌ محبُوبٌ لصاحب القول مرغوبٌ فيه، والمرغوبُ فيه إذا كان بعيد المنال كانت الرّغبةُ فيه تمنّياً، قال علماء العربية: تأتي «لو» للتمنّي.

وعلى هذا فالله عزّ وجلّ يبيّن أنّه يحبُّ لهم في رحلة امتحانهم أن يفقهوا حقائق ما هم فيه، حتّى يكون فِقْهُهُم دافعاً لهم لطاعة الله ورسوله، والتخلّص من الكفر والنفاق، والقيام بواجب الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، ونُصْرَة دينه ونشره وتبليغه للعالمين.

الفقه: الفَهْمُ والفِطْنة، ويُستَعمل للدلالة على العلم ببواطن الأمور وخفاياها، والبحثِ عنها للتوصّل إلى معرفتها، فهو أخصّ من مطلق العلم.

ويمكن أن تَكُون «لَوْ» هنا شرطية، وعلى هذا فجملة الشرط هي: [كَانوا يَفْقَهُون] أما جواب الشرط فمَحْذُوف يُدْرَك بأدنَى تأمُّلٍ في الكلام السابق، والتقديرُ: لَمَا كفروا ولَمَا نافقوا، ولَمَا عَصَوْا.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

اللاّم في ﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ وفي ﴿وَلْيَبْكُوا﴾ هي لامُ الأمر، ولكن لا يُرادُ من الأمْرِ التكليف هنا، فصيغة الأمر هنا مستعملة في معنىً غير طلب القيام بالضّحك والبكاء.

وبالتأمُّل نُدْرِكُ أنّ الأمْرَ في ﴿فَلْيَضْحَكُوا قليلاً﴾ للتهْدِيد بالعذاب الّذي سينزل بهم فيجعلُهُمْ يَبْكُونَ كثيراً، وفي هذه الجملة محذوف تقديره: فليضْحكُوا الْيَوْمَ ضَحِكاً قَلِيلًا اغتراراً بما هم فيه.

وندرك أيْضاً أنّ الأمْرَ في [وَلْيَبْكُوا كثيراً] هي للتَّهْديد أيضاً بالعذاب الشديد الذي سينزل بهم فيجعلُهُمْ مضطرين إلى أن يَبْكُوا كثيراً يوم الدين، وفي هذه الجملة محذوفٌ تقديرُهُ: ولْيَبْكُوا يَوْمَ الدين بكاءً كثيراً ممّا ينْزل فيهم من عذاب جزاءً بما كانوا في الحياة الدّنيا يكسبون من شرٍّ وإثمٍ وكُفْرٍ ونفاق.

ويُمْكِنُ أنْ تكُونَ هذه الجملة الثانية تَعْبيراً عمّا سَيُقال بشأنهم يوْمَ الدِّين حينما يَبْكُونَ فِعلاً، وهُمْ في جهنّم يُعذَّبُون جزاءً بما كانوا يَعْمَلُون في الحياة الدنيا، وصيغة الأمر على هذا تكون للتيئيس من الخلاص، أي: مهما تابعوا بكاءهم فلا خلاص لهم مما هو مقررٌ لهم من عذاب على نفاقهم وتثبيطهم للمؤمنين عن الجهاد في سبيل الله.

* * *

* قول الله تعالى لرسوله:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

يقال لغةً: رَجَعَ إلى بلَدِهِ أوْ قومه، إذا عَادَ، ويُقالُ: رجَعَهُ اللّهُ إلىٰ بلَدِهِ أو قوْمِه، إذا أعاده، فالفعل يُسْتعمل لازماً ومُتعَدّياً.

﴿إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾:

أي: إلى طائفةٍ من المنافقين، الطائفة: الجماعةُ والفِرْقَة، ويُطْلَقُ لفظ الطائفة على الواحد فأكثر.

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنّ بعض المنافقين المخلّفين عن غزوة تبوك سَتُدْرِكُه منيّتُه قبل أن يرجع الرسول ﷺ من غزوة تبوك إلى المدينة.

وظاهر أنّ هذه الآية نزلت على الرسول ﷺ أثناء سفره وقبل عودته من الغزوة.

في هذه الآية يُبيّن الله عزّ وجلّ لرسوله العمل الإداريّ والسياسيّ، الذي ينبغي أن يعامل به المنافقين المخلّفين بأعذار كاذبات عن الخروج معه في غزوة تبوك، إنْ أعاده الله إلى المدينة، وبقي في المدينة طائفة منهم، أي: ودعا المسلمين إلى الخروج لغزوة أخرى مجاهدين بأموالهم وأنفسهم.

ولمّا كان أَجَلُ الرّسول ﷺ قد اقترب، وقد علم الله أنّ غزوة تبوك هي آخِرُ الغزوات التي يخرج فيها الرسول قائداً لها بنفسه، جاء في الآية استعمال حرف الشرط «إنْ» الذي يدخُلُ على الأمر المستَبْعَد وقوعُهُ، أو الذي لا يُرْجَى وقوعُهُ، فجملة الشرط هي كلُّ الكلام المتضمّن رجوعه إلى طائفةٍ منهم ودعوتَه إلى خروجٍ آخَرَ يكُونُ هو قائده واستئذانَهم أن يخرُجُوا معه، وهذا لم يحدُثْ في الواقع.

أمّا التصرّف الإداري والسّياسيّ الذي أمر الله رسوله أنْ يعاملهم به، وهو في الحقيقة أمرٌ أيضاً لخلفاء الرسول وأئمة المسلمين من بعده، فيتلخّصُ بعزلهم عزلاً تامّاً عن جَيْشِ الْمُسْلمين، فلا يُدْعَوْنَ إلى الجهاد، ولاَ يُؤْذَنُ لهم بأن يخرجوا مع جيشٍ مجاهِدٍ في سبيل الله.

وهذا العزل شبيهٌ بعزل الّذين عاهدوا اللّهَ مِنْهُمْ قائلين: لَئِن آتَانَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالحين، فلمّا آتاهُمُ الله من فَضْلِهِ وَأَغْنَاهُمْ بَخِلُوا، فَلَمْ يَبْذُلُوا مَا فرضَ اللّهُ عليهم في أموالهم منْ زكاة، فعزَلَهم الرَّسُولُ عزلاً تامّاً عَنْ مُشاركة جماعة المسلمين في صندوق الصدقات العامة، كما سبق بيانه لدى تدبُّر الآيات من (٧٥ ـ ٧٨).

وكلٌّ من الْعَزْلَيْن هُوَ منْ قَبِيلِ الْعَزْلِ الجزئيّ عن جماعة المسلمين، في مجالات محدَّدة، توطئةً لطردهم طرداً تامًّا من جماعة المسلمين، إذا أضافوا إلى هذه الكبائر أموراً أخرىٰ أشباهها، لَيْسَ لها في الأحكام حدودٌ شرعيّة يُعاقبون بها.

وفي توجيه قرار عزلهم عن جيش المسلمين علّم الله رسوله أن يقول لهم أربع مقالات:

المقالة الأولى:

﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾:

أي: لَنْ تخرجوا مَعي مجاهدين مقاتلين في سبيل الله أبداً.

هذه أولى موادّ قرار العزل، وهي تدلّ على منعهم من الخروج مع جيش المسلمين للقتال على سبيل التأبيد.

المقالة الثانية:

﴿وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾:

أي: ولَنْ أَسْمَحَ لَكُمْ بَأنْ تُقَاتِلُوا معي عَدوّاً أبداً أيضاً، ولَوْ خرجتم بغير إذني، أو دَاهَمَ العدُوّ مواقِعَنا دُونَ أن نخرج إليه غُزاةً.

وهذه هي المادّة الثانية من موادّ قرار العزل، وهي تدلّ على منعهم من المشاركة في القتال، على أيّة حال، ولو دون خروجهم مع جيش الجهاد المقاتل.

المقالة الثالثة:

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾:

في هذا القول بيان السبب الداعي إلى توجيه مادّتي العزل الأولى والثانية، وجاء التعبير هنا بأنّهم رضُوا بالقعود عن الخروج للقتال مع الرسول في أوّل مرّة وجّه الرسول فيها أمراً إلزامياً بالخروج معه، بَعْدَ أن كانت الدعوات السابقات للخروج معه على سبيل النَّدْب والتحريض، لا على سبيل التكليف الإلزاميّ، وقد سبق أنْ أبان الله أنَّهُمْ فَرِحُوا بمقعدهم خِلاف رسول الله، وكَرِهُوا أنْ يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فدَلّ على أنّ المراد من رضاهم بالقعود أوّل مرّة، هو ما يشمل فرحهم بمقعدهم، وكراهيتهم أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم.

ولا شكّ أنّ هذه الحالة النفسيّة لهم تتنافى مع الإيمان، فهم بسبب ذلك

يستَحِقُّون العزل عن الجيش، والعزْلَ عن مقاتلة أعداء الإسلام والمسلمين، لأنّهم لا يَزيدون المسلمين إلاّ خَبالاً.

المقالة الرابعة:

﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾:

الخالِفُ: يُطْلَقُ على العاصي الكثير الخلاف، ويطلق على الفاسد من الناس الذي لا خير فيه.

أي: وبما أنكم رضيتم بالقعود خلاف رسول الله، عند أوّل إلزام لكم بالخروج معه مجاهدين، ففرحتم بمقعدكم، وكرهتم أن تجاهدوا بأموالكم وأنفسكم، فاقْعُدُوا مع العصاة الكثيري الخلاف، ومع الفاسدين من الناس الذين لا خير فيهم، وفي هذا إشعارٌ لهم بأنّهم قد شَفَّ سُلوكُهُمْ عَنْ كُفْرِهم، فالفاسد الذي لا خير فيه يترجّح كونه كافراً، بل هو كافر باطناً، ولو لم تصِلْ تصَرُّفاتُه إلى إدانته بالكفر ظاهراً وإقامة حدّ المرتَدّ عليه.

وهذه المقالة من قرار العزل مادّة توبيخ وتقريعٍ وتشهير بما يُشْعِرُ بعزلهم وفصْلهم عن جماعة المسلمين في مجال الجهاد، الذي هو مقدِّمة لفصلهم وعزلهم كلّيّاً عن جماعة المسلمين في كلّ المجالات.

* * *

* قول الله تعالى لرسوله:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

هذا خطابٌ للرّسُول إذْ قدْ أعلمه الله بأشخاص المنافقين يومئذٍ، ويُلْحَقُ به كلُّ من عرفَهُمْ أوعرف بعضاً منهم بإخبار الرسول، أو بدلائل الأمارات والعلامات القولية والفعليّة.

واشتمل هذا الخطاب على الإلزام بمعاملتهم بعد موتهم معاملةَ الكافرين الصُّرحاء، من قبَلِ من عَلِمَ حالهم ولو بالدلائل التي تُفيد غلَبَةَ الظَّنّ، فكيْفَ بمنْ عَلِمَ

حَالَهُمْ يقيناً عن طريق الوحي، كالرّسول ﷺ، وكحذيفة بن اليمان الذي كان صاحب سرّ رسول الله ﷺ في المنافقين.

وقد سبق لدى تدبر الآية (٨٠) بيان سبب نزول هذه الآية (٨٤).

والبيان في هذه الآية اشتمل على تكليفين وعلى بيان السّبب لما جاء فيهما:

التكليف الأول: النّهيُ عن الصلاة على أحد مات من المنافقين، نهياً أبديّاً، والصلاة تَشْمَل الصلاةَ ذاتَ التكبيرات الأربع، التي يتخلّلها الدعاء للميّت، وتشمل الدعاء له بالمغفرة والرحمة ولو في غير هذه الصلاة الخاصة، لأنّ الدعاء يدخل في عموم الصلاة لغة، فقال تعالى:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾.

التكليف الثاني: النّهيُ عن القيام على قبر أحدٍ من المنافقين، وهذا النهي يشمل الوقوف على قبره للدعاء له، والقيام بمهمّات دفنه وإصلاح قبره، وهذان هما الاحتمالان اللّذان أوردهما المفسّرون، ورجّح بعضهم الأوّل، لأنّ الرسول كان يقف على قبور المسلمين ويدعو لهم.

أقول أمّا الاحتمال الأوّل فيدخل في عموم التكليف الأول وهو النهي عن الصلاة عليه، إلّا إذا حملنا الصلاة على الصلاة ذات التكبيرات المعروفة بالصلاة على الميت. وأمّا الاحتمال الثاني فيقتضي تخصيص النّهي بالرسول ﷺ، لأنّ الميت لا بدّ من دفنه، ولو كان كافراً صريح الكفر، فمن مات بين المسلمين ممّن ظاهره الإسلام، فالمسلمون مُطَالَبُون بدفنه مهما كان شأنه، ولو كان منافقاً معلوم النفاق.

ولكن يوجد احتمال ثالث وهو القيام على قبر المنافق، بمعنى المكث عنده طويلاً، إذ المطلوبُ من المؤمن إذا مرّ على مقابر الكافرين أو زارها، أن لا يمكث عندها طويلاً، بل ينبغي أن يُسْرِعَ الخطو ويتجاوزها، لأنّها مواطن موبوءة بالنّفوس المعذّبة التي تتنزّل عليها اللّعنة من الله وملائكته، باستثناء أحوال خاصة كزيارة الرسول ﷺ لقبر أمّه.

ولذلك لمّا مرّ الرسول ﷺ بالحجر (وهي مساكن ثمود) ومعه المسلمون في غزوة

تبوك، غطّى وجْهَهُ بثوبه، واستحثّ راحلته لتُسْرِعَ، ثمّ قال: لا تدخلوا بُيُوت الّذِين ظلموا إلاّ وأنتم باكون، خَوْفاً أنْ يُصِيبكُمْ مِثْلُ مَا أصابهم.

وقد جاء في اللغة استعمال «قَامَ» بمعنىٰ وقَفَ وثَبَتَ فلم يتقدَّمْ ولم يتأخّر، وهذا المعنى هو أحد معاني هذا الفعل، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾.

قال أهل اللّغةِ والتفسير: قامُوا هُنَا بمعنىٰ وقَفُوا وثَبَتُوا في مكانِهِمْ غَيْرَ مُتَقدِّمين وَلاَ متأخرين.

وبعد بيان التكليفين أبان الله السبب لما جاء فيهما فقال تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

كلامٌ مستأنف في أسلوبه اللفظي، ولكنّ إيراده عقب التكليفين السابقين، مع ملاحظة الروابط الفكريّة، وسوابقِ المفهومات القرآنية، يجعلُهُ بقوّة الكلام المقترن بأداة من أدوات التعليل.

فالسبب في توجيه الأمر بعدم الصلاة على من مات منافقاً، وعدم القيام على قبره، كونُه كَفَر بالله ورسوله، واستمَرَّ كذَلِكَ طَوالَ حياته حتّىٰ مات وهو فاسقٌ فسقاً من دركة الكفر، وقَدْ قضىٰ الله بحكمته أن لا يَغْفِرَ لمنْ مات كافراً، ولو كان كُفْرُهُ منْ أخفّ دركات الكُفر، وهو الشرك.

الفسق: هو العصيان والخروج عن الحقّ والواجب وأوامر الله ونواهيه، وهو مصطلح إسلامي، مأخوذ من قول العرب: فَسَقت الرُّطبةُ إذا خرجت من قِشرتها، ومعلوم أنّ الرطبة متى خرجت من قشرتها تعرّضت للفساد السّريع.

وللفسق دركات، أخفُّها يكون بارتكاب المحرمات، أو ترك الواجبات مع سلامة الإيمان والإسلام، وأشدّها وأخسُّها يكون بالكُفْرِ بالله وبما جاء عن الله جحوداً وعناداً وإصراراً على الباطل واتّباع الهوى.

ويُحْمَلُ لفظ الفسق ومشتقاته في النصوص على الدُّركة الّتي تقتضيها القرائن، من سوابق الكلام ولواحقه.

فقد تقتضي القرائن أن يكون المراد من الفسق في النصّ المعاصي التي

لا تنقُض الإيمان والإسلام، فيُحْمَلُ عليها.

وقد تقتضي القرائن أن يكون المراد من الفسق في النصّ المعاصي من دركة الكفر، فيكون مساوياً للكفر عندئذٍ، وأكثر ما استعملت هذه المادة في القرآن للدّلالة على الفسق منْ دَرَكة الكفر.

* * *

* قول الله لرسوله ويُلْحَق به المؤمنون:

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

سبق شبيه هذه الآية مع اختلاف في بعض ألفاظها، وهي الآية (٥٥) من السّورة، وهي قوله تعالى فيها:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

وقد سبق أن تدبّرنا هذه الآية على قَدْرِنا، ويَحْسُنُ بنا هنا أن نبحث عن الغرض من إعادة الفكرة التي اشتملت عليها الآيتان، وأن نتدبّر دلالات الفروق اللفظيّة بينهما.

لا يَحْسُنُ أن أعيد هنا ما سبق شرحه وبيانه وتفصيلُه هُناك، بل ينبغي أن أقتصر هنا على ما يمكن إضافته إلى ما سبق.

يبدو للمتدبّر أنّ الآيات لمّا بدأت تنزل في سورة (التوبة) تباعاً بشأن المنافقين، الأمر الذي يُشْعِر بأنّ التوجُّهَ الرّبّاني قد أخَذ في سياسة كشفهم وفضْحهم، تمهيداً لعزلهم عن المجتمع الإسلامي، تحرّكت نفوس المؤمنين ناظرةً نظرات إعجاب بأموالهم وأولادهم، أي: إذا كان أمرهم كذلك، فَلِمَ يُمِدُّهُمُ اللَّهُ بالأموال والأولاد؟

فأنزل الله عزّ وجلّ عقب تحرّك النفوس بهذه المشاعر قوله خطاباً لرسوله:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾.

فجعل الخطاب مبدوءاً بحرف العطف (الفاء) الّتي تدلُّ على الترتيب مع

التعقيب، ووجّه الخطاب للرسول، وهو خطابٌ لكلّ مؤمن حصل لديه هذا الشعور، وجاء الخطاب على طريقة الخطاب الإفراديّ ليكون أوقع في نفس من تحرّك لديه هذا الشعور المصحوب بالتساؤل.

ولمّا كانت نظرات المعجبين تتّجه مرّة لأموال المنافقين، ومرّةً أخرى لأولادهم، جاء فيها إعادة حرف النفي (لا) فقال تعالى:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَادُهُمْ﴾.

وجاء في هذه الآية قوله تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ بها﴾ بإضافة اللّام الجارّة، للدلالة على أنّ مفعول [يُرِيدُ] محذوف، والحذف يقتضي إرادة أشياء كثيرة مختلفة يريدُها الله عزّ وجلّ، كمتاعب جمع الأموال، ومتاعب حمايتها وحفظها، ومتاعب الخوف عليها، وآلام تعرُّضها للمتالف والخسارات، وتَسَلُّطِ أصحاب المطامع عليها، إلى غير ذلك، وكمتاعب عقوق الأولاد، وأمراضهم، ومشاكلهم الكثيرة، وموت من يموت منهم.

وجاء في هذه الآية قولُه تعالى: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا﴾ مُصَرّحاً فيها بلفظ الحياة، للنصّ على أنّ تعذيبهم يكون وهم أحياء في هذه الدنيا قبل الرحيل عنها بالموت، والدخول في أول منازل الآخرة.

وتتابعت بعد هذه الآية الآياتُ تتنزّل بشأن المنافقين، فضيحةً وإنذاراً وتهديداً وتوبيخاً [في سورة (التوبة)] وظلّت بعض نفوس المؤمنين تتحرك ناظرةً إلى المنافقين نظرات إعجاب بأموالهم وأولادهم، فدعا هذا إلى إنزال الآية (٨٥)، وقال الله تعالى فيها:

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾.

فلم يجعلها مبدوءة بالفاء، بل بحرف العطف (الواو) لأنّ النهي هنا قد جاء تأكيداً للنهي الأول، ما دام بعض المؤمنين لم يصرفوا عن أنفسهم هذا الإعجاب، اقتناعاً بما دلّت عليه الآية السابقة.

ولم يأتِ في هذه الآية الثانية إعادة حرف العطف (لا) بجانب الأولاد، لأنّ حال المخاطبين قد وصل نظرهم إلى الإعجاب بأموال بعض المنافقين وأولادهم معاً في وقت واحد، فاستدعىٰ هذا الحال أنْ يكون الأداء البيانيُّ مطابقاً له.

ولمّا أصرَّ المعنيُّونِ من المنافقين على مواقفهم العنادية، وبقي في الظنون أنّ التعذيب بالمرادات المختلفات التي ترافق جمع الأموال وحفظها، وترافق تربية الأولاد وتنشئتهم، قد لا يَسْتَتْبِعُ التعذيبَ بأعيان الأموال وأشخاص الأولاد التي يُمِدُّ اللهُ المنافقين بها، قال الله تعالى في الآية اللاحقة:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾:

أي: يُرِيدُ تَعْذِيبَهُمْ بها، فتكامل النّصان، إذْ دلّ السابق على تعذيبهم بأشياء كثيرة مرافقة لجمع الأموال وحفظها، وتربية الأولاد وتنشئتهم، ودلّ النصّ اللاحق على تعذيبهم بأعيان الأموال وأشخاص الأولاد.

وحُذِف من النصّ اللاحق لفظ (الحياة) استغناءً بما جاء في النصّ السابق.

وهكذا تكشّفت لنا فروق الدّلالات، وظهر لنا الغرض من إعادة فكرة النصّ، مع ما اشتمل عليه النصّ اللّاحقُ من إضافات، والحمد لله على فتحه وتوفيقه.

أما تدبُّر بقيّة ما جاء في الآية اللّاحقة فهو مطابقٌ لما جاء في الآية السابقة، فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهِ.

* * *

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

* قرأ جمهور القرّاء العشرة: [الْمُعَذِّرُونَ] بفتح العين وتشديد الذّال المكسورة.

وقرأ يعقوب فقط: [الْمُعْذِرُونَ] بإسكان العين وكسر الذال من غير تشديد.

الْمُعَذِّرُون: بتشديد الذال هم الذين يعتذرون وهم كاذبون ليس لهم أعذارٌ حقيقيّة، إنّما يوهمون أنّ لهم أعذاراً، فالْمُعَذِّرُ هُوَ الذي يتكلّف إظهار العذر اعتلالاً من غير أن يكون له عذر في الواقع.

الْمُعْذِرُون: بإسكان العين وتخفيف الذال، هم الذين يَعْتَذِرون وهم صادقون، فالْمُعْذِرُ هو الذي له عذرٌ في الحقيقة وواقع الأمْر.

فبين القراءتين تكامل فكري، لأنّ الذين اعتذروا من الأعراب عن الخروج مع الرّسول ﷺ في غزوة تبوك كانوا فريقين:

الفريق الأوّل: الذين اعتذروا عن الخروج كاذبين، قيل: ومنهم نفر من بني عامر، قوم عامر بن الطُّفيل، وينطبق عليهم عنوانُ «الْمُعَذِّرين» بتشديد الذال وفتح العين.

الفريق الثاني: الذين اعتذروا عن الخروج صادقين، قيل: ومنهم نفر من بني غفار، وينطبق عليهم عنوان «الْمُعْذِرين» بتخفيف الذال وإسكان العين.

* * *

موضوع هذه الآيات

يُعلّم الله عزّ وجلّ رسوله وسائر المؤمنين في هذه الآيات مع لواحق لها في السورة طريقة الحكم على أحوال الناس المستقبليّة، بالاستناد إلى تجربتهم في الماضي، وأخْذِ ذلك بالملاحظة والاعتبار لدى إعداد خطط الأعمال الْمُزْمَعِ القيامُ بها في المستقبل.

فالمنافقون من شأنهم إذا أُنْزِلت سورةٌ تدعو إلى صدق الإيمان بالله والجهاد مع رسوله بالأموال والأنفس، استأذن القادرون على الجهاد، وقالوا للرسول أُولِي الأمر من بعده: ذَرْنَا نَكُنْ مع القاعدين، هذا في أحسن أحوالهم، أو تخلّفوا دون استئذان، أو كانوا مثبّطين داعين إلى التخلّف، كالذين سبَقَ أن قالوا: لا تنفروا في الحرّ.

وتجاربُ الماضي التي حدثت بعد الأمر بالخروج إلى غزوة تبوك تدلُّ على أنّهم سيكونون كذلك في المستقبل، فعَلَى الرسول وكذا على إمام المسلمين من بَعْده أنْ يضَعَ هذه التجربة في اعتباره لدى إعداد خطط المستقبل، فلا يُدْخِل ضِمْنَ قوّته التي يضعُها في حسابه أشخاصَ المنافقين ولا قُواهم الماليّة وغيْرَها، لأنّ المنافقين إنْ لم يكونوا قُوىً سالبةً تَعْمَلُ لحسابِ الأعداءِ فهُمْ قُوىً مُعَطَّلَةٌ سَاكنَةٌ لا تَعْمَلُ.

أمّا الرَّسُول والمؤمنون الصادقون فقد أثبتت التجربة أنّهم جاهدوا فعلاً بأموالهم وأنفسهم، ولم يتخلّف منهم إلّا ذوو الأعذار الحقيقية، كالعاجزين في أجسامهم، وكالذين لم يجدوا ما يَحْمِلُهم في رحلتهمُ الجهاديّة، ولم يوجد فيهم إلّا قلّة قليلة تخلّفوا تكاسلاً وتسويفاً، ولمّا فاتَهم شَرَفُ المشاركة كبُرَ عليهم الأمرُ وَنَدِموا، وحين سئلوا عن سبب تخلّفهم اعترفوا بذنبوهم، واستَغْفَرُوا ربَّهُم، وتَابُوا، فتَاب الله عليهم، فهؤلاء هم الذين يوضعون في الحساب، لدى إعداد الخطط المستقبلية الجهاديّة.

هذا الدرس التَّعْليمي من هذه السورة دَرْسٌ يصْعُبُ اكتشافُ موضوعه، لكن مَنْ تدبَّرَهُ منذ بدايته تَدَبُّراً دقيقاً، ولاحَظَ حَرْفَ الشرط (إذا) الذي في أوّله الموضوع لما يُسْتقبَلُ من الزمن، واكتشف المطويات خلاله، وأسْعَفَتْهُ معونة الله وتوفيقه استطاع أن يُدْرِكَ موضوعه على ما سبق بيانه.

* * *

التدبُّر

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ۝٨٦﴾:

الطَّوْلُ في اللُّغَةِ: الْغِنَىٰ والْيَسارُ والسَّعَةُ والْقُدْرَةُ والفَضْلُ والْعُلُوّ.

﴿ذَرۡنَا﴾:

أي: اتْرُكنا. مُضارِعُهُ «يَذَرُ»، أمّا ماضي هذا الفعل ومصدرُه فقد أماتهما العرب، وهما: «وَذِرَ وَذْراً» وكذلك لا يُسْتَعْمَلُ منه اسْمُ الفاعل، فلا يُقَال: «واذِر» بمعنى: تارك، واستغنوا بفعل تَرَكَ تَرْكاً فهو تارك.

﴿مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾:

أي: مع الّذِين يُؤْذَنُ لهم بأن يَقْعُدوا في بلَدِهم، أو منَازِلِهِمْ ولا يَخْرُجُوا لِقِتَالِ العدُوّ، لِعَجْزِهِمْ عن القيام بمهمّات القتال، كَذَوِي العاهَاتِ والمرضَىٰ والعَجَزة والصّغار.

والمعنى: سبَقَ أنْ عَرَضْنَا الظواهر السلوكيّة للمنافقين لدى أَمْرِكَ يا مُحَمَّدُ لهم أمْرَ إلْزَام بِالْخُروج إلَىٰ غَزْوَةِ تَبُوك، فكانَ منهم من اعتذر كاذباً، وكان منهم من تخلَّفَ دُونَ أن يَعْتَذِر، وهو في الحقيقة قادِرٌ لاَ عُذْرَ له، وكان منهم مُثَبِّطُونَ عن الخروج مَعَكَ، فَخُذْ عِبْرَةً من تَجْرِبَتِكَ لَهُمْ فيما مضىٰ، وقِسْ عليه مُسْتَنْتِجاً مَا سَيكُونُ مِنْهُمْ في المستقبل، فإذَا أُنزلَتْ سُورَةٌ من رَبِّكَ تأمُرُهُمْ أمْراً مباشراً صَرِيحاً، أنْ آمِنُوا باللّهِ، إيماناً صادقاً، وتخلّصُوا ممّا أنتم فيه مِنْ نفاق، وجاهدُوا مع رَسُول الله بأموالكم وأنْفُسِكُمْ في حُدُود ما لَدَيكُمْ من قُدْرَةٍ على الجهاد بأنفسكم، ويَسَارٍ في أموالكم، جاءك يا محمّد أهْلُ الغنىٰ منهم، وأهل القُدْرة على الجهاد، ومنهم ذَوُو المكانة العالية فيهم، فاسْتَأْذَنُوك، أي: طلبوا أن تأذن لهم في أن لا يخرجوا مع المقاتلين، مع صريح الأمر الرّبّانيّ لهم بأن يجاهدوا بمقتضى السّورة المشار إليها، فيما لو أُنزلَتْ كذلك، ولمّا كُنْتَ لا تأذَنُ لهم بمخالفة أمْرِ اللّهِ الموجّهِ للقادرين، فإنَّكَ سَتَراهُمْ يتَذَرَّعون بذرائع باطلة، ويعتذرون بأعذار كاذبة، لتأذن لَهُمْ بمقتضى هذه الأعذار، إذْ يكون حالُهُمْ بمقتضى هذه الأعذار كحالِ القاعدين أولي الضّرَر الّذين لم يكلّفهم الله أن يخرجوا مقاتلين، دلّ على هذا قوله تعالى:

﴿وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾:

أي: ائذَنْ لنا بأن لا نَخْرُجَ لعُذْرِ كذا، ولعُذْر كذا، واتْرُكْنا بسبب هذه الأعذار الباطنة التي لا تظهر للنّاس نكُنْ مع أصحاب الأعذار الظاهرة التي يراها الجميع، وهم العُمْيُ والْعُرْجُ والمرْضَىٰ والشيوخ الهرمون، ونَحْوُهُمْ، فحالُ الأعذار الباطنة كحال الأعذار الظاهرة، تَصْلُح لرَفْعِ التّكْليف، وللإذنِ بعدم الخروج.

هكذا يُصَوِّرون قضيّتَهُمْ فيما يُلَفِّقُونَ منْ أعْذار.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٨٧﴾.

الْخَوَالِفُ: جَمْعُ خالِفَة، وهي المرأة التي تَخْلُفُ الرجُلَ في القعود، في البيت، ولا تخرج للقتال.

الكلام في هذه الآية تابعٌ لما دخلت عليه «إذا» في الآية السابقة، فهو مبدوءٌ بصيغة الفعل الماضي، لكنّ «إذا» تجعل الماضي الذي تدخلُ عليه في معنى المستقبل.

أي: إنّهم يطلبون بمقتضى ما يلفّقون من أعذارٍ كاذبة أن يكونوا مع القاعدين من الرجال أهل الأعذار، لكنّهم في الحقيقة يَرْضَوْن بأن يكونوا مع النّساء الخوالِفِ للرّجال في البيوت.

وفي هذا التعبير توجيه إهانةٍ لهم بأنّهم رجالٌ في الصورة، لكنَّهُمْ في الحقيقة بحكم النساء جُبْناً، وتهرّباً من الواجبات التي يتحمّل أعباءَها الرّجال، وأنّهم يَرْضَوْنَ بأن تُلْصَقَ بهم هذه الصّفة التي تنافي كونهم ذوي رفعةٍ في قومهم، ولاَ يُعَرِّضوا أنفسهم لما يكرهون من جهادٍ بأموالهم وأنفسهم.

ومعلوم أنّ أَهْلَ الجاهلية كانوا يرون من المهانة أن يُوصَف الرُّجُل منهم بأنّه في الحرب مع الخوالف من النّساء.

ومع هذه المهانة في طبيعة نفوسهم يوجَدُ في قلوبهم داءٌ آخَرُ، دلّ عليه قولُه تَعَالَىٰ:

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

الطَبْعُ في المادّيّات الملموسة كالختم، وكان من عادة الملوك وغيرهم إذا أرسلوا رسائل، وأرادوا المحافظة على سرّيّة ما فيها أقفلوها بإحكام، ووضعوا عند مكان إقفالها طيناً خاصّاً يطبعون عليه خاتمهم الخاصّ بهم، فيجفُّ الطين ومثالُ الخاتم عليه مطبوعٌ، فلا يمكن معرفة ما في داخل الرسالة إلاّ بكسر خاتم الطين.

وعلى سبيل التوسع في التعبير بنقل ما هو للمادّيّات للمعنويات جاء في القرآن

المجيد التعبير بالطَّبْع وبالختم على القلوب، للدّلالة على أنّها مقفلة محجوبة عن إدراك أيّ شيء يتعلّق بما هي محجوبة عنه.

وطَبْعُ الله على القلوب لا يكون بصورة ابتدائية جَبْريّة، ولكن يكون نتيجة ما يكسبه العبد بإرادته من أعمال ظاهرة وباطنة يتولّد عنها بمقتضىٰ سُنَّةِ اللَّهِ في قوانين الأسباب والمسبّبات الثابتة الطَّبْعُ، وقوانين الأسباب والمسبَّباتِ إنما تتحقّق نتائجها بخلْق الله، فهي من أفعاله سبحانه.

فَمَعْنَى ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: وكانَ من نتيجة كفرهم وتولّيهم عن آيات الله البيّنات، وعن الاستجابة الصادقة لدعوة الحقّ، أن جرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ فيهم، فأُقْفِلَتْ قُلوبُهُمْ إقفالًا كاملًا، وطُبِعَ على هذه الأقفال إيذاناً بأنَّها غيْرُ مُسْتعِدّةٍ لأنْ تُفْتح.

وبما أنّ قُلوبَهُم أُقفلَتْ هذا الإقفالَ وطُبِعَ عليها:

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾:

أي: لا يفهمون فهماً دقيقاً حقائق الأمور، ويُفَسِّرون الأمور تفسيراتٍ سطحيّةً بعيدةً عن حقائقها الخفيّة عليهم، التي تقع دلائلها وأماراتها من وراء السُّطوح، والسّبب في ذلك أنّهم لم يؤمنوا بالله ورسوله وآياته إيماناً صحيحاً، فتوقفت أفهامهم عند الظواهر السببيّة، فلا يعلمون إلّا ظاهراً من الحياة الدّنيا.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

أي: لَكِنْ دلَّتْ التّجاربُ السّابقة علىٰ أنّ الرّسول والّذين آمَنُوا معه جَاهدوا فعلًا بأموالهم وأنفسهم، وهذه التّجاربُ السابقة تدلُّ علىٰ أنّهم إذا أنزلَتْ سورة من عند الله تأْمُرُ بالجهاد لم يَتَوانَوْا وَلَمْ يتَخلّفُوا، بل يُسارعون إلى مرضاة الله وطاعته بالجهاد في سبيله.

فالمعنى: لَكِنِ الرَّسُولُ والذين آمَنُوا معه إيماناً صادقاً جاهدوا فيما سبق بأموالهم وأنفسهم، وسيجاهدون فيما يأتي طاعةً لله، وأولئك لهم الخيرات، وأولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحون.

الْخَيْرَاتُ: جمع «خَيْرَة» وهي الفاضلة من كلّ شيء، ويقال لغة: امْرَأَةٌ خَيْرَةٌ، أي: جميلة حسنة، كريمة النسب، شريفة الحسب، كثيرة المال، إذا ولَدَتْ أنجبت.

الْمُفْلِحُون: أي الظافرون بما يُحِبُّون وبما يريدون وبما يشتهون.

إنّ الله عزّ وجلّ يُخْبِرُ خَبَراً عَمّا سيكون للمؤمنين الصادقين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم، من أنّ الْخَيْرَاتِ ستكونُ متحققةً لهم، وأنّهم سيكونون هم الْمَخْصُوصين بالفلاح الأكْبَر.

وهذا الخبر من الله عمّا سيكون لهم يَدُلُّ باللُّزوم العقليّ على وعد الله لهم بذلك، لأنّ أحداً غَيْرَ الله عزّ وجل لا يَمْلِكُ أن يُحقِّقَ لهم الخيرات في الدنيا والآخرة، والظَّفَر الأكْبَر بما يُحِبُّون ويريدون ويَشْتَهُون في جنّاتِ النعيم يوم الدّين.

وذكر اللَّهُ عزّ وجلّ المكان الذي يُحَقِّقُ لهم فيه الحظَّ الأكْبَر من هذا الوعد الكريم بالخيرات والفلاح الأعظم الذي يخصُّهُم به، فقال تعالى:

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

أَعَدَّ: يقال لُغَةً: أَعَدَّ الشيءَ إذا هيّأَهُ وجَهَّزَهُ.

الْفَوْزُ: الظَّفَرُ ـ النجاةُ من الشّرّ ـ الرِّبْحُ. وكُلُّ هذه المعاني صالحة هنا. وقد سبق تدبُّر مثل هذه الآية عدّة مرّات.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ
سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

سبق أنْ عرفنا أنّ الْمُعَذِّرينَ هم الذين يَخْتَلِقُون الأعذار كاذبين، وأنْ الْمُعْذِرِين هم الذين يَعْتَذِرُونَ صَادِقِين.

وقد كان في الذين قَدَّمُوا اعْتِذارَهُمْ عن الخروج مع الرسول في غزوة تبوك مُعَذِّرُون كاذبون، وكان هؤلاء من المنافقين وكان فيهم مُعْذِرُونَ صادقون في أعذارهم، وكان هؤلاء من المؤمنين الصادقين، فجاءت القراءتان للدلالة على وجود هذين الفريقين من الأعراب.

أعراب: اسم جنس جمعي، من الذي يفرق بينه وبين واحده بالياء فيقال في مفرده أعرابي، والأعراب سكان البادية.

في هذه الآية يُبَيّن الله عزّ وجل أمْثِلَةً مِنَ التجارب السابقة الّتي امْتُحِنَ بها الأعْرَابِ، حين أُمِرُوا بالخروج مع الرسول في غزوة تبوك، وهم سُكّانُ البادية، فكانوا أربعة أقسام:

القِسْمُ الأوّل: مُعَذِّرُون، أيْ: مُعْتَذِرُون كاذبون، وفق قراءة التشديد.

القِسْمُ الثاني: مُعْذِرُون، أي: مُعْتَذِرُونَ صَادِقون، وفق قراءة التخفيف.

القِسْمُ الثالث: قاعِدُونَ مُتَخَلِّفُون دُون أن يَعْتَذِروا، وهم منافقون كذّبوا الله ورسُوله، في ادّعاء أنّهُمْ مؤمنون مسلمون.

وسكت النصُّ عن قسم رابع محتمل الوجود، وهم قاعدون متخلّفون من الأعراب تهاوناً وكسلاً مع أنّهم مؤمنون صادقون غير منافقين، وأرىٰ أنّ سكوت النصّ عن هذا القسم قد كان لإمكان استخراجه بالتأمل، وبالقياس على الثلاثة الذين خُلِّفُوا من أهْلِ المدينة.

هذه التجربة السابقة للأعراب من أهل البادية يُسْتَفاد منها لدَىٰ التخطيط مستقبلاً للقيام بغزوات.

وأخبر الله عزّ وجلّ أنّ المنافقين الكافرين باطناً من الْمُعَذِّرِينَ والقاعدين سَيُصِيبُهم عذابٌ أليم، وهذا الخبر من الله يَدُلُّ بالِلّزوم العقلي على وَعِيدِ اللّهِ لهُمْ بذلك، وهذا العذاب الأليم يُعَذَّبُونَ به في دار العذاب يوم الدِّين، وربّما قَبْلَ ذلك

أيضاً، كأنواع عذابٍ في الموقف، وفي البرزخ، وفي الدنيا، فقال تعالى:

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٩٠﴾.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ
حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩١ وَلَا
عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ
تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ۝٩٢ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ
يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ۝٩٣﴾.

* * *

موضوع هذه الآيات

يُبيِّن الله عزّ وجلّ في هذه الآيات بالوصف العامّ أهل الأعذار الّذِينَ لَا حَرَج عليهم في ترك الخروج إلى القتال في سبيل الله، ويُبيِّن أيضاً الذين لا عُذْرَ لهم فهم عصاةٌ في تخلّفهم عن الخروج إذا أُمِرُوا به أمْرَ إلزام وإيجاب، لا مُجرّدَ أمْرِ ترغيبٍ وندب.

إنّ الحديث عن المنافقين الذين يعتذرون كاذبين عن الخروج إلى القتال قبل انطلاق الجيش، أو يَتخلّفون دون اعتذارٍ، ثمّ يعتذرون بعد عودة الجيش، والحديث أيضاً عن المؤمنين المجاهدين وعن المؤمنين الذين يتخلّفون بأعذار حقيقية، استَدْعَى الإتباعَ بآياتٍ يَصِفُ الله فيها أهل الأعذار الحقيقيّة، ويُشير فيها إلى صفات الذين ليس لهم أعذار حقيقيّة.

* * *

التدبُّر

* قول الله تعالى:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩١﴾.

﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾:

هم الذين لا قدرة لهم على القتال، ومعاناة الأسفار والأعمال الشاقّة، ومقاوَمَةِ الأحداث الجِسَام التي يُقَاوِمُها الرجال الأصحّاء عادةً. مثل: النساء، والولدان، والعجزة من الرجال كالْعُمْي والْعُرْجِ وأصحاب العاهات الدائمة، والأمراضِ المقعدة المزمنة.

﴿ٱلْمَرْضَىٰ﴾:

هم أصحاب الأمراض العارضة الطارئة.

﴿حَرَجٌ﴾:

الْحَرَجُ في اللّغة: الإثْمُ والضِّيقُ، وقال الزجّاج: هو أضْيَقُ الضّيق، وأصل الحرج في اللّغة الموضع الكثير الشجر الذي لا تَصِلُ إليه الراعية لضيق مداخله.

﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾:

أي: خلصَتْ قُلُوبُهُم من النِّفَاق، وعوارض أمراضِ المعصية باعتماد أعْذارٍ لا تكفي للتخلّف عن واجب الجهاد في سبيل الله، وخلصَتْ قُلوبُهُم للّهِ ورَسُولِهِ من شوائب الهوى والشكّ والارتياب.

يقال لغة: نَصَحَ الرجلُ، أو نَصَحَ قلبُه إذا خَلَصَ عمَلُهُ من الْغِشّ، ويقال: نَصَحَ فلانٌ فُلاناً، ونصَحَ له، إذا وجّهَ لَهُ مشورة أو رأياً، أو قدّمَ له شيئاً ما أو عملاً ما خالصاً من الغشّ.

فالنّصح في الإيمان خلوصُه من الشرك، والنُّصح في العمل الديني خلوصُه من

الشرك والرِّياء، والنُّصْحُ للّهِ وَرَسُولِهِ خلوصُ الإيمان والنيّة والعمل من الشوائب التي تُنافي مرضاة الله تعالى، وطَاعَةُ اللّهِ ورسوله في أوامرهما ونواهيهما، وإخلاصُ الولاء للرسول، وموالاةُ من والاه ومعاداة من عاداه، واجتنابُ كلّ أمْرٍ فيه معاونة أو مناصرة لأهل الكفر والشرك والنفاق.

فالمعنى: لا إثْمَ ولاَ تَضْييقَ على الّذِينَ يَتَخلّفُونَ عَن القتال في سبيل الله المأمورِ به أمْرَ إلزام، إذا كانوا من أهل الأعذار الحقيقيّة، وهم:

(١) الضعفاء أصحابُ الْعَجْزِ عن القتال عجزاً مستديماً، كالنساء والولدان والْعُمْي والْعُرْج وذوي العاهات والأمراض المزمنة.

(٢) أصحابُ الأعراض الطارئةِ المانعة من الخروج للقتال، كالذين يَعْرِضُ لهم مرضٌ طارىء غَيْر مزمن.

(٣) الّذين لَيْست لهم أموال يُنْفِقُونها فيما يَحْتاجُون إليه من التجهُّزِ للخروج للقتال في سبيل الله، ولا يَجِدُون من يَبْذُل لهم ذلك، من الأفراد، أو من بيت مال المسلمين.

وقد سبق في مناسبة الحديث عن المخلّفين عن الخروج مع الرسول إلى العمرة، حين صدّه المشركون، وتَمَّ بيْنَه وبينهم الصُلْحُ المعروف بصُلْحِ الحديبية أن أنزل الله قوله في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول):

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ... ﴿١٧﴾﴾.

ففي هذه الآية ضرب الله مثلاً للضعفاء بالأعْمىٰ والأعرج، وفي آية (التوبة) ذكر الله لفظ الضّعفاء العامّ لِيُبيّن لنا أنّه ذكر في آية سورة (الفتح) الأعْمَىٰ والأعرج لنقيس عليهما من كان مثلهما من أصحاب العجز المستديم، ولنفهم أسلوب القرآن في البيان الذي يعتمد على قاعدة قياس الأشباه والنظائر بَعْضِها على بعض.

ويُشْترط لرفع الحرج عن أهل الأعذار أن يَنْصَحُوا لله ورسوله في إيمانهم وإسلامهم ونيّاتهم وأعمالهم.

هذه هي حدود مرتبة التقوى، أمّا مَنْ أرادَ مِنْ هؤلاء أصحابِ الأعذار أنْ يتحمّل

المشاقّ، ويَخْرُجَ مجاهداً في سبيل الله، مع أنّ الله قد عذَرَه فَرَفع عنه الحرج، فإنَّه يكُونُ حينئذٍ من المحسنين، الذين يُريدون أن يقوموا بأعمال تُقَرِّبُهُمْ إلى اللّهِ هي من مرتبة الإحسان، أعلى مراتب المؤمنين.

لكِنَّ الله عزَّ وجلّ لا يُكَلِّفُ عباده المؤمنين العادّيين تكليفاً إلزاميّاً أن يقوموا بأعْمالٍ هي من مرتبة الإحسان، غير أنّهم إذا قاموا بها أثابهم عليها ثواب المحسنين، وإذا لم يقوموا بِهَا لم يؤاخذهم على تركها، لأنّ فِعْلَها هو من مرتبة الإحسان، والمحسنون لَيْسَ عَلَيْهِمْ سبيلٌ يقتضي مؤاخذتهم إذا تركوا العمل الذي هو من مرتبة الإحسان، وإشارةٌ إلىٰ هذه القضيّة قالَ الله تعالى:

﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾:

أيْ: لا يُوجَدُ علىٰ الّذين يمكن أنْ يَقُومُوا بأعمالٍ هي من مرتبة الإِحْسَان سبيلٌ ما يُسْلَكُ للوصول إلى مؤاخذتهم، إذا لم يقوموا بهذه الأعمال، لأنهم غير مأمورين بها أمْرَ إلْزام وإيجاب، بل قد يُدْعَوْن للقيام بها على سبيل الندب والترغيب، فإذا فعَلُوها كانوا مُحْسنين بها، لأنّها أعمال هي من مَرْتبة الإحسان.

وقد تكرَّر في القرآن مِثْلُ هذا الاستعمال وفق هذا المعنى:

(١) فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾:

أي: لا يُوجَدُ سَبِيلٌ يَسْتَعْلِي على مَنِ انْتَصَرَ لنفسه من بَعْدِ ظُلْمِهِ، وهذا السبيلُ يُوصِلُ إلى مؤاخذته، إنّما السبيل الذي يستعلي للوصول إلى المؤاخذة، إنّما يكون في هذا الموضوع على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحقّ.

(٢) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بشأن قوامة الرّجال على النساء خِطاباً للرّجال:

﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾:

أي: فلا تَطْلبُوا بعْدَ طَاعَتِهِنَّ لكم سبيلاً مستعلياً علَيْهِنَّ يكون لكم به علَيْهِنَّ تسلُّطٌ بغير حقٍّ، لأنّ هذا ظلْمٌ، واستعمالٌ لسُلْطةِ القوامة في غير ما أذن الله به، فلا يَجُوزُ هجرهنّ عندئذٍ ولا ضربُهُنّ.

(٣) وقال الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) أيضاً بشأن فريق من المنافقين، كرهوا أن يقاتلوا المؤمنين، وكرهوا أن يقاتلوا قومهم مع المؤمنين، وأرادوا اعتزال الفريقين:

﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾:

أي: فما جعل الله لكم سبيلاً مستعلياً عليهم يجوز لكم أن تسلكوه لأخذهم وقتلهم، وقد سبق تدبّر هذه الآية في النّصّ (١٦) من هذه الدراسة عن المنافقين.

استُعْمِل «السّبيل» في هذه النصوص بمعنى ما يوصل إلى المؤاخذة، أو التسلّط، أو العقوبة والانتقام، واستعمل حرف «على» للدلالة على معنى الاستعلاء الذي يتصف به عادة المؤاخِذ أو المتسلِّطُ أو المعاقب المنتقم، إذ ينفُذُ ما يقضي به وهو عالٍ على من ينفِّذه فيه.

وهذا من التوسع في استعمال لفظ «السبيل» بنقله من المادّيّات إلى المعنويات.

وبعد أن أبان الله أنه ما على المحسنين من سبيل قال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾.

في هذا إشارة إلى أنّ أصحاب الأعذار من الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما يُنْفِقون، قد لا تبلُغُ أعذارُهم في حقيقة الأمر قَدْراً يكفي لإعفائهم من التكليف ورفع الحرج عنهم، وهو أمْرٌ يَرْجِع إلى تقدير حالتهم بأنفسهم، إنّهم بحسب الظاهر لديهم أعذارٌ ترفع عنهم الحرج، لكنّهم لو تحمّلوا بعض المشقة لكانوا مثل أهل الاستطاعة، وهؤلاء يحتاجون ديانةً للاستغفار وطلب الرحمة من الله، والله غفور رحيم لهم ولغيرهم من أهل الإساءة.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

أي: وليس على هؤلاء وأمثالهم حرج إذا تخلّفوا عن الخروج، لأنّهم حريصون عليه، طالبون له، يسألون تزويدهم بما يحتاج إليه المسافر الخارج للقتال في سبيل الله.

وقد نزلت هذه الآية بمناسبة الفقراء الذين لم يجدوا ما يحتاجون إليه ليخرجوا مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك، فجاءوا إلى الرسول وعرضوا عليه حاجتهم، وطلبوا منه أن يزوّدهم بما يَحْمِلُهُم في هذه الغزوة، وكان ما عند الرسول قد تمّ توزيعُه على ذوي الحاجات الخارجين معه، فلم يجد الرسول ما يحملهم عليه، فقال لهم: لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عليه، فرجعوا وهُمْ يَبْكُونَ حَزَناً لأنّهم لم يجدوا عندهم، ولم يجدوا عند الرّسول ما يُنْفِقُونه لشراء ما يَحْمِلُهم، وعُرِف هؤلاء عند مُدَوِّني أحداث غزوة تبوك بالْبَكّائين.

وقد وردت في قصة هؤلاء عدّة روايات جاء في بعضها ذكر أسمائهم.

أخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم، أنّ رجالاً من المسلمين، أتوا رسول الله ﷺ وهم الْبَكّاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، وكانوا أهل حاجة، فاسْتَحْمَلُوا رسول الله ﷺ، فلم يجد عنده ما يحملهم عليه، فانصرفوا من عنده يبكون. وهم:

(١) سَالِمُ بْنُ عُمَير (من بني عُمر بن عوف).

(٢) جِرْميّ بن عَمْرو (من بني واقف).

(٣) أبو ليلىٰ عبد الرحمن بن كعب (من بني مازن بن النجّار).

(٤) سلمان بْنُ صخْر (من بني المعلّىٰ).

(٥) أبو عبلة عبد الرحمن بن زيد (من بني حارثة).

(٦) عَمْرو بن غنمة (من بني سَلِمة).

(٧) عبد الله بن عمرو المزني.

وأخرج ابن جرير عن محمّد بن كعب نحو ذلك.

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن الحسن قال: كان «مَعْقِل بْنُ يَسَارٍ» من البكّائين.

﴿إِذَا مَآ﴾:

حرف «ما» زائد للتأكيد.

﴿أَتَوْكَ﴾:

أي: يا مُحمَّد، ويُقَاس عليه خلفاؤه من بعده.

﴿مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾:

أي: ما تحتاجون إليه لتَخْرُجُوا مع المقاتلين، فالزاد والماء والمركب والسّلاح والمال الذي يُشترى به ذلك هي الوسائل التي تَحْمِلُ الخارج للقتال حَمْلاً ظاهراً كحَمْل الدابّة لراكبها، أو حملاً معنويّاً لأنها هي التي تنهض بجسمه، وتُمدّ قُوّته، فترفعه عن الإخلاد إلى الأرض.

﴿تَوَلَّواْ﴾:

أي: أدبروا وانْصَرفوا.

﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾:

أي: والحال أنهم باكون، يقال لغة: فاض الماء، أي: كثر في مكان وجوده حتى سال وخرج عنه إلى غيره، فالمعنى: انْصَرفوا حالة كون أعينهم قد امتلأت دمعاً فجعلت تفيض من الدمع الذي فيها، ويسيل الدَّمْعُ من أعينهم على وُجوههم.

﴿حَزَنًا﴾:

أي: لأجل الْحَزَن الذي في قُلُوبهم ونفوسهم، الْحَزَنُ والْحُزْنُ ما يُصِيبُ النَّفْسَ من مشاعِرِ الَألمِ علىٰ ما فات، وأَلَمٍ من مُصِيبةٍ نازلة.

﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾:

أي: وكَانَ حزَنُهُمْ بسبب أن لا يجدوا ما ينفقون. «أنْ» ناصبة مصدريّة،

والتقدير: بسبب أو لأجل عدم وجدانهم لما يُنفِقُون.

وقد صحّ عن النبيّ ﷺ أنّ أصحاب الأعذار الحقيقية لهم مثل أجر الخارجين.

روى أبو داود والإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه الخارجين معه:

«لقد تَركْتُمْ بَعْدَكُمْ قَوْماً ما سِرْتُمْ مِنْ مَسِيرٍ، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم وادياً إلّا وهُمْ مَعَكُمْ فيه».

قالوا: يا رسول الله: وكيف يكونون معنا وهُمْ بالمدينة؟!.

قال: «حبسهم الْعُذْرُ».

وعند البخاري ومسلم نحو هذا الحديث، وكذلك عند أحمد ومسلم من حديث جابر.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

بعد أنْ أبانَ الله عزّ وجلّ أنّه لا حرج على الضعفاء والمرضىٰ والذين لا يجدون ما يُنْفقون، وأنّه ما على المحسنين من سبيل، أبانَ بالتعبير الحاصر أنّ سبيل المؤاخذةِ الشرعيّة يَسْتَعْلِي على الّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَ وَهُمْ أغنياءُ قادِرُون على أن يخرجوا للجهاد في سبيل الله مقاتلين، حينما يُؤْمَرُونَ بالخروج أَمْرَ إلزامٍ وإيجاب.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾:

أي: ما السبيلُ الذي سبَقَ ذكره وهو سبيل المؤاخذة على المخالفة ومعصية الأمر الإلزامي، إلّا على الذين يستأذِنونَكَ يا مُحَمَّدُ وهُمْ أغنياء، غير ذوي حاجة أو ضرورة يُعذَرون بسببها عن الخروج.

ويُقاسُ على الرسُولِ خُلفَاؤُهُ مِنْ بَعْدِه.

﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾:

أي: والحال هم أصْحَابُ كفاية تكفيهم للخروج مقاتلين، بأجسادهم ونُفُوسِهِمْ وأموالهم. الْغَنِيُّ: هُو الذي يَسْتَغْنِي بما يَمْلِكُ لِقَضاءِ مَطْلُوبه أو المطلوب منه عمّا لا يَمْلِك، فيشْمَلُ الاستغناء بالقُوَى الجسديّة والنَّفْسِيَّة، والخُلوصَ من الأعْذَارِ الْمُقْعِدَة، ويشْمَلُ الاسْتغْنَاء بما لَدَيْهِ من مال، وسائرِ ما يَحْمِلُه للخروج مقاتلاً في سبيل الله.

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾:

هذه الجملة قَيْدٌ آخر للجملة الحالية: ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾:

أي: اجتمع فيهم وصفان:

الأول: الغِنَىٰ كما سبَقَ بيانه.

الثاني: رِضَاهُمْ بأنْ يكونوا مع الخوالف، أي: مع القواعد من النساء في المنازل بعد خروج الرجال للقتال.

فجُمْلَةُ: ﴿رَضُوا...﴾ على هذا خَبَرٌ بعد خبر، أو حال من الضمير في ﴿أغنياء﴾ العائد على ﴿هُمْ﴾ صَدْر الجملة الحالية الأولى.

وفائدةُ هذا القيد استثناء من كان غنيّاً لكنّه أُمِرَ بالتخلّف من قِبَلِ الرسول، أو من قِبَلِ خُلَفَائِهِ من بَعْدِه، كحال عليّ بن أبي طالب إذْ أمَرَهُ الرّسول ﷺ أن يتخلّف، وقال له: اخْلُفْنِي في أَهْلِي وأَهْلِكَ، أفلا تَرْضَى يا عَلِيُّ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ من مُوسَىٰ، إلاّ أنّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي؟!.

﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

في هذه الجملة بيان للْوَصْفِ الذي تتّصف به قُلُوبُ وعقولُ الَّذِين يسْتأذِنُون في أن لا يخرجوا إلى القتال، مع أنّهم مأمورون به أمْرَ إيجاب وإلزام، حالة كونهم أغنياء رَاضِينَ بأنْ يكُونوا مع القواعِدِ من النساءِ الخوالِفِ للرجال في المنازل.

هـذا الوصف هـو أَنَّهُمْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فهم بسبب إقفـال قُلوبِهِمْ والطَّبْعِ عليها لاَ يَعْلَمُونَ مَا هُو الخير لَهُمْ في دُنياهم وأخراهم، لأنهم لاَ يَتَفَكَّرُون في حقـائِقِ الأمُور، بَلْ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ سطوحها الظاهِرَةِ القريبـة منهم، وهي الأمور القـريبة جـدّاً من أمور الدنيا.

وقد سبق قريباً تَحْليل تعبير الطَّبْع على القلوب، لدى تَـدَبُّر الآيـة (٨٧) من هذا النصّ، وهذا الوصف ينطبق على المنافقين، ولعصـاة المؤمنين منه نصيب على مقـادير معاصيهم وإعراضهم عن تدبُّر آيات الله.

* * *

* قول الله عَزَّ وجلّ:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾.

* قرأ جمهور القرّاء العشرة: [عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ] بفتح السِّين.

وقرأ ابْنُ كثير المكي وأبو عَمْرو الْبَصْري: [عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ] بضمّ السِّين.

والقراءتان وجهان لنطق الكلمة في العربيـة، يقال لغة: ساء فُـلانٌ فُلاناً يَسُوؤُهُ سُوءاً وسَوْءاً ومَسَـاءَةً، إذا فعـل بـه مـا يَكْـرَهُ من ضُـرٍّ او اذى، أو السَّوْءُ بفتـح السِّين المصدر، وبضَمِّها اسْمٌ لما هو مكروه.

فـالمعنى: أنّ الدائـرة التي تـدور فتصيب بمـا هـو مَكْـرُوهٌ ستدور عليهم، إنّهم

يتربَّصُونَ أن تَدُورَ دوائر تقلّبات الأيام وأحداث الدهر بما يكره المؤمنون، لكنّ الله عزّ وجلّ سيَجْعَلُ دائِرَةَ ما يَكْرَهُونَ من سُوءٍ تَدُورُ عليهم هم، فتَنْزِل عليهم من فوقهم ما يَسُوؤُهم من مكروه، على خلاف الأمر الذي كانوا يتربّصونه بالمؤمنين.

* * *

موضوع هذه الآيات

يتابع الله عزّ وجلّ في هذه الآيات بيان أحوال المنافقين من الأعراب سُكّان البادية، الذين جاء في الآية (٩٠) السابقة بيان قسمين منهم:

القسم الأول: هُمُ الْمُعَذِّرون الذين جاءوا الرسول قبل الخروج لغزوة تبوك يُلفّقون أعذاراً كاذبة ليأذن لهم بعدم الخروج معه.

القسم الثاني: هُمُ الذين قَعَدوا مُتخلِّفين دون أن يعتذروا، وهم منافقون كَذَبُوا الله ورَسولَه في ادّعائهم أنهم مؤمنون مسلمون.

ولمّا كان من الأعراب مؤمنون معتذرون صادقون في أعذارهم كما جاء في قراءة: [وَجَاءَ الْمُعْذِرُونَ] بإسكان العين وتخفيف الذال أبان الله عزّ وجلّ في الآيات من (٩١ ـ ٩٣) أمثلة من الأعذار الصحيحة التي يُعْذَرُ بها المتخلّفون عن الخروج للقتال، وأنّ هؤلاء لا سبيل لمؤاخذتهم، إنّما السبيل على الذين ليس لهم عذرٌ حقيقي، ورضوا بأن يكونوا مع القواعد من النساء الخوالف للرجال في المنازل.

* وفي متابعة الحديث عن الأعراب أبانت هذه الآيات من (٩٤ ـ ٩٨) أنّ الأعراب المنافقين الذين قعدوا متخلفين دون أن يعتذروا قبل خروج الرسول في غزوة تبوك سيأتون معتذرين بأعذار كاذبات إذا رجع الرسول والمؤمنون معه إليهم، واقترن هذا البيان بتعليم الله لرسوله فكلّ مؤمن ما يقوله لهم تعقيباً على اعتذارهم، ويتضمّن هذا التعليم رفض قبول اعتذارهم، لأنّ الله أنبأهم بحقيقة أمرهم فيما أنزل على رسوله، ويتضمّن أيضاً توجيه النُّصح لهم بإصلاح حالهم مستقبلاً، وموعظتهم بأنّ الله سيَرَىٰ ما يكون منهم، وسيحاسبهم يوم الدين على أعمالهم.

* وأبانت أيضاً للمؤمنين أنّهم سيحلفون بالله لهم إذا انقلبُوا راجعين من الغزوة

إليهم، ليُصدِّقوهم فيما يُقدِّمونه من أعذار كاذبات، فَيُعْرضوا عن مؤاخذتهم وتلويمهم وتعنيفهم على تخلّفهم، واقترن هذا البيان بتعليم الرسول والمؤمنين أمرين:

الأمر الأول: أن يُعْرِضوا عنهم إعراض الساخطين عليهم، لا إعراض الراضين عنهم، لأنهم بسبب كفرهم ونفاقهم رجسٌ، ولأنّ مأواهم إذا ماتوا على مَا هم عليه جهنم جزاءً بسبب ما كانوا يكسبون.

الأمر الثاني: أنْ لا يرضَوْا بقلوبهم عنهم، لأنّ الله غير راضٍ عنهم، إذْ هم فاسقون من مستوى فسق الكفر، والله لا يرضى عن القوم الفاسقين.

* وأبانت أيضاً أن الأعراب المنافقين أشدّ كُفْراً ونفاقاً من منافقي أهل الحضر، بسبب ظروف عيشهم في البادية، وبُعْدِهم عن أماكن بَث العِلْم الدّينيّ، والتعريفِ بحُدُودِ ما أنزل الله على رسوله من آيات وبيانات وأحكام.

وفي هذا توجيهٌ ضِمْنيٌ لتحضير أهل البادية، لينالوا من العلْم الذي يُبثُّ عادةً في مساجد المدُنِ والْقُرَىٰ، وليكتسبوا الفضائل الحضارية التي تُكْتَسبُ عن طريق شبكة العلاقات الاجتماعية، التي تُراعىٰ فيها الحقوق والواجبات، وتنمو فيها بالتوجيه الديني فضائلُ الآداب والأخلاق الاجتماعية الراقية، وتُخْضَدُ فيها أشواكٌ من الأنانيّات الفردية، وتُقلَّمُ فيها أظافر الوحشة والجفاء، والحذَرِ من كلّ وافدٍ وطارىء.

* وأبانت أيضاً صفات أُخرى لهؤلاء الأعراب المنافقين، غير تخلّفهم عن مشاركة المؤمنين في الغزوات، وغير تعلّلهم بالأعذار الكاذبة، وحلف الأيمان الكاذبة:

(١) فمنهم من يرى أنّ ما يُكلَّفُ دَفْعَهُ زكاةَ مالِهِ، أو غير ذلك من الواجبات المالية، هو مَغْرَمٌ يَغْرَمُه بغير حقٍّ، فلو كانت له قوّةٌ تحميه لامتنع عن بذلِ ما يُضطر لبذله، وهذا من أثر كفره باطناً، وعدم إيمانه بهذا الدّين الذي أعلن انتماءه إليه نفاقاً، مع شعور الأعرابي باستقلاله في باديته، وعدم إدراكه لمفهوم الواجبات الاجتماعية التي يدركها أهل الحضر، ولو لم يكونوا يشعرون بواجبات دينية.

(٢) ومنهم من يتربّصُ بالرّسُول والمؤمنين أن تدور عليهم دوائر الدهر، فَتَنْزِل بهم ما يكرهون من موتٍ أو هزيمة أو غير ذلك من مصائب، فينقلبوا عليهم، ويتخلّصوا ممّا هم فيه من وِفاقٍ ألجأهم إليه النفاق.

واقترن هذا البيان ببيان ما دبّر الله لهم بقضائه وقدره، فقد قضى أن تدور عليهم دائرةُ السَّوْء، فما يتربّصونه بالرَّسُول والمؤمنين سيَنْزِلُ بهم، والله غالبٌ على أمره، وهو سميع لما يقولون في خلواتهم، عليمٌ بما يضمرونه في قلوبهم.

* * *

التدبُّر

* قول الله تعالى:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

الكلام في هذه الآية يتعلّق بقِسْمِ الأعراب الذين قَعَدُوا مُتخلِّفين دُون أن يَعْتَذِرُوا، وهم مُنَافِقُونَ كَذَبوا اللَّهَ ورسُوله.

فالضَّميرُ في ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾ يَعُودُ على الفاعل في ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الآية (٩٠) أمّا الآيات من (٩١ ـ ٩٣) فاستطرادٌ لبيان من يُعْذَرُ ومَنْ لا يُعْذَرُ، وحسَّنه غرض تتميم الفائدة، وهو يشبه الاعتراض.

أي: إنّ الذين قَعَدُوا متخلِّفين عن غزوة تبوك دون أن يَعْتَذِرُوا قَبْلَهَا وهُمْ لا عُذْرَ لهم سيأتون متتابعين ويَعْتَذِرون إليكم، إذَا رَجَعْتُمْ إليهم من الغزوة.

الخطاب للرسول وللمؤمنين الذين خرجوا معه في هذه الغزوة، ودلّت كلمةُ ﴿إِذَا﴾ التي هي ظرف لما يستقبل من الزمن، على أنّ هذه الآية قد نزلت قبل الرّجوع من الغزوة، ويظهر أنها نزلت على الرسول وهو قافلٌ بالمؤمنين منها.

وأمر الله الرّسول وكلّ مؤمن يستقبل منهم اعتذارهم أمراً إفرادِيّاً بلفظ ﴿قُل:﴾ وجاء في التعليم بعده خمْسُ مقولات:

المقولة الأولى:

﴿لَّا تَعْتَذِرُوا﴾.

والغرض من النَّهي عن الاعْتِذار إسكاتُهُمْ منذ بَدْءِ محاولة المعتذر منهم تَلْفيقَ الأعذار الكاذبة، وعَدَمُ تمكينهم من تزوير الكلام وتزويقه وزخرفته، لئلاّ تُؤثِّر أقوالُهُمْ على بعض المؤمنين إذا أصْغَوْا إليهم، واستمعوا لهم حتى آخر كلامهم، فمن أهل النفاق من يُعْجِب قولُه في الحياة الدُّنْيا، ويُشْهِدُ اللَّهَ على ما يزعُمُ أنّه يضمرُهُ في قلبه، وهو أَلَدُّ الْخِصَامِ.

المقولة الثانية:

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾:

أي: لَنْ نُصَدِّق أقوالكم في تقديم أعذاركم، ولنْ نطمَئِنَّ لكم، ولنْ يحصُلَ لدينا أَمْنٌ نأمَنُ به كَذِبكم.

يقال لغة: آمَنَ بالشَّيْءِ، إذا صدّقه واطمأنّ قلبه له، ويقال: آمَنَ لَهُ، إذا صدّق قوله، واطمأَنَّ له واستَسْلَمَ لَهُ، آمِناً كذِبَهُ وغَدْرَهُ وخيانته.

واستعمال حرف النفي ﴿لَنْ﴾ يدُلّ على تأكيد عدم تصديقهم وعدم الاطمئنانِ لهم، فحرف «لن» في النفي آكد من «ما» و«لا».

المقولة الثالثة:

﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾.

الإنباء: الإخبار والإعلام، يُقال: نَبَأَهُ الخبَرَ ونَبَّأَهُ بالخبر وكذلك أنبأَهُ، أي: أعلمه به. ويستعمَلُ النبأ كثيراً في الخبر ذي الأهمّيّة، لأنّ أصل مادّة الكلمة تدور حول الارتفاع والظهور.

والمعنى: قد أعلمنا الله من أخبارِكم أنّكم كاذبون لا عُذْر لكم، كذبتم اللَّهَ ورسولَه، فكيف نصدِّقكم بعد أن أنزل الله بشأنكم ما أنزل؟! وكيف نطمئِنُّ لكم بعد أن أعلمنا الله من أخباركم أنكم كاذبون لا عذر لكم في التخلّف عن الخروج مع رسول الله في غزوة تبوك، وكاذبون في أصل ادّعائكم أنّكم مسلمون مؤمنون حقّاً.

المقولة الرابعة:

﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾:

أي: وأمامكم فرصةٌ للتوبة في المستقبل، وللاستقامة والعمل الصالح، وصِدْقِ الإيمان والإسلام، وسيرى الله عَمَلَكُمْ ما ظَهَرَ مِنْهُ وَمَا بَطَنَ، وسَيَرَى رَسُولُهُ في تجارب المستقبل عَمَلَكُمْ إنْ أطَعْتُمْ وإنْ عصيتم، فإن تُبْتُم واستقَمْتم قَبِلَ اللّهُ توبتكم، وصفَحَ رسُولُه عنكم، وإنْ أصْرَرْتُمْ عَلَى ما أنتم عليه عَرَضْتُمْ أنفُسَكُمْ للمُؤاخذةِ والعقاب.

هـذه المعاني تُفْهَمُ بدلالة اللّوازم الذهنية من عبارة: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ لأنّها تتحدّث عن عملهم في المستقبل، وما دامَ المستقبل داخلاً ضمن مرحلة ابتلائهم فباستطاعتهم تداركُ أمرهم بالاستغفار والتوبة وإصلاح العمل، ومعلومٌ من قواعد الإسلام الكبرى أنّ الله يقبل توبة التائبين ما داموا ضمن مُدَّةِ ابتلائهم في الحياة الدّنيا، فكانت هذه العبارة مشيرةً باللّوازم الذهنية إلى هذه المفهومات.

المقولة الخامسة:

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾:

أي: بعد الموت، ومدّةِ البرزخ، والبعثِ إلى الحياة الأخرى.

﴿تُرَدُّونَ﴾:

أي: تُرْجَعُونَ، الرَّدُّ الإرْجاع. ولمّا كان البعثُ إلى الحياة بعد الموت إعادةً إلى الحياة بعد سَلْبِها بالموت، جاء التعبير عنه في القرآن بالرّدّ وبالإرجاع وبالإعادة، ولمّا كان هذا الإرْجاع هو لملاقاة اللّهِ في موقف الحساب وفَصْلِ القضاء، ولإنفاذِ ما يقضي به الله من جزاء، دون أن يكون لأحد غير الله يومئذٍ تصرُّفٌ بغيرِ أَمْرِ اللّهِ أو إذْنِه، كان من الدّقة في الأداءِ في التعبير أن يقال: ﴿ثُمّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ - ثُمَّ إلَيْهِ تُرْجَعُونَ - ثُمَّ إلينا تُرْجَعُونَ - ثُمَّ تُرَدُّونَ إلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ والشَّهَادَةِ﴾ ونحو هذه العبارات.

﴿إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾:

أي: إلى الله الذي هو عالم الغيب والشهادة.

الغيب: ما غاب عن إدراك ذي إدراك مَا، فهو بالنسبة إليه غيبٌ، وقد يكون بالنسبة إلى غيره أمراً مشهوداً.

الشهادة: يُطلَقُ هذا اللفظ على ما يُدْرَكُ بالحسّ.

فعالَمُ الشهادة هو عالم الأكوان الظاهرة التي تُدركُ بالحواس، ويقابله عالَمُ الغيب، وهو ما لا يُدْرَكُ بالحواسّ.

وكلُّ شيءٍ بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ شيءٌ مشهود، لقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ـ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ـ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

فليس شيءٌ بالنسبة إلى الله هو من الغيب، والتعبير بأنه تبارك عالم الغيب والشهادة، هو على معنىً: عَالِمُ كلّ ما هو غيبٌ عن ذوي الإدراك من خلقه، لا ما هو غيب بالنسبة إليه، إذْ لا شيْءَ هو غيب بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

أي: فيُخْبِرُكم في موقف الحساب وفَصْلِ القضاء بكلّ ما كنْتُمْ تعْمَلُونَ مِنْ أعمال ظاهرة وأعمال باطِنَة، ليحاسبكم عليها، وليَقْضِيَ بينكم في محكمة العدل عنده، وليجازيكم بما تستحقّون من جزاء.

وفي إعلان هذه المقولة ترهيب وترغيب، لأنّ الجزاء إمّا أن يكون بالفضل في جنات النعيم، وإمّا أن يكون بالعدل في دركات الجحيم.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

ما زال الكلام متعلقاً بشأن المنافقين من الأعراب الّذين تحدّثت الآية السابقة (٩٤) عنهم.

والخطاب مُوَجَّه للرسول وللمؤمنين، وفي هاتين الآيتين إخبارٌ عمّا سيكون من

هؤلاء المنافقين إذا انقلَبَ المسلمون الغزاة من غزوة تبوك راجعين إلى مواطنهم، حيث يجدون فيها المنافقين المتخلفين بغير استئذان سابق.

﴿إِذَا انقَلَبْتُمْ﴾:

أي: إذا رجعتم، وعُدِل عن ﴿إذا رجعتم﴾ إلى ﴿إذا انقلبتم﴾ لئلا يتكرر التعبير نفسه في الآيتين.

إنهم يحاولون تلفيق الأعذار أولاً، فإذا قُوبِلُوا برفض أعذارهم الكاذبة التي تعلَّلُوا بها، فإنّهم يلجَؤون إلي توثيق ما يقولون بأن يحلفوا بالله أيماناً كاذبة، لِيَدْرَؤوا بها عن أنفسهم المؤاخذة التي يستحقّونَها، اعتقاداً منهم بأنّ هذه الأيمان ستجعل الرسول والمؤمنين يُعرِضون عن متابعة محاسبتهم ومقاضاتهم على معْصِيَتِهم.

وفي بيان هذا الأمر الذي سَيَحْدُثُ مِنْهُمْ مستقبلاً قال الله تعالى خطاباً للرسول والمؤمنين معه:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾.

وأتبع الله هذا البيان بتعليم الرسول والمؤمنين ما يَنْبغي أنْ يقابلوهم به، فقال تعالى:

﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾:

الإعراضُ: هو إعطاء عارض الوجه، وهو وسطٌ بين الإقبال والإدبار.

أي: فأعرضوا عن مؤاخذتهم ومعاقبتهم عقاباً مادّيّاً، ولكن لِيَكُنْ إعراضُكُمْ عَنْهُمْ إعراضَ ساخطٍ عليهم، قالٍ ومجافٍ لهم، كارهٍ لأكاذيبهم وألاعيبهم.

بدليل قول الله تعالى بعد ذلك:

﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾:

أي: إنهم ذوو رِجْسٍ بسبب كفرهم ونفاقهم، ولمّا كان رِجْسُ الكفرِ والنفاق مالِىءَ قلوبهم ونفوسهم وكثيرٍ من ظواهر سلوكهم، كانوا جديرين بأن يُطْلَقَ عليهم أنّهم رِجْسٌ، وأصل الرّجس في اللّغة القَذَرُ والنَّجَسُ، ثمّ حصل توسُّعٌ في إطلاق اللفظ،

فصَارَ يُطْلَق على الرذائل والقبائح المعنوية من الأفكار والعقائد والنيّاتِ والأعمال.

فالكفر رجس، والنفاق رجسٌ، والميسر رجسٌ، وكذلك الأنصاب والأزلام والخمر، وكلُّ خلُقٍ وسلُوك قبيح ذميم، وكلّ فكرةٍ ضارَّة، وكلّ مادّة وأداة مخصّصة للاستعمال في الشرّ.

فبسبب أنّهم رجسٌ يستحقّون أن تعرضوا عنهم إعراض الساخط القالي المجافي الكاره.

ولمّا وصلت ذواتُهم إلى حالةٍ من الخسّة يستحقون عليها أنْ يُخْبَرَ عنهم بأنَّهُمْ رِجسٌ، فمن العدل ضمن قواعد ابتلاء الله للناس في هذه الحياة الدّنيا، أن يكون مأواهم في الآخرة، بعد الحساب وفصل القضاء جهنّم دار عذاب الكافرين.

المأوىٰ: المكان والمنزل الذي يُنْزَلُ فيه.

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾:

أي: يصيرون إلى جهنّم التي تكون في الآخرة مأواهُمْ بعد الحساب وفصل القضاء، حالة كون ذٰلِكَ جزاءً لهم بسبب ما كانوا يكسبون من عمل في الحياة الدنيا، وهو الكفر النفاق والإثم والفسوق والعصيان.

وبدليل قوله تعالى:

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾:

أي: إنّهم سيحلفون بالله لكُم لِتُعْرِضوا عن مؤاخذتهم، ولترْضَوْا عَنْهم، وأُعِيدَ في هذه الآية فعل ﴿يَحْلِفُونَ لَكُم﴾ لبُعْدِ الفاصل بين ﴿لِتُعْرِضُوا عنهم﴾ وبين ﴿لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ فَحَلِفُهم باللّهِ لهُ غايتان.

الأولى: الإعراضُ عن مؤاخذتهم وعن البحث عن صدقهم أوكذبهم في تعلّلهم بأعذارهم.

الثانية: الرضا عنهم باعتقاد أنهم صادقون فيما ذكروه من أعذار في تخلّفهم عن غزوة تبوك.

وجاء التوجيه الرّباني للمؤمنين حول هذه الغاية الثانية للمنافقين متضمّناً أنْ لا يَرْضَوْا عنهم، لأنَّهُمْ فاسقون فِسْق كفر ونفاق.

وقد دلّ على هذا التوجيه الضمنيّ عبارة:

﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

إنّ استعمال حرف الشّرط ﴿إِنْ﴾ يَدُلُّ على استبعاد أن يرضى المؤمنون عنهم، لأنّهم لا يفْعَلُونَ شيئاً على خلاف ما يُرضي الله، وعلى أنّه يَنْدُرُ في المؤمنين من يرضى عنهم، فهذا الحرف يستعمل غالباً في الأمر المستبعد حصوله، أو يندر حصوله.

وعبارةُ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ تدل على أنّهُ لا يرضى عنهم لأنّهُمْ فاسقون، فأغْنَىٰ بيانُ القضيَّة الكليّة الشاملة لقضيتهم ولأشباهها عن ذكر قضيتهم الخاصّة، وهذا من الإبداع في الإيجاز.

وبيان أنّ الله لا يرضى عنهم فيه إلماح للمؤمنين بأن لا يرضوا عن قوم لا يرضىٰ الله عنهم.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾.

بعد الحديث عن المنافقين من الأعراب الذين تخلّفوا عن الخروج مع الرسول والمسلمين في غزوة تبوك في الآيات (٩٠ ـ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦) جاءت هذه الآية لتكشف طبيعة صنف الأعراب وتأثير بيئة البادية عليهم، بالنسبة إلى طبيعة صنف أهل الحضر، وتأثير بيئة القرى والمدن عليهم.

وقد أبانت هذه الآية أنّ صنف الأعراب إذا كان أحدهم كافراً أو منافقاً كان أشدّ كُفْراً ونفاقاً من كافرٍ أو منافقٍ من أهل الحضر.

ونفهم من الملاحظة ومن التجربة أنّ سبب ذلك هو العيشُ المستمرّ في البادية

مع الأنعام، وطبيعةُ الترحّل والتنقل وعدم الاستقرار، ومؤثّراتُ الإقامة في الأرض الخلاء، التي ينعدم فيها الأمن النفسي الذي تُحدِثُه البيوت المحميّة في المُدُنِ والقرى.

فالأعرابُ إذا كَفَرُوا كانُوا أشدَّ في الكفر من غيرهم، لما في طبائعهم المكتسبة من البيئة من نفورٍ، وعدم استسلامٍ، واعتيادٍ على عدم الطاعة والانقياد والانصياع للنظام.

وهم إذا نافقوا كانوا أشدّ في النفاق من غيرهم، لما في طبائعهم المكتسبة من البيئة، ولما في أخلاقهم وعاداتهم من دُربة على المصانعة والمداهنة والمخادعة، التي ولّدها فيهم الحذر الدائم من كلّ ما حولهم، ولا سيما الذين يخشون غزوهم لهم، فاعتادوا بذلك الكذب والتظاهر بخلاف ما يبطنون، فهم إذا نافقوا في الدين كانوا أشدّ نفاقاً من أهل الحضر.

فـ «ال» في ﴿الأعراب﴾ هي «ال» الجنسيّة كما يقول النحاة، وهي تدلّ على جنس ما دخلت عليه، ولا تدل على استغراق الأفراد، والحكم على الجنس لا يفيد الحكم على كلّ فرد من أفراد الجنس، وعلامة «أل» الجنسية أنّ كلمة «كلّ» لا يصحّ أن تكون بدلاً عنها.

وقد دلّنا على أن «ال» هنا جنسيّة أنّ من هؤلاء الأعراب المتحدَّث عنهم منْ يؤمن بالله واليوم الآخر، وهؤلاء ليسوا كافرين ولا منافقين أصلاً كما جاء في قراءة ﴿الْمُعْذِرِينَ﴾ وكما جاء في الآية (٩٩) الآتية.

فالمعنى فيما يظهر أنّ البداوة تجعل كفّار البادية أشدّ كفراً، ومنافقي البادية أشدّ نفاقاً، بسبب مؤثرات البيئة التي يعيشون فيها، وينتج عن هذا أن يكون كفّار الأعراب أشدّ كُفْراً من غيرهم، وأن يكون منافقو الأعراب أشدّ نفاقاً من غيرهم.

ولمّا كان أهل الحواضر والمدن هم القسم المقابل للأعراب أهل البادية حَسُنَ الاستغناء في النص عن ذكرهم في اللّفظ، فلم يأتِ فيه: الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً من أهل المدن والقرى، وهذا من الإيجاز البديع.

ونلمح من هذا البيان القرآني الحثُّ الضمنيّ على جعل الأعرابِ أهل مدنٍ وقرىً وحواضر، في مشاريع دولة المسلمين للمستقبل، لتخليص الأعراب من بيئة البادية الجافية، التي تُكسبهم الطبائع والأخلاقَ والعادات غيرَ المستَحبَّات التي سبق ذكر شيء منها.

قولُـهُ تَعالَـىٰ:

﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾:

أي: وأكْثَرُ قابليَّةً للْجَهْلِ بأمور الدين، لبُعْدِهم عن مراكز التوجيه والتعليم، ومواطنِ بثِّ أنوار المعرفة الربّانية، فطبيعةُ ترحّلهم وتَنَقُّلِهم تتبُّعاً لمواطن الماء والكلأ، تجعلُهم بعيدين عن مجامع العلم والعلماء، وعن مساجد المُدنِ والقرىٰ التي يتخذها العلماء والفقهاء والوعّاظ والدّعاة مراكز للتعليم والتوجيه وبيان حدود الله للناس.

ويَجِدُ الأعرابُ لأنفسهم العذرَ في عدم ارتيادها لأنّ طبيعة حياتهم في البادية، لا تُساعدهم على ذلك إلّا قليلاً.

والجهل بحدود الله في شرائعه وأحكامه بيئةٌ تَنْبُتُ فيها وتَتَرعْرَعُ الانحرافاتُ والضلالاتُ والخرافاتُ، والطباع السّيئة، والأخلاق الأنانيّة الْمَرْذُولَة، وأنواعُ السلوك الفاسد الضارّ.

فلو أنّ بيئتهم مؤهَّلَةٌ لمتابعتهم بالتعليم والتوجيه والنُّصح والإرشاد والتعريف بحدود الله، لاختلف حالُهم، ولَصَاروا قابلين للتهذيب والتشذيب والتثقيف الديني.

إنّ هذا البيان عن صفات الأعراب ليس ذمّاً لذواتهم في أشخاصهم باعتبارهم صنفاً من بني آدم، إنّما هو ذمٌّ للبيئة التي تؤثر في الناشئين بها هذه الآثارَ الضارّة، وتوجيهٌ إسلاميٌّ لاستبدال بيئةٍ خير منها بها، للمساعدة على إنشاء أجيالٍ منهم تتهيّأ لهم بيئات أفضل تساعدهم على اكتساب العلم النافع، وفضائل الطباع والأخلاق والعادات، وأنواعِ السلوك الحضاريّ الراقي.

ألا يدُلُّ هذا علىٰ أن الإسلام دينٌ حضاريٌّ مدنيٌّ راقٍ؟!.

وجاء قول الله عزّ وجلّ في آخر الآية:

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

بإثبات صفتي العلم والحكمة لله عزّ وجلّ بمثابة الدليل على الفهم الذي فتح الله به. فعلْمُ الله بتأثير البيئة البدوية على الأعراب، وحكْمَتُهُ في اختيار الأفضل لعباده، يقتضيان توجيه المسلمين والدولةِ الإسلامية إلى جعل الأعراب أهل مُدُنٍ وقُرىً مؤسسة تأسيساً إسلامياً، بمساجدها، ومدارسها ومنشآتها الحضارية المختلفة النظيفة من الفسق والفجور والعصيان.

ولذلك نجد في توجيهات الرسول الترغيب بعدم سكنى البادية، أخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال:

«مَنْ سَكَنَ البادية جفا، وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غفَلَ، ومَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتُتِنَ».

* * *

* قول الله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾.

أي: ومن ظواهر نفاق الأعراب المنافقين ظاهرتان ناتجتان عن كفرهم بالله واليوم الآخر باطناً.

الظاهرة الأولى: اعتبارهم الذي هو نتيجة كفرهم أنّ ما ينفقونه من نفقات واجبة يكلّفون ـ بمقتضى أحكام الإسلام ـ إنفاقها كالزكاة، مَغْرَمٌ يَغْرَمُونَهُ دون وجه حقٍّ، وأنّه يُؤخَذُ منهم إكراهاً بقوّة السلطة، فلو كانت لهم خِيَرَةٌ من أمرهم لما أنفقوا هذه النفقات، إذ هم لا يرجون ببذلها ثواباً عند الله ولا جزاءً حسناً، بل يدفعونها كرهاً.

المَغْرَم: هو ما يُدْفَعُ مِن المالِ قَهْراً وظُلْماً، كالإتاوة والجزية وكلّ ما يُدْفع تقيّةً وخوفاً من ذي قَهْرٍ بقوّته.

الظاهرة الثانية: تَرَبُّصُهُمْ بالرَّسولِ وبالمؤمنين الدوائر، للتخلّص منهم، والتحرُّر

ممّا يُضطرون أن يصانعوا المؤمنين ويُداهنُوهم به، تقيّةً ونفاقاً، ممّا يُكلّفُهم بذلاً يكرهونه، أو أعمالاً لا يُحبُّون أن يعملُوها.

التَّرَبُّصُ: الانتظار، يقال لغة: تربَّص فُلانٌ بفلانٍ خيراً أو شرّاً يَحِلُّ به، أي: انتظر أن ينزل به أو يَحُلّ به ذلك.

الدوائر: الدواهي والمصائب، جمع «دائرة» وهي في الأصل ما أحاط بالشيء مستديراً حوله، واستعمل العرب الدائرة بمعنىٰ الداهية التي تأتي بالشّرّ والسوء، لأنّها تحيط بمن نزلت به، ويقولون: دارت على القوم الدوائر، أي: نزلت بهم الدواهي والمصائب والنكبات.

وتعقيباً على تَربُّصهم بالمؤمنين دَوَائرَ السُّوءِ أعلن الله قضاءه الذي سيكون نافذاً لا محالة، وقد كان بعد ذلك، فقال تعالى:

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾.

أي: كائنةٌ عليهم وحدهم دائرةُ السُّوْء، في مقادير المستقبل، التي هي حاصلة لا محالة.

اسْتُفيد التخصيص من تقديم الخبر وهو ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المبتدأ وهو ﴿دَائِرَةُ السُّوْءِ﴾.

ولمّا كانت دوائر أحداث القضاء والقدر تدور بما يسوء وبما يسُرّ، على خلاف مفهوم العرب لدوائر الدهر، إذ يخصّصونها بالدواهي والمصائب، خصّص الله لفظ الدائرة التي تدور عليهم بإضافتها إلى السّوء.

وفي هذا إشارة إلى أنّه ينبغي تصحيح مفهوم العرب لدوائر الدهر، وأنّها ليست كلّها مصائب ودواهي، فهي أوّلاً دوائر قضاء الله وقدره، وهي ثانياً تدور أحياناً بما يسُرُّ، وتدور أحياناً بما يَسُوءُ، ضمن حكمة الله في امتحان عباده وتربيتهم ومُجَازاتهم.

وإذْ خصّص الله المنافقين بأنّهم هم الذين تنزل بهم دائرة السوء، فقد قضىٰ بأن تكون دوائر الخير السّارة ستدور لصالح المؤمنين، أخذاً من مفهوم التخصيص.

وختم الله عزّ وجل الآية بقوله:

﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾:

أي: والله سميع لأقوال المؤمنين والمنافقين، عليمٌ بأعمالهم وأوصافهم ونيّاتهم، وأحوال قلوبهم ونفوسهم، فهو يعامل كلّ فريق منهم بعدله أو بفضله على وفق حكمته.



الْعِقْدُ الثَّاني

بيان أقسام مجتمع المسلمين
إبّان أحداث غزوة تبوك وتجربتها
مع التعقيبات والتوجيهات الرّبّانيّة

مقدمة:

من الملاحظ في الأسلوب القرآني أنّه كلّما طال الحديث في هذه السورة عن المنافقين كان من الحكمة الرّبّانيّة إعطاءُ المؤمنين حظًّا من البيان يتّصل بهم.

وفي هذا الأسلوب شدٌّ لانتباه المتلقين، بعرض المتقابلات (المتناقضات والمتضادّات والمتخالفات) وذلك لأن سَرْدَ الكلام حول نموذجٍ واحدٍ يُمِلُّ، ويورث الغفلة أو الفتور.

ومعلومٌ أنّ من عناصر الجمال المراوحةَ بين النقائض والأضداد والمتخالفات، مع ما في هذا الأسلوب من شحذٍ لهِمَمِ المؤمنين، ليزْدادوا إيماناً وعملاً صالحاً، واستثارَةٍ لدوافع الغيرة لدى الكافرين والمنافقين، عسَى أن يَصْحُو منهم من في قلوبهم بزور خير، أوجذور فضيلة.

وإذْ جاء فيما سبق بيان عقاب المنافقين بأنّ مأواهم جهنّم جزاءً بما كانوا يكسبون (الآية ٩٥) فلا بدّ أن يتساءل بعض المتلقّين للنصّ في نفسه عن أحوال المؤمنين، فجاء عِقْدٌ من الآيات ليجيب على هذا التساؤل، واقتضت فنيَّةُ المتابعةِ في الآيات عطف هذا الْعِقْد من الآيات على ما جاء قبله في السورة.

ونلاحظ في هذا العِقْد أنّ الله عزّ وجل قسّم المؤمنين خمسة أقسام رئيسية:

القسم الأول: المؤمنون الصادقون المستوفون لحدود مرتبة التقوىٰ بمناسبة الغزوة، ويُلْحق بهم أمثالهم.

القسم الثاني: المؤمنون الصادقون السابقون في فعل الخيرات وأعمال البرّ والإحسان، زيادة على واجبات مرتبة التقوى، ويلحقُ بهم أمثالهم من بعدهم.

القسم الثالث: المنافقون إبّان التنزيل بمناسبة الغزوة، ويُلحق بهم أمثالهم من بعدهم.

القسم الرابع: العصاة التائبون المستغفرون يومئذٍ، ويُلْحقُ بهم أمثالهم من بعدهم.

القسم الخامس: العصاة المسرفون على أنفسهم المستغرقون في معاصيهم يومئذٍ، ويلحق بهم أمثالهم من بعدهم.

* * *

فالقسم الأول: وهم المؤمنون الصادقون المستوفون لحدود مرتبة التقوى بمناسبة الغزوة ويُلْحَقُ بهم أمثالهم فقد دلّ عليهم:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿قُرُبَٰتٍ﴾:

جمع «قُرْبة» وهي ما يَتقرَّبُ به العبد لربّه من أعمال ظاهرة وباطنة تُرضيه وتُقرّبهُ إليه، وهذه قراءة جمهورَ القراء العشرة.

وقرأ ورش: [قُرُبَة] بالإفراد مع ضمّ الراء، وبين القراءتين تكامل فكري، نظراً إلى تعدد الإنفاق أو عدمه بحسب اختلاف أحوال المنفقين.

﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾:

وهي دعواته لهم بالرحمة الشاملة للمغفرة والعفو وجزيل العطاء. في هذه الآية استدراكٌ لدفع توهُّم أنّ كلّ الأعراب كفرة منافقون لا دين لهم، ولبيان أنّ ما سبق من الحديث عنهم إنّما هو حديثٌ عن قسم منهم ولو كان هو القسم الأكثر عدداً، وحديثٌ عن مؤثرات بيئة البادية على سُكّانها المترحلين المتنقّلين طلباً لمنابتِ الكلأ ومواقع الماء.

فأبان الله عزّ وجلّ في هذه الآية أنّه يوجد من الأعراب سُكّانِ الباديةِ إبّانَ تنزيل سورة (التوبة) قسم يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً صادقاً، ويؤدّون فرائض الإسلام، ويجعلون ما يُنفِقون للجهاد في سبيل الله وغيره من الواجبات والتطوّعات الإسلامية قُرُباتٍ من الطاعات والعبادات وصالح الأعمال يتقربُون بها إلى الله لينالوا وليأخذوا بسببها مرضاة الله وليظفروا برحمته وجنته، ويتقرّبُون بها إلى الرسول ﷺ ليُصَلّي عليهم، أي: ليدعو لهم بالرحمة، وسيأتي في الآية (١٠٣) من سورة (التوبة) بيان أمر الله لرسوله بأنْ يُصَلّي على المتصدّقين الذين يأخذ منهم صدقات أموالهم طيّبةً بها نفوسهم، وهي قوله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾.

ومن تطبيقات هذا الأمر الرّبّاني للرسول ﷺ ما رواه الإمام مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن أبي أوفى، قال:

كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا أُتِيَ بِصَدَقةِ قَوْمٍ صَلّىٰ عليهم، فَأتاهُ أَبي بِصَدَقَتِهِ فقال: «اللّهُمَّ صَلِّ علىٰ آلِ أَبي أَوْفىٰ».

وروي أنّ امرأة قالت: يا رسولَ الله صَلِّ عَلَيَّ وَعَلَىٰ زَوْجِي، فقال: «صَلّىٰ اللّهُ عَلَيْكِ وَعَلَىٰ زَوْجِكِ».

وتعقيباً على سلوك هذا الفريق المؤمن من الأعراب، قال الله تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾.

﴿أَلَآ﴾:

أداة تنبيه، والغرض من استفتاح الكلام بها توجيه الاهتمام لتفهُّم الكلام الذي يأتي بعدها.

﴿إِنَّهَا قُرْبَةٌ﴾:

أي: إنّ النّفقات التي يُنْفقونها طاعة لله وتقرّباً إليه، واستدعاءً لدعاءِ الرسول لهم بالرحمة، هي لهم قُرْبَةٌ مقبولةٌ عند الله، سيثيبهم الله عليها ثواباً جزيلاً، وسيُدْخِلُهم في رحمته الواسعة الشاملة لغفرانه وعفوه وجنّته، فجنّتُهُ يوم الدين هي من رحمته عزّ وجلّ، كما ثبت في الصحيح.

وختم الله الآية بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

لتعميق الإيمان بصفاته وأسمائه الحسنى، واستدعت المناسبة ذكر هذين الاسمين من أسماء الله الحسنى، لأنّ هذا الفريق من الأعراب المؤمنين الصادقين في إيمانهم يحتاجون أن ينالوا حظّاً وافراً من غفران الله ورحمته الواسعة، كسائر المؤمنين.

قد يقال: لِمَ ذُكِرَ هذا القسم الذي يوجد في الأعراب وغيرهم تحت عنوان: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾؟

أقول: قد يُفْهَم من هذا التعبير أنّ أكثر المؤمنين الصادقين من الأعراب هم من هذا القسم.

أمّا أكثر المؤمنين الصادقين في المدينة من المهاجرين والأنصار فهم من قسم السابقين الآتي بيانهم في الآية (١٠٠) وبسبب ذلك كان من الحكمة طيُّ ذكر وجود هذا القسم في المدينة، اكتفاءً بأنّه إذا وُجِدَ بعضُ أفرادٍ منه في المدينة فهم معتبرون من هذا القسم بمقتضى الاتّحاد في الوصف، وذلك باعتبار أنّ الأقلّ لا يُتَحدَّثُ عنه في البيانات الكليّة، ورُبّما كان هذا الطيّ بسبب أنّ الله عزّ وجلّ عَلِم أنّ كلّ المؤمنين المستوفين لحقوق مرتبة التقوى من أهل المدينة قد ارتَقَوْا ببعض ما قدّموا من نوافل الطاعات وصالح الأعمال حتى كانوا ملحقين بالسابقين، فهم من السابقين.

● ● ●

القسم الثاني: وهم المؤمنون الصادقون السابقون في فعل الخيرات وأعمال البرّ والإحسان، زيادةً على واجبات مرتبة التقوىٰ، ويُلْحَقُ بهم أمثالهم من بعدهم، فقد دلّ عليهم:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

أولاً:

١ ـ قرأ جمهور القراء العشرة: [والأَنْصَارِ] بالْجَرّ.

٢ ـ وقرأ يعقوب فقط: [والأَنْصَارُ] بالرّفع.

ثانياً:

١ ـ قرأ جمهور القرّاء العشرة: [تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ].

٢ ـ وقرأ ابن كثير المكيّ: [تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ] بزيادة حرف الجرّ «من» كسائر ما جاء في القرآن من أمثال هذه العبارة.

وسيأتي في التدبّر توجيه القراءات إن شاء الله.

* * *

التدبّر

﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ﴾:

أي: والسابقون في فعل الخيراتِ وأعمال البرّ والإحسان، زيادةً على واجبات مرتبة التقوى، وقد جمع الله في السابقين هنا الأبرار والمحسنين من أهل الإيمان.

دلّ على هذا المعنى ثلاثة نصوص قرآنية، وهي على حسب ترتيب نزولها ما يلي:

النّص الأول: قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) بشأن هذه الأمّة المحمّديّة.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾.

فَأَبانَتْ هذه الآية أنّ أمّة محمّد ﷺ همُ الـذينَ جعلهم الله وارثي كتابه، واصطفاهم من عباده لهذا الإرث العظيم، وسمّاه الله إرْثاً لأنّ القرآن قد جمع كلّ ما في زُبُر الأوّلين من أصول الدين وشرائعه وأحكامه ذاتِ الثبات والدّوام، وهو دين الإسلام الذي اصطفاه الله للناس، وتابع إنزالَه على رُسُلِه، بحسب مقتضيات التطوّر البشري، وحاجات الناس، حتى ختمه برسالة محمّد ﷺ مستوفي العناصر كاملاً، غير عُرْضةٍ بعد إكماله لأيّ تغيير أو نسخ.

وأبانت أن هذه الأمة المحمّدية المصطفاة من عباد الله تنقسم إلى ثلاث فئات:

الفئة الدنيا: الظالمون لأنفسهم، وهم العصاة من المؤمنين، الذين لا يُؤدُّون حقوق مرتبة التقوىٰ بفعل الواجبات، وترك المحرّمات، وهذا القسم على درجات بحسب كثرة المعاصي وقلّتها.

الفئة الوسطى: المقتصدون، وهم الذين يُؤدُّون حقوق مرتبة التقوى، بفعل الواجبات وترك المحرّمات، ولا يحرصون على أن يزدادوا من نوافل الطاعات والعبادات وفعل الخيرات، ممّا يرفع المتّقي إلى درجات مرتبة الأبرار، أو درجات مرتبة المحسنين.

الفئة العليا: السّابقون بالخيرات بإذن الله، وهم الذين زادوا في عباداتهم وطاعاتهم وأفعال الخير مما يرضي الله عزّ وجل، حتّىٰ ارتقوا إلى مرتبة الأبرار أو مرتبة المحسنين.

ومرتبة الأبرار ذات درجات متفاضلات، ومرتبة المحسنين ذاتُ درجاتٍ متفاضلات، وقد جمع الله في هذه الآية الأبرار والمحسنين في عنوان «السّابقين» لأنهم قد سبقوا بالأعمال الصالحة القسمين الأدنى، والأوسط.

النصّ الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) في بيان تصنيف الناس يوم الدين إلى أصناف رئيسيّةٍ ثلاثة، أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والسابقين:

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً﴾:

أي: أصنافاً ثلاثة.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾:

هم المؤمنون على درجاتهم من ظالمي أنْفسِهم ومُقْتصدين.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾:

هم الكافرون المجرمون، على دركاتهم، من أخف دركات الكفر، حتى أخسِّها وأسفلها.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾:

هم أهل مرتبتي البرّ والإحسان، فمنهم أبرار، ومنهم محسنون، وهم على درجات متفاضلات، وقد أدخلهم الله تحت عنوان «المقرّبين».

فالسابقون، هم المقرّبون، منهم أبرار، ومنهم محسنون، ومرتبة الإحسان أعلى مراتب المؤمنين، كما دلّت النصوص القرآنية[1].

النصّ الثالث: قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) في بيان صفات فريق من المؤمنين:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

---

(١) انظر المثال الخامس حول (التقوى ـ والبرّ ـ والإحسان) من القاعدة (١٨) من كتاب «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجل» للمؤلف.

أي: وهم لفعل الخيرات سَابقون، وعنوان الخيرات يشمل صالحات الأعمال الزائدة على فعل الواجبات وترك المحرّمات، وهذه الزائدة ترفع إلى مرتبة الأبرار، ثم إلى مرتبة المحسنين.

بعد هذا البيان التفصيلي عن المراد من السابقين نلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ أدخل في فئة السابقين أربع زمر:

الزمرة الأولى: الأوّلون من المهاجرين، ولهم الدرجة الأولى من السابقين.

الزمرة الثانية: الأوّلون من الأنصار، أخذاً من قراءة: [والأَنْصَارِ] بالجرّ التي هي قراءة جمهور القرّاء العشرة، ولهم الدرجة الثانية في السابقين.

الزمرة الثالثة: المؤمنون الصادقون من الأنصار، ولو لم يكونوا من الأوّلين أهل بيعة العقبة، أخذاً من قراءة: [والأَنْصَارُ] بالرفع التي هي قراءة يعقوب البصري، ولهم الدرجة الثالثة في السابقين، وقد يشارك بعضهم أهل الدرجة الثانية من السابقين.

الزمرة الرابعة: المؤمنون الصادقون الذين اتّبعوا الزّمر الثلاث السابقة بإحْسَانٍ من أهل القرن الأول والقرون اللاّحقة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، والشرط في هؤلاء حتّى يكونوا مع السابقين، أنْ يرتقُوا إلى مرتبة الإحسان في اتّباعهم، ولا يكفي لواحدهم أن يكون من المتقين فقط، أو من الأبرار فقط، بدليل قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾.

إذْ جعلَ الاتّباعَ مقيّداً بكونه مُلْتَبساً ومقترناً بإحسان، والإحسانُ كما جاء في بيان الرسول ﷺ هو أن تَعْبُدَ الله كأنَّكَ تراه، وهو فوق مرتبة البرّ.

وقد منح الله السابقين جميعاً من التكريم والأجر العظيم أمرين:

الأمر الأول: دلّ عليه قوله تعالى:

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾:

أي: رضي عنهم بسبب ما قدّموا من أعمال صالحة ابتغاء مرضاته، وما يقدمون دواماً من أعمال صالحة، وبلغت بهم السعادة بما هم فيه من إيمانٍ وانْشراحِ صدرٍ مع

أنّهم ما زالوا في رحلة امتحانهم يتقلّبون في مختلف أنواع الامتحان، أن كانوا في رضاً دائم عن الله فيما تجري به مقاديره، وهذا الرضا هو أحد عناصر سعادتهم في الحياة الدنيا.

الأمر الثاني: دلّ عليه قوله تعالى:

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

وكما في قراءة ابن كثير: [تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا].

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾:

أي: وهيأ لهم جنّات، وقد جاءت الجنّات مجموعةً للدّلالة على أقسامٍ متعدّدة كثيرة داخل الجنة العظمىٰ التي أعدها الله للمتقين، إذ كلّ قسم من أقسامها يصحُّ أن يُسمّىٰ جنّة، فإذا لاحظنا الأقسام ظهرت أنّها جنات، وإذا لاحظنا أنها كلّها دار واحدة للمتقين ظهر أنّها بجميع أقسامها جنّةٌ واحدة.

وقد جاءت جنة الخلد في القرآن مفردة «٦٧» مرّة وجاءت مجموعةً باعتبار أقسامها «٦٩» مرّة، وجاءت مُثنّاة في بيان ثواب بعض مستحقيها من المؤمنين، باعتبار أنّ حظُّ كلٍّ منهم جنتان من أقسامها «٣» مرات.

[تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ] أو: [تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ] كما في قراءة ابن كثير.

قد يسأل سائل ما الحكمة من هذا التعبير؟ ولِمَ لَمْ يأتِ بعبارة تجري فيها الأنهار؟

أقول:

إنّ الجنّة لا تُسمّىٰ جنّةً إلّا بأشجارها ونباتاتها، فالأرض الخالية الجرداء لا تُسمّىٰ جنّة، والأنهارُ التي تجري في أرضها إنّما تَجْري تحت أشجارها، وتحتَ سُكّانِ قُصُورها ومساكنها الطيّبة العالية المشرفةِ، فالدّقّةُ في التعبير تستدعي أن يقال تجري من تحتها أو تَحْتَها الأنهار.

و«من» في [مِن تَحْتِها] لابتداء الغاية، ووجودُها في كلّ الاستعمالات القرآنية باستثناء هذه الآية في قراءة جمهور القرّاء، مع إثباتها في قراءة ابن كثير، يشير إلى أن

منابع هـذه الأنهار تتفجّـر من الأرض التي هي تحت الجنات، فتجـري تحْتها، فـدلّت القراءتان على المعنيين، فهي تَنْبَعُ جاريةً من تحتها، وتجـري بعد ذلـك في المسالـك المتنوّعة تحتها.

وكلمة النّهر تُطْلَقُ في اللّغة على مجرى الماء، ثم حصـل توسُّـع في إطلاقهـا، فصـارت تُطْلَقُ على المـاء الجاري في النهـر، ويسمّىٰ مثل هـذا الإطلاق عنـد علمـاء البلاغة مجازاً مُرْسَلاً، من إطلاق المحلّ وإرادة الحالّ فيه.

أقـول:

وجريان هذا الاستعمال على الألسنة جعلَ إطلاق النهر على الماء الجاري نفسـه في النهر حقيقةً عرفيّةً، ونُسِيَ فيها المعنىٰ المجازي السابق. ويقال لغة: نَهَرَ المـاء إذا جرىٰ في الأرض وشَقّ لنفسه نَهَراً. ويجمع النهر على «أنهار، ونُهُر، ونُهُور».

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾:

أي: خالدين في هذه الجنات المعدّة لهم سابقـاً قبل وضعهم مـوضع الامتحـان في الحياة الدنيا خلوداً أبديّاً لا نهاية له، وذلك بإمداد الله لها ولهم بالبقاء الدائم.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾:

الفوز: النجاة والربح والـظفر، والمعنى: ذلـك الخلُودُ في الجنّاتِ المعـدّةِ لهم هـو الفوز العـظيم، وقد أشيـر إليه بـالإشارة المـوضوعـة للمشار إليـه البعيد، لـلإشعار بارتفاع منزلته ارتفـاعاً عـظيماً، الأمـر الذي جعله بـالنسبة إلى من أُعِـدّ لهم أمراً بعيـداً جـدّاً، لكنّه بفضـلِ الله وفيضِ عـطائه سيحصـل لهم، وسينـالـونـه لا محـالـة، فقـد وعدهم الله به، والله لا يخلف الميعاد.

* * *

الأقسام الثلاثة الأخيرة: المنافقون ــ والعصاة التائبون ــ والعصاة المسرفون على أنفسهم، وقد دلّ عليهم:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ
لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ
ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾
خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ
عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ
وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

* * *

القراءات

● [سَيِّئًا]: وقف عليها حمزة فقط بإبدال الهمزة ياءً خالصة.

● [وَتُزَكِّيهِمْ]: ضمَّ يعقُوبُ هاء الضمير، وقراءة سائر القرّاء بكسرها، والقراءتان وجهان عربيان لنطق هاء الضمير:

● (١) قرأ حَمْزَةُ والكسائي وخلف وحفْصٌ عن عاصم: [إنَّ صَلاَتَكَ] بالإفراد.

(٢) وقرأ باقي القرّاء العشرة: [إنَّ صَلَوَاتِكَ] بالجمع.

ودلّت القراءتان على أنّ دعاء الرسول لهم بالرحمة يستوي إفراده وتكريره، لأنّ دعاءه مستجاب.

● (١) قرأ ابن كثير وأبو عَمْرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم: [مُرْجَؤُونَ] بهمزة مضمومة بعدها واو.

(٢) قرأ باقي القرّاء: [مُرْجَوْنَ] بواو ساكنة بدل الهمزة، وليس بعدها واو أخرى.

والقراءتان لغتان لمادّة الكلمة، يقال في الفعل: [أَرْجَأْتُهُ] ويُقَالُ: [أَرْجَيْتُهُ].

والمعنَى: مؤخرون ليحكم الله فيهم يوم الدين، مع الأمل بأن يتوب الله عليهم، لأنّ في الرجاء والإرجاء معنى التوقع والانتظار لأمر مطموعٍ فيه.

* * *

موضوع هذه الآيات

في هذه الآيات متابعة لبيان أقسام مجتمع المسلمين إبّان التنزيل بعد بيان قسم السابقين وفئاتهم، مع التعقيبات والتوجيهات الرّبّانية.

* وقد أبانت قسم المنافقين من الأعراب، والمنافقين من أهل المدينة، وما لهم عند الله من عذاب مرّتين، وعذاب آخر عظيم يوم الدين في جهنم.

* وأبانت قسم العصاة من المؤمنين الذين يُتْبِعُون معاصيهم بالاستغفار والتوبة، وأعطتهم الرجاء بأن يتوب الله عليهم، مع توجيههم للتكفير عن خطاياهم بالصدقات.

* وأبانت قسم العصاة من المؤمنين الذين لا يُتْبِعُون معاصيهم بالاستغفار والتوبة، وذكرت أنّهم مؤخّرون لأمر الله، فإمّا أن يعذبهم، وإمّا أن يتوب عليهم، وهو سبحانه سيعامل كلّ واحد منهم بحسب حاله في نفسه وقلبه وظروفه التي كان فيها في رحلة امتحانه، وذلك بمقتضى علمه بهم، وحكمته في عدله وفضله تبارك وتعالى.

* * *

التدبُّر

القسم الثالث: وهم المنافقون من الأعراب والمنافقون من أهل المدينة، بمناسبة أحداث غزوة تبوك وتجربتها، ويُلحق بهم أمثالهم من بعدهم.

* قول الله تعالى:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾:

الْخِطَابُ للرَّسُول وللمؤمنين الصادقين في المدينة، يقول الله فيه لهم: وبَعْضُ مَنْ حَوْلكم من الأعراب، وهم سُكّان البادية حول المدينة، هم مُنافقون، قالُوا وكان يسكن بادية المدينة من الأعراب قبائل: «جُهَيْنَة، ومُزينة، وأَشْجع، وغِفار، وأَسْلَم، ولحْيان، وعُصَيَّة».

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾:

مَرَدُوا على النفاق: أي: مَرَنُوا عليه، وصارت لهم به ممارسة مستديمة، وخِبْرَةٌ طويلة، فهُمْ به وبفنونه وإتقان اصطناع الظواهر الّتي تخفيه ماهِرُون. يقال لغة: مَرَدَ يَمْرُدُ مُرُوداً ومَرَادَةً فهو مَارِدٌ ومَرِيد، أي: بَلَغ الغاية التي تَفُوقُ في العتوّ ما عليه أحوال أهل الوصف الذي مَرَدَ فيه، نفاقاً، أو مكراً، أو لُصُوصيَّةً، أو فِسْقاً، أو سَفْكاً للدماء، أو غير ذلك.

والْمَرِيدُ الخبيثُ الشّرِّيرُ الْمُتَمَرِّدُ، ومنه أطلق على الشيطان العاتي مِنَ الإِنْسِ والجنّ ماردٌ ومَرِيد.

والمعنى: وبَعْضُ أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق إضافةً إلى من نَعْلَمُ من المنافقين الذين كشف سلوكهم نفاقهم.

هؤلاء المنافقون المعنيّون من أهل المدينة، قد مارسوا النّفاق واصطناعَ الظواهر التي تُخْفيه مُنْذُ مَقْدَمِ الرَّسُول ﷺ إلى المدينة حتى غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة، إنّها سنوات تسع كافيات لاكتساب المهارة الفائقة في النفاق.

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾:

الخطاب للرسول، ويصلحُ أَنْ يكون خطاباً له ولكلّ مؤمن على سبيل الخطاب الإفرادي، ولمّا كان الرسول ﷺ يَعْلَمُ بعض هؤلاء المنافقين، وكان من المؤمنين أفرادٌ يعلمون أفراداً منهم، كان من حُسْن التدبّر أن نفهم أنّ قول الله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ ينبغي أن يُحْمَل على نَفْيِ العلم المستغرق لكلّ أفرادهم، فَنَفْيُ علم الجميع لا يُفِيدُ نفي علم أفرادٍ منهم، فلا تعارض بهذا بين هذا النّصّ وبين ما ثبت من واقع حال الرسول وبعض المؤمنين من علمهم ببعض أفراد المنافقين، والضمير في الفعلين يعود فيما أرى على منافقي الأعراب ومنافقي أهل المدينة معاً.

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ جاء التعبير فيه بضمير المتكلم العظيم، المناسب لشمول علم الله بواطنَ الأمورِ وأسرارَ قُلُوب العباد، وربّما يكونُ المرادُ التعبيرَ عن علم الله وملائكته الموكّلين بمراقبة العبادة وكتابة أعمالهم الظاهرة والباطنة، فناسب ذلك أن يأتي بضمير المتكلم ومعه غيره.

﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾:

أمّا الردُّ إلى عَذَابٍ عظيم فهو إعادتهم إلى الحياة بعد الموت، ليعذَّبُوا في جهنّم بعد حِسَابِهم وفصلِ القضاء بشأنهم.

وأمّا تَعْذِيبُهم مرّتين فأرَىٰ أنّ المرّة الأولىٰ ما يُلاقونه من عذابٍ في الحياة الدنيا.

وأنّ المرّة الثانية ما يُلاقونه من عذاب في مُدّة البرزخ بين الموت والحياة، وهو ما يُعْرَفُ بعذاب القبر.

والنون في: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ﴾ هي نون المتكلّم العظيم، وهي تناسبُ مقام عزّة المنتقم الجبّار.

* * *

القسم الرابع: العصاة التائبون المستغفرون إبّان التنزيل، بمناسبة التخلف عن غزوة تبوك، ويُلْحَقُ بهم أمثالهم من بعدهم.

* قول الله تعالى:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ
سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ
ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ
وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَءَاخَرُونَ﴾:

شروع في بيان القسم الرّابع، والعطف هو من قبيل عطف الأقسام بعضها على بعض.

أي: وفيكم قسمٌ آخرون ممّن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة:

﴿ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾.

أي: أذنبوا واعْتَرَفُوا بذُنوبهم وتابُوا واستغفروا، فمن لوازم الاعتراف بالذَّنْب، أن يكونَ مسبوقاً بفعل الذنب، ومن خلائق المعترفين بذنوبهم أن يَتُوبوا ويستغفروا، فيكنّى بالاعتراف عن التوبة والاستغفار.

الاعتراف بالذنب: هو إقرار المذنب بأنّه يَعْرف أنَّهُ قد أذنب، اعترف على صيغة «افْتَعل» من فِعْل «عَرَفَ». ومن معاني هذه الصيغة الإظهارُ والمطاوعة، وهذان المعنيان يَصْلُحان هنا، فالمعترف بذنبه يُظْهِرُ أنّه مذنب، وإذا طُلِب منه أن يُقِرَّ بذنبه أقرّ به على نفسه.

﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾:

أي: هذا القسم من المؤمنين قسْمٌ تعادلت حسناتهم وسيئاتهم، إذْ كان سلوكهم ينحلّ إلى عملٍ صالح وعملٍ آخر سَيِّىء، إنّهم إذا تحرّكت عاطفتهم الدينيَّةُ عملوا عملاً صالحاً، فإذا تحرّكتْ بهم أهواؤهم وشهواتُهم ونزغاتُ نفوسهم عَمِلُوا عملاً سيّئاً، وهكذا دواليك، تَدُورُ حركة أعمالهم في حياتهم فتأخذ أيمانهم قبضة من الأعمال الصالحة، وتأخذ شمائلهم قبضة من الأعمال السيئة، ويختلط حالهم بالنسبة إلى الناظر إليهم، هلْ هم يعملون الصالحات أم هم يعملون السيئات؟

لكنّهم مع ذلك يَعْترفون بذنوبهم، ويتوبون، ويستغفرون. ومعنى الجملة: خلطوا أعمالهم بعضها ببعض، عملاً صالحاً وآخر سَيِّئاً، يقال لغة: خلط الشيء بالشيء.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾:

في هذه الفقرة يفتح الله لهم بابَ رَجاء أن يتوبَ عليهم، فَيُعْفِيهُمْ من العقاب على سيّئاتهم، إذا كانوا صادقين في توبتهم، مخلصين في استغفارهم.

فعل «عَسَى» من الأفعال التي تدلّ على الترجّي، أي: إنّ توبَة الله عليهم أمْرٌ مرجوٌ غير مَيْئوس منه، وهذا التعبير هو إلى الإطماع والوعد بالتوبة أقرب، حتّى كأنّه وعدٌ سيُنجَز، لأنّ المُرَجّي به ربٌّ عَفُوٌ غَفُورٌ كريم واسع الرحمة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

هذه الجملة بمثابة التعليل لما فُهِمَ ضمناً من الجملة السابقة، أي: سيتفضّل الله عليهم بالتوبة لأنّ الله غفورٌ رحيم.

غَفُور: أي: كثير المغفرة.

رَحِيم: أي: كثير الرحمة.

وفي شأن عموم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، لا في شأن خصوص الذين نزل القرآن بتوبة اللّهِ عليهم من أصحاب الرسول ﷺ، روى البخاري في صحيحه عن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لنا:

«أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ فَابْتَعَثَانِي، فَانْتَهَيْنَا إِلَىٰ مَدِينَةٍ مبنيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فتلَقَّانَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كأحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، وشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ راءٍ.

قالاَ لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا في ذَٰلِكَ النَّهْرِ، فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا، قَدْ ذَهَبَ ذَٰلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فصاروا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ.

قَالاَ لِي: هَٰذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ، وهَٰذَاكَ مَنْزِلُكَ.

قالاَ: أَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانَ شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبِيحٌ فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً، تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ»(١).

هذا الحديث قصّ الرسول فيه رؤيا رآها في منامه، ورؤيا الأنبياء حقّ. وجاء في بعض روايات الحديث أن الآتيان اللَّذان أتياه في المنام هما «جبريل وميكائيل» فقد جاء فيها بعد تفسير المشاهد: «وأنا جبريل وهذا ميكائيل».

(١) البخاري «كتاب تفسير القرآن» الحديث (٤٦٧٤) من الفتح، وأورده في التعبير عن سمرة أيضاً بأطول وأكثر أحداثاً (الحديث ٧٠٤٧) من الفتح.

وأمر الله عزّ وجلّ رسُولَهُ بأن يقبل من المذنبين التائبين ما يبذلون من أموالهم من صدقة، لتكون هذه الصدقة مُطَهِّرَةً لهم من ذنوبهم، ومُعَوِّضَةً الخسران الذي خسروه بسببها، فتَنْمُو بها صالحاتُ أعمالهم.

وأَمَرَهُ أيضاً أن يُصَلِّيَ عليهم، أي: أن يدعُو لهم بالرّحمة، فإذا دَعا لهم بها، سكنتْ قلوبُهُم، واطمأنّتْ، وتخلّصتْ من القلق والاضطراب الذي نزل بها بسبب ما أصابوه من الذنوب، لإيمانهم بأنّ صلاة الرّسول عليهم صلاةٌ مقبولة حتماً عند بارئهم، فالله لا يردُّ دعاء رسوله فيما هو مأذون بأن يدْعُوَ به.

* فقال تعالى له:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾:

إِذْنٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُوله بأنْ يأخذ من المذنبين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ما يبذُلون من أَمْوَالِهِمْ صدقة للّهِ تعالى ابتغاء تطهيرهم وتزكيتهم بها.

الصَّدقة: ما يُبْذَل لذوي الحاجات من الفقراء والمساكين ابتغاء مرضاة الله.

وأخْذُ الرسول الصّدقة منهم هو أخذٌ لا ليتملّكها، ولكن ليضعها فيمن يستحقها من الفقراء والمساكين.

﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾:

أي: تُزيل عنهم أدران ما ارتكبُوا منْ ذَنبٍ، وذلك لأنّ الحسنات يُذْهِبْنَ السّيِّئات.

﴿وَتُزَكِّيهِم﴾:

التزكية تأتي في اللّغة بمعنيين، الأول: التطهير. والثاني: الزيادة والنماء. وبما أنّ التطهير قد جاء مدلولاً عليه بقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهم﴾ لزم أن نفهم أنّ ﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾

بمعنىٰ وتنمّيهم وتـزيدُهُمْ، والمراد نماء وزيادة أعمالهم الصالحة، التي تعوّضهم ما خسروه بسبب الذنوب.

والمعنى أنّ الرّسول إذا قبل منهم ما يُقَدِّمون من أموالهم صدَقَةً للتطهير والتزكية، فإنّه يُطَهِّرُهم ويُزَكِّيهِمْ بقبولها منهم، أي: إنَّهُ يكون سبباً في ذلك.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾:

أي: وادع لهم بأن يغفر الله لهم ويرحمهم فَيُطَهِّرهم ويُزَكِّيهم.

﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾:

السَّكَنُ يُطْلَقُ على الشيء الذي تَسْكُنُ إليه النَّفْسُ، وتَطْمَئِنُّ، وتَسْتَأنِسُ بـه، ويُطْلَقُ على الرَّحْمَة، وعلىٰ الْبَرَكة.

والمعنى: إنّ صَلاتَكَ عليهم تمنح قلوبهم ونفوسهم السُّكون والطّمأنينة، وهي أيضاً رحمةٌ لَهُمْ وَبَرَكَةٌ، لأنّ الله يَزِيدُهُمْ بِها رحمةً وعطاءً.

وختم الله الآيـة بقولـه: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لربط عملهم في بـذل الصدقة، وصلاةِ الرسول عليهم، بما يلائمُهما من القاعدة الإيمانيّة، فدعاء الرسول لهم يلائمه اسم الله السميع، وعملهم ابتغاء مرضاة الله يلائمه اسم الله العليم.

وجاء في سبب نزول هذا النصّ ما يلي:

أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابْنُ أبي حاتم، وابْنُ مَرْدويه، والبيهقيّ في دلائل النبوّة، عن ابْن عبّاس في قوله تعالى:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا . . .﴾.

قال: كانوا عشرة رهطٍ تخلّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فلمّا حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد، وكان مَمَرُّ النبيّ ﷺ إذا رجع عليهم، فلمّا رآهم قال:

«مَنْ هٰؤُلاءِ الْمُوثِقُونَ أَنْفُسَهُمْ؟»

قالوا: هـذا أبو لُبابَة وأَصْحابٌ لَهُ تخلّفوا عنك يا رسول الله، حتى تُطْلِقَهُمْ

وتعذرهم. قال:

«وَأَنَا أُقْسِمُ بِاللّهِ لَا أُطْلِقُهُمْ ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يُطْلِقهم، رَغبوا عنّي، وتخلّفُوا عن الغزو مع المسلمين».

فلمّا بلغهم ذلك قالوا: ونحنُ لا نُطْلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يُطلقنا، فنزلت:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

وعسَى من اللّهِ واجب، فلمّا نزلت أرسل إليهم النبيّ ﷺ، فأطلقهم وعَذرهم، فجاءوا بأموالهم فقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا فتصدّق بها عنّا واستغفر لنا، قال:

«مَا أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ أَمْوَالَكُمْ»

فأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾.

يقول: استغفر لهم ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، يقول: رحمةٌ لهم. فأخذ منهم الصّدَقة واستغفر لهم.

وكان ثلاثة نفر لم يُوثقوا أنفسهم بالسواري، فأُرْجئوا سنة، لا يَدْرُونَ، أَيُعَذَّبُونَ أَوْ يتَابُ عليهم؟ فأنزل الله:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾:

وفي دعاء الرسول ﷺ للمتصدّقين تطبيقاً لقول الله له: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لهم﴾:

روى البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد الله بْنِ أَبي أَوْفَىٰ، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُتِي بصَدَقَةٍ قال:

«اللّهُمّ صَلِّ عَلىٰ آلِ فُلَانٍ».

فأتاه أبي بصَدَقَتِهِ، فقال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ آل أبي أَوْفَىٰ».

ولمّا كانت العبرة في النصوص القرآنية بعموم اللّفظ لا بخصوص السبب كان علينا أن نفهم أنّه يَحْسُنُ بكلّ عاصٍ تائب أن يتصدّق صدقةً رجاء أن تُطَهِّرَهُ وتُزَكِّيَهُ، ولا بأس أن يلتمس مع ذلك دُعاءَ وارثي الرسول ﷺ، أن يغفر الله له ويَرْحَمَه، من الذين يرىٰ فيهم الصلاح والاستقامة وأنهم من أئمة المتقين.

وإذْ كان العصاةُ التائبون المستغفرون وَجِلين قلقين خائفين أن يعاقبهم الله بسبب ذُنوبهم، كان من الحكمة الرّبّانيّة التخفيف عنهم، بتَرْجِيَتِهم وطَمْأَنَةِ قُلوبِهم، فقال الله تعالى:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

الاستفهامُ في: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ استفهام تقريري، أي: قد سبق أن علموا أنّ الله يقبل تَوْبَةَ عباده، فلا داعي لقلقهم واضطرابهم، وخَوْفِهِم الشديد مما فعلوا من ذَنْب، بعد أن تابوا واستغفروا.

وقبول توبتهم يلزم منه تجاوز الله عن سيِّئاتهم، وللدّلالة على هذا المعنى قال تعالى: ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِه﴾ أي: يقبل التوبة متجاوزاً عن سيئات عباده.

وملاحظةً لحالة قلقهم وخوفهم أكّدَ الله الجملة بضمير الفصل «هو» في: ﴿هو يَقْبَلُ﴾ مع التأكيد بحرف التأكيد ﴿أنَّ﴾.

﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ معطوف على: ﴿يَقْبَلُ﴾ فالجملة ينسحب عليها مؤكّدات الجملة الأولى.

والتعبير بأنّه سبحانه يأخذ الصَّدَقات التي يبذلونها للفقراء، يدلُّ على أنه يقبلها منهم، ويكافئهم عليها، فيتوب عليهم ويكفّر عنهم سيئاتهم ويرحمهم.

وذكّرهم الله بما يلائم قبول توبتهم وصدقاتهم من صفاته وأسمائه الحسنى في آخر الآية بقوله:

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

التّواب: أي: الذي يتوبُ على عباده كثيراً، فالصيغة من صيغ المبالغة. يقال لغة: تَابَ يَتُوبُ تَوْباً وتَوْبَةً ومَتَاباً إذا رجع، وتَوْبَةُ الْعَبْدِ رُجُوعُه إلى طاعة رَبه، وتوبةُ الله على عَبْدِه رُجُوعُهُ إليه بالإقبال والغفران والعفو والرضا.

الرحيم: أي: الذي يرحم عباده كثيراً، فصيغة «الرحيم» من صيغ المبالغة.

وإذْ طُوِيتْ صفحة الماضي بالتوبة والغفران، كان من الحكمة التوجيهيّة التربويّة استحثاث همم أفراد هذا القسم العصاة التائبين المستغفرين الباذلين من أموالهم صدقاتٍ ابتغاء مرضاة الله للتطهير والتزكية، وذلك بأمرهم بفعل الصالحات في المستقبل، وبالاستقامة على الطاعة والبعد عن اقتراف الذنوب، فقال الله لرسوله:

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

والمعنى: وقل يا محمّد لهم: قد تداركتم ما وقعتم فيه من ذنب فيما مضى بالتوبة والاستغفار، وبذل الصّدقات، فتاب الله عليكم وغفر لكم، فأَرُوا الله ورسولَهُ والمؤمنين في المستقبل أعمالاً صالحات، واستقامةً على الطاعات، وبُعْداً عن ارتكاب السيّئات، فسيرى الله عملكم (أي: أعمالكم فالمفرد المضاف إلى معرفة يعمّ) وسيرى رسولُه والمؤمنون كذلك عملكم، فَيَشْهَدُون لكم بما يَرَوْن منكم، ويغضّون النظر عن ماضيكم، ويعاملونكم بمقتضىٰ ما تحوّلْتُم إليه من خير وصلاح واستقامة.

وإلاّ تُصْلِحوا وتستقيموا فإمّا أن تُكَرِّروا ما كنتم عليه من الْخَلْط، وإمّا أن تَنْزِلوا إلى دَرَكَةِ المسرفين على أنفسهم.

وفي كلّ الأحوال: فسيرىٰ الله عَمَلَكُمْ ورسولُهُ والمؤمنون، ما دمتم في الحياة الدنيا، وبعد ذلك ستموتون.

﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

اللّهِ ربكم: أي: وسَتُرَدُّونَ إلى الحياة يوم البعث لتلاقوا ربكم الذي يَعْلَمُ كلّ

ما هو غيب عن عباده، وكلّ ما هو شهادة، أمّا هو فلا غيب بالنسبة إليه، بل كلّ شيءٍ بالنسبة إليه شهادة، وستقفون بين يديه في موقف الحساب وفَصْلِ القضاء.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

أي: من أعمالكم الظاهرة، وأعمالكم الباطنة، ويُحَاسِبُكُمْ عليها، ويكون قضاؤه الفصْلُ يوم الدين بينكم بحكمته وفْقَ مقتضَى عَدْلِه أو فضله.

ويقاس على الْمَعْنِيِّينَ بالخطاب في هذا النصّ غَيْرُهُمْ مِمَّنْ يأتي بعدهم، وينْطَبِقُ عليهم ما انْطَبَقَ على هؤلاء، ويُطَالَبُ حملةُ ميراث رسولِ الله ﷺ بأنْ يقولوا لهم إذا تابوا واستغفروا وبذلوا من أموالهم صدقات ابتغاء مرضاة الله:

﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

* * *

القسم الخامس: العصاةُ المسرفون على أنفسهم المستغرقون في معاصيهم إبّان التنزيل ويُلْحَقُ بهم أمثالُهُمْ من بعدهم.

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

* قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابْنُ عامر وشعبة عن عاصم: [مُرْجَؤُونَ] بالهمزة وواو بعدها.

وقرأ سائر القرّاء العشرة [مُرْجَوْنَ] بحذف الهمزة وواو ساكنة.

قال أهل اللُّغة: أرْجأ الأمْرَ، أي: أخّره، وترْكُ الهمز لُغَةٌ، قال ابْنُ السِّكِّيت: أرْجأْتُ الأمْرَ، وأرْجَيْتُه إذا أخّرْتَه، فيقال في هذا الفعل إذاً: أرْجأَ، وأرْجَى، والمعنى واحد.

والمعنى: وآخرون من العصاة لم يَتُوبوا ولم يستغفروا كما فعل أهل القسم

الرابع، وهؤلاء مؤخّرون لم يقض الله بتوبته عليهم، وتأخِيرُهم إنّما هو لأمر الله وشأنه فيهم، يومَ الحساب وفَصْلِ القضاء.

ويومئذ إمّا أن يقضي الله بعذابٍ من تقتضي حكمته تعذيبه، وإمّا أن يَتُوبَ على من تقتضي حكمته أن يتوب عليه.

وختم الله الآية بقوله: ﴿واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إشارةً إلى أنّه سبحانه يُعامِل كُلَّ واحدٍ منهم بحسب مقتضىٰ حكمته، المستندة إلى علمه الشامل به، وبكلّ ظروفه، ودوافعه النفسيّة، وبيئته، وما وهبه من قدرات، ومقدار رغبته في المعصية، وجملة المؤثّرات على إرادته.

● ● ●

الْعِقْدُ الثَّالِثُ

قصة مسجد الضرار
مع التعقيبات والتوجيهات الربّانية

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا
لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
(١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ
يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ
مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ
تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾.

* * *

القـراءات

* قرأ المدنيان: نافع وأبو جعفر، والشامي ابنُ عامر: [الَّـذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِـداً] بحذف حرف العطف قبل «الَّذِينَ».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً] بإثبات حرف العطف.

وفي القراءتين مُرَاعَاةٌ لاقتضاءَيْن، فتَسَلْسُلُ الأحْداث السابقة في السـورة يقتضي الـوصل، إذ الحـديث فيها عن ظـواهر سلوكيـة للمنافقين، يقتضي عـطْف ظاهـرة بنـاء

مَسْجد الضرار عليها، فجاءت قراءة أكثر القرّاء بالعطف. ووجودُ الفاصل الطويل من الآية (٩٩) إلى الآية (١٠٦) الّتي تضمّنَت الحديث عن أقسام مجتمع المسلمين يومئذٍ يقتضي الفصل، وبَدْأ الكلام بأسلوب الاستئناف لا العطف، فجاءت مُرَاعاةُ هذا المقتضى في قراءة حذف حرف العطف، وبالقراءتين تمّتْ مُراعَاةُ الاقتضاءين، وهذا من بدائع التنزيل الحكيم.

* قرأ نافع وابْنُ عامر: [أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُـهُ] و[أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُـهُ] ببناء فعل «أُسِّسَ» للمجهول، ورفع «بُنْيَانُهُ» على أنه نائب فاعل، في الموضعين.

وقرأ باقي القراء العشرة بالبناء للمعلوم ونصب «بنيَانَه» في الموضِعَيْن أيضاً.

وفي هاتين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني، ففي قراءة البناء للمعلوم يتحدّث النّصّ عن الذي شارك في تأسيس مسجد الضرار بالعمل أو بالرأي أو نحو ذلك من المنافقين، وفي قراءة البناء للمجهول يتحدّث النّصُّ عن سائر المنافقين الذين أُسِّسَ لهُمُ هذا البنيان، ولَوْ لم يكونوا من المشاركين فعلاً في مؤامرة بناء مسجد الضّرار.

* قرأ شُعْبة عن عاصم: [وَرُضْوَانٍ] بضمّ الراء.

وقرأ باقي القرّاء: [وَرِضْوَانٍ] بكسر الراء.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق هذه الكلمة.

* قرأ ابن عامر وحمزة وخلف وشعبة عن عاصم: [جُرْفٍ] بإسكان الراء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [جُرُفٍ] بضمّ الرَّاء.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق هذه الكلمة: فالْجُرْفُ والْجُرُف شِقُّ الوادي إذا حَفَرَ الماء في أسفله فصار عُرْضَةً للانهيار السريع.

* قرأ يعقوب البصري: [إِلَىٰ أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهم] أي: إلى أن تتقطّعَ قُلُوبُهُمْ.

وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو جعفر وحفص عن عاصم: [إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ] أي: إلاّ أن تَتَقَطّعَ قلوبهم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [إِلاَّ أَنْ تُقطّعَ قُلُوبُهم] بالبناء للمجهول.

وفي هذه القراءات تكاملٌ فكريٌّ وتكامل في الأداء البياني.

أمّا قراءة يعقوب فتدُلُّ على أنّ الرِّيبة في قلوبهم ستستمرُّ حتّى تَتَقطَّع قلوبهم،
وأمّا قراءة ابن عامر ومن معه فهي تدُلّ على أن هذا الاستمرار يُسْتَثْنَى منه زمَنُ تقطُّعِ قُلوبهم، فهي تشير إلى احتمال مفاجأتهم بالعقاب قبل حلول آجالهم المقرّرة.

وأمّا قراءة باقي القرّاء فهي تدُلُّ على احتمال أنْ تُقَطَّعَ قُلوبُهُمْ بفعلِ فاعل، فهي تَتَقطَّعُ بذلك مجبورةً غَيْرَ مُخْتارة.

* * *

سبب نزول هذه الآيات

سبق في استعراض أحداث غزوة تبوك وما رافقها بيان سبب نزول هذه الآيات، فلْيُرْجع إليه[1]، ومنه نلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ يبيّنُ فيها ظاهرة من الظواهر السلوكية للمنافقين، وقد كانت إبّان أحداث غزوة تبوك، إنّها ظاهرة بناء مسجد الضرار، ليكون قاعدة مَكْرٍ وكفرٍ وإضرار بالإسلام والمسلمين.

* * *

التدبُّر

قول الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ﴾.

تحدّث الله عزّ وجلّ في هذه السورة عن المنافقين بعدّة أساليب:

أولاً:

في بدء الحديث عنهم قد كان العرض بأسلوب تمهيديّ غير صريح في أوّله بأنّهم منافقون، وانتهى في وسطه وآخره بما يدمغهم بالنفاق، وكان هذا في الآيات من (٤٢ ـ إلى ٤٧).

---

(١) انظر الفقرة (٧): «رحلة العودة إلى المدينة».

فقد بدأت هذه الآيات بقول الله تعالى بشأن الذين استأذنوا في أن لا يخرجوا مع الرسول إلى غزوة تبوك:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ.. (٤٢)﴾.

وجاء في أثنائها:

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)﴾.

وجاء في آخرها:

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ... (٤٧)﴾.

ثانياً:

ثمّ تتابعت الآياتُ تَكْشِفُ ظواهر نفاقهم بصراحة، مثل:

- ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ... (٥٠)﴾.
- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ... (٥٨)﴾.
- ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ... (٦٧)﴾.
- ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ... (٧٥)﴾.
- ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ... (٧٩)﴾.
- ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ... (١٠١)﴾.

ثالثاً:

ثمّ جاء دور الحديث عن بُناة مَسْجِدِ الضّرار من المنافقين، الّذين بدؤوا بِتَنْفِيذِ مؤامرةٍ كيديّة كُبْرَىٰ ضِدَّ الإسلام والمسلمين، مع أبي عامر الراهب الذي حاربَ الرسول والمسلمين في أُحُدٍ مع مشركي قريش، وهو من أهل المدينة من بني غَنْم بن

عوف، وكان قد تنصّر في الجاهلية، وأقام بمكة قبل فتحها، ولمَّا فُتِحَتْ للرسول ﷺ هَرَب إلى الطائف، ولمّا فُتِحتِ الطائفُ خرج إلى الشام، واستنصر بقيصر، وكتب إلى المنافقين من قومه يأمرهم بأن يبنوا مسجداً خاصّاً بهم، ليكون قاعدة انطلاق لحرب المسلمين في المدينة، ووَعَدَهُمْ بأنّه سيأتي بجيش من الروم، لقتال المسلمين وإخراجهم من المدينة.

فلمّا جاء دوْرُ الحديث عن بُناةِ مَسْجِد الضرار هؤلاء، كان من الحكمة البيانيّة التّنبيهُ على تخصيصهم بالذكر، لتوجيه الاهتمام بأمْرِهِمُ الخطير، فقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا . . .﴾.

على أنَّ ﴿الَّذِينَ﴾ مَفْعولٌ به لفِعْلٍ محذُوفٍ تقديرُهُ: ﴿أَخُصُّ﴾ أي: وأَخُصُّ بالذكر من المنافقين الذينَ اتَّخَذُوا مَسْجداً ضراراً، والمعنَى: أنّ هؤلاء أشدّهم عداءً، وأعظمهم خطراً، لتَحَوُّلِ عِدائِهم الكمين إلى أعمال كيديّةٍ تُعِدُّ لحرْبٍ تُشارِكُ فيها دولةُ الروم بجيش تبعث به من الشام إلى المدينة.

وقد ذكر الله عزّ وجلّ عناصر الكيد التي اشتمل عليها بناء مسجد الضِّرار بجوار مسجد قُباء، وهي أربعة عناصر:

العنصر الأول: كونه ضِرَاراً، أي: قصد المنافقون من إنشائه مضارّة المسلمين المؤمنين.

والضِّرَارُ في اللّغة يأتي بمعنيين:

الأول: المخالفة، تقول لُغَةً: ضارَرْتُ الرَّجُلَ مُضَارَّةً وضِراراً، إذا خالَفْتَه، وأخذْتَ اتّجاهاً غَيْرَ اتّجاهه، وطريقاً غَيْرَ طريقه.

الثاني: إنْزالُ الضَّرَر، تقول لغة: ضارّه مُضَارَّة وضِرَاراً، إذا اتَّخَذَ الأَسْبَاب لإِنْزَالِ الضَّرر به، وأصل صيغة «فاعل» تدلُّ على المشاركة، ولكن حين لا يكون من يُرادُ إنزالُ الضرر به مشاركاً فعلاً، فإنّ الصيغة تدلُّ على مضاعفة الجهد لإنزال الضرر به.

وهـذان المعنيان ينـطبقان على حـالة بِنَـاءِ هؤلاء المنافقين لمسجـدهم إلى جوار مسجد قباء.

العنصر الثاني: كونُه كُفراً، أي: أنشأه المنافقون بباعث الكفر الـذي يُكِنُّونـه في صُـدورهم، وليكون قـاعدة نشـر الكفر، وانـطلاق الأعمال الكـافرة المحـاربة لـلإيمان والمؤمنين.

العنصر الثالث: كـونُه تَفْـريقاً بين المؤمنين، أي: أنشـأه المنافقـون لاستـدراج بعض المؤمنين إليه، بغية ضمهم مستقبلاً إلى صفوفهم.

العنصر الرابع: كونه إِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ.

الإِرْصَـادُ: الإعدادُ والتهيئـة، يقال لغـة: أَرْصَدَ الجَيْشَ للقتـال، إذا أَعَـدَّهُ لَـهُ. وأرصَدَ القلعة للحرّاس، أي: أعدَّها لهم، ويلزم من الإعداد والتهيئة الانتظار والترقب لما أُعِدّ له.

والمعنىٰ: أنّ هؤلاء المنافقين قد أعَدُّوا مسجدهم الذي بنوه لأبـي عامر الـراهب الذي كان من قَبْلُ قد حَارَبَ الله ورَسُولَهُ، وتآمر مع قيصر الرّوم أن ينصره بجيش يُقَاتل به الرّسول والمؤمنين في المدينة.

والإعـراب المـلائم للمعنى المتبـادر من اتّخـاذهم مسجـدهم: «ضِـرَاراً وكُفْـراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَه» أن تكون هذه المصادر منصوبةً على أنّ كـلّ واحـد منهـا مفعـولٌ لأجله، فـ﴿ضِـرَاراً﴾ مفعـول لأجله، أي: لأجـل الضرار، والبقية معطوفة عليه، فلها مثل حكمه، وتُـوجَدُ وجـوهٌ أخرى لإعـرابها، ولكن هذا أظهرها، وهو الملائم لما يتبادر من النّصّ من دون تكلّف.

وحين أنزل الله على رسوله خبر متّخذي مسجد الضـرار، وهو في طـريق عودتـه من غزوة تبوك قـافلاً إلى المـدينة، أبـان لَهُ أنّهم سيحـاولون التنصُّـل من ابتغاء التـآمر الكيدي ضدّ الإسـلام والمؤمنين ببناء مَسْجِدِهم، بأنْ يَحْلِفُـوا بالله على أنّهم مـا أرادوا ببنائه إلاَّ الغاية الْحُسْنَىٰ الّتي لا يُـلامون عليهـا، لكنّ اللَّهَ يَشْهَدُ إنّهم لَكَـاذِبُون، فقـال تعالى:

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾:

أي: وسيَحْلِفُونَ حين كَشْفِ أنهم منافقون يَمْكُرُون ويكيدون، وحين يَذْهَبُ مَبْعوثُو الرسولِ لهدم مسجدهم وتحريقه، قائلين: ما أَرَدْنا ببنائه إلَّا الغاية الْحُسْنَىٰ.

﴿إِنْ﴾: حرف نفي بمعنى «ما» ولا يُشْتَرط أن تأتي «إلَّا» أو «لمَّا» بعدها. فقد جاءت في القرآن نافية دون هذا الشرط. مثل قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾.

من سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول).

﴿إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾: أي: إلَّا الغاية الحسنىٰ، وهي أن يكون للضعفاء منهم وأهل العلّة والليلة المطيرة. الْحُسْنَىٰ: مؤنث الأَحْسَن، فهو أفعل تفضيل.

ولمَّا كانت مكيدتهم أمراً سِرّاً لا يُوجَدُ عليه شهودٌ من المؤمنين، ولا دلائل مكشوفة تدينهم بتآمرهم، قدّم الله عزّ وجلّ شهادته بأنّهم لَكَاذِبُونَ في أيمانهم التي سيحلفونها، فقال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

ونلاحظ أنّ الله قدَّمَ شهادته مُؤَكَّدَةً، بعدّة مؤكّدات، هي: «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزحلقة» مع أنّ خبره للرسول وللمؤمنين لا يحتاج مؤكّدات، ولا سيّما قد نَزَلَ به قرآن يُتْلى، والغرض من ذلك أنْ يُعَلِّمَنا قواعد أداء الشهادات، فينبغي أن تكون شهادة الشاهد بصيغة «أشْهَد» وأن يقترن الخبر الذي يَشْهَدُ به بالمؤكدات التي ترفع احتمال الإخبار دون تَوَثُّقٍ.

وإذْ كان مسجد المنافقين هذا مؤسَّسَةَ ضِرارٍ وكُفْرٍ وتفريقٍ بين المؤمنين وإرصادٍ لِمَنْ حاربَ الله ورسوله، كانت الحكمةُ الإداريّة تقضي بِهَدْمِهِ وإزالةِ أَثَرِهِ، والتشهيرِ بِبُناته، تحذيراً منهم، وقطعاً لدابر الفتنة، ودفنها في المكان الذي أُعِدّ لها فقال الله لرسوله:

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾:

أي: لا تستجب لدعوة الذين بنَوْه في أن تُصَلِّي لهم فيه، بل لا تدخل ولا تَقُمْ فيه داعياً لهم بالبركة، ولا تُقِرَّهم عليه، ولا تُعْطِهِمْ بقيامك فيه حجّةً على أنّك أقْرَرْتَهم عليه.

وأشعرت كلمة: ﴿أبداً﴾ الدالة على عموم أزمنَةِ المستقبل بـأنّه ينبغي مَحْوُ كُلِّ أثَرٍ لهذا البناء الذي بُنِيَ للشرّ والضرّ، ولذلك أمر الرسول بهدمه.

ونهيُ اللّهِ رسولَهُ عن أن يقوم فيه يَعُمُّ جميع المؤمنين، فمؤسسات المنافقين لا يَجُوزُ أن يُشَارِكَ فيها المؤمنون، لئلا تُتَّخَذَ مُشَارَكَتُهُمْ ذريعةً وجُسُوراً تعبُرُ عليها مكايدُ الكفر والنفاق، ضدّ الإسلام وجماعة المسلمين المؤمنين الصادقين.

واقتضت حكمة ذكر الأضداد عند ذكر أضدادها أن يُنَوِّهَ اللّهُ بشأن كُلِّ مسجد آخَرَ أُسِّسَ على التقوى من أوّل يوم، في مقابل الحديث عن مسجد الضرار الذي أُسِّس على الكُفْر، فقال الله عزّ وجل:

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

اللام في ﴿لَمَسْجِدٌ﴾ هي لام الابتداء، ويؤتى بها لتوكيد الجملة بعدها.

أي: لَمَسْجِدٌ آخر ـ غير مسجد الضرار الذي نَهَيْنا عن القيام فيه ـ موصوفٌ بأنّه أُسِّسَ على التقوى من أوَّلِ يَوْمِ جَرَىٰ التفكير في تأسيسه، أو الإعداد لبنائه، او الشُّروعُ بالتَّنفيذ، أحَقُّ أن تقوم فيه، والمرادُ تقوى مؤسّسيه، إذْ ارادوا من تاسيسه أن يكون لعبادة الله وحده، وأن يقوم مؤسِّسُوه وغيرهُمْ فيه بما يجب عليهم من صلاة وذِكْر وأمْر بالمعروف ونهي عن المنكر، ومن أمارات كوْنه أُسّس على التقوى وصْفُ حال أهله القائمين فيه، الذين يُحِبُّون أن يتطَهَّروا حسيّاً ومعنوياً ليظفروا بحب الله لهم، فالله يحبّ المطّهّرين.

نُـزِّلَتْ تَقْوىٰ المؤسِّسِينَ التي تكون في قلوبهم مَنْزِلةَ الأرض الصالحة الصُّلْبة الثابتة التي تقوم عليها المباني المشهودة بالحسّ، لأنّ البناء الحسِّي يُلاحظُ فيه الغايةُ مِنْهُ، والغايةُ منه قضية معنويّةٌ إرادية، وهذه الغاية المعنويةُ إمّا أن يكون أساسُها خيراً

كالتقوىٰ والبرِّ والإحسان، وإمّا أن يكون أساسها مصلحةً دُنْيَويَّة كالتظاهر والتّفاخر وابتغاء عرَضٍ من أعراض الحياة الدنيا، وإمّا أنْ يكُونَ أساسُها شرّاً، كمسجد الضّرار الذي بناه المنافقون.

* أمّا المسجد الذي كان أساسُه شرّاً فحكْمُه حُكْمُ مَسْجِدِ الضرار، وقد نهىٰ الله عن القيام فيه، فلا يُشَارِكُ في استحقاق القيام فيه أصلاً.

* وأمّا المسجد الذي كان أساسه مصلحةً دُنيوية، ولا يشتمل على شرٍّ وضُرٍّ للإسلام والمسلمين، فلا مانع من القيام فيه.

* وأمّا المسجد الذي كان أساسه خيراً، وأدنىٰ عناصر الخير أن يكون قد أُسِّسَ علىٰ التقوىٰ، فهو أَحَقُّ أنْ تقوم فيه من الذي دخل في أساسه مصلحةٌ دُنيوية.

ويُفْهَمُ من باب أولى أنّ ما أُسِّسَ علىٰ البرِّ الذي هو فوق مرتبة التقوى، أو على الإحسانِ أعلىٰ مَرَاتب الإيمان، أكثرُ درجةً في أَحَقِّيَّةِ القيام فيه، واقتصر النصّ على ذِكْر التقوى لأنها أدنى المراتب، فيفْهَمُ ما فوقها من باب أولى.

﴿أَحَقُّ﴾:

أي: أكْثَرُ استِحْقَاقاً لأنْ يُعْمَر عِمارةً معنويةً بالقيام فيه بأعمال العباداتِ المختلفات الخالصات لله عزّ وجلّ.

ولهذا كان الحرمُ المكّي أحقُّ المساجد بأن يُعْمَر بالعبادة لله، لأنّه أُسِّسَ على أعلى مراتب الإيمان، فهو أول بيت عبادة وضع للناس، والصلاةُ فيه بمئة ألف صلاة، وكان مسجد الرسول ﷺ في المدينة بعده في الأحقيّة، وكان المسجد الأقْصَى بعد مسجد الرسول، ثمّ تأتي المساجد التي أُسِّسَتْ علىٰ الإحسان أو البرّ أو التقوى من أوّل يوم.

﴿أَن تَقُومَ فِيهِ﴾:

أي: أنْ تمكُثَ فيه زمَناً ما للعبادة بالصلاة أو غيرها، وخُصّ القيامُ بالذكر لأنّ مُكْثَ القائم أقلّ دَرَجاتِ المُكْث، فيُلْحَقُ فيه من باب أولى الجلُوسُ لتلاوة القرآن، والصلاةُ التي فيها قيامٌ وركوعٌ وسُجود.

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾:

هذه إحدى علامات المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى، فَمُرتَادُوه من المسلمين رجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يتطَهَّرُوا طَهارةً ماديَّة من النجاسات والقذارات، وطهارةً معنويَّةً من الذُّنوب والآثام بالصَّلوات والأذكارِ والأَدْعِيَة وتِلاوَةِ القرآن.

وإذْ يُحبّون أن يتطهّروا فإنّهم يودّون من الأعمال ما يَجْعَلُهم طاهرين نظيفين حِسّيًّا ومَعْنويًّا.

وهنا سؤال هو: لماذا يُحِبُّونَ أَنْ يتطهَّروا؟

والجواب الذي يكشفه التأمُّل: لأنهم مؤمنون صادقو الإيمان، وحريصون على أن يَظْفَرُوا بمحبَّةِ الله لهم، لينالُوا منه فيوض إحسانه.

وهل يُحِبُّ اللَّهُ المتطهّرين، فيغْمُرُهم بفيوض إحسانه.

الجواب:

أمّا حبُّ الله لهم فقد دَلّ عليه في النصّ قوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾:

أي: الْمُتَطهِّرِينَ، ادْغمت التاء بالطاء فصارتا طاءً مُشدَّدَة.

وأمّا أنّه يَغْمُرُهم بفيوض إحسانه، فيُفْهَمُ ذهناً بدلالة اللّزوم العقلي، ودلالات نصوص قرآنيّة كثيرة، فمن أَحَبَّهُ الله ضاعف له الثوابَ على أعماله، وزادَهُ منه قُرْباً، وكَرِهَ مَساءَتَهُ، وأَحَبَّ مسرَّتَه، فأعْطاه حتّى يُرْضِيَهُ، وكلُّ ذَلِكَ من فيوض إحسانه.

وأولى المساجد بأن ينطبق عليه ـ إبّانَ التنزيل في المدينة بالمقارنة مع مسجد الضرار ـ أنَّهُ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التَّقْوَىٰ من أوّل يوم وفيه رجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يتطَهَّرُوا مَسْجِدان: أرفعُهُما مَسْجِدُ الرَّسُول، وبَعْدَهُ مَسْجِدُ قُبَاء.

أمّا مسجد الرسول، فقد ورد بشأنه ما يلي:

روى مسلم والإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال:

اختلف رجُلانِ: رجُلٌ مِنْ بني خُـدْرَة، ورجُـلٌ منْ بني عَمْـروبْنِ عَـوْفٍ، في الْمَسْجِد الذي أُسِّسَ عَلَىٰ التقوى.

فقال الْخُدْرِيُّ: هو مسجد رسول الله ﷺ.

وقال الْعَمْرِيُّ: هو مسجد قُبَاء.

فأتَيَا رَسُول الله ﷺ فَسَأَلاهُ عَنْ ذلِكَ فقال:

«هُوَ هٰذَا الْمَسْجِد» لمسجد رسول الله ﷺ وقال: «وفي ذَلِكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ» يَعْني مَسْجِدَ قُبَاء.

ورُوي عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ الساعدي، وعن أُبَيِّ بْنِ كعب، وعن زيـد بن ثابتٍ، عن النبيّ ﷺ نحو ما جاء في حديث أبي سعيد الخدريّ، وبه قال ابْنُ عُمر وجماعـةٌ غير رواة هذه الأحاديث.

وأما مَسْجِدُ قُبَاء فقد رُوي عن عُرْوَةَ بن الزبير، وعن ابْنِ عبّاسٍ أنَّهُ هو المقصـود بقوله تعالى:

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾.

وجاءت عدّة روايات في المراد من قوله تعالى:

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾.

تَـدُلُّ علَىٰ أنَّهُمْ أهْلُ مَسْجِـدِ قُبَـاء، لأنّهم كـانـوا إذا اسْتَنْجَـوْا يَغْسِلُون أدْبـارَهُمْ بالماء، ولا يقتصرون على الاستجمار بـالحجارة، وبعض هـذه الروايـات ذات أسانيـد صحيحة.

وجاءت بعض روايات أخرى تدلّ على أنّهم أهل مسجد الرسول.

بعد هذا أقول:

إنّ النَّصّ القرآني عامٌ يَنْطَبِقُ بمقتضىٰ عمومه على كلّ مَسْجِدٍ أُسِّسَ على التَّقْوَىٰ من أوّل يوم، وفيه رجالٌ يُحِبُّون أن يتطهَّرُوا طهارة حِسِّيَّةً وَطَهارَةً مَعْنَوِيَّةً، باعتبـار أنهم مؤمنون صادقو الإيمان.

وفي مقدّمَةِ المساجد التي ينطبق عليها هذا الوصف في المدينة يومئذٍ مَسْجِدُ الرسول، ثم مَسْجِدُ قُباء، وقد يفهم هذا من بيان الرسول على ما روى أبو سعيد الخدريّ في الحديث الصحيح، إذْ ذكر مَسْجِدَهُ أوّلاً، على اعتبار أنَّهُ هو الأحَقُّ، وبعد ذلك قال بشأن مسجد قُبَاء: «وَفِي ذَلِكَ خَيْرٌ كثير» فجعله مشاركاً في استحقاق القيام فيه بإثبات أنّ فيه خيراً كثيراً، فالبيان هو من باب تخصيص الدرجات الأولى في مساجد المدينة وما حولها يومئذٍ، ولا يقتضي هذا نَفْيَ مُشَارَكَةِ كلّ مَسْجِدٍ آخر يتحقّقُ فيه الوصف الوارد في النّصّ، كما لا يقتضي نفي ما هُو خيرٌ مِنْهُمَا وهُو المسجد الحرام في مكّة.

ومن حسن التدبّر أن نفهم أنّ النصّ باقٍ على عمومه، وليس من قبيل العام الذي أُرِيدَ به الْخُصُوص.

وفي فضل مسجد الرّسُول وردت أحاديث متعدّدة، منها:

(١) روى مسلم والنّسائيُّ عن أبي هريرة أنّ الرسول ﷺ قال:

«صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هَـذا أَفْضَـلُ مِنْ أَلْفِ صَـلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَسَـاجِدِ إلاَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، فَإِنِّي آخِرُ الأَنْبِيَاءِ، وإِنَّ مَسْجِدِي آخِرُ الْمَسَاجِدِ».

أي: آخِرُ مَسَاجِد الأنبياء والمرسلين، لا آخر المساجد على الإطلاق، فقد بُنِيَتْ مَسَاجِدُ أُخرى في عَهْدِهِ ﷺ.

(٢) وروى الإمام أحمد والبيهقي بإسناد صحيح عن جابر، أنّ الرسول ﷺ قال:

«صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فيما سِوَاهُ إلاَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وصَلاَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِن مِئَةِ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ».

وفي فضل مسجد قباء وردت أحاديث أخرى أيضاً منها:

(١) روى البخاريُّ ومُسْلمٌ عن ابن عمر قال:

كَانَ النبيُّ ﷺ يأتي مَسْجِدَ قُبَاء كُلَّ سَبْتٍ مَاشِياً وَرَاكِباً فَيُصَلِّي فِيهِ رَكْعَتَيْنِ.

(٢) وروى ابن ماجه عن «أُسَيْدِ بْنِ ظُهَيْرِ الأَنْصَارِي» وكان من أصحاب النبي ﷺ، أنّ النبيَّ ﷺ قال:

«صَلاةٌ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ كَعُمْرَةٍ».

ذكر ابن كثير في تفسيره، أنّه حديث صحيح، وقال في جمع الفوائد هو للستة إلاّ الترمذي.

(٣) وروى ابن ماجه أيضاً عن «سَهْل بْنِ حُنَيْفٍ» قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قُبَاءَ فَصَلَّى فيه صلاةً كَانَ لَهُ كَأَجْرِ عُمْرَةٍ».

(٤) قال ابن كثير في تفسير الآية التي نحن بصددها: وفي الحديث أنْ رسول الله ﷺ لمّا بنىٰ مسجد قباء وأسسه أوّل قدومه، ونزوله على بني عمرو بْنِ عَوْف، كان جبريل هو الذي عيّن له جهة القبلة.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

البنيان: مصدر بنىٰ يَبْني بَنْياً وبِناءً وبُنْياناً، ويُطْلَقُ الْبُنْيانُ على الشيء الذي بُنِيَ.

يَعْقِدُ اللَّهُ عزّ وجلّ في هذه الآية مقارنة بين فريقين:

الفريق الأول: فريقٌ مؤمنٌ مُسْلِمٌ صادقُ الإيمان حَسَنُ الإسلام، اتَّجَهَ قَلْبُهُ بِتأْثِير بواعثِ إيمانِهِ الصادق وإسْلاَمِهِ الحسَنِ، القائم على تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وابْتِغاءِ رِضوانه، لتأسيس بُنْيانٍ من الأبنيَةِ الحسِّيَة كَمَسْجِدٍ لِلْعِبَادَةِ والذكْر وتِلاَوَةِ القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتَعْلِيمِ العلوم النافعة التي يُرْضي الله عزّ وجلّ تَعْلِيمُهَا ومُدَارَسَتُها ونَشْرُها.

وهذا الفريق قد أقام بعمله بُنْياناً مَعْنَوِيّاً من خلال البنيان الحسّيّ قائماً على قاعدتين عظيمتين: قاعِدَةِ: «تَقْوَىٰ مِنَ الله» أي: قاعِدَة اتّقاءِ عَذَابِ اللَّهِ بأداءِ ما فَرَضَ واجتناب ما حَرَّم. وقاعِدَةِ «رِضْوَانٍ» من اللَّهِ أيضاً، بالتوسّع في أعمال البرّ والإحْسَان، أي: قاعدةِ ابتغاءِ رضوانٍ يغْمُرُهُمْ من الله، تأتيهم بسَبَبِه فُيُوضُ إحْسَانِهِ، وهاتان القاعدتان تشبهان أرْضاً صُلْبَةً راسخة ثابتة ذاتَ منابعَ ثرّةٍ تتفجّر بالعطاء السخيّ.

الرُّضْوَانُ: كـالرِّضـا مَصْدَرُ فعـلِ رضِيَ، تقول: رَضِيَ بـه وعنه وعليـه رِضـاً، ورِضاءً، ورُضْوَاناً، ومَرْضَاةً.

وفي التعبير بقوله تعالى:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ ؟﴾:

إبْداعٌ قَائِمٌ على دَمْج صُورَتَيْن: حِسِّيَّةٍ ومَعْنَوِيَّةٍ في صورة واحِدَةٍ، أُخِذَ من الصورة الْحِسِّيَّةِ عبارةُ: ﴿أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ﴾ وأُخِذَ من الصورة المعنوية عبارة: ﴿تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾.

فقام هذا التعبير مَقَامَ كَلام طويل يمكن أنْ نُوجِزَهُ بأن نقول: أفَمَنْ عَمِلَ أعمـالاً صالحةً في مظهرها وحَقِيقَتِها، ومَثَلُها كبناءٍ حسِّيٍّ من الأبنيـة المادِّيـة، وهذه الأعمـال ترتكز على قاعدتينِ إيمانِيَّتَيْن مؤثّرتين، هما تقوى من الله ورضوان، وهاتـان القاعـدتان المعنويتان تشبهان أرضاً صُلْبَةً راسخةً ثابتةً ذاتَ مَنَابعَ ثَرَّةٍ تَنْفَحُ بالعطاء السَّخِيِّ؟

أفصاحبُ هذا البناء خيرٌ أم صاحب البناء الآخر الذي أسّسه الفريق الثاني؟!

الفريق الثاني: فـريقٌ كافِرٌ باطناً مُنَافِقٌ سلوكـاً، يتـظاهـر بـالإسـلام والأعمـال الصالحة في ظاهرها، وقد اتجهَتْ بواعث كفره ومكره وكيده لتـأسيس بنيانٍ من الأبنيـة الحسِّيـة، كمسجـد ضـرارٍ، وكفـر، وتفـريق بين المؤمنين، وإرصـادٍ لمَنْ حـاربَ الله ورسوله.

وهذا الفريق قد أقام بعمله بنياناً معنويّاً من خلال البنيان الْحِسِّيّ قائماً على مظهر إسلام تحته كُفْرٌ ومكر وكيد ضدّ الإسلام والمسلمين، وهذا المظهر الإسـلامي الكاذبُ يُشبِهُ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ.

الشَّفا: حَرْفُ الشيء وطَرَفه، وبعده تكون الهاوية.

والْجُرُف: شِقُّ الوادي إذا حَفَرَ الوادي من أسفله، فهو عُرْضَةٌ للانهيار السَّريع.

هَارٍ: أي: متساقط، أو هو قريب من السُّقوط والانهيار إلى أسفل الوادي.

ويلاحظ أنّ التعبير بقوله تعالى:

﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾:

إبداعٌ أيضاً قائم على دَمْجِ صورتَيْن حِسِّيَّةٍ وَمَعْنَوِيَّةٍ في صورة واحِدَة، نظير التعبير السابق الوارد بشأن الفريق الأوّل.

وهُنَا أُخِذَ مِنَ الصورة الحسيّة عبارة:

﴿أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ﴾.

وأُخِذَ من الصورة المعنويّة عبارة:

﴿بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾:

أي: فانْهَارَ بنـاؤُهُ المعنوي في جُرْمٍ عقابُهُ عند الله العـذابُ في نار جهنّم يـوم الدين.

وقام التعبير هنا أيضاً مقام كلام طويل يمكن أن نُوجزه بأن نقول: أمْ مَنْ عَمِلَ أعمالاً صالحةً في مظهرها إجراميَّةً في حقيقَتِهَا، ومَثَلُهَا كبناءٍ حِسِّيٍّ من الأبنية المـاديّة، وهذه الأعمال ترتَكِزُ على النفاق الذي ليس من تحته إلاّ الكفر، وهذا النفاق يشبه شفا جُرُفٍ متداعٍ إلى الانهيار، فلا يَلْبَثُ البناء أن يرتفع قليلاً حتّى ينهار في الوادي، وكذلك ينهار البناء المعنوي الذي يؤسسه المنافق هو وبانيه في نار جهنّم، أو ينهار بانيه بسببه في نار جهنم؟!

والاستفهام الوارد في الآية يُراد منْهُ انتزاع الاعتراف بنفي التساوي بين الفريقين، من خلال تقديم البيان التصويري الكاشف للفرق الشاسع بين الرضوان من الله للمتقين الذي يقترن بالثواب العظيم في جنّاتِ النعيم، وبين الانهيار في نار جهنّم الـذي يجلبه سخط الله وغضبُه على المجرمين.

وختم الله عزّ وجلّ الآية بقوله:

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

أي: ومن حكمة الله عزّ وجلّ أنّه لا يَحْكُمُ بالهداية للْقَوْمِ الظالمين من مستوى

الظلم الذي يكون به صاحبُهُ كافراً، و «أل» في كلمة: «الظالِمِين» هي للدّلالة على استجماع أثْقَلِ عناصر الظلم التي يكْفُر بها مرتَكِبُها.

وبما أنَّ مؤسِّسِي مسْجِد الضرار منافقون مجرمون مرتكبُونَ أقبح أنواع الظلم الذي هو من مستوى الكفر، فإنَّ الله لا يَحْكُمُ لهم بالهداية، لذلك فهم يستحقّون العذاب في نار جهنّم.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

و[إلَى أنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ] في قراءة أخرى.

و[إلّا أنْ تُقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ] في قراءة ثالثة.

الرِّيبة: تأتي بمعنى الشَّكّ، والظِّنَّةِ، والتُّهَمَة، وتأتي بمعنى الْمَسَاءَةِ والانزعاجِ والخوف، لأن الشّكَّ في سوء العاقبة يولِّد الخوف المستمرّ في القلوب والانزعاجَ.

تقول لغة: رابَهُ الأمرُ يَرِيبُهُ رَيْباً وَرِيبَةً، أي أدخل عليه شرّاً وخوفاً، ورَابَهُ إذا سَاءَهُ وَأزْعَجَهُ.

فالمعنى فيما يظهر: لا يَزَالُ بُنْيانُ المنافقين لمسجد الضرار الذي بنوه قريباً من مسجد قباء، يُسَبِّبُ لهم خوفاً وقلقاً وانْزِعاجاً، حذراً من سوء المصير الذي يتوقّعُونَهُ على سبيل الشّكّ والظنّ، إذْ يَخْشَوْنَ انْكِشَافَ أمْرِهِم، وإنْزَال العقوبة بهم من قبل الرسول والمؤمنين. وأنّ هٰذِه الحالةَ سَتُلَازِمُهُمْ حَتّى تَتَقطَّع قُلُوبُهُمْ، ممّا يُعانونه من خوف وقَلَق، فَشِدَّةُ الخوفِ تُقَطِّعُ القُلُوبَ، فتَنْتَهِي الحياةُ بتقطُّعِهَا، وهذا كناية عن موتهم من شدّة الخوف، وجاء التعبير عن احتمال تَعَرُّضِهم لهٰذه الحالة بعبارات ثلاث، وردت في قراءات ثلاث، هي: [إلَّا أنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ] ـ [إلّا أنْ تُقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ] ـ [إلَى أنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ].

وختم الله الآية بقوله:

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

إشارةً إلىٰ أنّه سبحانه عَليمٌ بما في قلوبهم من كُفْرٍ ونفاق وكيد ومكر، حكيمٌ فيما يدبّر من أمر بشأنهم في عاجل أمرهم وآجله.

● ● ●

الْعِقْدُ الرَّابِعُ

بَيَانَات وتوجيهات تتعلّق
بقضايا وردت في العقود السابقة

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ
يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ
وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ
هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ
ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ
وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن
يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا
بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد
تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ
مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾
وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ

وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

* * *

القـراءات

* قرأ جُمْهُورُ الْقُـرَّاءِ العشرة: [فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ] بـالفعل المبني للمعلوم أوّلاً، فالفعل المبني للمجهول.

وقرأ حَمْزَةُ والكِسَائِيّ وخَلَفٌ: [فَيُقْتَلُونَ وَيَقْتُلُونَ] بالفعـل المبنيّ للمجهول أوّلاً، فالفعل المبني للمعلوم.

وقد دلّت القراءةُ الأولى على سَبْقِ تسليط الله المؤمنين على عدوّهم، إذْ يكونـون هم القاتلين من الكافرين أوّلاً، ودلّت القراءة الأخـرى على سبْق تسليط الله الكافـرين على المؤمنين، إذْ يكون المؤمنون هم المقتولُ منهم أوّلاً.

والحالتان كلتاهما تحدثان، فجاءت القراءتان دالَّتَيْنِ عليهما.

* قرأ جمهور القرّاء العشرة: [إِبْرَاهِيمَ] في الموضعين من الآية (١١٤).

وقرأ هشام عن ابن عامر الشامي [إِبْرَاهَامَ] في الموضعين أيضاً.

والقراءتان لغتان في نطق لفظ اسم الرسول إبراهيم عليه السلام عند العرب.

* قرأ جمهور القرّاء العشرة: [الْعُسْرَةِ] بإسْكانِ السّين.

وقرأ أبو جعفر المدني: [الْعُسُرَةِ] بضَمِّ السِّين.

والقراءتان لغتان في نطق الكلمة عند العرب.

* قرأ جمهور القرّاء العشرة: [تَـزِيغُ] بـالتاء مـراعاة لتـأنيث جمع قلوب، فكـل جمع مؤنث في لسان العرب.

وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: [يَزِيغ] بالياء نظراً إلى أنّ لفظ [قلوب] مجازيُّ التأنيث.

والقراءتان وجهان عربيان في كلّ ما هو مجازيّ التأنيث.

* * *

التدبُّر

في الآية (٣٨) من هذه السورة نادى الله الذين آمنوا بقوله:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

وفي الآية (٤١) قال الله لهم:

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

هٰذا الخطاب للمؤمنين في أثناء السورة، الذي تبعه بيانُ ظواهرِ المنافقين السلوكيّة في آيات كثيرات، وثَنَاءً على الرّسُول والمؤمنين معه، بأنهم جاهدوا فعلاً بأموالهم وأنفسهم في الآية (٨٨) استدعى حثَّ جميع المؤمنين على القتال في سبيل الله، حينما تقتضي المصلحة الإسلاميّة ذلك، وترغيبَهُمْ فيه، بأنّه مبايعة مع اللّٰه فيها معاوضة، هم يبذلون أنفسهم وأموالهم في سبيله، والله يُقدِّم لهم مقابل ذلك الجنّة يوم الدين، فمن عقل استبشر بهذه الصفقة الرابحة ربحاً عظيماً، فأنجز المبايعة مع الله، فنال بذلك فوزاً عظيماً.

وإذْ بَتَّ اللّٰه عزّ وجلّ مِنْ جهتِهِ عَقْدَ المبايعة لمن شاء أن يُبايع من المؤمنين حتى آخر مؤمن في الحياة الدنيا، وجعله مفتوحاً، فما على من يريد هذه المبايعة إلّا أن يَبُتَّ من طرفه العقد بالإرادة والتنفيذ لتكون له الجنة عوضاً، قال عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ ... ﴿١١١﴾﴾.

فأبانَ تبارك وتعالى مؤكّداً أنه قد أنجز من جهته عقد هذه المبايعة، بصيغة

﴿اشْتَرَىٰ﴾ أي: أتمَّ الشّراءَ وَبَتَّهُ، ولكنَّ استكمال عقد المبايعة إنّما يتم حينما يُثْبِتُ المؤمن في أيِّ وقت قادم من قِبَلِهِ هذا العقد مع ربّه بالإرادة الصادقة، الّتي تَسْتَتْبِعُ التنفيذ كلّما اقتضىٰ الأمر ذلك.

والمظهر التنفيذيُّ لهذا العقد مع الله من جِهَةِ المؤمنين دَلَّ عليه قوله تعالى:

﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ... ﴿١١١﴾﴾:

أي: إنَّهم يدخلون في حرب مع الكافرين إذا اقتضت مصلحة الإسلام والمسلمين قيام حرب معهم، فيُقاتِلُونَهم في سبيل الله وابتغاء مرضاته، لا في سبيل آخر غير سبيل الله، فقد يَقْتُلُونَ مِنْ عَدُوِّهم، وقَدْ يُقْتَلُون بأيدي أعدائهم، والمعارك سِجالٌ، فمرَّةً تكون فواتِحُ النصر للمؤمنين، ومرّة تكون هذه الفواتح للكافرين، لكن خاتمة النصر المبين تكون للمؤمنين الصادقين الملتزمين منهج الله وتعاليمه في السّلْم والحرب، وهذا ما دلت عليه القراءتان في [فيقتلُون ويقتلُون] ودلت على النصر المبين للمؤمنين الصادقين نصوص قرآنية أخرى.

ولمّا كان العوض الذي يظفر المؤمنون به من رَبّهم عوضاً مؤجّلاً إلى يوم الدين كبيع السَّلَم، كان في الحياة الدنيا وَعْداً من الله، أمّا وفاءُ هذا الوعد فيكون بعد البعث إلى الحياة الأخرى، ولبيان هذا قال تعالى:

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا... ﴿١١١﴾﴾:

أي: وعداً حقّاً عليه سبحانه وتعالى، ألزم نفسه بأدائه فمن حقِّ المؤمن أنْ يطالبَ ربّه به يوم الدين.

﴿عليه﴾ متعلق بـ﴿حقّاً﴾ قُدّم على عامله للتّنبيه على أنّ الله يلتزم لعباده بوفاء حقوق جعلها لهم بالوعد الصادق، الذي هو ثمرة عَقْدِ مبايعة بين الله وعباده المؤمنين.

وقد شُبِّهتْ عمليّة الاتفاق القائمةُ على بذل المؤمن نَفْسَهُ وماله مقابل مجازاة الله له بالجنّةِ يوْمَ الدين، بصفقة شراء وبيع، والثّمن الموعود به هو استحقاق امتلاك الإقامة الأبديّة بالجنّة والتنعُّم الأبديّ بنعيمها العظيم.

ولمّا كان عقدُ الشراء والبيع هذا عقداً ثابتاً في الشرائع الربّانية منذ رسالة موسى

عليه السلام، حتى بعثة محمّد ﷺ، وكان مُبيَّناً في التوراة، ومُبيَّناً في الإنجيل، ومبيّناً في القرآن، وكان الجهاد في سبيل الله بالقتال شريعةً مُنزَّلةً على بني إسرائيل وكلّ أنبياء ورُسل بني إسرائيل مُنذُ عَهْدِ مُوسَى، أبان الله تعالى أنّ هذا العقد منزّلٌ في التوراة والإنجيل والقرآن، فقال تعالى:

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ . . . ﴿١١١﴾﴾.

ولذلك دعا موسى عليه السلام بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدّسة مقاتلين، فجبُنوا، وطبق بنو إسرائيل بعد موسى شريعة القتال في سبيل الله في عهود متعدّدة من عهود أنبيائهم ورُسلهم.

أمّا أتباع عيسى عليه السلام في عهده وفي نحو ثلاث قرون تَلَتْ، فلم تكن لديهم قوّة يستطيعون بها مقاتلة الدولة الرومانية الوثنيّة، وكان جهادهم في هذه الأحقاب مقتصراً على جهاد الدعوة إلى دين الله.

وبعد هذا البيان استثار الله عزّ وجلّ في المؤمنين عنصراً من عناصر إيمانهم بصفاته، وهو أنّه لا أوفى من الله وعداً، وقدّم هذه الاستثارة بصيغة الاستفهام التقريري، فقال تعالى:

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ؟! . . . ﴿١١١﴾﴾.

العهد: الوعد المؤكّد، والتعاقد الموثّق على أمرٍ ما، ومنه المبايعة.

وجواب هذا الاستفهام يأتي من قبل المؤمنين: لا أحَدَ أوفَى بعهده من الله.

«أوْفَى» أفعل تفضيل من قولهم: أوفى بوعده أو عهده إذا أدّاه وافياً غير منقوص.

إذنْ فالجنةُ ودخولُها والتنعُّم بنعيمها بلا نهاية أمْرٌ مُحقّقٌ لا رَيْبَ فيه، لمن باع نفسه ومالَهُ لربّه مقاتلاً في سبيله، لا يَشُكُّ بهذه الحقيقة مؤمن بربّه، وبما أنزل على رسوله.

وتوجّه الله عزّ وجلّ للمؤمنين الذين عقدُوا مع ربّهم هذه المبايعة الرّابحة، ووضعوها بأعمالهم موضع التنفيذ، فقال لهم:

﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ . . . ﴿١١١﴾﴾:

أي: فافرحوا واستمتعوا بالسّرور بسبب بيعكم الذي بايعتم عليه ربكم، فقد ربحتم به ربحاً عظيماً.

يقال لغة: بايع فلانٌ فلاناً على كذا، أي: عاهده وعاقده عليه. فموقع: «بِهِ» بعد: «بايَعْتُم» بَدَلَ: «عليه» يدلُّ على أنّ فِعْلَ: «بَايَعْتُم» قد ضُمِّن معنى فعلِ: «رَبِحْتُم» فعُدِّي تعديته، والتقدير: فاستبشروا ببيعكُمُ الذي بايَعْتُمْ عليه رابحين به.

ولمّا كان هذا البيع الرابح ربحاً عظيماً يُحقّق لمن بايع ونفّذ فوزاً عظيماً، قال الله تعالى في آخر الآية:

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾:

الفوز في اللّغة يأتي بمعنى: الظفر، والنجاة من الشرّ، والرّبح، وهذه كلُّها ستَتَحقّقُ لأصحاب هذا البيع يوم الدين، وللدلالة على ارتفاع منزلته أشار الله إليه باسم الإشارة الخاص بالمشار إليه البعيد.

بعد هذا أبان الله تعالى الصفات المعتادة لأصحاب هذا البيع من المؤمنين، الذي يبايعون عليه عند مقتضيات القتال في سبيل الله، فقال تعالى:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾:

أي: هم المستجمعون لهذه الصفات، الممارسون لها فيما هو من عاداتهم، ولذلك يهون عليهم أن يبيعوا ربّهم أنفسهم وأموالهم، ويبذلوها راضين فرحين مستبشرين.

وجاءت الصفات مرفوعة مع أنّ الموصوف وهو لفظ: ﴿المؤمنين﴾ في الآية السابقة مجرور، على طريقة قطع الصفة عن موصوفها، وفي حالة قطع الصفة عن الموصوف المتعيّن بدونها يجوز الرفع بتقدير مبتدأ محذوف، ويكون من الضمائر، ويجوز النّصب بتقدير فعل مناسبٍ محذوف، مثل «أَمْدَحُ ـ أَخصُّ ـ أَذُمُّ ـ أَذْكُرُ» ونحو ذلك، كما يقرّر علماء العربيّة.

وصفات المؤمنين الذين يهون عليهم بذلُ أنفسهم وأموالهم ابتغاء مرضاة ربّهم، فرحين راضين مستبشرين بما أعدّ الله لهم من أجر عظيم، هي صفات ثمان:

الصفة الأولى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾:

أي: الذين تابوا إلى بارئهم من ذنوبهم، راجعين إلى طاعته، والعمل بمراضيه، والمحافظون على توبتهم.

تَابَ: هي في اللّغة بمعنى: رَجَعَ، وخُصّت في الاستعمال بمعنىً رجوع العبد إلى طاعة ربّه، معترفاً بسابق ذنبه، ورجوع الله إلى عبده بالرضا والتوفيق وعطاءات العفو والغفران، وفيوض الإحسان.

وجاء ذكر وصف التوبة في أول الأوصاف لأنّه الشرط الأوّل لبدء الارتقاء في درجات الكمال، وللإشعار بأنّه لا يخلو حال المؤمن مهما بلغت استقامته من أن يكون قد تعرّض إلى سوابق ذنوب تستدعي منه أن يتوب إلى ربّه منها.

الصفة الثانية: ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾:

أي: العابدون ربَّهم بمختَلِف أنواع العبادة المشروعة الّتي أنزلها على رسوله، والمحافظون على عباداتهم له طاعةً وبرّاً.

العبادة لله: هي الانقياد والخضوع والتذلُّل له، والقيام بما يُرْضِيه من قولٍ أو عملٍ ظاهرٍ أو باطنٍ، في السرّ أو في الْعَلَن.

والعبادةُ التي تَبْدأُ بالطاعة لأوامر الله ونواهيه، هي الْخُطْوَةُ التالية للتوبة، كما أنّ التوبة هي الخطوة الأولى بعد الوقوع في المعاصي التي يرتكبها المؤمن، أمّا توبة غير المؤمن فتكون بالإيمان بعد الكفر، وبالطاعة بعد المعاصي المرافقة له والناتجة عنه.

الصفة الثالثة: ﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾:

أي: المحافظون على الثناء على الله بما هو أهله من صفات كمال، وبما هو منزّه عنه من صفات نقص.

ويجمع كلّ ذلك عبارة: «الحمدُ لله» أي: كلُّ الثناء الذي يشمله العلم الرّبّاني هو لله دون استثناء.

وتفصيل هذا الثناء يأتي من خلال تدبُّر أسماء الله الحسنى، والتفكُّرِ في آثار صفاته في الوجود.

الْحَمْدُ في اللّغة: هو الثناء بذكر الجميل من الصفات الموهوبة والمكتسبة، وهو يرادف المدح.

الصّفة الرابعة: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾:

أصل السياحة في اللّغة الذهابُ في الأرْض للعبادة والترهُّب، مأخوذة من سيحان الماء إذا جرى على وجه الأرض.

وقد ذكر أكثر أهل التفسير أنّ السائحين والسائحات هم الصائمون والصائمات، رُوِيَ عن ابن عباس وعبد الله بن مسعود أنّ المراد بالسائحين الصائمون، وروي في هذا حديث عن النبي ﷺ لم يبلغ مبلغ الصحّة، وروي عن عائشة قالت: سياحة هذه الأمة الصيام.

وإلى هذا التفسير ذهب مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، وعبد الرحمن السلمي، والضحّاك بن مزاحم، وسفيان بن عيينة، وقال الحسن البصري: «السائحون» الصائمون شهر رمضان، وقيل الذين يديمون الصيام.

قيل: وسُمّي الصائم سائحاً، لأنّه يترك اللّذات كما يتركها السائح في الأرض.

وقال بعض أهل التفسير السائحون هم المهاجرون، وقال بعضهم هم المجاهدون، وقيل غير ذلك.

وروى أبو داود عن القاسِم أبـي عبد الرحمن[1]، عن أبـي أُمامة، أنّ رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لي بالسياحة، قال النبي ﷺ: «إنّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عزّ وجلّ» وصحّحه عبد الحقّ.

وروى ابن المبارك عن ابن لهيعة، قال: أخبرني عمارة بن غزيّة أنّ السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ فقال:

«أَبْدَلَنَا اللَّهُ بذلِكَ الجهادَ في سبيلِ اللَّهِ وَالتكْبِيرَ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ».

أقول:

وهـذا المعنى الوارد في هـذين الحديثين يترجّح على غيره، ويُحْمَلُ جهاد السياحة على جهاد الدّعوة إلى الله، ونشر الإسلام في الأرض، مقابل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل المجتمع الإسلامي، وهـذه السياحة بهذا المعنى هي التي تليق بالذين يُبايِعُون الله بأنّ لهم الجنّة، باذلين أنفسهم وأموالهم في سبيله، ومن لم يجاهد فالحج إلى بيت الله سياحته، وفي الحج يُكبّر الله على كلّ شَرَف، أي: كلّ مرتفع من الأرض، والحج بالنسبة إلى النساء بمثابة الجهاد كما صح عن النبي ﷺ.

أمّا الصّيام وكذلك الحج وسائر شرائع الإسلام فيمكن إدخالها في صفة الحافظين لحدود الله الآتية، ويمكن أنْ يقال: من لم يكن في جهاد أو حجّ أو عمرة فالصيام سياحته، وبهذا نجمع بين أَوْجهِ الأقوال.

الصفة الخامسة: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾:

أي: الّذين يُقيمون الصلاة ويُحافظون عليها، وجاء في النصّ الاستغناءُ عن ذكر لفظ الصلاة بذكْرِ الركوعِ والسُّجُودِ، لأنهما أَجَلُّ أركانها، باعتبارهما المعبِّرَيْنِ عن الخضوع لله، والتذلُّلِ لِوَجْهِه الكريم، أمّا القيام فيها فهو إقبالٌ إلى الله وتوجُّهٌ لوجْهِه،

---

(١) قال المنذري في مختصره لأبي داود: «القاسم» تكلّم فيه أكثر من واحد. قال أحمد محمد شاكر في تعليقه: «القاسم هو ابن عبد الرحمن الشامي، وكنيته أبو عبد الرحمن، وهو ثقة، وثقة ابن معين وغيره، وترجمه البخاري في الكبير، ولم يذكر فيه جرحاً».

وهو أوّل المراحل، ثمّ يأتي الركوع تعبيراً عن الخضوع والطّاعة، ثمّ يأتي السُّجُودِ تعبيراً عن غاية التذلّل وأقصىٰ الخضوع، وبه يكون العبدُ أقربَ ما يكون إلى ربّه.

الصفة السادسة: ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾:

أي: المواظبون على القيام بوظيفة الأمر بالمعروف داخل المجتمع الإسلامي.

والمعروف داخل المجتمع الإسلامي هو ما جاء تحسينه والأمر به في الإسلام، حتّىٰ صار معروفاً أنّه حسَنٌ، وأنّه من الفضائل ومن الخير عند المسلمين، سواء أكان الأمر به على سبيل الإيجاب أو على سبيل الندب، وكلّ ما هو حسن في العقول السويّة هو حسن في الإسلام، ومن الأحكام الإسلامية أمور تعبديّة لا حكم للعقل فيها.

الصفة السابعة: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾:

أي: والمواظبون على القيام بوظيفة النهي عن المنكر داخل المجتمع الإسلامي.

والمنكر داخلَ المجتمع الإسلامي هو ما جاء تقبيحه والنهي عنه في الإسلام، حتّىٰ صار عند المسلمين أمراً مستقبحاً يستنكرونه ويعيبون من يفعله، وكلّ ما هو قبيح في العقول السّوية هو قبيح في الإسلام، وجاء في الإسلام تحريم أمور تعبّدنا الله بتحريمها لا حكم للعقل فيها، وعلى المؤمن اجتنابها طاعةً لله.

وينبغي أن نعلم أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل المجتمع الإسلامي غَيْرُ الدّعوة إلى دين الله خارج المجتمع الإسلامي، فغير المسلمين يُدْعَوْنَ إلى الحقّ، وإلى فعل الفضائل التي تدرك عقولهم أنها فضائل، ممّا أمر به الإسلام، وإلى ترك الرذائل التي تدرك عقولهم أنّها رذائل ممّا نهى عنه الإسلام، فليس كلُّ ما هو معروف أو منكر عند المسلمين هو معروف أو منكر عند غيرهم، حتّى إذا دخل داخلون منهم في الإسلام شرعنا في تعليمهم مفردات المعروف، ومفردات المنكر، في المفهومات والتعليمات الإسلامية، وذلك ليعرفوا المعروف منها، ويَسْتَنكروا المنكر منها.

وجاء فصل صفة النهي عن المنكر عن صفة الأمر بالمعروف بحرف العطف، للدّلالة على أنّهما صفتان مُتَمَيِّزَتَان قد تنفكّان عن بعضهما، وذلك لأنّ كثيراً من مؤدّي وظيفة الأمر بالمعروف قد يصعُبُ عليهم النهي عن المنكر، خشية غضب مرتكبي المنكر من ذوي الجاه والسلطان، أو الأقربين والأصحاب وذوي الولاء، فيأمرون بالمعروف ويُغْضون النظر عن القيام بوظيفة النهي عن المنكر.

الصفة الثامنة: ﴿ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾:

حِفْظُ الشيء يكون بحراسته وصيانته، وأداء حقوقه بأمانة، وعدم الخيانة فيه، وبالمواظبة على القيام برعايته وبفعل ما يجب نحوه، واجتناب ما يجب تركه بالنسبة إليه.

حُدُودُ الله: هي أحكام شريعته لعباده ذات المقادير المحدّدة المقدّرة، وفيها أحكام تحريم، وأحكام إيجاب، وأحكام إباحة ورخصة، وأحكام ترغيب في الفعل أو ترغيب في الترك.

وأصل الحدّ ما يُقام عند الحِمَىٰ لمنع الذين هم خارج الحمَىٰ من الدُّخول إلى باطن الحمَىٰ، أو لمنع الذين هم داخله من الخروج إلى ظاهره.

وقد نهى الله عزَّ وجلّ عن اقتراب حدوده في بعض النصوص، ونهى عن تعدّيها في بعض النّصوص، وتوعّد من يعصي الله ويتعداها بالنار وعذاب مهين، ووصف من يتعدّى حدوده تعدّياً مسرفاً بأنهم هم الظالمون، ووصف من يتعدّى حدوده بأنه ظلم نفسه، ووصف النخبة الممتازة من المؤمنين بأنّهم حافظون لحدود الله، وهو ما جاء في النصّ الذي نتدبّره.

وهذه النصوص متكاملة فيما بينها، فبعض تَعَدِّي حدودِ الله يخرج من الإسلام إلى الكفر، وبعضُه يوقع في الكبائر، وبعضه يوقع في الصغائر، والمحافظة على حدود الله يرفع إلى مرتبة عَليّة من مراتب المؤمنين، كمرتبة الأبرار أو مرتبة المحسنين.

فالحافظون لحدود الله: هم القائمون بما أوجب الله فيها، والمجتنبون

ما حرّم الله فيها، والمؤدّون حقوقها بأمانة، والمواظبون على القيام برعايتها، ولا يخونون فيما استأمنهم الله عليه منها.

وختم الآية التي عدّد فيها صفاتهم بقوله:

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾:

أي: وبشر جميع المؤمنين الصادقين في إيمانهم بالعاقبة الحسنة ولو لم يكونوا من هؤلاء المبايعين، ولكنّ درجة من دونهم تكون أقلّ من درجتهم.

* * *

وجاء في الآية (٨٠) من السورة بالنسبة إلى المنافقين قول الله تعالى لرسوله:

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

وجاء في الآية (٨٤) بالنسبة إلى المنافقين أيضاً قول الله تعالى لرسوله:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

ثم جاء في هذا العِقْد الذي نتدبّرهُ بعد بضع وعشرين آية من السورة إكمال البيان حول موضوع الاستغفار للكافرين عموماً، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُولِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾.

وهنا يَرِدُ سؤال، وهو: كيف أذِنَ الله لإبراهيمَ عليْهِ السّلام أن يستغفر لأبيه مع أنّ أباه كان كافراً؟

فأجاب الله عزّ وجلّ على هذا السؤال بقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ

لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾.

جاء في سبب نزول هاتين الآيتين عدّة روايات ضعيفة يدور أكثرها حول رغبة الرّسُول في أنْ يستغفر لأمّه، أو لعمّه أبي طالب، فلم يأذن الله له بذلك، وجاء في بعض هذه الروايات أنّ بعض المؤمنين كانوا يستغفرون لآبائهم من المشركين، فنهاهم الله عن ذلك، والحديث الوارد في هذا قال الترمذي بشأنه: حديث حسن.

ومهما يكن من أمر فالآيتان مرتبطتان بما ذكرتُ آنفاً بالنظر إلى وحدة موضوع السورة.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ . . . ﴿١١٣﴾ ﴾.

اللّام في ﴿للنبيّ﴾ جاءت بعد كوْنٍ مَنْفِيّ، فهي على ما يقول علماء العربية لام الجحود، ويؤتىٰ بهذه اللّام بعد كون منفي لتأكيد النفي بأبْلَغِ تعبير.

والنفي في مثل هذا المقام يرادُ منه النهيُ المشدَّد المؤكّد، لأنّ تأكيد عدم وُجودِ المنفيّ من قِبَلِ المكلّفين ذوِي الإرادات الحرّة يدلُّ علىٰ أنّه منهيٌّ عنه نَهْياً مُشدّداً حتّى صار من المستبعَدِ جدّاً وُقوع المؤمنين به.

قال أهل التفسير: إنّ مثل هذا التعبير: [فَمَا كَانَ الله ليظلمهم ــ وما كَانَ لنفْسٍ أنْ تموت إلّا بإذن الله ــ مَا كانَ للنبيّ والذين آمنوا ــ ومَا كَانَ الْمُؤْمِنُون لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ــ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أن يَأْتِي بآيَةٍ إلّا بإذن الله] ونحو ذلك، يأتي على وجهين:

الوجه الأول: النفْيُ الْمُؤكّد، مثل:

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾.

الوجه الثاني: النّهْيُ المشدّد، مثل:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

فالمعنى: لا يُباحُ للنّبيّ والذين آمَنُوا أنْ يسْتغْفروا للمشركين، واقتصر النّصّ

على المشركين، لِأنَّ الشِّرْكَ أخفُّ منازل الكفر، وأوَّلُ دَرَكَةٍ من دركاته، فما هو أشدُّ من الشرك من دركات الكفر، كالكفر بوجود الله أصْلاً، وكالنفاقِ الذي يجمع بين الكفر والنفاق، يُفْهَمُ من باب أَوْلَى، فلا يجوز للمؤمن أن يستغفر لأيِّ كافر من أخف دركات الكفر حتى أشدِّها وأخبثها.

ولمَّا كان من ضمن الكافرين مَنْ هُمْ أولو قربى، وكانت عواطف المؤمنين تتحرَّك بقوة راغبةً بنجاة الأقربين من الخلود في العذاب، فتدفعهم إلى سؤال الله أن يغفر لهم، قال تعالى عقب النهي السابق:

﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ . . . ﴿١١٣﴾﴾.

﴿أُولي﴾: بمعنى أصحاب، وهو جَمْعٌ لا واحِدَ له من لفظه، أو اسْمُ جَمْعٍ لذُو، ويُعْرَبُ مثل إعراب جمع المذكر السَّالم إلحاقاً به، فيُرْفَعُ بالواو، وينصبُ ويُجَرُّ بالياء.

﴿أولي قربى﴾: أي: أصحاب قرابة كأب وأمّ وأخٍ وأخت وابْنٍ وابنةٍ ونحوهم.
والمعنى: ولو كان المشركون أولي قربى فلا يجوز للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا لهم.

وجعل الله عزَّ وجَلَّ هذا النهي عن الاستغفار للكافرين مقيّداً بحالة معرفة المؤمنين كُفْرَ مَنْ يريدون أن يَسْألوا الله أن يغفر لهم، وعِلْمِهِمْ بأنَّهُمْ من أصحاب الجحيم، فقال تعالى:

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾:

أي: من بعد ما ظهر لهم إصرارُهُمْ على الكفر، أو موتُهُمْ وهُمْ كافِرُونَ، فمَنْ ماتَ كافراً فقد تبيّن أنّه من أصحاب الجحيم، ومن أظهر عناده وإصراره على الكفر بعد كلِّ وسائل الإقناع والترغيب والترهيب القرآنية، فقد تبيَّنَ أنه كافرٌ من أصحاب الجحيم، كالذين قال الله بشأنهم في أوائل سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

بعد هذا البيان أجاب الله عزَّ وجلَّ على السؤال الذي يَرِدُ عَقِب توجيه النهي عن

الاستغفار للكافرين حتى أخفهم كُفْراً، وهو: كيف أذن الله لإبراهيم عليه السلام بأن يستغفر لأبيه الكافر، فقال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾:

﴿مَوْعِدَة﴾: مصدر لفعل «وَعَدَ» كالوعد، يقال لغة: وعَدَه يعِدُه وَعْداً ومَوْعِدَة وَعِدَةً ومَوْعِداً.

فأبَانَ الله تعالى في هذه الآية عُذْر إبراهيم في استغفاره لأبيه، وهو أنّه أراد أنْ يَبَرَّ بوعْدٍ وَعَدَهُ إيّاه. إذْ كان قال له: لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ رَبِّي، أي: وتوسَّم فيه ان يُؤْمِنَ مستقبلاً بعد أنْ فارَقَ بلَدَهُ وقومه، وذلك أنّ أباه خرج معه حين هاجر من العراق هو وزوجته سارة وابنُ أخيه لوط، فنزلوا أوّلاً في حرّان، وهنالك مات أبوه، ثم ارتحلوا إلى أرض الكنعانيّين، وهي بلاد بيت المقدس، وكان ذلك بعد أحداث تعرُّض إبراهيم للتحريق بالنار على يد نمرود، لكنّ الله خَيَّب نمرود وقومه المشركين إذ أمر النار بأن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم، فكانت كذلك فلم تمسّه بأذى، فلمّا رأى أبوه ذلك، قال «نعم الرَّبّ ربُّك يا إبراهيم» كما روي عن أبي هريرة.

وقد سبق ان أنزل الله عزّ وجلّ قبل هذه الآية في سورة (الممتحنة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول) أي: قبل التوبة بائنتين وعشرين سورة، قوله تعالى خطاباً للّذين آمنوا بعد تحذيرهم من اتّخاذ الكافرين أولياء، والتعريض بتلويم حاطب بن أبي بلتعة فيما كان منه من محاولة اتخاذ يدٍ عند مشركي قريش إبّان أحداث فتح مكة:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾.

﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾:

أي: قُدْوَة حَسَنَةٌ.

الأُسْوَةُ: المقتدى به في قولٍ أو عَمَلٍ، وإنّما يُقْتدى عادةً بمَنْ يكون له ظهورٌ محترمٌ بين الناس يُثِير الإعجاب والتقدير، لكنّه قد يكون أُسْوةً حسنة، وقد يكون أُسْوة سيّئة، كأئمة الضلال والإضلال في الناس.

فعلَّم الله عزّ وجلّ المؤمنين من أتباع محمّد ﷺ أن يقتدوا بإبراهيم عليه السلام والذين كانوا معه مؤمنين في تبرُّئِهِمْ من قومهم الكافرين بالقولِ والعمل، والذين كانوا معه مؤمنين هم زوجَتُه سارة، وابْنُ أخيه لوط عليه السلام.

فتبرُّؤُهُمْ منهم بالقول دلّ عليه قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

وتبرُّؤهم مِنْهم بالعمل دلّ عليه قوله تعالى:

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾.

فأتباع محمد ﷺ مطالبون بأن يقتدوا بإبراهيم والذين كانوا معه مؤمنين في هذين الأمرين القول والعمل.

واستثنى الله من عموم هذا القول والعمل ما كان من إبراهيم تجاه أبيه، وهو أمْرٌ لم يُصَرِّحْ به في اللفظ، وذلك أنّه وعَدَهُ بأن يستغفر له، فاشتمل هذا علىٰ قولٍ باللّسان، ووَعْدٍ أنجزَهُ بالعمل، فقَدْ جَعَل إبراهيمُ يستغفرُ لأبيه تنفيذاً لوعده له، متوسّماً منه أنّه سيكفر بما كان عليه، ويؤمن بالله وحده، ويتّبع ابْنَه فيما دعاه إليه، فقد هاجر معه مع من آمن به واتّبعه، وابتعد عن مشركي قومه عُبّاد النجوم، ودلّ الاستثناء على أنّه مقدّر ذهناً.

أي: لا يحْسُن أن تقتدوا بإبراهيم عليه السلام في هذا الذي كان منه لأبيه، لأنّ أباه كان كافراً، والكافر لا يجوز الدّعاء له بالمغفرة، لأنّ الله لا يَغْفِر الكُفْرَ به ولو كان من أخف دركات الكُفر، وهو الشركُ به.

وأبان الله عزّ وجل في سورة (التوبة) أنّ عُذْرَ إبراهيم في استغفاره لأبيه حِرْصُهُ

على أن يفي بوعده له، وأنه لم يَتبيَّنْ بَعْـد أنْ هاجر معه، أنـه ما زال مصـرّاً على الكفر، مُتَمَسِّكاً بما يؤمن به قومُه، فلمّا تبيَّنَ لَهُ ذَلِكَ وربّما كان هذا حين اقتربت منيّتـه، وأبـى أن يُعْلن إيمانَهُ بالله وحده لا شريك له، وتبيّن له بذلك أنّه عدُوٌّ لله تبرّأ مِنْهُ.

ومع وجود هذا العذر لإبراهيم عليه السـلام فإنّ الله تعـالى لم يأذن بـالاقتداء بـه فيه، فقال تعالى في الاستثناء في سورة (الممتحنة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول):

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ . . . ﴿٤﴾﴾:

أي: وما تبعه من تنفيذ هذا الوعد.

ولا يدخل في الاستثناء قوله:

﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾.

للعلم بعدم دخوله بداهة، بل هو ممّا يُقْتدَى بإبراهيم فيه.

وأثنى الله عزّ وجل على إبراهيم في آخر آية (التوبة) فقال تعالى:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

هـذه الجملة مؤكّـدَة بثـلاثـة مؤكـدات: «إنّ ـ والجملة الاسميـة ـ والـلام المزحلقة».

أوّاه: الأوّاه عنـد أهل اللّغـة هو الّـذي يُكْثِرُ من قـول «أوّه» تعبيـراً عن تـوجّعـه وحُزْنِه، فالأواه في المعنى هو كثير التوجُّع الذي يُعبِّر عنه بقول: «أوّهْ».

يقالُ لغة: أَوَّهَ الرَّجُلُ تأْويهاً، إذَا قالَ: «أَوَّهْ»، وهذا اللفظ هـو اسم فعل مضـارع، بمعنى: «أتوجّع» وفي نطقه لغات تزيد على العشر.

وكثرة التأوّه تدلُّ باللّزوم الذهنيّ على أنّ صاحبه كثير الحزْن كثير التوجّع، ومثـل إبراهيم عليه السلام، لا يَحْزَنُ ولا يتوجّع من أجل أمور الدنيا، بل هو يتـوجّع ويحـزن من أجل أمورٍ يراها على غير ما يرضي الله عزّ وجـلّ، لكنّه في ذاتـه حريصٌ جـدّاً على القيام بمراضي الله عزّ وجلّ، فهو إذَنْ لا يَتوجَّعُ من أجل نفسه، ولا يَحْزَنُ بسبب ذنوبٍ ارتكبها، فلم يبق إلاّ أنّه يتوجّع ويحزن من أجْلِ أبيه وقومه الكافرين، إذْ كان حـريصاً

على نجاتهم بالإيمان من الخلود في عذاب الجحيم، وهم لا يستجيبون له، وهذا ينبع من منابع رحمته العظيمة بقومه وبالناس أجمعين.

وكثرة تأوُّهِهِ الدالّة عَلَىٰ كَثْرةِ تَوَجُّعِهِ وحُزْنِه تدفعه إلى أن يدعُوَ الله مُتَضَرِّعاً لِمَنْ هُوَ حَرِيصٌ على نجاتهم من عذاب الله، ومع تضرُّعِهِ يكثر ذكر الله ويُسَبِّح بحَمْدِهِ.

فرحْمَتُهُ، وكثرةُ شفقته، ودعاؤُه وتَسْبِيحُه، تُفْهَمُ لزوماً من كونه كثير التأوّه، فلا تعارض بين المعنى اللّغوي وما ورد من تفسير مأثور للمراد من «أوّاه» لأنّ هذه التفسيرات المأثورة تعبّر عن اللّوازم التي تقتضيها كثرة تأوّه إبراهيم، فقد جاء في المأثور من التفسير لكلمة «أوّاه» أنه الدُّعاء، أي: كثير الدُّعاء لربّه، وأنّه المتضرّع، وأنّه المتضرّع كثير الدُّعاء، وأنّه الرحيم، وأنّه المسبّح.

وقد وصف الله إبراهيم بأنّه «أوّاه» في موضعين من القرآن الكريم:

الأول: قول الله تعالى في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾.

فوصفه الله بأنّه أوّاهٌ إذْ أخذ يدعو ويتضرّع من أجل رفع الإهلاك عن قوم لوط، لمّا أخبره ضيوفه من الملائكة بذلك.

الثاني: ما جاء في النصّ الذي نتدبّره في سورة (التوبة) وقد وصفه الله فيه بأنّه أوّاه في معرض ما كان منه من استغفارٍ لأبيه، رحمةً به وشفقة عليه.

خليمٌ: أي: كثير الحلْمِ، لا تُثِيره المغضِبات التي تستثير بالغضب معظم الناس.

وبعد أن أبان الله عزّ وجلّ بياناً جليّاً أنّه لا يجوز للنبيّ ولا للذين آمنوا أن يستغفروا للكافرين من بعد ما تبيّن لهم أنّهم كافرون من أصحاب الجحيم، لا بُدَّ أنّه قد تخوّف من كان من المؤمنين يستغفر لأولي قُرْباه أو غيرهم من المشركين من أن يكون قد وقع في الإثم ومخالفة حكم الله، وعرّض نفسه للعقوبة، ولو لم يكن لديه

بيان جليٍّ بالتحريم، إذْ كان البيان السابق الوارد في سورة (الممتحنة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول) يُمْكِنُ أن يُحملَ على الترغيب في عدم الاقتداء بإبراهيم عليه السلام في استغفاره لأبيه الكافر، لا على التحريم.

فاقتضىٰ هذا التخوّف الذي قد يجعل المؤمنين في حرج من أمرهم إتباعَ بيان التحريم ببيان رفع الحرج عن الذين كانوا يستغفرون للمشركين وهم لا يعلمون أنّ استغفارهم لهم حرامٌ في دين الله.

ونلاحظ أنّه جاء بيان رفع الحرج في صيغة قاعدة كليّة عامّة تنطبق على هذه الجزئية، وعلى كلّ أشباهها وأمثالها، وهذه القاعدة الكليّة تثبت أن مسؤوليّة العباد تجاه ربّهم، في قضايا أحكام الدين الواجبة أو المحرّمة لا تكون إلاّ بعد أن يُبيّن لهم فيما يُنزّل من أحكامٍ ما يجب عليهم فعله، وما يجب عليهم تركه، ليتقوا الوقوع في الإثم وترتّب العقاب، بفعل الواجبات وترك المحرّمات، فقال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

المعنى: ولا تكونوا في حرَجٍ بالنسبة إلى ما كنتم تفعلون قبل أن يُبيّن الله لكم مَا يجب عليكم أن تفعلوه، وما يحرُم عليكم أن تفعلوه، فليس من سنة الله في محاسبة أيِّ قومٍ في كلّ رسالاته المنزلة على عباده أنْ يؤاخذ على فعل شيْءٍ أو ترك شيءٍ حتّىٰ يُبيّن لَهُمْ ما يتّقونَ عقوبة المخالفة فيه فعلاً أو تركاً.

وهذه القاعدة هي إحدى مظاهر صفات العلم والحكمة والعدل من صفات الله عزّ وجلّ، فمن مسائل علم الله الشامل أنّه ليس من الحكمة ولا من العدل أنْ يُؤاخذ قبل بيان الحكم الدينيّ في المسائل التي لا يُدْرِكُ العبادُ وجُوبَها أو تحْريمها إلّا ببيان الشارع لذلك.

إنّ المؤاخذة شرطُها العلْم بالتكليف، والعلم بالتكليف الديني الذي لا يُدْرَكُ بالفطرة أو ببداهة العقول، لا بدّ أن يكون مسبوقاً بالبيان الثابت عن الله بنصٍّ منزّل، أو ببيان الرسول في سنّة ثابتة، وبيان الرسول فرع من فروع بيان الله عزّ وجلّ.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾:

نفي بأبلغ أساليب النفي، فاللام في: ﴿لِيُضِلَّ﴾ هي لام الجحود، لورودها بعد كونٍ منفي، وقد سبق شرح هذه الصيغة عند تدبّر قول الله تعالى: ﴿مَا كان لنبيٍّ﴾.

ومعنى ﴿لِيُضِلَّ﴾ هنا: لِيَقْضِيَ وليَحْكُمَ بِضَلالِ قَوْمٍ ما من أُمَّةٍ سابقةٍ وحاضرة ولاحقة، وذلك بأن يَحْكُمَ عليهم بأنَّهم عُصاةٌ مذنبون مخالفون لأحكام التكاليف الدينية في قضايا الواجبات والمحرّمات.

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾:

أي: بعد إذْ دعاهُمْ إلى الإيمان، فاستجابوا، وآمَنُوا، فحكَمَ لهم بالْهُدَىٰ في موضوعِ الإيمان، وإعلان الإسلام.

﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾:

أي: حتَّىٰ يُبَيِّنَ لهم فيما يُنزِلُ من كتاب، أو على لسانِ رسولٍ من رُسُله، ما يجب عليهم أن يَفْعَلُوهُ، أو يَتْرُكوه، فيتَّقوا بفعل ما أُمِروا بفعله، وتَرْكِ ما نُهُوا عن فعله، ما يَتَرَتَّبُ على المخالفة من استحقاق المؤاخذة والعقاب.

ولمّا كان من مسائل علم الله المحيط بكلّ شيءٍ أنّه ليس من الحكمة ولا من العدل مؤاخذةُ الْعِبادِ في أفعالٍ أو تروكٍ هي من أحكام الدين، التي لا تُدْرَكُ إلاّ ببيانٍ في كتاب الله أو سنّة رسوله، ختم الله الآية بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

أي: ومن عِلْمِهِ الشّامل لكلّ شيءٍ أنّه ليس من الحكمة ولا من العدل أن يُضِلَّ قوماً بعد إذْ هداهم حتَّىٰ يُبيِّن لهم ما يتّقون.

وبعد بيان رفع المؤاخذة عن الذين يقعون في مخالفة أحكام الله الدينيَّة وَهم يَجْهَلُونَها دون تقصير منهم، لَوَّحَ الله عزّ وجلّ بتهديد العصاة وهم في موقع المؤاخذة على المعصية، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن

وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾.

في هذه الآية تذكير بثلاث قضايا من قضايا القاعدة الإيمانيّة، تستثير بواعث الطاعة في قلب المؤمن، حتّى لا يقع فيما يعلَمُ أنَّهُ مخالف لأحكام الله في الدّين فعلاً أو تركاً.

القضيّة الأولى: أنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاواتِ والأَرْض، أي: فلا شريك له في الملك، ويلزم عن هذا أن جميع الخلق عباده، مملوكون له، ومن له الْمُلْك كُلُه فهو وحْدَهُ المستحقُّ للطاعة والعبادة فإذا أمَرَ بشيءٍ أو نهى عن شيْءٍ لم يكن لعباده خِيَرَةٌ في أن يُخَالِفُوا ويَعْصوا، فإذا عَصَوْا كانَ من مقتضىٰ مُلكه سبحانه أن يسائلهم، ويحاسبهم، ويقضيَ فيهم بالعدل، ويضعهم موضع المؤاخذة، وكان له أن يعاقبهم بالعدل.

دلّ على هذه القضية قول الله تعالى في الآية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

القضيّة الثانية: أنَّ الله هُو الّذِي أَحْيَا الأَحْيَاءَ كُلَّها، وهو الذي يُميت، وهو الذي إذا شاء أعاد الحياة للموتىٰ، ولا سيما الذين وضعهم في الحياة الأولى موضع الابتلاء، ولم يَجْزِهم في الحياة الأولى على أعمالهم الاختياريّة، وكان من الحكمة والعدل إعادتهم إلى الحياة للحساب وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء، وفي هذا إشارةٌ ضمنيَّةٌ إلى يوم الدّين، ومعلوم أنّ المؤمنين لا يحتاجون في التذكير بيوم الدين لأكثر من أن يأتي في البيان مثل قوله تعالى:

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

كما جاء في الآية.

القضيّة الثالثة: أنّ الّذين يقفون يوم الدين للحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء على ما كان منهم في الحياة الدنيا بين يدي الله الخالق البارىء الذي له ملك السماوات والأرض، لا يجدون يومئذٍ من دون الله وليّاً يتولّاهم، بجلب نفع أو ثواب،

أو دفع ضرّ أو عقاب، ولا يجدون نصيراً ينصُرُهُمْ فيغلبُ جنْدَ الله إذا أراد الله تعذيبهم على ما سلف من ذنوبهم.

* * *

وتعقيباً على ماسبق من بيان في الآية (٨٨) من أنّ الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وقد دلّ السّباق والسّياق على أنّ خروجهم إلى غزوة تبوك، وجهادهم فيها من الجهاد الداخل في المراد دخولاً أوّليّاً، أبان الله عزّ وجلّ في الآية (١١٧) أنّه قد تاب على النبيّ والمهاجرين والأنصار الّذين اتّبعوه في ساعة الْعُسْرَة، أي: في الخروج إلى غزوة تبوك، وسمّى الله زمنها ساعة الْعُسْرة، لأنّها كانت في زمن شديد الحرّ، مع قلة المؤونة، وقلّة العتاد، وهذا فوق ما ذكر في الآية (٨٩) من أنّه عزّ وجلّ أعدّ لهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، فقال تعالى:

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

تاب: هي في اللّغة بمعنى: رَجَعَ، وخُصّت في الاستعمال بمعنى رجوع العبد إلى طاعة ربّه، معترفاً بسابق ذنبه، ورجوع الله إلى عبده بالرضا والتوفيق وعطاءات العفو والغفران، وفيوض الإحسان.

في ساعة العُسْرَة: الْعُسْرَةُ: الضّيقُ والشّدّة، وقِلّةُ ذاتِ اليد، والأُمور الّتي تَعْسُر ولا تَتَيَسّر.

وساعة الْعُسْرَة يرادُ منها الزّمَنُ الذي خرج فيه الرسول والمسلمون معه إلى غزوة تبوك، إذْ كان زَمَنَ شدّةٍ وحرٍّ، وكان المسلمون في حالة عُسْرٍ من أمرهم، في الزّاد، والماء، والسّلاح، والعتاد، والمراكب، وتعرّضوا في سفرهم لظمأ شديد، وجوعٍ ممض، بسبب قلّة الماء والزاد وشدّة الحرّ.

﴿كَادَ﴾:

يقال لغة: كاد الرّجل يفعل كذا، أي: قارب أن يفعله ولم يفعله.

﴿يَزِيغُ﴾:

يميلُ عن القصد، وعن الطريق، يقال لغة: زاغ عن الشيء يَزِيغُ زَيغاً وزَيُوغاً وَزَيَغاناً، وزاغ يزُوغُ زَوْغاً وَزَوغاناً، إذا مال عن القَصْدِ، وانْحرفَ عن الصراط السويّ، وجارَ في منطقه، وكلُّ ميل عن الحقّ والخير والهدى والطاعة الواجبة زَوْغان.

وزَيْغُ القلب وزَوْغُهُ: ميلُهُ عن إرادة الاستقامة والطاعة وفعل الخير وميلُه عن الحقّ والخير والهدى.

فقوله تعالى:

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾

أي: من بعد ما قاربَ حالُ فريقٍ من الذين اتّبعُوا النبيّ في غزوة تبوك أن تميل قلوبُهُمْ عن اتّباعِه، ويكونُوا مع المخلّفين، لكنّهم تداركوا أمْرَهُمْ فلَحِقُوا بالْغُزاة، فألْحَقَهُمْ الله بمَنْ تاب عليهم أوّلاً منْذُ تابَ على رسوله.

وكان ممّن تباطأ أوّلاً ثمّ لَحِقَ بالرسول حتى أدركه حين نزل تبوك أبُو خيثمة رضي الله عنه، كما ذكر ابن إسحاق.

وكان يتخلّف عن ركب المسلمين في الطريق بعض الخارجين مع الرسول ﷺ، فيقولُ بعضُ المسلمين له: يا رسول الله، تخلّف فلان، فيقول: دَعُوهُ، فإنْ يَكُ فيه خيْرٌ فَسَيُلْحِقُهُ الله بِكُمْ، وَإنْ يكُ غَيْرُ ذلك فقد أرَاحَكُمُ الله منه.

ولدى تدبّر هذه الآية نلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ قد أبانَ أنّه قد أنجز توبته على النبيّ والمهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه خارجين معه إلى غزوة تبوك في ساعة العسرة، ودلّت القرائن على أنّ هذه التوبة من الله عليهم قد كانت ثواباً لهم على خروجهم مجاهدين في ذلك الزمن الصَّعْب الشديد.

وبدأ الله بالنبيّ لارتفاع منزلته وعلوّ مقامه عنده، وتوبتُهُ عليه إنما هي من بعض

تقصيراته بالنسبة إلى حقوق الدرجات العليا من مرتبة المحسنين، لا من تقصيراته بالنسبة إلى حقوق درجات مرتبة المتّقين. فهذه معصومٌ عنها، لأنّ الله جعلَهُ أسوة حسنة للمتقين في كلّ ما يصدر عنه، أمّا حقوق مرتبة الأبرار، أو مرتبة المحسنين فهي بالنسبة إلى أهل مرتبة المتقين من نوافل الطاعات، التي لا يفعلها إلاّ قليلٌ منهم، وإذا فعلوها ارتقوا بها إلى مرتبة الأبرار، أو إلى مرتبة المحسنين.

وذكر الله المهاجرين قبل الأنصار للإشعار بتقدّم منزلة خيار المهاجرين على خيار الأنصار، لأنهم آمنوا وتركوا مساكنهم وأموالهم في سبيل الله مهاجرين، وجاهدوا بعد ذلك بأموالهم وأنفسهم، ومنزلة المهاجر المجاهد أعلى من منزلة من آوى ونصر.

فقال تعالى في هذا البيان مؤكّداً بلام الابتداء وحرف التحقيق:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ... ﴿١١٧﴾﴾.

وكان من الذين اتّبعُوه فريقٌ اشتدّ عليهم الخروجُ في ذلك الزّمَنِ العَسِيرِ الصَّعْب، فدبَّ بعضُ الوهنِ والتخاذل إلى قلوبهم، حتّى كادت قلوبهم تميلُ إلى التخلُّفِ عن الخروج، أو التخاذل في بعضِ الطريق، وإلى معصية الرسول في تكليفه الإلزاميّ بالخروج والمتابعة.

ودلّ على هذا الفريق قول الله تعالى في الآية:

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ... ﴿١١٧﴾﴾.

«كَادَ» من أفعال المقاربة تعمل عمل «كان» ترفع الاسم وتنصب الخبر، إلاّ أنّ خبرها يجب أن يكون جملةً فعليّةً مشتملةً على فعل مضارع فاعله ضمير يعود على اسمها، واسم «كاد» هنا ضمير الشأن الذي يفيد خطورته. وجملة: «يَزِيغُ قُلُوب...» في محلّ نصب خبر «كاد».

لكنّهم تداركوا أمرهم، فاعتصموا بحبل الطاعة، واتّبعوا الرسول إلى تبوك. ويحتمل أن يكون ضمير ﴿منهم﴾ عائداً على مجموع المهاجرين والأنصار، وأن يكون

المـراد من هذا الفـريق أبا لبـابة ومن تخلّف معـه من أصحـابـه الـذين ربـطوا أنفسهم بسواري المسجد.

وهنا يَرِد سؤال مـطويّ وهو: فكيف عـامل الله هؤلاء الفـريق الذين كـادت تزيـغ قلوبُهُمْ؟

فأجاب الله عزّ وجلّ على هذا السؤال المطويّ بقوله:

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ... ﴿١١٧﴾﴾.

فدلّ حرف «ثُمَّ» على تأخير التوبة عليهم عن توبة الله على المهاجرين والأنصـار الذين اتّبعُوا النبيّ دون أن تتعرّض قلوبهم لمقاربة الزيغ.

وختم الله الآية بما يناسب توبته من صفاته الحسنىٰ، فقال تعالى:

﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

وهذا من أساليب القرآن المجيد، إذْ يربط سبحانه وتعالى تصـاريفه بمـا يلائمهـا من عنـاصر القـاعدة الإيمـانية، تـرسيخاً للقـاعدة الإيمـانية، في صـورتها الكليـة وفي عناصرها التفصيليّة.

وهنا يرد أيضاً سؤال آخر بشأن الّذين أمر الرسول بمقاطعتهم، وهم:

(١) كعبُ بن مالك من بني سَلِمَة.

(٢) ومُرَارَةُ بْنُ الربيع الْعَمْرِي، من بني عَمْرو بْن عَوْف.

(٣) وهِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ الواقِفِي، من بني واقف.

وهم الثلاثة الذين صدّقوا رسول الله ﷺ بأنّهم تخلّفوا عن غزوة تبوك بغيـر عذر، فخلّفَهُمُ الرَّسُولُ وأرْجـأ أمرهم، حتّى يقضي الله بشـأنهم، وأمَرَ بمقـاطعتهم تأديبـاً لهم ولغيرهم من المؤمنين الذين قد تحدّثهم نفوسهم بمعصية أمر الرسول، في مثل موضوع التكليف الإلزاميّ بالخروج للقتال.

والسؤال الذي يَرِد بالنسبة إلى هؤلاء الثـلاثة هـو: فماذا فعـل الله بهؤلاء الثلاثـة الذين أرجأ الرسول أمرهم، وأمر بمقاطعتهم، حتى يقضي الله بأمرهم؟

وقد أجاب الله على هذا السؤال بقوله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾:

أي: وتاب أيضاً على الثَّلاثَةِ الذين خُلِّفُوا فلم يقضِ الرسول بأمرهم، وأرْجأ أمرهم حتّى يقضي الله بشأنهم، واستمرَّ إرجاؤهم مُخَلَّفين عن إخوانهم الذين تاب الله عليهم، ومُقاطَعِينَ من الرّسولِ ومن المؤمنين، حتّى ضَاقَتْ عليهم الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وضَاقَتْ علَيْهِمْ أَنْفُسُهُم، وظَنُّوا أَنَّ اللَّهُ مُعَاقِبُهُمْ، وهذا منْهم ظنٌّ لاحتمال أن يتوب عليهم ويغفر لهم، فإذا تحقَّق ظنُّهُمْ فلا مَلْجَأ من اللهِ إلاّ إليه، وهذا من اليقين الإيماني، وقد استدعاه خوفهم من الله ومن أن يُنْزل بهم العقاب.

وظلّوا في هذه الحالة خمسينَ ليلة هي من أشدِّ ما يكون على قلب مؤمن صادق الإيمان، وكانت مدّة طويلة بالنسبة إليهم، لذلك قال تعالى حين أنزل البيان بتوبته عليهم:

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

فذكر أنّ توبته عليهم جاءت متأخرةً بدليل العطف بحرف العطف «ثُمَّ» الذي يدلُّ على الترتيب مع التراخي.

قد يقال: أمَا كان يكفي هذا البيان عن ذكر توبة الله عليهم في صدر الآية؟

وأقول:

نلاحظ بالتدبُّر المتأنّي أنّ الله تعالى أراد أن يُبَيِّنَ أنّهم صاروا مشاركين في الدرجة لمن ذكر الله في الآية السابقة أنّه تاب عليهم، وإنْ أرجأَ اللَّهُ توبته عليهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ وضاقَتْ عليهم أنفسهم، فالغرضُ من هذا الإرجاء التربيةُ والتأديب، لا بيانُ نزولِ درجتهم عن الذين تلَقَّوْا قَبْلَهُمْ نبأ توبة الله عليهم.

وقوله تعالى:

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾.

يدلُّ على غرض التربية والتأديب، حتّى لا يَعْصُوا مستقبلاً.

إنَّهم بالنسبة إلى ما سبق منهم من ذَنْبٍ قد تابوا إلى الله بالاعتراف بالذنب والاستغفار والندم، وبقي أنْ يتوبوا إلى الله في المستقبل بالتزام الطاعة وعدم تكرير المعصية، فتأخير توبةِ الله عليهم بالنسبة إلى ما مضىٰ يُقصدُ منه أن يحافظوا على الرجوع إلى الله دواماً بالتزام الطاعة في المستقبل، وأن لا يكرّروا المعصية، لئلا يتعرّضوا لما تعرّضوا له من هَمٍّ وغمٍّ في الأولى، فهم من السابقين الذين لا يَليقُ بهم ارتكاب مثل هذه المعصية التي تتعلّق بقضايا الإسلام والمسلمين الكبرى.

﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾:

أي: ضاقت عليهم الأرض مع رحابتها، فالباء للمصاحبة بمعنى «مع» و«ما» مصدرية تؤوّل هي وما بعدها بمصدر.

يقال لغة: رَحُبَ الْمَكانُ يَرْحُبُ رُحْباً وَرَحابَةً، وَرَحِبَ المكانُ يَرْحَبُ رَحَباً، أي: اتَّسع، فهو مكانٌ رَحْبٌ، ورَحِيبٌ، ورُحابٌ.

هذا التعبير يَدُلُّ علىٰ أن حالة الضِّيقِ في النفس تُشْعِرُ صاحبَها بأنّ الأرض ضيّقة عليه، مهما اتسعَتْ حَوْلَهُ أرْجاؤها، ومهما امتدّ حوْله فضاؤها، فحواسُّهُمُ الظاهرة تُحِسُّ بأنّها سجينة حبيسَةٌ ضِمْنَ جُدُرٍ ضاغطة، وهذا من شدّة الهمّ والغمّ والكرب.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾:

أي: ويَشْعُرُون في داخِلِهِمْ بأنّ أنْفُسَهُمْ ضاغطةٌ بالهمّ والغمّ والكَرْبِ عليهم، فهم في حالة ألَمٍ داخِليٍّ مصْدَرُهُ أنْفُسُهم التي زَيَّنَتْ لهم ارتكاب المعصية أولاً، ثم أدركوا ما جنوا فخافوا، فضاقت عليهم أنفسهم من شدّة الخوف من نقمة الله عليهم.

ومن خلال التعبيرين نُدْرِك مبْلَغَ الثناء عليهم بشدّة إيمانهم، وقوّته وعُمْقِه في قلوبهم، فلو لم يكونوا من أهل الإيمان العظيم القويّ العميق ما شعروا بمشاعر الضيق الشديد، والكرب العظيم، بسبب تخلُّفهم عن الخروج مع الرسول والمؤمنين في غزوة تبوك، ولاستطاعوا أن يلفّقوا الأعذار، ويتخلّصوا من نتائج الاعتراف بالذنب للرسول ﷺ كما اعتذر الآخرون وكانوا بِضْعاً وثمانين رجلاً.

تفصيل قصة الثلاثة كما قصها كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أحدهم:

روى البخاري ومسلم والإمام أحمد بألفاظ متماثلة أو متقاربة:

قال كعب بن مالك: لم أتخلَّفْ عَنْ رسول الله ﷺ في غَـزَاةٍ غَزَاهَـا قَطُّ، إلاّ في غَزَاةِ تَبُوك، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزَاةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدٌ تَخَلَّفَ عَنْهَا[١]، وإنَّمَا خَـرَجَ رسولُ الله ﷺ يـريد عِيـرَ قُرَيْشٍ، حَتَّىٰ جَمَـعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَىٰ غَيْـرِ مِيعَادٍ.

ولَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ليلةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا علَىٰ الإِسْلامِ، وَمَا أُحِبُّ أنَّ لِي بها مَشْهَدَ بدْرٍ، وإنْ كانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا وَأَشْهَرَ.

وكانَ مِنْ خَبَرِي حِينَ تخلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ في غزوة تبوك، أنّي لم أكُنْ قطُّ أقْوىٰ ولاَ أَيْسَرَ مِنّي حِينَ تخلّفْتُ عنـهُ في تلْكَ الْغَزاةِ، واللَّهِ مـا جَمَعْتُ قَبْلَها رَاحِلَتَيْنِ قطُّ، حتَّىٰ جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزاةِ.

وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَلَّما يُرِيـدُ غَزْوَةً يَغْـزُوهَا إلاّ وَرَّىٰ بغَيْـرِها، حتّىٰ كـانَتْ تِلْكَ الْغَـزْوَةُ، فَغزاهَـا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في حـرٍّ شَدِيـدٍ، واسْتَقْبَلَ سَفَـراً بَعِيداً ومَفَـاوِزَ، وَعَدُوّاً كَثِيراً، فَجَلَّىٰ لِلْمُسْلِمينَ أَمْرَهُم، لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ عَدُوِّهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِمُ الَّذِي يُـرِيد، والْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كثير، وَلاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ (يُريد بذلك الديوان).

قال كعْبٌ: فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيـدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إلاّ ظَنَّ أن ذَلِكَ سَيَخْفَىٰ، مَـا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ تعالى.

وَغَزَا رَسُولُ الله ﷺ تِلْكَ الْغَزاة حين طَابَتِ الثِّمَارُ والظِّلاَلُ، وَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعَـرُ[٢]، فَتَجَهَّزَ إِلَيْهَا رَسُـول الله ﷺ والمؤمِنُونَ مَعَـهُ، وطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّـزَ مَعَهُمْ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ من جهازي شيئاً، فأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَىٰ ذَلِكَ إذا أرَدْتُ.

---

(١) لأنّ الدعوة إلى غزوة بدر قد كانت نَدْباً، لا تكليفاً إلزامياً، لذلك لم يعاتب الرسول أحداً تخلّف عنها.

(٢) أَصْعَر: أي: أميل، يقال لغة: صَعِرَ يَصْعَرُ صَعَراً، أي: مال عُنُقُهُ أو وَجْهُهُ إلى أحد الجانبين.

فَلَمْ يَزَلْ ذلِكَ يَتَمادَىٰ بِي، حتّىٰ اسْتَمَرَّ بالنّاس الجدُّ، فأصْبحَ رَسُولُ الله ﷺ غادِياً، والمسلمون معه، ولم أقْض مِنْ جِهَازِي شَيْئاً.

وقُلْتُ: أتَجهَّزُ بَعْدَ يَوْمٍ أوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ ألْحقُهُ، فَغَدَوْتُ بَعْدَما صَلَّوْا لأتجهَّزَ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئاً، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أقْضِ شيئاً، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمادَىٰ بِي حتّىٰ أسْرَعُوا، وَتَفارَطَ الغزو(١)، فَهَمَمْتُ أنْ أرْتَحِلَ فألْحَقَهُمْ فيا لَيْتَنِي فَعَلْتُ، ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذَلِكَ لِي.

فَطَفِقْتُ إذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ الله ﷺ يَحْزُنُنِي أنِّي لا أرَىٰ لِي أُسْوَةً إلّا رَجُلاً مَغْمُوصاً عليه فِي النِّفَاقِ (أي: يُذْكر بأنّه منافق) أوْ رَجُلاً مِمَّنْ عَذَرَهُ الله تعالَىٰ مِنَ الضُّعَفَاء.

ولَمْ يَذْكُرْنِي رسُولُ الله ﷺ حتّىٰ بَلَغَ تَبُوكَ، فقال وهو جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ:

«مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟».

فقال رجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: حَبَسَهُ يَا رَسُولَ اللّهِ بُرْدُهُ، والنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ.

فقال مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَمَا قُلْتَ، وَاللّهِ يا رَسُولَ اللّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إلّا خيراً.

فَسَكَتَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ.

فَبَيْنَا هُوَ عَلَىٰ ذَلِكَ رَأىٰ رَجُلاً مُبِيضاً(٢) يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ(٣)، فقال رَسُولُ اللّهِ ﷺ:

«كُنْ أبَا خَيْثَمَةَ».

فإذا هُوَ أبُو خَيْثَمَةَ الأنْصَارِيُّ، وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ.

---

(١) تَفَارَطَ الغزو: أي: فاتَ وقته. يقال: تفارَط الشيء إذا فاتَ وَقْتُهُ.

(٢) مُبِيضاً: أي: يظهر لشخصه بياضٌ من بعيد، وربما كان يلبس ثياباً بيضاء.

(٣) يَزُولُ بِهِ السَّرَاب: أي: يرفعه السّرابُ ويُظْهِرُه.

قال كعبُ بنُ مالِكٍ: فلمّا بلغني أنّ رسولَ اللّهِ ﷺ قد توجَّهَ قافِلاً من تبوكَ حضرني بثّي[1]، فطفقتُ أتذكَّرُ الكذِبَ، وأقولُ: بِماذا أخرجُ مِن سخطِهِ غداً؟ وأستعينُ على ذلكَ بكلِّ ذي رأيٍ من أهلي.

فلمّا قيلَ: إنّ رسولَ اللّهِ ﷺ قد أظلَّ قادِماً، زاحَ عنّي الباطلُ، وعرفتُ أنّي لم أنجُ منهُ بشيءٍ أبداً، فأجمعتُ صِدقَهُ.

وأصبحَ رسولُ اللّهِ ﷺ قادِماً، وكانَ إذا قدِمَ من سفرٍ بدأَ بالمسجِدِ، فركعَ فيهِ ركعتَينِ، ثمَّ جلسَ للنّاسِ، فلمّا فعلَ ذلكَ جاءهُ المُخلَّفونَ يعتذِرونَ إليهِ، ويحلِفونَ لهُ، وكانوا بضعاً وثمانينَ رجلاً، فقبِلَ منهُم علانيتَهُم، وبايعَهُم، واستغفرَ لهُم، ووكلَ سرائرَهُم إلى اللّهِ تعالى.

حتّى جئتُ، فلمّا سلّمتُ تبسّمَ تبسُّمَ المُغضَبِ، ثمّ قالَ: «تعالَ» فجئتُ أمشي، حتّى جلستُ بينَ يديهِ، فقالَ لي:

«ما خلّفكَ؟! ألم تكُن قدِ ابتعتَ ظهراً؟!».

قالَ كعب: فقلتُ: يا رسولَ اللّهِ، إنّي واللّهِ لو جلستُ عندَ غيرِكَ من أهلِ الدُّنيا، لرأيتُ أنّي سأخرجُ من سخطِهِ بعُذرٍ، لقد أُعطيتُ جدلاً، ولكنّي واللّهِ لقد علِمتُ لئن حدّثتُكَ اليومَ حديثَ كذِبٍ ترضى بهِ عنّي، ليوشِكَنَّ اللّهُ يُسخِطُكَ عليَّ، وإن حدّثتُكَ حديثَ صِدقٍ تجِدُ عليَّ فيهِ إنّي لأرجو فيهِ عُقبى اللّهِ عزَّ وجلَّ، واللّهِ ما كانَ لي من عُذرٍ، واللّهِ ما كُنتُ قطُّ أقوى ولا أيسرَ منّي حينَ تخلّفتُ عنكَ.

قال كعب: فقال رسول الله ﷺ:

«أمّا هذا فقد صدقَ، فقُم حتّى يقضيَ اللّهُ فيكَ».

وثارَ رجالٌ من بني سلِمةَ، فاتّبعوني، فقالوا لي: واللّهِ ما علِمناكَ أذنبتَ ذنباً قبلَ هذا، لقد عجزتَ في أن لا تكونَ اعتذرتَ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ بما اعتذرَ بهِ إليهِ المُخلَّفونَ، فقد كانَ كافيكَ ذنبَكَ استغفارُ رسولِ اللّهِ ﷺ لكَ.

---

(١) حضرني بثّي: أي: حضرني حُزني الشديد.

قال: فَوَاللهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِي حَتَّىٰ أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي. ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي مِنْ أَحَدٍ؟.

قالوا: نعم، لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلانِ قالا مِثْلَ مَا قُلْتَ، وقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ ما قيلَ لك.

قَال كعب: قُلْتُ: مَنْ هُمَا؟

قالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَامِرِيّ، وَهِلالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِي، فَذَكَرُوا رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْراً، لِي فِيهِمَا أُسْوَةٌ.

قال: فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي.

وَنَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ كَلامِنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ.

قال: فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وتَغَيَّرُوا لَنَا، حَتَّىٰ تَنَكَّرَتْ لِي فِي نَفْسِي الأَرْضُ، فَمَا هِي بِالأَرْضِ الَّتِي كُنْتُ أَعْرِف، فَلَبِثْنَا عَلَىٰ ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً.

فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلاةَ، وأَطُوفُ في الأَسْوَاقِ وَلاَ يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلامِ أَمْ لاَ؟، ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيباً مِنْهُ، وأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَىٰ صَلاَتِي نَظَرَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي.

حَتَّىٰ إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِين، مَشَيْتُ حَتَّىٰ تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي، وأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ، فقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ اللهَ، هَلْ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْت فَنَاشَدْتُهُ فقال: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّىٰ تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ.

فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ، إِذَا أَنَا بِنَبَطِيٍّ مِنْ أَنْبَاطِ[1] أَهْلِ الشَّام، مِمَّنْ

(١) الأنباط شعبٌ ساميٌّ، كانت لهم دولة في شمالي شبه الجزيرة العربية، وعاصمتهم سَلْع، وتُعْرَفُ اليوم بالبتراء.

قَدِمَ بِطَعَامٍ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَىٰ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ، حَتَّىٰ جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَاباً مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، وَكُنْتُ كَاتِباً، فَقَرأْتُهُ، فإذا فيه:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ».

فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُه: وَهَذَا أَيْضاً مِنَ الْبَلاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهِ التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهِ.

حَتَّىٰ إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ، إِذَا بِرَسُولِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ.

فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا، أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟

فقال: لاَ، بَلِ اعْتَزِلْهَا فَلاَ تَقْرَبَنَّهَا.

وَأَرْسَلَ إِلَىٰ صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ، حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الأَمْرِ. فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هِلاَلَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ، لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قال: «لاَ، وَلَكِنْ لاَ يَقْرَبَنَّكِ» فقالت: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَىٰ شَيْءٍ، وَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إلى يومِهِ هَذَا.

فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ، فَقَدْ أَذِنَ لامْرَأَةِ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ؟

فَقُلْتُ: لاَ اسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَا يُدْرِينِي مَاذَا يقولُ رسولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ؟.

فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ، فَكَمُلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً، مِنْ حِينِ نُهِيَ عَنْ كَلاَمِنَا، ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلاَةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، عَلَىٰ ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَىٰ الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ مِنَّا، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا

رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صارِخٍ أَوْفَىٰ عَلَىٰ سَلْعٍ[١]، يَقُولُ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ، فَخَرَرْتُ لِلَّهِ سَاجِداً، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ الْفَرَجُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالتَّوْبَةِ عَلَيْنَا، فَآذَنَ[٢] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّىٰ صَلاَةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَساً، وَسَعَىٰ سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي، وَأَوْفَىٰ عَلَى الْجَبَلِ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ.

فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ، فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ، وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ يَوْمَئِذٍ غَيْرَهُمَا، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا.

وَانْطَلَقْتُ أَؤُمُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجاً فَوْجاً يُهَنِّئُونِي بِتَوْبَةِ اللَّهِ، يَقُولُونَ: لِيَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، حَتَّىٰ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ، وَالنَّاسُ حَوْلَهُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ، حَتَّىٰ صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي، وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غيره، فَكَانَ كَعْبٌ لاَ يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ.

قال كعبُ بْنُ مالك: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قال: وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ:

«أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ».

فَقُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟

قال: «لاَ، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ، حَتَّىٰ كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ.

فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَىٰ رَسُولِهِ.

---

(١) أَوْفَىٰ عَلَىٰ سَلْعٍ: أي: وقف مُشْرِفاً على جبَلِ سَلْعٍ، وهو جبلٌ في المدينة معروف.

(٢) فآذن: أي: فَأَعْلَمَ.

فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ».

فَقُلْتُ: إِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ، وقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّما نَجَّانِي اللَّهُ بالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقاً مَا بَقِيتُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَحَداً مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلاَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ مِنَ الصِّدْقِ فِي الْحَدِيثِ، مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللَّهُ تَعَالَىٰ، واللَّهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذْبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ يَوْمِي هَذا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ تَعَالَىٰ فِيمَا بَقِيَ.

قال: وأنزل الله تعالى:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

قال كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي الله لِلإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لأَحَدٍ، فقالَ تَعَالَىٰ:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

قال كعبُ بْنُ مَالك: وَكُنَّا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ الَّذِينَ خُلِّفْنَا عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ حَلَفُوا، فَبَايَعَهُمْ، واسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ أَمْرَنَا، حَتَّىٰ

قَضَىٰ اللَّهُ فيه، فَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا...﴾ ولَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ مِمَّا خُلِّفْنَا تَخَلُّفَنَا عَنِ الْغَزْوِ، وَإِنَّمَا هُو تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا، وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ، واعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ.

* * *

وختم الله عزّ وجلّ هذا العِقْدَ مِنَ السّورة بِقَوْلِهِ تَعَالَى خطاباً للّذين آمنوا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾:

أي: الْتَزموا طاعَة الله ورَسُوله، ولا تَعْصُوا بتَرْك الواجبات وفعل المحرّمات، لِتتَّقُوا عِقابَ الله العاجلَ والآجلَ.

وكُونُوا مَعَ المؤمنين الصادقين الملتزمين بفعل الواجبات وتركِ المحرّمات، ولا تكونوا في سُلوكِكُمْ مَعَ غَيْر الصادقين من المنافقين، والّذين في قلوبهم مرض، وضعفاءِ الإيمان.

ويظهرُ أنّ هذا الخطاب يُقصد منه بالدّرجَة الأولى الّذِين تَخلّفُوا عن غزوة تبوك من أهل الإيمان، ثمّ يدخُلُ في عمومه جميع الذين آمنوا، تحذيراً لهم من معصية الله ورسوله، ومن مغبّة ذلِكَ.

وقد دعا إلى هذا الختام التوجيهي ما جاء في سوابق هذه الآية من شأنِ المخلّفين الثلاثة، وما تعرّضوا له من مُعَاقبةٍ بالقطيعة والهجرِ من الرسول وجميع المسلمين، وكان ما جرى لهم تربيةً بالعزلِ المؤقت.

• • •

الْعِقْدُ الْخَامِسُ

تعليمات وتوجيهات حول الخروج للقتال في سبيل الله

* قال الله عزّ وجلّ:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا
يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ
لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً
وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ
لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

* * *

* قرأ جمهور القرّاء العشرة: [وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا] بإثبات الهمزة في الكلمتين.

وقرأ أبو جعفر: [وَلَا يَطَوْنَ] بحذف الهمزة، ولحمزة في الوقف وجهان: الحذف، والتسهيل بين بين.

وقرأ أبو جعفر: [مَوْطِياً] بإبدال الهمزة ياءً خالصةً وصلاً ووقفاً، وله وجه آخر كالجمهور، وقرأ حمزة في الوقف [مَوْطِياً] كأبي جعفر.

وهي وجوه من الأداء في النطق.

* * *

نظرة إجمالية حول قضايا هذا العِقْد

اشتمل هذا العِقْدُ من سورة (التوبة) على بيان ثلاث قضايا تتعلّق بالخروج إلى القتال في سبيل الله.

القضيّة الأولى: إلزام سكّان عاصمة الإسلام والمسلمين، والمقيمين حولها، بأن يتحمَّلَ كلُّ قادر منْهُم على القتال مسؤوليّة المشاركة بحسب أوامر القيادة، في بناء الدِّرْع الأول الذي يحمي كيان الدولة الإسلامية، وفي مقدّمة هذا الكيان دولَتُها، وقيادتُها، وعاصِمَتُها.

القضية الثانية: تَحْذِيرُ المؤمنين من أن يَنْفِروا للقتال جميعاً، حَتَّىٰ لا يتعرّضوا لاحتمال الاستئصال إذا هُزموا بل عليهم أن يُقَسِّمُوا أنفسهم إلى نافرين خارجين للقتال، ومقيمين مرابطين في ديارهم، وهذا يكون ضمن تخطيط القيادة.

فإذا تعرّض النافرون الخارجون إلى القتال لمصيبة كبيرة في أنفسهم، أو عتادهم، كان المقيمون المرابطون بمثابة مخازن القوة، التي تُمِدُّ بالْقُوَىٰ تِبَاعاً، جيشاً بعد جيش.

وحين يرجع النّافرون منصورين أو غير منصورين، فإنّهم يقدّمون للمقيمين المرابطين ما استفادوه من فقه القتال جهاداً في سبيل الله الذي هو من الدّين، حول قوى أعدائهم، وطرائقهم وأساليبهم في القتال، وليُبَيِّنوا لهم ما يجب عليهم أنْ يَحْذَرُوه، ممّا شهدوه في خروجهم، واكتسبوه من خِبْرات، ولِيُنْذِرُوهم بأن يُبَيِّنُوا لهم مواطن الخطر التي تعرّضوا لها، أو اكتشفوها، ومراكز قوى الأعداء، ومدىٰ ما تحتاج إليه من قُوىً مضادّة.

القضيّة الثالثة: وصيّة الله للمؤمنين بأن لا يَنْتَقِلُوا إلى قتال أعداء بعيدين عن ديار الإسلام حتّى ينتهوا من قتال الذين يلونهم في ديارهم أوّلاً بأوّل، فكلّما انْتَهَوْا منْ قِتالِ قوم وصارت أرضهم ضِمْنَ رقعة ديار الإسلام، حَسُنَ في تدابير الخطط الحربيّة أن ينتقلُوا إلى قتال الذين يلونهم من الأعداء، وهكذا.

فإذا لم يتّبعوا هذه الوصيّة تعرّضوا لِوُجود ثغرات عدُوّةٍ كافِرَةٍ ضمْن رقعة الـدولة الإسلامية، التي تتوسّع دائرتها شيئاً فشيئاً، وجَرَتْ لهم هذه الثغـرات متاعب كثيـرة، ومشكلات خطيرة، تُفسِد عليهم في الـداخل، وتُفْسِـدُ عليهم خطط تـوسيع دائـرة ديار الإسلام، وربّما جاءَتْهم النكبات من وراء ظهورهم، ومن خلال دائرة دِيارِ الإسلام.

* * *

التـدبُّـر

تدبُّر ما جاء في هذا العِقْد حول القضية الأولى:

* قول الله تعالى:

﴿مَاكَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ... ﴿١٢٠﴾﴾.

كانت المدينة في عصر الرسول ﷺ هي عاصمة الإسـلام والمسلمين، فسُكّانُهـا هم الـدِّرْع اللُّصِيقُ للإسـلام وللدولة الإسـلاميـة وقيـادتهـا، وكـانت القبـائـل العـربيـة المستوطنة أو المتنقلة حول المدينة ظِهارَةَ الدِّرْعِ اللُّصِيق لهذه العاصمة.

لـذلـك كـانت مسؤوليّة هؤلاءِ وهؤلاءِ تُجاهَ حِمَايـة الإسـلام ودولتـه مسؤوليّـةً مُضاعفَةً، فلا يُتَصَوَّرُ منهم أن يتخلّوا عن هذه المسؤوليّة أو يُقصِّـرُوا فيها، مـا داموا هم بطانةَ درع حماية الإسلام ودَوْلَتِه وَظِهَارَتها، إذا كانوا مؤمنين مسلمين حقّاً، والمفروض فيهم أن يكونوا صفوةَ المؤمنين المسلمين، وأنْ يكونـوا تجاه مسؤوليـة حمايـة عاصمـة الإسلام ودولته من أهل مرتبة الإحسان جهاداً وتضحيةً وفداءً، لا أنْ يكتفوا بـأن يكونـوا من أهل مرتبة المتقين فقط.

إنّ شَرَفَ الإقامة في عاصمـة الإسلام والمسلمين، وشـرفَ الإقامة في الأسورة المحيـطة بها، يَتَطَلَّبُ منْهُمْ أن يتحمّلوا أعباءً إضـافيّةً هي فَـوْقَ أعبـاء مـرتبـة المتقين العادِيِّين من أهل الإيمان، فتَقْصيرُهُمْ في واجب الإحاطة بالرسول إذا خرج مقـاتِلاً في سبيل الله، أو في واجب الإحاطة بأمير المؤمنين من بعده إذا خرج مقاتِلاً في سبيل الله،

ليس كتقصير المؤمنين الآخرين، من سُكّان الأماكن البعيدة عن العاصمة الإسلامية وما حولَهَا من نُزلَاءِ الأسْوِرَةِ المحيطة بها.

فمن لم يستعِدّ أن يكون في هذا المجال من المحسنين، فعليه أن يتّخذ إقامَةً أخرى بعيداً عن عاصمة الإسلام ودولته، وبعيداً عن المنازل المحيطة بها، التي هي أسْوِرَةُ حمايتها.

ولكنّ هذه المسؤوليّة الإضافيّة لها عند الله عزّ وجلّ ثوابٌ مضاعفٌ يتناسَبُ مع أجْرِ المحسنين، واللّهُ لاَ يضيع أجر المحسنين.

فالذي نفهمه من عبارة:

﴿مَاكَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ...﴾.

هو: مَا كان مُسْتَحَقاً لأهْلِ الْمدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ من الأعْرابِ تَخَلُّفُهُمْ عن رسول الله إذا دعاهم إلى الخروج معه مقاتلين في سبيل الله، على مثل دعوته إيّاهم إلى الخروج لغزوة تبوك، وهذه القيود تُفْهَمُ من القرائن التي جاءت في سوابق النصّ.

اسم «كان» هو المصدرُ المؤوّل من عبارة: ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا﴾ وخبَرُهَا مُتَعلّقُ ﴿لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ﴾ وهذا المتعلّقُ المحذُوفُ يُفْهَمُ من معنى حرف الجرّ ﴿لأَهْلِ﴾ وهو الاستحقاق، وقُدِّمَ خبَرُ «كَانَ» على اسْمِها للإشعار بالاهتمام ببيان عدم الاستحقاق هذا.

وهنا نلاحظ أنّ نفي الكينونَةِ الدائم لهذا الاستحقاق يدلُّ على النهي عن التخلّف بأبْلَغَ مِنْ عبارةِ النهي عنه في مثل: يا أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب لاَ تتخلّفوا عن رسول الله، وذلك لأن نَفْيَ وُجود فعْلِ الشَّيْءِ مِنْ مَوْصُوفٍ بوصف ما أَبْلَغُ مِنْ نَهْيِهِ عنه، وأدَلُّ على التلازم بين وجود هذا الوصف وانتفاء هذا الفعل، فدِرْعُ عاصمة الإسلام ودولته، في بطانتِهِ وظِهَارَتِه، لا يُتَصَوَّرُ مِنْ أفراده أن يتخلَّفُوا عَنْ قائِدِهِمْ إذا دعاهم إلى الخروج معهم مُقَاتِلين عدُوَّهم.

إنّ لكلّ دولةٍ درعاً بشَرِيّاً يتحمّل أعظم العبء، ويضطلع بأكبر مسؤوليات الحماية والدفاع والحراسة. وعاصمةُ دولة الإسلام والمسلمين لا بدّ أن يكون جميعُ

سُكّانها وكذلك نُزَلاءُ ما حَوْلَها هم الدرع القويّ البشريّ الدائم لها، ومتى وَهَنَ هذا الدِّرْعُ تعرضت دولة الإسلام والمسلمين للانهيار، وطمع بها أعداؤها الكثيرون، وأسقطوها.

وقوله تعالى:

﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾:

معطوفٌ على جملة:

﴿أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾:

أي: وما كانَ لهم أنْ يَرْغَبُوا بأنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِه، وما كان لَهُمْ أن يُفَضِّلُوا أَنْفُسَهُمْ بالسلامة والأمن والراحة على نَفْسِه.

يقال لغة: رَغِبَ فُلانٌ بنَفْسِهِ عَنْ فُلَانٍ، إذا رأى لنفسه فضلاً عليه في الأمر الذي رَغِبَ بنفسه عنه، فلم يُرِدْه لنفسه، وترك غيره يحمل المسؤولية وحده.

فعل: «رَغِبَ» يستعمل بوجهين: فيقال: رَغِبَ في الشيء، إذا أرادهُ أ طمع فيه ومال إليه. ويقال: رَغِبَ عَنِ الشيء، إذا لم يُرِدْه، أوْ زَهِدَ فيه، أوْ تَرَكَهُ مُتَعَمِّداً.

وأبان الله عزّ وجلّ السبب الداعي إلى أن يحرص أهل درع عاصمة الإسلام والمسلمين على أن لا يتخلّفوا عن رسول الله إذا خرج مقاتلاً في سبيله، ودعاهم إلى الخروج معه، وأن لا يتخلفوا عن أمير المؤمنين من بعده إذا دعاهم إلى ذلك، قياساً على حالة عصر الرسول، أنّ أجرهم عظيم جدّاً، فهم يثابون على كلّ ما يُصيبهم من ظمأ ونَصَبٍ ومَخْمَصة في سبيل الله، وكلّ ما يَطَؤون من موطىء يغيظ الكفار، وكلّ مَا يَنالُون من عدوٍّ من نيل، إذْ يُكتب لهم بكلّ صغير من ذلك وكبير عَمَلٌ صالحٌ، ويُثَابُونَ عليه ثواب المحسنين، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً

وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾:

المشارُ إليه عدم تخلّفهم عن رسول الله وعدم رغبتهم بأنفسهم عن نفسه.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾:

أي: بسبب أنهم على يقين بأنهم مجزيّون جزاءً عظيماً، هو من نوع جزاء المحسنين، وهو ما جاءت الإشارة إليه بتفصيل ما يُصيبهم في خروجهم، أو يكون منهم من عمل.

﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾:

أي: مهما كان ظمأً قليلاً.

﴿وَلَا نَصَبٌ﴾:

أي: ولا إعياءٌ أو تعبٌ مهما كان قليلاً.

النُصَبُ في اللّغة: الإعياءُ والتَعَبُ، يقالُ لغة: نَصِبَ يَنْصَبُ نَصَباً، إذا تَعِبَ وأعْيا.

﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾:

أي: ولا جوع ناشىء عن خلوّ البطن من الغذاء، يُقال لغة: خَمَصَ الْبَطْنُ يَخْمُصُ خَمْصاً وخُمُوصاً ومَخْمَصَةً إذا خَلا وضَمُرَ، وهو من العلامات الظاهرة الدالة على الجوع.

﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾:

في الخروج جهاداً في سبيل الله، وسبيل الله يكون بأمرين: بابتغاء مرضاته، وبالتزام المنهاج الذي حدّده لطاعته وسلوك عباده في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾:

وَطْءُ الشَّيْءِ: دَوْسُهُ بالقدم، أي: ولا يضعون أقدامهم على موضعٍ يغيظُ الكفار

أنْ يضع المؤمنون أقدامهم عليه، أو تضع دوابهم أو مراكبهم ما هو منها بمنزلة الأقدام.

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾:

أي: ولا يحصلون من عدوٍّ على غنيمة أو يُنْزِلُونَ به مكروهاً.

يقال: نَالَ مِنْ عَدُوِّهِ يَنَالُ نَيْلاً إذا أصابَ منه شيئاً فَهُوَ نائلٌ. ونَالَ يَنَالُ مِنْ عدُوِّهِ إذا وَتَرَهُ في مالٍ أوْ شيءٍ، كُلُّ ذلِكَ مِنْ نِلْتُ أَنَالُ، أي: أَصَبْتُ، وأدْرَكْتُ.

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾:

أي: لا يكون منهم شيءٌ ممّا سبَقَ مهما صغُر إلّا كُتِبَ لَهُمْ به عند الله عَملٌ صالح، والمراد كتابة ذلِكَ لِمَن اتّصف به من المؤمنين المجاهدين في سبيل الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

في هذه الجملة دلالَةٌ على أنّ الخروج إلى القتال على ما جاء بيانه سابقاً، هو من أعمال مرتبة الإحسان، وهي أعلى مراتب المؤمنين، ومع أنّها من أعمال مرتبة الإحسان التي لا تجب على عموم المؤمنين فهي من واجبات المختارين لأن يكونوا درع عاصمة دولة الإسلام والمسلمين.

أمّا عموم المؤمنين الذين ليس لهم امتياز خاص بأشخاصهم، أو مُهِمّاتهم، أو بيئاتهم فإنّهم لا يطالبون إلزاماً إلّا بفعل الواجبات وترك المحرّمات، التي تقع في حدود مرتبة التقوى، فإذا زادُوا عليها من نوافل الأعمال الصالحة كانوا من الأبرار، وربّما ارتَقَوْا إلى مَرْتبة المحسنين، إذا وصلوا إلى حالة: أنْ يَعْبُدُوا الله كأنهم يرونه.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾

أي: في خروجهم مجاهدين في سبيل الله.

يلاحظ في أسلوب القرآن أنّ عبارة التعميم الّتي يؤتَى بها للدلالة على أنّ الإحْصاء يَشْمَلُ الأشْيَاء صِغَارَهَا وكِبَارَهَا، يأتي فيها البدء بالصغير، وبعده يأتي ذكر الكبير، وهذا من الأساليب المعتادة الدارجة على ألسنة فصحاء العرب، والحكمة في ذلك توجيه الاهتمام إلى ذكر ما قد يُتوهَّمُ أنّه لَا يَشْمَلُه الإحصاء، قبل ذكر غيره، لِئَلّا يسبق إلى ذهن المخاطب احتمال التغاضي عن الأشياء الصغيرة وإهمالها لدى

الإحصاء، فإذا سبق مثل هذا إلى الوهم كان البيان اللّاحق يحتاج تأكيداً لإزالة ما سبق إليه التوهم، بخلاف ما لو ذُكر أوّلاً، فإنّه يحصل به العِلْمُ على صفحة بيضاء لم تتعرّض لغبش توهم مخالف، أمّا بدء الإعلام بإحصاء الصغير، فإنّه يعطي دلالة لزومية عقلية على أنّ الكبير داخل في الإحصاء حتماً، ويأتي البيان ناصّاً بالعبارة على ما فُهِمَ ذِهْناً، وهكذا يكون الأسلوب البياني ملائماً لمقتضيات الحكمة في مُراعاة حالة النفس الإنسانية.

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾:

أي: في رحلتهم الجهادية.

الوادي: كلُّ ما انفرج بين الجبال، أو التّلال.

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾:

أي: لا يكون منهم عملٌ ـ مهما قلّ ـ ممّا سبق إلّا كُتِبَ لَهُمْ عَمَلاً صالحاً، وذلِكَ لأنّه لا يُكْتَبُ لمن هو في الامتحان إلّا العملُ الصالح، أمّا العمل السّيّىءُ فإنّهُ يُكْتَبُ عَلَيْهِ لا لَهُ، وأمّا العمل الذي لا يدخل في الأعمال الصالحة ولا في الأعمال السيئة فإنّه لا يُكْتَبُ لَهُ وَلَا عليه.

ويتساءل المتدبّر: لماذا يكتبُ لهم ذلك؟

وَيأتي الجواب القرآني بقوله تعالى:

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لِيَجْزِيَهُمْ﴾:

أي: لِيُكافِئَهُمْ وَيُثِيبَهُم.

والمعنى: لِيَجْزِيَهُمُ الله فَيُعْطِيَهُم أَجْرَ أَحْسَنِ مَا كَانُوا يعملون من أَعْمَالٍ صالحة، لأنها هي التي تبقىٰ في صحائف أعمالهم التي يُجْزَوْنَ عليها.

ودلّت هذه الجملة بلوازمها الفكرية على أن الغرض من جعل كلّ حركة من حركاتهم ضمن أعمالهم الصالحة، منذ خروجهم مجاهدين في سبيل الله حتى

عودتهم، أو استشهادهم، تَكْثِيرُ ما هُوَ ذُخْرٌ لهم من الأعمال الصالحة، وعند الحساب تمحو الحسنات العاديّة سيئاتهم، فتكون هذه بهذه، فلا يَبْقَى في الذخيرة إلّا أَحْسَنُ ما كانوا يعملون، فيجزيهم اللّهُ فيعطيهم أجر أَحْسَنِ ما كانوا يعملون.

* * *

تدبُّر ما جاء في هذا العقد حول القضيّة الثانية:

* قول الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

النَّفْرُ: مفارقة مكان الإقامة بسرعة ضرباً في الأرض على سبيل السّفر والارتحال، ويُستعْمَل كثيراً بمعْنىٰ الخروج للجهاد والقتال في سبيل الله، وهو المراد هنا في هذه الآية.

والقضية التي دلّت عليها هذه الآية، تتضمّن تعليماً لقادة المؤمنين، الذين يملكون إصدار قرارات القتال في سبيل اللّهِ، حينما تقضي مصلحة الإسلام والمسلمين بذلك، فتُبَيِّنُ لهم منهج الحكمة الّذي عليهم أن يَتَّبِعُوه لدى توجيه أوامرهم بالخروج إلى القتال.

ومنهج الحكمة الذي يوصيهم الله به، أن لا يُوَجِّهوا الأمر بأن يَنْفِرَ كافَّةُ المؤمنين للقتال في سبيل الله، لِئَلّا يتعرّضوا لاحتمال الاستئصال إذا هُزِمُوا، وأن يقتصر الأمر على تكليف أو نَدْبِ طائفةٍ منهم تقضي المصلحة العامّة بتكليفها إِلْزاماً، أو نَدْبِهَا تَطَوُّعاً.

ويوصيهم الله بأن يُخصِّصوا للخروج عدداً أو مقداراً ما من كلِّ فرقةٍ من فِرَقِ المسلمين الطبيعيّة، يكون هذا المقدار هو الطائفة المحدّدة من الفرقة.

ـ فمن فرقة العمّال الصناعيين طائفة.
ـ ومن فرقة الزرّاع طائفة.
ـ ومن فرقة التجّار طائفة.

- ومن فرقة المهندسين طائفة.
- ومن فرقة الأطباء طائفة.
- ومن فرقة الفقهاء في الدّين والدعاة إلى سبيل ربّهم طائفة.

وهكذا إلى سائر الفرق في الأمّة بحسب مهنها واختصاصاتها العلميّة والعملية.

وهذه الطائفة تُخْتَار بالنسبة المئويّة من فرقتها، أو تُعَيَّنُ بِعَدَدٍ مُحَدَّدٍ من فرقتها، وَفْقَ مقتضيات مصلحة الأمة، النافرين وغير النافرين، ويُعَيِّنُ ذلك من يَمْلِكُ صُنْع القرار وإصدار الأوامر الحربيّة والسياسية والإداريّة في الأمّة.

وفي تخصيص طائفةٍ من كلِّ فرقةٍ مصلحتان كبريَان:

المصلحة الأولى: المحافظة على بقاء قاعِدَةٍ من كلِّ فرقةٍ في الأمّة، لا تتعرّض لاحتمال الاستئصال.

المصلحة الثانية: الاستفادة من تخصّص الطائفة النافرة في أعمال الجهاد المختلفة، وفي اكتساب المعلومات الجديدة التي تكتسب بالممارسة العلميّة التي يمارسها الخارجون، فما يُدْرِكُه أهل الاختصاص لا يدركه غيرهم من أمور ومعارف في التجارب والملاحظات، ولو عن طريق الاستفادة ممّا توصّل إليه الأعداء من أسلحة، ومعارف، وأساليب حربية يمكن الاستفادة منها شرعاً.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾:

أي: ليس من شأن المؤمنين العاملين بوصايا الله أن ينفروا للقتال في سبيل اللّهِ جميعاً نَفْرَةً واحِدَةً. اللام في ﴿لِيَنْفِرُوا﴾ هي لام الجحود، لوقوعها بعْدَ كَوْنٍ منفيّ.

﴿كافَّةً﴾: أي: جميعاً.

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾:

أي: فهلاّ خرج للقتال إذا دعا داعي القتال من كلّ فرقة من فرقهم الاجتماعية بحسب مِهَنها وتخصُّصاتها طائفةٌ محدّدة بعَدَدِها، أو بالنسبة المئوية من فرقتها، لولا: هنا حرف تحضيضٍ بمعنى «هلاّ».

وظاهر أنّ مثل هذا إنّما يكون بتـدبير أولي الأمـر الذين يملكـون صُنْع القـرارات وإصـدار الأوامر، وهم مكلّفـون أن يراعـوا مصالـح الإسلام والمسلمين بشكـل عـامّ، وليس الأمر متروكاً لاختيار الأفراد بصورة فوضوية.

﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾:

أي: لِيَتَفَقَّهُوا عن طريق التجارب والممارسات العملية، والملاحظات، في أمور القتال والحرب من مختلف الجوانب، كالأسلحة، وفنون القتال، وطرائق الأعداء فيها، وجغـرافية الأرض، والمنـاخ الذي تجـري فيه المعـارك، وكلُّ مـا يمكن أن يُفِيد الأمّـة الإسلامية من قديم أو جديـد، فهذا من التفقـه في الدين، وذلـك لأن القتال في سبيـل الله هو من الدّين، فكل معرفة تكتسب عن طريق الخبرة والتجربـة والملاحـظة ولو عن طريق الأعداء المحاربين هو من التفقه في الدين، والتفقه: هو الفهم الدقيق العميق.

﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾:

أي: وبَعْدَ أن يتَفَقَّهوا في الأمور التي سبق بيانها ـ والّتي هي من الدّين، لتعلّقها بالجهاد في سبيـل الله الذي هـو من الدّين، وظـاهر أنّ استفـادَتَهَا إنّـمـا تكُونُ بـالخِبْرَةِ والْمُمَارَسَةِ والملاحظةِ الدَّقيقة، ومعلومٌ أنّ معارف من هذا القبيل تتجدُّد وتتطوّر دواماً ـ بعد أن يتفقهوا في ذلك يقومـون بوظيفـة إعْلامِ قـومهم بما تـوصَّلُوا إليه من معلومـات يُعْتَبر الجهل بها ثُغْرَة خـطرٍ علىٰ الإسلام والأمّـة الإسلاميـة، فإعْـلامُهُمْ بها هـو بمثابـة الإنذار لهم بمواطن الخطر، ويكون ذلك بعد رُجوعهم من رحلة النَّفْرِ إلى قومهم.

وحين يعلم قَوْمُهُمْ بوجه عامّ ما توصّل إليه كلُّ ذوي اختصاص في اختصـاصهم، يُرْجَىٰ من جميع القوم أن يحذروا مواطن الخطر، فيتخذوا الوسائل والأسبـاب المضادّة الواقية من جهةٍ، والكفيلة من جهةٍ أُخرى بإحبـاط وسائل الأعداء، ويتخـذوا الوسـائل والأسباب التي يُرْجَىٰ منْها تحقيق النّصر ممـا يباغتـون الأعداء بـه. ويضطلع بمُهمـات اقتراح الوسائل والأسباب الواقية والتي يُرجىٰ منها تحقيق النصر أولو الأمر المختصون، بحسب اختصاصاتهم المختلفات.

فقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾: أي: رجـاء أن يتّخذوا وسـائل الحمـاية التي

يدعو إليها الحذر، والمعنى: لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم رجاء حذرهم، فإذا حذروا اتخذوا وسائل الحماية.

وجاء في الآية استعمال حرف الشرط ﴿إِذَا﴾ للإشعار بأنّ رجوع معظم النافرين سالمين، متفقهين في شؤون الحرب المختلفة التي هي من الدين، هو الأمر المحقّقُ بمعونة الله وتسديده وتوفيقه إذا كانوا مؤمنين حقّاً.

* * *

تدبُّر ما جاء في هذا العِقْدِ حول القضيّة الثالثة:

* قول الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

في هذه الآيات ثلاث وصايا ربّانيّة للذين آمنوا:

الوصية الأولى: أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار، وهم الأقربون إلى حدود بلادهم.

الوصية الثانية: أن يكونوا أشداء في قتال الكفار شدّةً يجدُ فيها الكفارُ أنّ المؤمنين غِلَاظٌ في قتالِهِمْ، أي: قُساةٌ عَنيفُون لَيس فيهم رِقّةٌ ولا لِينٌ، لذلك فلا يَسْهُل الانتصار عليهم، والغلظة مذمومة في المعاملات والمعاشرات، لكنّها في القتال محمودة جدّاً، لِأنها إحدى وسائل تحقيق النصر، وبها ترتفع معنويّات المقاتل، وتتخاذل وتضعف معنويات عَدُوّه.

الوصية الثالثة: الالتزام بتقوى الله في السّلم والحرب، فإذا اتّقوهُ كان الله معهم معيناً ونصيراً.

* * *

تدبُّر ما جاء في هذه الآية حول الوصية الأولى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾.

في هذه الجملة أمْرٌ من الله للّذين آمنوا بأنْ يبدؤوا حين يقاتلون الكفّار بقتال الأقرب فالأقرب إليهم منهم.

يقال لغة: وَلَاهُ يَلِيهِ ولْياً، وَوَلِيَهُ يَلِيهِ وَلْياً، إذا دنا منه وقَرُبَ.

هذه الوصيّة الرّبّانيّة من اللّهِ للمؤمنين تلزمهم بأن لا ينتقلوا في عمليّات قتال الأعداء من الكفار إلى قتال الكفّار البعداء، حتّى ينتهوا من تصفية مشكلاتهم مع الأعداء الأقربين إليهم المجاورين لحدود أرضهم وبلادهم، حتّى تصير أرض هؤلاء القريبين وبلادُهم ضمن دائرة دار الإسلام.

هذه الوصيّة تتضمّن قاعدة عظمىٰ من قواعد السياسة الحكيمة، في إعداد الخطط الحربيّة المستقبليّة، ضدّ أعداء الإسلام المنتشرين في طول الأرض وعرضها.

فالواجب أوّلاً تحديد خريطة الأرض التي تقع تحت سلطان الدولة الإسلامية تحديداً دقيقاً، وتحقيق الأمن الداخليّ ضمن حدود هذه الخريطة، ثمّ تجميع القوّة تحت رايةٍ إداريّة قياديّة واحدة، ثمّ النظر إلى خطط مدّ حدود خريطة أرض الدولة الإسلامية داخل بلاد الكفار وأرضهم شيئاً فشيئاً، بالبدْءِ بالأقرب من الكفار الذين تلاصق حدودُ أرضهم حدودَ أرض الإسلام والمسلمين.

وتقضي الحكمة بالبدء بالّذين هم أقربُ مَنالاً من الذين لهم مع أرض المسلمين حدودٌ مُتَلَاصِقَة، لسهولة التغلّب عليهم، والتخلّص من مشكلتهم، ولإلقاء الرّعب في قلوب الآخرين، ذوي الحدود الملاصقة، ممّن هم أشدّ قوةً، وأعظم بأساً، وأكثر عَدَداً ومَدَداً.

وقد طبّق الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده هذه السياسة الحكيمة، التي أوصى الله بها، فمنحهم باتباعها فتحاً عالميّاً عظيماً.

لقد بدأ الرسول ﷺ بعد أن استقرّت له العاصمة الإسلامية في المدينة وما حولها، بقتال الذين أخرجوه من بلده أوّلاً، وهم مشركو مكة، ثمّ انتقل شيئاً فشيئاً إلى سائر المشركين في جزيرة العرب، على طريقة الدوائر التي تنداح باتّساع في بحيرة الماء إذا رميْتَ في الماء حجراً، حتّى إذا فتح الله عليه مكة والطائف واليمامة وسائر نجد وحضرموت واليمن وهجَر وخيبر ومعظم الأقاليم الواقعة تحت سيطرة العرب من

شبه الجزيرة العربية، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً، شرع الرسول ﷺ في قتال أهل الكتاب، فتجهّز لغزو الروم، الذين هم أقرب الكفار إلى دار الإسلام يومئذٍ، وهم محتلّون أقاليم من أقاليم شبه جزيرة العرب يومئذٍ، وانطلق بالمسلمين في غزوة تبوك، لقتال الروم عند أقرب حدود لهم مع أرض العرب التي أصبحت ضمن دائرة دار الإسلام والمسلمين يومئذٍ.

وقام أبو بكر رضي الله عنه في خلافته بتوطيد دعائم الدولة الإسلامية داخل دار الإسلام، إذ بدأت تختل بالمرتدين ومانعي الزكاة بعد الرسول ﷺ، ولمّا توطّد له الأمر، شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية لغزو الروم عَبَدَةِ الصُّلْبان، ثمّ إلى غزو الفرس عَبَدَةِ النيران، وفتح الله عليه البلدان فتحاً مبيناً.

وقام بعده عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فأطلق جيوش الفتح الإسلامي ملتزماً هذه السياسة الرّبّانية، ومكّنه الله من الاستيلاء على ممالك كثيرة شرقاً وغرباً وشمالاً.

وقام بعده عثمان بن عفان رضي الله عنه، فأظهر الله به الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وكان المسلمون كلّما علَوْا أمّة انتقلوا إلى ما بعدهم، ثمّ الذين يلونهم من الكفار، تطبيقاً لقاعدة:

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾.

وقام بعده الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فسار على سياسة توطيد دعائم الدولة في الداخل، والأخذ بسياسة البدء بالأقرب فالأقرب.

* * *

تدبُّر ما جاء في هذه الآية حول الوصية الثانية:

﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾.

أي: ولْيَجِدِ الكُفّار في قتالكم لهم غِلْظَةً.

الغِلْظَةُ: الشدّة، والعنف، وقوة البأس، ومجافاةُ كلِّ رقّةٍ ولين.

هذه الغلظة صفة محمودة في حالة القتال فقط، وهي مذمومة في غيرها، لذلك كان من صفات المؤمنين ما يلي:

(١) أنّهم أشداء على الكفار رُحماءُ بينهم.

(٢) أنّهم أهل حكمة ورقّة في الدّعوة إلى الله.

(٣) أنهم في الجدال يجادلون بالّتي هي أحسن.

(٤) أنّهم يتألفون قلوب الناس بالتودّد والعطاء ولو من زكوات أموالهم.

(٥) أنهم لا تحملهم عداوتهم للكافرين على ترك معاملتهم بالحقّ والعدل.

إلى غير ذلك من فضائل الأخلاق، ومكارم الشيم.

* * *

تدبُّر ما جاء في هذه الآية حول الوصية الثالثة:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾.

أي: واتّقوا الله دواماً في السّلم والحرب، حتى يكون الله معكم معيناً ومُمِدّاً وناصراً، لأنّ الله مع المتقين، ومن كان الله معه فإنه يجد من معية الله له تأييداً ونصراً وتسديداً وتوفيقاً.

وإذا كان الله مع المتقين، فإنّه مع الأبرار من باب أولى، وإنّه مع المحسنين من باب أولى فوق ذلك، لأنّ مرتبة المحسنين هي أعلى مراتب المؤمنين.

وقد جاء في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا والَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ـ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ـ إِنّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِين ـ واللَّهُ مع الصَّابرين ـ واعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ المتقين﴾.

ونلاحظ أنّ قول الله تعالى في الآية:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾.

قد أغنى عن التصريح بقوله: «واتّقُوا الله» فهذا القول مطويٌّ في اللّفظ دلّ عليه الجملة الْمُصَرَّحُ بها في الآية.

ونظير هذا الطي كثير في القرآن المجيد، وهو من الإيجاز، الذي يدخل في عناصر الإعجاز.

• • •

الْعِقْدُ السَّادِسُ

بيان موقف المنافقين تجاه
ما كان ينزل من القرآن تباعاً
في مقابل موقف المؤمنين

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ
رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ
عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ
نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

* * *

* قرأ جمهور القرّاء العشرة: [أَوَلَا يَرَوْنَ] بياء الغائب.

وقرأ يعقوب البصري وحمزة الكوفي: [أَوَلَا تَرَوْنَ] بتاء الخطاب.

وفي هاتين القراءتين تكامل بياني، فقراءة الجمهور تتحدّث عن المنافقين بأسلوب الحديث عن الغائب، وقراءة يعقوب وحمزة فيها توجيه الخطاب للمؤمنين مبيّنةً لهم حال المنافقين، وفي كلا القراءتين إعراضٌ عن مواجهة المنافقين بالخطاب، إهانةً لهم في آخر بيان قرآنيٍّ يَتَعلَّقُ بهم.

مقدمة عامة
قبل تَدَبُّر فقرات هذا النص

منذ بداية العهد المدنيّ من حياة الرسول ﷺ، أو قُبَيْلَهُ بقليل، والمنافقون يتعرّضون لامتحانات متتابعات، كانت لهم فيها مواقف باطنة وظاهرة من سلوكهم النفسيّ والظاهر، هي من آثار كفرهم الذي يكتمونه، ونفاقهم الذي يخادعون به، وكانت البيانات القرآنية تُتَابع مواقفهم هذه، فاضحة لما يكتمون، وواعظة، ومحذّرة ومنذرة.

ودلّتنا الدراسة القرآنية للنصوص التي نزلت لنا بشأن المنافقين، على أنها بلغت أربعة وثلاثين نصّاً، منها الموجز، ومنها المطوّل والمفصل كالذي في سورة (التوبة) والذي في سورة (المنافقون)، وجاءت هذه النصوص في ست عشرة سورة وهي ما يلي:

(١) العنكبوت: وهي من أواخر التنزيل المكي.
(٢) البقرة: الأولى من التنزيل المدني.
(٣) الأنفال: الثانية من التنزيل المدني.
(٤) آل عمران: الثالثة من التنزيل المدني.
(٥) الأحزاب: الرابعة من التنزيل المدني.
(٦) النساء: الخامسة من التنزيل المدني.
(٧) الحديد: الثامنة من التنزيل المدني.
(٨) محمد: التاسعة من التنزيل المدني.
(٩) الحشر: الخامسة عشرة من التنزيل المدني.
(١٠) النور: السادسة عشرة من التنزيل المدني.
(١١) المنافقون: الثامنة عشرة من التنزيل المدني.
(١٢) المجادلة: العشرون من التنزيل المدني.
(١٣) التحريم: الحادية والعشرون من التنزيل المدني.
(١٤) الفتح: الخامسة والعشرون من التنزيل المدني.

(١٥) المائدة: السادسة والعشرون من التنزيل المدني.
(١٦) التوبة: السابعة والعشرون من التنزيل المدني.

واقتضت الحكمة في آخر بيانٍ قرآنيّ يتعلّق بهم، أن يكشف الله مواقفهم تجاه هذه الامتحانات، التي تعرّضوا لها طَوال العهد المدني، حتّى نزول سورة (التوبة) آخر سورة قرآنية نزلت قبل سورة (النصر ــ ذات الآيات الثلاث) وتجاه البيانات الفاضحات والبيانات الواعظات والمحذّرات المنذرات.

إنّ هذا الصبر الطويل عليهم مع المتابعات الدالّات على صدق الرسول وصدق القرآن في كشف خبايا نفوسهم، وما كانوا يعملون من أعمال سرّية ضدّ الإسلام والرسول والمؤمنين الصادقين، قد كان كافياً لأن يكون دافعاً لهم في اتّجاه الإيمان، حتّى يتخلّصوا من مرض النفاق الذي ملأ جوانب قلوبهم حتّى أفسدها، وأن يساعدهم على أن يتحوّلوا شيئاً فشيئاً إلى الإيمان، وأن يتوبوا ممّا هم فيه من كفر ونفاق ولوازمهما وَظَواهرهما في السلوك، بل كان زائداً عن حاجة العلاج الدوائي الذي من شأنه أن يُصْلح أشدّ مرضى القلوب، لو كان لديهم استعداد إراديّ لاستبصار الحقّ ببراهينه وأدلّته، وقبوله والاستجابة لنداءاته، وطاعة أوامر الله ورسوله ونواهيهما.

لكنّهم بسبب نظرهم إلى ظاهرٍ من الحياة الدنيا في سطوحها الخادعة، وبسبب تشبّثهم بزينتها، وسيطرة أهوائهم وشهواتهم على إراداتهم، قد كانت أفكارهم منغلقة لا تفقه حقائق الأمور، ولا تدرك شيئاً من الامتحانات التي توالت عليهم، وما استتبعت من بيانات، ولا سيما كبريات هذه الامتحانات التي كانت تأتيهم في كلّ عامٍ مرّةً أو مرّتين.

إنّ كلّ البيانات الفاضحات والمواعظ والتحذيرات والإنذارات لم تكن لتَدُلَّهم على أنّ القرآن حقٌّ من عند الله، وأنّ الرسول هو رسول الله حقّاً وصدقاً، بل كانت تزيدهم فيما هم فيه من رجس الكفر وقبائح السلوك ورذائل النفاق.

إنّ من اتّخذ باختياره الحرّ الوسائل المؤدّية إلى طمس بصيرته، لا يكون مستعدّاً لاستقبال البيانات والمواعظ التي تنصحه بأن يترك الطريق الذي سلكه، ووجد فيه

هوى نفسه، وبعض لذّاتها، مهما اقترنت هذه البيانات والمواعظ بالبراهين القاطعة، والحجج الدامغة المقنعة.

هذه هي سنة الله التي فطر النفوس عليها، وهكذا كان حال هؤلاء المنافقين، وهو على الضدّ من حال المؤمنين الصادقين.

* * *

التدبُّر

* قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

في هذا النصّ عَوْدٌ للحديث عن المنافقين، وهو آخر حديث عنهم نزل في القرآن، وهو يُبيِّن قصة موقفهم الّذي تكرّر تجاه المتكرّر من نزول سُوَر القرآن.

لقد كَانَ موقفهم أنّهم إذا ما أُنزِلَتْ سُورةٌ جديدة من سُوَر القرآن، تحدّث بعضهم قائلاً على سبيل الاستهزاء أو الاستخفاف بها: أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذه السورة الجديدة إيماناً؟

أي: أيُّكُمْ زادته إيماناً بأنّ محمداً رسولُ الله حقّاً وصِدْقاً، وأنّ هذا الكلام مُنَزَّلٌ منْ عند الله حقّاً وصِدْقاً؟

والمعروف من أسلوب المنافقين المعتاد، أنَّهُمْ يوجّهون مثل هذا القول في المجالس العامّة، الّتي يكون فيها مؤمنون ومنافقون، عند حدوث أشياء جديدة لا يؤمنون هم بها.

والذي يدعوهم إلى مثل هذا القول النفورُ الْحَذِر، إنَّهُمْ بعوامل الكفر يشمئزّون، ويُريدون أن يُعبّرُوا عن اشمئزازهم بأنّ هذه السّورة الجديدة لم تورثهم إيماناً، ولم تُغيّرْ من كُفْرِهِمْ شيئاً، وهم بعوامل الحذر من انكشاف نفاقهم يحاولون أن يُلْجِمُوا ألسنتهم

عن مقالاتٍ تكشف كفرهم ونفاقهم، وتضغط في نفوسهم ضواغط الرغبة في التعبير عن مشاعرهم، فيخاطبون الحاضرين في المجلس بقولهم: أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ السُّورَةُ إيماناً؟ وقد يقصدون التأثير بها على ضعفاء الإيمان.

أمّا عامّة المؤمنين فلا يتفكرون في تحليل نفوس أصحاب هذه المقالة، وقد يُحْسِنُونَ الظنَّ بِهِمْ، وقد يتحدّث بعضهم عن بعض جوانب من السورة الجديدة ازدادوا بها إيماناً.

وأمّا فُطَناءُ المؤمنين فيُدْرِكُونَ ما وراء إطلاق هذا التساؤل من عوامل نفسيّة، مُنْكِرَةٍ لكلّ ما نزل من القرآن، أو شاكّةٍ فيه، ولكنّهم لا يجدون في العبارة مستمسكاً صريحاً للإدانة، لأنّ صاحبها يستطيع أن يتملّص بخفّة، ويُبَيّن أنّ غَرَضَهُ حثُّ الأفكار على حُسْنِ التّدَبّر، لاستنباط المعاني التي تزيد الإيمان، ممّا تشتمل عليه دلالات الآيات في السورة.

وأمّا المنافقون المشاركون في المجلس دون أن يطرحوا مثل هذا التساؤل، فإنهم يعرفون شياطينهم، ويدركون الغرض من سؤالهم.

[إذا] ظرفٌ لما يُسْتقبل من الزمن، ولكنّ النصّ لمّا كان يقُصُّ قصّة ما كان منهم خلال مراحل التنزيل المدني للقرآن، وهذا النصّ جاء في ختام هذه المراحل، كانت [إذا] هُنا بمثابة قول القائل: كُنْتُ في حياتي الماضية إذا جاء أوّل الشهر الجديد وقبضت راتب الشهر الماضي دفعت ربع راتبي للفقراء والمساكين ووجوه الخير ابتغاء مرضاة الله، وهذا على سبيل حكاية أحداث الماضي وفق ترتيب أزمانها.

ولفظ [ما] بعد [إذا] لفظ مضاف للتأكيد، واصطلح النحاة أن يُسَمُّوها زائدة لغرض التأكيد، وليس مرادهم أنها زائدة في اللفظ دون غرض، وقد جاءت في القرآن «ما» بعد «إذا» زائدة إحدى عشرة مرّة فقط من مجموع ما يزيد على (٤٠٠) مرّة.

واكتفىٰ النصّ ببيان ما يطرح فريق من المنافقين من تساؤل إذا أنزلت سُورةٌ جديدة، ليدلَّ على ما في نفوسهم من عوامل، وترك بيان ما يَحْدُثُ في المجالس نتيجة طرحهم هذا السؤال، إذْ ليس في مثل هذا البيان غرض توجيهي، على أنّ ذهن المتدبّر الحصيف يستطيع تصوّر ما يحدث بالقياس على الأشباه والنظائر في مجالس الناس.

لكنّ الله عز وجلّ تولّى بياناً آخر كشف فيه ما يحدث في قلوب المؤمنين، وما يحدث لدىٰ الآخرين الذين في قلوبهم مرض بدءاً من الشك، حتى أخسّ دركات الكفر، فقال تعالى بشأن الذين آمنوا:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾:

أي: كان الذين آمنوا إذا أُنزلت سورة من سور القرآن، زادتهم هذه السورة بما فيها من آيات الله البينات، وبما فيها من أدلّةٍ وعِلْمٍ ومعانٍ جليلة، إيماناً يضافُ إلى مقدار إيمانهم السابق، وقضيّةُ زيادة الإيمان أو نقصه أمرٌ يشعر به المؤمن في عُمْقِ وجدانه، ويمكن قياسه من ظواهر السلوك، لأنّ الإيمان ليس مجرّد فكرة ذهنية أو تَصْديقٍ إراديّ قلبيّ، بل الإيمان بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر وسائر أركان الإيمان وتفصيلاتها مركّبٌ من يقين علمي، وتصديق إراديّ، وعواطف وجدانية متنوعة فيها الحبّ والبغض والكراهية، والطمع والخوف، والشّوْق لتحقيق المطالب السامية من سعادتي الدنيا والآخرة، وهذا المركّب يزداد بلا حدود تقاس، ويتناقص إلى أدنى الحدود، فإذا نزل عنها بدأ الشرك فما هو أشدّ منه من الكفر.

إنّ عنصراً واحداً من عناصر عواطف الإيمان وهو الحبّ، يزداد حتّىٰ يُضَحّيَ العاشق بنفسه من أجل محبوبه، فكيف إذا اجتمع مركّب من جملة عواطف قاعدتها في القلب يقين علميّ.

ولمّا خفي على بعض أهل العلم هذا التحليل لعناصر الإيمان، زعموا أنّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وأخذوا يؤوّلون النصوص الدينيّة الصريحة في دلالتها على زيادة الإيمان ونقصه.

﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾:

أي: زادتهم إيماناً والحال أنّهم فرحون مسروورن بنزول سورةٍ جديدة من عند ربّهم، تزيدهم في الدين علماً وهداية وبشرياتٍ بمستقبل سعيد، في جنات النعيم.

وقال تعالى بشأن الذين في قلوبهم مرضٌ بدءاً بمرض الشك والحيرة والتردّد، حتى أخس دركات الكفر والجحود المستور بالنفاق:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

سمّى الله عزّ وجلّ في هذه الآية الكفر أو الريب الذي يَنْتَابُ قلوب المنافقين، والدوافعَ التي تدفعهم إلى الكفر أو الريب والنفاق من انحرافات خلقية، ورغبات في اتباع الأهواء والشهوات، رِجْساً، باعتبار أنّ الرذائل النفسيّة هي أرجاس وأقذار، على مثل الأرجاس والأقذار الحسيّة في الأبدان والثياب ونحوها.

وبما أنّ ما ينزل من قرآن لا يفيدهم تثبيت إيمان أو زيادة فيه، فإن إنكارهم وجحودهم لما ينزل، من شأنه أن يزيدهم عناداً وإصراراً على ما هم فيه من ريب أو كفر ونفاق، وهذا رِجْسٌ يضاف إلى رِجْسِهم السّابق، ولكلِّ فردٍ منهم نصيبٌ من هذا الرِّجس بحسبه، هذا إذا لم يجعلهم يضاعفُون مكايدهم ضدّ الإسلام والرسول والمؤمنين، فإن فعلوا شيئاً من ذلك تزايدت أرجاسُهم السُّلوكيّة، مع أرجاسهم النفسيّة.

ولمّا كان بعضُ هؤلاء المنافقين قد ماتوا قبل نزول هذا النصّ، قال الله تعالى بشأن هؤلاء:

﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

وقد وصفهم الله عزّ وجلّ بأنهم كافرون، لأنّ قناع النفاق يسقط عند الموت، ولا يبقىٰ للمنافق ساعة الموت إلّا الكفر.

وتعقيباً على موقف المنافقين تجاه ما ينزل تباعاً من سور القرآن، قال الله عزّ وجلّ.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

واو العطف في ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ تعطف على محذوف مُقدّر، تقديره ألا يُفكّرون من خلال الأحداث التي تَمُرُّ عليهم ويَرَوْنَ أنهم يفتنون في كلّ عامٍ مرّةً أو مرّتين.

الاستفهام موجّه للدلالة على تَلْويمهم وتوبيخهم لأنّهم لا يتفكّرون ولا يَرَوْن ولا يتعظون.

ويظهر لي ـ والله أعلم ـ أنّ المراد من فتنتهم في كلّ عام مرّةً أو مرتين، ما كانوا يتعرّضون له من امتحانات كبيرة تكون لهم فيها مواقف تدلُّ على كفرهم ونفاقهم، ثمّ ينزل القرآن بكشف هذه المواقف، وفضحهم فيها، وموعظتهم، وتحذيرهم وإنذارهم وإطماعهم بالتوبة، ولو كانوا يُسِرُّونَ مواقفهم في نفوسهم ولا يصرّحون بها، أو يفعلون أفعالاً دالة على كفرهم ونفاقهم سرّاً فيما بينهم ولا يطلعون عليها أحداً من المؤمنين الصادقين.

ومُطَالِعُ هذه الدراسة القرآنية عن المنافقين يستطيع التقاط الأحداث الكبرى التي امتحنوا بها، وتَبَعُّتَهَا البيانات القرآنية الواعظة والفاضحة والمحذّرة والمنذرة والمطمعة بالتوبة، وهذه الأحداث وما تبعها تكفي وحدها لإقناعهم بأنّ القرآن تنزيل من لدن عليم حكيم خبير، وأنّ محمّداً رسول الله حقّاً وصِدْقاً، لأنها تجاربهم الشخصيّة، وهم أعرف الناس بها، وبما كانوا يكتمون ويُسِرُّون، وبما جاء في القرآن من كشف ذلك، فالتجارب الشخصيّة ذوات أدلّة مباشرة تشبه الإدراك الحسّيّ، وهي من الأوّليات التي تُقامُ الأدلّة بها، ولا تُقَامُ الأدلّة عليها.

وإذا وزعنا هذه الأحداث الكبرى التي اشتملت على فتنتهم، أي: على امتحانهم مع سقوطهم في الامتحان، ومع ما تبع ذلك من بيانات قرآنية، على المرحلة المدنية من حياة الرسول ﷺ، وجدناها في كلّ عام مرّةً أو مرّتين، كما ذكر الله عزّ وجلّ.

إنّ هذه التجارب في وسائل اكتساب المعرفة التي تمحو الشكوك مهما كانت، كافيةٌ لإقناع أشدّ المتشككين، وأشدّ الناس استعصاء على أدلة الحقّ، إلّا المكابرين بالباطل والمعاندين الذين يرون الشمس في كبد السّماء ويجحدون وجود النهار في الموقع الذي هم فيه.

ومن عجيب أمرهم وشدّة تشبثهم بالباطل الذي هم فيه، أنّهم يمرُّون بهذه التجارب، ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ من كفرهم ونفاقِهِمْ، ولا هم يتذكّرون، أي: ولا هم يُثْبِتُون في

ذاكرتهم المعاني التي دلّت عليها هذه التجارب، حتّى يَكُونَ تراكُمُها ذا قوّة فاعلة في إقناعهم، وتحويلهم ــ عن طريق إراداتهم وحرصهم على نجاتهم وسعادة أنفسهم ــ من الكفر إلى الإيمان، ولو على سبيل التدرج شيئاً فشيئاً، لكنّهم لا يُوجّهون أفكارهم وأذهانهم لدلالات هذه التجارب حتّى يحفظوها في ذاكرتهم، ويَتَذَكّروها من حين لآخر.

هذا البيان عن التذكّر يدلُّ على أنّ الذاكرة في الإنسان ذاتُ تأثير كبير في كيانه، فمن لم تكن لديه ذاكرة تستعيد المعارف والتجارب السابقة دواماً، كانت تصرّفاته استجابة لغرائزه وأهوائه وشهواته، ورُدُودَ أفعالٍ تلقائيّة للعوارض الطارئة، فهو كالأنعام بل هو أضلّ منها سبيلاً.

وأبان هذا الْعِقْد من السورة أنّ للمنافقين تُجاه ما ينزل من سُور القرآن سلوكاً آخر غير قول بعضهم: أَيُّكُمْ زادته هذه إيماناً؟

إنّه الانسلال من المجلس الذي تُتْلَىٰ فيه السورة الجديدة، بعد أن تتحادث عيونهم بعضها مع بعض، فهم يتخاطبون عن طريق عيونهم لا عن طريق ألسنتهم، ومضمون هذا الحديث عن طريق حركات العيون: هل يراكم من أحدٍ من المؤمنين إذا انصرفتم من المجلس؟ حتّى إذا شعروا بأنهم قادرون على أن ينسلوا واحداً بعد واحد انصرفوا حتى لا يسمعوا تلاوة السورة المنزّلة، ويبدو أنهم متفقون فيما بينهم على أن ينصرفوا من مجلس الرسول، كلّما نزلت عليه سورة جديدة وتلاها على أصحابه.

* فقال الله تعالى:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

المنافقون في مجالس المؤمنين لا يستطيعون غالباً أن يتحادثوا عن طريق ألسنتهم، خشية افتضاح أمرهم، أو إثارة الارتياب فيهم داخل قلوب المؤمنين، لذلك فهم يلجؤون إلى حديث العيون، والتخاطب الإشاريّ بحركاتها.

وبما أنّهم يعرف بعضهم بعضاً، إذْ لهم مجالس خاصة يتكاشفون فيها عن هويّاتهم، فمن الغالب أنّهم كانوا يتواصون فيما بينهم أنّه إذا أنزلت على الرسول ﷺ سورة جديدة فإنّ عليهم أن ينسلوا من مجلسه منصرفين، دون أن يشعر بهم أحد، ولكن عليهم أن يستوثقوا من أنه لا يراهم الرسول أو أحد من المؤمنين إذا انسلوا.

فإذا كانوا في مجلس الرسول وبدأ الرسول ﷺ يتلو على المسلمين ما نزل عليه من قرآن في سورة جديدة تحادثوا عن طريق حديث العيون بإشارات يتساءلون فيها: هل يراكم من أحد؟

﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾ :

أي : وبعد المحادثة فيما بينهم عن طريق حركات العيون التي ينظر بها بعضهم إلى بعض، لا ينصرفون بسرعة، بل يتريثون، لئلا يكتشف الفطناء أمرهم، فإذا اطمأنّوا وشعروا بأن أحداً لم يفطن إليهم انْصَرَفوا، كراهية أن يسمعوا السورة المنزلة، ولعل هذا بسبب خوفهم من أن تكون فيها آيات تتحدّث عن المنافقين، فيضطربوا عند سماعها، فيُعْرَفوا.

وجاء التعقيب القرآنيُّ على هذه الظاهرة من سلوك المنافقين، بقوله تعالى:

﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝١٢٧﴾.

تجري السلسلة السببية في هذا الموضوع لدى المنافقين كما يلي:

(١) تبدأ بانحراف خلقيّ نفسي تسيطر عليهم فيه أهواؤهم وشهواتهم ومطالبهم من زينة الحياة الدنيا، مع التقاليد العمياء التي اتّبعوا فيها آباءهم وقومهم السابقين، وهذا من آثار استخدامهم لإراداتهم الحرّة غير المجبورة.

(٢) تنشغل ضمن سنن الله السببيّة ساحة تصوّرهم وتذكّرهم دواماً، بما هو مسيطر عليهم في داخلهم.

(٣) تتحرّك غرائزهم وعواطفهم بالعنصر الذي شغل أكبر مساحة من تصوّراتهم وتذكّراتهم الحاضرة المتحرّكة الفاعلة.

(٤) تتوجه إراداتهم الحرّة في داخلهم متأثرة بما تحرّك من غرائزهم وعواطفهم ومطالبهم من الدنيا، ومصدّرة أوامرها بالتنفيذ.

(٥) عندئذٍ تكون قواهم العملية مسخّرةً لما أرادوا تنفيذه.

(٦) فإذا جاء عارض من العوارض الفكرية يقتضي منهم أن يغيّروا مسيرة سلوكهم النفسيّ ويحوّلوا اتّجاههم إلى مطالب أخروية، لم يلتفتوا إليها ولم يفقهوا بياناتها، لأنّهم متشبثون بالظواهر لا يدركون بواطن الأمور ولا يفقهونها.

(٧) وإذا اضطرُّوا أن يجاروا ظاهراً بمشاركة جسديّة فإنّ قلوبهم تكون منصرفة بسبب انشغالها بما هو مسيطر عليهم في داخل نفوسهم.

ولمّا كان هذا الانصراف خاضعاً لسنن الله السببيّة في كونه، وتسخيراته للأسباب التي تكون بخلقه سبحانه، كان هو الذي صرف قلوبهم خَلْقاً، لكنّهم كانوا هم السبب في ذلك باستخدام إراداتهم الحرّة فيما سخّر الله لهم.

وقد جاء البيان القرآني بادئاً بهذه النتيجة، ومقروناً ببيان سبب حصولها الكائن منهم، ومن اختيارهم الحرّ، فقال تعالى: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: بسبب أنهم قومٌ لا يفقهون.

● ● ●

الْعِقْدُ السَّابِعُ

آخر توجيه من الله للناس
بالنسبة إلى الرسول محمد ﷺ
ومعه وصيّة من الله للرسول

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾:

أي: شديد عليه، وشاقٌ عليه، يقال لغة: عزّ الأمْرُ عليه إذا اشتدّ وشقّ. ويقال: عزّ عليّ أن تفعل كذا، أي: اشتدّ عليّ ذلك وشقّ.

﴿مَا عَنِتُّمْ﴾:

أي: عَنَتُكم «ما» مصدرية فهي تؤول مع الفعل الذي بعدها بمصدر.

الْعَنَتُ: الشّدّةُ والمشقّة، يقال لغة: عَنِتَ فلانٌ إذا وقع في مَشَقّةٍ وشدّة.

فالمعنى: شاقٌ عليه ما يَشُقُّ عليكم، وشديدٌ عليه ما هو شديدٌ عليكم، لأنّه من أنفسكم، يشارككم مشاعركم وأحاسيسكم.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾:

الحرص على الشيء شدّة الرّغبة فيه. والحرصُ على الأهل أو العشيرة أو القوم

أو الأمة الإشفاقُ عليهم، والاجتهاد في نصحهم وتحقيق ما ينفعهم ويدفع الضرّ والأذى عنهم.

أي: فهو يشفق عليكم ويَبْذُل غاية جَهْدِه في نصحكم وتحقيق ما ينفعكم ويدفع الضرّ والأذى عنكم.

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ﴾:

قرأ أبو عمرو، ويعقوب، وحمزة، والكسائي، وخلف، وشُعْبَةُ عن عاصم [رَؤُفٌ] بقصر الهمزة. وقرأ باقي القراء العشرة [رَؤوف] بمدّ الهمزة، والمدّ والقصر لغتان عربيتان متكافئتان، فرؤوف على وزن فَعُول، ورَؤُف على وزن فَعُل.

قال أهل اللّغة: الرأفة أخصّ من عموم الرحمة وأرقُ. وقال صاحب الصحاح الجوهري: الرأفة أشدّ الرحمة. يقال لغة: رَأَفَ به يَرْأَفُ رأْفَةً، وَرَئِفَ به يَرْأَفُ رَأْفاً، ورَؤُفَ به يَرْؤُفُ رَأْفةً.

وصيغة «رؤوف» من صيغ المبالغة، أي: هو ذو رأفة عظيمة.

﴿رَّحِيمٌ﴾:

أي: وهو بالمؤمنين رَحِيم، وصيغة «رحيم» من صيغ المبالغة، أي: وهو ذو رحمة عظيمة.

وقد وصف الله رسوله محمّداً بصفتي الرأفة والرحمة كما وصف بهما نفسه، وجمع بين الوصفين الأخصّ والأعم للدلالة على أنّ من تتطلب الحكمة الرأفة به رأف به، ومن تتطلب الحكمة أن يشمله بعموم رحمته رَحِمَه.

الرحمة: هي في المخلوقات عاطفةٌ تستلزم المشاركةَ فيما يَسُرُّ المرحومَ وفيما يؤلمه، ومُسَاعَدَتَه بما يحتاج إليه لمسرّته، ولدفع السوء والضرّ عنه، وفي الخالق صفة تليق بجلاله سبحانه، من آثارها المعونة والمساعدة، ورفع الضرّ والأذى، والإنعام والإكرام، وكذلك الرأفة.

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

معمول لـ ﴿رؤوف رحيم﴾ مقدّم عليهما لإفادة تخصيص رأفته ورحمته بهم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾:

أي: فإنْ أدبَرُوا عن الاستجابة لنداء رسالتك التي أرسلك الله بها، وابتدعوا منصرفين متبعين غير سبيلك.

﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾:

أي: فقل: يكفيني رضا الله عني، على ما قمت به من واجبٍ كلّفني إيّاه، ويكفيني الله بمعونته وتأييده ونصره في أمري كلّه.

لفظ «حَسْب» اسم بمعنى «كاف» ويأتي «اسم فعل مضارع» بمعنى «يكفي» فيقال: حَسْبُكَ من شرٌ سماعُه، أي: يكفيك أن تسمعه لتشمئزّ منه، ويأتي «اسْمَ فعلِ أمر» بمعنى «اكْتَفِ» فيقال: حَسْبُكَ هذا، أي: اكتفِ به.

* * *

التدبُّر

* في الآية الأولى من هذا النص يصف الله محمّداً للناس أجمعين بِسَبْع صفات، وهي آخر ما نزل من قرآن بشأنه.

إنّ الله يبيّن للناس مؤكداً بعبارة ﴿لَقَدْ﴾ اللام ابتدائية للتأكيد، أو هي لام القسم وهي تفيد تأكيد الجملة بعدها، و«قَدْ» حرف تحقيق لتأكيد مضمون الجملة بعده.

والمؤكَّدُ مضمون كلّ الجملة التي اشتملت على كل صفات محمّد ﷺ الواردة في الآية:

الصفة الأولى:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾:

أي: ليس محمّد مجرّد إنسان بشر ظهر بينكم كسائر الناس، بل هو موجّه لكم، وقد جاءكم بما هو موجَّهٌ لكم به، فَهُو ذو صفة ثانية:

الصفة الثانية: أنه:

﴿رَسُولٌ﴾:

أي: هو حامل رسالة من ربّكم إليكم، ولا يكون الرسول رسولاً من ربّ العالمين، حتى يكون نَبِيّاً، من الذين اصطفاهم الله بالنبوّة، فأوحى إليهم، فهو نبيٌّ رسولٌ.

وكلمة «رسُول» تغني عن كلمة «نبيّ» لأنّ الرسول في دين الله للناس هو نبيٌّ كُلّف أن يحمل رسالةً يبلّغها لأمّته.

وهذا الرسول هو كسائر الرسل، ليس ذا طبيعة مخالفة لطبيعتكم البشرية، بل هو ذو صفة ثالثة:

الصفة الثالثة: هي أنه:

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾:

أي: من نوع أنفسكم المشتقة من نفس واحدة.

إنكم جميعاً مخلوقون من نفس واحدة، هي نفس آدم، وحوّاء زوجته هي أيضاً من نفسه، لأنّ الله خلقها منه، وخلق من نفسيهما جميع أنفسكم، ومحمّد هو واحد من هذه الأنفس.

إنّ طبيعة نفس محمد ليست من طبيعة أنفس الملائكة، ولا من طبيعة أنفس الجنّ، بل من أنفسكم أنتم، فكلّ خصائص البشر فيه، عواطفه من عواطفكم، ومشاعره من مشاعركم، فلا تحجُبُ نفسَه عنكم جفوة اختلاف الطبيعة، واختلاف خصائص النفس.

وبما أنّه يشعر بالعنت إذا مسّته مشقة، أو نزل به مكروه، فإنّه ذو صفة رابعة:

الصفة الرابعة: هي أنّه:

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾:

أي: شديدٌ عليه وشاقٌ على نفسه كُلُّ ما هو شديدٌ عليكم وشاقٌ على نفوسكم، إذْ هو من وحدة أنفسكم يؤلمه ما يؤلمكم، ويَشُقُّ عليه ما يَشُقُّ عليكم، فكيف تكون

حالة نفسه بالنسبة إلى ما يَعْلَمُ أنّه يُنْزِل بكم آلاماً وعذاباً، لذلك فإنّه يؤلمه أن تكفروا، وأن تعرّضوا أنفسكم للخلود في عذاب النار، ويؤلمه أن تَعْصُوا ربَّكُمْ فيمسَّكُمْ بذلك عنت العقاب من بارئكم.

وهو يشعر أيضاً أنكم بمثابة أهله وأبنائه وأسرته الخاصة، لذلك فإنّه ذو صفة خامسة.

الصفة الخامسة: هي أنه:

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾:

أي: مستمسكٌ بكم، يُشْفِقُ عليكم كما يشفق أحدكم على أهله وقرابته، ويجتهد في نصحكم وتحقيق ما ينفعكم ويدفع الضرّ والأذى عنكم غاية الاجتهاد، ويخشىٰ عليكم أن تجتالكم الشياطين، وتسوقكم أو تقودكم إلَىٰ شقائكم بإغرائكم وإغوائكم حتّى تسقطوا في مساخط ربكم.

هذا حاله بالنسبة إلى عموم شركائه في وحدة الأنفس البشرية، المخلوقة من نفس واحدة.

أمّا حاله بالنسبة إلى الذين استجابوا لدعوته فآمنوا، فإنّه ذو صفتين زائدتين على ما سبق، صفة سادسة، وصفة سابعة:

الصفتان السادسة والسابعة: هما أنه:

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾:

أي: هو شديد الرأفة بالمؤمنين، عظيم الرحمة بهم.

ولمّا كانت الرأفة أخصّ وأرقّ من عموم الرحمة، فإنّه ﷺ كان إذا رأىٰ حال بعض المؤمنين تتطلّب منه خصوص الرأفة كان به رؤوفاً، وكان إذا رأى حال بعض المؤمنين يكفيه منه عموم الرحمة كان به رحيماً.

ومن آثار ذلك في سنّته أنّه كان لا يُحبُّ أن يَشُقّ على أُمّتِهِ في التكاليف، حتى لا يكون في ذلك إحراجٌ لهم يدفعهم إلى الوقوع في المخالفة، والتعرّض للعقوبة، فمن أقواله ﷺ: «ذَرُوني ما تركتكم».

روى البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال:

«دَعُوني مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ سُؤَالُهُمْ واخْتِلاَفُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

وفي رواية عند مسلم عن أبي هريرة قال: خَطَبنا رسول الله ﷺ فقال:

«يَا أَيُّها النَّاسُ، قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا».

فقال رَجلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ الله؟ فَسَكَتَ حتَّى قَالَها ثَلاثاً، فقال رَسُول الله ﷺ:

«لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ».

ثُمَّ قال:

«ذَرُوني مَا تَرَكْتُكُمْ. . .» إلى آخر الحديث السابق.

* وفي الآية الثانية من هذا النصّ توجيه وصيَّةٍ من الله لرسوله بشأن الذين أبوا أن يستجيبوا لدعوته، ويؤمنوا به وبما جاءهم به عن ربّه، بل تَوَلَّوْا مدبرين مبتعدين، سالكين مسالِكَ مباينة لصراطه المستقيم.

وهذه الوصية تشتمل على تكليفه أن يُرَدِّد ذكراً مؤلّفاً من أربع جُمَلٍ:

الجملة الأولى:

﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾:

أي: أكتفي برضا الله ومعونته، لأنه كافٍ من اكْتَفَى به، فأنا أدعوه أن يكون حَسْبي.

الجملة الثانية:

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

أي: لا معبود بحقٍّ في الوجود كلّه إلّا هو، فأنا لا أَعْبُدُ غَيْرَه، لذلك فأنا أدعُوهُ مسائلاً متضرّعاً، ولا أدعو معه أحداً.

الجملة الثالثة:

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾:

أي: عليه وحده توكَّلْتُ في أمري كلّه، حفظاً ومعونة وتوفيقاً للخيرات، إلى غير ذلك من شؤوني العاجلة والآجلة.

الجملة الرابعة:

﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾:

أي: وهو وَحْدَهُ ربُّ العرش العظيم، المحيطِ بالسماوات والأرض وما فيهنّ، فهو ربّي وربُّ كُلِّ شيء، أي: هو الموجد لكل شيء، والممدّ له بالبقاء، والمتصرف بكلّ ما يجري فيه من حركة وسكنة وتغيّرات.

هذه الجمل الأربع هي ذكر ودعاء منبعثان من جوهر القاعدة الإيمانية، بالله وصفاته العظمى، ويمنح الله بها الذاكر خيراً عظيماً، ويفيض في قلبه الراحة والطّمأنينة، وينفحه بها بنسمات السعادة، مع ما يقضي له من أمور في الحياة ترضيه، ويدخّر له للآخرة من الخيرات الحسان، ما لا عين رأت، ولا أُذُن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وانتهى تدبر النص بعون الله وتوفيقه

● ● ●

القسم الثالث

المنافقون وصور من خبائثهم في التاريخ

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل : مُنافقون قبل بعثة محمد ﷺ.

الفصل الثاني : المنافقون في عصر الرسول ﷺ وخبائثهم.

الفصل الثالث : منافقون عبر تاريخ المسلمين بعد عصر الرسول ﷺ.

الفصل الأول

مُنافِقُونَ قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

وفيه مقولتان:

المقولة الأولى : إبليس أوّل المنافقين.

المقولة الثانية : المنافق اليهودي بولس «= شاول قبل أن يتنصّر» وتحريفه الديانة النصرانيّة.

المقولة الأولى

إبليس أول المنافقين

دلّت النصوص القرآنيّة على أنّ إبليس عليه لعنة اللّهِ عزّ وجلّ قد كـان أوّل مُنافقٍ فيما كُشِفَ لنَا منْ تاريخ الخليقة.

لقد كان إبليس من الجن المخلوقين من مـارج من نار، بـطبيعة ذات إرادة حـرّة قابلة للطاعة والمعصية، وذات أهواء وشهواتٍ ونفسٍ نزّاعةٍ لفعل الخيـر ولفعل الشـرّ، ولم يكن من الملائكة المخلوقين من نورٍ بطبيعةٍ مطيعـة للباري عـزّ وجلّ بـالفطرة التي فطرهم الله عليها، فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

دلّ على هـذه الحقيقة قـول الله عزّ وجـلّ في سـورة (الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ... ۝٥٠﴾.

وأبَان الله لنا أنّ الجنّ مخْلوقون من مارجٍ من نارٍ، أي: من أخلاطٍ ناريّة، وهذه الأخلاط الناريّة ترجع إلى أصل العناصر التي تـوقّدَتْ منْهـا النّارُ، كـالحديـد والنحاس والحجـر والعنـاصر النبـاتيّـة، وغيـر ذلـك، فقـال تعـالى في سـورة (الـرحمن/٥٥ مصحف/٩٧ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾.

﴿الْجانّ﴾: هُو أبو الْجنِّ كما قال المفسّرون.

وحين احتجَّ إبليسُ لرَفضه السجود لآدَمَ احْتجَّ بأنه مَخْلُوقٌ مِن نـارٍ، الّتي هي

بحسب زعمه أشرف عنصراً من الطين الذي خلقَ الله منه آدم، فقال لربه كما جاء في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول):

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ ﴾.

أمَّا الْمَلائكةُ فهم مخلوقون من نور، فقد روى مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها، أنّ رسُولَ الله ﷺ قال:

«خُلِقتِ الْمَـلاَئِكَـةُ مِنْ نُـورٍ، وخُلِقَ الْجَـانُّ مِنْ مَـارِجٍ مِنْ نَـارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّـا وُصِفَ لَكُمْ».

فالجنّ نوع من العالمين، سُمُّوا جنّاً لاستتارِهم عن أبصار الناس.

ويلتقي الجنّ مع نوع الملائكة الذين هم نوعٌ آخرُ من العالمين، غير نوع الجن، وغير نوع الإنس، بعدّة صفات، منها ما يلي:

(١) أنّ أجسامهم غير ذات كثافة أرضيّة، فليسوا كأجسام الأحياءِ المخلوقات من تراب وماءٍ، والتي تنجذب بسببها إلَىٰ كتلة الأرض.

(٢) أنّ أجسامَهم قادرة على التشكُّل بأشكال الأحياء المخلوقة من الطين.

(٣) أنه قد كان باستطاعة الجنّيّ أن يَنْدسَّ بمقتضى طبيعته في نوع من الملائكة، ويصْعَد السّماء مثل صعودهم، ويَعْمَل مثل أعمالهم، مع الاختلاف في أصل تكوينه، وفي صفاته النفسيّة، بدليل وجود إبليس ضمن الملائكة الذين أُمروا بالسجود لآدم وهو من الجن.

وبسبب عناصر التشابه هذه استطاع إبليس أن يندسّ في صفوف الملائكة، ويشاركهم في عباداتهم، ويتحلّىٰ بصفات أهل الملأ الأعلى منهم، اعتقاداً منْهُ أنّه سيستعْلي بذلك إلَىٰ نوع الملائكة المخلوقين من عنصر النور، الذي هو في تقديره أشرف من عنصر النار، وكان بمقتضىٰ طبيعته طامعاً في أن ينَالَ بَيْنَ الملائكة المقام الأسْمَىٰ، وهو يعْلَمُ أنَّ طبيعتَهُ مختلفة عَنْ طبيعة الملائكة الّذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وكان إبليس يؤمن بالله رَبّاً خالقاً مُمِدّاً بكلّ عطاءاتِ الربوبيّة، لكنّه كان كافراً غير مؤمنٍ بتوحيد الإلٰهيَّة لِلّهِ عزّ وجل، وكفْرُهُ هو من قبيل كُفْرِ الشِّرْكِ، إذْ كان يعتقِد بتأْثير العناصر التي يتكوّن منها المخلوق، ويعتقد بتفاضُلِ العناصر تفاضُلاً ذاتيّاً، وقد جرَّه هذا الاعتقاد إلى الكُفْرِ بحقّ اللّهِ عزّ وجلّ في أن يُكلِّف مَنْ خَلَقَ تكليفاً مُنافياً لِمَا يقتضيه التفاضُل العنصري.

وبما أنّه كان مُنْدَسّاً في صفوف الملائكة المكرّمين، ونزَّاعاً بعوامل كِبْرٍ في نفسه إلى مراتب المقرّبين من أهل الملأ الأعْلَىٰ من الملائكة، فقد شاء الله عزّ وجلّ أن يكشف ما في نفسه بالابتلاء، فيضعه موضع الامتحان، من خلال عقدة الكِبْرِ والكُفْرِ التي في نفسه.

فَلمّا توجّه الأمر للملائكة بالسجود لآدم الذي خلقه اللّهُ من طين، وكان إبليس مندسّاً فيهم، ومعتبراً نفسه واحداً منهم، وقد شمله التكليف بمقتضىٰ إلحاقه نفسه بالملائكة، وانتمائه إليهم، نزعَتْ نفسه بدافع الكِبْرِ والكُفْرِ بحقِّ الله عزّ وجلّ في إلٰهيّته، الّتي منها طاعته في أوامره ونواهيه، فأبَىٰ أن يطيع أمْرَ ربّه واستكبر عن أن يسجد لآدم سجود احترامٍ له وطاعةٍ لله عزّ وجلّ.

وعقد الله له عدّة جلساتٍ لمحاكمته، عسَىٰ أن يتراجع عن كبره وكفره بحقّ الرّبّ الخالق في أن يكون هو الإلٰه المعبود وحده، بلا شريكٍ ولا شكٍّ في حكمته، ولا اعتراضٍ على تكليفٍ ما من تكليفاته بأوامره ونواهيه.

وفي كلّ مرّةٍ كان يُصِرُّ علَىٰ أنّ عنصره الناريَّ خير من عُنْصُرِ آدم الطّيني، وفي هذا الإصرار تَشَبُّثٌ بادّعاء أفضليّة عُنْصُر النار على عنصر الطّين، مع أنّ العناصر كلّها من خلق الله، وادّعاء إبليس مبنيٌّ على وهمٍ باطلٍ، جرَّهُ إليه الاغترار بالظواهر، والإعْرَاضُ عن حقّ الرّبّ في وجوب طاعةِ أمْرِهِ ولو أمْرَهُ بأن يَسْجُدَ لجمادٍ، لأنّ السُّجُودَ لأمْرِ الله، لا لعبادة المسجودِ له من دون الله.

فالامتحان الرّبّاني كشف أنّ إبليس كان من الكافرين بتوحيد الإلٰهيّة لله عزّ وجلّ، وبحقّ الله الربّ الخالق في الطاعة، وكان من المشركين الذين يجعلون

العناصر الكونيّة ذات خصائص ذاتيّة تستدعي حقوقاً مقدّمة على حقّ الله عزّ وجلّ في طاعته.

وقد أبان الله عزّ وجلّ أنّ إبليس كان من الكافرين، أي: من كَفَرةِ الجنّ، قبل أن يأمُرَهُ الله بالسجود لآدم، فقال تعالى في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول):

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

وَقالَ تعالى في سورة (البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

طَرَد الله إبْليس من منازل أهل الملأ الأعلى من الملائكة، ولَعَنَهُ لعناً إلى يوم الدّين، عقوبةً معجّلةً له، قبل العقوبة المؤجلة في جهَنَّم يوم الدين، وأدخل آدم وزوجه الجنَّة إدْخال امتحانٍ وابتلاء، لا إدْخالَ جزاء وبقاء، وفي ابتلائهما نهاهما الله عن أن يأكُلا من شجَرَةٍ عيَّنها الله لهما، فإنْ أكلا منها عَصَيا وعاقبهما بالإخراج من الجنّة، وأهبطهما إلى الأرض، ليقاسيا رحلة الابتلاء عليها، هما وذرّيّاتهما، فمن آمن وصَلَحَ كوفِئ بالدخول إلى دار النعيم الجنّة دخول جزاء وخلود، ومن كفر وأبَى أن يستجيب لأوامر الله ونواهيه، وجحد حقّ الله عليه كان من أصحاب العذاب الخالد في دار العذاب، المقابلة لدار النعيم، دخول جزاءٍ وخلود، ومن آمن وعصى استحق من العذاب بمقدار معاصيه.

وحذّر الله آدم وزوجه من إبليس ووساوسه ودسائسه، وأبان لهما أنّه لهما عدُوٌّ مبين، وأبان لهما أنّه سيسعى لإغوائهما وإغرائهما بمعصية الله، بغية إخراجهما من الجنة.

وحمل إبليس في نفسه العداوة الشديدة لآدم وزوجه وذُرِّيَاتهما، وامْتلأتْ نفسه حقداً عليهما، وقرَّر أن يَسْعَىٰ جَهْدَه لإغوائهما، حتى يعصيا رَبَّهما، فيخرجهما الله من الجنّة، وأنْ يسْعَىٰ بعد ذَلِكَ هُو وجُنُودُه لإغواء ذُرِّيَّاتِهِ حتَّىٰ يكونوا من أهل النار.

ومكّنَهُ الله من الوسوسة والتسويل، ولم يَجْعلْ له سلطاناً على إرادات الناس، ولا قدراتٍ جبريّة، وكان التمكين من الوسوسة لإيجاد التوازن في ابتلاء الإرادات الحرّة.

وسَبَر إبليسُ ما يمكنه من حِيَلٍ يتخذها للإغراء والإغواء، فوجد وسيلة النفاق هي السّلاح الأقوى، فقرَّر أن يركب مركب النفاق.

فلبس قناع الناصح الأمين، وأخذ يغري آدم وزوجه بأَنْ يَأْكُلاَ مِنَ الشجرة التي نهاهما الله عن أن يأكلا منها في الجنّة واستثار فيهما الرغبة في أن يكونا ملَكَيْن نورانيّيْن، أو يكونا في الجنّة من الخالدين، وقال لهما: ما نهاكما رَبُّكُمَا عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ، إلاَّ أنْ تكونَا مَلَكَيْنِ أوْ تكونَا مِنَ الْخَالِدِين، وأقْسَمَ لَهُما بالأيمان المغلّظة أنَّهُ لَهُمَا لمن الناصحين، وما زال يُدلّيها إلى بئر المعصية بتغرير قَدْراً فقدراً، حتّىٰ جعلهما يأكلان من الشجرة المحرّمة، فكان السبب في إخراجهما من الجنّة.

ولمّا حاكمهما الله على معصيتهما اعترفا بالذنب، وسألاه المغفرة والرّحمة.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ومَهَرَ إبليسُ أسْلُوبَ النّفاق، فسعَى هُوَ وَجُنُودُهُ لابِسِينَ أقنعة النّفاق لإغْرَاءِ وإغْواءِ بَنِي آدم، بُغْيَةَ صَدِّهم وإبْعَادِهم عن صِرَاط الله المستقيم، عـداوةً وكيداً، حتّى يكـونوا منْ أهْلِ النار.

وجنود إبليس هم شياطين الجنّ والإنس، وكان النفاق أخـطر الطرق التي عـرفها الخلق في عالم الأحياء ذوي الإرادات الحرّة، وهو أسلوب الشيـاطين الأعظم لـلإفساد والتضليل والإغواء.

● ● ●

المقولة الثانية

المنافق اليهودي بولس
«شاول ـ قبل أن يتنصّر»
وتحريفه الديانة النصرانية

من الذين احتلُّوا مركزاً قياديّاً خطيراً في الديانة النصرانية رجل اسمه «بولس» وكان اسمه قبل أن يتنصّر «شاول».

إنّ قصّته في النصرانية قصّةٌ عجيبة غريبة، فهو صاحب الشأن الخطير في تحريف الديانة النصرانية عن أصولها الربّانيّة الصحيحة الّتي أنزلها الله على عيسى عليه السلام.

كان في أوّل عهده من كبار أعداء النصارى الذين آمنوا بعيسىٰ وصدّقوه واتّبعوه، حتّىٰ كان من أشدّ من أنزل بهم ألواناً من الاضطهاد والقتل والتعذيب، بسلطان الدولة الرومانية التي كان يعمل فيها، وسلطان كبار الكهنة من اليهود في أورُشليم.

فقد جاء في رسالته إلى أهل غلاطيَّة (الإصحاح الأول) ما يلي:

[(١٣) فأنَّكُمْ سَمِعْتُمْ بِسِيرَتِي قبلاً في الدِّيانَة اليهودية أَنِّي كُنْتُ أَضْطَهِدُ كَنِيسَةَ الله بإفراطٍ وأُتْلِفُهَا (١٤) وكُنْتُ أَتَقَدَّمُ في الدِّيانة اليهودية علىٰ كثيرين من أترابي في جِنْسِي إذْ كُنْتُ أَوْفَرَ غَيْرَةً فِي تَقْلِيدَاتِ آبائي].

وجاء في الإصحاح الثامن من أعمال الرسل ما يلي:

[(١) وحَدَثَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ اضْطِهَادٌ عَظِيمٌ عَلَىٰ الْكَنِيسَةِ الَّتِي في أورُشَلِيمَ فَتَشَتَّتَ الْجَمِيعُ فِي كُوَرِ الْيَهُودِيَّةِ والسَّامِرَةِ مَا عَدَا الرُّسُلَ (٢) وحَمَلَ رِجَالٌ أَتْقِيَاءُ إِسْتِفَانُوسَ وَعَمِلُوا عَلَيْهِ مَنَاحَةً عَظِيمَةً (٣) وَأَمَّا شَاوُلُ فَكَانَ يَسْطُو عَلَى الْكَنِيسَةِ وهُوَ يَدْخُلُ الْبُيُوتَ ويَجُرُّ رِجَالاً ونساءً ويُسَلِّمُهُمْ إِلَىٰ السِّجْنِ].

وجاء في الإصحاح السادس والعشرين منه ما يلي حكايةً عنه:

[(٩) فأنا ارتأيتُ في نفسي أنه ينبغي أنْ أصْنعَ أموراً كثيرةً مُضادّةً لاسم يَسُوعَ النّاصِريّ (١٠) وفعلتُ ذلكَ أيضاً في اورُشَلِيم فَحَبَسْتُ في سُجُونٍ كَثِيرِين مِنَ الْقِدّيسِينَ آخذاً السُّلْطَانَ مِنْ قِبَلِ رُؤساء الْكَهَنَةِ. ولمّا كانُوا يُقتَلُونَ أَلْقَيْتُ قُرْعَةً بِذلِكَ (١١) وفي كُلّ المجامع كنتُ أُعاقِبُهُمْ مِرَاراً كثيرةً وأضطرهم إلى التجديف. وإذْ أفْرَطَ حَنَقِي عَلَيْهِمْ كنتُ أطْرُدُهم إلى المدنِ التي في الخارج].

وكان «بولس = شاول» يهوديّاً طرطوسيّاً من الفرّيسيّين وهو لم يَرَ عيسى عليه السّلام، ولا سمعه يدعو النّاسَ ويُبَشّر بدين الله، مع أنّه قد أدرك زمانه.

وكان يحمل الرعويّة (= الجنسية) الرومانية، إذْ كان مولوداً فيها، في حين أن اكتسابها كان صَعْباً، وكان يَبْذُلُ طالبو اكتسابها أموالاً كثيرة للحصول عليها، واستفاد من هذه الرّعويّة واستَغَلّها في التّسلّط وفي حماية نفسه، من خصومه في اليهوديّة طائفةِ «الصّدُوقِيّين»[(١)] المعارضة لطائفة «الفرّيسيّين»[(٢)].

جاء في الإصحاح الثاني والعشرين من أعمال الرسل في معرض الحديث عن بولس ما يلي:

---

(١) الصّدُوقِيّون: طائفة يهودية متلاشية الآن. كانت لا تؤمن بقيامة الأموات من القبور. ولا تؤمن بالحياة الأبدية للبشر بأفرادهم وأشخاصهم كما كانوا في الدنيا. وترفض الثواب والعقاب في الآخرة. وتنكر وجود الملائكة والشياطين. وتنكر القضاء والقدر وكتابة أعمال الناس في اللّوح المحفوظ قبل وقوعها. وتعتقد أنّ الإنسان خالق أفعال نفسه. وتؤمن بقدسية العهد القديم ولا تؤمن بالتلمود. وكانوا يقولون: إنّ عزيراً ابن الله، وكان الصدّوقيون موجودين في اليمن قبل الإسلام.

(٢) الفرّيسيّون: هم إحدى طائفتين دينيّتَيْن كبيرتين لليهود، كانتا ذواتي شأنٍ في العهد المسيحيّ الأول، وقد ظهر الفرّيسيّون بعد أن استطاعت أُسْرة المكابيّين تخليص الشعب اليهودي من طبقات السلوقيين. وامتاز الفرّيسيون بحرصهم الشديد على التعاليم اليهودية شفوية كانت أو مكتوبة، وبحرصهم على تخليص هذه التعاليم من الشوائب والبدع الدخيلة، فأحدثوا حركة فكرية كان لها أثرها في حياة الشعب اليهودي عامّة، وفي نزعته الدينية بوجه خاص.

[(٢٥) فلَمَّا مَدُّوهُ للسِّياط قالَ بولُسُ لِقائِدِ المِئةِ الواقِفِ أيجوزُ لكُمْ أنْ تَجلِدُو إنْساناً رُومانياً غَيْرَ مَقضِيّ عَلَيْهِ (٢٦) فَإذْ سَمِعَ قائِدُ المِئةِ ذَهَبَ إلىٰ الأمِيرِ وَأخْبَرَهُ قائِلاً: أنْظُرْ ماذا أنْتَ مُزْمِعٌ أنْ تَفْعَلَ. لأنَّ هذا الرَّجُل رُوماني (٢٧) فَجاءَ الأمِيرُ وقالَ لَـهُ: قُلْ لي أنْتَ رُومانيّ. فقالَ نعم (٢٨) فأجابَ الأمِيرُ أمّا أنا فَبِمَبْلَغٍ كَبِيرٍ اقْتَنَيْتُ هٰذِهِ الرَّعَوِيَة. فقالَ بُولُسُ أمّا أنا فَقَدْ وُلِدْتُ فِيها (٢٩) ولِلْوَقْتِ تَنَحَّىٰ عَنْهُ الَّذِينَ كانُوا مُزْمِعِينَ أنْ يَفْحَصُوهُ واخْتَشَىٰ الأمِيرُ لَمّا عَلِمَ أنَّهُ رُومانِيٌّ وَلأنَّهُ قَدْ قَيَّدَهُ.

(٣٠) وفي الغَدِ إذْ كانَ يُرِيدُ أنْ يَعْلَمَ اليَقِينَ لِماذا يَشْتَكِي اليَهُودُ عَلَيْهِ حَلَّهُ مِنَ الرُّباطِ وأمَرَ أنْ يَحْضُرَ رُؤَساءُ الكَهَنَةِ وَكُلُّ مَجْمَعِهِمْ فَأخَذَ بُولُسَ وَأقامَهُ لَدَيْهِمْ].

الإصحاح الثالث والعشرون

[(١) فتفرّسَ بُولُسُ في المَجْمَعِ وقالَ أيُّها الرجالُ الإخْوَةُ إنّي بكُلِّ ضَمِيرٍ صالِحٍ قَدْ عِشْتُ لِلّهِ إلىٰ هذا اليوم (٢) فأمَرَ حَنانِيّا رَئِيسُ الكَهَنَةِ الواقِفِينَ عِنْدَهُ أنْ يَضْرِبُوهُ عَلَىٰ فَمِهِ (٣) حِينَئِذٍ قالَ لَهُ بُولُسُ سَيَضْرِبُكَ اللّهُ أيُّها الحائِطُ المُبَيَّضُ. أفأنْتَ جالِسٌ تَحْكُمُ عَلَيَّ حَسَبَ النّامُوسِ وأنْتَ تأمُرُ بِضَرْبِي مُخالِفاً للنّامُوس (٤) فقالَ الواقِفُونَ أتَشْتُمُ رَئِيسَ كَهَنَةِ اللّهِ (٥) فقالَ بُولُسُ لَمْ أكُنْ أعْرِفُ أيُّها الإخْوَةُ أنَّـهُ رَئِيسُ كَهَنَةٍ لأنَّـهُ مَكْتُوبٌ رَئِيسُ شَعْبِكَ لا تَقُلْ فِيهِ سُوءاً.

(٦) ولَمّا عَلِمَ بُولُسُ أنَّ قِسْماً مِنْهُمْ صَدُّوقِيُّونَ والآخَرَ فَرِّيسِيُّونَ صَرَخَ فِي المَجْمَعِ أيُّها الرِّجالُ الإخْوَةُ أنا فَرِّيسِيٌّ ابْنُ فَرِّيسيّ. عَلَىٰ رَجاءِ قِيامَةِ الأمْواتِ أنا أُحاكَمُ (٧) ولَمّا قالَ هٰذا حَدَثَتْ مُنازَعَةٌ بَيْنَ الفَرِّيسِيِّينَ والصَّدُّوقِيِّينَ وانْشَقَّتِ الجَماعَةُ (٨) لأنَّ الصَّدُّوقِيِّينَ يَقُولُونَ إنَّهُ لَيْسَ قِيامَةٌ وَلا مَلاكٌ وَلا رُوحٌ. وَأمّا الفَرِّيسِيُّونَ فَيُقِرُّونَ بِكُلِّ ذٰلِكَ (٩) فَحَدَثَ صِياحٌ عَظِيمٌ ونَهَضَ كَتَبَةُ قِسْمِ الفَرِّيسِيِّينَ وَطَفِقُوا يُخاصِمُونَ قائِلِينَ لَسْنا نَجِدُ شَيْئاً رَدِيّاً فِي هٰذا الإنْسانِ. وَإنْ كانَ رُوحٌ أوْ مَلاكٌ قَدْ كَلَّمَهُ فَلا نُحارِبَنَّ الله].

* * *

قِصَّةُ دُخولِهِ فِي النصرانيّة

(١) قال ابن حزم في كتابه (الْفِصَل) في مَعْرِض الحديث عن أحبار اليهود:

«وفيما سَمِعْنَا عُلَمَاءَهُمْ يَذْكُرُونَهُ وَلَا يَتَنَاكَرُونَهُ مَعْنىً، أَنَّ أَحْبَارَهُمُ الَّذين أَخَذُوا عَنْهُم دِينَهُمْ والتوراةَ وكُتُبَ الأنبياء علَيْهِمُ السلام اتَّفَقُوا على أَنْ رَشَوْا بُولُسَ الْبَنْيَامِينِي ـ لعنه الله ـ وأَمَرُوهُ بإظهار دين عيسَىٰ عليه السلام، وأنْ يُضِلَّ أَتْبَاعَهُ، ويُدْخِلَهُمْ إِلَىٰ الْقَوْلِ بِإلَهِيَّتِهِ، وقالوا له: نَحْنُ نتحمَّلُ إِثْمَكَ فِي هذا، وبَلَغَ من ذلِكَ حَيْثُ قَدْ ظَهَرَ»[١].

(٢) من الثابت لدى النصارى وكلّ الباحثين أنّه بعد أنْ رفع الله عيسى عليه السّلامُ إليه بمدّةٍ من الزمن أعلَنَ «بولُس = شاوُل» دخولَهُ فِي النصرانيّة بشكلٍ مُفَاجِىءٍ، وأحاط دخولَهُ فيها بادّعاءاتٍ غريبةٍ جَرَتْ له، ومُشاهداتٍ رُوحيّةٍ خاصَّةٍ، ادَّعَىٰ فيها أَنّ يَسُوعَ هبطَ عَلَيْهِ بنُورِهِ الْبَاهِرِ، عِنْدَمَا كَانَ قَادِماً إِلَىٰ دِمَشْقَ وقَرِيباً مِنْهَا، وقَالَ له: لِمَاذَا تضطهدُني؟.

فقال له «بُولُس = شاول» وهُوَ مُرْتَعِدٌ وَمُتَحَيِّرٌ: يَا رَبُّ مَاذَا تُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ؟

فقال له: «قُمْ، وادْخُلِ الْمَدِينَةَ فَيُقَالُ لَكَ مَاذَا يَنْبَغِي أَنْ تَفْعَلَ».

وبَعْدَ أَنْ قادهُ رِفَاقُهُ إِلَىٰ دِمَشْقَ واسْتَقَرَّ فيها، أَتَاهُ حَنَانِيَا، وكَانَ هَـٰذا رَجُلاً مَشْهُوداً لَهُ بالتَّقْوَىٰ مِنْ جَمِيعِ الْيَهُودِ السُّكَّانِ كَمَا يَذْكُرُ «بولُس» فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ اللَّهَ قد اخْتَارَهُ لِيُعَلِّمَ الدِّينَ ويُكَرِّزَ بالْمَسِيحيَّة، أي: يَعِظَ بِها، ويَدْعُوَ النَّاسَ إليها.

ويُلاحَظُ أَنَّ حَنَانِيَا هـٰذا رَجُلٌ يَهُودِيٌّ، فَرَبْطُ مَا زَعَمَهُ «بولس» مِنْ مشاهداتٍ رُوحيّةٍ بِتَعْلِيمَاتٍ يُوجِّهُها لَهُ حَنَانِيَا الْحَبْرُ اليهودي يُشْعِرُ بأنَّ قِصَّتَهُ مُؤَامَرَةٌ يَهُودِيَّةٌ مُدَبَّرَةٌ، كما ذَكَر ابن حزم، فَعُلَمَاءُ يَهُودِ الأَنْدَلُسِ يَعْرفونها وَيَتَدَاوَلُونَهَا فيما بَيْنَهم، ويَذْكُرُونَ أَنَّ قُدَمَاءَ أَحْبَارِهِمْ هُمُ الَّذِينَ رَشَوْا «بولس = شاوُل» لِكَيْ يدخُلَ في النصرانيّة، ويُفْسِدَ

---

(١) انظر كتاب «الفِصَل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم الأندلسي الجزء الأول ص (٢٢١) نشر مكتبة الخانجي بمصر.

عقائِدَ أتباع عيسَىٰ عليه السلام، بفكْرَةِ تأْليهِهِ، وجعله ابْناً للّهِ، ويُخَرِّبَ الدِّيانة التي أنزلها الله على عيسى.

(٣) وقد أدّىٰ «بولُس» أخْطَر دَوْرِ نفاقٍ صنَعَهُ منافقٌ في تاريخ الناس، إذِ استطاعَ بادّعاءاته مع أنصاره اليهود المنافقين في النصرانيّة أنْ يجْعَلُوا مَا وضعه «بولس» هو دين النصرانية الَّذي أقرّته الدولة الرومانية فيما بعد، لا ما أنزل الله على عيسىٰ عليه السلام.

(٤) جاء في الإصحاح التاسع من أعمال الرسل ما يلي:

[(١) أمّا شاوُلُ فكَانَ لَمْ يَزَلْ يَنْفُثُ تَهدُّداً وقتْلاً عَلَى تَلاَمِيذِ الرَّبِّ. فتقدَّمَ إلَىٰ رَئِيسِ الكَهَنَةِ (٢) وَطَلَبَ مِنْهُ رَسَائِلَ إلَىٰ دِمَشْقَ إلَىٰ الْجمَاعَاتِ حَتَّىٰ إذَا وَجَدَ أُنَاساً في الطَّرِيقِ رِجَالاً أَوْ نِسَاءً يَسُوقُهُمْ مُوثَقِينَ إلَىٰ أُورُشَلِيمَ (٣) وَفِي ذَهَابِهِ حَدَثَ أنَّهُ اقْتَرَبَ إلَىٰ دِمَشْقَ فَبَغْتَةً أَبْرَقَ حَوْلَهُ نُورٌ مِنَ السَّماءِ (٤) فَسَقَطَ عَلَىٰ الأَرْضِ وَسَمِعَ صَوْتاً قائِلاً لَهُ شَاوُلُ شَاوُلُ لِمَاذَا تضطهِدُني (٥) فقَالَ مَنْ أَنْتَ يَا سَيِّدُ. فَقَالَ الرَّبُّ أنَا يَسُوعُ الَّذِي أَنْتَ تَضْطَهِدُهُ صَعْبٌ عَلَيْكَ أَنْ تَرْفُسَ مَنَاخِسَ (٦) فقَالَ وهُوَ مُرْتَعِدٌ وَمُتَحَيِّرٌ يَا رَبُّ مَاذَا تُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ. فقالَ لَهُ الرَّبُّ قُمْ وادْخلِ الْمدينة فَيُقَالُ لَكَ مَاذَا يَنْبَغِي أَنْ تَفْعَلَ (٧) وأمّا الرِّجالُ الْمُسَافِرُونَ مَعَهُ فَوَقَفُوا صَامِتِينَ يَسْمَعُونَ الصَّوْتَ وَلاَ يَنْظُرُونَ أحداً (٨) فَنَهَضَ شَاوُلُ عنِ الأرْضِ وَكانَ وهُوَ مَفْتُوحُ العيْنَيْنِ لاَ يُبْصِرُ أَحَداً فَاقْتَادُوهُ بِيَدِهِ وَأَدْخَلُوهُ إلَىٰ دِمَشْقَ (٩) وَكَانَ ثَلاَثَةَ أيّام لا يُبْصِرُ فَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ. (١٠) وَكَانَ فِي دِمَشْقَ تِلْمِيذٌ اسْمُهُ حَنَانِيَّا فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ فِي رُؤْيَا يَا حَنَانِيَا. فَقَالَ هَأنَذا يَا رَبُّ (١١) فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ قُمْ واذْهَبْ إلَىٰ الزُّقَاقِ الَّذِي يقال له الْمُسْتَقِيمُ واطْلُبْ فِي بَيْتِ يَهُوذا رَجُلاً طَرْسُوسِيّاً اسْمُهُ شَاوُل. لأنّهُ هُوذَا يُصَلِّي (١٢) وَقَدْ رَأَىٰ فِي رُؤْيَا رَجُلاً اسْمُهُ حَنَانِيَّا دَاخِلاً وَوَاضِعاً يَدَهُ عَلَيْهِ لِكَيْ يُبْصِرَ (١٣) فَأجابَ حَنَانِيَّا يَا رَبُّ قَدْ سَمِعْتُ مِنْ كَثِيرِينَ عَنْ هذا الرَّجُلِ كَمْ مِنَ الشُّرُورِ فَعَلَ بِقِدِّيسِيكَ في أورُشَلِيمَ (١٤) وَهٰهُنَا لَهُ سُلْطَانٌ مِنْ قِبَلِ رُؤَسَاءِ الكَهَنَةِ أَنْ يُوثِقَ جَمِيعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ باسْمِكَ (١٥) فقالَ لَهُ الرَّبُّ اذْهَبْ لأنَّ هذَا لِي إنَاءٌ مُخْتَارٌ لِيَحْمِلَ اسْمِي أَمَامَ أُمَمٍ وَمُلُوكٍ وَبَنِي إسْرَائِيلَ (١٦) لأنّي سأُرِيه كَمْ يَنْبَغِي أنْ يَتَألَّمَ مِنْ أَجْلِ اسْمِي (١٧) فَمَضَىٰ حَنَانِيَّا وَدَخَلَ الْبَيْتَ

وَوَضَعَ عَلَيْهِ يَدَهُ وقالَ أَيُّهَا الأَخُ شَاوُلُ قَدْ أَرْسَلَنِي الرَّبُّ يَسُوعُ الَّذِي ظَهَرَ لَكَ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي جِئْتَ فِيهِ لِكَيْ تُبْصِرَ وَتَمْتَلِئَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. (١٨) فَلِلْوَقْتِ وَقَعَ مِنْ عَيْنَيْهِ شَيْءٌ كَأَنَّهُ قُشُورٌ فَأَبْصَرَ فِي الْحَالِ وَقَامَ واعْتَمَدَ (١٩) وتَنَاوَلَ طَعَاماً فَتَقَوَّى. وَكَانَ شَاوُلُ مَعَ التَّلَامِيذِ أَيَّاماً (٢٠) ولِلْوَقْتِ جَعَلَ يَكْرِزُ فِي الْمَجَامِعِ بِالْمَسِيحِ أَنْ هٰذَا هُوَ ابْنُ اللَّهِ (٢١) فَبُهِتَ جَمِيعُ الَّذِينَ كَانُوا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا أَلَيْسَ هٰذَا هُوَ الَّذِي أَهْلَكَ فِي أُورُشَلِيمَ الَّذِينَ يَدْعُونَ بِهٰذَا الاسْمِ. وَقَدْ جَاءَ إِلَى هُنَا لِهٰذَا لِيَسُوقَهُمْ مُوثَقِينَ إِلَى رُؤَسَاءِ الكَهَنَةِ (٢٢) وَأَمَّا شَاوُلُ فَكَانَ يَزْدَادُ قُوَّةً وَيُحَيِّرُ الْيَهُودَ السَّاكِنِينَ فِي دِمَشْقَ مُحَقِّقاً أَنَّ هٰذَا هُوَ الْمَسِيحُ].

أقـول:

يلاحظ في هذا النصّ بيان أنّ الرجال المسافرين مع بولس وقفوا صامتين يَسْمَعُونَ الصَّوْتَ ولاَ يَنْظُرونَ أحداً.

بينما جاء في الإصحاح السادس والعشرين ما ينصُّ على أنهم سقطوا جميعاً على الأرض ففيه:

[(١٢) وَلَمَّا كُنْتُ ذَاهِباً فِي ذٰلِكَ إِلَى دِمَشْقَ بِسُلْطَانٍ وَوَصِيَّةٍ مِنْ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ (١٣) رَأَيْتُ فِي نِصْفِ النَّهَارِ فِي الطَّرِيقِ أَيُّهَا الْمَلِكُ نُوراً مِنَ السَّمَاءِ أَفْضَلَ مِنْ لَمَعَانِ الشَّمْسِ قَدْ أَبْرَقَ حَوْلِي وَحَوْلَ الذَّاهِبِينَ مَعِي (١٤) فَلَمَّا سَقَطْنَا جَمِيعُنَا عَلَى الأَرْضِ سَمِعْتُ صَوْتاً يُكَلِّمُنِي وَيَقُولُ بِاللُّغَةِ الْعِبْرَانِيَّةِ شَاوُلُ شَاوُلُ لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي. صَعْبٌ عَلَيْكَ أَنْ تَرْفُسَ مَنَاخِسَ (١٥) فَقُلْتُ أَنَا مَنْ أَنْتَ يَا سَيِّد فَقَالَ أَنَا يَسُوعُ الَّذِي تَضْطَهِدُهُ].

فَالَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ سَقَطُوا جَمِيعاً عَلَى الأرض على خلاف ما جاء في النصّ السابق من أَنَّهُمْ وَقَفُوا صَامِتِين يَسْمَعُونَ الصَّوْتَ ولاَ يَنْظُرُونَ.

ويُلاحظ أيضاً أنّ مَا جاءَ في الإصحاح التاسع ينصُّ على أن الذين كانوا معه قد سمعوا الصوت ولا ينظرون أحداً، بينما جاء في النص الذي في الإصحاح الثاني والعشرين الآتي أنّ الذينَ كانوا معه نظرُوا النور وارتعبوا ولكنّهم لم يَسْمَعُوا صوت الذي كلّمَهُ (انظر رقم (٩) منه).

فما هذه المتناقضات.

(٥) ما جاء في الإصحاح الثاني والعشرين من أعمال الرسل في مَعْرِض الكلام عن «بولس = شاول» فَهُو يُحدِّث عن نفسه فيقول:

[(٣) أَنَا رَجُلٌ يَهُودِيٌّ وُلِدْتُ فِي طَرْسُوسَ كِيلِيكِيَّةَ، وَلٰكِنْ رَبِيتُ فِي هذه الْمَدِينَةِ مُؤَدَّباً عِنْدَ رِجْلَيْ غَمَالاَئِيلَ عَلَىٰ تَحْقِيقِ النَّامُوسِ الأَبَوِيِّ. وَكُنْتُ غَيُوراً لِلّٰهِ كَمَا أَنْتُمْ جَمِيعُكُمُ الْيَوْمَ (٤) واضطهَدْتُ هٰذَا الطَّرِيقَ حَتَّىٰ الْمَوْتِ مُقَيِّداً وَمُسَلِّماً إِلَىٰ السُّجُونِ رِجالاً وَنِسَاءً (٥) كَمَا يَشْهَدُ لِي أَيْضاً رَئِيسُ الكَهَنَةِ وَجَمِيعُ المشيخَةِ الَّذِينَ إِذْ أَخَذْتُ أَيْضاً مِنْهُمْ رَسَائِلَ لِلإِخْوَةِ إِلَىٰ دِمَشْقَ ذَهَبْتُ لآتِيَ بِالَّذِينَ هُنَاكَ إِلَىٰ أُورُشَلِيمَ مُقَيَّدِينَ لِكَيْ يُعَاقَبُوا (٦) فَحَدَثَ لِي وَأَنَا ذَاهِبٌ إِلَىٰ دِمَشْقَ أَنَّهُ نَحْوَ نِصْفِ النَّهَارِ بَغْتَةً أَبْرَقَ حَوْلِي مِنَ السَّمَاءِ نُورٌ عَظِيمٌ (٧) فَسَقَطْتُ عَلَىٰ الأَرْضِ وَسَمِعْتُ صَوْتاً قَائِلاً لِي شَاوُلُ شَاوُلُ لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟ (٨) فَأَجَبْتُ مَنْ أَنْتَ يَا سَيِّدُ؟ فَقَالَ لِي أَنَا يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ الَّذِي أَنْتَ تَضْطَهِدُهُ (٩) وَالَّذِينَ كَانُوا مَعِي نَظَرُوا النُّورَ وَارْتَعَبُوا وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا صَوْتَ الَّذِي كَلَّمَنِي (١٠) فَقُلْتُ مَاذَا أَفْعَلُ يَا رَبُّ؟ فَقَالَ لِي الرَّبُّ قُمْ وَاذْهَبْ إِلَىٰ دِمَشْقَ وَهُنَاكَ يُقَالُ لَكَ عَنْ جَمِيعِ مَا تَرَتَّبَ لَكَ أَنْ تَفْعَلَ (١١) وَإِذْ كُنْتُ لاَ أُبْصِرُ مِنْ أَجْلِ بَهَاءِ ذٰلِكَ النُّورِ اقْتَادَنِي بِيَدِي الَّذِينَ كَانُوا مَعِي فَجِئْتُ إِلَىٰ دِمَشْقَ].

أقـول:
يُلاحظُ في هذه الحادثةِ المصطنعة ثُغرَتَانِ:

الأولى: أنّ النـور الذي ظَهَرَ رُبَّما كَـانَ حَادِثَـةَ بَرْقٍ اسْتَغَلَّهـا «بولس = شـاول» إذْ كان يترصَّدُ أنْ يظهر لَمْعُ بَرْقٍ حتَّىٰ يستغِلَّهُ، بدليل مَا جاء في روايته أنّ الـذين كانـوا معه قد رأوا النور، لكنَّهُمْ لم يَسْمَعُوا صَوْتَ مَنْ كلَّمَهُ.

الثانية: أنَّ النورَ الذي بَهَرَ عَيْنَيْهِ قَدْ غَشَّىٰ عَلَىٰ بَصَرِهِ وحْدَهُ دُونَ أَنْ يُؤَثِّرَ علىٰ الذين كانُوا معه، ومن المعلوم أنَّ الـذين يَتَلَقَّوْنَ وَحْياً أَوْ إِلْهَامَـاتٍ غيبيَّةً يكـونون عَـادَةً أقـوىٰ من غيرهم علىٰ تَحَمُّلِ وارداتِ الأنـوار والقوىٰ الـروحيـة الغيبيَّة من غيـرهم، لا أضعف من غيرهم.

ويتابع «بولس = شاول» كما جاء في هذا الإصحاح فيقول:

[(١٢) ثُمَّ إِنَّ حَنَانِيَّا رَجُلاً تَقِيًّا حَسَبَ النَّامُوسِ وَمَشْهُوداً لَهُ مِنْ جَمِيعِ الْيَهُودِ

السُّكَّانِ (١٣) أتَى إِلَيَّ وَوقف وَقَالَ لِي أيُّها الأخ شَاوُلُ أبْصِرْ. فَفِي تِلْكَ السَّاعَةِ نَظَرْتُ إِلَيْهِ (٤) فقَالَ إِلَهُ آبَائِنَا انْتَخَبَكَ لِتَعْلَمَ مَشيئَتَهُ وَتُبْصِرَ الْبَارَ وَتَسْمَعَ صَوْتاً مِنْ فَمِهِ (١٥) لأنَّكَ سَتَكُونُ لَهُ شَاهِداً لِجَمِيعِ النَّاسِ بِمَا رَأَيْتَ وسَمِعْتَ (١٦) والآنَ لِمَاذَا تَتَوانَى. قُمْ واعْتَمِدْ واغْسِلْ خَطَايَاكَ دَاعِياً بِاسْمِ الرَّبِّ].

أقــول:

أليسَ عجيباً أنَّ «حَنَانِيَّا» الرجلَ اليهوديَّ التقيَّ حسْبَ الناموس، والمشهودَ لَهُ من جميع اليهود السُّكَّانِ، هو الذي يأتي لِيُزِيلَ الْغشَاوَةَ عَنْ بَصَرِ «بولس» وهو الذي يقول له: إِلَه آبائِنا انتخَبَكَ لِتَعْلَمَ مشيئتَهُ، وتُبْصِرَ الْبَارَّ، وتَسْمَعَ صَوْتاً مِنْ فَمِهِ، وهُوَ الذي يأمُرُهُ بأنْ يَنْهَضَ بِسُرْعَةٍ وَيَدْعُو باسْمِ الرَّبِّ الْمَسِيحِ عِيسَى، إنّ كون «حَنانِيّا» تقيّاً حسب الناموس ومشهوداً له بالتقوى من جميع اليهود يدلُّ على أنه يهودي، وليس من تلاميذ عيسى كما جاء في الإصحاح التاسع.

أليس هذا دليلاً واضحاً على أنّ «بولس = شاول» مُكَلَّفٌ مِنْ قبلِ أحبار اليهود أن يدخل النصرانيّة مُنافقاً، ويكون داعياً لربوبيّة عيسى ضمن صفوف النصارى؛ بغية إفساد هذا الدين، إرضاءً لعنصريته وتعصّباً ليهوديته.

ويُتابع «بولس = شاول» كما جاء في هذا الإصحاح فيقول:

[(١٧) وَحَدَثَ لِي بَعْدَمَا رَجَعْتُ إِلَى أُورُشَلِيمَ وَكُنْتُ أُصَلِّي فِي الْهَيْكَلِ أَنِّي حَصَلْتُ فِي غَيْبَةٍ (١٨) فَرَأَيْتُهُ (أي: عيسى عليه السلام) قَائِلاً لِي أَسْرِعْ وَاخْرُجْ عَاجِلاً مِنْ أُورُشَلِيمَ لأَنَّهُمْ لاَ يَقْبَلُونَ شَهَادَتَكَ عَنِّي (١٩) فَقُلْتُ يَا رَبُّ هُمْ يَعْلَمُونَ أَنِّي كُنْتُ أَحْبِسُ وَأَضْرِبُ فِي كُلِّ مَجْمَعٍ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِكَ (٢٠) وَحِينَ سُفِكَ دَمُ إِسْتِفَانُوسَ شَهِيدِكَ كُنْتُ أَنَا وَاقِفاً وَرَاضِياً بِقَتْلِهِ وَحَافِظاً ثِيَابَ الَّذِينَ قَتَلُوهُ (٢١) فَقَالَ لِي اذْهَبْ فَإِنِّي سَأُرْسِلُكَ إِلَى الأُمَمِ بَعِيداً].

أقــول:

لَقَدْ أدركَ «بولس = شاول» أنّ الصَّدُّوقيين في أُورُشَلِيمَ سوف يفضحونه باعتباره فرّيسيّاً ولا يتركونه يعملُ بين النصارى على ما يشتهي، وهو مُوجَّهٌ ومَدْفوعٌ من الأحبار

الفرّيسيّين، فاخترعَ هـٰذِهِ الحادثة، ليبتعد كلّيًّا عن أورُشَليم التي يُوجَدُ فيها صَـدّوقيّون منافسون للفرّيسيّين.

(٦) ونُلاحظ أنّه منذ دخول «بولس = شاول» في النصـرانيّة بـدأت أفكار ربـوبيّة عيسىٰ وألُوهيّته وأنّه ابنُ الله تدخل في التعاليم النصرانيّة، ولم يكن لهذه الأقوال وجـودٌ في الإنجيل، ولا في أقوال عيسىٰ وحوارِيِّيه وتـلاميذِهِ الّـذِين كانـوا قد تَلَقَّوْا عنْهُ، وأنّ رسائل بولس وتعاليمَهُ هي التي صارت بعد قرون مرجع الـديانـة النصرانيّـة الرسميّـة، وهذا يدلُّ علَىٰ أنّ عَـدَداً من المنافقين اليهـود في النصرانيّـة قد تَتَـابَعُوا واحْتَلُّوا مـراكز قياديَّة دينيَّةً وسياسيّة لترسيخ أفكار بـولس التي دفعه أحبـار اليهود الفـرّيسيّين لبثّها في النصرانيّة بغية إفساد الدِّين الذي جاء به رسول الله عيسى عليه السلام.

(٧) أمّـا دسُّ فكرةِ كـونِ عيسَىٰ عليه السَّـلامُ ابناً لله فنجـدُها في مُقـدّمَة رسـالة «بولس = شاول» إلى أهل رومية[1]، وكذٰلِكَ إدْخالُ فكرةِ كونِ بولس هو الرسـول الذي سبق أن جاء الوعد به في الكتب المقدسة، فقد جاء في الإصحاح الأوّل منها ما يلي:

[(١) بُـولُسُ عَبْدُ لِيَسُـوعَ الْمَسِيحِ الْمَـدْعُوّ رَسُـولاً الْمُفْرَزُ لإِنْجِيـلِ الله (٢) الّذِي سَبَقَ فَوَعَدَ بِهِ بِأَنْبِيَائِهِ فِي الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ (٣) عَنِ ابْنِـهِ. الّذِي صَـارَ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ مِنْ جِهَـةِ الْجَسَدِ (٤) وَتَعَيَّنَ ابْنَ اللّٰهِ بِقُـوَّةٍ مِنْ جِهَةِ رُوحِ الْقَـدَاسَةِ بِـالْقِيَامَةِ مِنَ الأَمْوَاتِ. يَسُوعَ الْمَسِيحِ رَبِّنَا (٥) الّذِي بِهِ لأَجْلِ اسْمِهِ قَبِلْنَا نِعْمَـةً وَرِسَالَـةً لإِطَاعَةِ الإِيمانِ فِي جَمِيعِ الأُمَمِ (٦) الّـذِينَ بَيْنَهُمْ أَنْتُمْ أَيْضاً مَـدْعُـوّو يَـسُـوعَ المسيح (٧) إِلَىٰ جَمِيعِ الْمَـوْجُودِينَ فِي رُومِيَّة أَحِبَّاءَ اللّٰهِ مَـدْعُوِّينَ قِـدِّيسِينَ. نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَـلاَمٌ مِنَ اللّٰهِ وَالـرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ].

(٨) ومُنْذُ ذلك الحين نَشط «بولس = شاول» بالدَّعْـوَةِ إِلَىٰ المسيحيّة، معلنـاً أنّ عيسَىٰ هُو الرَّبّ، وهو الإلٰـه، وهو ابنُ الله، واستمرّ بنفاقه يُرسّخ أقدامه بَيْنَ النصارىٰ، ويستغـلُّ براءتهم، وصفـاء قلوبهم، حتّىٰ صَارَ الْمُعَلِّمَ الأَوّلَ فِي المسيحيّـة، ودَاعِيَتَهـا

(١) رسالة بولس إلى أهل رومية من الرسائل الموثوق بصحة نسبتها إلى بـولس لدى الْمُحَـدِّثين من علماء المسيحيين المشتغلين في الوقت الحـاضر بشؤون ديـانتهم وأسفارهم، كمـا ذكر د: علي عبد الواحد وافي في كتابه «الأسفار المقدّسة في الأديان السابقة للإسلام» ص(١١٧).

النَّشِيط، وأخذ يَنْشُرُ أنَّهُ يَتَلَقَّى التَّعَالِيمَ الْمَسِيحِيَّةَ إلْهاماً، ويَسْتُرُ بِهَـذِهِ الدَّعْوَى مَـا يَعْلَمُهُ النَّاسُ عَنْهُ من أنّه لم يكنْ من تلاميـذِ المسيح، ولم يجتمـع به، ولم يَسْمَـعْ منه، بـل كان يضطهد تلاميذه وأتباعه.

وفتح لنفسه بأُكْذُوبَـةِ كَوْنِـه يتلقّى تعاليم الـدين إلهاماً مجال التـلاعُب بالـدّين، والتَّحْرِيفِ فيه وفْقَ مخطّط يَهُودِي مُعـادٍ لكلّ مـا ليس بيهوديّ، ولـو كان مُنَـزّلاً من عند الله عزّ وجل، ويؤمنون بأنّه حقٌّ من عند الله.

ومع فرح أتباع عيسى وتلاميذه بتنصر بولس إلاّ أنّ بعضهم شكّ في أمـره لولا أن دافع عنه برنابا، ثم تنكروا له ولم يبق معه إلاّ تلميذه لوقا وتلميذه مرقس.

(٩) وصار هذا الرجل اليهودي في تاريخ المسيحيّة أحـد الرُّسُـل السبعين الذين نـزل عليهم روح القدس في اعتقـاد النصـارى بَعْـدَ رفـع المسيح، وأُلْهِمُـوا بـالتبشير بالمسيحيّة، كمـا أُلْهِمُوا مبـادئها، ويُسَمّي النصـارى هؤلاءِ السبعين رُسُلاً، أي: رُسُـلاً للتبشير بالمسيحيّةِ في الأقطار.

وتفاقم تأثير «بولس = شاول» حتّى صار معلّمـاً لـ «مرقس» أحـد كتاب الأنـاجيل الأربعة، إذْ لازمه ملازمَة التلميذ لأستاذه، وصـار معلّماً لـ «لـوقا» أحـد كتاب الأنـاجيل الأربعة أيضاً.

قالوا: وكان «لوقـا» التلميذ الحبيب، والـرفيق الملازم لـ «بـولس = شاول» وليس هو من أصل يهودي.

والأفكـار التي أدخلها «بـولس» في المسيحيّـة، حـول كـون عيسىٰ ربّـاً أو إلٰـهاً أو ابن الله لم تكن قـد عرفت في النصـرانيّـة قبـل بـولس، ولم تكن منتشـرة لـدى كـلّ النصارى بعد أن أدخلها «بولس» ودعا إليها.

(١٠) وحين دخـل «بولس = شـاول» في الديـانة النّصـرانيّة مُنـافقاً عـامـلاً على إفسادها وتحريفها من الداخل، وأحلّ نفسه منها بادعاءاته الكاذبات محلّ المعلّم الأول الذي يتلقّىٰ التعاليم مباشرةً من الرّبّ المسيح لاَ مِنْ فم إنسان، أخذ يطوف في الأقاليم يُبَشّر بالمسيحيّةِ التي صنَعها هو افتراءً على الله، ضمن خطّة فيها دهاء كبير.

فصار يُلْقي الخطب، ويُنْشيء الرسائل، حتّى كانت رسائله والرسائل الموضوعـة

باسمه هي الرسائل التعليميّة في النصرانية، بما حوت من مبادىء اعتقادية، وشرائع عملية، يوم اعتنق «قسطنطين» الأكبر النصرانية.

جاء في رسالة بولس الرّسول إلى أهل غلاطيّة ما يلي:

[(١) بولُسُ رَسُولٌ لاَ مِنَ النَّاسِ وَلا بإنْسَانٍ بَلْ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ واللّهِ الآبِ الَّذِي أقَامَهُ من الأموات. . .].

وجاء فيها أيضاً:

[(١١) وأُعَرِّفُكُمْ أيُّها الإِخْوَةُ الإنجيلَ الّذي بشّرْتُ بِهِ أَنَّهُ لَيْسَ بِحَسَبِ إِنْسَانٍ (١٢) لأنّي لَمْ أَقْبَلْهُ مِنْ عِنْدِ إِنْسَانٍ وَلاَ عُلِّمْتُهُ. بَلْ بإعْلانِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ (١٣) فَإِنَّكُمْ سَمِعْتُمْ بِسِيرَتِي قَبْلاً فِي الدِّيَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ أَنِّي كُنْتُ أَضْطَهِدُ كنيسَةَ اللّهِ وَأُتْلِفُهَا (١٤) وَكُنْتُ أَتَقَدَّمُ فِي الدِّيَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ عَلَى كثِيرِينَ مِنْ أَتْرَابِي فِي جِنْسِي إِذْ كُنْتُ أَوْفَرَ غَيْرَةً فِي تَقْلِيداتِ آبائي. . .].

(١١) واستمرَّ المنافقون من اليهود في النصرانيّة يُثبّتون أفكار «بولس» فيها، حتّى صارت هي الدين الرسميُّ العامّ الذي تبنّاه الإمبراطور «قُسطنطين الأول الأكبر» حين اعتنق المسيحيّة في سنة (٣١٣م).

أمّا النسبة العظمىٰ من المسيحيين فقد كانوا على خلاف العقائد التي دسَّها «بولس = شاول» في النصرانية، وجُلُّهم كانوا يؤمنون بأنّ عيسىٰ عبد الله ورسوله، لكنّ سلطان الدولة الرومانية فرض الكاثوليكيّة التي تبنّتْ ما دسّه «بولس» من أفكارٍ وعقائد.

وكان دور المنافقين في ذلك أخطر دور إفسادٍ صنعه النفاق في التاريخ البشريّ.

(١٢) ويلاحظ في تاريخ النصرانيّة أنّه قام صراع حادّ وطويل بين «بولس» وأنصاره من جهة، وأتباع عيسىٰ عليه السلام الحقيقيّين من جهة أخرى، وامتد قروناً بعد وفاة بولس.

ففي أنصار بولس كان يُوجَدُ القليل من المتعلمين، والكثير من الجماهير الجاهلة الأميّة، لأنّ بولس وأتباعه أتقنوا سياسة تجميع الجماهير بالأساليب الإغرائية.

أمّا المسيحيّون الحقيقيّون فكان يوجد فيهم الكثير من المتعلمين، والقليل من الجماهير الجاهلة الأميّة.

●●●

الفصل الثاني

منافقون في عصر الرسول ﷺ وخبائثهم

وفيه:

مقدمة، ومقولتان:

المقولة الأولى : حول طائفة من أسماء المنافقين وأحداثهم في عصر الرسول ﷺ.

المقولة الثانية : حول طائفة من أحداث المنافقين في عصر الرسول ﷺ.

مقدّمة

قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة مهاجراً من مكة، بعد أن بايعه سادة المدينة الذين آمنوا وأسلموا على أن يحموه مما يحمون منه نساءهم وأبناءهم، وذلك فيما يُعْرَفُ ببيعة العقبة الثانية.

وكان قدومه إلى المدينة غُصَّةً في نفوس بعض أصحاب المكانة فيها إذْ لم يؤمنوا به ولا بما جاء به عن ربّه، وغُصَّةً في نفوس أتباعهم وأنصارهم.

واضطر بعض هؤلاء أن ينافق الرسول والمسلمين المؤمنين، ويُعلن إسلامه تظاهراً ونفاقاً، حينما وجد أن الأمر قد أفلت من يده، وهو لا يملك مقاومة الرسول والذين آمنوا به واتّبعوه، ولا مقاطعتهم والاعتزال عنهم، لكنّه كان يضمر الكفر والحقد، ويبتغي في سرّه المكر والكيد ضد الإسلام والرسول والمهاجرين معه.

إنّ شأن كلّ دعوة كاسحة تؤمن بها الجماهير المنصفة وتندفع في سبيلها، أن يدخل بين صفوفها منافقون كاذبون، استولى على قلوبهم الخوف والجبن، فلم يُعْلِنوا العداوة، وبدا لهم أن يتعاملوا مع الحدث الجديد بالرّويّة، وانتظار الفرص المواتية، حتى يَقْلِبوا الأوضاع لصالحهم، مع ما يُصيبونه من أمْنٍ ومشاركة للمؤمنين الصادقين من منافع، إذا تحقّقت منافع.

لكنّهم إذا حزب الأمر واشتدت الأزمات تخاذلوا، وأطلقوا ألسنتهم بالأراجيف والمثبّطات، وإشاعة الأكاذيب والمفتريات، وأخذوا يَعْقِدُون مختلِفَ الصِّلاتِ المريبة مع العدو السافر، ويجتمعون في خلوات خبيثات يبيّتون فيها أنواع الخيانات.

●●●

المقولة الأولى

حول طائفة من أسماء المنافقين وأحداثهم في عصر الرسول ﷺ

(١)
رأس المنافقين في المدينة
عبد الله بن أُبَـيّ بنْ سلول

* تـعـريـف بـه:

عبد الله بن أُبَـيّ بـن سَلُول، رجلٌ كان ذا مكانة وشرف في قـومه قبـل الإسلام، وهـو من أهل يثـرب (المدينـة بعد الإسـلام) ومن الخزرجيين المنسـوبين إلى عوف بن الخزرج، إحدى قبيلتين عربيَّتَيْن في يثرب، هما: الأوس، والخزرج.

و «سَلُول» جدَّةُ عبد الله، أمُّ أبيه «أُبـيّ».

قال ابن هشام: سَلُول امـرأة من خزاعـة، وهي أمّ أُبـيّ بن مالـك بن الحارث بن عُبَيْد بن مالك بن سالم بْن غَنْم بْن عَوْف بن الخزرج.

روى ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة: أنّ رسـول الله ﷺ قَدِم المـدينة، إذْ كـان عبد الله بن أبي بـن سلول العَـوْفي سيِّد أهلهـا، لا يختلف عليه في شـرفه من قـومه اثنـان، ولم تجتمـع الأوس والخـزرج قبله ولا بعـده على رجـلٍ غَيْـره من أحـد الفـريقين حتى جاء الإسـلام، وكان قـومه قـد نظمـوا له الخـرز ليتـوِّجـوه، ثم يُمَلكـوه عليهم، فجاءهم الله تعالى بـرسولـه ﷺ وهم على ذلك، فلمَّـا انْصَرف قـومُه عنـه إلى الإسلام ضَغِنَ، ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه مُلْكاً، فلمَّا أنْ رأى قومَه قـد أبَوْا إلاّ الإسلام دخل فيه كارهاً مُصِرّاً علَىٰ نفاقٍ وضِغْنٍ.

* * *

* مواقفه وخبائثه:

الموقف الأول: روى ابن إسحاق بسنده، عن أسامة بن زيد بن حارثة، حِبِّ رسول الله ﷺ، قال:

ركب رسول الله ﷺ، إلى سَعْدِ بن عُبَادَة يُعودُه من شَكْوٍ (أي: مرض) أصابه، على حمارٍ عليه إكاف[١]، فوقه قطيفة[٢] فَدَكِيَّةٌ[٣]، وأردفني رسول الله ﷺ خلفه، فمرّ بعدُوّ الله ابْنِ أُبَيّ، وهو في ظلّ مزاحم أُطُمِهِ[٤]، وحول ابن أُبَي رجالٌ من قومه، فلمّا رآه رسول الله ﷺ تَذَمَّمَ[٥] مِن أن يجاوزه حتى ينزل. فنزل فسلّم، ثم جلس قليلاً، فتلا القرآن، ودعا إلى الله عزّ وجلّ، وذكّر بالله، وحَذَّرَ وبَشَّرَ وأنذر، وهو (أي: عبد الله بن أُبَيّ) زَامٌّ[٦] لا يتكلم، حتّى إذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته، قال (أي: عبد الله بن أبي): يا هذا، إنَّهُ لا أَحْسَنُ من حديثك هذا، إنْ كان حقّاً فاجْلِسْ في بيتك، فمن جاءكَ لَهُ فحدِّثْهُ إيّاه، ومَنْ لَمْ يأْتِكَ فَلاَ تَغُتَّهُ[٧] به، ولا تأتِهِ في مَجْلِسِه بما يكره منه.

فقال عبد الله بن رواحَةَ في رجالٍ كانوا عنده من المسلمين: بلَىٰ، فاغْشَنَا به، وائْتِنَا به في مَجَالِسِنا ودورنا وبيوتنا، فهو والله مما نُحِبّ، وممّا أكرمنا الله به وهدانا له.

فقال عبد الله بن أُبَيّ حين رأىٰ من خلاف قومه ما رأى:

مَتَىٰ ما يَكُنْ مَوْلَاكَ خَصْمَكَ لَا تَزَلْ ... تَذِلُّ وَيَصْرَعْكَ الَّذِينَ تُصَارِعُ
وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَازِي بِغَيْرِ جَنَاحِه ... وَإِنْ جُذَّ يَوْماً رِيشُهُ فَهُوَ وَاقِعُ

وقام رسول الله ﷺ فدخل علىٰ سَعْدِ بن عبادة، وفي وجْهِهِ ما قال عدوّ الله ابنُ أُبَيّ بن سلول.

---

(١) **الإكاف**: البرذعة.

(٢) **القطيفة**: دِثار له خملة.

(٣) **فدكية**: نسبة إلى «فدك» بلد كانت تُصنع فيه هذه القُطُف.

(٤) **الأطم**: الحصن، وأطم عبد الله بن أبي بن سلول اسمه مزاحم.

(٥) **تذمّم**: أي: استحيا وكره.

(٦) **زامٌّ**: أي: مستكبر رافع أنفه.

(٧) **فلا تغته به**: أي: فلا تتعبه ولا تؤذه به.

فقال: (أي: سعد): والله يا رسول الله إنّي لأرى في وَجْهِكَ شيئاً، لَكأَنَّكَ سَمِعتَ شيئاً تكرهه.

فقال: أجل، ثمّ أخبره بما قال ابْنُ أُبيَّ.

فقال سَعْدُ بن عُبَادة: يا رسول الله ارفُقْ به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنّا لنَنْظِمُ له الْخَرَزَ لِنُتَوِّجه، وإنّه لَيَرى أن قد سلبته مُلْكاً.

* * *

الموقف الثاني: في أواخر الشهر السابع من السنة الثانية من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، أي: بعد غزوة بدر الكبرى بشهر، نقض يهود بني قينقاع[1] عَهْدَهم مع رسول الله ﷺ، وكانوا أول اليهود الذين نقضوا ما بينهم وبين الرسول من عهد.

أخذ يهود بني قينقاع يشتطّون في إعلانهم العداوة للرسول محمّد ﷺ وللمؤمنين المسلمين، وفي وقوفهم مواقف التحدّي والتصدّي لرسالة الإسلام، وتبييت المكايد للمسلمين، وأمْسَىٰ الرسول منهم على حذر شديد، وبات يتخوّف من خيانتهم ونقضهم العهد.

ورُوِي أنّ الرسول ﷺ قال: «إنّي أخافُ خيانة بني قينقاع» وذلك حينما أنزل الله عليه قوله في سورة (الأنفال/٨ مصحف/٨٨ نزول) ثاني سورة مدنية:

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: انْبِذْ إليهم عهدهم ولا تَغْدُرْ بهم، وأشعرهم بأنّهم قد أصبحوا محاربين، حتّىٰ يكون أمرهم وأمركم على سواء لا غرر فيه ولا خيانة.

وقد حافظ الرسول ﷺ على عهده معهم لم ينكث به، وظلّ حريصاً على دعوتهم إلى الإسلام وترغيبهم فيه، حتّى كانوا هم البادئين بالشرّ ونقض العهد.

فجاء الرسول ﷺ إلى سوقهم بعد غزوة بدر، فجمعهم، ثم قال لهم:

---

(١) بنو قينقاع: بطن من النازحين إلى المدينة من اليهود.

«يا معشرَ يهودَ احْذَرُوا من الله مثلَ ما نزل بقريشٍ من النِّقْمة، وأَسْلِمُوا، فإنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ أَنِّي نبيٌّ مُرسَلٌ، تَجِدُونَ ذَلِكَ في كتابكم وعَهْدِ اللَّهِ إلَيْكُمْ.

قالوا: يا مُحَمّد، إنَّكَ تَرى أنَّا قَوْمُكَ، لا يَغُرَّنَّكَ أنَّكَ لَقِيتَ قَوْماً لا عِلْمَ لهم بالحرب، فأَصَبْتَ مِنْهُمْ فُرْصَةً، إنَّا واللَّهِ لَئِنْ حارَبْنَاكَ لَتَعْلَمَنَّ أنَّا نَحْنُ النَّاس.

فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم قوله في سورة (آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول) ثالث سورة مدنية:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾.

وكان ما جرى من يهود بني قينقاع بمثابة الإنْذارِ العلني، المتضمّن استعدادهم لحرب الرسول والذين آمنوا معه، والمشعر بأنّهم مزمعون على نقض العهد الذي بينهم وبينه.

ثم كان من مظاهر استعدادهم لمحاربة الرسول والذين آمنوا به، وترقبهم الفرصة الملائمة المواتية، أنّ امرأة من مسلمات العرب قدِمَتْ بجَلَبٍ لَها، فباعَتْهُ بسوق بني قينقاع، ثم جلَسَتْ إلىٰ صائغٍ يهوديٍّ في السوق، لعلّها تريد أن تشتري بعض الْحُليّ، وكانت هذه المرأة العربيّة محجّبةً وجْهَها.

فجعل نفرٌ من يهود بني قينقاع يستهزئون بها، ويطلبون منها أن تكشف وجْهَها، والمرأة تأبىٰ ذلك.

فعَمَد الصائغ اليهودي إلى طرف ثوبها من خلف وعقده إلى ظهرها وهي جالسة، دون أن تشعر المرأة بما فعل، فلمّا قامَت انكشفت سوأتُها، فانطلَقَتْ من اليهود ضجّة ضَحِكٍ وسُخْرِيةٍ بهذه المرأة المسلمة.

فلمّا أحسَّتِ المرأة بما فعل الصائغ بها من مكر خبيثٍ صاحت واستغاثت

بالمسلمين لشرفها المهان في سوق اليهود، فوثب رجلٌ من المسلمين على الصائغ فقتله، فشدَّتِ اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، ووقع الشرّ بينهم وبين هذا الحيّ من اليهود النازحين إلى المدينة.

وكانت قبيلة بني قينقاع أول من قابَلَ المسلمين بالخيانة والغدر من اليهود.

فنبذ رسول الله ﷺ إليهم عهدهم، وكان ذلك على سواء بينهم وبين المسلمين، كما أمر الله.

ودعا الرسول المسلمين إلى قتالهم، فحاصرهم في حصونهم خمس عشرة ليلة، وألقى الله في قلوبهم الرُّعْب، ولم يستطيعوا أن يظهروا لقتال المسلمين.

ولمّا طال عليهم الحصار نزلوا على حكم الرسول صلوات الله عليه، وأَمْكَنَ الله نبيّه منهم.

وهنا تقدّم رأس المنافقين في المدينة «عبد الله بن أُبَيّ بن سلول» وكان حليفاً ليهود بني قينقاع قبل الإسلام، فقال:

«يا مُحمّد، أَحْسِنْ في مَوَاليَّ، إنّي واللّهِ امْرُؤٌ أَخْشَىٰ الدوائر».

أي: أحسن في حلفائي ونصرائي.

فابطأ عليه الرسول ﷺ ولم يُجِبْه.

فقال ابن أُبَيّ: يا مُحَمَّدُ أَحْسِنْ فِي مَوَاليَّ.

فأعرض الرسول ﷺ عنه.

فأدخل ابن أُبَيّ يَدَه في جَيْبِ دِرْعِ رسول الله ﷺ.

فقال له الرسول: أَرْسِلْنِي، وغضِبَ ﷺ حتّىٰ رَأَوْا لِوَجْهِهِ ظُلَلًا (أي: سحابات من غضب).

ثم قال لابْن أُبَيّ: ويْحَكَ، أَرْسِلْني!!

قال ابْنُ أُبَيّ: لا واللّهِ لاَ أُرْسِلُكَ حَتَّىٰ تُحْسِنَ فِي مَوَاليَّ، اربعمائة حاسر،

وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تَحْصِدُهم في غداةٍ واحدةٍ؟!. إنّي والله امرُؤٌ أخْشَىٰ الدوائر.

فقال له رسول الله ﷺ: هُمْ لَكَ.

ثمّ اكتفى الرسول بإجلائهم عن المدينة، وكان معظمهم يشتغلون بالصياغة والتجارة، فأذن لهم بأخذ أموالهم وأثقالهم وخفيف سلاحهم، فخرجوا منها إلى الشام، حتّىٰ نزلوا بأذْرِعات وأقاموا فيها، لكنّهم لم يلبثوا حتّى هلك أكثرهم، ونالوا جزاء خيانتهم وغدرهم ومكرهم ومحاربتهم الله ورسوله، ولَعَذَاب الآخرة أشدّ وأكبر.

* * *

الموقف الثالث: في السنة الثالثة من الهجرة، قَدِمتْ قُرَيشٌ مع مَنْ جمعت من الأحابيش وقبائل العرب حول مكة من كنانة وأهل تهامة، لحرب الرسول ﷺ والمسلمين معه في المدينة، ثأراً لما أصابهم في غزوة بدر الكبرىٰ، وكان قوام جيشهم قرابة ثلاثة آلاف مقاتل، ومعهم ثلاثة آلاف بعير، ومئتا فرس، وفيهم ستمائة دارع، ولمّا وصلوا نزلوا مقابل المدينة.

واستشار الرسول ﷺ المسلمين فيما دهمهم من مقدم أهل مكة لقتالهم، هل يخرجون إليهم لقتالهم، أو يبقَوْن مُحَصّنين في المدينة؟

وكان رأي الرسول وشيوخ المهاجرين والأنصار أن يقيموا في المدينة ويتحصّنوا بها، فإن دخل عليهم فيها القادمون لحربهم قاتلوهم في طرق المدينة ومن فوق رؤوسهم، وكان الرسول يكره الخروج من المدينة لقتالهم.

وكذلك كان رأي رأس المنافقين «عبد الله بن أُبَيّ بن سلول» ومعه أتباعه، وقال: يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا إلى عدوٌ قطّ إلاّ أصابَ منّا، ولا دخل علينا إلاّ أصبنا منه، فكيْفَ وأنْتَ فينا؟! فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإنْ رجَعُوا رجعوا خائبين.

لكنّ رجالاً من المسلمين من الذين فاتهم شرف المشاركة في غزوة بدر قالوا: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرَوْن أنّا جَبُنّا عنْهُمْ وضَعُفْنا، وما زال هؤلاء

يستحثّون الرسول للخروج حتّى دخل بيته بعد صلاة الجمعة، ولَبِسَ لأْمَتَهُ[1]، ثم خرج عليهم.

وندم الذين استحثّوا الرسول على الخروج، وقالوا: اسْتَكْرَهْنا رسول الله ﷺ، ولم يكن لنا ذلك، وقالوا له حين خرج لابساً لباس الحرب: يا رسول الله، اسْتَكْرَهْنَاكَ ولم يَكُنْ ذلِكَ لنا، فإنْ شِئْتَ فاقْعُدْ صلى الله عليك.

فقال النبي ﷺ: مَا يَنْبَغِي لنبيٍّ إذا لَبِسَ لأْمَتَهُ أنْ يَضَعَها حتّى يُقَاتِلَ.

فخرج رسول الله ﷺ في ألفٍ من أصحابه، وفيهم عبد الله بن أُبَيّ بن سلول، ومعه أتباعه وأنصاره من قومه.

فلمّا وصَلُوا إلى مكان بين المدينة وجَبَلِ أُحُدٍ اسْمُهُ «الشَّوْط» انخذل عبد الله بن أُبَيّ بن سلول وانخذل معه أصحابه، وكانوا قرابة ثلاثمائة رجل، فرجعوا إلى المدينة، وقال عبد الله: عَلامَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنا ههُنَا أيُّها الناسُ؟!

ولمّا رآهم عبد الله بن عَمْرو بن حرام يرجعون منخذلين، تبعهم وقال لهم: يا قوم، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ، ألّا تخذلوا قومكم ونبيَّكُم، عندما حضر من عَدُوّكم.

فقالوا له: لو نَعْلَمُ أَنّكُمْ تُقَاتِلُونَ لَمَا أَسْلَمْنَاكُمْ، ولكنّا لا نرى أنّه يكونُ قتال.

فلمّا اسْتَعْصَوْا عليه قال: أَبْعَدَكُمُ اللَّهُ أَعْدَاءَ الله، فَسَيُغْنِي اللَّهُ عَنْكُمْ نَبِيَّه.

وكان عبد الله بْنُ أُبَيّ بن سلول، له مقام بقومه قَبْلَ أُحدٍ إذا جلَسَ رسول الله ﷺ يوم الْجُمُعة، وهو يخطب الناس، فيقول: أيُّها الناس، هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزَّكُم به، فانْصُروهُ وَعَزِّرُوه[2] واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس.

فلمّا كان منه ما كان يوم أُحُد، إذِ انْخَذَلَ عن الرسول ﷺ بنحو ثلث الجيش، قام يوم الجمعة ليقول كلامه الذي كان يقولُه قبل أُحُدٍ، فأخذ المسلمون بثيابه مِن

---

(١) اللأْمة: لباس الحرب.

(٢) عزّروه: أي: أعينوه وقوّوه وعظموه ووقّروه.

نواحيه، وقالوا له: اجْلِس أيْ عُدُوَّ الله، لسْتَ لذلك بأهْل، وقد صَنَعْتَ ما صَنَعْتَ.

فخرج يتخطّىٰ رقابَ الناس وهو يقول: واللّهِ لكأنّما قُلْتُ هُجْراً[1] أنْ قُمْتُ أُشدّدُ أمْرَه؟

فلقيه رجلٌ من الأنصار بباب المسجد، فقال: مَالَكَ؟ ويْلَك!.

قـال: قُمْتُ أُشَدِّدُ أَمْـرَهُ، فوثَبَ عليّ رجـالٌ من أصحابـه يجذبـونني ويُعَنّفونني، لكأنّما قُلْتُ هُجْراً[1] أنْ قُمْتُ أُشدِّدُ أمْرَه؟

قال: وَيْلَكَ، ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ.

قال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي.

* * *

الموقف الرابع: لمّا حـاصر رسـول الله ﷺ يهود بني النضيـر عقـابـاً لهم على محاولتهم اغتياله وهو في حيّهم، جعَلَ رهطٌ من بني عَوْفِ بن الخزرج، منهم عدوّ الله «عبـدُ الله بْنُ أُبـيّ بـن سلول» و «وديعـةُ بن ثـابت من بني أُمَيَّـة بْن زيْـدِ بْن مـالـك» و «مَالِكُ بْنُ أبي قَوْقل» و «سُويْدٌ» و «داعِسٌ» يبعثـون إلى بني النضير سـرّاً: أن اثْبُتُوا، وتمنَّعُوا، فإننا لا نُسْلِمُكُمْ، إنْ قُوتِلْتُمْ قاتَلْنَا معكم، وإنْ أُخْرِجْتُمْ خرَجْنَا معكم.

فتـربَّصُوا ذلـك من نَصْـرِهم، فلم يَفْعَلُوا، فقـذف الله في قلوب بني النضير الرعبَ، وسألوا رسول الله أن يُجْلِيَهم ويكُفَّ عن دمائهم، على أنّ لهم ما حملت الإبل من الأمـوال، إلاّ الحلقة (أي: السـلاح) فقبل الرسول ﷺ ذلـك منهم، وتمّ إجلاؤهم عن المدينة.

* * *

الموقف الخامس: في سنـة خمس للهجـرة بلَغَ النبيّ ﷺ أنّ بَني الْمُصْـطَلِقِ يجمعون الجموع لحربه، فخرج إليهم في سبعمائة من أصحابه.

وسار جيش المسلمين حتّىٰ دَهَمُوا بني المصطلِقِ وهم غافلون عند ماءٍ لهم يُقـالُ له: «الْمُرَيْسيع».

---

(١) هُجْراً: أي: كلاماً قبيحاً.

وأمَرَ الرسول ﷺ عُمر بن الخطاب فنادى فيهم: أنْ قولوا: لا إلٰه إلاّ الله، تَمْنَعُوا بها أنفسكم وأموالكم، فأبَوْا.

فترامَىٰ الفريقان بالنَّبال، ثمّ أمر الرسول المسلمين أن يحملوا عليهم، فحملوا عليهم مقاتلين حَمْلَةَ رَجُلٍ واحد، فقتلوا منهم عشرةً وأسروا سائرهم، وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة.

وبينما كان المسلمون على الماء يستقون، تزاحم على الماء أجيرٌ لعمر بن الخطّاب من بني غِفَارٍ يقال له: جهجاه بن مسعود يقود فرسه، وسِنَانُ بْنُ وَبَرَ الْجُهَنِي، حليفُ بني عوفِ بن الخزرج، فاقتتلا، فصرخ الْجُهني: يا معشر الأنصار، وصَرَخ جَهْجَاه: يا معشر المهاجرين، واجتمع الفريقان، وكادوا يقتتلون.

فبلغ الرُّسولَ ما جرى، فذهب إليهم وقال:

«أبدعْوىٰ الجاهليَّة وأنَا بيْنَ أظهركم؟ دَعُوها فإنّها مُنْتِنَة».

وأطفأ الرسول الفتنة، ووصَلَ إلى «عبد الله بن أُبَيّ بن سلول» نبأُ ما جرى، فغضب، وعنده رهطٌ من قومه فيهم «زيد بن أرقم» غلام حدث السّن، فقال «عبد الله بن أُبي بن سلول»:

«أوَقَدْ فعَلُوها؟ قد نافرونا(١) وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعُدُّنَا وجلابيبَ قريش(٢) إلّا كما قال الأول: سمِّنْ كَلْبَكَ يأكُلْك، أمَا واللهِ لَئِنْ رَجعْنَا إلَىٰ المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ».

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم:

هذا ما فعلْتُم بأنفسكم، أحْلَلْتُموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أمَا والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم».

---

(١) نافَرُونا: أي: فاخَرونا وزادوا علينا في كثرة نفرهم.

(٢) جلابيب قريش: لقب أطلق على المهاجرين من مكة، وهو من إطلاق اللّباس على لابسه، فالجلابيب نوع خشن من الثياب.

ونقل «زيد بن أرقم» ما سَمِع إلى الرسول ﷺ بعد أن انتهى من أمره مع بني الْمُصْطَلِق، وكان عند الرسول عُمَر بن الخطاب، فقال عمر: يا رسول الله، مُرْ به عبّاد بْنَ بِشْرٍ فلْيَقْتُلْه.

فقال الرسول: فكيف يا عُمَر إذا تحدّث الناس أنّ محمّداً يَقْتُلُ أصحابه؟!، ولكِنْ أَذِّنْ بالرَّحيل، وذلك في ساعة لم يكن الرسول يرتَحِلُ فيها، فارتحلَ الناس.

وبلغَ «عبد الله بن أبي بن سلول» أنّ «زيد بن أرقم» أخبر الرسولَ بما سمع منه، فجاء إلى الرسول فحلف له أنّه لم يقل الكلام الذي نقله إليه زيد بن أرقم، ولا تكلّم به، وقال من كان عند الرسول من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسَى أن يكون الْغُلَامُ قدْ أوْهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حَدَباً على عبد الله بن أُبيّ بن سلول، ودفعاً عنه.

ثم أقبل إلى الرسول ﷺ «أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْر» فحيّاه بتحيّة النبوّة، وسلّم عليه، ثمّ قال: يا نبيّ الله، والله لقد رُحْتَ في ساعةٍ مُنْكَرةٍ، مَا كُنْتَ تَرُوح في مِثْلِها.

فقال له رسول الله ﷺ: «أَوَمَا بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكُمْ؟

قال: وأيُّ صاحبٍ يَا رسول الله؟.

قال: «عبدُ الله بن أبيّ».

قال: وما قال؟

قال: «زعَمَ أنّه إنْ رَجَعَ إِلَى المدينةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ مِنْها الأذل».

قال أسيد: فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللّهِ، والله تُخْرِجُهُ مِنْها إنْ شِئْتَ، هو والله الذليل وأنت العزيز.

ثمّ قال: يا رسول الله، ارْفُقْ به، فوالله لقد جاء اللّهُ بك، وإنَّ قومه لَيَنْظِمُونَ لَهُ الخرز لِيُتَوّجوه، فإنّه لَيَرى أنّك قد استلبته ملكاً.

وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنّه بلغني أنّك تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ الله بن أُبيّ فيما بلغك عنه، فإنْ كنت لا بُدّ فاعلاً فمُرْني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرجُ ما كان لها من

رجُلٍ أبرَّ بوالده منّي، وإنّي أخشَىٰ أنْ تأمر به غيري فيقتُله، فلا تدعُني نفسي أنْظُرُ إلَىٰ قاتل عبد الله بن أُبيّ يمشي في الناس، فأقْتُله، فأقْتُل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار.

فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفَّقُ به، ونُحْسِنُ صحبته ما بقي معنا».

فكان من أمر عبد الله بن أبي بن سلول بعد ذلك أنّه إذا أحدث الحدث تصدّىٰ له قومه، فكانوا هم الذين يعاتبونه، ويأْخُذُونَهُ ويُعنفونَهُ.

فقال رسول الله ﷺ لعُمَرَ بن الخطّاب حين بلغه ذلك من شأنهم: «كيف ترىٰ يا عُمَر، أمَا والله لو قتلْتُه يوم قُلْتَ لي اقتله، لأُرْعِدَتْ آنُفٌ، لو أمَرْتُها اليوم بقتله لقتلتْه».

قال عمر: قد والله عَلِمْتُ لأمْرُ رَسُولِ الله ﷺ أعظَمُ بركةً من أمري.

* * *

الموقف السادس: وفي غزوة بني الْمُصْطَلِق أيضاً كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هي التي خرج سهمها في القرعة أن تكون مع الرسول، حين أقرع ﷺ بين نسائه، فخرجت معه.

وكان من شأنها حين عودة الجيش إلى المدينة وكان قريباً منها أنْ رأى الرسول أنّ القومَ مُجْهَدُون، فنزل بهم منزلاً ليصيبوا نصيباً من الراحة، فبات بهذا المنزل بعض اللّيل، ثمّ أمر الرسول فنادىٰ مناديه بالرّحيل، فأخذ القوم يستعدون له.

قالت عائشة رضي الله عنها: وخرجت لبعض حاجتي، وفي عُنُقي عِقْدٌ لي، فيه جَزْعُ ظفار(1)، فلمّا فرغتُ انْسَلّ من عنقي ولا أدري، فلمّا رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسُهُ في عنقي فلم أجِدْهُ، وأخذ الناس في الرحيل، فرجَعْتُ إلى مكاني الذي ذهبتُ إليه، فالتمستُهُ حتّى وجدته.

وجاء القوم خلافي، الذين كانوا يُرَحِّلُونَ لي البعير، وقد فرغوا من رِحْلَتِه،

---

(1) الجَزْعُ: نوع من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان، وظَفارِ على مثل «قَطامِ» مدينة لحِمْير باليمن.

فأخذوا الْهَوْدج، وهم يظنّون أنّي فيه، كما كنْتُ أصْنع، فاحْتَمَلُوهُ، فشَدُّوهُ على البعير، ولَمْ يشكّوا أنّي فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، فرجعْتُ إلى العسكر، وما فيه من راعٍ ولا مجيب، قد انطلق الناس.

قالت عائشة رضي الله عنها: فتلفّفْتُ بجلبابي، ثم اضطجعتُ في مكاني، وعَرَفْتُ أن لو افْتُقِدْتُ لَرُجِعَ إليّ.

قالت: فواللّهِ إنّي لمضطجعةٌ إذْ مَرَّ بي «صَفْوانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِي» فرأى سَوادَ إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان قد رآني قَبْلَ الحجاب، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرْتُ وَجْهي بجلبابي، والله ما كلّمني كَلِمَةً، ولا سَمِعْتُ منه كلمةً غير اسْتِرْجاعه حين أناخ راحلته، فَوَطِئَ على يَدِها، فركبتُها، فانْطَلَقَ يَقُودُ بي الراحلة، حتّى أتينا الجيش بعدما نزلوا في نَحْرِ الظهيرة، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ فِي شأني.

وَكانَ الّذِي تَوَلّى كِبْرَهُ عبد الله بْنُ أُبَيّ بن سلول.

قال علماء السيرة: كان صَفْوانُ بن الْمُعَطّل على ساقة العسكر يلتقط في مؤخرة الجيش ما يسقُط من متاع المسلمين، حتّى يأتيهم به، ولذلك تخلّف عن الجيش.

وكان في الجيش «عبد الله بن أُبَيّ بن سلول» رأس المنافقين، فقال بين خاصّته: والله ما نجتْ منْهُ ولاَ نَجا مِنْها، وانطلقت كلمته تتَردّد، وانخدعَ بها بعض المسلمين من أهل الإيمان فشاعت بينهم وذاعت.

وعُرفتْ هذه الشائعة بحديث الإفك، ونزل بسببها على الرسول وزوجته وآل أبي بكر من البلاء والكرب شيءٌ عظيم، حتى نزل القرآن ببراءتها والتشنيع على أصحاب الإفك ما نزل في سورة (النور).

* * *

الموقف السابع: موقف «عبد الله بن أُبَيّ بن سلول» في غزوة تبوك.

رُوي أنّه خرج في بدْءِ التحرّك هو وجماعته وأنصارُه، وعسْكَرُوا دون معسكر الرسول عند جبل ذُباب في المدينة، أما مُعَسْكَرُ الرسول فقد كان عند ثنيّة الوداع.

فلمّا سار الرسول ﷺ ومعه جيش المسلمين، تخلّفَ عبد الله بن أُبَيّ بن سلول ومعه جمع من المنافقين وأهل الريب.

* * *

موته:

قالوا: وهلك «ابن سلول» بعد رجوع الرسول من غزوة تبوك، وكان موتُه في شهر ذي القعدة من سنة تِسْعٍ للهجرة.

* * *

(٢)

الجَدُّ بْنُ قيس

سيِّد بني سَلِمة من الخزرج وكان من أشرافهم

* تعريف به:

جاء في السيرة النبويّة لابن هشام أنّ الرسول ﷺ سأل بَني سَلِمة: مَنْ سَيِّدُكُمْ يا بَني سَلِمَة؟

قالوا: الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ، على بُخْلِه.

فقال ﷺ: وأيُّ داءٍ أكبر من الْبُخْلِ؟!، سَيِّدُ بني سَلِمةَ الأبيضُ الْجَعْدُ، بِشْرُ بن الْبَراء بن معرور.

* * *

* ما كان منه من مواقف:

الموقف الأول: كان مع الذين خرجوا مع الرسول ﷺ لأداء العمرة التي لم يؤدّها الرسول والذين كانوا معه من المسلمين، لأنّ قريشاً منعتهم من أدائها، ففدوا وتحلّلوا من عمرتهم باعتبارهم مُحْصَرين.

فحين بلَغَ الرسولَ ﷺ أنّ رَسُولَهُ إلى قريش في مكة عثمانَ بن عفّان قد قُتل، ولم يكن قد قتل فعلًا، قال:

«لا نَبْرحُ حتّى نُناجِزَ القوم».

ودعا الناسَ إلى البيعة، فكانت بيعةُ الرِّضْوان، وبايع الرسول المسلمين فيها على أن لا يَفِرُّوا.

ولم يتخلّف عن البيعة أحَدٌ من المسلمين الذين كانوا معه إلاّ الجدّ بن قيس، فإنّه الوحيد الذي لم يبايع.

قال جابر بن عبد الله: والله لكأنّي أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته، قد ضَبَأ إليها (أي: لَصِق بها) يَسْتَتِرُ بها من الناس.

* * *

الموقف الثاني: بعد أنّ أمر الرسول ﷺ المسلمين أمراً إلزامياً بأن يتجهّزوا لقتال بني الأصفر (= الروم) في غزوة تبوك، لَقِيَ الجدّ بْنَ قيْس، والمسلمون يتجهّزون ويُهيِّئُونَ ما يلزم لهذه الغزوة.

فقال الرسول ﷺ للْجَدِّ بْنِ قَيْس: «هَلْ لَكَ الْعَامَ في جِلَادِ بني الأَصْفَر؟».

فقال الجدّ بن قيس: يا رسول اللّٰهِ أوتأْذَنُ لي وَلَا تفتنّي، فواللّٰهِ لقد عَرَفَ قومي أنّه ما من رجُلٍ بأشدَّ عُجْباً بالنّساء مني، وإنّي أخْشَىٰ إنْ رأيْتُ نِساء بني الأَصْفَرِ أنْ لَا أَصْبِر.

فأعرضَ عنْهُ رسول اللّٰهِ ﷺ وقال له: قد أذِنْتُ لَكَ.

فأنزل الله بشأنه قوله في سورة (التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول):

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

(٣)

حاطِبُ بن أميّة بن رافع من بني ظَفَر

كان شيخاً جسيماً قد أسَنّ في جاهليته، وكان له ابْنٌ من خيار المسلمين اسمه «يزيد بن حاطب».

وقد خرج هذا الابن مع المسلمين في غزوة أُحد، فأُصِيبَ حتّى أثبتته الجراحات، فَحُمِلَ إلى دار أهله، واجتمع إليه طائفة من رجال المسلمين ونسائهم، وهو يعاني سكرات الموت.

فجعلوا يقولون له: أبْشِرْ يا ابْنَ حَاطِبٍ بالجنّة، فانْكشفَ نفاق أبيه «حاطب» حينئذٍ، وجعل يقول: أجَلْ، جنّةٌ والله منْ حَرْمل، غَرَرْتُمْ والله هذا المسكينَ من نفسه.

وكانت الأرض التي يُرْتقب أن يُدفن فيها تنبتُ نبات الْحَرْمل، ومراد حاطب أن يقول: ليس له جنّةٌ إلّا هذه الأرض التي يُدفَنُ فيها، فدلّ بقوله على أنه ينكر البعث ويوم القيامة.

* * *

(٤)

الحارث بن سُوَيد بن صَامت (من الأوس)

من بني حُبَيب بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس

جاء من أخباره أنّ الأوس والخزرج اقتتلوا في الجاهلية قتالاً شديداً، كان الظفر فيه للخزرج على الأوس، وقُتِل في هذه الموقعة سُوَيد بن صامت، والد الحارث بن سُويد، وكان الذي قتله في هذه الموقعة الْمُجَذَّر بن ذِيَاد البلوي واسْمُه عبد الله.

ثمّ لمّا جاء الإسلام دخل الحارث بن سويد فيه منافقاً، وفي غزوة أُحُدٍ خرج مع المسلمين، وحين الْتقى الناس في القتال وجَدَ الحارث بن سويد غرّةً من المجذّر قاتِلِ أبيه في الجاهلية، وهو من المسلمين، فقتله بأبيه، ثم لَحِق بقريش.

وأمر رسول الله ﷺ عُمَر بن الخطّاب بقتله إنْ هو ظفر به، إلّا أنّه فاته، لكن جاء في سير ابن هشام أنّه قُتِل بَعْد ذلك لأمر رسول الله ﷺ.

* * *

(٥)

نَبْتَل بن الحارث (من الأوس)

من بَني لَوْذان بن عَمْرو بن عَوْف

أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: كان نَبْتَل بن الحارث يأتي رسول الله ﷺ فيجلس إليه فيستمع منه، ثمّ ينْقُلُ حديثه إلى المنافقين.

رُويَ أنّ الرسول ﷺ قال بشأنه: منْ أحبَّ أنْ ينْظُرَ إلى الشيطان فلينظُر إلى نَبْتَل بْن الحارث.

كان نبتل هذا رجُلاً جسيماً أسود طويلاً مسترخي الشفتين، ثائر شعر الرأس، أحمر العيْنين، أسْفَع الخدَّيْن (أي: فيهما حُمْرةٌ تضربُ إلى السّواد).

ورُوِي انّ جبريل قال للرسول بشأنه بعد ان ذكر أوصافه: «كَبِدُهُ أغْلَظُ من كَبِدِ الحمار، ينقُل حديثَك إلى المنافقين».

وهو الذي قال: إنّما محمّدٌ أذُنٌ، منْ حدَّثه شيئاً صدّقه، فأنزل الله فيه قوله في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/١١٣ نزول):

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

* * *

(٦)

مِرْبَعُ بْنُ قيظي (من الأوس) وكان رجلاً أعمى

من بني النَّبيت: عَمْرو بن مالك بن الأوس

لمّا خرج رسول الله ﷺ في غزوة أحد شطر جبل أُحُد، رأى من الحكمة العسكريّة أن يمرّ بالجيش مجتازاً في حائط مِرْبَع بن قيظي.

فقال مربع للرسول ﷺ: لا أُحِلُّ لَكَ يا مُحمّد إنْ كُنْتَ نبيّاً أنْ تمرَّ في حائطي،

وأخذ في يده حفنةً من تراب، ثمّ قال: والله لو اعْلَمْ أنّي لا أُصيبُ بهذا التراب غيْرَكَ لرَمَيْتُك به.

فابْتَدَره القومُ لِيَقْتُلوهُ، فقال رسول الله ﷺ: دَعُوه، فهذا الأعْمَى أعْمَى القَلْبِ أعْمَى البصيرة.

فضربَهُ سَعْدُ بن زيد ـ أخو بني عبد الأشهل ـ بالقوس فشجّه.

* * *

(٧)
أوْسُ بن قيظي (أخو مربع بن قيظي)

من ظواهر نفاقه أنّه جاء إلى الرسول ﷺ في غزوة الخندق فاستأذن الرسولَ لنفسه ولملأ من رجال قومه بأن يرجعوا إلى بيوتهم، قائلاً: يا رسول الله، إنَّ بُيوتنا عَوْرَةٌ من العدوّ، فأذَنْ لنا أن نخرج من دارنا فإنها تقع خارج المدينة، مع أنّ بيوتهم ليست بعورةٍ كما زعم.

وفي ذلك أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الأحزاب/٣٣ مصحف/٩٠ نزول):

﴿وَيَسْتَئْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

* * *

(٨)
جُلاسُ بن سُوَيْد بن صامت (من الأوس)
من بني حُبَيب بن عَمْرو بن عَوْف بن مالك بن الأوس

● كان ممّن اجتمع إلى يهود من منافقي الأنصار.

● وكان جُلاسُ ممّن تخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك.

وقال فيما قال: لئن كان هذا الرجلُ (يعني الرسول ﷺ) صادقاً لَنَحْنُ شرٌّ من الحُمُر، وكان في حجره «عُمَيْرُ بْنُ سعد» إذْ كان زوج أمّه بعد أبيه سعد، فقال له عمير: واللّهِ يا جُلاسُ، إنّك لأحبُّ الناس إليّ، وأحسنهم عندي يداً، وأعزُّهم عليّ أن يصيبه شيءٌ يكرهه، ولقد قُلْتَ مقالةً لئن رفعتُها عليكَ لأفضحنّك، ولئِنْ صَمَتُّ عليها لَيَهْلِكَنَّ ديني، وَلإِحْداهُما أَيْسَرُ عليّ من الأخرى.

ثم مشى «عُميرِ بنُ سعد» إلى رسول الله ﷺ، فذكر له ما قال «جُلاسُ بن سُوَيد».

فحلف جُلاس بالله لرسول الله ﷺ: لقد كذب عليّ عُمَير، وما قُلْتُ ما قال عُمَيْرُ بْنُ سعد.

ورُوي أنّ الذي سمعه ونقل كلامه إلى الرسول عامِرُ بنِ قيس، وأنّ الآية (٧٤) من سورة (التوبة/ ٩ مصحف/١١٣ نزول) نزلت بشأنه.

قال ابن إسحاق: فزعموا أنّه تاب، فَحَسُنَتْ توبته، حتّى عُرِفَ منه الخيرُ والإسلام.

وكان قبل توبته من الذين دعاهم رجال المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ، فدَعَوْهم إلى الكهّان حُكّام أهل الجاهلية، فأنزل الله فيهم الآيات من (٦٠ ــ ٦٣) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/٩٢ نزول).

قالوا: وكان معه في هذه الحادثة من المنافقين، رافِعُ بْنُ زَيد، وبشر.

* * *

(٩)
قُزْمان حليف بني ظَفَر

قال ابن إسحاق: حدّثني عاصم بن عمر بن قتادة، قال: كان فينا رجلٌ أتِيٌّ (أي: غريب) لا يُدْرىَ ممَّنْ هو، يُقَالُ له: «قُزْمان»، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذُكِرَ له: إنّه لمن أهل النار.

فلمّا كان يَوْمُ أُحُد قاتل قتالاً شديداً، فقَتَلَ وحده ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان ذا بأس، فأثبتته الجراحة، فاحْتُمِلَ إلى دار بني ظَفر.

فجعل رجالٌ من المسلمين يقولون له: واللّهِ لقد أبْلَيْتَ الْيَوْمَ يا قُزمان، فأبْشِرْ، وقد أصابك ما ترىٰ في الله.

قال: بماذا أُبَشَّرُ؟ فوالله ما قاتَلْتُ إلّا حميّةً عن قومي ولولا ذلك ما قاتَلْتُ.

فلمّا اشتدت عليه آلامُ جراحِه أخذ سهماً من كنانته، فقطع به رواهِشَ يَدِه (أي: عروق ذراعه لِيَسيل دمه) فقتل نفسه.

* * *

(١٠)
الضَّحَّاكُ بْنُ ثابت أحَدُ بني كعب

ذُكِرَ أنّه كان يُتَّهَمُ بالنفاق وحُبِّ يهود الحجاز، وقال فيه حسّان بن ثابت شعراً اتهمه فيه بحبِّهم، وذكر فيه أنّ عروقه أعْيَتْ أن تتجمّد على الإسلام.

* * *

(١١)
أبو طعمة بشيرُ بْنُ أُبَيْرِق

من أحداثه أنّه سرق من بيت رِفاعة بن زيد حملاً من الدقيق الأبيض ودرعاً وسيفاً وغيرهما من سلاح الحرب، وكان متهماً بالنفاق.

ولمّا توجّهت التُّهَمَة إلى بيت بني أُبَيْرِق، قالوا: ما نرى السارق إلّا لَبِيدَ بْن سَهْل، وكان هذا معروفاً بصدق إسلامه وصلاح حاله. فلمّا بلَغَه أنّ بني أُبَيْرِق ألقَوُا التُّهَمَةَ عليه سَلَّ سيفَه وأقبل إليهم وقال لهم: أنا أسْرِق؟! والله ليُخالِطَنَّكُمْ هذا السيف أو لتبيننَّ هذه السرقة.

فقالوا له: إليك عنّا أيّها الرجل، فما أنت بصاحبها.

ثمّ نزل القرآن مشيراً إلى الخائنين من بني أُبَيْرِق، في قصة سبق ذكرها لدى دراسة النص (١٧) من سورة (النساء).

وخاف بشير بن أُبَيْرق أن يُدَان بجريمته بعد نزول القرآن ففرّ من المدينة، ولحق بالمشركين بمكة، فنزلَ على سُلافَة بِنْتِ سَعْدِ بن سُمَيَّة، فرماها حسّانُ بن ثابتٍ بأبياتٍ من شِعْرِه، فأخذتْ رحْلَهُ فوضعتْه على رأسها، ثُمّ خرجَتْ به فرمَتْ به في الأبطح، ثم قالت له: أهْدَيْتَ لي شعر حسّان، ما كُنْتَ تأتيني بخير.

* * *

(١٢)

وديعة بن ثابت من بني أمية بن زيد بن مالك

جاء في سيرة ابن هشام أنّه ممّن بنى مسجد الضرار، وأنّه كان من الرهط الذين جعلوا يشيرون إلى الرسول ﷺ وهو منطلق بجيش المسلمين إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جِلادَ بني الأصفر (أي: الروم) كقتال العرب بعضِهم بعضاً، واللهِ لكأنا بكم غداً مُقرّنين في الحبال.

يقولون هذا إرجافاً وترهيباً للمؤمنين.

وقال رسول الله ﷺ لعمّار بن ياسر: أدرك القوم فإنّهم قد احْترقوا (أي: هلكوا) فَسَلْهُمْ عمّا قالوا، فإن أنكروا فقُل: بلَى، قُلْتُمْ كذا وكذا.

فانطلق إليهم عمّار بن ياسر، فقال لهم كما أمره الرسول ﷺ، فأتَوْا رسول الله يعتذرون إليه.

وقال وديعة بن ثابت ورسول الله واقف على ناقته: يا رسول الله، إنّما كُنّا نخوض ونلعب، فأنزل الله قوله في سورة (التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

* * *

(١٣)
عدة رجال ذكرت أسماؤهم ضمن المنافقين

(١) أبو حبيبة الأزعر: كان من الذين بَنَوْا مسجد الضرار.

(٢) جارية بن عامر بن العطاف وابنه زيد: كانا من الذين بنوا مسجد الضرار.

(٣) خِذَام بن خالد من بني عبيد بن زيد بن مالك: هو الذي أُخْرِج مسجد الضرار من داره.

(٤) الأخوان بشر بن زيد، ورافع بن زيد: كانا من الذين دعاهم رجال من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ، فدَعَوْهم إلى الكهّان حُكّام أهل الجاهلية.

(٥) «مَالِكُ بن قَوْقل» و «سُوَيد» و «داعس» كانوا من الذين خانوا الرسول والمؤمنين إبّان حصارهم ليهود بني النضير، فكانوا يحاولون الاتصال بهم، ونصرهم والدفاع عنهم، على ما جاء في أحداث غزوة بني النضير.

* * *

(١٤)
ممّن ذُكِر من المنافقين من أحبار اليهود

(١) سَعْد بْنُ حُنَيْف، من يهود بني قينقاع.

(٢) نُعْمانُ بْنُ أبي أوفىٰ، من يهود بني قينقاع.

(٣) عثمانُ بن أوفىٰ، من يهود بني قينقاع.

(٤) رافع بن حريملة، من يهود بني قينقاع، وهو الذي يوم مات قال بشأنه الرسول ﷺ: قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين.

(٥) رفاعَة بن زيد بن التابوت، من يهود بني قينقاع، وهو الذي قال الرسول بشأنه حين هبّت على المسلمين ريح وهم قافلون من غزوة بني الْمُصْطَلِق، فاشتدت عليهم حتّى أشفقوا منها: «لا تخافوا، فإنّما هَبَّتْ لِمَوْتِ عظيمٍ من عظماء الكفار».

فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت، قد مات ذلك اليوم الذي هبت فيه الريح، فقد كان من عظماء الكافرين، وكهفاً للمنافقين.

(٦) سِلْسِلَةُ بن برهام، من يهود بني قينقاع.

(٧) كِنانَةُ بن صوريا، من يهود بني قينقاع.

(٨) زيد بن اللُّصَيْت، من يهود بني قينقاع، وهو الذي قال حين ضلّت ناقة الرسول ﷺ وهو في الطريق إلى غزو تبوك: أليس محمّد يزعم أنّه نبيّ، ويُخبرُكم عن خَبَرِ السّماء، وهو لا يدري أين ناقته؟، وكان في رَحْلِ عمارة بن حزم، بينما كان عُمارة عند رسول الله ﷺ، وفي ذلك الوقت قال الرسول ﷺ، وعُمَارَةُ عنده: إنَّ رجُلاً قال: هذا محمّد يخبركم أنّه نبيّ، ويَزْعُمُ أنّه يُخْبِرُكم بأمر السماء، وهو لا يدري أينَ ناقته، وإنّي واللّهِ لا أعْلَمُ إلاّ ما علّمني الله، وقد دلّني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شِعْب كذا وكذا، قد حبَسَتْها شجَرَةٌ بزمامها، فانْطَلِقُوا حتّى تأتُوني بها، فذهبوا فجاءوا بها.

فرجع عُمارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله لَعجبٌ مِنْ شَيْءٍ حدّثناه رسولُ الله ﷺ آنفاً، عن مقالة قائلٍ أخبره الله عنه بكذا وكذا، للكلام الذي قاله زَيْدُ بن اللُّصَيْت.

فقال رجلٌ ممن كان في رحل عمارة بن حزم، ولم يكن عند رسول الله ﷺ: زَيْدٌ والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي.

فأقبل عُمارة على زَيْدٍ يَضْربُ في عنقه، ويقول: إليّ عباد الله، إنّ في رحلي لداهيةً وما أشْعُر، أُخْرج أيْ عدوّ الله من رَحْلِي فلا تَصْحَبْني.

● ● ●

المقولة الثانية

حول طائفة من أحداث المنافقين
في عصر الرسول ﷺ

قد سبق شرح معظمها وتفصيله لدى تدبُّر النصوص

(١)

من أحداث المنافقين الكبرى انخذالهم عن الرسول والمسلمين بنحو ثلث الجيش، بعد مشاركتهم في الخروج إلى غزوة أحد، إذْ نكصوا وعادوا إلى بيوتهم في المدينة بعد أن مَشَوْا بعض الطريق إلى أُحد، متعلّلين بِتَعِلّاتٍ باطلات تنمّ عن نفاقهم، وأنّهم كاذبون في ادّعاء أنّهم مسلمون.

* * *

(٢)

ومن أحداثهم تخلّفهم عن الرسول والمسلمين في الخروج إلى العمرة التي دعا إليها الرسول ﷺ بإلزام، وهي العمرة التي صَدّ مشركو مكة الرسول والمسلمين معه عن أداء عمرتهم، وكان غرض الرسول من إلزام المسلمين بالخروج تكثير أعداد المسلمين المعتمرين، حتى يخشى المشركون صدّهم عن المسجد الحرام، وأداء مناسكهم فيه.

* * *

(٣)

ومن أحداثهم تخلّفهم عن الخروج إلى غزوة تبوك مع التكليف الإلزاميّ بالخروج، فمنهم من قدّم المعاذير الكاذبات قبل انطلاق الرسول ﷺ إلى الغزوة، ومنهم من تخلّف ثم جاء بعد عودة الرسول منها فجعل يقدّم المعاذير الكاذبات.

* * *

(٤)

مشاركتهم في إثارة الشبهات حول تحويل القبلة من التوجّه لبيت المقدس إلى التوجّه للكعبة المشرفة.

روى ابن جرير بسنده عن السُّدّي قال: كان النبي ﷺ يُصَلّي قِبَل بيت المقدس، فنسختها الكعبة، فلمّا توجّه الناس قِبَل المسجد الحرام اختلف الناس فيها فكانوا أصنافاً.

* فقال المنافقون ما بالُهم كانُوا علىٰ قِبْلةٍ زماناً، ثمّ تركوها وتوجّهوا لغيرها.

* وقال المسلمون: ليت شِعْرنا عن إخواننا الذين ماتُوا وهم يصلّون قِبَل بَيْتِ المقدس، هل تقبّل الله منّا ومنهم أو لا؟

* وقالت اليهود: إنّ محمّداً اشتاق إلى بلد أبيه ومولده، ولو ثبت على قبلتنا لكُنّا نرجو أن يكون هو صاحبنا الذي ننتظر.

* وقال المشركون من أهل مكّة: تحيّر على محمّد دينه، فتوجّه بقبلته إليكم، وعلم أنّكُمْ كنتم أهدى منه، ويوشك أن يدخل في دينكم.

فأنزل الله جلّ ثناؤه في المنافقين:

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

(البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول).

* * *

(٥)

كان من شأن المنافقين أنهم يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين، فيسخرون ويستهزئون بدينهم.

فاجتمع ناس منهم في المسجد في أحد الأيام، فرآهم الرسول ﷺ يتحدّثون بينهم خافضي أصواتهم، قد لصق بعضهم ببعض.

فأمر الرسول أن يُخْرَجوا من المسجد، فأخرجهم المؤمنون إخراجاً عنيفاً منه.

قام «خالد بن زيد بن كُلَيْب» إلى «عمرو بن قيس» وقد كان صاحب آلهتهم في الجاهلية، فأخذ برجله فسَحَبَه، حتّى أخرجه من المسجد وهو يقول:

أتُخْرِجني يا أبا أيّوب من مِرْبَد[1] بني ثعلبة، إذْ كان قبل تأسيسه مِرْبداً لبني ثعلبة.

ثم أقبل أبو أيّوب إلى «رافع بن وديعة» فلبَّبَهُ بردائه، ثمّ نَتَرَه نتراً شديداً، ولطم وجْهَه، ثم أخرجه من المسجد، وهو يقول له: أُفٍّ لكَ مُنافقاً خبيثاً، أدْراجَكَ[2] يا منافقُ من مسجد رسول الله ﷺ.

وقام «عُمَارة بن حَزْم» إلى «زيد بن عَمْرو»، وكان رجلاً طويل اللّحية، فأخذ بلحيته، فقاده بها قَوْداً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد، ثم جَمَع عُمَارةُ يَدَيْه فلَدَمَهُ[3] بهما في صدره لَدْمةً خرَّ منها.

فقال المنافق «زيد بن عَمْرو»: خَدَشْتني يا عُمارة.

قال عمارة: أبعدك الله يا منافق، فما أعدَّ اللهُ لكَ من العذاب أشد من ذلك، فلا تقرَبنّ مسجد رسول الله ﷺ.

وقام «أبو محمد مسعود بن أوس من بني النجّار» إلى «قيس بن عَمْرو بن سَهْل»

---

(١) المربد: موقف الإبل ومَحْبِسها.

(٢) أدراجك: أي: ارجع من الطرق التي جئت منها.

(٣) اللّدْم: الضرب ببطن الكفّ.

فجعل يدفع في قفاه، حتّى أخرجه من المسجد، وكان قيسٌ هذا شابّاً، ولا يُعْلَم في المنافقين شابٌ غيره.

وقام «عبد الله بن الحارث» من رهط أبي سعيد الخدريّ، إلى رجُل منافق يقال له «الحارث بن عَمْرو» وكان ذا جُمَّة[1] فأخذ بجُمّته، فسَحَبَهُ بها سَحْباً عنيفاً، على ما مَرّ به من الأرض، حتّى أخرجه من المسجد.

وكان المنافق يقول: لقد أغْلَظْت يا ابْنَ الحارث.

فقال له: إنّكَ أهْلٌ لِذلِكَ أيْ عَدُوَّ الله، لِمَا أنزل الله فيك، فلا تقْرَبَنَّ مسجد رسول الله ﷺ، فإنّكَ نَجَس.

وقام رجُلٌ من بني عوف، إلى أخيه «زُوَيّ بن الحارث» وكانَ منافقاً مع المنافقين، فأخرجه من المسجد إخراجاً عنيفاً، وقال له: أُفٍّ لَكَ، غلَبَ عليْكَ الشيطانُ وأمْرُه.

* * *

(٦)

أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقيّ في الدلائل، عن أنس بن مالك قال: سَمِع زَيْدُ بن أرقم رجُلاً من المنافقين يقول والنبي ﷺ يَخْطُب: إنْ كان هذا صادقاً لَنَحْنُ شرٌّ من الحمير.

قال زيد: هو والله صادق، وأنت شرٌّ من الحمار، فرفَع ذلك إلى النبي ﷺ، فجحدَ القائل، فأنزل الله عزّ وجل قوله:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ .. ﴿٧٤﴾﴾

(التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول).

* * *

(١) الجمّة: مجتمع شعر الناصية، وما تراخى من شعر الرأس على المنكبَيْن.

(٧)

وأخرج ابن جرير، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عبّاس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظِلّ شجرة فقال:

«إِنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ إِنسانٌ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِعَيْنَيْ شَيْطَانٍ، فَإِذَا جاءكم فَلَا تُكَلِّمُوهُ».

فلَمْ يلبَثوا أن طلع رجلٌ أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال:

«عَلَامَ تَشْتُمُني أنت وأصحابُكَ؟!».

فانطلق الرجل، فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، حتّى تجاوز عنهم، وأنزل الله قوله:

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ.. ﴿٧٤﴾﴾

(التوبة /٩ مصحف/١١٣ نزول).

أقـول:

اختلفت الرواية السابقة عن هذه الرواية في بيان سبب نزول هذا النص، ولكن لا مانع من تعدّد أسباب النزول لنصّ واحد، ومدار قبول السبب المروي يرجع إلى كون الرواية مقبولة من جهة السند، وتعدّد الروايات المختلفة يدلّ على تكرر حدوث هذه الظاهرة من المنافقين، أفراداً وجماعات، وأنّ الأقوال التي قالوها تُعبّر عن إدانةٍ لهم بالكفر، بعْدَ إعلانهم الإسلام الذي قُبِل منهم ظاهراً في الحياة الدنيا، إلّا أنهم لا يقبل منهم يوم الدين، لأنّ الحساب يومئذٍ إنما هو على ما كانوا يُسِرّون ويبطنون.

* * *

(٨)

وروى البخاريّ بسنده عن أبي مسعود قال: لمّا أُمِرْنا بالصَّدَقةِ كُنّا نَتَحامَلُ[١]. فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكْثَرَ مِنْه.

(١) نتحامل: أي: نعملُ حمّالين بالأجرة.

فقال المنافقون: إنَّ الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، وما فَعلَ هذا الآخَرُ إلاّ رِياءً، فنزلت:

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

(التوبة /٩ مصحف/١١٣ نزول).

وعند مُسْلمٍ نظيره، واسْمُ أبي عقيلٍ هذا «الْحُبَابُ».

وجاء عند الطبريّ عن قتادة: أنَّ هذه الحادثة جرت حينَ حثّ الرسول ﷺ على الصّدَقة استعداداً لغزوة تبوك.

* * *

(٩)

روى الطبري بسنده، عن سعيد بن جُبير قال:

كان النبيّ ﷺ يُصَلّي، فمرّ رجلٌ من المسلمين على رجُلٍ مِنَ المنافقين فقال له: النبيُّ ﷺ يُصَلّي وأنت جالس؟!

قال المنافق: امْضِ إلى عَمَلِك إنْ كان لك عمل.

فقال له: ما أظُنُّ إلاّ سيمُرُّ عليكَ من ينكرُ عليك.

فمرّ عليه عمر بن الخطاب، فقال له: يا فلان، النبي ﷺ يصلي وأنت جالس؟!.

فقال له: اِمضِ إلىٰ عملِكَ إن كان لك عمل.

قال عمر: هذا من عملي، فوثب عليه فضربه ضربات بشدة.

ثمّ دخل عمر المسجد، فصلّى مع النبي ﷺ، فلمّا انفتل النبيُّ ﷺ من صلاته قام إليه عمر، فقال له:

يا نبيّ الله مررتُ آنفاً على فلانٍ وأنت تُصلّي، فقلت له: النبي ﷺ يُصَلّي

وأنت جالس؟!، فقال: امضِ إلى عملك إنْ كان لك عمل.

فقال النبي ﷺ: «فَهَلَّا ضَرَبْتَ عُنُقَه».

فقام عُمَرُ مُسْرِعاً، فقال النبي ﷺ:

«يا عُمَرَ ارجِعْ، فإنَّ غضَبَك عِزّ، ورِضَاكَ حُكْم»(١).

* * *

(١٠)

موجز أحداث المنافقين إبّان غزوة تبوك

الحدث الأول:

انخذال «عبد الله بن أُبَيّ بن سلول» مع جماعة من المنافقين، بعد أن خرجوا وعسْكَرُوا دون معسكر الرسول، مع أنّ الرسول قد أمر بالخروج أَمْرَ إلزام، لا أمر ندب.

الحدث الثاني:

كان من المنافقين المثَبِّطون، وهم نفر كانوا يجتمعون في بيت «سُوَيْلم» اليهودي، يثبّطون الناس عن رسول الله ﷺ قائلين لهم: لا تنفروا في الحرّ.

فبعث إليهم النبيّ ﷺ طلحةَ بن عُبَيْد الله في نَفَر من أصحابه، وأمَرَهُ أنْ يُحَرِّق عليهم بيت «سويلم» ففعل طلحة ما أمره به الرسول، فاقتحم من المنافقين الضَّحّاكُ بن خليفة من ظهر البيت، فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفْلَتوا، وكان منهم «ابْنُ أُبَيْرِق» كما ذكر الضّحّاكُ في شِعْرِه له.

الحدث الثالث:

كان من المنافقين من استأذن الرسول بعدم الخروج إلى غزوة تبوك، منتحلاً المعاذير الكاذبات، فأذن الرسول ﷺ لهم.

(١) انظر تفسير الطبري، الجزء الأول الصفحة ٢١٠.

الحدث الرابع:

كان منهم من تخلّف عن الغزوة دون استئذان، فلمّا عاد الرسول منها إلى المدينة أقبلوا يعتذرون عن تخلّفهم، ويحلفون الأيمان الكاذبة ويلفّقون المعاذير، فيُعْرِض الرسول عنهم، ويترك حسابهم لله عزّ وجلّ.

الحدث الخامس:

كان رهط من المنافقين منهم «وديعة بن ثابت» يشيرون إلى رسول الله ﷺ ومعه المسلمون، وهم منطلقون إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتَحْسَبُونَ جلاد بني الأصفر (أي: الروم) كقتال العرب بعضهم بعضاً، والله لكأنّا بكم غداً مقرّنين في الحبال، إرجافاً وتوهيناً للمؤمنين.

فقال «مُخشّنُ بن حُمَيّر» والله لوددتُ أنّي أقاضَى على أن يُضْرَب كلّ رجل منّا مئة جلدة، وإنّا ننفلتُ أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم، وروي أن هذا الرجل قد تاب من نفاقه وحسُنَ إسلامه، وسمّى نفسه «عبد الرحمن».

وروي أنّ الرسول ﷺ أُعْلِم عن طريق الوحي بما قالوا، فقال لعمّار بن ياسر: أدْرِك القوم فإنّهم قد احترقُوا، فسَلْهُمْ عمّا قالوا، فإنْ أنْكَرُوا فقل: بلى، قُلْتُمْ كذا وكذا.

فانطلق إليهم عمّار بن ياسر، فقال لهم كما أمره الرسول ﷺ، فأتوا رسولَ الله يعتذرون إليه، وقال وديعة بن ثابت، ورسول الله واقف على ناقته: يا رسول الله، إنّما كنا نخوض ونلعب.

أقـول:

لعلّ هؤلاء المنافقين كانوا يُردّدون ما قاله قبلهم رأس المنافقين «عبد الله بن أُبيّ ابن سلول» إذْ قال: يغزو محمّدٌ بني الأصفر! والله لكأنّي أنظر إلى أصحابه مقرّنين في الحبال.

الحدث السادس:

استخلف الرسول ﷺ عليّاً رضي الله عنه على أهله في المدينة، فقال المنافقون:

ما خلّفَهُ في أهله إلاّ استثقالاً له، وتخفّفاً منه.

فبلغ ذلك عليًّا رضي الله عنه، فأخذ سلاحه وخرج، حتّى أتى رسول الله ﷺ وهو نازلٌ بالْجُرْف[1]، فقال: يا نبيّ الله، زعم المنافقون أنك إنّما خلفتني أنك استثقلتني، وتخفّفتَ منّي.

فقال رسول الله ﷺ:

«كذبوا، ولكنّي خلّفتُكَ لما تركْتُ ورائي، فارْجِعْ فاخْلُفْني في أهلي وأهلك، أفَلا تَرْضَى يا عليُّ أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسَى، إلاّ أنه لا نبيّ بَعْدي».

فرجع عليٌّ رضي الله عنه إلى المدينة، ومضى رسول الله ﷺ إلى وجهته، وأعطى اللّواءَ الأعظمَ أبا بكر رضي الله عنه.

الحدث السابع:

تعرّض المسلمون لنفاد ما معهم من الماء، حتى عطشوا عطشاً شديداً، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنّ الله قد عوّدك في الدُّعاء خيراً، فادْعُ الله لنا.

فرفع الرسول يدَيْه نحو السماء، فلم يُنْزِلهما حتّى أغاثهم الله، فأمطرت السماء، فشربوا ومَلَؤوا أوعية الماء التي لديهم.

وكان رجل من المنافقين معروفٌ بالنفاق، يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلمّا كان من أمْر الناس ما كان، ودعا الرسول، وأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الجيش، فأقبل عليه رفاقه من بني عبد الأشهل، فقالوا له: ويْحكَ، هلْ بعْدَ هذا شيء؟!

قال: سحابةٌ مارّة.

الحدث الثامن:

يُوجد في طريق العودة من غزوة تبوك حسب الطريق الذي سلكه المسلمون وادٍ يُقال له: وادي المشقّق، وكان يُوجَدُ فيه وَشَلٌ[2] ما يُرْوِي الراكب، أو الراكبين، أو الثلاثة.

---

(١) الْجُرْف: اسم مكان على ثلاثة أميالٍ من المدينة.

(٢) الْوَشَلُ: نبع ماءٍ قليل، فينحلّب متقاطراً ويتجمّع.

فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سبقَنا إلَىٰ ذَلِكَ الوادي، أو إلى ذلك الماء، فلا يَسْتَقِيَنَّ منه حتّى نأتيه».

فسبقه إليه نفرٌ من المنافقين، فاسْتَقَوْا ما فيه، فلمّا أتاه الرسول وقف عنده، فلم يرَ فيه شيئاً، فقال مستنكراً:

«مَنْ سَبَقَنا إلَىٰ هَـٰذا الماء؟؟».

فقيل له: يا رسول الله، فُلَانٌ وفلان، فقال:

«أَوَلَمْ أنْهَهُمْ أنْ يَسْتَقُوا مِنْهُ شَيْئاً حتَّىٰ آتِيه؟!».

وغضب ﷺ من معصيتهم، ودعا عليهم، ثمّ نزل عن راحلته، فوضَعَ يَدَهُ تَحْتَ الْوَشَلِ حيْثُ يتقاطر الماء، حتّى إذا تجمَّعَ فيها مقدارٌ ما منه، نَضَحَ مكان تقاطر الماء بما تجمَّع في يده منه، ومَسَحَهُ بيده، ودعا بما شاء الله أن يدعو به، فَتَفَجَّرَ منْه الماءُ تفجُّراً، وقال من سمعه: إنّ لَهُ حِسّاً كحِسِّ الصواعق، فشرب الناس، واسْتَقَوْا منْه حاجتهم.

الحدث التاسع:

روى البيهقي عن حذيفة بن اليمان قال (متحدثاً عن حادثة جرت للرسول وهم عائدون من غزوة تبوك):

كُنْتُ آخِذاً بخطام[1] ناقة رسول الله، وعمّار يسوقُ الناقة، حتّىٰ إذا كُنّا بالْعَقَبَة[2]، إذا باثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً قد اعْتَرَضُوهُ فيها، وصار عمّارٌ يَضْرِبُ وُجُوه رواحلهم يُنَحّيها عن رسول الله ﷺ.

قال حذيفة: فأنْبَهْتُ رسول الله ﷺ، فصرخ فيهم، فولَّوْا مُدْبِرين.

فقال رسول الله ﷺ: «هَلْ عَرَفْتُمُ القومَ؟».

قُلْنا: لا يا رسول الله، قد كانُوا متلثمين.

---

(١) الخِطَامُ: ما يوضع على خَطْمِ الجمل او الناقة من حَبْل ليُقاد به، وخَطْمُ الجمل أنفه.

(٢) العقبة: هي المرقى الصعبُ من الجبال.

قال: «هؤلاء المنافقون يوم القيامة، وهَلْ تَدْرُونَ ما أرادوا؟».

قلنا: لا.

قال: «أرَادُوا أنْ يَزْحَمُوا رَسُولَ اللَّهِ فِي الْعَقَبَةِ، فَيُلْقُوهُ مِنْهَا».

قُلْنَا: أوَلا تبعثُ إلىٰ عشائرهم، حتىٰ يبعث إليك كلُّ قوْمٍ برأسِ صاحبهم.

قال: «لا، أكْرَهُ أنْ يتحدّث العربُ أنّ محمّداً قاتل بقومه حتّىٰ إذا أظْهَرَهُ اللَّهُ بِهِمْ أقْبَلَ عَلَيْهِمْ يَقْتُلُهُمْ».

ودعا ﷺ عليهم، وأنزل الله قولَه:

﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا... ﴿٧٤﴾﴾ (التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول).

الحدث العاشر:

رُوِي عن عبد الله بن عُمر قال: قال رجلٌ في غزوة تبوك في مجلس من المجالس: ما رأيتُ مثْلَ قُرّائنا هؤلاء، ارغبَ بُطوناً، ولاَ أكْذَبَ ألْسُناً، ولا اجْبَنَ عنْد اللّقاء.

فقال له رجل في المجلس: كذبتَ، ولكنَّكَ منافِقٌ، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ.

فبلغ ذلك الرسول.

الحدث الحادي عشر:

قصة بناء مسجد الضّرار، وخلاصتها: أنّ أبا عامر الراهب الذي سمّاه الرسول «الفاسق» والذي كان قد تنصّر في الجاهلية، وترك المدينة بعد هجرة الرسول إليها، وتدبيره المكايد ضدّه وضدّ الإسلام، ثم انحاز إلى المشركين في مكة، وقَدِمَ مَعَهُمْ إلى حرب المسلمين في غزوة أحد.

ثم ذهب إلى هرقل مَلِكَ الروم، يستنصره على محمّد وصحبه، فوَعَدَهُ ومنّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعةٍ من قومه من الأنصار من أهل النفاق والرّيب يَعِدُهم ويُمَنّيهم أنّه سيَقْدَمُ بجيشٍ يُقاتِلُ به الرّسول، ويغلبه ويَرُدُّهُ عمّا هو فيه، وأمَرَهُم أنْ يتّخذوا له مَعْقِلاً يَقْدَمُ عليهم فيه مَنْ يَقْدَمُ من عنْدِهِ لإيصالِ كُتُبه، ويكونُ مَرْصداً له إذا قَدِمَ عليْهم بَعْد ذلك.

فبنى المتآمرون مسجداً مجاوراً لمسجد قباء قبل خروج الرسول ﷺ إلى تبوك، وجاءوا إلى الرسول فسألوه أن يأتي إليهم فيُصَلّي في مسجدهم، وذكروا أنّهم بَنَوْه للضعفاء منهم، وأهل العلّة والحاجة في اللّيلة المطيرة، فعصمه الله من الصلاة فيه، وقال لهم: إنّي على جناح سفر، ولو قَدْ قَدِمْنَا إنْ شاء الله لأتيناكم، فصلّينا لكم فيه.

ولمّا قفل الرسول راجعاً من تبوك إلى المدينة، ولم يبق بينه وبين المدينة إلّا يومٌ أو بعض اليوم، نزل عليه جبريل عليه السلام بخبر مسجد الضّرار، وما أُعِدّ له هذا المسجد.

فدعا الرسول ﷺ صحابيّين من أصحابه وقال لهما:

«انْطَلِقا إلى هذا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ، فَاهْدِمَاهُ وَحَرِّقَاه».

ففعلا ما أمرهما به الرسول، وماتت المكيدة في مَهْدِها.

● ● ●

الفصل الثالث

مُنافِقُون عبْرَ تاريخ المُسْلِمِين بعْدَ عصْرِ الرّسُولِ ﷺ

وفيه سبع مقولات:

المقولة الأولى : مقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

المقولة الثانية : المنافق اليهودي: عبد الله بن سبأ، ويُقال له: ابن السوداء، وخباثته الخطيرة في تاريخ المسلمين.

المقولة الثالثة : المنافق اليهودي (أو المجوسي) ميمون بن ديصان القدّاح، وخباثته الخطيرة في تاريخ المسلمين.

المقولة الرابعة : المنافق ابْنُ العلقمي وخيانته للدولة الإسلامية وخليفتها العبّاسي المستعصم بالله محمد بن الظاهر.

المقولة الخامسة: يهود الدونمة المنافقون، ودورهم في سقوط الخلافة العثمانية، وإقامة العلمانية.

المقولة السادسة : منظمة البابيّة فالبهائية إحدى المنظمات المنافقة.

المقولة السابعة : منظمة القاديانيّة إحدى المنظمات المنافقة.

● ● ●

المقولة الأولى

مقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب

تشير الدّلائل القويّة إلى أنّ اغتيال عمر بن الخطاب قد كان بتدبير من قبل بعض المنافقين في المدينة.

كان عمر في خلافته ــ رضي الله عنه ــ لا يأذن لسَبْيٍ قد احْتَلَم في دخول المدينة، حرصاً على عاصمة الدولة الإسلامية يومئذٍ من أن يكون فيها أحَدٌ من غير المسلمين، ولو كان عبداً رقيقاً.

حتّى كتب إليه واليه على الكوفة «المغيرة بن شعبة» يذكُرُ له غلاماً عنده صنعة، ويستأذنه أن يدخل المدينة، وقال له: إنّ عنده أعمالاً كثيرة فيها منافع للناس، فَهُو حدّاد ــ نقّاش ــ نجّار.

فأذن عُمر رضي الله عنه للمغيرة بن شعبة، في أن يُرسِلَ غلامه إلى المدينة.

هذا الغلام هو «أبو لؤلؤة فيروز» من سبْيِ نَهاوند، مجوسيّ الأصل روميّ الدار، لذلك جاء في وصفه أنّه مجوسي، وأنّه نصراني، والأظهر أنّه مجوسي.

وجاء في الروايات التاريخيّة أنّ أبا لؤلؤة هذا جاء إلى عمر فاشتكى إليه من كثرة الخراج الذي فرضه عليه سيّده «المغيرة بن شعبة» وكان نحو درهمين في كلِّ يومٍ، أو أكثر قليلاً، على اختلاف في الروايات.

فسأله الخليفة عمّا يملك من صناعة، فاجابه بأنّه «نقّاش ــ نجّار ــ حدّاد».

فقال له عمر: «فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع».

فغضب العبد، وقال: «وسِعَ النّاسَ كلَّهُمْ عَدْلُهُ غَيْري».

فأعدّ هذا العبد خنجراً ذا طرفين، قبضتُه من أوسطه، ودخل المسجد مع المصلّين وقت صلاة الفجر، واغتال خليفة المسلمين وهُوَ يُصلّي إماماً بالناس، واندفع

لا يمرّ على أحَدٍ من المسلمين يميناً أو شمالاً إلاّ طَعنَه، حتّى طعَنَ ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم تسعة رجال، وطرحَ عليه أحد المسلمين برنُساً، فلمّا رأىٰ أنّه مقبوض لا محالة انتحر بخنجره.

روى البخاري بسنده عن «عمرو بن ميمون» أحد شهود الحادثة، قال:

«إنّي لَقَائِمٌ مَا بَيْني وَبيْنَ عمر إلاّ عبد الله بن عبّاس، غداةَ أُصِيبَ «أي: أمير المؤمنين عمر» وكَانَ إذَا مرّ بيْنَ الصُّفيْنِ قال: اسْتَـوُوا، حتّىٰ إذا لَمْ يرَ فيهم خَلَلاً تقدّم فَكَبّر، وربّما قرأ سُورَةَ يُوسُفَ أو النَّحْلِ، او نحو ذٰلِكَ في الركعة الأولىٰ حتّىٰ يَجْتَمِعَ النّاس.

فَمَا هُوَ إلاّ أَنْ كَبّرَ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: قَتَلَني او أكَلَني الْكَلْبُ حِينَ طَعَنَهُ، فَطَارَ العِلْجُ[١] بِسِكّينٍ ذَاتِ طَرَفَيْن، لا يمُرُّ على أحدٍ يميناً ولاَ شمالاً إلاّ طعنه، حتّى طعن ثلاثة عشر رجُلاً مات منهم تسعة.

فلمّا رأى ذلك رجلٌ من المسلمين طرح عليه بُرْنُساً[٢]، فلمّا رأىٰ أنّه مأخُوذٌ نَحَرَ نفسه.

وتناول (أي: عمر) يَدَ عبد الرحمن بن عوف فقدَّمَهُ.

فَمَنْ يَلِي عُمر فقد رأىٰ الّذِي رأيتُ، وأمّا نواحي المسجد فإنّهُمْ لاَ يَدْرُونَ، غير أنّهم فَقَدُوا صوت عمر، وهم يقولون: سبحان الله! سبحان الله.

فصلّى بهِمْ عبد الرحمن صلاةً خفيفة، فلمّا انصرفوا قال (أي: أمير المؤمنين عمر): يا ابْنَ عبّاس، انظر من قتلني، فجال ساعةً ثُمّ جاء فقال: غُلامُ المغيرة.

قال: الصَّنَعُ؟ (أي: الصّانع الحاذق في صناعته).

قال: نعم.

(١) العِلْجُ: يُطلَق على الرجل من كفّار العجم، ويُطلق على كلّ جاف غليظٍ شديدٍ من الرجال.

(٢) البُرْنُس: ثوبٌ له رأسٌ موصول به يُحفظ به الرأس عند الحاجة، وهو من الثياب التقليديّة عند أهل المغرب، وهو مما يُلبَسُ فوق الثياب.

قال: قَاتَلَهُ اللّهُ، لَقَدْ أَمَرْتُ بِهِ مَعْرُوفاً، الحمد للهِ الّذِي لم يجعل منيتي بِيَدِ رَجُلٍ يدّعي الإسلام».

وكان هذا الأمر في ثلاث بقين من ذي الحجّة، من سنة (٢٣) للهجرة النبوية.

وحزن المسلمون حزناً شديداً، حتّىٰ كأنَّ الناس لم تُصِبْهُمْ مصيبةٌ قَبْلَ يَوْمئِذ، فما رُؤِي مَلأٌ من النّاسِ إلاّ وهُمْ يَبْكُون.

وروى الطبراني عن سعيد بن المسيّب: أنّ عبد الرحمن بن أبي بكر قال غداة طُعِن عُمر: مَرَرْتُ علىٰ أبي لُؤْلُؤَة عَشِيَّ أَمْسِ، ومعَهُ جُفَيْنَة، والْهُرْمُزَان، وَهُمْ نَجِيّ (أي: يتحادثون سرّاً) فلَمّا رَهَقْتُهُمْ (أي: غَشِيتُهُمْ وباغَتُّهُمْ باطلاعي عليهم يتناجون) ثَارُوا وسقط مِنْهُمْ خَنْجَرٌ لَهُ رأسانِ، نصابُهُ في وسطه، فانْظُرُوا بِأيِّ شيءٍ قُتِل؟

وحين أُحْضِرَ أبو لُؤْلُؤَة قتيلاً وجدوا الخنجر الذي وصفه عبد الرحمن بن أبي بكر هو الّذي قتل أبو لؤلؤة به عُمر رضي الله عنه.

وسمع عُبَيْدُ الله بن عُمَر بما تحدّث به عبد الرحمن بن أبي بكر، فأدرك أنّ جُفَيْنَةَ والْهُرْمُزَانَ مُشْتَرِكَانِ في تدبير اغتيال أبيه، وأنّهما كانا متظاهرين بالإسلام نفاقاً، فأمسك عن الانتقام منهما حتّىٰ مات عمر.

وبعد أن قضي الأمر، وثبتت في نظره إدانتُهما بالاشتراك في الجريمة، اشتمل على سيفه، فأتى الْهُرْمُزَانَ فقتله، ثم مَضَىٰ حتّىٰ أتىٰ جُفَيْنَةَ، فلمّا علاه بالسيف صَلَّبَ جُفَيْنَةُ بَيْنَ عَيْنَيهِ (أي: رسم علامة الصليب النصرانية بين عينيه).

فدلّت الحادثة على أنّ المنافقين من المجوس والنصارىٰ كانوا وراء تدبير جريمة اغتيال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، خليفة المسلمين، وقد كان المسلمون في أوج مجدهم عدلاً وإرهاباً.

وتشير بعض الروايات إلى أنّ لكعب الأحبار مشاركة مَا في هذه الجريمة، وهو تابعيٌّ كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في زمن أبي بكر، وقدم المدينة في عهد خلافة عمر، والله أعلم بالحقيقة، ومن المعلوم أنّ مكر اليهود عبر التاريخ أشدّ من مكر المجوس والنصارى، وأنّهم يستطيعون أن يخفوا أنفسهم، وأنّهم يعملون ما يريدون بأيدي غيرهم، دون أن يتركوا أدلّة إدانةٍ ضدّهم.

المقولة الثانية

المنافق اليهودي عبد الله بن سبأ، ويقال له ابن السوداء وخبائثه الخطيرة في تاريخ المسلمين

(١)
شخصيته وثبوتها في التاريخ

هو عبد الله بن سبأ، ويقال له: ابْنُ السوداء، لأنّ أُمَّهُ كانت امرأة سوداء اللّون، وكان هو أيضاً أسود اللّون.

كان يهوديّاً، ودخل الإسلام منافقاً في خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه.

ومعظم الأخبار تؤكّد أنّه من يهود اليمن، وقيل: هو من يهود الحيرة، وقيل: هو روميٌّ كان يعمل لتقويض الدّولة الإسلاميّة بتوجيه من الدولة الرومية «البيزنطيّة».

* * *

أقوال المؤرخين وأصحاب المقالات بشأنه(١)

اتفقت المصادر التي تحدّثت عن تاريخ المسلمين والحركات والمذاهب السياسية والاعتقادية الدينيّة الّتي نشأتْ في عَهْد عثمان رضي الله عنه، من كتب أهل السّنة، وكتب الشيعة، على أنّ هذا المنافق الضّالّ المضلّ قد كان شخصيّةً حقيقيّةً، بخلاف ما ادّعى بعض المعاصرين من الشيعة والمستشرقين، من أنّه شخصيّةٌ وهميّة،

(١) باستطاعة الباحث أن يرجع إلى تفصيل ما قاله بشأنه علماء السّنة وعلماء الشيعة، وإثبات شخصيته منافقاً يهوديّاً إلى ما كتب «إحسان إلّهي ظهير» في كتابه «الشيعة والتشيّع ـ فرق وتاريخ» بدءاً من صفحة (٤٨) وإلى كتاب «عبد الله بن سبأ» تأليف «الشيخ سليمان بن حمد العودة».

ليستُروا بهذا الادّعاء الأصل الذي نشأت بدسائسه ومكايده الفرق التي شقت عصا الوحدة الإسلامية، تحت ستار مناصرة حقّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الخلافة، وحقّ آل بيت الرسول محمد ﷺ بها من بعده، وما نجم عن ذلك من انحرافات اعتقاديّةٍ خطيرة، سلخت فرقاً عديدة من الإسلام سلْخاً كليّاً، وكان بعضهم زنادقةً ملاحدة يؤلّهُونَ البشر، وأكْفَرَ من اليهود والنصارى.

* * *

بعْضُ من أثبت حقيقته ومقالاته وخبائثه من علماء أهل السنّة

فمن أهل السنة الذين تحدّثوا عن وجوده وتحرّكاته في إثارة الفتنة على عثمان حتى انتَهَتْ بمقتله، وتحدَّثُوا عن مقالاته الكافرة وأكاذيبه التي دسَّها بين المسلمين.

(١) الطبري في تاريخه، معتمداً في الغالب على روايات «سيف بن عمر التميمي».

(٢) ابن الأثير في تاريخه متابعاً الطبري.

(٣) ابن خلدون في تاريخه.

(٤) ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، مستنداً إلى روايات الطبري، وروايات أخرى لا ينتهي سندها إلى «سيف بن عمر التميمي» وهذه الروايات يصل بعضها إلى درجة الصحيح، ويصل بعضها إلى درجة الحسن، كما نقل «العودة» عن «الألباني».

(٥) الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين».

(٦) وذكر ابن سعد السبئيّة في الطبقات الكبرى، دون أن يصرِّح باسم عبد الله بن سبأ على وجه الخصوص.

(٧) البلاذري في «أنساب الأشراف».

(٨) ابن كثير في «البداية والنهاية».

(٩) المقريزي في «خططه».

(١٠) وذكره أيضاً الذين كتبوا في الرجال، ومنهم: «ابن حبّان» و «الذهبي» و «ابن حجر» و «المقدسي» و «المالقي» و «الصفدي» و «الجرجاني» وغيرهم.

(١١) وذكره أيضاً الكتّابُ في الفرق، وأصحاب المقالات، ومنهم: «أبو الحسن الأشعري» و «البغدادي» و «ابن حزم الأندلُسي» و «الإسفراييني» و «الشهرستاني» و «فخر الدين الرازي» و «الكرماني» وغيرهم.

* * *

بعض من أثبت حقيقته ومقالاته وخباثته من علماء الشيعة

ومن علماء الشيعة الذين تحدّثوا عن هذا المنافق اليهودي الخبيث، وتعتبر كتبهم من المصادر الموثقة والمعتمدة عند الشيعة:

(١) أوّل المصادر المهمة النادرة، التي ذكرت عبد الله بن سبأ «رسالة الإرجاء» للحسن بن محمد بن الحنفيّة، المتوفّىٰ سنة خمس وتسعين للهجرة، والتي رواها عنه الثقات من الرجال عند الشيعة.

(٢) سعد بن عبد الله الأشعري القُمّي، المتوفى سنة (٣٠١هـ) في كتابه «المقالات والفرق» وهذا الكتاب مطبوع في طهران سنة (١٩٦٣م).

(٣) أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي، وهو من أعلام القرن الثالث الهجري، في كتابه «فرق الشيعة» وقد طبع هذا الكتاب «كاظم الكتبي» في النجف عدّة طبعات، وطبعه المستشرق «ريتر» في إستانبول سنة (١٩٣١م).

(٤) أبو عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي، في كتابه المعروف باسم «رجال الكشّي» وقد طبعته مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بكربلاء.

(٥) شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، المتوفىٰ سنة (٤٦٠هـ) في كتابه المعروف باسم «رجال الطوسي» وقد طبع في النجف سنة (١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م) من قبل «محمد كاظم الكتبي».

(٦) ابن أبي الحديد في شرحه لكتاب «نهج البلاغة» وهو شيعي.

(٧) الحسن بن يوسف الحلّي، في كتابه «الرجال» وقد طبع في طهران سنة (١٣١١هـ) ثم في النجف سنة (١٩٦١م).

(٨) محمد باقر الخوانساري، في كتابه «روضات الجنان» وقد طبع في إيران سنة (١٣٠٧هـ).

(٩) الشيخ عبد الله المامقاني، في كتابه «تنقيح المقال في أحوال الرجال» وقد طبع في النجف سنة (١٣٥٠هـ).

(١٠) ابن المرتضىٰ أحمد بن يحيىٰ (ت ٨٤٠هـ) وهو من أئمة الشيعة الزيديّة.

(١١) الأرْدَبيلي (١١٠١هـ).

(١٢) الصدُوق (٣٨١هـ) في كتابه «من لا يحضره الفقيه».

وغيرهم كما ثبت لدى المتتبّعين لأعلامهم وكتبهم.

قال الدكتور «سعدي الهاشمي» في بحث له عن «عبد الله بن سبأ» نشره في مجلّة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة، بالعدد (٤٦) سنة (١٤٠٠هـ) ما يلي:

«اتفق المحدّثون، وأهل الجرح والتعديل، والمؤرّخون، وأصحاب كتب الفرق، والملل والنِّحَل، والطبقات، والأدب، وأُمّهات كتب الشيعة، على وجود شخصيَّة تاريخيَّة اسمها «عبد الله بن سبأ» الملقب «بابن السَّوْداء» وأنّه يهودي جاء من اليمن، وأظهر الإسلام نفاقاً في عهد عثمان رضي الله عنه، وأظهر الصلاح، وجعل يتقرَّب من عليٍّ رضي الله عنه، ويظهر محبّته».

فلا شبهة بعد هذا في أنّ المنافق اليهوديّ «عبد الله بن سبأ» هو شيطان الفتنة الكبرى في عهد عثمان، وما جرّت بعد ذلك من ويلاتٍ ونكبَاتٍ في تاريخ المسلمين.

* * *

(٢)

مقالاته التي نشرها بالتدريج
وضلل بها من تأثّر به كُلّيّاً أو جزئيّاً

(١) عبد الله بن سبأ هو أوّل من قال بوصيّة رسول الله ﷺ لِعَلِيّ أن يكون خليفته من بعده، وأنّه هو خليفته على أمّته بالنصّ، فهو الذي أحدث القول بالوصية لعليّ.

(٢) وهو أوّل من أظهر البراءة من أعداء عليّ رضي الله عنه، وحكم عليهم بالكفر.

وقد أثبت هذا من أقواله من علماء الشيعة: النوبختي، والكشيّ، والمامقاني، والتستري، وغيرهم.

(٣) وهو أوّل من أحدث القول برجعة رسول الله ﷺ إلى الدنيا، والقول برجعة عليّ رضي الله عنه إلى الدنيا بعد موته.

وقد أظهر هذه المقالة في مصر، وكان يقول لمن يعرض عليه أقواله:

أليس قد ثبت أن عيسى عليه السلام سيعود إلى هذه الدنيا؟

فيقول له الرجل: بلى.

فيقول له: فرسول الله أفضل منه، وهو أحقّ بالرجوع من عيسىٰ، فما تنكر أن يعود إلى هذه الدنيا، وهو أشرف من عيسىٰ. ويقول: العجبُ ممّنْ يزعم أن عيسى يرجع ويكذب برجوع محمد، وقد قال الله عزّ وجل له: ﴿إنَّ الذي فَرضَ عليْكَ القرآن لرادُّك إلى معادٍ﴾.

ثم يقول له: وكان قد أوصىٰ إلى عليٍّ مُحمّدٌ خاتم الأنبياء، فَعليٌّ خاتَمُ الأوصياء.

ثم يقول له: فعليٌّ أحقّ بالأمرِ من عثمان، فعثمان مُعْتَدٍ إذْ تولّىٰ ما ليس له، فأنْكِرُوا عليه، وأَظْهِرُوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن أقواله: إنّه كان ألف نبي، ولكل نبيّ وصيّ، وكان عليٌّ وصيّ محمد، ومن أظلم ممّن لم يُجِزْ وصيّة رسول الله ووثَبَ على وَصِيّ رسول الله وتناول أمر الأمة.

وقد افْتُتِنَ به بشرٌ كثيرٌ من أهل مصر، وقال لمن استجاب له: إنّ عثمان أخذها

بغير حقّ، فانهضوا في هذا الأمر فحرّكوه، ابدؤوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تستميلوا الناس، وادْعُوهم إلى هذا الأمر، فبثّ الدّعاة.

(٤) وهو أوّل من أحدث بين المسلمين القول بالتناسخ، كما ذكر المقريزي، فقال فريق من أتباعه بذلك.

(٥) وهو أوّل من ادّعَىٰ النبوّة بعد الرسول ﷺ، وأوّل من قال بألوهيّة عليّ رضي الله عنه وربوبيّته.

روى الكشّي «الشيعي» بسنده عن أبي جعفر، أنّ عبد الله بن سبأ كان يدّعي النبوّة، وزعم أنّ أمير المؤمنين (يعني عليّاً) هو الله، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

فبلغ ذلك أمير المؤمنين، فدعاه وسألَهُ فأقرَّ بذلك، وقال: نعم، أنت هو، وقد كان قد أُلقِي في رُوعي أنَّكَ أنْتَ اللّهُ وَأنّي نبيٌّ.

فقال له أمير المؤمنين: وَيْلَك قد سَخِر مِنْكَ الشيطان، فارجِعْ عن هذا ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وتُبْ، فأبَى.

تقول الرّواية: فحبسه أمير المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه ثلاثة أيّام فلم يَتُبْ، فأحرقه بالنار، لكنّ الروايات الأخرى الأكثر والأصح تذكر أنه نفاه إلى ساباط المدائن.

وذكر الجوجزاني: أنّ عليّاً نفاه بعدما كان همّ به (أي: هم بقتله).

ويظهر أن ابن سبأ راوغ، ولم يُصِرَّ على أقواله في ألوهية عليّ فاكتفى سيدنا عليٌّ بنفيه.

لكنّ مقالته في ألوهية عليّ بين أصحابه السبئيين مقالة ثابتة، ولها وجودٌ بين فرق بعض غلاة الشيعة من الملاحدة حتى الآن.

وبلغ سيدنا عليّاً أنّ بعض مشايعيه يؤلهونه، أو يرون أنّ فيه جزءاً إلـهيّاً، فجمع من بلغه عنهم ذلك، واستجوبهم، فأقرّوا، فاستتابهم، فأصرُّوا، فأمر بنارٍ فأجّجت، وجعل جُنْدُهُ يقذفونهم فيها، فلما رأوا ذلك منه جعلوا يقولون: الآن صحّ عندنا أنه الله.

وروي عنه أنه قال:

لـمّـا رأيـت الأمـر أمـراً مـنـكـراً   اجـجـتُ نـاراً ودعَـوْتُ قُـنْـبـراً

(٦) وكانت لعبد الله بن سبأ أقوال شنيعة بعد اغتيال سيدنا علي رضي الله عنه.
فقال: إنّ علياً لم يَمُتْ، وإنَّهُ راجعٌ إلى الدنيا قبل قيام الساعة، فيَمْلَؤُها عَدْلاً، كَمَا مُلِئَتْ جوراً.

وقال للّذي جاءه ينعىٰ إليه موت عليّ بن ابي طالب: «لو جئتنا بدماغه في صُرَّةٍ لعلمنا أنّه لا يموت حتى يسوق العرب بعصاه».

وزعم انّ المقتول لم يكن عليّ بن أبي طالب، وإنّما كان شيطاناً تصوّر للناس في صورته. وقال: لو أقام أحد على قتله سبعين شاهداً عـدلاً ما صـدّقناه، ولعلمنا أنه لم يمت ولم يقتل، وإنما صعد إلى السماء، والذين رأوه قتيلاً قـد شُبّه لهم، كمـا شُبّه للذين رَأوا عِيسَىٰ مصلوباً.

(٧) ذكر الصفدي في ترجمته لعبد الله بن سبأ، أنـه قال لعلي رضي الله عنـه: أنت الإلٓـه، فنفاه إلى المدائن، فلمّا قُتِل عليٌ زعم ابن سبأ أنّه لم يَمُتْ، لأن فيه جزءاً إلٓـهيّاً، وأنّ ابن مُلْجم إنّما قتل شيطاناً تصوّر بصورة عليّ، وَأنّ علياً في السحاب، وأَنّ الرعد صوته، والبرق سوطه، وأنه سينزل إلى الأرض فيملؤُها عدلاً.

هذه المقالة موجودة حتّىٰ الآن لدى بعض الطوائف الكفرة من مشايعي عليّ.

فعبد الله بن سبأ علّم أتباعه أن يقولوا إذا رأَوْا سحابة: أميرُ المؤمنين فيها.

وذكر الجرجاني أنّ أصحاب عبد الله بن سبأ يقولون حين يسمعون الرعد: عليك السلام يا أمير المؤمنين.

ونقل النوبختي من علماء الشيعة: أنّ الشيعـة الغلاة يقـولون مقـالة ابن سبأ في عليٍّ بعد اغتياله:

إنّ علياً لم يُقْتَلْ، ولم يَمُتْ، ولاَ يُقْتَلُ ولاَ يَمُوتُ، حتى يسـوق العرب بعصـاه، ويملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما مُلِئَتْ ظلْماً وجَوْراً.

(٨) وروى الجوجزاني، أنّ من مزاعم عبد الله بن سبأ ادّعاؤه أنّ القرآن جزءٌ من تسعة أجزاء، وعلمه عند عليّ.

فقال السبئية تبعاً له: إنّ محمّداً كتم تسعة أعشار الوحي، وقال فريق منهم: هدينا لوحي ضلّ عنه الناس، ولعلم خفي عنهم.

وقد ردّ عليهم الحسن بن محمد بن الحنفيّة، أحد أئمة أهل البيت، في رسالته «الإرجاء» التي رواها عنه الثقات عند الشيعة قائلاً:

ومن قول هذه السبئية: «هدينا لوحي ضلّ عنه الناس، وعلم خفي عنهم» وزعموا أنّ رسول الله ﷺ كتم تسعة أعشار الوحي، ولو كتم ﷺ شيئاً مما أنزل الله لكتم شأن امرأة زيد، وقوله: «تبتغي مرضاة أزواجك»[١].

(٩) وادّعى «عبد الله بن سبأ» أنّ عليّاً هو دابّة الأرض، وأنّه هو الذي خلق الخلْقَ وبسط الرزق.

(١٠) وظهرت بين أتباعه الغلاة مقالات، منها: انتقال روح القدس في الأئمة، ومنها أنّهم لا يموتون، وإنّما يطيرون بعد موتهم، ولذلك يقال لهم: الطيّارة.

(١١) وكان ابن سبأ يكذب الأكاذيب على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فممّا كان يقول لأصحابه:

إنّ أمير المؤمنين قال لي: إنّه يدخل دمشق، ويهدم مسجدهم حجراً حجراً، ويظهر على أهل الأرض، ويكشفُ أسراراً، ويعرّفُهم أنّهُ ربُّهم.

وعن ابن سبأ أخذ غلاة الشيعة أفكاره هذه موزّعةً في فرقهم، وزادوا عليها ضلالات وكفريات وإباحيّات وإلحاداً.

فمنهم من يؤلّهون عليّاً والأئمة من بعده، ويقولون: إنّ الجزء العلويَّ الإلٰهيّ يحُلُّ في الأئمة، وإنّهم بذلك استحقوا الإمامة بطريق الوجوب، كما استحقّ آدم عليه

---

(١) انظر د. سعدي الهاشمي، في بحثه المنشور في «مجلة الجامعة الإسلامية» بالمدينة العدد (٤٦) سنة ١٤٠٠هـ.

السلام سجُودَ الملائكة له، فالإمامةُ عنْدهم موقوفةٌ على ناسٍ معيَّنين، لا تتعدّاهم، ومن أخذها منهم فهو ظالم.

والمكيدة اليهوديّة من وراء هذه الأكاذيب التي افتروها وروَّجوها أنْ يكون المنافقون منهم بين صفوف المسلمين، هم الأئمة وأصحاب السلطان، إذا استطاعوا أن يسرقوا أنساباً من أنساب أهل البيت، ويجعلوا أُسَراً منهم ضمن أُسَرَ أهل البيت النبوي، ويدَّعوا لأَبْناء هذه الأسر أنَّهم هم الأئمة، وهو ما ظهر بعد ذلك في الدولة الفاطميّة.

فالمكيدة ليست مكيدة شخصٍ واحد فيما أرى، بل هي مكيدة يهودية ذات أطراف متشعبة يبرز منها بعض الأطراف، وتختفي أطراف أخرى كثيرة، على طريقة المنظمات السِّرّية.

* * *

(٣)
موجز تحرُّكاته الشيطانية الأولى

(١) تظاهر اليهوديّ «عبد الله بن سبأ» الملقّب بابن السوداء، بالإسلام في خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وأتقن دوره في النفاق.

(٢) وأخذ يتنقّل في بلدان المسلمين من قُطْرٍ إلى آخر، محاولاً إضلالهم عن دينهم، وإثارة الفتن بين صفوفهم.

فابتدأ بالحجاز، ثم انتقل إلى البصرة، ثم عرّج على الكوفة، وأسّس في البصرة والكوفة خلايا له من الأشرار المنافقين ذوي المطامع.

ثم انتقل إلى بلاد الشام، فلم يجد فيها ما يرجو، لأنّ هوى الشاميين كان مجتمعاً فيها على معاوية بن أبي سفيان.

فأتى مصر واستقر فيها، وطاب له فيها العمل، وعقد حبائل الفتنة.

(٣) استطاع أن يؤلّب الأحزاب ضدّ الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكانت فتنته قد بدأت بالتشنيع عليه وعلى الولاة من قِبَلِه في الأمصار.

(٤) نزل في البصرة حين انتقل إليها بعد الحجاز على شخص اسمه: «حكيم بن جَبَلَة الْعَبْدي» من بني عبد القيس، وكان هذا رجلاً لصّاً شرّيراً، إذا قفلت جيوش المسلمين خنس عنهم للُصوصيَّة والسَّلْب والنهب، وكان يعثو في أرض فارس، فَيُغيرُ مع عصبته على أهل الذمّة، ويُفْسِد في الأرض، ويُصِيبُ ما يشاء.

فشكاه أهل الذمّة والمسلمون إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه، فكتب إلى عامله «عبد الله بن عامر»: أن احْبِسْهُ ومَنْ كان مِثْلَهُ، فلا يخْرُجَنَّ من البصرة حتّى تأنسوا منه رُشداً، وفُرِضَتْ عليه الإقامة الجبرية في البصرة، لاتقاء شرّه وإفساده في الأرض.

ولمّا قدم «عبد الله بن سبأ» البصرة ونزل على هذا الرجُلِ اللصِّ المفسد، وعلم والي البصرة بقدومه، ولعلّه أحسّ ببعض تحرّكاته، دعَاهُ وقال له: ما أنت؟

قال: رجلٌ من أهل الكتاب، رغب في الإسلام والجوار.

فتوجّس منه والي البصرة خيفة أن يُثِير فتنة ويعمل شرّاً، وقال له: اخرج عنّي.

(٥) فخرج من البصرة، ودخل الكوفة، واتّصل ببعض أشرارها، وتآمَرُوا علَى إثارة الفتن، وأحسّ بهم أهل الكوفة، فتوجّسُوا من «عبد الله بن سبأ» خيفة، فأخرجوه.

(٦) وارتحل إلى الشام، ونُسِبَ إليه أنه لقي فيها أبا ذَرٍّ الغفاريّ رضي الله عنه[1]، فاستثاره على معاوية واليها من قِبَلِ عثمان، مستغِلاً ما لدَىٰ أبي ذرٍّ مِنْ رأي في المال، وقال له: ألا تعجب إلى معاوية، يقول: «المالُ مال الله»؟! كأنه يريد أن يحْتجِزَهُ لنفسه دون المسلمين.

فذهب أبو ذرّ إلى معاوية، وأنكر عليه ذلك قائلاً: ما يَدْعُوكَ أن تُسَمّي مال المسلمين مالَ الله؟

(١) لقاء ابن سبأ لأبي ذرّ مشكوكٌ فيه لدى حسّاب التواريخ، ولا يلزم من هذا أن أبا ذرّ لم يختلف مع معاوية، فخلافه مع معاوية ومع عثمان في قضايا الأموال أمرٌ مشهور.

فقال له معاوية: يَرْحَمُكَ اللَّهُ يا أبا ذرٍّ، ألَسْنا عباد الله، والمالُ مالُه، والخَلْقُ خلْقُه، والأَمْرُ أَمْرُه؟!

لكنّ ابن سبأ لم يجد بغيته عند أهل الشام ضدّ معاوية، أو عثمان، ورأى الشاميّون فيه مثير فتنة ضدّ معاوية الأثير لديهم، وضدّ خليفة المسلمين، ورأوا أنّ هذا الرجل صاحب كيد يعمل لتأليب الفقراء ضدّ الأغنياء، فأخرجوه.

(٧) فرحل إلى مصر وكان ذلك حوالي سنة (٣٤ هجرية) ونزل في مصر على بعض القبائل اليمنية، مثل: «الغافقي بن حرب العكّي» و«سودان بن حمران السكوني» واختبر استثارتهم ضدّ الدّين كلّه فلم يجد لديهم الاستعداد لذلك، فعرّض لهم بالشقاق على الولاة فأطْمَعُو، إذْ وجد لديهم هوى في ذلك.

وأدرك الخبيث «عبد الله بن سبأ» أنّ والي مصر وداهية العرب «عَمْرو بن العاص» هو العقبة الكبرى في مصر ضدّ مكايده، فبدأ بإثارة الناس عليه، ولَبِس قناع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لبلوغ أهدافه، وقال للّذين استجابوا لمكيدته وإثارة الفتنة:

«أَظْهِرُوا الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر تستميلوا الناس».

وبدأ «عبد الله بن سبأ» فطعن في «عمرو بن العاص» قائلاً: «ما بالُه أكثرَكُمْ عطاءً ورِزْقاً؟! ألاَ نُنَصِّبُ رجلاً من قريشٍ يُسَوِّي بيننا؟!».

فسَرَّهم ذلك منه، لأنّه وافق هواهم.

خاتمة:

ذكر «إحسان إلّهي ظهير» في كتابه «الشيعة والتشيّع» إجماع مؤرخي السنة والشيعة على أنّ «عبد الله بن سبأ» هو الذي أضرم نار الفتنة، وسعىٰ بالفساد في أرض الخلافة، وأغرى الناس ضدّ عثمان، حتّى انتهت الفتنة بمقتله رضي الله عنه.

وبذلك ثُلِمَتْ ثلمة عظمىٰ في تاريخ المسلمين.

* * *

(٤)
قصة إشعاله الفتنة وتحريكه الثورة
التي انتهت بمقتل الخليفة عثمان

استقر «عبد الله بن سبأ» في مصر، وجَمَع حوله فريقاً من المنافقين، واستمال بعض المسلمين وهم غافلون عن مكيدته، فجعلهم يقبلون أقواله في الطعن على الخليفة عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وعلى وُلاته في الأقاليم والأمصار.

وأعلن أن عليّاً هو وصيّ رسول الله، وأنّ هذا الحق قد انتزعه منه أبو بكر وعُمَر وعثمان، وأنّه يجب التخلُّص من عثمان وردُّ الحقّ لصاحبه.

ووجد الخبيث ابن سبأ عوامل ساعدته على إحكام خطته، من لين الخليفة «عثمان» ولين واليه في مصر «عبد الله بن سعد بن أبي سرح» بعد عزل «عَمْرو بْن العاص» وتوليته الأقربين من بني أميّة، ووجود بعض الناقمين عليه من أولاد كبار الصحابة، وتفرّق أصحاب رسول الله ﷺ في الأمصار، ووجود الأخلاط وأصحاب المصالح الخاصة الطامعين بين بعض القبائل التي لم يتمكّن الإسلام من قلوبهم، ومنهم من كانوا من قبائل المرتدّين في عهد أبي بكر رضي الله عنه.

واتخذ أولياء له أغراهم بالمنافع والسلب والنهب، من عناصر الفساد والإفساد والطامعين وقطاع الطرق في البصرة والكوفة، مدّة إقامته فيهما قبل أن يرحل إلى الشام فمصر.

واعتمد التركيز على إشاعة فكرة حقّ عليّ رضي الله عنه في الخلافة، بعد أن أذاع كذباً أنّ الرسول أوصىٰ له بها، وأشاع أنّ عثمان رضي الله عنه قد كان ظالماً إذْ وثَبَ على وصيّ رسول الله ﷺ، وتناول أمر الأمّة، وأخذ الخلافة بغير حقّ، وقال لأصحابه ومناصريه في آرائه:

انْهَضُوا في هذا الأمر فحرّكوه، ابدؤوا بالطعْنِ على أُمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تسْتَمِيلُوا الناس، وادعوهم إلى إعادة الحقّ إلى نصابه عليّ بن أبي طالب.

وبثّ دعاته في الأمصار، وجعل يكاتب من كان قد أفسدهم ويكاتبونه، وأخذ دُعاتُه يدعون إلى تغيير الخليفة سرّاً، ويختلقون الأكاذيب عليه وعلى ولاته، إعداداً للقيام بالثورة على عثمان في المدينة، وجعلوا يكتبون الكتب ويرسلونها إلى كبراء الأمصار، فيُرْسِلُ كلُّ متآمري أهل مصر من أتباع ابن سبأ إلى كبراء الأمصار الأخرى، شاكين سوء حال الولاة عليهم من قبل عثمان الخليفة، ويقْرَأُ أتباعُه هذه الكُتُبَ في أمصارهم، حتّىٰ تناولُوا بذلك المدينة عاصمة الخلافة، وأوسعوا الأرض إذاعة عن سوء حال أهلها من ظلم الخليفة.

وحين يَسْمَعُ أهل كلّ بلَدٍ ما جاءهم من أخبار البلدان الأخرى يقولون: إنّا لَفِي عافيةٍ ممّا ابتُلِيَ به غيرنا من أهل الأمصار.

أمّا أهل المدينة فقد وردت إليهم الكتب المصنوعة من جميع الأمصار، فقالوا: إنّا لفي عافية ممّا عليه جميع المسلمين في أمصارهم.

ووصلت إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه الأنباء التي دُوّنت في الكتب المصنوعة المزوّرة، فقال الذين نقلوا إليه أخبار هذه الكتب من أهل المدينة: أيأتيك عن الناس الذي يأتينا؟

قال: لا والله، ما جاءني إلاّ السلامة.

قالوا: فإنّا قد أتانا، وأخبروه بما جاء في الكتب.

قال: فأنتم شركائي وشهود المؤمنين، فأشيروا عليّ.

قالوا: نشير عليك أن تبعث رجالاً ممّن تثق بهم إلى الأمصار، حتى يرجعوا إليك بأخبار أهلها.

فقبل مشورتهم، ونفّذها كما يلي:

- أرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة.
- وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة.
- وأرسل عمّار بن ياسر إلى مصر.
- وأرسل عبد الله بن عمر إلى الشام.

ـ وأرسل رجالاً سواهم إلى سائر الأمصار.

فرجعوا جميعاً قبل عمّار بن ياسر، فقالوا: أيُّها الناس، ما أنكرنا شيئاً، ولا أنكر أعلام المسلمين وعَوَامُّهُمْ شيئاً.

وقالوا جميعاً: الأمر أمر المسلمين، وإنّ أُمَرَاءَهُمْ يُقْسِطُونَ بينهم، ويَقُومُونَ عليهم.

واستبطأ النّاسُ عمّار بْنَ ياسر، حتّى ظنُّوا أنّه قد اغْتِيل.

ثمّ فاجأهم كتاب من والي مصر «عبد الله بن سعد بن أبي سرح» يخْبرُ فيه أنّ عمّاراً قد استماله قومٌ بمصر، وقد انقطعوا إليه، وفيهم «عبد الله بن سبأ» و «خالد بن ملجم» و «سودان بن حمران» و «كنانة بن بشر» يريدونه على أن يقول بقولهم، وهم يزعمون أنّ محمّداً راجع، ويدعونه إلى خلْعِ عثمان، ويخبرونه أنّ رأي أهل المدينة على مثل رأيهم، فإنْ رأى أمير المؤمنين أنْ يأذَنَ لي في قتله وقتْلِهِمْ قبْلَ أنْ يُبَايعهم؟

فكتب إليه عثمان رضي الله عنه:

«لَعَمْرِي إنَّكَ لَجَرِيءٌ يا ابْنَ أمّ عبْدٍ، لا والله لا أقتله، ولا أَنْكؤُهُ ولا إيَّاهم، حتّى يكون الله عزّ وجلّ ينتقم منهم ومنه بمن أحبّ، فدَعْهُمْ ما لم يخْلَعُوا يداً من طاعة، ويخوضوا ويلعبوا».

بلوغ المؤامرة السبئية ذروتها:

وبلغت المؤامرة الكيديّة السبئيّة ذروتها، ونَشط أبالسة الشرّ والفتنة في إشعال نار الثورة.

(١) فخرج في الكوفة «يزيد بن قيس» ودخل المسجد منادياً بخَلْعِ عثمان، واجتمع إليه أصحابه، ممّن كان عبد الله بن سبأ يكاتبهُمْ، ينادون بخلع الخليفة عثمان.

وأنكر عليهم ذلك أهل العلم والرشد من أهل الكوفة، وقال قائل أهل الرشد: هيهات، لا والله، لا تُسْكِنُ الْغَوْغاء إلّا المشرفيّة (أي: السيوف).

(٢) وفي مصر أخذت ترد الكتب المزوّرة على ألسنة الصحابة تطالبُ بقتْلِ عثمان.

(٣) وأشعل أصحاب «عبد الله بن سبأ» المنافقِ اليهودي نار الثورة على عثمان في عدّة أمصار.

(٤) وبلَغَ عثمانَ رضي الله عنه أمْرُ هذِه الفتنةِ ذاتِ الكيد اليهودي المدبّر، فأرسَلَ إلى عُمَّالِهِ أنْ يوافوه في موسم الحجّ، ودعا معهم بعض من يثق برأيه ومشورته.

(٥) فحضر إليه معاوية بن أبي سفيان، واليه في الشام، وعبد الله بن عامر، واليه في البصرة، وعبد الله بن سعْدِ بن أبي سرح، واليه في مصر.

وحضر أيضاً عمرو بن العاص، وسعيد بن العاص، وكانا معزولين.

وأخبرهم عثمان بما صنع الناس، وما شكَوْا به إليه، وطلبَ منهم أن يجتهدوا في آرائهم ويشيروا عليه.

* فأشار عليه «عبد الله بن عامر» بأن يأمر الناس بالجهاد، ويُجَمْهِرَهم في المغازي، ليشغَلَهُمْ بذلك عن إثارة الفتن الداخليّة.

* وأشار عليه «معاوية بن أبي سفيان» بان يرُدَّ عُمّالَه إلَىٰ أمصارهم، على أن يكْفُوه ما يأتي من قبلهم (أي: أن يُطلِقَ أيديهم لقَمْع الفتنة).

* وأشار عليه «سعيد بن العاص» بأن يقتُل قادة هؤلاء الفرق، فيتفرّق أذنابُهم، إذْ إنَّ الأمر يُصْنَع في السّرّ، ولا ذنْبَ للعامّة الّذين يتحدّثُون بما يُسَرُّ به إليهم.

* وأشار عليه «عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح» واليه على مصر، بأن يُغْلِق عليهم الأموال، فيُلْجِمَهُم بها، لأنّهم أهلُ طمع.

* وقال له «عَمْرو بْنُ العاص»: إنّكَ رَكِبْتَ النّاسَ بما يكرهون، فاعْتَزِمْ أنْ تعتدِلَ، وإلّا فاعْتَزِلْ.

وظنَّ عثمان أنّ هذا القول من «عمرو بن العاص» هو الجدّ منه. حتّى إذا تفرّق القوم عنه أشار عليه عمْرو بأنّ هذا ليس هو رأيه، وإنّما اراد أن يبلُغ القومَ قولُه، فيثقوا به، فيقودَ إليه خيراً، أو يصرف عنه شرّاً، وذلك لظنّه انّ الْخَبَرَ سيبلُغُهُمْ.

ورُوي أنه نصحه بقوله:

«أرى أنَّكَ قد لِنْتَ لَهُمْ، وتراخَيْتَ عَنْهُم، وزِدْتَهُمْ على ما كانَ يصْنَعُ عُمَر، فأرى أن تلزم طريقة صاحِبَيْكَ، فتشْتَدُّ في موضع الشدّة، وتَلِينَ في مَوْضِعِ اللّين».

مقدم الثائرين إلى المدينة من مصر والكوفة والبصرة:

بعد أن تمّ نَسْجُ خيوط المؤامرة التي دُبّرت في مصر والكوفة والبصرة، بمكر شيطانها «عبد الله بن سبأ».

وفي سنة (٣٥ للهجرة) انطلق الثائرون من هذه الأمصار الثلاثة، متظاهرين بأنهم خرجوا للحجّ، وهم إنّما خرجوا للثورة والحرب، وخلع خليفة المسلمين، بأهواءٍ ثلاثة، لأنّ مدبّري الفتنة يريدون إحداث الشقاق والتقاتل بين المسلمين بذرائع شتّى، وكان من ضمن الثائرين من سبق أن ارتدّ في عهد أبي بكر.

فالثائرون من مصر هواهم أن يستخلفوا الزبير بن العوّام، أحد العشرة المبشرين بالجنة.

والثائرون من البصرة هواهم أن يستخلفوا طلحة بن عبيد الله، أحد العشرة المبشرين بالجنة، ولقبه الرسول «طلحة الخير» وهو من دهاة قريش وعلمائهم.

* فجاء الثائرون من مصر في أربع فرق، وكان عددهم ما بين (٦٠٠) و (١٠٠٠) على اختلاف في الروايات.

قائدهم العامّ بحسب الظاهر «الغافقيّ بن حرب العكي» وكانوا مقسّمين إلى أربع فرق، على كلّ فرقة أمير، وهم: «عبد الرحمن بن عديس البلوي ـ كنانة بن بشر التجيبي ـ سودان بن حمران السكوني ـ قتيرة بن فلان السكوني».

وذُكر من أسماء القادمين: «عروة بن شيم اللّيثي ـ أبو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي ـ سودان بن رومان الأصبحي».

وقدم معهم شيطان المؤامرة الخبيثة اليهودي المنافق «عبد الله بن سبأ».

* وجاء الثائرون من أهل الكوفة في أربع فرق أيضاً، وكان عددهم كعدد القادمين من مصر، بإمارة «عمرو بن الأصم» أمّا أمراء الفرق فهم: «زيد بن صوحان

العبدي ـ الأشتر النخعي ـ زياد بن النضر الحارثي ـ عبد الله بن الأصم أحد بني عامر بن صعصعة».

* وجاء الثائرون من أهل البصرة في أربع فرق أيضاً، وكان عددهم كعدد القادمين من مصر، بإمارة «حرقوص بن زهير السعدي» أمّا أمراء الفرق فهم: «حكيم بن جبلة العبدي ـ زريح بن عبّاد العبدي ـ بشر بن شريح الحطم بن ضبيعة القيسي ـ ابن المحرش بن عبد عَمْرو الحنفي».

وسار القادمون من الأمصار الثلاثة، حتّى إذا كانوا من المدينة على ثلاث مراحل، توقفوا يستطلعون أحوال أهل المدينة، هل هم سيخْرُجون لقتالهم، أو أن أهل المدينة لا علم لهم بمقدمهم ولا بغايتهم.

وتقدّم من الثائرين طلائع، فنزل المصريون في «ذي المروة» ونزل الكوفيون في «الأعوص» ونزل البصريون في «ذي خشب» [أسماء أمكنة] حول المدينة.

ومشى بين الثائرين من الجهات من نظّم عمليّة الدخول إلى المدينة، حتى لا يُفاجؤوا بما يُحْبِط أعْمَالهم الكيديّة.

ودخل رجلان من الثائرين المدينة يتحسّسان الأخبار، ويستطلعان ما لدى كبار الصحابة من رأي، هما «زياد بن النضر» و «عبد الله بن الأصم» فلقيا أزواج النبي ﷺ وعلياً وطلحةَ والزبير، وعرضا عليهم رغبة القادمين بتغيير بعض عُمّال عثمان، وتلطّفُوا بالحديث، وطلَبُوا الإذن للوفود بدخول المدينة، فكلّهم أبَوْا، ونَهَوْهُمْ عن متابعة ما جاءوا من أجله، فرجعا وأبْلَغا الوفود بما لقوا من الذين واجهوهم.

واستنفر أهل المدينة لحمايتها من الثائرين، وأقاموا مواقع تربّص معسكرين مسلّحين.

فاجتمع من القادمين من مصر نفر فأتوا «عليّاً» رضي الله عنه، فسلّموا عليه، وعرّضوا له، فصاح بهم وطردهم، وقال لهم:

«لقد علم الصالحون أنّ جيش ذي المروة وذي خُشب، ملعونون على لسان محمّد، فارجعوا لا صَحِبَكُمُ الله».

قالوا: نعم، فانصرفوا من عنده على ذلك.

وأتى نفر من البصريين «طلحة» رضي الله عنه، فسلّموا عليه وعرّضوا لـه، فصاح بهم وطردهم، وقال لهم:

«لقد علم المؤمنون، أنّ جيش ذي المـروة، وذي خشب، والأعوص، ملعـونون على لسان محمد ﷺ».

وأتى نفر من الكوفيين «الزبير» رضي الله عنه، فسلّموا عليه وعرّضـوا له، فصـاح بهم وطردهم، وقال لهم:

«لقـد علم المسلمون أن جيش ذي المـروة، وذي خشب، والأعوص، ملعـونون على لسان محمّد ﷺ».

وكان علي وطلحة والزبير قد بعثوا بعض أولادهم لحماية عثمان في داره.

وتوجه قادة الثائرين لعثمان رضي الله عنه، متذرّعين بأنّهم يريدون أنْ يذكُـروا له أموراً، ويعرضوا عليه مسائل.

فاستقبلهم الخليفة، وأجابهم على أسئلتهم.

قالوا له: ادع بالمصحف. فدعا به.

قالوا: اقرأ سورة يونس.

فقرأ، فلما وصل إلى قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

أوقـفـوه.

وقالوا: أرأيتَ ما حُمِيَ من الْحِمَىٰ؟ آللّهُ أذن لك أَمْ على الله تفتري؟ وذكروا لـه أشياء أخرى.

وكـان يجيبهم بمـا يعلم من كتـاب الله، ويبيّن لهم وجـه الحقّ، وخـطأهم في التأويل، ويقيم عليهم الحجّة رضي الله عنه.

ثم إنّهم خرجوا متظاهرين بالرضا، وكتبوا عليه شرطاً، وأخذ عليهم ميثاقاً ألاّ يشقُّوا العصا، ولا يفارقوا الجماعة، ما أقام لهم شرطهم.

وأدرك عقلاء الصحابة، وكبار المسلمين من أهل المدينة، أنّهُمْ أصحاب شرّ، فأشاروا على الخليفة بقتلهم، ولكن عثمان رضي الله عنه أبى.

وتفرّقت الطلائع عن ذي المروة، وذي خشب، وذي الأعوص، حتّى انتهَوْا إلى عساكرهم الرابضة على ثلاث مراحل، لإيهام أهل المدينة أنّ الثائرين قد رجعوا إلى بلدانهم.

ودبّر أصحاب المكيدة خطّة للعودة إلى المدينة مباغتين، بعد أن يكون حُماتُها قد عادوا إلى بيوتهم، وعاد حرّاس بيت الخليفة إلى بيوتهم وأهليهم، ظانّين أنّ جيوش الثائرين قد عادوا إلى بلدانهم.

واتفق صانعو المكيدة مع بعض المنافقين في المدينة، على أن يحمّلوه رسالة مزوّرة كتبوها، ممهورة بختم الخليفة عثمان، ويحملها معه متظاهراً بأنّه سائر باتّجاه مصر، وأنْ يتعرّض من حين لآخر للقادمين من مصر وهم قافلون، حتّى لا يُشْعِرُوا جمهور الثائرين بأنّ العودة إلى المدينة خطّة مدبّرة في المدينة.

واتفقوا مع القادمين من الكوفة والبصرة على أن يأتوا المدينة مباغتين في وقت قدّروه كافياً لدخولها مجتمعين، بعد أن يكون حماتُها وحماةُ الخليفة قد رجعوا إلى مساكنهم.

وبينما رَكْبُ المصريّين عائدون وَفْقَ ما حصل عليه الاتفاق مع الخليفة، إذا براكب يعترض لهم ويفارقهم، ثم يرجع لاعتراضهم، ثمّ يفارقهم.

عندئذٍ استوقفه قادة الركب ليبدو أنّه أمر طبيعي غير مدبّر، وقالوا له: مَا لَكَ؟

قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر.

ففتّشوه، فعثروا معه على كتاب من عثمان وعليه خاتمه، وفيه الأمر بصلبهم، أو قتلهم، أو قطع أيديهم وأرجلهم.

فأعلنوه على الركب، واستثاروا به غضبهم، فارتدّوا راجعين شطر المدينة.

وكرّ أيضاً القادمون من البصرة والكُوفة دون اتّخاذ عُذْرٍ مشابه، لأنّ جميع أفرادهم ضالعون في الخيانة، بخلاف القادمين من مصر، فإنّ فيهم من هو مغرُور به.

ودخلوا المدينة مباغتين يكبّرون، وعسكروا فيها، وصلّى عثمان بالناس أيّاماً، ولزم الناس بيوتهم، ثم أحاط جمع من الثائرين بدار عثمان محاصرين، ونادوا في المدينة: منْ كفّ يده فهو آمن.

فأتاهم الناس فكلّموهم وفيهم عليٌّ وطلحة والزبير رضي الله عنهم، وقال لهم علي: ما ردّكم بعد أن رجعتم عن رأيكُمْ وانصرفتم.

قال المصريون: وجدنا مع رجل البريد كتاباً بقتلنا.

وسأل طلحة البصريين، والزبير الكوفيين، فقالوا: نحن ننصر إخواننا، وقال المصريون لعليٍّ: ألم تر إلى عدوّ الله كتب فينا بكذا وكذا؟ وإنّ الله قد أحلّ دمَهُ، فقُمْ معنا إليه.

قال علي: والله لا أقوم معكم.

قالوا له: فَلِمَ كتبتَ إلينا؟

قال علي: واللّهِ ما كتبتُ إليكم كتاباً.

فنظر بعضهم إلى بعض قائلين: ألهذا تقاتلون؟ أو لهذا تغضبون؟

وقال عليٌّ رضي الله عنه: يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة، كيف علمتم بما لقي أهل مصر، وقد سِرْتم مراحل، ثم طويتم نحونا، هذا والله أمْرٌ أبْرِمَ في المدينة.

قالوا: فضعوها على ما شئتم، لا حاجة لنا في هذا الرجل، فليعتزلنا.

وانطلقوا إلى عثمان، فقالوا: كَتَبْتَ فينا بكذا وكذا.

فقال رضي الله عنه: إنّهما اثنتان:

* أن تُقيموا رجلين من المسلمين (أي: شاهدين على أنّه كاتب هذا الكتاب الذي يدّعون).

* أو يميني بالله الذي لا إله إلاّ هو، ما كتبتُ، ولا أمْلَيْتُ ولاّ علمتُ، وقد

يُكتَبُ الكتاب على لسان الرُّجل، ويُنقَشُ الخاتم على الخاتم.

قالوا: قد أحلّ الله دمَكَ، ونقضْتَ العهدَ والميثـاق، وحصروه في داره رضي الله عنه محاصرةً شديدة ليعتزل ويخلع نفسه.

وجاء عليٌّ وأهل بيته، وطلحة، والـزبير مـع أبنائهم، للدفـاع عنه، فقـال عثمان مخاطباً لهم:

يـا أهل المـدينة، إنّي أستـودعكُمُ الله، وأسْأَلُهُ أن يُحْسِن عليكم الخلافـة من بعدي، إنّي واللّهِ لا أُدْخِلُ عَليَّ أحداً بعْدَ يومي هذا حتى يقضي الله فيَّ قضاءه.

ولأدَعَنَّ هؤلاء وراء بابي غير معطيهم شيئاً يتّخـذونه عليكُمْ دَخَـلاً في دين الله، حتّى يكون اللّهُ عزّ وجلّ الصانعَ في ذلك ما أحبّ.

وأمر عثمانُ أهل المدينة بالرُّجوع، وأقسم عليهم، فـرجعوا إلّا الحسَنَ بن علي، ومحمـد بن طلحة، وعبـد الله بْنَ الـزبيـر، وأمثـال هؤلاء، فكـان هؤلاء عنـد بـاب دار عثمان، عن أمر آبائهم، وثاب إليهم ناسٌ كثير.

ولزم الخليفةُ عثمانُ داره.

واستمـر الحصار اثنين وعشـرين يومـاً، ثمّ أَحْرَقَ المحـاصرون بـاب داره، وفي الدار عددٌ غير قليل من حرّاس عثمان، فيهم عبـد الله بن الزبيـر، ومروان بن الحكم، فقالوا لعثمان: ائذنْ لنا بقتالهم.

فقـال عثمان: إنّ رسـول الله ﷺ عَهِد إليّ عهـداً، فأنـا صابرٌ عليه، وإنّ القـوم لم يحرقوا بـاب الدار إلّا وهم يـطلبون مـا هو أعـظم منه، فـأحرّجُ على رجُـلٍ يستقتل ويقاتل.

فلم يأذن لهم بأن يقاتلوا دفاعاً عنه، وخرج الناس كلُّهُم.

ودَعا بالمصحف يقرأ فيه، والحسَنُ بْنُ عليٍّ عنـده، فقال لـه: إنّ أباك الآن لفي أمْرٍ عظيم، فأقْسَمْتُ عليكَ لَمَا خَرَجْتَ.

وأمر عثمان أبا كرب ــ رجلاً من همذان ــ وآخر من الأنصار أن يقوما على بـاب بيت المال، وليس فيه إلّا غرارتان من وَرِق.

واطفئت النار، وناوش ابنُ الزبير ومروانُ بعضَ المحاصرين، وتوّعدهما محمّدُ بن أبي بكر، وكان من ضمن الثائرين المحاصرين المغرَّر بهم.

واقتحم بعض المحاصرين الدار، ودخلوا على عثمان رضي الله عنه، فوجدوه يقرأ في المصحف، وانهالوا عليه يضربونه، وهو صابر محتسب، ووجأَهُ بعضُهُمْ في ترقوته فسال دمُهُ على المصحف، وهم يهابون أن يقتلوه، وكان شيخاً مُسِنّاً، وغُشِيَ عليه، ودخل آخرون، فلمّا رأوه مغشيّاً عليه، جرُّوا برجله، فصاحت زوجته نائلة، وصاحت بناتُه، وجاء كنانة بن بشر التجيبي، قائد أحد الفرق القادمة من مصر، مخترطاً سيْفَهُ، يُريد أن يجهز على الخليفة، فحاولت زوجة «الخليفة «نائلة» أن تَقِيَهُ، فقطع التجيبيُّ يَدَها، ووضع سيفه في صدر عثمان واتّكأ عليه، فقتله قبل غروب الشمس.

وقد اشترك قادة الفرق المصرية في ضربه وجرحه قبل قتله.

وتمت المؤامرة الخبيثة، متابعاً نسج خيوطها المنافِقُ اليهودي «عبد الله بن سبأ» وحقّق أهدافَهُ الرامية إلى شقِّ عصا وحدة الأمّة الإسلاميّة، وتقاتلهم، وتمزيق صفوفهم.

ونشأت فرق الشيعة أصْحَابَ مَذَاهبَ دينيَّة، بعد أن كانت اتجاهاتهم نزعات سياسية، ودخلت مذاهبهم هذه في صلب العقائد الدينيّة تحريفاً لا أصل له.

وظهرت بعد ذلك فرق الشيعة بألوانها الأبيض الصافي، والرّمادي، والبُنّي، والأسود، واستحكم النفاق في الغلاة، وأصاب منه من دُونَهُمْ على مقادير ألوانهم.

* * *

(٥)

موقف عليّ رضي الله عنه وأهل البيت النبويّ من عبد الله بن سبأ والسبئيَّة وغلاة الشيعة

(١) لقد كان موقف سيدنا علي رضي الله عنه من السبئيين موقفاً شديداً حازماً، إنَّهُ لمّا استجوبهم عن عقيدتهم فيه، وعلم أنهم يؤلّهونه، استتابهم، فلمّا لم يَتُوبُوا أمَرَ

بقتلهم تحريقاً بالنار، وتمّ تنفيذ هذا القتل في الّذين أُدينوا بهذه المقالة، وبقي آخرون منهم متسترين، وأحكم إمامُهُمُ المكيدَةَ، إذْ أوهمهم أنّ عَلِيّاً احْرَقَ من أفْشَىٰ واعْلَنَ ألُوهيَّته، وكان عليهم أن يُبْقوا الأمر سرّاً، وأنْ يَلْجَؤُوا إلى التقيّة، وأن يتظاهروا بغير ما يعتقدون فيه.

أمّا إمامُهُمُ اليهودي المنافق «عبد الله بْنُ سَبَأ» فالصحيح من الروايات أن عليّاً رضي الله عنه لم يقتله، بل نفاه إلى ساباط المدائن، والذي يظهر أن ابن سبأ بعد أنْ أظهر مقالته لسيدنا عليّ بغية استدراجه لإفساد الدِّين، ورأىٰ أنّ عليّاً لا يمكن استدراجه، وأنّه إذا أصرّ على مقالته ألحقه بمن قتله تحريقاً، وبذلك يتمّ وَأْدُ المكيدة الّتي دبّرها ضدّ الإسلام والمسلمين، فراوغ وتراجع عن مقالاته التي تُوجِبُ قتله، فاكْتَفَىٰ سيدُنا علي بنفيه ولم يقْتُلْه، كما سبق بيان هذا.

(٢) وكان لسيّدنا عليّ رضي الله عنه موقفٌ جليٌّ واضحٌ بالنسبة إلىٰ الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، تكشفه خطبةٌ خطبها في الناس، أعلن فيها رأيه في الصاحبين الجليلين.

روى زيد بن وهب أنّ سُوَيد بن غفلة، دخل على عليّ رضي الله عنه في إمارته (وكان من خاصته وكبار أصحابه) فقال له: يا أمير المؤمنين مررت بنفر من الشيعة يتناولون أبا بكر وعمر بغير الذي هما من الأمّة له أهل، ويرون أنّك تضمر لهما على مثل ما أعلنوا، وذكر له أن من هؤلاء النفر «عبد الله بن سبأ».

فقال سيدنا علي رضي الله عنه: «مَا لِي ولِهَذَا الخبيثِ الأَسْود» ثم قال: «مَعَاذَ اللّهِ أَنْ أُضمِرَ لَهُمَا إلاّ الْحَسَنَ الْجميل».

ثم أرسل عليٌّ رضي الله عنه إلى عبد الله بن سبأ فسيَّره إلى المدائن، وقال: لا يساكنني في بَلْدَةٍ أبداً.

وجاء في رواية الهمداني في كتابه «تثبيت دلائل النبوّة» أنّ عليّاً رضي الله عنه قال: أعوذُ بالله، أعوذُ بالله، أنْ أُضْمرَ لَهما إلاّ الذي اتمنَّىٰ الْمُضِيُّ عليه، لَعَنَ اللّهُ مَنْ

أضْمَرَ لَهُما إلاّ الْحَسَنَ الجميل، أَخَوا رَسُولِ اللّهِ ﷺ، وصاحباه ووزيراه، رحمةُ الله عليهما.

ثمّ نهضَ دامعَ العينين يبكي، قابضاً على يَدِ سُويدٍ، حتى دخلَ المسجد، فصعد المنبر، فجلس عليه متمكّناً، قابضاً على لحيته وهي بيضاء، حتّى اجتمع الناس.

ثُمّ قام فتشهّد بخطبة موجزة بليغة، ثم قال:

«ما بالُ أقوامٍ يذكُرونَ سيّدَيْ قريشٍ، وأَبَوَي المسلمين، بما أنا عنه مُتَنَزِّهٌ، وممّا قالُوا بريءٌ، وعلى ما قالوا معاقبٌ.

أَمَا والـذي فلقَ الحبّةَ وبرأ النسمةَ، لا يُحِبُّهُما إلاّ مؤمنٌ تقيٌّ، ولا يُبْغِضُهما إلاّ فاجرٌ رديءٌ، صَحِبا رَسُولَ اللّهِ على الصِّدْقِ والوفاء، يأمُرانِ وينْهَيانِ، ويَقْضِيَانِ ويُعَاقِبَانِ، فَمَا يُجَاوِزانِ فيما يصْنَعانِ رأيَ رسولِ الله ﷺ، وكانَ لا يَرى مثلَ رأيهما رأياً، ولا يُحِبُّ كحُبِّهِمَا أحداً، مضى رسولُ الله ﷺ وهو عنهما راضٍ، ومَضَيَا والْمُؤْمِنُون عَنْهما راضونَ.

أَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ أبا بكر على صلاة المؤمنين، فصَلّى بهم تلكَ الأيّامَ في حياة رسول الله ﷺ، فلمّا قبضَ اللّهُ نبيَّهُ عليه السلام، واختار له ما عنده، ومضى مفقوداً، ولاّه المؤمنون ذلك، وفوّضوا إليه الزكاة لأنّهما مقرونتان، ثُمّ أعطَوْه البيعةَ طائِعينَ غَيْرَ مُكْرَهين.

أنا أوّلُ من سنّ له ذلك من بني عبد المطّلب وهو لذلك كاره، يَوَدُّ لو أنّ بعضنا كفاه، فكان والله خير من بقي رأفةً، وأرْحَمَه رحْمةً، وأَيْبَسَهُ وَرَعاً، وأقدَمَهُ سِلْماً وإسلاماً.

شبَّهَهُ رسول الله ﷺ بميكائيل رأفةً ورحمةً، وبإبراهيمَ عفْواً ووقاراً، فسارَ فينا سيرة رسول الله ﷺ حتى قبضه الله على ذلك.

ثم وَلّيَ الأمْرَ بَعْدَه عُمَرَ، واسْتأْمَرَ في ذلك المسلمين، فمنهم مَنْ رَضِيَ ومنْهم من كَرِهَ، فلم يفارق الدنيا حتّى رضي به من كان كرهه، وأقام الأمر على منهاج النبي ﷺ، يتْبَعُ أثرَهُما كاتِّباعِ الْفَصِيلِ أثَرَ أُمِّه، وكان واللّهِ رفيقاً رحيماً لضعفاء

المسلمين، وبالمؤمنين عوناً وناصراً على الظالمين، لا تأخُذُهُ في الله لومةُ لائمٍ، ضربَ اللَّهُ بالحقّ على لِسانِهِ، وجَعَلَ الصِّدْقَ من شانه، حتّى إنْ كُنّا لنظُنُّ أنَّ مَلَكاً يَنْطِق على لِسانه، أعزّ اللَّهُ بإسلامه الإسلام، وجعل هجرته للدّين قواماً، ألقى الله لَهُ في قلوب المؤمنين المحبّة، وفي قُلوب المشركين المنافقين الرّهبة.

شَبَّهَهُ رسُولُ الله ﷺ بجبريل، فَطِناً غليظاً على الأعداء، وبِنُوحٍ حَنِقاً ومغتاظاً على الكفّار، والضَّرّاءُ على طاعةِ اللَّهِ آثَرُ عِنْدَه مِنَ السَّرّاءِ عَلَى معصية الله.

فَمَنْ لكُمْ بِمِثْلِهِمَا رحْمَةُ اللَّهِ عليهما، ورزقنا المضيَّ على سبيلهما، فإنّه لا يُبْلَغُ مَبْلَغُهُما إلاّ بالحبِّ لهما، واتّباعِ آثارهما، فمن أحَبّني فَلْيُحِبَّهُما، ومَنْ لَمْ يُحبَّهُما فقد أبغضني، وأنا منه بريء.

ولَوْ كُنْتُ تَقَدَّمْتُ إليكُمْ في أمْرِهِمَا[١]، لعَاقَبْتُ على هذا أشدّ العقوبة، فمن أُوتيتُ به بعْدَ هذا اليوم فإنّه عَلَيْهِ مَا على المفتري، ألا وخيرُ هذهِ الأمّةِ بعْدَ نبيِّها أبو بكر وعمر، ثمّ الله أعلَمُ بالخيْرِ أيْنَ هو؟

أقول قولي هذا وأستغفر اللَّهَ لي ولكم»[٢].

وذكر «النوبختي» الشيعي أنّ علياً عليه السلام قد همّ أن يبطش بمن يتكلم في أبي بكر وعمر.

وقال عليٌّ رضي الله عنه في عثمان: «أيها الناس، إيّاكم والغُلُوّ في عثمان، تقولون حرّق المصاحف، واللّهِ ما حرّقها إلاّ عن ملأ من أصحاب محمد ﷺ، ولو وُلّيت مثل ما وُلّي لفعلتُ مثل الذي فعل»[٣].

(٣) نقلَتْ كُتُب الشيعة عن أهل بيت سيدنا عليّ رضي الله عنه أنّهم اشتكَوْا من الكذّابين الذين يكذبون عليهم من مُشايعيهم، وهذا يدلُّ على أنّ هؤلاءِ المشايعين

---

(١) أي: لو سبق لي أن حذّرتكم من التكلم فيهما بسوء لعاقبت على ما بلغني أشد العقوبة.

(٢) تثبيت دلائل النبوة للهمذاني ٥٤٦/٢ ــ ٥٤٨ ط بيروت عن إحسان إلّهي ظهير في كتابه «الشيعة والتشيّع» وقال: وأورد هذه الخطبة كثيرون من الشيعة والسنة.

(٣) عن ابن كثير في (البداية والنهاية) ٢٣٦/٧ أخذاً من كتاب «عبد الله بن سبأ» للشيخ العودة.

الكذّابين مُنافقون تظاهروا بمشايعة عليٍّ وأهْلِ بيتِه لهدم الإسلام وتمزيق المسلمين، وكان إمامُهُمْ في ذلك وشيطانُهم الأكبر عبد الله بن سبأ، الملقب بابن السوداء.

روى الكِشّي في كتابه المعروف «برجال الكِشّي»(1) وهو من علماء الشيعة، عن ابن سنان، قال أبو عبد الله (ع):

«إنّا أهْلَ بيتٍ صَادِقُون، لا نَخْلُو من كذّاب يَكْذِبُ علينا، فيَسْقُطُ صِدْقُنا بِكَذِبه عَلَيْنا عند الناس.

كانَ رسول الله ﷺ أصْدَقَ البريّة لهجةً، وكان مُسَيلِمَةُ يكْذِبُ عليه.

وكان أمير المؤمنين (ع) أصدق من برأ اللّهُ من بعد رسول الله، وكان الذي يكذب عليه عبد الله بن سبأ لعنه الله.

وكان أبو عبد الله الحسين بن عليّ (ع) قد ابتُلِيَ بالمختار. ثمّ ذكر أبو عبد الله الحارثَ الشّاميَّ وبَنَانَ، فقال: كانا يكذبان على عليّ بن الحسين (ع).

ثُمّ ذكر المغيرةَ بنَ سَعيدٍ، وبريغاً، والسّريّ، وأبا الخطاب، ومعمراً، وبشّاراً الأشعري، وحمزة اليزيدي، وصائداً النهدي، فقال: لعنهم الله.

إنّا لا نَخْلُو منْ كذّابٍ يكذب علينا، كفَانَا الله مُؤْنَة كُلّ كذّاب، وأذَاقَهُمُ اللّهُ حرَّ الحديد».

أقول: وممّا يؤسف له أن معظم شيعةِ عليّ رضي الله عنه وآلِ بيته اتّخذوا الكذب ديناً لهم، باسم «التقِيّة» واتُّبِعَ برءاؤهُمْ في هذا ــ وَهُمْ لا يَشْعُرون ــ دَسائسَ المنافق اليهودي «عبد الله بن سبأ» مع أنهم يتبرّؤون منه، باستثناء الغلاة الكفرة المنافقين.

وممّا يؤسف له أن كثيراً من عقائد الشيعة مأخوذة من المقالات التي دسّها عبد الله بن سبأ بين أتباعه، فهو الذي جاء بأفكار الوصية والرجعة، والولاية، والإمامة، والتناسخ، والبداء، وغيرها.

● ● ●

(1) انظر ص (٢٥٧ ــ ٢٥٨).

المقولة الثالثة

المنافق اليهودي «أو المجوسي»
ميمون بن ديصان القداح
وخبائثه الخطيرة في تاريخ المسلمين

كانت الفرقة الخطّابيّة المنافقة والمتظاهرة بمشايعة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ومشايعة آل بيته، والتي أسّس افكارها «أبو الخطّاب الأجدع» قائمة على الإباحيّة المطلقة، وأنّ الله تعالى يَحُلُّ في أبدان الرسُل والأئمة، وأخيراً حلّ فيه، وزعم انّ كلّ شيء فرضه الله في القرآن أو حرّمه أو احلّه فإنّما هو رمزٌ عن أسماء رجال، فما حرّم من أنصاب وأزلام وخمر وميسر هي رموز عن أشخاص كأبي بكر وعمر وعثمان ونحو هؤلاء.

وكان هذا اللّعين أبو الخطاب من أصحاب جعفر الصادق، والرّوات عنه، وادّعى أنّه جعله قيّمه ووصيُّه من بعده، ونسبَ أقواله التي روّجها بين أهل النفاق الذين تأثروا به إلى جعفر الصادق.

ولمّا علم جعفر بأمره أعلن تبرُّؤُهُ منه ومن أقواله، ولعَنه على رؤوس الأشهاد، وقال بشأنه وبشأن الذين قالوا بمقالته: هم شرٌّ من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا (كما ذكرت كتب الشيعة).

وعلى أسس أفكار «أبي الخطاب» بنىَ اللّعين الأخر «ميمون القدّاح» أفكاره التي أشاعها وأذاعها بين أشياعه.

ومن ثمّ ظهرت الإسماعيلية والحركة القرمطية بأفكارها الّتي هي امتداد للخطّابيّة علىٰ ما ترجّح لدى كثير من الباحثين.

وبقي «ميمون القدّاح» في حاشية «جعفر الصادق بن محمد الباقر» تلميذاً

مجتهداً وخادماً مطيعاً، ولم يجاهر بمكيدته إلاّ بعد حين، واستطاع بإتقانه صناعة النفاق أن يكون هو وابنه عبد الله كفيلين لـ «إسماعيل بن جعفر» ثم لولده «محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق».

واستولى «ميمون القدّاح» على الدّعوة الإسماعيلية المنسوبة إلى «إسماعيل بن جعفر الصادق» بعد أيّام إسماعيل.

ومن خلال الروايات المتعدّدة التي رواها مؤرخو الشيعة ومؤرخو أهل السنّة ومدوّنو مذاهب الفرق، غير المتطابقة في عدّة عناصر منها، يستطيع الباحث أن يستخلص الاتفاق على أنّ «سعيداً» أحد أحفاد «ميمون القدّاح» هو الذي ادّعَىٰ أنّه ابن الأئمة المستورين من ذُرِّيّة «إسماعيل بن جعفر الصادق» وهو الذي خرج إلى مصر، فادّعىٰ أنّه علويٌّ فاطميّ، وسمّى نفسه «عُبَيْد الله» وبلغ خبَرُه المعتضد فأمر بالقبض عليه. فهرب إلى المغرب، وكان له دعاة فيها يدعون إليه على أنه المهدي، وشاع بين الناس في المغرب أنّه علويٌّ فاطميٌّ من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق، واستطاع بهذه الفرية أن يكون له سلطان في المغرب على الناس، لما في قلوبهم من عطف وتمجيد لهذه الأسرة.

وخفي أمْرُ مذهبه الفاسد على الناس، إلاّ من كشَفَ له حقيقة آرائه من خاصّته، كالإلحادِ في الله، والطعن على جميع الأنبياء، وإباحة أنْفُس أممهم وأموالهم ونسائهم، إلى آخر المقالات الكافرة الفاجرة الباطنيّة.

وادّعَىٰ في المغرب أنّه من نواحي الأهواز، ومن بُنَاتِها، ورؤسائها، وأنّ ضياعهم بِكُورِ الأهواز كثيرة، وأنّه هرب هو وأبوه مِنْ جَوْرِ عَمْرِو بن اللّيث.

وأسّس في المغرب دولةً عرفت بالدولة الفاطمية سنة (٢٩٧هـ) واستمرّ حكم عبيد الله هذا في المغرب إلى سنة (٣٢٢هـ) وسيأتي إنْ شاء الله بعض تفصيل للدولة الفاطميّة وخبائثها.

بهذه المقدمة ظهر لنا أنّ الحركة الباطنية القرمطية هي امتداد لسلسلة المكر اليهودي المقرون بالحقد المجوسيّ، ضدّ الإسلام والمسلمين، إذْ لم نكد تخبو قليلاً جذوة الفتنة السبئيّة، التي تولّى تأسيسها، وزرع بزورها، وتابع حركتها، المنافق

اليهوديّ «عبد الله بن سبأ» الملقّب بابن السوداء، ونشط في نشرها المنافقون من الأشرار، وفعلتِ الأفاعيل الشنعاء في جسْم الأمّة الإسلاميّة، كما سبق بيانُه، حتّى أعَدَّ اليهود والمجوسُ مكراً جديداً مبنيّاً على قواعد المكر السابق وبقايا أبنيته.

هذا المكر الجديد قاده وتولّى تأسيسه وزرْع بُزُوره الشوكيّة الشيطانيّة الخبيثة يهوديٌّ آخر على الأرجح، تظاهر بالإسلام منافقاً، أو مجوسيٌّ، يقال له: «ميمون بن ديصان القدّاح» كان يُبِرُّ اليهوديّة فيما ترجّح لديّ، أو يُبِرُّ المجوسيّة، ويظهر الإسلام نفاقاً، فنصبَ هذا الخبيث للمسلمين الحبائل، وبَغَى بهم الغوائل.

كان «ميمون بن ديصاح القدّاح» على ما يذكر بعض المحقّقين يهوديّاً متعصّباً لليهودية، قيل وهو من ولد الشلعلع من يهود، وكان حبْراً من احبارهم، وعالماً بالفلسفة والتنجيم، ومطّلعاً على أصول المذاهب والأديان، وكان صائغاً في السَّلميّة[1]، على ما ذكره العالم الفقيه محمد بن مالك اليماني من فقهاء اليمن، في أواسط المئة الخامسة للهجرة، وذلك في كتابه: «كشف أسرار الباطنية».

ويظهر أنّ قيادات يهوديّة دفعتْ هذا الرجل إلى تدبير مكيدته لهدم الإسلام، وتمزيق المسلمين، إذْ توسّمت فيه الكفاية للقيام بهذا الشرّ المستطير، والمكر الخطير، وذلك لما يتمتّع به من قدرات مكْرٍ وخُبْث وحيلة، ومعرفة بأصول المذاهب والأديان، وتعاون مع مجوسٍ حاقدين من فارس، وقطاع طرق من الأشرار.

فحمل هذا الرجل مهمّة الخبث الّتي وُكِلَتْ إليه، فتظاهر بالإسلام، وسلك السُّبُل التي سلكها من قبلُ سلَفُه ابنُ سبأ.

واندسّ «ميمون» في شيعة «إسماعيل بن جعفر الصادق بْن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه» وأخذ يتظاهر بخدمتهم وتأييدهم ومحبّتهم، وقلبه يغلي بالحقد والعداوة والبغضاء للإسلام، ولرسول الله ﷺ، ولآل بيته الطاهرين، ولسائر المسلمين، ولكنّه لم يجد سبيلاً يدخل به على المسلمين

(١) السلمية: بلدة من بلاد الشام.

حتى يردُّهم عن دينهم، ويُخرجهم منه إلَىٰ الإلحاد والإباحيّة العامّة في ذلك الزمان، أمْكَرَ من تبنّيه الدّعوة إلى أهل بيتِ الرسول ﷺ.

وانطلق في دعوته هذه، وانخدع به فريقٌ من الناس، نظراً إلى عاطفة المسلمين نحو آل البيت، الّتي شحنتهم بها الأوضاع السياسيّة المختلفة، وهي الأوضاع الّتي لم تسمَحْ لَهُم بأن يَصِلُوا إلَىٰ الحكم.

لكنّه مع تبنّيه الدعوة إلى أهل بيت الرسول من أولاد عليّ كان يخشَىٰ أن يَصِلُوا فعْلاً إلى الحكم، فيفعلوا به وبمكيدته ضِدّ الإسلام والمسلمين، ما كان قد فعله عليٌّ رضي الله عنه من قَبْلُ في سلفه «عبد الله بن سبأ» وفي السبئية، فدَبّر مكيدة إخفاء حقيقة غايته، وأوصىٰ ذُرّيته بأن يلتحق بعض أحفاده من بَعْدِه بنسب إسماعيل بن جعفر الصادق، ويدّعي أنه من أحفاده، متى سنحت له الفرصة لذلك، ليضمن اليهود بهذا متابعة مكيدتهم ضدّ الإسلام والمسلمين، مستخدمين الذّرّيّة اليهودية الخبيثة، في سرقة النّسب، وادّعاء حقهم في الإمامة.

وظهر لهذا اليهودي المنافق حفيد خبيثٌ شيطان اسمه «سعيد» وكان بعيداً عن أنظارالمراقبين المتتبّعين للأنساب.

كان لإسماعيل بن جعفر الصادق ولَدٌ اسمه «محمد» فبثّ «ميمون بن دِيصان القداح» سِرّاً أنّ «محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق» خلّفَ أولاداً سترهم عن خصوم آل البيت، فهم الأئمة المستورون، وروّج المنافقون سرّاً هذه الفرية، وقبلها الذين لا يعلمون وكَتَمُوها.

وتذكر الروايات أنّ «محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق» مات بحياة أبيه إسماعيل دون أن يكون له عقب من ذُرّيته، وأنّ إسماعيل مات بحياة أبيه جعفر.

وظهر «سعيد» حفيد «ميمون القداح» مُدّعياً أنّه ابْنُ الأئمة المستورين الذين لم يظهروا، من ولد «محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق» وسمّىٰ نفسه «عُبَيْد الله» وروّج أنصار القدّاح أنّه: عُبَيْد الله ابن الأئمة المستورين الذين لم يظهروا من ولد محمد بن إسماعيل، وادّعَوْا لِعُبَيْد اللهِ هذا الإمامة بعد الأئمة المستورين.

وعُلَماءُ الأنساب يُثْبِتُونَ أنّ «إسماعيل بن جعفر الصادق» قد مات في حياة أبيه «جعفر الصادق» وأنّ «محمداً بن إسماعيل» لم يكن له عقب، فثبت من غير مرية أنّ هؤلاء الذين ادّعيت لهم الإمامة، من «عبيد الله» فمن بعْدَه من ذُرِّيّتِه، هم من أولاد اليهودي أو المجوسي المنافق «ميمون بن ديصان القدّاح» وقد أحْكَمَ هؤلاء بخبْثٍ شديد إخفاء أنفُسِهم، وسَتْرَ نسبهم الحقيقي، لتَتِمَّ لهم مكيدَتُهم التي دبّروها ضدّ الإسلام، وضدّ المسلمين.

وممّا سجّله التاريخ شهادةٌ لجِلَّةٍ من العلماء أثبتوا فيها أنّ ما ادّعاه هؤلاء من الانتساب إلى ولد عليٍّ بن أبي طالب زورٌ وباطل، وأنهم زنادقة مُلْحِدُون، وللإسلام جاحدون، أباحوا الفروج، وأحلُّوا الخمور، وسَبُّوا الأنبياء، وادّعَوُا الرُّبوبية.

هذه الشهادة قد كتبت في محضر وقّع عليه العلماء المشار إليهم في شهر ربيع الأول، من سنة اثنتين وأربعمائة للهجرة، وكان الموقعون من كبار علماء السنّة، وكبار علماء الشيعة.

ومن العلماء الّذين أثبتوا توقيعاتهم على محضر هذه الشهادة: «الشريف الرضي ــ والشريف المرتضىٰ (وهما من كبار علماء الشيعة) ــ أبو حامد الإسفراييني ــ أبو عبد الله الصيمري ــ أبو الحسين القدوري ــ أبو جعفر النسفي ــ (وهؤلاء من كبار علماء السنّة) وغيرهم منْ كبار العلماء الأئمة».

* * *

موجز تحرّكاته الشيطانيّة الخبيثة

أخذ «ميمون بن ديصان القدّاح» يضرب على الأوتار نفسها التي كان قد ضرب عليها «عبد الله بن سبأ» من قبل، وهي تمجيد الأسرة العلوية، وأحقّيّتها بإمامةِ المسلمين، مع إدْخالاتٍ وتلفيقاتٍ جديدة تنسف الإسلام كلّه، في أصوله وفروعه وجميع تطبيقاته، ولا تُبْقي منه إلّا الاسم المجرّد من أيّةِ حقيقة من حقائق الإسلام، الّذي أنزله الله على نبيِّه ورَسوله محمّد ﷺ.

وبظهور «ميمون بن ديصان القداح» أخذت الحركة اليهوديّةُ المجوسيّة المقنعة بأقنعة النفاق أسلوباً جديداً، لاجتثاثِ الإسلامِ من جذوره، إذ اتّسَمتْ بسِمَاتِ

السّرّيّة، المتمتّعةِ بأدْهَى وأمْكر أشكال التنظيم السّرّي، وأخذت هذه التنظيماتُ تزدادُ دِقّةً وعمقاً وحذراً، كلّما اشتدّت عليها الأزمات والمراقبات، وضرّمَتْها التجارب. وأخذتْ تنسجُ لدعوتها مبادىء تتصيّد بعضها من تعاليم الأديان المختلفة، والفلسفاتِ المتنوّعة، وتَصُوغُها بعباراتِ الفلسفة اليونانية، وتضَعُ لها قواعد جدليّة يلتزم بها المنتسبون إليها التزاماً تامّاً.

وتظاهر «ميمون بن ديصان القدّاح» بقبول نصوص الشريعة الإسلامية، من قرآنٍ وسُنّة، وبقبول فروض الإسلام وواجباته، لكِنّهُ أخَذَ يجعَلُ لكلّ آيةٍ تفسيراً، ولكلّ حديثٍ نَبَويّ تأويلاً من اختراعاته واختراعات أشياعه المنافقين.

وأخذ هو والمنافقون أمثاله يُوَسْوِسُون لأتباع تنظيمهم الجديد بأنّ كُلّ فرضٍ من فُرُوض الإسلام، وكلّ واجب من واجباته وأدبٍ من آدابِهِ وتعليم من تعاليمه، هو رمْزٌ عن أمْرٍ آخر غير الذي يَفْهَمُهُ القُشُوريُّونَ، الذين يأخذون بظواهر الألفاظ والأعمال.

وصار يزعم للمنخدعين به أنّ هذه التفسيرات والتأويلات والمعاني المرموز إليها، هي المعاني الباطنيّة لهذه النّصوصِ، ولهذه الفروض والواجبات والآدابِ والتعاليم، ولكِنّ علماءَ الظّاهِر يَتعلّقُون بالقُشور، ويَتْرُكُونَ اللُّبّ.

وحينما يَنْتقِلُ إلَىٰ التفسيرات والتأويلاتِ والمعاني الباطنة، يتلاعَبُ فيها كَمَا يَشَاءُ له هوى التضليل في العقيدة، وفي الشريعة، وفي جميع المفهومات الإسلامية العظيمة.

وبعد أن أحكَمَ «ميمون بن ديصان القدّاح» مكيدته، انتقل هو وأهله وبعض أشياعه إلى الكوفة فأقام بها مدّةً يُدَبّر فيها مكيدته الشيطانية، ويظهر أنّه قد اختار الكوفة، لأنّ فيها جذوراً سبئيّةً، ممّا كان قد مكر به من قَبْلُ «عبد الله بن سبأ» وكان ظهوره في الكوفة سنة (٢٧٦) للهجرة النبوية.

واجتمع «ميمون القدّاح» في الكوفةِ برجُلٍ اسمه «حمدان قرمط» واتّفقا على أن يضَعَا لها مبادىء اعتقاديّةً إلحاديّة، تُحِلُّ للمنتسبين إليها كلّ ما يشتهون من قتلٍ ومالٍ ونساء وغير ذلك، واتفقا على وجوبِ سَتْرِ هذهِ المبادىء بأغشيةٍ من النفاق، وعلىٰ أن يجعلا من ضمن هذه المبادىء أنّ المسلمين كفرةٌ يجبُ قتْلُهم أيْنما وُجِدُوا.

فوضعا أسس الضلالة الّتي أراداها، وعَمِلا سِرّاً في الدعوةِ إليها، ثمّ استجاب إليهما تسعةُ رهطٍ انْطَلَقُوا يُفْسِدُونَ في الأرض باسم الدُّعاة، مُتَسَتِّرين بالدَّعْوَةِ إلَى الأئمّةِ من أولاد عليّ.

ويظهر أنّه كان يُهيّىء ما يلْزَمُ من خطط وتدبيرات ماكرات حتى يتسنّى لبعض أحفاده أن يدعيَ أنه من أحفاد «إسماعيل بن جعفر الصادق» لتصحَّ له المطالبةُ بالإمامة وفق عقيدة شيعة عليّ وذُرّيته الأئمة من بعده.

وانطلق دعاة منظّمته السّرّيةِ الجديدة، ينشرون أفكارها بين الذين يستجيبون لهم، ويدخلون في خلاياهم.

وآزر هذه المكيدة اليهودية الفارسيّة الخبيثةَ عناصِرُ كثيرة شرّيرة حاقدة، وفريقٌ من الفلاسفةِ الإباحيين، وآخرون من الّذين اكْتَسَحَ الإسلامُ مَمَالِكَهُمْ، وقوّضَ عُرُوش مُلوكِهِم، وأزال عن رقاب عباد الله سلطانَهُم، واسْتغلَّ الشياطين الخلافات السياسية على شخص خليفة المسلمين، وارتَدَوْا مُسُوحَ الحزنِ الكاذب على مقتل مظلومٍ طاهرٍ مِنْ ذرّيّةِ آل البيت الأطهار.

قال المؤرّخ الديلميّ مُتَحَدِّثاً عن المكيدة الباطنيّة على العقائد الإسلامية، في كتابه «قواعد عقائد آل محمّد الباطنيّة»:

«واتَّفَقَ أهلُ المقالاتِ أنّ أوّلَ من أسّس هذا المذهب المشؤوم ـ يعني مذهب الباطنيّة ـ قومٌ من أولاد المجوس وبقايا الْخُرَّمِيّة (وهم طائفة إباحيّةٌ مِنَ المجوس) والفلاسفة واليهود، فجمعهم نادٍ واشْتَوَرُوا، وقالوا: إنَّ محمّداً غلَبَ علينا، وأبْطل ديننا، واتَّفَقَ لَهُ أعْوانٌ نَصَرُوا مَذْهَبَهُ، ولاَ مَطْمَعَ لنا في نزع ما في أيديهم من المملكة بالسيف والمحاربة، لقوّةِ شَوْكَتِهِمْ، وكثْرَةِ جُنُودِهِم، وطبَّقُوا البرّ والْبَحر، وكذلِكَ لاَ مطمع لنا فيهم من طريق المناظرة، لمَا فيهم من العلماء والفضلاء والمتكلّمين المحققين، وكثْرَةِ كتُبهم وتصانيفهم، واتَّفَقُوا علَىٰ وضْع حيلَةٍ يتوصَّلُونَ بها إلَىٰ إفْسَادِ دينهم من حيثُ لا يَشْعُرُونَ، وبنَوْا أُمُورَهم علىٰ التّلْبيس والتدليس، وزادوا في مسالِكِها عَلَىٰ مَسالِكِ اللّعِين إبْلِيس».

فكان من نتيجة مكيدة «ميمون بن ديصان القدّاح» وقرينه في الكوفة «حمدان

قرمط» تأسيس الحركة الباطنيّة الشرّيرة، التي اكتوى العالم الإسلامي بشرورها قُرابة ثلاث قرون.

وكلّ ما ظهر من هذه الحركة الباطنيّة القرمطية من فرق، فهي فِرَقٌ عريقةٌ في النفاق، تظهر الوفاق، وتُبْطِنُ الفراق، تدّعي شيئاً وتخفي خلافه، تكشف الولاء وتستُرُ العداء.

أثر حركة «ميمون القدّاح» في تأسيس دُولٍ تضمر الكيد ضدّ الإسلام والمسلمين

(١) في اليمن:

استطاع أحد دعاة الإسماعيليّة «القدّاحية» الكوفيّ أبو القاسم الحسنُ بن حوشب، الملقّب بمنصور اليمن، بالاتفاق مع داعٍ آخر يمني، هو عليّ بن الفضل، أن يستميلا عدداً من قبائل اليمن، بأن أظهرا الدعوة إلى المهديّ الإمام الإسماعيلي المنتظر.

وتأسّست بذلك أوّل دولة إسماعيليّة سنة (٢٦٨هـ) ولمّا قويت شوكة «الحسن بن حوشب» في اليمن كشف عن حقيقة مذهبه، وأظهر ما كان يخفيه من إلحادٍ وفجور، وإحلال المحارم وإباحة الفواحش لأتباعه.

أمّا عليّ بن الفضل، فقد أظهر في أول أمره التقوىٰ، والورع، واستكثر من مظاهر العبادة والنّسك، حتى مالَ إليه النّاس وأحبّوه وافتتنوا به، وقلّدوه أمورهم، وبعد أن لبَّسَ عليهم، وخدعهم بمظاهر أعماله التي كان ينافق بها، واشتد أمْرُه، ادّعىٰ النبوّة، وحطّ عن أتباعه شعائر الإسلام، وأحلّ نكاح البنات والأخوات.

(٢) في البحرين:

وظهرت حركة إسماعيليّةٌ أخرىٰ في البحرين، عُرِفَ أصحابُها باسم القرامطة، نسبة إلى «حمدان قرمط» قرين «ميمون القدّاح» وقاد هذه الحركة في البحرين «أبو سعيد الْجُنّابي» واستطاع أن يؤسس فيها دولة إذ تجمّع حوله جمهور من الأشرار الفسّاق الفجرة قطاع الطرق، وخلفه بعده ابنه «أبو طاهر الْجُنّابي».

وكان لقرامطة البحرين هؤلاء من الشرور، والإغارة على قوافل الحجاج، وبعض بلاد المسلمين الآمنين، وسفك دماء الرجال وسبْي النساء والذرّيّة، حتّى الطائفين في الحرم المكيّ الشريف، ما لم يكن من أشنع البشر همجيّة ووحشيّة وقباحة، بسبب أنّهم ملاحدة زنادقة كفرة، لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

وقد فصّلتُ بعض شرورهم في كتابي «مكايد يهودية عبر التاريخ».

(٣) في المغرب ثم مصر:

استطاع «سعيد» حفيد «ميمون القدّاح» أن يفلت من ملاحقة الخليفة العباسيّ له، وأنْ يَهْرُبَ إلى المغرب، وكان قد سبقه إليها من دعا إليه على أنّه المهدي الفاطمي، من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق.

وحين دخل المغرب سمّىٰ نَفْسَه: عُبَيْدَ الله، وقبِلَهُ أهل المغرب من أجل نسبه، فأقام فيها دولة عُرِفَتْ بدولة الْعُبَيْدِيين، نسبة إلى الاسم الذي سمّىٰ به نفسه وحكَمَ كَمَا سبَقَ بيانُه من سنة (٢٩٧هـ) حتى سنة (٣٢٢هـ).

وخلفه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد، فتولى الحكم من سنة (٣٢٢هـ) إلى سنة (٣٣٤هـ).

وجاء بعده المنصور بالله أبو طاهر إسماعيل، فتولّى الحكم من سنة (٣٣٤هـ) إلى سنة (٣٤١هـ).

وجاء بعده المعزّ لدين الله تميم، فتولّى الحكم من سنة (٣٤١هـ) وفي عهد المعزّ لدين الله هذا انتقلت دولة الفاطميّين إلى مصر سنة (٣٦٣هـ) إذ استطاعت جيوشه أن تدخل مصر فاتحة لها، واستمر حكمه حتى سنة (٣٦٥هـ).

وجاء بعده العزيز بالله الفاطمي، فتولّى الحكم من سنة (٣٦٥هـ) إلى سنة (٣٨٦هـ).

وجاء بعده ابنه الحاكم بأمر الله المنصور، فتولّى الحكم من سنة (٣٨٦هـ) إلى سنة (٤١١هـ) وهو الذي ادُّعيت له الربوبية، فسرَّته، أو ادّعاها، ونشرها الأخباث الباطنيون من حوله، واستقرت عند طائفة الدروز عقيدة متوارثة، وهم يؤمنون بغيبته، وقد ثبت أنه قُتل، بتدبير أخته ست الملك.

وجاء بعده ابنه الظاهر أبو الحسن علي فتولّى الحكم من سنة (٤١١هـ) إلى سنة (٤٢٧هـ).

وجاء بعده المستنصر بالله، فتولّى الحكم من سنة (٤٢٧هـ) إلى سنة (٤٨٧هـ).

وبعده انقسمت الدولة الفاطميّة، ثم سقطت بفضل الله، على يد صلاح الدين الأيوبيّ.

ومع ما كان عليه الفاطميّون من إلحاد وزندقة وإباحيّة واستباحة للدّماء والفواحش وسلب الأموال، فقد كان اعتمادهم في الوزارات والإدارات والأعمال الحكوميّة المختلفة على اليهود، وعلى المنافقين من المجوس، وعلى المنافقين من الباطنيين الذين هم مثلهم إلحاداً وإباحيّة وفجوراً.

وكانوا بنفاقهم يتستّرون ببناء المساجد، وهم يعملون على هدم الدين.

وكلُّ ما ظهر من الحركات الباطنيّة في التاريخ فهي من آثار شُرور النفاق الذي لبِسَ قناعه «ميمون القداح» وذرّيته معه ومِنْ بَعْدِه، ومعهم منافقون من مجوس، وأشرار كثيرون سَرَّتْهم طريقَتُهُمْ، واستهوتهم الإباحيات.

وكان من وسائلهم استخدام المخدّرات، إذ كانوا يقدّمون الحشيش لأتباعهم، ويُبيحُون لهم الخمور والزنا واللّواط، ويُطْلقون أيديهم في القتل والسّلب والنهب، وارتكاب الفواحش، ويُسْقِطُون عنهم التكاليف الدّينيّة كلّها، ويلفّقون لهم عقائد خرافيّة، زاعمين أنّ أئمتهم الذين حلّ فيهم الرّبّ الخالق هم الذين قد شرعوا لهم دينهم هذا بسلطان الألوهية.

● ● ●

المقولة الرابعة

المنافق ابن العلقمي(١)
وخيانته للدولة الإسلامية وخليفتها العباسي
المستعصم بالله محمّد بن الظاهر

حدث في عهد الخليفة العبّاسي السابع والثلاثين من خلفاء بني العبّاس، وهو المستعصم بالله محمد بن الظاهر، الذي بويع بالخلافة سنة (٦٣٩هـ) بعد وفاة أخيه المستنصر بالله عبد الله بن الظاهر، أن وزيره «محمد بن محمد بن أبي طالب مؤيد الدّين بن العلقمي» البغدادي الرافضي، من الشيعة الروافض، وكان منافقاً، كافراً باطناً، شيعيّاً رافضيّاً ظاهراً، كتب إلى «هولاكو» ملك التتار يبدي له استعداده أن يسلّمه بغداد إذا حضر بجيوشه إليها، وكان التتار قد هُزِمُوا في عهد المستنصر بالله، وقُتل منهم خلْقٌ كثير، وكان هدف العلقمي محو أهل السنة وإقامة خليفة فاطمي.

فكتب «هولاكو» لابن العلقمي:

«إنّ عساكر بغداد كثيرة، فإن كنت صادقاً فيما قلت لنا وداخلاً تحت طاعتنا، ففرّق العسكر، فإذا عملت ذلك حضرنا».

فلما وصل كتاب «هولاكو» إلى الوزير «ابن العلقمي» دخل إلى المستعصم، وزيّن له أن يُسَرِّحَ خمسة عشر ألف فارسٍ من عسكره، لأنّ التتار قد رجعوا إلى بلادهم، ولا حاجة لتحميل الدولة كلفة هؤلاء العساكر.

فاستجاب الخليفة لرأيه، وأصدر أمراً بتسريح خمسة عشر ألفاً، فخرج ابن العلقمي ومعه الأمر، واستعرض الجيش، واختار تسريح أفضلهم، وأمرهم بمغادرة بغداد وكل ملحقاتها الإدارية، فتفرّقوا في البلاد.

---

(١) انظر الجوهر الثمين لابن دقماق، وتاريخ ابن كثير في حوادث سنة (٦٥٦ هجرية).

وبعد عدة أشهر زيّن للخليفة «المستعصم» أن يُسرّح أيضاً من جيشه عشرين ألفاً، فاستجاب له، وأصدر أمراً بذلك.

ففعل ابن العلقمي مثلما فعل في المرّة الأولى، وانتقى أفضل الفرسان فسرّحهم.

وكان هؤلاء الفرسان الذين انتقاهم وسرّحهم من جيش الخليفة بقوّة متّي ألف فارس.

ولمّا أتمّ مكيدته كتب إلى هولاكو بما فعل، فركب «هولاكو» وقدم بجيشه إلى بغداد، وأحسّ أهل بغداد بمداهمة جيش التتار لهم، فاجتمعوا وتحالفوا، وخرجوا إلى ظاهر المدينة، وقاتلوا ببسالة وصبر، حتى حلّت الهزيمة بجيش التتار، وتبعهم المسلمون وأسروا منهم، وعادوا مؤيّدين منصورين ومعهم الأسرى ورؤوس القتلى، ونزلوا في خيامهم مطمئنين.

فأرسل الوزير ابن العلقمي جماعة من أصحابه المنافقين الخونة ليلاً، فحبسوا مياه دجلة، ففاض الماء على عساكر بغداد وهم نائمون في خيامهم، وصارت معسكراتهم مغمورة ومحاطة بالوحل، وغرقت خيولهم وأمتعتهم وعتادهم بالوحل، والناجي منهم من أدرك فرساً فركبه وخرج من معسكر الوحل.

وكان «ابن العلقمي» قد أرسل إلى «هولاكو» يعلمه بمكيدته، ويدعوه أن يرجع بجيوشه فقد هيّأ له الأمر بما يحقق له ولجيوشه الظفر، فعاد بجيوشه، وعسكر حول بغداد، ولمّا أصبح الصباح دخل جيش التتار بغداد، ووضعوا السيف في أهلها، وجعلوا يقتلون الناس كباراً وصغاراً، شيوخاً وأطفالاً، ودخلوا إلى الخليفة فاحتملوه هو وولده، وجعلوهما في عِدْلَيْن، وأحضروهما إلى ملك التتار «هولاكو».

فأخرجهما «هولاكو» إلى ظاهر بغداد، ووضعهما في خيمة صغيرة، وفي المساء وضعهما في عِدْلَيْن، وأمَرَ عساكره بقتلهما ضرباً بالأرجل.

ودخل التتار دار الخلافة فسلبوا كلّ ما فيها، وانبثوا يقتلون كلّ من يشاهدون من أهل مدينة بغداد، حتّى زاد القتلى كما ذكروا على مليون قتيل (ألف ألف).

وبمقتل المستعصم انتهت الخلافة في بغداد سنة (٦٥٥هـ).

أما الوزير المنافق الخائن «ابن العلقمي» فقد استدعاه «هولاكو» ليكافئه، فحضر بين يديه، فوبخه على خيانته لسيده الذي وثق به، وأحسن إليه، واصطفاه ليكون وزيره الأول، واستأمنه على البلاد والعباد، ثم قال له: «لو أعطيناك كلَّ ما نملك ما نرجو منك خيراً، وأنت مخالف لملتنا، إنَّك لم تُحْسن إلى أهل ملَّتك، بل عرَّضتهم للقتل والسَّبي، فما نرى إلَّا أن نقتلك ونريح من بقي من المسلمين من شرِّك، ويستريح التتار أيضاً منك».

ثم أمر «هولاكو» بقتله، فقتل شرَّ قِتْلة.

وانقطعت الخلافة قرابة أربع سنوات حتى حضر أخو الخليفة أحمد بن الظاهر إلى مصر، فاستخلفه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس.

ولم يثبت ابن كثير قتل «هولاكو» لابن العلقمي، بل ذكر أن الله قصف عمره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة الشنيعة المذهلة.

• • •

المقولة الخامسة

يهود الدونمة المنافقون[1]
ودورهم في سقوط الخلافة العثمانية
وإقامة العلمانية

أصلهم:

هرب جماعةٌ من اليهود من ظلم محاكم التفتيش في إسبانيا في القرون الوسطىٰ، والتجؤوا إلى الدولة العثمانية، فاستضافتهم، وقبلتهم أهْلَ ذمّة في إمبراطوريتها، واستقروا في «سلانيك».

وفي الثلث الأخير من القرن السابع عشر الميلادي تظاهروا بالدخول في الإسلام نفاقاً، تبعاً للحاخام «سباتاي سيفي» الذي كان قد ادّعىٰ أنّه هو المسيح المنتظر، وقُدّم للمساءلة لدىٰ شيخ الإسلام، وخاف من افتضاح كذبه فيما ادّعىٰ، والحكمِ عليه بالقتل لكذبه على الله، وإثارته الفتنة في تركيا، فأبدى رغبته في الإسلام، بعد أن أنكر ما نُسِبَ إليه، فقُبِلَ مِنْهُ ذٰلِكَ، وأعلن إسلامه، وكتب لليهود المستضافين في تركيا الذين آمنوا به أن يتظاهروا بالإسلام تبعاً له، على أن يحافِظُوا على يَهُودِيّتهم في سرّهم.

فسمّاهم التُّرْكُ «دونمة» لأنّ كلمة «دونمة» في التركية تعني العودة أو الرجوع، أي: رجعوا إلى الحقّ وآمنوا به.

وإطلاق هذا الاسم يكون عادةً في أول دخول الداخل إلى الإسلام عند الترك،

---

(١) المعلومات حول يهود الدونمة المنافقين ودورهم مقتبسة من كتاب «يهود الدونمة» وكتاب «أسرار الانقلاب العثماني» لمؤلفهما بالتركية «مصطفى طوران» بترجمة «كمال خوجة» إلى العربية. وكتاب «العثمانيون في التاريخ والحضارة» تأليف: د. محمد حرب.

وبعد حين يختفي هذا الإطلاق لأنّ الداخلين يكونون كسائر المسلمين إذا كانوا صادقين.

لكنّ هؤلاء اليهود بقي إسلامُهُمْ مشكوكاً فيه، لعدم اندماجهم في سائر المسلمين، وللعزلة والشعارات وأنواع السلوك الخاصة التي ميّزوا أنفسهم بها، لذلك ظلّ عنوان «الدونمة» لاصقاً بهم.

قصة إسلامهم نفاقاً:

ظهر في القرن السابع عشر الميلادي في تركيا رجلٌ يهودي من اليهود القادمين من إسبانيا، هرباً من محاكم التفتيش اسمه «شَبَاتاي بن مورداخاي سيفي».

وُلِدَ في تموز من سنة (١٦٢٦م) بأزمير، ونشأ في حجر والديه اليهوديّين، وقد شغف بمطالعة الكتب الدينيّة، وكان يتردّد على الحاخام «إسحق دالبا» لاستماع دروسه، وهو دون الخامسة عشرة من عمره، وقرأ التوراة والتلمود، وبرع في التفسير الإشاريّ، وكان ذكيّاً وسيماً.

شُغف بمطالعة كتب استحضار الأرواح، واستفادَ من قراءاته القيام ببعض الأعمال والحركات الغريبة، فظنّ نفسه قادراً على القيام بخوارق تؤهله لادّعاء أنّه المسيح المنتظر الذي يترقبه اليهود، بعد أن كفروا بالمسيح عيسىٰ عليه السلام، الذي بعثه الله تحقيقاً لما سبق به الوعد، في كُتُب بني إسرائيل.

وعزم على أن يُعْلِن أنّه المسيح الموعود به، فلازم الصيام، وصار يغتسل كلّ يوم، وابتعد عن معاشرة النساء.

كان سريع البديهة، يتغلّبُ على مناقشيه، ويخدع المقرّبين إليه، ويحرّف النصوص الدينيّة، ويؤوّلها على طريقة حساب «الجُمّل» وهي أعداد الحروف الأبجدية، حتّى حرّف بيتاً من الشّعر يقول قائله فيه: حبيبي يشبه الغزال، فجعله على طريقة حساب الجُمّل مساوياً لقوله: رَبّي يُشْبه سباتاي سيفي.

وفي سنة (١٦٤٨م) أبلغ أصحابه المقرّبين إليه بنُبُوّته، فصدّقوه، لِمَا كَانَ قَدْ هَيْمَنَ عليهم به.

وانتشر نبأ تنبُّئِهِ وادّعائه أنّه المسيح المنتظر بين اليهود في إزمير، وأثاروا ضدّه ضجّةً عظيمة، وحَكَمَ عليه بالإعدام رئيسُ الحاخامين «جوزيف إيسكابا» ومعه رجال الدين من اليهود.

ولم يكترثْ «سباتاي سيفي» لهذا الحكم لعلمه بأنّ الدولة العثمانية لا تسْمَحُ لليهود بتطبيق مثل هذا الحكم إلاّ عن طريقها، وبعد اقتناع المسؤولين فيها.

وأصدر «سباتاي سيفي» بيانه بأنه المسيح المنتظر مخلّص بني إسرائيل، ونصُّه:

«سَلامٌ من ابْنِ الله سباتاي سيفي مَسِيحِ إسرائيل ومخلّصها، إلى كلّ فردٍ مِنْ بني إسرائيل:

لقد نِلْتُمْ شرَف معاصرة مُنْقِذِ بني إسرائيل ومُخَلِّصِهم، الذي بشَّرَ به أنبياؤُنا وَآباؤُنا، فعَلَيْكُمْ أَنْ تَجْعَلُوا أَحْزانَكُمْ أفْراحاً، وصِيامَكُمْ إفْطاراً ولَهْواً، فَلَنْ تَحْزَنُوا بَعْدَ اليوم، فأعْلِنُوا عَنْ فَرْحَتِكُمْ بالطّنبور والأورغ والموسيقا، واشكُروا مَنِ الّذِي وَعَدَكُمْ فَوفَى بوَعْدِهِ، وواظِبُوا عَلَى عباداتكم كما فِي السّابق، أمّا أيّامُ المصائب والمآتِمِ فاجْعَلُوها بسبب بعثتي أيّام شُكْرٍ ومَسَرَّة.

ولاَ تَهابُوا شَيْئاً، فَإنَّ حُكْمَكُمْ لَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أمَمِ الأَرْضِ، بَلْ سيتعدّاها إلى جميع المخلوقات في أعماق البحار، فكُل هَٰؤلاَءِ مُسَخَّرُونَ لَكُمْ لِرَفاهِيتِكُمْ».

(سباتاي سيفي)

وجد «سباتاي سيفي» الطريق مسدوداً أمام دعوته في أزمير، فانتقل إلى «إستانبول» في سنة (١٦٥٠م).

فأعانه حاخام مُزَيَّف، واستقبله بالتّرحاب، لكنّ دعواه قوبلت بالرّفض في «إستانبول» فرحل إلى «أثنا» فلم يظفر بما يروم، فعاد يتنقل بين أزمير وإستانبول.

وفي سنة (١٦٦٣م) سافر إلى القاهرة فالقدس، وخشي على نفسه فلم يُعْلِمْ فيهما أحداً بدعوته، لكِنْ كان لبياناته التي انتشر خبرها أثرٌ في قَلَقِ اليهود عامة.

وظهرت في «بولونيا» فتاة يهودية جميلة ذكيّة، اسمها «سارا» ولوعة بالمغامرات، كانت تسكن في منزل أخيها «صموئيل» في «أمستردام».

وحين سمعت بأنّ شاباً يهودياً وسيماً في «أزمير» ادّعَى أنّه المسيح المنتظر، طمعت في أن تستغلّه لتكْسَبَ الشهرة، فاختلقت رؤيا نشرتها بين اليهود، تزعم فيها أنّ نوراً سيسطع عليها عام (١٦٦٦م) وستتزوّج من المسيح الذي سيظهر في ذلك العام.

وبلغ خبر هذه الرؤيا «سباتاي سيفي» فاختلق رؤيا زعم أنّه أوحي إليه بالزواج من فتاة بولونيّة، واعتبر الأغرار من اليهود أنّ هذا من معجزات «سباتاي سيفي».

وأرسل «سباتاي سيفي» في طلب «سارا» زوجة له، فجيء بها إليه، فتزوّجها في القاهرة.

وفي شهر أيلول من سنة (١٦٦٦م) عاد «سباتاي سيفي» إلى «إزمير» وبث فيها دعوته، فلم يلْقَ بين الحاخامين قبولاً حسناً في أوّل الأمر، فانتهز فرصة العيد عندهم، فأعلن عن دعوته، فتجمّع حوله أنصار كثيرون.

وبعد مدّة قصيرة صار يهود أزمير طوع يديه، وبدأت شهرته تنتشر في البلاد حتى وصلت إلى «رودس، وأدرنة، وصوفيا» وصارت الوفود تشد الرحال إليه من ألمانيا.

وأجريت له مراسيم لُبْس التاج، وصار يستقبل زواره بمواعيد ومراسيم معينة، وكان له هوى باستقبال النساء على وجه الخصوص.

وقسّم «سباتاي سيفي» العالم إلى ثمان وثلاثين منطقة، عيّن لكلٍّ منها ملكاً، وغير بعض العادات اليهودية.

وصار يوجّه رسائله ويذيّلها بتوقيع:

ابن الله الأول والوحيد

سباتاي سيفي

وتركته الدولة العثمانية دون أن تتعرض له بسوء، لأنّه كان قد حصر نشاطه في اليهود، فلمّا وجّه نشاطه لدعوة جماعات أخرى غير يهودية للإيمان به، عرض قاضي إزمير على رئيس الوزراء ضرورة اعتقال «سباتاي سيفي» حتّى لا يتفاقم أمره، ويؤثر على عوامّ المسلمين، فأمر بإلقاء القبض عليه وأرسل عن طريق البحر إلى «إستانبول».

وفي التحقيقات التي أُجْرِيتْ له، أنكر «سباتاي سيفي» كلّ ما أُسْنـد إليه، وسِيقَ إلى سجن «زندان قابـي».

وبـدأت الوفـود اليهوديـة الكثيـرة تـزوره في السّجن، حتّى صارت إدارة السّجْنِ عـاجزةً عن استقبـالهم لمشاهـدة «سباتـاي» فـأمـرت السلطات بنقله إلى سجن «جنـاق قلعة».

فلحقه الزوّار إلى «جناق قلعة» واشتكىٰ أهـل المدينـة من الضغط الذي حصـل فيها، فأمرت الحكومة العثمانية بنقله إلى «قصر أدرنـة» وكان اليهـود يترقبـون أن يظهـر «سباتاي» معجزة تُحْرَجُ بها الدولة العثمانية، فتضطر للإفراج عنه.

لكنّ الأمر كان على خلاف ذلك تماماً، فقد استدعي «سبـاتاي سيفي» للمسـاءلة في مكتب «مصـطفى باشـا» القائم بـأعمال رئيس الـوزراء، وكان عنـده شيخ الإسـلام «يحيىٰ أفندي منقري زاده» وإمامُ القصر «محمد أفندي وانلي».

أمّا السلطان «محمد الرابع» فكان يجلس في غرفـة مجاورة يسمـع ما يجـري من حوار.

وُجّه له السُّؤال التالي: تدّعي أنّكَ المسيح المنتظر، فأرنـا معجزتَـك، سنُجَرِّدُكَ من ثيابك، ونجعلك هدفاً لسهام الْمَهَرَة من رجالنا، فـإنْ لم تؤثر السّهـام في جِسْمِك، فسيقْبَلُ السلطان ادّعاءك.

أدرك «سباتاي سيفي» أنّه إذا قَبِلَ هذا التحدّي فإنّه سيكون صريعاً بعد أوّل سهم يصل إلى جسده، فأنكر كلّ ما أسند إليه، وقال: إنّ الناس قـد تَقَوَّلُوا عليه مـا لم يقلْهُ هو.

وكان السلطان «محمد الرابع» يسمع الحوار، فأمر بأن يُعْرَضَ عليه الإسلام.

فآثر «سباتاي سيفي» أن يتـظاهر بقبـول الإسلام، وأعْلَنَ إسـلامه، وصـار يُعرف باسم «محمد عزيز أفندي».

وعُيّن «محمد عزيز أفندي = سباتاي سابقاً» الذي أعلن إسلامـه رئيساً للبـوّابين، وأصيب الذين آمنوا به بخيبة أمل، وفرح الحاخامون بافتضاح أمره.

ثم أرسل إلىٰ الذين آمنوا به خطاباً عاماً قال فيه:

«لقد جعلني الله مسلماً، أنا أخوكم محمّد البوّاب، هكذا أمرني فامْتَثَلْتُ، لقد ذكَرَتِ الكتبُ اليهودية المقدّسة، أنّ المسيح سَيُتْبَعُ من قبل المسلمين».

وأشعرهم بهذا الخطاب أنّه سَيُتابِع رسالته متستراً بالإسلام، وقال أخوه مفسّراً هذا الوضع الجديد الذي اختاره لنفسه:

«إنَّ الجسم القديم لسباتاي قد صعد إلى السماء، وعاد بأمْرٍ من الله تعالى في شكل مَلاكٍ يَلْبس الْجُبَّةَ والعمامة، ليكمّل رسالة المسيح».

ثم تقدّم إلى المفتي يستأذنه بأنْ يدعو اليهود إلى الإسلام فأذن له، لكنّه دبّر مكيدةً جديدةً ضدّ الإسلام، هي أن يجعل أتباعه مسلمين منافقين، يتظاهرون بالإسلام، ويبطنون اليهودية على أنّ «سباتاي» هو المسيح.

وأعْلَنَ اليهود الذين كانوا قد آمنوا به دُخولهم في الإسلام نفاقاً استجابةً لأمره، فأقبل هؤلاء من كلّ مكان يلبسون ألبسة المسلمين، وأطلق الأتراك على هؤلاء المسلمين الجدُد اسم «الدونمة».

ورَتَّبَ «سباتاي» سرّاً أمر أتباعه «الدونمة» إذْ تركَتْ له الدولة حرّية التنقل، فنظم عقائد أنصاره وعباداتهم، وعيّن أيّام أعيادهم، وجمع تعاليمه لهم في ثماني عشرة مادّة، ومنها ما يلي:

المادة (١٦): يجب أن تطبّقْ عادات الأتراك بدقة لصرف أنظارهم عنكم، ويجب ألاّ يُشْعِرَ أحدٌ من الأتباع المسلمين بأنّه متضايق من صيام رمضان، ومن الأضحيّة، ويجب عليه أن ينفّذ كلّ شيءٍ يجب تنفيذه أمام الملأ.

هذه المادّة يوجب عليهم فيها أن يتقنوا مظاهر النفاق.

المادة (١٧): إنّ مناكحتهم ممنوعة قطعاً.

فهو في المادّة يحرِّم على أتباعه «الدونمة» مناكحة المسلمين، لئلاّ يذوبوا فيهم، ولتبقىٰ لهم هُوِيَّتُهُمُ اليهوديّة.

وبعد أكثر من عشر سنين اتضح للحكومة العثمانيّة أن إسلام سباتاي كان نفاقاً

فَنَفَتْهُ إلى ألبانيا، ومات «سباتاي سيفي» فيها سنة (١٦٧٥م) يهودياً منافقاً ضمن يهود الدونمة.

* * *

علامات ووثائق تدين الدونمة بأنّهم استمروا منافقين أهل كيد ومكر

(١) انقسم السباتائيون الدونمة إلى ثلاث طوائف، وهم:

- اليعقوبيون.
- القرقاشيون.
- حزب إبراهيم آغا (القبانجيون).

وكلّهم يبطنون اليهودية، ويظهرون أنهم مسلمون، وكان انقسامهم بسبب تنازع رئاستهم بعد مسيحهم «سباتاي».

(٢) كان لكل واحد منهم اسمان: أحدهما يهودي يتخاطبون به فيما بينهم، والآخر هو من الأسماء المتداولة بين المسلمين، ليكون هو الاسم المعروف لدىٰ عامّة الناس.

فوالد زوجة «سباتاي» اسمه بين عامة المسلمين: عبد الغفور أفندي، أما اسمه بينهم فهو «جوزيف بيلوسوف» وأخو زوجته اسمه بين عامّة المسلمين: عبد الله يعقوب جلبي، أما اسمه بينهم فهو «جوزيف كيريدو».

(٣) للسباتائيين الدونمة أعياد تزيد على العشرين، أحدها يكون في ٢٢ آذار وهو اليوم الأول من أيّام الربيع، ويُسمّى هذا العيد عندهم عيد الخروف.

ويجتمع في هذا العيد رجال ونساء متساوو العدد ليلاً كلُّ رجل وزوجته، والنساء بكامل زينتهن، وبعد الطعام المعتمد على أكل لحم الخروف، يبدأ اللّهو المشترك كالرقص والغناء، ثمّ تُطْفأُ الأنوار، ويبقى المحتفلون في ظلام دامسٍ يمارسون فيه شهواتهم بإباحيّة عامّة، ويُعْتَبر كلُّ مولود يُولَد بعد ذلك نتيجة التزاني في هذه الليلة مولوداً مباركاً.

(٤) نشر «محمد رشدي قره قاشزاده» وهو من الدونمة أتباع «سباتاي سيفي» بعض أسرار السباتائيين في سلسلة مقالات صحفية، سنة (١٩٢٤م).

فمنها كتاب مفتوح إلى «دونمة» سلانيك، جاء فيه ما يلي:

«أيها السادة، منذ أكثر من ثلاثة قرون عشنا نحن الدونمة في كنف الشعب التركي العريق الكريم، وتحت جناح رحمته، وبقينا على حالة شديدة من التعصُّب لمذهبنا، باطِنُنا يخالف ظاهرنا في كلّ أفعالنا وحركاتنا...

لقد أصدر مجلس الأمّة قانوناً بمنع الخنازير البرّية من الإضرارِ بالمزروعات، فهل تظنّونَ أنّ أمّةً تفكّر بمثل هذه الدقة في الأمور، أن تُبْقِي في بيئتها عنصراً غريباً عَنْها يمتصُّ خيراتها؟.

لَيْسَ لنا إلاّ اتباع أحَدِ سبيلين:

* إمّا أن نلتحم ـ بموجب قانون خاصّ ـ بالشعب التركي التحاماً تامّاً، فنشاركهم في الأفراح والمصائب.

* وإمّا أن نبحث عن إمكاناتٍ ماديّة ومعنوية خارج حدود هذا الوطن، نصنع فيها كياناً خاصّاً بنا».

(٥) دعاء يحفظه الدونمة ويردّدونه، وهو كما يلي:

«بالاسم المبارك لسباتاي سيفي المبارك: فلْيُقَبِّلُوني بأفواههم، فإنّ حُبّك أعْظَمُ من الخمر، إنَّ زيْتَكَ عاطر: إنَّ حُبَّكَ زَيْتٌ مَصْبُوبٌ، وعليه فإنّ العذارىٰ يُحْبِبْنَكَ».

هذه الألفاظ الواردة من: «فليقبلوني» مأخوذة من أغنية الأغاني من التوراة.

(٦) عندما احتلت اليونان منطقة سلانيك رغب عدد من الدونمة أن يُعْلِنَ يهوديّته، فرفض حاخامهم طلبهم، ويظهر أنّ رفضه قد كان بهدف استغلالهم لخدمة اليهود مستقبلاً في الدولة العثمانية.

(٧) من عادات الدونمة الذهاب إلى ساحل البحر، أو إلى ضفة نهر، والقيام بالنداء التالي: «سباتاي سيفي نحن بانتظارك».

(٨) لهم زيٌّ خاصٌ بهم، فالنساء ينتعلْنَ الأحذية الصفراء، والرجال يضعون قبعات صوفية بيضاء مع إدارة عمامة خضراء عليها.

(٩) كان الدونمة أوّل الذين هاجموا حجاب المرأة المسلمة، ودعَوْا إلى التحرّر والسفور، ودعَوْا إلى التعليم المختلط في الجامعات، وهاجموا أيضاً كلّ الشعائر الإسلامية.

(١٠) عاش «الدونمة» في سلانيك في العهد العثماني، وفي إستانبول في العهد الجمهوري عيشة رخاء وترف.

أمّا الآن فتوجد مراكز خطيرة في تركيا هي بأيدي شياطينهم، يستغلُّونَها، ويعبثون بها، ويعملون على حرب الإسلام، وتمزيق المسلمين من خلالها.

إلى غير ذلك من علامات ووثائق.

* * *

المنافقون هم الذين قاموا بإلغاء الخلافة العثمانية وتمزيق الدولة الإسلامية

(١) ثبت بما لا يقبل الشكّ أنّ الصهيونيّة العالمية، ومكايد الدولة البريطانية، مع مساعدة سائر الدول الأوروبيّة قد اشتركت في تدبير مؤامرة خلع السلطان عبد الحميد الثاني، وإلغاء الخلافة الإسلامية بعد ذلك، وتمزيق الدول الإسلامية الكبرى، وتفتيتها إلى دويلات.

(٢) وثبت أنّ المنافقين من يهود «الدونمة» والمنافقين العلمانيّين من الترك، والمنافقين المنتمين إلى المحافل الماسونية، ولا سيما المحفل الماسوني المسمّى «محفل الشرق العثماني» المؤسس في مدينة «سالونيك» التي كان للدونمة فيها مرتع خصيب، مع المنافقين المنتظمين في «جمعيّة الاتحاد والتّرقي» والمنتظمين في «حزب تركيا الفتاة» والمندسّين في ضبّاط الجيش التركي، كانوا جميعاً أدوات التنفيذ، مع العناصر اليهوديّة التي لم تخف يهوديتها، وكان الرأس المدبّر والمخطط اليهودي

«عمانوئيل قره صُو» ومعه «جاويد» الذي كان من منافقي «الدونمة» وقد كان «قره صو» نائباً في مجلس المبعوثان عن مدينة «سالونيك».

(٣) ولمّا أُلغيت الخلافة، وأُعْلِنت الجمهورية، تولّى رئاسة الدولة التركية «مصطفى كمال أتاتورك» وهو من يهود «الدونمة» فأعلن العلمانية وحارب الإسلام والمسلمين بلا هوادة، بعد أن لبس أقنعة النفاق، أمام علماء المسلمين، وتظاهر بغيرته على الشريعة الإسلامية، في الوقت الذي كان يُخطِّط مع المخطِّطين لهدمها، وتحويل المسلمين عن دينهم، وخدمة الصهيونيّة العالمية، وإقامة الدولة اليهوديّة في فلسطين[١].

(٤) وكان اليهود في غير تركيّا يعلمون نفاق كمال أتاتورك، وأنّه يعمل لهدم الإسلام وتمزيق الدولة الإسلامية، ومن الأدلة على ذلك ما حدّثنيه الشيخ «محمد السلقيني» والد أخينا «الدكتور إبراهيم السلقيني»: فقد التقيته في تركيّا، في قرية «كوك شدرة» وجرى الحديث معه حول الخلافة الإسلامية العثمانية، وكمال أتاتورك، فقال لي:

كنْتُ مع والدي حوالي سنة (١٩٢٠م) أو أكثر، وكان أبي يتولّى وقف جامع الطواشي بحلب، فذهب إلى مستأجر دكّان للوقف يهودي اسمه «داوُد فرح ست» لقبض أجرة الدّكّان، وكان كمال أتاتورك أيّامها يُحَارِبُ، ويتظاهرُ باسم الدين، وجرى الحديث مع اليهودي حول كمال أتاتورك، واندفاعه في نصرة الإسلام، فقال اليهودي «داود فرح ست» للشيخ: لا تغرّنكم الآن هذه المظاهر، فإنّ مصطفى كمال أتاتورك يهودي ابن يهودي من يهود «سالونيك».

(٥) أصدر «إسحاق بن زفي» أحد الرؤساء السابقين لإسرائيل كتاباً بعنوان «الدونمة» سنة (١٩٥٧م) قال فيه:

«إنّ يهوداً كثيرين، وكثيرين جدّاً، يعيشون بين الشعوب بطبيعتين، إحداهما

---

(١) اقرأ كتاب «أسرار الانقلاب العثماني» كتبه بالتركية «مصطفى طوران» وترجمه إلى العربية «كمال خوجة».

ظاهرة، وهي اعتناق دين الشعب الذي يعيشون في وسطه، اعتناقاً جماعياً ظاهريّاً، والثانية باطنة، وهي إخلاص عميق لليهودية».

وأبان «إسحاق بن زفي» أنّ الدونمة طائفة «مسلمة ـ يهودية» أي: فهي تعيش في تركيّا بوجه مسلم، وتبطنُ من ورائه اليهودية، وهذا ما ساعدها على أن تتدخّل في شؤون تركيّا السياسية، والاقتصادية، والتربوية، والتوجيه الفكري.

(٦) تتجه أنظار معظم الباحثين إلى أنّ يهود الدونمة هم الذين بدؤوا تأسيس المحافل الماسونية، وهم الذين أسّسُوا جمعيّة الاتحاد والترقي، وحزب تركيّا الفتاة، وعن طريق هذه المنظمات جرّوا تركيّا إلى حروب خاسرة، وحوّلوها من الإسلام إلى العلمانيّة، ورفعوا رَجُلَهُمْ «مصطفى كمال أتاتورك» إلى سدّة الحكم في تركيّا، وألغَوا الخلافة، وفصَلُوا الترك عنِ العرب، وأقاموا الصراع بين القوميّتين العربيّة والتركيّة، لإزاحة تركيّا عن الوقوف في طريق إقامة دولة إسرائيل في فلسطين.

(٧) منذ أعلن «سباتاي» إسلامه، وتبعه يهود الدونمة، تمكن هؤلاء من احتلال مراكز ذات شأن في الدولة، ومع أنّهم لا يزيدون عن قرابة نيف وثلاثين ألفاً إلّا أن تأثيرهم في تركيّا بقوّة الملايين، لدخولهم في مختلف التنظيمات وتوجيههم لها، ودخولهم في الجيش وأجهزة وسائل الإعلام، وامتلاكهم لكثير من كبريات الصحف، وتوجيههم للحزب الشيوعي، وهم يسعون لإقامة الحكومة اليهودية التي تملك العالم، مع الصهيونية العالمية.

● ● ●

المقولة السادسة

منظّمة
البابيَّة فالبهائية إحدى المنظمات المنافقة[1]
اشترك في تأسيسها ونشرها
المجوس والصليبيّون واليهود

(١)
مقدمة

أكّدت الدراسات التي قام بها عدد من الباحثين المتتبعين، أن «البابيّة» التي صار اسمها فيما بعد «البهائيّة» منظّمة تمّ إعدادها بتخطيط من عدّة أحزاب كافرة من أعداء الإسلام، لتمزيق وحدة المسلمين، وفتنة طائفة منهم عن دينهم وإخراجهم من الملّة الإسلامية، وجعلهم ذيولاً تابعين لليهود والنصارى، وفُسّاقاً فجاراً إباحيين، وإبرازهم على أنّهم أُمّةٌ ذاتُ دين جديد ينادي بوحدة الأديان، ويَعْمَلُ على خدمة مصالح الاستعمار الصليبي من جهة، ويكون أحد الدروع التي تحتمي بها اليهوديّة العالميّة في مسيرتها لتحقيق مخطّطاتها العالميّة.

وقد تظاهرت هذه المنظّمة أوّلاً بأنّها طائفة من المسلمين، إلاّ أنّ لها في تفسير نصوصه مفهومات خاصّة، مع أنها في الباطن جاحدة كافرة بالإسلام، والغرضُ من تظاهرها الأوّليّ بالإسلام استدراج بعض المسلمين للانتماء إليها، ثم تحريف التعاليم

---

(١) المعلومات عن هذه المنظمة مقتبسة من الكتب التالية ومن غيرها: أ ـ (حقيقة البابيّة والبهائية) تأليف «محسن عبد الحميد». ب ـ (دراسات عن البهائية والبابية) تأليف «محب الدين الخطيب» وثلاثة آخرين. ج ـ «البهائية» تأليف (إحسان إلّهي ظهير). د ـ «البهائية سراب» تأليف «عبد الله النوري». هـ ـ صحف ومجلات نشرت عنها.

الإسلامية لهم، ثم فتنتهم عن دينهم، ثم إخراجهم عن الإسلام إخراجاً كليّاً، بإيهامهم أنّ دينهم الجديد نسخ الإسلام وشرائعه وجاء بشرائع حديثة تتلاءم مع أوضاع البشر، وما تطوّروا إليه، واتخذوا الإباحيّة الجنسيّة إحدى وسائلهم لإغراء أصحاب الشهوات من الرجال والنساء، الذين يطيب لهم أن يجدوا ديناً إباحيّاً، يبيح لهم المحرّمات، ويرفع عنهم التكاليف، أو يخفف عنهم منها، ويكتفي منها بما لا مشقة فيه، أو بما فيه متعةٌ أو لذّة.

* * *

(٢)
بدء المكيدة وأطوارها
وبعض خفاياها وخياناتها

الطور الأول:

على جذور الحركة الباطنية الخبيثة، وضمن جماهير الشيعة الإماميّة، ظهرت عدة مكايد ضدّ الإسلام والمسلمين، مهّدت لظهور البهائية:

(أ) فظهرت أوّلاً طريقة «الشيخيّة» نسبة إلى «الشيخ أحمد الأحسائي» المولود سنة (١١٦٦هـ ١٧٥٣م) فقد أسس هذا طريقة في مذهب الشيعة الإماميّة سُمّيت فيما بَعْدُ الشيخيّة.

تقوم هذه الطريقة على ادّعاء أنّ الحقيقة المحمّدية القديمة لها تجلّيات:

* فقد تجلّت في الأنبياء قبل النبيّ محمّد ﷺ تجلّياً ضعيفاً.

* ثم تجلّت في النبيّ محمد تجلّياً أقوى.

* ثم تجلّت في الأئمة الاثني عشر.

واختفت زهاء ألف سنة.

* ثم تجلّت في الشيخ «أحمد الأحسائي» وهو من غلاة الشيعة الحلوليّة الذين يرون عبادة عليّ. وكان هذا الأحسائي يبشّر بقرب ظهور المهدي المنتظر.

[قيل: كان «أحمد الأحسائي» قسّيساً غربيّاً، فهو غير معروف الأصل في الأحساء].

* ثم تجلّت الحقيقة المحمدية بعد أحمد الأحسائي في تلميذه السيد «كاظم الرّشتي» المولود في سنة (١٢٠٥هـ ١٧٩٠م) في «رشت» من بلاد إيران.

[وقيل أيضاً: كان هذا قِسّيساً كأستاذه الأحسائي].

وتابع «كاظم الرشتي» التبشير بقرب ظهور المهدي، ووصف لتلاميذه شخص هذا المهدي الذي دنا وقت ظهوره بصفات وشمائل وأخلاق تكاد تكون تعييناً لشخص يعرفونه بينهم، ثمّ ألمح إليهم أنّه قد يكون جالساً بين تلاميذه، ثم صرّح بذلك فقال في دروسه:

«إنّ الموعود يعيش بين هؤلاء القوم، وإنّ ميعاد ظهوره قد قَرُب، فهيِّئوا الطريق إليه، وطهِّروا أنفسكم حتى تَرَوْا جَمالَه، ولا يظْهَرُ جمالُه حتّى أفارق هذا العالَم، فعليكم بعد فراقي أن تقوموا على طلبه، ولا تستريحوا لحظة واحدةً حتىٰ تجدوه».

وكان «كاظم الرشتي» يقول في دروسه:

«إنّ الشريعة وأصول الآداب هي غذاءٌ للروح لذلك يجب أن تكون الشرائع متنوعة، وعلى ذلك يجب نسخ الشرائع العتيقة».

وكان «لكاظم الرشتي» زوجة رائعة الجمال اسمها «فاطمة» فلقبها زوجها «قُرّة العين وفرح الفؤاد» وكانت طاغية الأنوثة، ذكيّة شاعرة، ذات قوّة فائقة في الكلام والتأثير على الرجال بحديثها، ثم انطلقت مع تلاميذ الرشتي فاجرة، داعية إلى السفور وتحرير المرأة.

والصفات التي ذكرها «الرّشتي» للمهدي الحاضر القريب الظهور، تكاد تنطبق تماماً على الميرزا «علي محمد رضا الشيرازي» أحد تلاميذه الملازمين له ملازمة شديدة، وعيّنه الرشتي خلفاً له بعد موته.

ويبدو أنّ الخطّة المدبّرة في الخفاء قد رسَمَتْ كلّ ذلك، ومات الرشتي سنة (١٢٥٩هـ ١٨٤٣م) وكانت المؤامرة قد أعدت الشيرازي لادعاء أنه المهدي المنتظر.

الطور الثاني:

ولمّا مات «كاظم الرشتي» قام الميرزا «علي محمد رضا الشيرازي» المولود في «شيراز» سنة (١٢٣٥هـ ١٨١٩م) خلفاً له.

وكان هذا يقول بالحلول ووحدة الوجود، وبعد موت أستاذه بسنة واحدة ادّعىٰ أوّلاً أنّه الباب إلى الإمام المنتظر المستور، وسمّى نفسه الباب، وسُمّيت دعوته فيما بعد «البابيّة».

ويدّعي البابيون أنّ مظاهر التجليات شيءٌ واحد، يختلفون في الصورة ويتّحدون في الحقيقة التي هي الله، فالحقيقة الربانية ظهرت فيهم، ويدّعون أنّ اللاحقين هم أفضل من السابقين.

ثم أعلن هذا «علي محمد رضا الشيرازي» أنه هو المهديُّ المنتظر المستور، وكان هذا الإعلان سنة (١٢٦٠هـ ١٨٤٤م) في مدينة شيراز، وكان عمره خمساً وعشرين سنة.

ثمّ ادّعىٰ النبوّة، وادّعىٰ أنه أفضل من الرسول محمد، وكتب كتاباً سخيفاً سمّاه «البيان» وادّعىٰ أنّه أفضل من القرآن.

ثم ادّعىٰ أنّه الإلٓه الحقّ، لأنّ روح الله قد حلّ فيه، كما حلّ في سائر الأنبياء والمرسلين من قبله، وادّعىٰ إبطال شرائع الإسلام.

ولمّا فشت دعاواه هذه أصدر العلماء الفتوى بقتله، لارتداده عن الإسلام، وادّعاءاته الكافرة الفاجرة، ولتأكيده على إبطال الشريعة الإسلاميّة، فتمّ فيه تنفيذ حكم الإعدام بأمر من الشاه ناصر الدين، سنة (١٢٦٥هـ ١٨٤٩م).

وتأكّد أن الحكومة الروسيّة «القيصرية» النصرانيّة ساعدت «البابيّة» مساعدات كثيرة ومتنوّعة، حتى تَدَخَّلَ القيصر لحماية الميرزا «علي محمد رضا الشيرازي» من القتل، إلّا أنّ تنفيذ القتل قد كان أسبق من وصول الوساطة الروسيّة إلى الشاه.

وكان للقيصرية الروسية النصرانيّة تدخلات مستمرّة معروفة في شؤون إيران، وكان لها مطامع تقليدية في بلادها، للوصول إلى سواحل المحيط الهندي، وتأكد أنّها كانت من مؤسّسي الحركة «البابيّة» ثم «البهائيّة» التي كانت امتداداً لها، والطور الأخير

من أطوارها، وأنها كانت وراء خطط أطوارها، وأنّ الجاسوسية الروسية هي التي كانت تتّصل سرّاً برجال هذه المنظمة، وتمدّها بالمال والتوجيه وخطط العمل. ومن هؤلاء الجواسيس المنافقين الأرمني الروسي «منوجهر خان» فقد أعلن هذا إسلامه نفاقاً، فغمره الشاه «محمد» بالفضل، وأعطاه ثقته وعيّنه معتمداً للدولة في «أصفهان» فجعل هذا يمدّ الحركة البابيّة بالأموال الطائلة، وبالحماية والتأييد، ولمّا ثار المسلمون على «الباب» أخفاه هذا في بيته أربعة أشهر، وما كان يتصوّر أحدٌ أن يكون مختبئاً عنده، وهو معتمد للدولة في أصفهان.

ووجد اليهود في هذه الحركة البابيّة فرصةً مناسبة لهم، فانضم منهم إليها نفاقاً لدعمها ونشرها وتمزيق المسلمين عدد ضخم كاف لتخريب دولة:

* ففي «طهران» دخل من اليهود فيها (١٥٠).
* وفي «همدان» دخل من اليهود فيها (١٠٠).
* وفي «كاشان» دخل من اليهود فيها (٥٠).
* وفي «كلباكيان» دخل من اليهود فيها (٨٥).

كما جاء في كتاب «مطالع الأنوار» للعلّامة الشيعي «محمد الحسين آل كاشف الغطاء».

ويستند البابيُّون في إثبات مفترياتهم على التوراة، وقد كان الميرزا «علي محمد رضا الشيرازي» في سجنه يحتفظ بنسخة من العهد القديم، ويطالع فيها بإمعان.

ودعا البابيون إلى الإباحيّة الجنسيّة، تحت ستار تحرير المرأة في إيران، وتخليصها من أوضاعها الفاسدة التي كانت تعيش فيها.

وأخذت أجهزة الدعاية الغربيّة، ودوائر التبشير العالمي، تمجّد بالحركة «البابيّة» وتعتبرها حركة تقدُّميّةً تحرّريّة، وأنّها جاءت لإنقاذ المسلمين من الإسلام المتعصّب.

واعتقد البابيون تبعاً لأقوال إمامهم الباب عدة عقائد، منها:

(١) إنكار البعث والمعاد إلى الحياة، ويفسّرون القيامة بالظهور الذي تجلّىٰ به الله في الأنبياء وفي الأئمة، ومنهم الباب.

(٢) ويعتقدون أنّ عدد الوحدة الربّانيّة هو رقم (١٩) وأنّ هذا العدد سرٌّ من الأسرار المقدّسة الّتي لا يتم نظام العالم إلّا به.

وتبعاً لتقديس العدد (١٩) جعل الباب الشهر تسعة عشر يوماً، والسنة تسعة عشر شهراً.

(٣) أوجب الباب على البنت أن تتزوّج بعد إحدى عشرة سنة من عمرها، وأوجب على الأرمل أن يتزوّج بعد تسعين يوماً من موت زوجته، وأوجب على الأرملة أن تتزوج بعد خمسة وتسعين يوماً من موت زوجها.

(٤) وألغى صلاة الجماعة، باستثناء صلاة الجنازة، وجعل الوضوء اختياريّاً للصلاة، وحكم بأنّه لا توجد أشياء نجسة على البابي، بل كلّ الأشياء بالنسبة إليه طاهرة، ومنع الصدقة على الناس، ودعا إلى تحرير المرأة من قيود الأخلاق، وهنا تبرز مكيدة اليهود العالمية.

(٥) واشتمل كتاب «الباب» المسمّى «البيان» على أقوال سخيفة تافهة تُثير الضحك والسخرية، منها ما جاء في اللوح الأول منه:

«إنا قد جعلناك جليلاً للجاللين. وإنا قد جعلناك عظيماناً عظيماً للعاظمين. وإنّا قد جعلناك نوراً نوراناً نويراً للناورين. . . وإنا قد جعلناك تماماً تميماً للتامّين».

وهكذا على هذا النمط من الهراء المقرف.

(٦) وأقفل «الباب» النبوة والربوبيّة التي ادّعاها لنفسه إلى ما يزيد على ألفي سنة. وحرّم اكتساب العلم، على اعتبار أن العلم إنما يكون فيضاً لمن تظهر فيه تجلّيات الرب.

وعقد البابيّون مؤتمراً يعرف عندهم بمؤتمر «بدشت» وكان ذلك سنة (١٢٦١هـ ١٨٤٨م) وكان لزوجة «كاظم الرشتي» التي لقبها «قرة العين» أثرٌ كبير في توجيهه، مستخدمةً مالَها من جمال، وسحر حديث، وما لَدَيْها من تحلّل من قيود الأخلاق والدين وانطلاق في الفجور، وتأثير على الرجال بأنوثتها الطاغية.

وكان يحرّك هذه المرأة ويوجّهها سرّاً في مؤتمرهم هذا «حسين علي بن عباس

بزرك المازندراني» أحد تلاميذ «علي محمد رضا الشيرازي» فقد سبق أن سُجِنت هذه المرأة بتهمة قتلها لعمّها، فأرسل لها «حسين علي المازندراني» من ساعدها على الفرار من السجن، فحضرت إليه، وعشقته، فقد كان مع خبثه شاباً جميلاً وسيماً جذّاباً.

ولأوّل مرّة أعلنت هذه المرأة بين البابيّين في هذا المؤتمر أنّ الشريعة الإسلامية قد نُسِخَتْ، وحَمَلَتْ الكثيرين على قبول هذه الفكرة المفتراة على الله.

الطور الثالث:

كان بين تلاميذ وأتباع الميرزا «علي محمد رضا الشيرازي» الذي دعا نفسه «الباب» وعُرفت منظّمته بالبابيّة، كما سبق بهذا البيان، شابّان أخوان:

الأخ الأول: وهو الأكبر، الميرزا «حسين علي بن عبّاس بزرك المازندراني» نسبة إلى بلدة «مازندران» في إيران، المولود سنة (١٢٣٣هـ) والذي سبق الحديث عنه آنفاً.

نشأ هذا شغوفاً بمخالطة ومعاشرة الصوفيين من باطنيّي الشيعة، وذا ولع بقراءة كتبهم.

وحينما ادّعى الباب المهديّة اتّبعه بتوجيهٍ وإرشادٍ من الملاّ عبد الكريم القزويني، وبدأ ينشر مذهب أستاذه في طهران.

ولمّا انعقد مؤتمر البابيّين في «بدشت» حضره، وصار يوجهه سرّاً ويحركه من وراء عاشقته «قرة العين» كما سبق بيان هذا.

وقد كان هذا داهية ذكيّاً خبيثاً ماكراً مخاتلاً شيطاناً، قادراً على أن يتوارىٰ وينافق ويراوغ ويُسوّف ويُقْنع.

الأخ الثاني: وكان فتىً يافعاً قليل الحيلة يسيطر عليه أخوه الأكبر، اسمه «يحيىٰ نور» وقد لقّبه الباب: «صُبْحَ الأزل» وكان هذا أخاً «لحسين علي» من أبيه.

واتفق الذين أرّخوا لهذه المنظمة أن الباب «علي محمد رضا الشيرازي» قد جعل الأخ الأصغر من تلميذيه الأخوين وهو «صُبْح الأزل يحيىٰ نور» خليفته من بعده، وعين الأخ الأكبر منهما «حسين علي» وكيلاً له، وأمره بحجب أخيه وإخفائه لئلا يمسّه أحد بسوء، ولا يقع في أيدي الحكومة الإيرانيّة.

واستغلّ الأخ الأكبر منهما هذا الوضع لنفسه، فحجب أخاه حتى عن كلّ البابيين، فكان هو الموجه للمنظمة كلها باسم أخيه، وهو يعمل في الحقيقة لنفسه.

وعقد هذا صلاتٍ قويّةً بالدولة الروسيّة القيصرية الصليبيّة، وبالدولة البريطانية، وهذا مدوّن في كتب هذه المنظمة الخائنة العميلة لأعداء الإسلام.

وعزم البابيون على أن يغتالوا الشاه «ناصر الدين» انتقاماً للباب، إذْ نفّذ فيه حكم الإعدام بناء على فتوى العلماء بقتله، قيل: وكان «حسين علي» الأخ الأكبر منهما الرأس المدبر لاغتيال الشاه. ولمّا خابت مؤامرة اغتياله لاحقته الدولة، فلجأ إلى السفارة الروسيّة فحمته، وطالبت الحكومةُ الإيرانيةُ السفارةَ الروسية بتسليمها المجرم المتآمر على اغتيال الشاه، فامتنع الوزير الروسيّ المفوّض بطهران عن تسليمه، ثم أرسله محفوظاً إلى منزل رئيس وزراء إيران يومئذٍ «آقا خان» وكتب إليه ما ترجمته:

«إنّ الحكومة الروسيّة ترغب في أن لا يمسّه أحد بسوء، وأن يكون في حفظ وحماية تامّة، وأنّه إذا لم يحفظه فسيكون هو شخصياً مسؤولاً عنه».

وتدخّل أيضاً السفير البريطاني في طهران طالباً حمايته، وأن لا يُمَسّ بسوء.

وكان رئيس وزراء إيران «آقا خان» من الموالين للروس، فأخفاه عنده أوّلاً، وبعد أن دبّر أمر حمايته من القضاء قدّمه إلى الحكومة لإجراء التحقيق بأمره، فأُودِعَ في سجن «سياه جال» أربعة أشهر، ثم اتّخذ «آقا خان» تدابير إصدار الحكم ببراءته من الاشتراك في مؤامرة اغتيال الشاه، مع أنه كان هو الرأس المدبّر، استجابة لضغوط الروس والإنكليز.

وكان سفير الروس في إيران يومئذٍ «كنيازد الغوركي» الذي كان له دور كبير في تأسيس هذه المنظمة، كما ذكر هو في مذكراته التي نشرتها مجلة «الشرق» السوفييتية سنة (١٩٢٤م).

وجاء أيضاً في أقوال «حسين علي» هذا بكتابه: «سورة الهيكل» ما يلي:

«يا مَلِكَ الرّوس... ولمّا كُنْتُ أسيراً في السلاسل والأغلال في سجنِ طهران نصرني سفيرك».

وجاء في كتابه: «مبين»:

«يا ملك الروس... قد نصرني أحد سفرائك إذْ كنتُ في السجن تحت السلاسل والأغلال، بذلك كتب الله لك مقاماً لم يُحِطْ به أَحَدٌ إلاّ هو».

وبعد الإفراج عنه صدر الأمر بنفيه إلى بغداد، فخاف أن تبعث الدولة من يقتله في الطريق، فاتفق مع الروس على أن يبعثوا له من فرسانهم من يحميه حتى يصل إلى بغداد، ففعلوا ذلك، ووصل إلى بغداد مع أسرته وبعض البابيِّين سنة (١٢٦٩هـ ١٨٥٣م).

ثم ارتحل أخوه الأصغر «يحيىٰ نور = صُبْح الأزل» إلى بغداد، مُتَخَفِّياً بثياب الدراويش.

واستمر الأخ الأكبر «حسين علي» يدير المنظمة نيابة عن أخيه، فيراسِلُ عنه، ويخاطبُ الناس عنه.

وفي بغداد بدأ الشقاق بين الأخوين، لأنّ الأخ الأصغر «يحيىٰ نور = صُبْح الأزل» أدرك أنّ أخاه يعمل لحساب نفسه، ويريد أن يكون هو زعيم المنظمة بعد «الشيرازي» الذي زعم نفسه «الباب» وناصر كبار البابيين صاحب الخلافة الأصل، الأخ الأصغر.

فغضب الأخ الأكبر «حسين علي» في نفسه، وقرّر أن يعتزل خارج المدينة بعيداً عن أخيه وأفراد المنظمة ليُحْرِجَ أخاه الأصغر، وفي سنة (١٢٧٠هـ ١٨٥٤م) خرج إلى جبال السليمانية وحده، فاعتزل في كهف من كهوفها سنتين كاملتين، وترك إدارة دفة المنظمة، ولعلّ هذا الاعتزال قد أربك أخاه، فكتب إليه يأمره بأن يعود إلى بغداد، وأن يطيع أمره، بصفته رئيساً للمنظمة وزعيمها، وخليفة الباب الراحل بلا منازع، فأطاع «حسين علي» ورجع إلى بغداد معترفاً بقيادة أخيه الأصغر وزعامته.

ثم اشتد الخلاف بين الأخوَيْن، واتّهم كلٌّ منهما أخاه بمحاولة قتله عن طريق دسّ السُّمّ له في الطعام أو الشراب، وصار الأخ الأكبر «حسين علي» يُحرّض أشياعه ضدّ أتباع أخيه ومناصريه، وذكروا أنّه استطاع أن يقتل بالسّمّ عدداً من كبار البابيّين أنصار أخيه.

وتوافد «البابيون» إلى بغداد، وكثرت خلافاتهم وأحزابُهم، واشتكىٰ منهم مسلمو السنّة وعلماء الشيعة إلى الحكومة المحليّة، وأبلغت هـذه الحكومةُ المحليّة الحكـومة الإيرانية بأمر هؤلاء، وما يقومون به من شغب، فتمّ الاتفـاق بعد مـراسلات ومشـاورات بين الحكومة الإيرانية وحكومة السلطنة العثمانية على نقلهم إلى «إستانبول».

وحين تـوجّه الأخـوان مع أتبـاعهمـا مـرتحلين إلى «إستـانبـول» سنـة (١٢٧٩هـ ١٨٦٣م) أعلن الأخ الأكبر «حسين علي» لخاصتـه ورفاقـه المحبّين له أنّـه هو المـوعود الذي أخبر عنـه «الباب» إذْ كـانوا مجمـوعين خارج بغـداد، في حديقـة «نجيب باشـا» وتخليداً لذكرى إعلانه هذا فيها يُسمّونها «حديقة الرضـوان». وقيل: أعلن دعـوته بعـد ذلك في «أدرنة» من تركيّا، ولم يعلم الأخ الأصغر بما أعلنه أخوه.

وسِيقُوا إلى «إستانبول» فأقاموا فيها قليلاً، ثم نُقِلُوا إلى «أدرنة».

وفي «أدرنة» أظهر الأخ الأكبر «حسين علي» أنّه هو المظهر الأوّل للإدارة الإلّـهية التي بشّر بها «الباب» ولقّب نفسه: «بَهاء الله»..

عندئذٍ نشب الخلاف الشديد بين الأخوين، بعد أن رفض حزب أخيه الاعتراف له بذلك.

وظهر للخلاف بينهما آثار مزعجةٌ للسلطنة العثمانيّـة، إذْ وصلت إلى حدّ التقـاتل جهاراً، وإحداث الفوضىٰ، فتدخّلت حكـومة السلطنـة العثمانيّـة، بالاتفـاق مع سفـارة «إيران» على نفيهما إلىٰ بلدين متباعدين.

فنفت الأخ الأكبر «حسين علي = بهاء الله» إلى «عكا» من فلسطين، هو وأتباعه، وكـانت «عكا» يـومئذٍ منفىٰ كبـار المجرمين، إذْ كـانوا يـرسلون إليها من جميـع أنحـاء تركية، ونفت «يحيىٰ نور = صُبْح الأزل» إلى «قبرس = قبرص».

وكان مكوثهما في «أدرنة» أربع سنوات ونصف السنة.

ولمّـا كان الأخ الأكبـر «حسين علي = بهاء الله» أخبث الأخـوين وأكثرهمـا مكـراً وحيلة وقدرة على الإغواء والتضليل، وتوسيع دائرة المنظمة، فقد اعتمدته القوّة المدبّرة الخفيّة اليهوديّة والصليبيّة ليكون قائد المنظمة.

ومن ثمّ عرفت المنظمة باسم «البهائية» نسبة إلى حسين علي بن عباس بزرك المازندراني» الذي أعطى نفسه لقب «بهاء الله».

ومنذ ذلك الحين أخذت البهائية أتباع «بهاء الله» تنتشر بدعم الصهيونيّة العالميّة والصليبيّة، ثم احتضنتها أمريكا بدعمٍ قويّ.

ورعته الصليبيّة العالمية، والصهيونية في منفاه، وعُطّلتْ أوامر السلطنة العثمانيّة القاضية بسجنه والتضييق عليه وأُغْدِقت عليه وعلى البهائيين معه الأموالُ من قِبَلِ أعداء الإسلام، وعاش في «عكّة» و «حيفا» و «البهجة» في قصور فخمة، وحدائق غناء عيش الملوك، قرابة أربع وعشرين سنة.

وألف «حسين علي = بهاء الله» عدة كتب ورسائل زعمها كتباً مقدسة، منزّلة من عند الله، منها كتاب سماه «الأقدس» وادّعى أنه وحي من الله، وينسب إليه كتاب اسمه «إيقان» طبعه محفل البهائيين المركزي في مصر سنة (١٣٥٢هـ).

ولمّا بلغ الخامسة والسبعين من عمره جاءه مرض الموت، وانتهت رحلة امتحانه في الحياة الدنيا، وهلك ليلقىٰ عذاب ربّه، بعد حُمّى نزلت به.

وكان موته في الثاني من ذي القعدة سنة (١٣٠٩هـ و ١٨٩٢/٥/٢٨م).

وخلفه بعده ابنه الأكبر «عباس أفندي» الملقّب «الغصن الأعظم» وسمّى نفسه بعد موت أبيه «عبد البهاء» وكان هذا زعيم البهائيّة ونبيّها بعد أبيه، وكان هذا أكثر ذكاء من أبيه وأخبث وأعظم حيلة ومكراً ونفاقاً، يحضر مساجد المسلمين ويصلي معهم، ويحضر كنائس النصارى ويصلي معهم، ويحضر معابد اليهود ويصلي معهم.

وكان قد وصىٰ «بهاء الله» بخلافته من بعده لابنه الأكبر «عباس = عبد البهاء» هذا المولود في ١٨٤٤/٥/٢٣م الموافقة لسنة (١٢٦٠هـ).

وبعده للأصغر منه «محمد علي» وكتب بذلك كتاب الوصيّة، وختمه بخاتمه.

و «عباس = عبد البهاء» هو الذي أتمّ تكوين البهائيّة، وأظهرها على الوجه الذي هي عليه بعد الانتشار والظهور، وهو الذي أخرجها من الكتمان، وصبغها بصبغة عصريّة، وادّعىٰ النبوّة بعد أبيه، وادّعى في أمريكا بأنه هو المسيح، وابن الله.

وزاد هذا الابن الشيطان على تعاليم أبيه زيادات كثيرات، وحذف منها وعدّل، واستعان بأفكار من العهد القديم، وأفكار من العهد الجديد؛ ليكون للبهائية إمكانيات انتشار أكثر.

وهلك عباس في ٢٨ ربيع الأول سنة (١٣٤٠هـ) و ٢٨ تشرين الثاني سنة (١٩٢١م). وتأثرت الحكومة البريطانية لوفاة عميلها المخلص لها وللصهيونيّة العالمية، فأبرقت تعزّي به آل البهاء والبهائيين.

ولم يكن له ولد ذكر من ذرّيته يخلفه.

فخلفه من بعده «شوقي أفندي» ابن بنته الكبرى، باستخلاف منه. وكان عمره عند هلاك جدّه «عباس = عبد البهاء» خمساً وعشرين سنة.

ولُقّب بعد جده «ولي أمر الله» وتزوّج امرأة أمريكيّة اسمها: «ماري ميكسويل» سنة (١٩٣٦م) أو اسمها «روحيّة ماكْسُول».

ومات في (١٩٥٧/١١/٤م) في لندن بالسكتة القلبيّة، دون أن يكون له عقب في ولاية أمر البهائيين حسْبَ تعاليمها.

فانقسم البهائيون إلى فرق وأقسام متعدّدة، ولولا إمساك الصهيونيّة لهم، والصليبيّة والاستعمار لانفرط عقدهم، وانحلّ تماسكهم.

* * *

(٣)
مبادىء البهائيين العامة

للبهائيين مبادىء عامة خمسة:

المبدأ الأول: وحدة الأديان.

من الثابت أنّ فكرة وحدة الأديان إحدى المكايد اليهودية الماسونية، التي تتظاهر بها لسلخ الناس من ولاءاتهم الدينية الخاصّة، في حين يُوصِي قادة اليهود كُلَّ يهودي أن يُحافظ سرّاً على يهوديته وولائه لكتب اليهود، مهما تظاهر بانتمائه إلى أيّ دين أو أيّ مذهب آخر أو أيّ تنظيم في العالم، وأن يعمل على خدمة الحركة اليهوديّة

الصهيونية، وتسخير المنظمة التي ينتمي إليها، وأهل الدين الآخر الذي يتظاهر بالانتماء إليه، لتحقيق حُلْم اليهود الأكبر، وهو حكمهم العالم كلّه في دولة عالمية واحدة، يسيطر ملك بني إسرائيل عليها.

المبدأ الثاني: وحدة الأوطان، أي: الأرض كلّها وطنٌ واحد للجميع.

وهذه أيضاً من الأفكار التي ترى الصهيونيّة العالمية أنّها تُمهّد للدولة العالميّة التي يسعى اليهود لإيجادها على أن تكون في قبضتهم.

المبدأ الثالث: وحدة اللّغة.

وهذه الفكرة هي أيضاً إحدى المخطّطات اليهودية الصهيونية التي تتبنّاها الماسونية.

فقد جاء في إحدى الوثائق التي تكشف بعض المقرّرات السّرّية اليهودية ما يلي:

«وعندما نتيقن من نجاح مخطّطاتنا هذه ستكون ساعة الصفر قد أزفت، فتزحف جيوشنا إلى الميادين المعيّنة لها، وسنقضي سريعاً على مقاومة أعدائنا التي ستكون حتماً هزيلة، ونزيل الدول المنهارة عن طريقنا، ثم نعلن للعالم انتصارنا، ونفرض عليه سيادتنا تحت ظلّ الدولة العالمية الموحّدة، وعَلَمِها ذي النجمة المقدسة...

وسنفرض على العالم ثقافتنا، ومن ثَمّ سنقضي على اللّغات المستعملة الآن، وسنُرْغِم الشعوب على دراسة اللّغة (اليديشية = اللّغة العاميّة اليهودية) وحْدها، التي ستكون اللّغة العالميّة للشعوب كافة، وسنختص نحن باللّغة الْعِبْرِيّة الأصليّة، لغة السّادة والشعب المختار، وسنمنع اتّخاذ اللّغات الأخرى، ونُلقّن العالم تاريخنا وحده»[1].

المبدأ الرابع: السلام العالمي، وتحريم الحرب.

وهذه أيضاً إحدى المخططات اليهودية في لعبتهم السياسيّة العالمية تمهيداً لحكم العالم[1].

---

(١) انظر الوثيقة الثالثة من «وثائق من أقوال اليهود» في كتاب «مكايد يهودية عبر التاريخ» للمؤلف.

المبدأ الخامس: المساواة بين النساء والرجال.

وهذه أيضاً إحدى الأفكار اليهودية التي يريدون بها إخراج المرأة من كلّ قيود التعاليم الدّينيّة، وقيود العفة، لإفساد الشعوب، وتدمير أخلاقها.

* * *

(٤)
حيلتهم النفاقية بالنسبة إلى النصوص الإسلامية

من الملاحظ لدى البهائيين أنّهم يستخدمون النصوص الإسلامية، لكنّهم يُحَرِّفون دلالاتها وفق الطريقة الباطنيّة، ويلْوُون أعناقها لما يخدم دعم مفهوماتهم الباطلة، وتحريف الإسلام.

وأقوالهم ومكتوباتهم مشحونة بمثل هذه التحريفات والتفسيرات الباطلات، وفق الطريقة الباطنيّة المعروفة لدى الفرق الباطنية المختلفة.

* * *

(٥)
من الأحكام التشريعيّة
لهذه النحلة المفتراة على الله

للبهائيين جملة أحكام وردت على ألسنة زعمائهم، بعد أن تعرّضت لتعديلات وتغييرات متعاقبات بحسب تعاقب الزعماء، فمنها ما يلي:

(١) تحريم حجاب المرأة.

(٢) إباحة الزواج من كل امرأة باستثناء زوجة الأب.

(٣) تحريم الزواج بأكثر من زوجتين.

(٤) وجوب طاعة السلطان القائم وعدم جواز الاعتراض عليه، فقد جاء في كتاب «الأقدس» من كتبهم ما يلي:

«ليس لأحد أن يعترض على الّذين يحكمون على العباد».

(٥) إنكار يوم الدين، وادعاء أن الدنيا تكون هكذا إلى الأبد، وأنّ القيامة والنشور إنما هي ظهورات وتجلّيات للرّب تكون في هذه الدنيا، لأشخاص تتجلّى فيهم الروح القدسيّة العلية.

(٦) إلغاء الجهاد في سبيل الله، وهذا الإلغاء هو إحدى القضايا المهمّة التي يعمل اليهود وسائر أعداء الإسلام لإقناع جميع المسلمين بها.

* * *

(٦)

تآمرهم ضدّ الأمّة الإسلاميّة

قام البهائيون بدور الأجير المطيع في تنفيذ مخطّطات أعداء الإسلام، من صليبيين، واستعماريّين ويهود.

إنّهم يقرّرون ويعترفون في كتبهم ونشراتهم بأنهم عملوا على سقوط الحكومة العثمانية في فلسطين، وبأن المستعمرين الإنكليز قد دخلوا الأراضي المقدّسة بمساعيهم، ويتباهَوْن بأنّهم كانوا قد تنبَّؤوا بقيام الدولة الإسرائيليّة، ويتحدّثون عن الصلات الوثيقة التي تقوم بينهم وبين دولة إسرائيل.

وفيما يلي طائفة من الوثائق التي تكشف تآمرهم مع أعداء الإسلام ضدّ الإسلام والمسلمين:

(١) نشرت مجلّة «الأخبار الأمريّة» التابعة للمحفل الروحاني الوطني للبهائيّين، بالعدد الخامس الصادر في أيلول لعام (١٩٥١م) حديثاً لرئيس القسم العالي للبهائيّين، مع وزير أمور الأديان الإسرائيلي، يقول فيه:

«إنّ أراضي الدولة الإسرائيليّة في نظر البهائيّين واليهود والمسيحيّين والمسلمين أراضٍ مقدّسة، وقد كتب حضرة عبد البهاء قبل أكثر من خمسين عاماً أنّه في النهاية ستكون فلسطين موطناً لليهود، وهذا الكلام طُبع في حينه وانتشر».

(٢) وجاء في كتاب «التوقيعات المباركة» بالمجلد الثاني، لمؤلفه «شوقي أفندي» في الصفحة (٢٩٠) ما يلي:

«لقد تحقّق الوعد الإلٰهي لأبناء الخليل، ووارثي الكليم، وقد استقرّت الدولة الإسرائيليّة في الأراضي المقدّسة، وأصبحت العلاقات بينها وبين المركز العالمي للجامعة البهائيّة وطيدة، وقد أقرّت واعترفت بهذه العقيدة الإلٰهيّة».

(٣) ونشرت مجلة «الأخبار الأمريّة» بالعدد العاشر الصادر في عام (١٩٦١م) ما قالته زوجة «شوقي أفندي» الأمريكيّة زعيمة البهائيين بعد موت زوجها، في مقابلة صحفية لها مع «مزدهيفت» وهو:

«فإن كان من المقرّر لنا الاختيار، فمن الجدير أن يكون هذا الدين الجديد في أحدث دولة، وفيها يترعرع، وإنّ لنا مع إسرائيل روابط، ووحدة مصير، وفي الواقع يجب أن أقول: إنّ مستقبلنا ومستقبل إسرائيل يرتبطان ببعضهما كحلقتين في سلسلةٍ واحدة».

(٤) إنّ مركز تشكيلات البهائيين الرئيسي، ويُسمّى «بيت العدل» يوجد حاليّاً في مدينة «حيفا» بفلسطين المحتلة، وتشرف عليه هيئة مكوّنة من تسعة أشخاص بينهم أمريكيون وأوروبيون. وكلّ المحافل الأخرى التي تقام في العالم تعتبر فرعاً للمركز الرئيسي في إسرائيل.

(٥) أعلن في النشرة الرسميّة للبهائيين في إيران أيام رئاسة «ابن غوريون» للوزارة الإسرائيلية ما يلي:

«مع كمال الفخر نبلّغ البهائيين باتساع الروابط بين البهائيين والمسؤولين في دولة إسرائيل».

وفي تلك الأثناء قام وفد من البهائيّين بمقابلة «ابن غوريون» وقدّم له تمنيات البهائيين القلبيّة لتقدم وتطوّر إسرائيل.

(٦) في السابع من شهر نيسان لعام (١٩٦٤م) قام الرئيس السابق لإسرائيل «زالمان شازار» بزيارة رسميّة لمركز البهائيّين، واستقبله هؤلاء استقبالاً حارّاً، ظهر فيه مدى التعاطف والتعاون بينهم وبين اليهود.

(٧) ثبت لدى مكتب المقاطعة العربيّة لإسرائيل أنّ البهائيّة تتعامل مع الصهيونيّة، وتتآزر معها، لذلك أصدر في شهر صفر عام (١٣٩٥هـ) الموافق لآذار

لعام (١٩٧٥م) قراراً باعتبار «البهائيّة» من الحركات الهدّامة، وبوضعها في القائمة السوداء، ومقاطعتها، وحظر أيّ نشاطٍ لها في البلاد العربيّة، لثبوت تعاملها مع العدوّ الإسرائيلي، وافتضاح اتصالاتها المشبوهة بالصهيونيّة، وبأجهزتها السّرّية والعلنيّة.

أقول:

كانت هذه المنظمة منظمة منافقة داخل الأمّة الإسلاميّة، ثم تكشّفت خباياها شيئاً فشيئاً حتّى ظهر كفرها وعداؤها للإسلام والمسلمين.

ولا يزال بعض الأفراد المنتسبين إلى البهائيّة سراً يَظْهَرون أمام المسلمين بوجوه منافقةٍ في بداية الأمر، ثم يَظْهَرُ كفرهم وعداؤهم للإسلام والمسلمين، ومن هؤلاء من روّج لسرّ العدد (١٩) في «بسم الله الرحمن الرحيم» ومضاعفاته في حروف بعض سُور القرآن، حتى إذا استقرت القاعدة في أذهان بعض المسلمين انتقلوا إلى اعتبار بعض ما في القرآن ليس منه متى خالف القاعدة التي زعموها قاعدة لازمة.

ولئن اتفق وجود شيء من ذلك في بعض سور القرآن، فلا يزيد على كونه من بدائعه، ولا يقتضي التزام ذلك في كلّ سُوره، فثبوت نصّ القرآن محكوم بالنقل المتواتر عن الرسول فمن بعده، ولا شيء غير ذلك، ولن يخالف نصّ من نصوصه الحقّ والهدى.

● ● ●

المقولة السابعة

منظمة القاديانيّة(١)
إحدى المنظمات المنافقة
المنشقة عن جسم الأمة الإسلامية

(١)
مقدمة

القاديانية منظّمة لَبِسَتْ قناع النفاق، فتظاهرت بأنّها ذات رسالة تتضمن الإصلاح الإسلامي، والنهضةَ بالمسلمين، وهي في قياداتها والعالمين بخفاياها من القاديانيّين تُبْطِن الكفر، والعمل لهدم الإسلام، ولإقناع المسلمين بإلغاء الجهاد في سبيل الله، وخدمةِ الاستعمار البريطاني، وتفريقِ المسلمين بصناعة فرقةٍ تنتمي إلى الإسلام ظاهراً، وهي حَرْبٌ عليه، وعميلةٌ لأعدائه، وتعمل بما تستطيع من جَهْدٍ لكي تُلْغي من تعاليم الإسلام كلَّ ما يُؤَثر على السياسات الاستعمارية، وكلَّ ما يقف في وجه الاستعمار، ويضرّ بمصالحه في بلدان وشعوب الأمّة الإسلامية.

وهي منظمة مؤسّسةٌ وموجّهة ومُمَوَّلَةٌ من قبل الاستعمار الإنكليزي، والدولة البريطانيّة الّتي كانت الهند منشأُ القاديانيّة إحدى مستعمراتها في العالم.

فهذه المنظمة شبيهة بالبهائية، إلاّ أنّها ذات مكر أشدّ، وأقنعتها أكثر كثافة وخداعاً، الأمر الذي هيّأ لها إمكانات انتشار أوسع، بين بعض الشعوب المسلمة، التي

---

(١) المعلومات النصيّة والخبرية عن القاديانية مقتبسة من كتاب «القاديانية» للشيخ أبي الحسن الندوي، وأبي الأعلى المودودي والشيخ محمد الخضري حسين، وعن كتاب «القاديانية دراسة وتحليل» لإحسان إلـهي ظهير. وكتاب «القادياني ومعتقداته» للشيخ منظور أحمد جنيوني.

ليس فيها علماء مسلمون، والتي يلاحظ فيها أنّ انتماءها إلى الإسلام انتماء غير قائم على فَهْمٍ صحيحٍ لمبادئه وشرائعه وأحكامه وتعاليمه.

ويقدَّر القاديانيون على اختلاف فرقهم بقُرابة مليون قادياني على ما ذُكر، وهم منتشرون في العالم الغربي، وإفريقية، والأقل منهم في باكستان والهند.

* * *

(٢)

بدء المكيدة وتأسيسها

(١) لقد أقلق الدولةَ البريطانيةَ الاستعماريةَ حركاتُ الجهاد الإسلامي، التي تفجّرت في مستعمراتها الإسلامية في مواطن متعدّدة، ورأت أنّ شعوب الأمّة الإسلامية تتحرّك بالدِّين، وتَسْكُنُ بالدِّين، لِتَغَلْغُلِ الدِّين إلى مراكز العمق منها.

(٢) فاجتمع قادة الاستعمار البريطاني وزعماؤه في «لندن» وقد كانوا يُسَيْطِرُون بالسلطة الاستعماريّة الاستغلالية على شبه القارّة الهندية التي تحتوي على مئات الملايين من المسلمين الأعداء الطبيعيّين للاستعمار البريطاني وغيره، ويسيطرون بالسلطة الاستعماريّة علىٰ مستعمرات أخرىٰ فيها مئات الملايين المسلمين من الشعوب الأخرىٰ.

فرأوا أنّ الإسلام بمفهوماته الحقّ المتغلغلة في أعماق المسلمين عقبة كبرى، لا تجعل رغباتهم الاستعماريّة تتحقّقُ لهم دواماً، وهم آمنون مستقرّون في بلدان المسلمين، ولا سيما ما في الإسلام من أخلاق العزّة الّتي يغرسها في قلوب المسلمين المؤمنين، والّتي تأبىٰ أنْ يَخْضَعَ المسلِمُ لغير الله عزّ وجلّ، ولِمَنْ أمر الله بطاعَتِهِ من أولي الأمر من المسلمين المطبّقين شريعةَ الله لعباده، وكذلك ما في الإسلام من تحريم اتّخاذ أولياء من دون المؤمنين، وما فيه من وجوب الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وتحرير الأمة الإسلامية من سلطان غير المسلمين عليها.

فرأَوْا أن يُحْدِثوا فِرقةً منافقةً تتظاهَرُ بالإسلام، وتَعْمَلُ على تغيير المفهومات التي تحرّك المسلمين، فلا تمكُنُ الدولةَ الاستعماريَّةَ من الاستمرار في تحقيق أهدافها الاستعماريّة الاستغلالية في شعوب الأمّة الإسلاميّة وبلدان هذه الشعوب.

ولكنّ هذه الفرقة لا بدّ أن يؤسّسها واحد من أبناء المسلمين، ولا بُدَّ أن يُنَاصِرَه جُمهورٌ من أبناء المسلمين أيضاً، وهذا الواحد لا بُدّ أن يكون عميلاً مضموناً من عملائهم، وهؤلاء الأنصار لا بُدَّ أن يكثر فيهم العملاء والجواسيس للدولة الاستعماريّة، حتّى يجتمع عليهم أهل الأهواء والمطامع الدنيوية والمنافقون الذين يجدون لدى العملاء ما يرغبون فيه من أموال ومناصب وشهوات، مع ما هم فيه من رغبات تحلُّلٍ من قيود الدين، ومن الالتزام بأحكامه وشرائعه الحقّ.

ولا بُدَّ لهذه الفرقة الأجيرة المنافقة المرادِ إحداثُها في مجتمع المسلمين، والتي ستُحْدِثُ هذا التغيير الخطير في المفهومات الإسلامية المجمع عليها لدى مختلف المذاهب الإسلامية المعتبرة عند جماهير المسلمين، من أن تقوم على ادّعاء تلَقّي وحْيٍ جديدٍ عن الله، يتضمَّن هذه التغييرات المراد إحداثها، وهذا لا يكون إلاّ بحيلةِ بعثِ نبيٍّ جديد، أو رسولٍ جديد، يفسر نصوص الإسلام تفسيرات جديدة تتضمن هذه التغييرات المراد إحداثها وتبتعِدُ هذه الفرقة قليلاً عن ادّعاء ربُوبيّة زعيمهم، وحلول روح الله في شخص زعيمهم، لأنهم رأوْا أنّ هذه المكيدة لم تنجَحْ في البهائيّة النجاح المطلوب، وتبتعدُ أيضاً عن التغيير الذي يمسّ شرائع الإسلام الكبرى وأحكامه، لأنّ مثل هذا التغيير غير مؤهّل للنجاح كما دلّتْهُمُ التجارب السابقة.

فتمّ إقرار الخطّة بوجهٍ عامّ، وكان لا بدّ بعدها من البحث عن الرأس الّذي يُكَلَّفُ حمل هذه المهمّة الخطيرة.

(٣) وكان للإنكليز أجراء جواسيس خائنون لشعوبهم ودينهم، اشتروهم بالمال والمناصب والشهوات، فآزروهم وساعدوهم في كلّ مستعمراتهم.

وقد هالَ الإنكليزَ أعدادُ المسلمين الكثيرة في شبه القارّة الهنديّة، فرأوا أن يكون الرأس المختار لحمل مهمة تأسيس الفرقة الأجيرة المنافقة التي قرّروا تأسيسها من مستعمراتهم في الهند، وذلك لتكون طلائع الفرقة التي تجتمع حوله مناصرة لهم، من أفراد هذا البحر البشريّ المائج في شبه القارة الهندية، فتحمي استقرارهم، وتُطْفىء نيران الثورات التي قد تُؤجّجُ ضدّ وجودهم الاستعماري.

(٤) وبعد البحث في مصنفات الأجراء والعملاء والجواسيس وجَدَ الإنكليز في

قرية «قاديان» إحدى قرى «البنجاب» شخصاً يحمل لهم هذه المهمة، في أسرة هي عميلة للاستعمار البريطاني سابقاً، إنّه «غلام أحمد بن غلام مرتضى».

فقد كان أبوه «غلام مرتضى» واحداً من الذين خانوا المسلمين، وتآمَرُوا عليهم، وقد خدم هذا الحكومة البريطانيّة بما يستطيع من قوّة، وكان له كرسيٌّ في ديوان الحكومة الإنكليزية المستعمرة، وأمدّها بخمسين جنديّاً من أنصاره وبخمسين فرساً، في الثورة التي قامت ضد الإنكليز سنة (١٨٥٧م) وتلَقَّى على ذلك رسائل شكر وتقدير من رجال الحكومة الإنكليزية، وقد ذكر هذا ابنه «غلام أحمد» في «حاشية إزالة أوهام».

ولما وقع اختيار الإنكليز على «غلام أحمد» ابن عميلهم القديم «غلام مرتضىٰ» الْتَقَوْهُ واتفقوا معه على أن يقوم بمهمته، ورسموا له خطوات العمل.

(٥) فبدأ «غلام أحمد القادياني» يفتري مشاهدات غيبيّة ويعلنها، ويصنع أقوالاً ويزعم أنّه قد أُلهِمَها، أو تنزّلت عليه من الرّبّ عزّ وجلّ، فمن ذلك ما يلي:

(أ) قوله: «رأيتُ ملَكاً في صورة شابٍّ إنكليزي لم يتجاوز عمره عشرين سنة، جالساً على كرسيٍّ وأمامه منضدة، فقلت له: إنّك جميل جدّاً، فقال بالإنكليزية: نعم، وألهمني: أنا أُحبّك، أنا معَكَ، أنا أساعدك، فارتجف جسمي، فألهمني بالإنكليزيّة: نحن نستطيع أن نفعل ما نُريد، ففهمت التلفُّظ واللّهجة كأنه إنكليزي عند رأسي».

(ب) قوله: «رأيتُ في الكشف أنّ الملكة المعظمة «قيصرة الهند» سلّمها الله تجلّت وتفضّلَتْ في بيتنا، فقلتُ لأحدٍ من أصحابي: إن الملكة المعظمة شرّفتنا بكمال الحبّ والألفة، وسكنت يومين في بيتنا فلا بُدَّ أن نشكُرها».

(ج) وجاء من أقواله المدونة في مكتوباته ذات الأسماء المختلفة[1]:

«* ماتت القلوب، وكثرت الذنوب، واشتدت الكروب، فعند هذه اللّيلة اللّيلاء،

---

(١) مثل: «خطبة إلهامية» و«تحفة الندوة» و«ترياق القلوب» و«سفينة نوح» و«مرآة» و«إعجاز أحمدي» و«حقيقة الوحي» و«دافع البلاء» وغيرها.

والظلمات الهوجاء، اقتضىٰ رحم الله نور السماء، فأنا ذلك النور، والمجدّد المأمور، والعبد المنصور، والمهدي المعهود، والمسيحُ الموعود، وإنّي نُزّلتُ بمَنْزِلَةٍ من ربّي لا يَعْلَمُها أحَدٌ من الناس...

* فبشرى لكم قد جاءكم المسيح، مَسَحَهُ القادر، وأعطاه الكلام الفصيح... وطوبىٰ لكم قد جاءكُمُ المهديّ المعهود، ومعه المال الكثير، والمتاع المنضود... يا أيّها الناس إنِّي أنا الْمَسِيحُ المحمّديّ، وإني أنا أحمد بن المهدي.

* أنا المسيح الموعود الذي قُدّر مجيؤُهُ في آخر الزمان، من الله الحكيم الدّيّان، وأنا الْمُنْعَمُ عليه الذي أُشير إليه في الفاتحة عن ظهور الحزبين المذكورين.

* إني أنا المسيح، وبالحقّ امشي وأسيح... إنّ عيسى مات ولا يحيا بإحيائكم.

* أنا المسيح، وأنا الكليم، وأنا محمد، وأنا أحمد المجتَبىٰ».

* انظروا الآن أنّ الله جعل ما أوحىٰ إليّ وتعاليمي وبيعتي كسفينة نوح وجعلها مدار النجاة للناس أجمعين.

* جُعِلْتُ أنا مريم وبقيتُ مريم سنتين...، ثمّ نُفِخَ فيّ رُوح عيسىٰ كما نُفِخَ في مريم وحُبِلْتُ في صورة الاستعارة، وبعد أشهر لم تتجاوز عشرة أشهر حُوِّلْتُ عن مريم، وصُيِّرتُ عيسىٰ، وبهذا الطريق صِرْتُ ابْنَ مَرْيم.

* أُعْطِيتُ صفة الإفناء والإحياء من الربّ الفعّال».

إلى كثير من هذه الادّعاءات التخريفيّة الباطلة.

* * *

(٣)
عمالته وتمجيده للإنكليز هو ومن تبعه

لم يُخْفِ «غلام أحمد القادياني» هذا الرسول الكذّاب ولاءه ومناصرته للدولة البريطانية الصليبيّة المستعمرة، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

(١) كتب أحد الصليبيين المستعمرين كتاباً تناول فيه أعراض أمّهات المؤمنين، وطعن بنبوّة الرسول محمّد ﷺ، فثار المسلمون في الهند، وقامت مظاهرات احتجاج عنيفة، وقدّموا استنكارهم للحكومة المستعمرة الإنكليزيّة، وأعلنوا غضبهم على ما جاء في هذا الكتاب.

فتصدّى عميلهم «غلام أحمد القادياني» المتنبّىء الكذّاب مهاجماً المسلمين الثائرين الغاضبين، ومناصراً الدولة المستعمرة، مدّعياً أنّه لا حقّ لهم في القيام بالمظاهرات الاحتجاجيّة ضدّ حكومة بريطانيا العظمىٰ التي هي ظِلُّ الله في الأرض.

(٢) وكتب في إحدى مقالاته:

«نحن نتحمّل كلّ البلايا لأجل حكومتنا المحسنة، وسنتحمّل أيضاً في المستقبل، إذْ يجب علينا أن نشكرها لإحسانها ومنّتها علينا، ولا شكّ نحن فداءٌ بأرواحنا وأموالنا للحكومة الانكليزيّة وندعو لعلوّها ومجدها سرّاً وعلانية».

(٣) وجاء في رسالته «تحفة قيصريّة»:

«أنا أشكر الله عزّ وجلّ أنّه أظلّني تحت ظلّ رحمة بريطانيا التي أستطيع تحت ظلّها أن أعمل وأعظ، فواجبٌ على رعيّة هذه الحكومة المحسنة أن تشكر لها، ويجب عليَّ بوجه خاصٍّ أن أُبدِي لها الشكر الجزيل، لأنّي ما كنت أستطيع أن أنجح في مقاصدي العليا تحت ظلّ أيّة حكومةٍ أخرىٰ سوى حكومة حضرة قيصر الهند».

وقال أيضاً:

«لعنة الله على من يريد الافتراق والفساد، وعلى من لا يريد أن يكون تحتَ أمْـرِ الأمير، مع أن الله قال: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر﴾ فالمراد من أولي الأمر ههنا هو الملك المعظم، ولذا أنا أنصح مريديّ وأشياعي بأن يُدْخلوا الإنكليز في أولي الأمر، ويُطِيعُوهُمْ من صميم قلوبهم».

يلاحظ أنه حذف من النص القرآني عبارة «منكم» فأصلها ﴿وأُولي الأمر مِنكم﴾ بغية الإيهام والتضليل.

(٤) وجاء في كتاب «تبليغ رسالة»، لقاسم القادياني ذِكْرُ نصّ عريضة رفعها «غلام أحمد القادياني» لنائب أمير الهند البريطاني، وقد جاء فيها ما يلي:

«العريضة التي أرفعها إلى حضرتكم مع أسماء أتباعي، ليس المقصود منها إلاّ أن تلاحظوا الخدمات الجليلة الّتي أدّيْتُ أنا وآبائي في سبيلكم، وكما ألْتمس وأرجو من الدولة العالية أن تُراعِيَ الأسرة الّتي أثبتَتْ بكمال وفائها وإخلاصها طَوّال خمسين سنة، بأنّها من أخلص المخلصين للحكومة، والّتي أقرَّ واعترف بولائها أكابِرُ أُمَراءِ الحكومة العظمى وحكامُها، وكتبوا لها وثائق وشهادات على أنّ هذه الأسرة أُسْرَةُ خدّام، وأسرةٌ مخلصة، فلذا أرجو منكم أن تكتبوا للحكّام الصغار برعاية هذه الشجرة وحفظها، الّتي ما غرسها إلاّ أنتم، كما أرجو أن يَنظُرُوا إلى أتباعي بنظرة ودّيّة خاصّة، لأنّنا ما تأخَّرنا أبداً عن التضحيات في سبيلكم، لا بالنفوس، ولا بالدماء، كما لا نتأخّر عن ذلك.

فلأجل هذه الخدمات الجليلة، نحنُ نستحقّ أن نطلُبَ من الحكومة العظيمة المدد والعون، لئلا يتجرّأ أحدٌ علينا».

(٥) ومما جاء في مكتوباته:

«لقد قضيت معظم عمري في تأييد الحكومة الإنكليزيّة ونُصْرَتِها، وقد ألَّفْتُ في منع الجهاد، ووجوب طاعة أولي الأمر الإنكليز، ما لو جُمِع بعضه إلى بعض لملأ خمسين خزانة».

وجاء فيها أيضاً:

«إنّي ملأْتُ المكاتب من الكتب التي كتبتها في مدح الإنكليز، وخاصّةً في وضع الجهاد الذي يعتقده كثير من المسلمين، وهذه خدمةٌ كبيرةٌ للحكومة، فأرجو أن أُجْزَىٰ بها جزاءً حسناً».

(٦) وكان للقاديانيّين أُجراءِ الإنكليز في الهند امتيازاتٌ خاصّةٌ منحتها لهم الحكومة البريطانيّة المستعمرة، في كل المجالات، في الوظائف والتعليم، والتدريس، والتجارة، والزراعة، والصناعة، وغيرها.

وكلّما توجَّهَتْ نحوهم مشاعِرُ الغضب من جماهير المسلمين، لولائهم التام للاستعمار البريطاني، وجدوا الحماية الكافية من الدولة.

ومن أمثلة كون بعض القاديانيين جواسيس للإنكليز، ما نشرته جريدة الفضل

القاديانيّة، بتاريخ (٢٨/٩/١٩٢٣م) قول «محمد أمين» أحد مبلّغي القاديانيّة، والمبشرين بها، بعد رجوعه من روسيا سنة (١٩٢٣م):

«إنّي اعتقلتُ مرّاتٍ بتهمة الجاسوسيّة للإنكليز».

وقال معتذراً:

«أنا ما ذهبت إلى روسيا إلّا لتبليغ القاديانيّة. ولكن بما أنّ مصالح القاديانيّة وأهدافها متعلّقة بأغراض وأهداف حكومة بريطانيا، فقد كنت مضطرّاً أن أخدم الحكومة، وأؤدّي ما يجب عليّ نحوها».

وهكذا إلى أقوال كثيرة جدّاً تكشف أنّ القاديانيين خُدّام الإنكليز وعملاؤهم صراحة، ويثبتون هذه العمالة في مكتوباتهم ومنشوراتهم.

ويظهر أنّ أيّة جهة تشتري منظّمةً عميلة لها فإنّها تُلزمها صراحةً على سبيل الإحراج بأن تُقدّم تصريحات على ألسنة قادتها وكبرائها والنشيطين العاملين فيها بعمالتهم لها، في منشوراتهم وكتبهم، حتّى يكون كلُّ مُنتمٍ إلى المنظمة على عِلْمٍ بواقع حال منظمته، فيدخل وهو عليم بمهمّته الأساسيّة، قبل أن يتدرّب على إتقان عمليات النفاق والمخادعة للناس، ولولا ذلك لخرجت المنظمات العميلة بعد مدّةٍ من قبضة مؤسّسيها من وراء الستار، والمستفيدين من تحركاتها، متى توجّهت لها الاتهامات بالعمالة والخيانة.

* * *

(٤)
عقائد القاديانيين ومبادئهم وتعاليمهم

(١) ادّعى «غلام أحمد القادياني» أنه نبيٌّ، وأنّه المسيح المنتظر، وأنّ عيسى عليه السلام قد مات، فالمسيح المنتظر إنسانٌ آخر غير عيسى ابن مريم، وأخذ يؤوّل النصوص القرآنيّة تأويلات باطلات، ليوهم أتباعه بصحّة دعواه.

وقال: «الذي لا يؤمن بي لا يؤمن بالله ورسوله».

(٢) وكتب ابنه وخليفته الثاني: «محمود أحمد» قائلاً:

«لقيني رجل في (لكهنؤ = أحد بلاد الهند) وسألني: لقد اشتهر بين الناس أنكم تكفّرون المسلمين الذين لا يعتقدون القاديانيّة، فهل هذا صحيح؟

فقلت له: نعم، لا شكَّ بأنّنا نكفّرهم، فاستغرب الرّجُل من قولي وتحيّر».

واستدلَّ على كُفْر من لم يؤمِنْ بأبيه بأنّ القرآن ينُصُّ علَىٰ كُفْر من ينكر أحداً من الرُّسل، وبما أن أباه «غلام أحمد» رسول الله، فمن لم يؤمن به فهو كافر.

لكنْ لم يبيّن للناس دليل كونه رسولاً، وهو الأفّاك أجير الكفرة أعداء الله ورسوله.

وقال في الاستدلال:

«نحن نسأل لِمَ نُكفِّرُ غَيْرَ القاديانيّين؟» وأجاب بقوله: «هذا واضحٌ من القرآن، لأنّ الله يُبيِّن أنّه من ينكِرُ أحداً من الرسل فإنّه يكفُر، وأنّ من ينكر الملائكة يكفر، ومن ينكر القرآن يكفُر، وعلى هذا فمن ينكر أنّ «غلام أحمد» هو نبيّ الله ورسوله فإنّه يكفُر بنصّ الكتاب، ولأجل ذلك نكفّر المسلمين، لأنهم يفرّقون بين الرسل، ويؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، فهم إذاً كُفّار».

(٣) وادّعَىٰ «غلام أحمد القادياني» أنّه صاحب شريعة، وبما أنّه رسول الله فشريعتُه واجبةُ التنفيذ على الناس، ومن أقواله في هذا:

«فالشريعة: هي عبارة عن بيان أمْرٍ ونهي، فمن فَعَلَ هذا وقَنّن لأمّته قانوناً، صار صاحب شريعة، فأنا صاحب الشريعة، لأنه يُوحَىٰ إليّ بالأوامر والنواهي.

وليس من الضروري للشريعة أن تكون مشتملةً على أحكامٍ جديدة، لأنّ ما يوجد في القرآن من التعليمات يوجد في التوراة، وإلى هذا أشار الرّبّ سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * صُحُفِ إبراهيم وموسى﴾.

(٤) له تأويلات في نصوص القرآن حول مريم العذراء البتول، وحول عيسىٰ عليه السلام، وحول الدّجال، وحول المراد من دابة الأرض، وحول المهدي، كلُّها من افتراءاته ونسج خياله، يخالف بها دلالات النصوص، وما أجمع عليه المسلمون، فمسلكه فيها مسلك المتلاعب بالنصوص.

ويوجّه لعيسىٰ عليه السّلام الشتائم التي كان اليهود يوجهونها له.

(٥) أمر بتقديس وتمجيد قريتـه «قاديـان» وادّعى أنّها سُـرّةُ الدنيـا، وأمّ القرى، ويقول:

«لقد قدّس الله هذه المقامات الثلاثة (مكة والمدينة وقاديان) واختـار هذه الثـلاثة لظهور تجلّياته».

وادّعى أن زيارة قاديان، هي الحجّ الأكبر، وقال:

«إنّ مؤتمرنا السنويّ هو الحجّ، وإنّ الله اختار المقـام لهذا الحـج (قاديـان)... ويُمْنَعُ في قاديان الرفث والفسوق والجدال».

(٦) وفي ادّعائه إلغاء الجهاد في سبيل الله قال:

«إنّ الله خفّف شـدّة الجهاد أي: القتـال في سبيل الله بـالتـدريـج، فكـان يُقْتَـلُ الأطفالُ في عهد مـوسى، وفي عهد محمّـد ﷺ أُلْغِيَ قَتْلُ الأطفـال والشيوخ والنّسـوة، وتُمّ في عَهْدِي أُلْغِي حُكْمُ الجهاد أصْلاً».

وقال أيضاً:

«اليومَ أُلْغِيَ حكم الجهاد بالسيف، ولا جهاد بعد هذا اليوم، فمن يرفع بعد ذلك السلاح على الكفّار ويُسمّي نفسه غازياً يكون مخالفاً لرسول الله...».

وقال أيضا:

«إنّ هـذه الفرقـة، الفرقـةَ القاديـانيّة، لا تـزال تجتهد ليـلاً ونهاراً لِقَمْـعِ العقيدة النّجسة، عقيدةِ الجهاد من قلوب المسلمين».

وأعلن تحريم الجهاد بالقتال تحريماً باتّاً سِرّاً كان ذلِكَ أَوْ علانية.

(٧) وشرع «غلام أحمد القادياني» لأتباعـه، أنّه يحـرُم على القاديـاني أن يُزوِّج ابنتَـهُ من غير القـادياني، لكن يجـوز للقاديـاني الذكـر أن يتـزوّج من بنـات المسلمين والهندوس والسِّيخ... ومن زوّج ابنته لمسلم فإنّه يُطْرَدُ من الجماعة ويكفر.

(٨) وشرع لهم تحريم الصلاة خلف إمام مسلم، وفي هـذا يقول «غـلام أحمد القادياني» مخاطباً القاديانيّين:

«لا يجوز لكم أن تُصَلُّوا خلف غير القادياني مهما يكن، ومن يكن، ومهما يمدحه الناس، فهذا حكم الله، وهذا ما يريده الله، وإنّ المتشكّك والمذبذب داخل في المكذّبين، والله يريد أن يميّز بينكم وبينهم».

وقال أيضاً:

«إنّ الله أطلعني بأنّه حرام حراماً قطعيّاً أن تُصَلُّوا خَلْفَ الَّذِي يكذّبني، أو يتردَّدُ عن طاعتي، بل واجب عليكم أن تُصَلُّوا خلف إمام من أئمتكم، وهذا ما أشير إليه في الحديث «إمامُكُمْ منْكُمْ» يعني إذا نزل المسيح فعليكم أن تتركوا الْفِرَق التي تدّعي الإسلام، وتجعلوا إمامكم منكم، فافعلُوا ما أُمِرْتُمْ، أَتُرِيدُونَ أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون؟!».

لكنّ القاديانيين قد يُصَلّون مع المسلمين نفاقاً فإذا انصرفوا إلى منازلهم أعادوا صلاتهم.

* * *

(٥)
القاديانية بعد تقسيم الهند
إلى «هندستان» و «باكستان»

بعد معارك عنيفة وطويلة الأمد أثارها الاستعماريّون الإنكليز بين الهندوس والمسلمين، وذهب ضحيّتها مئات الألوف، اتّجه الحلّ إلى تقسيم الهند إلى دولتين: «هندستان»، وتحتوي أكثريّة غير مسلمة، و «باكستان» وتحتوي أكثريّة مسلمة، وكان ذلك سنة (١٩٤٧م).

وقامت الدولة المسلمة «باكستان» محاطةً بالمشكلات الصعبة، التي وضعها فيها الاستعمار الإنكليزي.

وبخطّة مدبَّرة انتقل مركز القاديانيّين من قرية «قاديان» محجّ القاديانيين، وهي من حصة «هندستان» إلى «باكستان» ليتابعوا مكيدتهم في الدولة المسلمة الناشئة.

وفُرِضَ على هذه الدولة الحديثة توليةُ الزعيم القادياني المشهور عميل الإنكليز،

السِّير «ظفر الله خان» وزيراً للخارجيّة، واحتجّ المسلمون على هذا الإجراء، وأجابهم رئيس وزراء باكستان يومئذٍ «الخواجا ناظم الدين» بأنّه لا يستطيع التخلّي عنه، لأنّ ذلك يَحْرِمُ «باكستان» من المساعدات الأجنبيّة، ولا سيما الموادّ الغذائيّة، التي كانت «باكستان» بأمسّ الحاجة إليها، فدلّ ذلك على شدّة متابعة دعم الدّولة الاستعماريّة الإنكليزيّة وسائر الدول الكافرة للقاديانيين، بغية استكمال تنفيذ مخطّطات المكيدة.

وظلّت الحكومات الوطنيّة في «باكستان» المسلمة، تواجه الضغوط الخارجيّة، لمنح القاديانيين ما يطلبون من تسهيلات وامتيازات.

وانتهز القاديانيون هذه الفرصة المواتية، فوضعوا عدّة مشاريع، طبّقوها بنجاحٍ ملحوظ، فعمّمُوا جذورهم في «باكستان»، وانطلقوا من ذلك ينشرون دعاياتهم في العالم، بدعم مستمرٍّ من سادتهم، المستفيدين من أعمالهم في باكستان وغيرها، وكان من ذلك ما يلي:

(١) إنشاء مدينة لهم باسم «رَبْوة» وهذه المدينة خاصّةٌ بهم، لهم فيها نظام بوليسي خاصّ، ومحاكم خاصة، ومدارس وكلّيات ومستشفيات خاصة، ولا يستطيع أحَدٌ من المسلمين أن يشتريَ فيها أرضاً، أو يستأجر فيها داراً، وكلّ الوظائف فيها لا يشغلها إلاّ القاديانيون، وأقاموا فيها سكرتاريّةً فخمةً مجهّزةً بأحدث الآلات، ومنها يَنْشُرُونَ التضليل القادياني.

(٢) شَحْنُ المناصب الهامّة في الجيش وفي الإدارة المدنيّة وفي السفارات الباكستانيّة بالقاديانيّين، وكان ذلك بتأثير السير «ظفر الله خان».

(٣) إنشاء المدارس والكلّيات والمستشفيات على مستوىً عالٍ، واستدراج المسلمين عن طريقها إلى القاديانيّة، على مثل ما تقوم به البعثات التبشيريُّة المسيحيّة.

(٤) تقديم المنح الدراسية والمساعدات المالية المشروطة باعتناق القاديانيّة.

(٥) استغلال الوظائف والمناصب الحكومية استغلالاً غير مشروع، وذلك بربط التعيين والترقيات بأن يعتنق طالب ذلك نحلتهم.

(٦) عمل القاديانيّون المتغلغلون في أجهزة الحكم على مَنْحِ المنتسبين إلى

نحلتهم المفتراة على الله مساعدات غير عاديّة، ليتقدَّموا تقدُّماً كبيراً في مجالات الصناعة والتجارة والزراعة.

(٧) وقاموا بنشاط كبير في مجال طبع الكتب والنشرات القاديانية، التي تثير الشبهات حول العقائد الإسلامية، وتُضَلّل أبناء المسلمين، وتحاول إبعادهم عن الإسلام الحقّ.

* * *

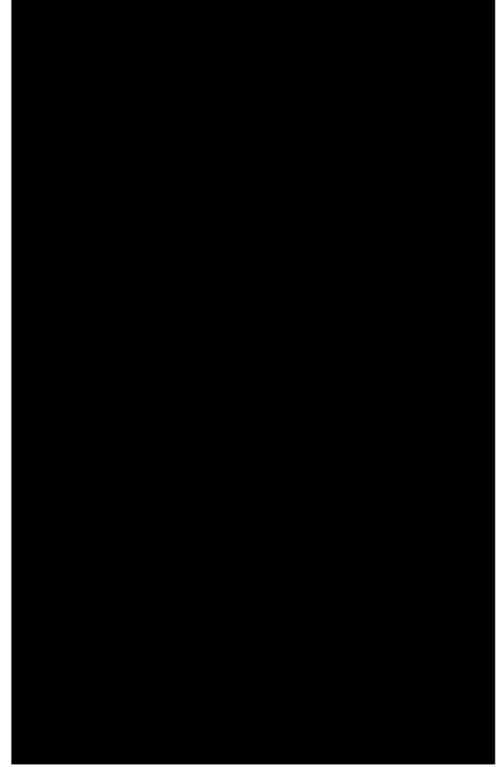
(٦)
موقف المسلمين من هذه الفرقة المنافقة الخارجة عن الإسلام

لقد قام المسلمون في باكستان بمظاهرات واحتجاجات، ضدّ تصرّفات القاديانيّين الاحتكاريّة الأنانيّة، وأعمالهم الكُفْريّة الخائنة، في مناسبات متعدّدات.

ولم يستطيعوا أن يعزلوهم عن جسم الأمة الإسلامية عَزْلاً تامّاً بشكل واضح وصريح، حتى سنة (١٩٧٤م) إذ استطاعت الجماهير الإسلاميّة ذات العدد الساحق، أن يوجّهوا ضُغُوطاً متعدّدة، اضطُرّ على أثرها البرلمان المركزيُّ الباكستاني أن يُصْدِرَ في السابع من شهر أيلول سنة (١٩٧٤م) قراراً إجماعيّاً، يقضي باعتبار جميع الفئات القاديانيّة أقلّيّةً غير إسلامية[1].

● ● ●

(١) انظر ما كتبه البروفسور «عبد الغفور أحمد» عضو البرلمان الباكستاني، وعضو مجلس الشورى للجماعة الإسلامية بباكستان في مقال نشرته مجلّة المجتمع في العدد (٢٣٤) بتاريخ ١٥ محرم ١٣٩٥ هجرية.



القسم الرابع

مُنَظَّمَاتُ نِفَاقٍ عَالَمِيَّة
ذَاتُ شِعَارَاتٍ إِنْسَانِيَّةٍ عَامَّة
تُظْهِرُهَا لِتَحْقِيقِ رَغَبَاتٍ خَاصَّةٍ تُبْطِنُهَا

وفيه خمسة فصول:

الفَصْل الأوَّل

المَاسُونيَّةُ
مُنَظَّمَةُ نِفَاقٍ عَالميَّة

(١)
مقدمة

صار من الحقائق المعلومة لدى كلّ الباحثين أنّ «الماسونية» وترجمتها الحرفيّة: «البنّاؤون الأحرار» منظمة عالمية ذات قيادة سرّية يهوديّة تعمل للتوصّل إلى إعادة هيكل سليمان الذي هو رمز دَولة إسرائيل، وللسَّيْطرة على شعوب الأرض جميعاً، وحكم العالم بملك من اليهود.

وقد عرّفها المستشرق الهولندي «دوزي» بقوله:

«جمهور كبير من مذاهب مختلفة يعملون لغاية واحدة، هي إعادة الهيكل، إذْ هو رمز دولة إسرائيل».

واليهود يلبسون نفاقاً قناع التعاون والإخاء الإنسانيّ، ويسترون غاياتهم ومقاصدهم اليهوديّة، ليُسَخِّروا المحافل الماسونية، وكلّ الأعضاء الماسونيين في تحقيق أهدافهم السياسية، والاقتصادية والاجتماعية في العالم، ثم ليتوصَّلُوا إلى حكم العالم بعد إقامة دولتهم في فلسطين، قريباً من أحواض البترول في الشرق الأوسط.

وأعمال منظمة «الماسونية» ورموزها، وتحرّكاتها، هي في معظمها تعتمد على السرّيّة التّامّة والكتمان، وتأتي أوامرها العليا وتوجيهاتها ذات الشأن الخطير بأسلوب الشيفرة، أو شفوية على ألسنة أشخاص معتمدين، من ذوي المراتب أو الدرجات الّتي يُعْتَبَر الواصلون إليها مؤهلين لحمل مهمّات تبليغ الرسائل الشفوية العليا، وهم يُعْرَفُون عن طريق حركات وإشارات معيّنة، ذاتِ رموز اصطلاحيّة يتعلّمونها فيما بينهم، على

قدر درجاتهم ومراتبهم في المنظمة، وسرّيتها مع كتمان الأعضاء الماسونيين يضمن لها البقاء في الظلام ويحميها من أعين الرقباء.

وأعيد هنا ما سبق أن كتبته عن «الماسونية» في كتابي: «مكايد يهوديّة عبر التاريخ» وكتابي: «أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها» مع طائفة من الإضافات يستدعيها إبراز أسلوب «الماسونية» في النفاق القائم على الخداع والكذب، وإظهار وجه إنسانيٍّ برّاقٍ بَاسِمٍ، وإخفاء الوجه الحقيقي المكفهرّ الأسود القاتم.

لقد أثبت تاريخ هذه المنظمة المحاطة أهدافُها الحقيقيّة بسرّيّةٍ عظيمة، أنّها من أخطر الجمعيات السّرّيّة العالمية، الّتي لعبت أدواراً خطيرة في تاريخ الأمم، وأثّرت تأثيراً مُبَاشراً على مصائر كثير من الشعوب، وتحكّمت في سياسة معظم دول العالم، من حيث لم تشعر هذه الدول أنّها قد كانت فريسة خديعة يهوديّة، دخلت إليها عن طريق المحافل الماسونيّة، الّتي تُدِيرها من وراء السجوف أصابع المكر اليهودي الذي يُحْكِمُ إخفاء نفسه، في الوقت الذي يكون فيه هو المدير الحقيقيّ للعمليّات الفكريّة، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعيّة، والحربية، وغيرها، في البلد الذي تنتشر فيه المحافل الماسونيّة، ولو لم يكن لليهود في هذا البلد عدد كبير يستطيع أن يفعل شيئاً لصالح اليهوديّة العالمية، إلاّ أنّ الجمعيّة الماسونيّة التي يقبض على ناصية قمّتها في العالم دُهاةٌ من أحبار اليهود وحكمائهم، هي التي تخدم أغراضهم خدمةً آليّةً، يتحرّك فيها الأفراد دون أن يشعر معظمهم إلى أين يسيرون، ولمن يعملون.

ولقد يبلغ الدّهش عند بعض الباحثين مبلغه العظيم حينما يعلمون أنّ حروباً عالميّة كبرى قد كان اليهود هم العاملين على إثارتها، وإشعال نيرانها، عن طريق منظّمة «الماسونية» ومحافلها في العالم. وحينما يعلمون أنّ كثيراً من القادة والزعماء المنحرفين في مختلف دول العالم قد أوصلتهم إلى مراكزهم الألاعيب والحيلُ اليهوديّة العالمية عن طريق منظمة «الماسونيّة» ومحافلها. وحينما يعلمون أنّ كثيراً من التيّارات الاقتصاديّة والسياسيّة والعلميّة والاجتماعيّة في العالم، قد تحكّمتِ الأصابع اليهوديّة باتجاهاتها عن طريق منظمة «الماسونية» ومحافلها.

ولقد يرى بعض السطحيّين وقصيري النظر أنّ هذا ضربٌ من الوهم، ومبالغةٌ من

مبالغات الحدس، ولكنّ الحقيقة التاريخيّة، والوقائع المستمرّة، جديرة بأن يكشفها الباحثون، ويفتحوا أعين الناس عليها حتّى يروها، مهما كانت بعيدة عن حِسِّهم أو حَدْسِهِمْ، ومهما استهان بها الجاهلون، وهزىء بها العميان والمستغفلون.

* * *

(٢)
تأسيسها وأهدافها

لا يُعرفُ على وجه التحديد تاريخ تأسيس هذه المنظمة (الماسونية) التي بدأها اليهود، واستغلّوها في معظم أدوار التاريخ، إلاّ أنّ من المؤكّدِ أنّها جمعيّة عريقةٌ في القِدَم، وهي منافقة ذاتُ وجهين:

(١) وجه ظاهر كاذب خادع مُضَلِّل.

(٢) ووجه باطن ينطوي على المكيدة الكبرى لمختلف الأمم والشعوب، بغية خدمة مصالح المملكة اليهوديّة السِّرِّيَّةِ المنبثّة في العالم، ومصالح المملكة اليهوديّة التي رتَّب قادةُ صِهْيَوْن ظهورها في فلسطين، على أن تكون نواةً لتأسيس مملكة تحكم العالم كلّه، ووسيلتهم لذلك الحيلة والذّهب، وتسخير المطايا من مختلف شعوب الأرض.

قال بعض الباحثين: ولعلّ أوّل محفل ماسوني هو ذلك المحفل الذي تمّ بإرشاد «هيرودوس أغريبا» الذي كان ملكاً في الثلث الثاني من القرن الأول الميلادي، أي حوالي (من سنة ٣٧ إلى سنة ٤٤م). بمساعدة مستشارَيْهِ اليهوديَّيْنِ: «حيرام أبيود» نائب الرئيس، و«موآب لامي» كاتم سرّ أوّل.

وممّا يؤثر عن هذا الملك قوله:

«إنَّ الطريقة المُثْلى التي نجعلُ بها جمعيتنا خطيرة وعظيمة ومُشَوِّقَةً في الوقت نفسه، هي أن نجعل تاريخ تأسيسها سِرّاً خفيّاً، والواجب اتّباعُهُ مع من ينضمُّ إلينا أنْ نُفْهِمَهُ أنّ هذه الجمعيّة قديمةٌ جدّاً، ولا يُعْرَفُ شيءٌ عن تاريخ تأسيسها، ولا من أنشأها، لكنّها كانت منحلّةً من مُدّة، ولكي نحمل المعارضين على التّصديق ـ وهؤلاء

لا بدّ من وُجودهم ـ فإنّنا نقول لهم: إنّ الملك هيرودوس قد وجد في خزائن أبيه أوراقاً قديمةً تشير إلى جمعية قديمة ذات إشارات وقوانين سِرِّية، فرأى من الخير أن يجدِّدها ويخرجَها من مدفنها، لأنّها مفيدة ومثمرة على ما عرفه عنها من تلك الأوراق، فبهذا الكتمان نخفي الغاية التي من أجلها أسست هذه الجمعيّة، كما أخفينا تاريخ تأسيسها».

فإنْ صحّ نقل هذا النص عن «هيرودوس» فهو يَدُلُّ على عدّة أمور:

* أنّ هذه المنظمة قديمة جدّاً.

* وأنّ مؤسّسيها اليهود قد قرّروا إخفاء تاريخ تأسيسها.

* وأنّ أهدافها الحقيقية مكتومة لا يعرفها إلا أساطين قادتها من اليهود.

على أنّ هذه الأمور قد اتفق الباحثون عليها، ولو لم يَدُلَّ عليها النّصّ.

ويرى بعض الباحثين أنّ مؤسّسيها الأولين كانوا تسعة من كبراء اليهود، أسّسوها في الهيكل سنة (٣٧م) وسمّوها «القوة الخفيّة» وكان هدفها الأول القضاء على الديانة النصرانية وأتباعها، ولمّا ظهر الإسلام واشتدّ صار هدفها القضاء على الإسلام ومن يؤمن به أيضاً.

واستمرّت منظمة «الماسونية» تعمل لتحقيق أهدافها المكتومة متأرجحةً بين شدّةٍ وَضعف عبر قرون، وظلّت كما بدأت ذات وجهين:

* وجه باسم مخادع قد أبدى صفحته.

* ووجه مكفهر متوارٍ عن الأنظار مكتوم.

أمّا الوجه المكتوم فهو وجْهٌ يتولاّه تنظيم سرّيّ يهوديٌّ صرف، لا يسمح بأن يصل إلى القيادات الفعّالة إلاّ الدُّهاة الموثوق بكفاءتهم من اليهود، وهو وجه مكفهرٌ خبيثٌ محشوٌّ بكلّ المكر اليهودي في العالم، وهو يحاول أن يوجّه المحافل الماسونيّة ضمن خطّة مرسومة، تهدف إلى خدمة السياسة اليهوديّة المقنّعة في العالم، وإلى محاربة كلّ الأديان وهدمها عدا اليهودية، وإلى إفساد جميع شعوب الأرض، وتهديم كياناتها السياسية والاقتصاديّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة والدينيّة، كيما يجد بنو إسرائيل القليلون

في الأرض سبيلاً لإعادة بناء ملكهم على أنقاض الممالك والشعوب التي يعملون على تهديمها بالمكر ونشر الفساد.

ويزعمون أنّهم يستطيعون أن يحكموا العالم على الرغم من قلّة عددهم، متى أحكموا سياسة المكر والخداع والنفاق، وأتقنوا وسائل الحيلة، واستخدموا المال والدّهاء وبثّ النظريات البراقة الباطلة، وغمسوا القطعان السائمة من الشعوب الأخرى بالجهل والخمر والنساء، والقمار والملاهي، والإلحاد بالله، ومعاداة الأديان الرّبانيّة، ومحاربة كل فضيلة خلقيّة وسلوكيّة اكتشفتها الأجيال السالفة، بعد قرون عديدة من التجارب والخبرات التاريخيّة.

ويرون أنّ انغماس الأجيال في هذه الشهوات المهلكات سيجعل منها قطعاناً هائمةً في الأرض، تتطلّع إلى راعٍ مالكٍ لقواه الإنسانية، حتّى يرعاها بدهائه وذكائه، ودهاءِ وذكاءِ اليهود من حوله، ولن يكون عند ذلك قوّة متماسكة في الأرض إلّا قوة اليهود، الذين سيعرفون بزعمهم كيف يسوسون هذه القطعان المخلوقة على صورة البشر.

هكذا يزعمون، وهكذا يقولون في مقرّراتهم السّرّيّة.

وفي سنة (١٧١٧م) اتخذت هذه المنظمة لنفسها اسم «الماسونية» ومَعْناه: «البنّاؤون الأحرار» بدل اسمها القديم «القوّة الخفيّة» وكان هذا التغيير في مؤتمر «لندن» الذي انعقد برئاسة «أندرسن» الذي عاش رئيس كنيسة بروتستانتية، نصرانياً في ظاهر حاله، إلّا أنّه كان يهودياً في الباطن يعمل لخدمة اليهودية العالميّة، وحركتها الرامية إلى حكم العالم.

وتأسست محافل ماسونيّة في أكثر دول أوروبّا وروسيا والهند، وتأسست محافل ماسونية رسميّة في أمريكا ابتداءً من سنة (١٧٣٣م) وبلغ عدد محافلها الكبرى في أمريكا سنة (١٩٠٧م) أكثر من خمسين محفلاً، يتبعها آلاف المحافل العاديّة، وزاد فيها أعضاء المحافل الماسونية على مليوني أمريكي.

ومن بريطانيا وبإشراف محفلها الكبير تأسست محافل الماسون في كندا واستراليا

ونيوزيلندا والشرق الأوسط، وصار محفل بريطانيا بالنسبة إلى غالبية محافل العالم مركزاً كبيراً.

وفي سنة (١٨٦٦م) قال الحاخام الدكتور إسحاق في إحدىٰ المجلات الأمريكيّة:

«الماسونيّة مؤسسة يهوديّة في تاريخها، ودرجاتها، وتعاليمها، وكلمات السّرّ فيها، وفي إيضاحاتها... يهوديّة من البداية إلى النهاية».

وتقول دائرة المعارف الماسونية الصادرة في فيلادلفيا سنة (١٩٠٦م):

«يجب أن يكون كلّ محفل رمزاً لهيكل اليهود، وهو بالفعل كذلك، وأن يكون كلّ أستاذ على كرسيّه ممثّلاً لملك اليهود، وكلّ ماسوني تجسيداً للعامل اليهودي».

* * *

(٣)

مراتب الماسونية

لكي يضمن اليهود بقاء قمّة القيادة في منظمة «الماسونية» تحت أيديهم، لايُشارِكُهُمْ فيها أحدٌ، جعلوا لهذه المنظمة مراتب ودرجات لا يصل إلى الدرجات العليا منها إلّا مخلصٌ تفانىٰ في خدمة الأهداف السّرّيّة لها.

ويتمّ ترفيع العضو في درجاتها بمعرفة الأساطين الذين هم أركان المحافل الماسونية، ووكلاء اليهود المخلصون لهم، ومع ذلك فلَنْ يَصِلَ إلى المراتب العليا التي تدار بمعرفتها وأوامرها المحافل الماسونية المنتشرة في العالم، إلّا الدهاة من اليهود الصرف، المخلصون لشعب بني إسرائيل، والذين يؤمنون بحقّ اليهود في مُلْك العالم، ويؤمنون بوجوب استخدام أيّة وسيلةٍ من الوسائل مهما كانت غير أخلاقيّة، لتحقيق حلم اليهود الأكبر.

وقد توصّل الباحثون إلى معرفة المراتب الثلاث للماسونية، وهي:

المرتبة الأولى: الماسونيّة العامة، أو ما يسمّونه «الماسونية الرمزيّة» وهي مرتبة تضمّ المبتدئين، الذين يجهلون الأهداف الحقيقيّة الغائيّة، ويُعْرَفُون عند أهل المرتبتين الثانية والثالثة بالعميان.

المرتبة الثانية: الماسونيّة الملوكيّة، وتُسمّى «العقد الملوكي» وهي مرتبة يَعرِفُ الواصلون إليها بعض أهدافها البعيدة، إلاّ أنّهم قد أعمتهم مصالحهم التي تتحقّق لهم عن طريقها، وأماتت فيهم ضمائرهم.

المرتبة الثالثة: الماسونية الكونية، وهي تضمُّ قادة إسرائيل، ويُسمُّونهم حكماءَها. وورثة السّرّ، وهم الذين يتصرّفون سرّاً بالمحافل الماسونية المنتشرة في العالم، ويوجّهونها لتحقيق أهداف اليهود المكتومة، في السياسة، والاقتصاد، والإدارة، والتعليم، والإعلام، والجيش، وسائر مجالات الحياة.

ومهمّة أعضاء هذه المرتبة إدارة كلّ حركة من حركات الثورة والهدم والتخريب والفوضى السياسية والاجتماعية بشتّى الطرق والوسائل في مختلف بقاع الأرض، وهي تستخدم لتنفيذ أغراضها اليهودية الصّرف أعضاء الماسونيّة العامّة (الرمزية) وأعضاء الماسونية الملوكية (العقد الملوكي).

وتستطيع الماسونيّة الكونيّة أن تجمع عن طريق الماسونيّتين الرمزيّة، والعقد الملوكي كلّ المعلومات التي تريدها عن دول الأرض، وتستخدم بها من تشاء من ملوك ورؤساء، كما تستطيع عن طريق الأعضاء الماسونيين أن تُمْلي ما تريد من أفكار سياسيّة واجتماعيّة في مختلف الدول المتصارعة، وأن تحرك عن طريقهم ما تشاء من فِتَن ومنازعاتٍ وحروبٍ، وأن تقوم بدور كلٍّ من الْخَصْمَيْنِ المتنازعين في الدول والأحزاب داخل الدولة الواحدة، وأن تُفاوض عن كلّ واحدٍ من أطراف النزاع، وأن تُنهي المفاوضة ضدّ كلّ واحدٍ منهم، ولصالح اليهوديّة العالميّة، دون أن يَشْعُر أحدٌ منهم بأنّه قد وقع في فخّ المكيدة اليهودية على يد الماسونيين.

وهذه المرتبة الكونية لا يَعرفها على وجه التحديد إلاّ نفر قليلون من اليهود، ومن ذوي النَّسب العريق في السلالات اليهودية، من ذرّيّة داود وسليمان.

وليس لهذه المرتبة إلاّ محفل واحد في العالم، هو الآن في «نيويورك» كما يذكر الباحثون.

* * *

(٤)
درجات الماسونية

اتّفق الباحثون على أن منظمة «الماسونية» ذات ثلاثٍ وثلاثين درجة، وأنّ الدرجات الدنيا منها مخصّصةٌ للعميان الذين يجهلون أهداف الماسونية الحقيقيّة، وهي إعادة هيكل سليمان، بمعنى إعادة ملك بني إسرائيل، والعمل على إسقاط كلّ ملوك وحكّام العالم أجمع، وإلغاء كلّ الأديان والشرائع باستثناء اليهوديّة المحرّفة ذات الإلّه الخاصّ والتي لا تؤمن باليوم الآخر، والعمل أيضاً على إقامة الدولة اليهوديّة العالميّة التي تقبض على نواصي الشعوب بسلطان شديد من الأسلحة الفتّاكة ذاتِ الدمار الشامل، ومن المال العظيم الذي يمتلكونه في الأرض، وبقطعان الجنود المسخّرين لهم من شعوب الأرض عن طريق شهواتهم ومطامعهم وطمس بصائرهم.

وذكر «د. محمد علي الزعبي» في كتابه «الماسونية في العراء» وهو الخبير بها، إذْ كان عضواً متقدّماً في بعض محافلها في لبنان، أنّ مَنْحَ الدرجات فيها ابتداءً أو ترفيعاً يكون لبعضها بتكريس، ويكون لبعضها الآخر بغير تكريس.

والمراد من التكريس إقامةُ مراسيم خاصة ذاتِ أعمال وحركاتٍ وأقوالٍ وشعاراتٍ رمزية، وفي بعضها إرهابٌ للعضو الذي يجري تكريسه، لإلزامه بأن يحافظ على السّرّية التامة للمعلومات عن كلّ شيءٍ في الماسونيّة، إلّا ما يباح إعلانه، أو يأتي الأمر بإذاعته ونشره.

(١) فالدرجات من (١ ـ ٣) تمنح للمرشّح لها بتكريس، في احتفالٍ خاصٍّ يجري له ضمن المحفل الماسوني.

ولكلّ تكريس يُجْرَى عند منح درجة من هذه الدرجات حركات وأقوال وطقوس خاصة ذات رموز يهودية يعرفها المنقّبُون أهل الخبرة، وقد ذكرها «الزعبي» في كتابه.

أمّا الْقَسَمُ في هذه الدرجات لتأكيد المحافظة على السّرّية، فيكون على الكتاب الذي يؤمن به العضو الذي يمنح الدرجة (القرآن ـ أو الإنجيل ـ أو التوراة).

(٢) والدرجات من (٤ ـ ١٧) تمنح للعضو الماسوني تلقيناً من غير تكريس،

بعد اختبار إخلاصه للماسونية، وتفانيه في خدمة أنشطتها، وعِلْمِ قادتها بأنه يتحلّل شيئاً فشيئاً من ولاءاته لدينه، وقومه، ووطنه، وأسرته، ويقترب من التأهيل ليكون جندياً مطيعاً للقيادة اليهودية الصرف.

(٣) والدرجة (١٨) تمنح بتكريس على مستوىً مشدَّد، راقٍ في مفهوم الماسونية، وهابطٍ في دركات الانسلاخ من الدين والولاءات الأخرى، في الحقيقة.

وتسمّى هذه الدرجة «الفارس الحكيم» وقد تسمّى درجة «الصليب الوردي» للتغطية.

ومن فقرات التكريس لهذه الدرجة ترديد كلمات: «حرّية ــ مساواة ــ إخاء» مثلث الماسونية المدمّر للشعوب.

وبعد إجراء فِقرات التكريس لهذه الدرجة ذات الرموز اليهوديّة، يتقدّم المرشّح إلى رئيس المحفل متوشحاً بوشاح ورديّ، لونه كلَوْن النور حين مغيب الشمس، وقد نُقِشَ على الوشاح صورةٌ للصليب، وصورة لطير الرخم.

عندئذٍ يكرّمه الرئيس بالسيف، ويكون التكريس ببِتّ طرقات متتاليات، وطرقةٍ منفردة ويُعْلِن تكريسه قائلاً:

«باسم مهندس الكون الأعظم، وتحت رعاية المجلس السامي، وبموجب السلطة الممنوحة لي من الإخوان الفوارس الحكماء، أصيِّرك «فارساً حكيماً» أو «فارس الصليب الوردي» للدرجة الثامنة عشرة.

وهنا يردّد إخوان هذه الدرجة في المحفل عبارة:
«من العدل هلاك الملوك غير الأتقياء».

ثم يتبادلون خبزاً ونبيذاً، ويتبادلون لمسة هذه الدرجة، ويُسِرُّ بعضهم في آذان بعضٍ كلمة سرِّها، وكلمة المرور «يَهْوَه».

وتعتبر هذه الدرجة الثامنة عشرة «الفارس الحكيم» مرحلة خطيرة في سلّم الارتقاء الماسوني، إذْ يُمْسِي الواصل إليها مستعدّاً للدفاع عن اليهود، وقائماً بخدمة

أهدافهم، ومعتقداً أنّ كلّ ما كان لديه من عقائد دينيّة، ومصالح قومية ووطنيّة أوهام فاسدة.

فينسلخ الواصل إليها من كلّ معتقداته وولاءاته السابقات، حتّى من روابطه العائليّة.

ويرتبط بحبال التلمود، ويقع في حبائل شياطين اليهود، ويُخيَّلُ إليه أنّه لا يوجد كتاب مُقَدَّسٌ غير العهد القديم الذي يؤمن به اليهود.

والْقَسَمُ على حفظ السِّرّ عند مَنْحِ هذه الدرجة يكون على كتب العهد القديم فقط، مع أدوات الهندسة لأنها تذكِّر ببناء هيكل سليمان، والسيف لأنه يُذَكِّر في الرموز اليهودية بأسماء: «عزرا ــ ونحيا ــ وصفنيا ــ وحجي . . » وفيه إشارة إلى الجهاد لتحقيق المثلث الماسوني، الموصل إلى إعادة هيكل سليمان، وحكم اليهود للعالم.

ويتوارى اعتباراً من هذه الدرجة القرآن والإنجيل وكلّ كتاب مقدّس، ولا يبقى على السدّة إلّا العهد القديم، عملاً بالدستور الأيكوسي للمنظمة.

ومن دستور هذه الدرجة (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) فعلى الماسوني أن ينصر أخاه في الماسونية ولو كان ظالماً، بأن يساعده على ظلمه.

والعمل بهذه المادّة أغرى «الفرسان الحكماء» بتحطيم عرش السلطان عبد الحميد، وإلغاء الخلافة الإسلامية، وأغراهم بتحطيم عرش القياصرة، وكان ذلك تحقيقاً للمصالح اليهودية في العالم.

(٤) والدرجات من (١٩ ــ ٢٩) تمنح للعضو الماسوني تلقيناً من غير تكريس، بناءً على اختبارات ومراقبات تتضمن الطاعة العمياء للقيادة اليهوديّة وأوامرها السرّيّة، وتحقيق غاياتها الشيطانية.

(٥) والدرجات من (٣٠ ــ ٣٣) درجات خطيرة جدّاً، وتمنح بتكريس ذي طقوس خاصة بكلّ درجة منها.

* فالدرجة (الثلاثون) وتسمّى درجة «الفارس القدُّوس» وقد تنطق السين شيناً

حسب اللّسان العبري، وهـذا الفارس هـو القائـد الأعلى للفرسـان الذين هم دونـه في الدرجة، وتمنح بتكريس.

والقَسَمُ على حفظ السّرّ لدى مَنْحِ هذه الـدرجة يكـون على كتب العهد القـديم فقط.

* والدرجة (الحادية والثلاثون) وتسمَّى درجة «الفارس الأعلى» وتمنـح بتكريس ذي طقوس وعبارات خاصة ومراسيم.

ويجب على المرشّح لهذه الدرجة أن يحفظ أسماء أسباط بني إسرائيـل، ويُقسم على الولاء لهم.

* والدرجة (الثانية والثلاثون) وتُسمَّى درجـة «فارس الفـرسان» وتُمْنـح بتكريس ذي طقوس وعبارات خاصة ومراسيم.

ويُقسِمُ المرشَّحُ لها على أن لا يعترض على عمل من أعمال المـاسونيـة، أو أمر من أوامرها مهما كان مخـالفاً لمفهـوم دينيٍّ أو قوميٍّ أو وطني أو واجب من الـواجبات، وعلى أن لا يتأثر بمنصبٍ يصل إليه، أو غِنىً يُصِيبُه، أو رابطة عاطفيّة مهمـا كانت ذات قوّة في نفسه.

* والدرجة (الثالثة والثلاثون) وتُسَمَّى درجـة «الأستاذ الأعـظم» وتمنح بتكـريس ذي طقوس وعبارات خاصّةٍ ومراسيم.

ويجتمـع الأسـاتـذة العظام في حفـل تكريس الـزميل الجـديد لـدى منحـه هـذه الدرجة، وقد لبس كلّ واحدٍ منهم جُبَّةً سوداء طويلة تشبه جُبَّة حـاخام يهـودي، موشّـاةً برسوم سنابل، ورسوم أغصانٍ من الزيتون.

وبعد تلاوة قرار المجلس السامي الذي يمنح درجـة «الأستاذ الأعـظم» للمرشّـح الجديد لها، يُقْسِم المرشّح على التوراة فقط، ويفـوز ببراءة مخـطوطة، تتضمّن منْحَـهُ هذه الدرجة.

والمـرشّح لهـذه الـدرجـة يجب عليـه أن يَشْتُم عيسَى ومحمّـداً عليهمـا الصـلاة والسلام، ويكذّب بالإنجيل والقرآن، ويُنكر المسيحيّة والإسلام، ويُعْلِنَ إيمانه بمـوسى وهارون فقط.

ويتعرَّضُ مَنْ يُمْنَحُ هٰذه الدرجة للحوار التالي:

س : على أيّ شيءٍ أقسمت؟

ج : على التوراة.

س : هل علمت بكتاب سواه؟

ج : نعم، هناك إنجيل وقرآن، وهما لشرذمة خارجة عن الإيمان والبشرية، آمَنَتْ بالمسيح ومحمّد، العدوَّيْن اللّدودَيْن لعقيدتنا.

س : هل تؤمن بهذه الكتب؟

ج : كلّا، أومن بالتوراة فقط، الكتاب الصحيح الذي أُنزِل على موسَىٰ.

س : ما رأيُك بالدِّينَيْنِ المسيحي والإسلامي؟

ج : المسيحي أخذ تعاليمه من التوراة، والإسلامي أخذ تعاليمه من التوراة والإنجيل.

س : الأصل أفضل أم الفرع؟

ج : لا شَكَّ أنّ الأصل أفضل.

الرئيس السائل: لقد نجحت بهذا الامتحان، وفهمت سرّ الأسرار الكامنة في الحقيقة السّرّية، وقد منحنا لك ــ مع التهنئة ــ درجة «الأستاذ الأعظم» فكُنْ كُفُؤاً لها، وحريصاً عليها.

الزميل الجديد: سأكون، ويردّد: أُومِنُ بِيَهْوه ومُوسىٰ وهارون، أُومِنُ بيهوه وموسَىٰ وهارون.

ويُقال له: هل تؤمن بسوى هذا؟

فيجيب: كلّا، لا أومن بسوى هذا، بل أبغض وأكره وأشتم سوى هذا، لا سيَّما المسيح ومحمّد، أُومِنُ بِيَهْوَهْ وموسى وهارون.

* * *

(٥)

درجتا الرفيع والملك المنتظر

فوق كلّ الدرجات الثلاث والثلاثين السابقات تأتي درجتان:

الأولى: درجة «الرفيع».

الثانية: درجة «الملك المنتظر».

* أمّا درجة «الرفيع» فلا يطمع بها إلّا اليهود، ومن فاز بالتهوّد، بصعود الدرجات الماسونيّة بكفاءة وإخلاص لهيكل سليمان.

وقد ظفر بهذه الدرجة متهوّدون من الإنكليز، وكانت سبب استماتتهم في سبيل الهيكل.

جاء في «العقد الملوكي» عن هؤلاء ما نصّه:

«وقد كان لأسرار هذه الدرجة تأثير عظيم على جمّ غفير من الإخوان الإنكليز، ذوي النفوذ والأفكار الحرّة، الذين لا يزالون يحفظون اعتقادات إسرائيل الأصيلة، إذ لنا أصدقاء دائمون هم الإنكليز، وأعداء دائمون هم العرب، وفي رأسهم المصريّون».

ولهذه الدرجة تكريس خاصّ ذو طقوس خاصة، ولها أسرارها ورموزها.

وفوق هذه الدرجة يأتي المحفل الكوني (الماسونية الكونية).

* وأمّا درجة «الملك المنتظر» فهي نهاية السُّلَّم الماسوني، وفيها يُتوّج ملك اليهود، الذي هو في تقديرهم ملك الكون سرّاً، وحينما تقوم الدولة العالمية اليهودية الواحدة، يكون هو ملكها علانية وجهراً.

وقد نال هذه الدرجة ملوك انكلترا لأنهم من يهود ألمانيا، ومن سبط لاوي.

ونالها أيضاً ملك الحبشة سابقاً «هيلاسلاسي» باعتباره كما يقولون من ذرّيّة: «رحبعام بن سليمان».

* * *

(٦)
بعض رموز الماسونية وتفسيراتها الحقيقية

ثبت للمطلعين بما لا يقبل الشك أنّ كلّ رمز من الرموز المتداولة في الماسونية من إشارات وحركات وخطوات وكلمات وأشياء توضع في المحافل تهدف إلى ذكرى يهوديّة، أو غاية يهوديّة صرف.

لكنّ بعضها يحتمل التأويل، كالشمس والقمر والعين، وبعضها يهوديٌّ صريح لا يحتمل التأويل، كالهيكل، والمذبح، وقُدْس الأقداس، والأستاذ السّرّي الذي يُمثّل سليمان، والأستاذ الكامل الذي يمثل قائد رتبة، وشمعدانات الدرجة السادسة الّتي تشبه شمعدانات هيكل سليمان.

وفيما يلي طائفة من هذه الرموز مع تفسيراتها الخفيّة اقتباساً من الذين كتبوا عن الماسونية، ومنهم «د: سيف الدين البستاني ـ و د: محمد علي الزعبي ـ وجواد رفعت أتلخان».

أولاً: تتألف الماسونية من محافل ذات أسماء خاصة تكون لفظة «الشرق» أحد عناصرها غالباً، لأنّ الشرق مصدر النور عند اليهود، إلى غير ذلك من ألفاظ لها صلة بالمصطلحات اليهودية، ويمارس أعضاء المحافل الماسونيّة طقوساً ومراسيم لها دلالات يهودية، ويتعارفون برموز لا يعرف معظم الأعضاء دلالاتها الخفيّة، إلّا أنها لدى التحقيق ذات دلالات يهودية.

وتشهد اعترافاتهم بذلك، فقد جاء في (الخطب الأربع لمحفل السلامة الماسوني) قولهم:

«إن عقائدنا ورموزنا وإشاراتنا ودرجاتنا هي مصريّةٌ فرعونيّة، ولكنّها انتقلت إلينا بواسطة بني إسرائيل».

وفي هذا الاعتراف دلالة واضحة على أن واضع رموزها وطقوسها وعقائدها وإشاراتها ودرجاتها هم اليهود.

ثانياً: من أمثلة رموز الماسونية ما يلي:

(١): (المحفل): هو عند أعضاء الماسونية العامة اسم للمكان الذي يجتمعون فيه، بينما يعتبره أعضاء الماسونيّة الملوكية رمزاً لهيكل سليمان، الذي يعتبره اليهود شعاراً لوطنهم القومي.

(٢): (الهيكل): والمقصود منه هيكل سليمان، وقد يذكر باسم: «هيكل الحكمة ـ أو هيكل الإنسانيّة ـ أو الكنيسة الكبرى ـ أو هيكل الكون ـ أو كوكب الشرق الأعظم».

(٣): (مهندس الكون الأعظم): رمز لمهندس هيكل سليمان، واسمه «حيرام» فالهيكل عندهم هو الكون الأعظم، ويرى معجم الماسونية والماسونيين أنّه رمز «أدونيرام» الرئيس الرابع للقوّة الخفية.

(٤): (النور): هو عند أعضاء الماسونية العامة (الرمزية) رَمزٌ لنور العقل، بينما يعتبره أعضاء الماسونية الملوكية رمزاً للنور الذي تجلّى به الله لموسىٰ عليه السلام.

(٥): (أدوات الهندسة): اختيرت رمزاً يذكّر ببناء هيكل سليمان.

(٦): (السيف): هو عند أعضاء الماسونية العامّة إشارة إلى الجهاد في سبيل الحق والعدل والحرّيّة، بينما هو رمزٌ إلى السيف الذي كان يحمله بنو إسرائيل ضدّ الأمم الأخرى، وللقوة التي قامت بها دولة بني إسرائيل في عهدَيْ داود وسليمان.

(٧): (المذبح): يطلق على منضدة توضع في المحفل الماسوني بين عمودين، وعليها نسخة من القرآن، ونسخة من العهد القديم، ونسخة من العهد الجديد.

والمذبح هو في الأصل عبارة عن أرض اشتراها داود عليه السلام من الكنعانيين، واتّخذها مركزاً لتقديم الذبائح والقرابين، ومحرقة للقرابين.

(٨): (خبز الفطير): الذي يتناوله الفائزون بالدرجة (١٨) في بعض المحافل الماسونية، تذكار لعيد الفطير اليهودي.

(٩): (الأنوار السبعة): هي في عرف أعضاء الماسونية العامّة (الرمزية) الأعضاء الذين تكون بهم جلسة المحفل قانونيّة، بينما هي لدى أعضاء الماسونية الملوكية رمز للسنين السّبع التي أتمّ فيها سليمان بناء الهيكل.

(١٠): (قطع رأسِ شيْءٍ ما): يقطع الماسونيّون في بعض احتفالاتهم رأساً من شيْءٍ ما لديهم، فيرى أعضاء الماسونية العامّة أنه رمزٌ عن قطع رأس الجهل أو غيره من النقائص البشرية، بينما يرى أعضاء الماسونية الملوكيّة ذلك تمثيلاً لقصة الملك داود عليه السلام، وقطعه رأس جالوت الجبار الذي سبى الشعب الإسرائيلي، كما يرونه تمثيلاً لقصة (يهوديت) التي قطعت رأس القائد الروماني (أليفانا) حينما جاء بها لمحاربة اليهود.

(١١): لفظ (أدونيرام): هو في الحقيقة اسم الرئيس الرّابع للقوة الخفيّة، أصل منظمة الماسونية.

(١٢): (القلائد والأوشحة): رموز قلادة سليمان ووشاحه.

(١٣): (الحيّة النحاسية): رمز يذكر بنعمة الله على إسرائيل وحده.

(١٤): (عصا المرشد): رَمز لعصا هارون التي زرعت مع العصي في خيمة الاجتماع، وفي اليوم الثاني فرّختْ وأثمرت لوزاً دون سائر عصي رؤساء بني إسرائيل، كما جاء في سفر العدد، الإصحاح (١٧).

(١٥): (السّدّة): هي رمز سدّة سليمان.

(١٦): (شبولت): معناه في العبريّة السنبلة، وقد كانت هذه الكلمة علامة على اليهود، ومن لفظها كان الجلعاديون[١] يعرفون اليهوديّ فيقتلونه.

(١٧): (العمودان): يشيران عند اليهود إلى العمودين اللّذين كانا يتقدّمان بني إسرائيل عند خروجهم من مصر بقيادة موسى عليه السلام.

(١٨): (جاكين): هو اسم آخر ملوك يهوذا.

(١٩): (جادا): هو اسم أحد الأسباط الاثني عشر من أسباط بني إسرائيل.

(٢٠): (نقطة الدائرة): في كلّ محفل ماسوني منتظم لا بدّ أن تُحدَّد نقطة داخل دائرة، ويجب على كلّ ماسوني أن لا يتحوّل عنها، وهي محدّدة بين الشمال والجنوب

---

(١) الجِلْعَادِيّون: قسم من سبط «منسّى» وهم من نسل «جلعاد» و«منسّى» هو بكر يوسف عليه السلام (عن قاموس الكتاب المقدس).

بخطّين مستقيمين، يدلُّ أحدهما على موسى، ويَدُلُّ الآخر على سليمان، وفي أعلى ذلك توجد التوراة، وعليها اسم يعقوب، وهو يرمز عندهم إلى الرؤيا التي رآها يعقوب، وكانت الملائكة نازلة عليه وصاعدة، وقصة هذه الرؤيا مذكورة في كتب اليهود.

(٢١): (النجوم): أو النقاط الثلاث، وهي ترمز عندهم إلى تمجيد المسامير التي يزعمون أنّها دُقّت في جسد المسيح الذي عمل اليهود على صلبه، هكذا يزعمون، ولكنّ الحقيقة أنّ الله أنجاه منهم، وألقى شَبَهَهُ على الذي دلّ عليه.

(٢٢): تكرّر عدد ثلاثة في رموز المحافل الماسونية.

* فالعمر في الدرجة الأولى ثلاثة.

* وكلمات: «حريّة، مساواة، إخاء» ثلاثة.

والضغط بالإبهام بإعطاء الدرجة الأولى ثلاثة.

* والخطوات بدخول المحفل ثلاثة.

* وموسى، وهارون، والتابوت، ثلاثة.

* وسليمان، وحيرام المهندس، وحيرام الملك، ثلاثة.

* وحروف القداسة العليا هي (ي. هـ. م) أي: يهوه هارون موسى، ثلاثة.

* ودعائم الهيكل (ت. ب. ح) أي: تحرير، بناء، حفاظ، ثلاثة، لأنّ الله أباح ـ بزعمهم ـ لإسرائيل كلَّ شيء على شرط أن تكون هذه الدعائم هدفاً، كما قال «موآب لافي».

وهكذا تسير مصطلحات الماسونية ورموزها وإشاراتها وطقوسها، ولو عرف كثير من المنتسبين إليها من غير اليهود حقيقة معانيها التي يُلْقي عليها اليهود حُجُباً كثيفة، حتّى لا يراها غير اليهود ووكلائهم، لعرفوا أنّهم يُجَنّدون أنفسهم جهلاً في صفوف أعدائهم وأعداء أمتهم من حيث لا يشعرون.

وربما تظهر هذه الرموز والإشاراتُ والطقوس لدى كثير من الناس بمثابة خزعبلات وتدجيلات وألاعيب صبيانيّة يمارسها الماسونيون اتباعاً لقوانين وأنظمة هذه

المنظمة ذات التحرّكات والأهداف السّرّيّة، وامتثالاً لأوامرها التي لا تقبل المناقشة، والّتي يتمّ بثّها بين الأعضاء، كأنّما هي وحيٌ يوحَىٰ به، دون أن يعلم الأعضاء الْمُنَفِّذُون من هو صاحب الأمر الموجّه لها.

ومع أنّ معظم هذه الرموز والإشارة والطقوس يحمل كما سبق إيضاحُه تفسيرات يهوديّة بَحْتٌ في حقيقة الأمر، إلّا أن المخطّطين اليهود قد يضعون لها معاني أخرىٰ، يُلَبِّسون بها على العميان، وهم أعضاء المرتبة الأولى الموضوعون في حقل الاختبار اليهودي، ليصطفوا منهم من يرونه متحلّلاً من دينه وأخلاقه وأمّته، فيُرَقُّوهُ عندئذٍ في درجات الماسونية.

وبعد ذلك يعملون على دفعه إلى المناصب العالية في دولته عن طريق دعم أعضاء المحافل الماسونية، الذين يُوحُون لهم بذلك، ليُسخّروه فيما يريدون من إفساد وتهديم لدولته ودينه وأمّته، وليتزوّدُوا منه بالمعلومات الّتي يطّلع عليها بمقتضىٰ مركزه وعمله، وقد لا يَشْعُرُ بأنّه يزوّدهم بها، وذلك لما يتمتّع به القادة اليهود من مكر بالغ يُخْفُون فيه أنفسهم ووكلاءَهم إخفاءً تامّاً، حتى عن أعين معظم المخلصين لهم، والسائرين في ركابهم.

ولمّا كانت المحافل الماسونيّة منتشرة في معظم دول الأرض، وكان معظم ذوي المراكز الهامّة فيها لا بدّ أن يكونوا أعضاءً في هذه المحافل أو أصدقاء لهم أو مسخّرين من قبلِهم أو محاطين ببعض منهم، فإنّ أمْرَ إدارة هذه الدول قد أصبح بحُكْم المضمون للقيادة اليهوديّة العليا. وحِرْصُ أصحاب المراكز على مراكزهم سيُهَوّن عليهم الشعور بأنّهم يخدمون اليهود من حيث يشعرون أو لا يشعرون وذلك عن طريق منظّمة «الماسونية» لأنّهم يعتقدون أنّهم لو تَمَرَّدُوا على الإرادة اليهوديّة العليا فسوف تعْمَلُ على طردهم من مراكزهم عن طريق وكلائها المستورين، ولو بنشر الفضائح والاتّهامات.

ونَحْنُ إذْ نكتشِفُ دلالات الرّموز والإشارات والطقوس التي استكثر اليهود منها في «الماسونية» وهي ذات صلة بالتعاليم والتقاليد والقصص اليهوديّة، فالهدف من ذلك أن نبيّن أن لليهود منها عدّة أغراض:

الأوّل: تثبيت الطابع اليهودي الذي قامت عليه المنظمة.

الثاني: الإمعان في كتمان الأهداف الحقيقية لهذه المنظمة عن الأعضاء العميان من غير اليهود، وهم أعضاء «الماسونية العامة الرمزية» ويطلق عليهم وصف العميان لأنهم يخدمون المنظمة جاهلين أهدافها الحقيقية.

الثالث: ملء جلسات المحافل بالأعمال التي تحجب الأعضاء عن ابتداع كلّ مفيد نافع، وشَغْلُهم بتمثيليّات مُعَمَّاة لا يدركون حقيقة أسرارها، وتَغْشِيَةُ أبصارهم عن الأهداف الحقيقيّة لهذه المنظمة، وهي الأهداف التي رسمها اليهود.

وتشتمل أهدافهم على ابتغاء هدم جميع الأديان في الأرض باستثناء عقيدتهم اليهودية الخاصة، وهدم جميع الأنظمة الأخلاقيّة والاجتماعية والسياسية والاقتصاديّة في العالم، وذلك كيما يتسنّى لبني إسرائيل الظفرُ بمملكة اليهود التي تبدأ في فلسطين، وتمتدّ إلى روما، وتطوّقُ أفعاها الكرة الأرضيّة كُلّها.

هذا ما له يخطّطون وله يعمل هؤلاء المنافقون المجرمون الخطرون المكارون، ألاَ فلْيَعْلَمِ الجاهلون، ولْيَتنبَّهِ الغافلون، ولْيَصْحُ النائمون، ولْيَتُبِ العاصون.

* * *

(٧)
مشهد من مشاهد التكريس

المشهد هو تكريس المرشح العضو للدرجة الثامنة عشرة:

(١) وقف المرشّح أمام رئيس المحفل الماسوني، وتلا الطلب الذي قدّمه للفوز بالدرجة، ووافق على صحّة توقيعه.

(٢) ركع المرشّح أمام المذبح وأقسم القسم الخاصّ بهذه الدرجة.

(٣) لقّنَ الرئيس المرشّحَ كلمة المرور، وهي: «فاكس يوبيس» وأعلمه أنّ معناها: «لكُمْ وعليكم السلام». وأصلها من اللّغة اللاتينيّة المتأخرة.

وأفهم الرئيس المرشّح أنّه إذا قال هذه الكلمة أجابه إخوانه بكلمة: «عمانوئيل» ومعناها: «الله معنا».

(٤) يخطو المرشح ثلاث خطوات:

الأولى: خطوة إلى اليسار.

الثانية: خطوة إلى اليمين.

الثالثة: خطوة تنتهي بركوع أمام المذبح.

(٥) يقوم المرشّح بتأدية تحيّةٍ عمليّة للسُّدةِ والمذبح، على الشكل التالي:

اليدان مضمومتان إلى الصدر، اليمنى فوق اليسرى، والإبهامان مرفوعان إلى الأعلى.

ومعنى هذه التحيّة: المجد لمهندس الكون الأعظم.

(٦) يجيب الرئيس على هذه التحيّة بتأدية تحيةٍ عملية على الشكل التالي:

اليدان مضمومتان تشيران إلى جهة الأرض.

ومعنى هذا الرد: وعلينا وعليكم وعلى من في الأرض السلام.

(٧) يؤدي الرئيس والمرشّح اللّمسة، وتكون ببسط يد كلٍّ منهما بيد صاحبه، ويتبعها «قبضة الأسد» مع الاهتزاز، والإبهام على الإبهام، ويكون تحريكُهما من أعلى.

(٨) يُلقَّن المرشّح كلمة السرّ لهذه الدرجة وهي (ان ري) ومعناها: «عيسى الناصري ملك يهوذا» فهي حروف مقطعة كلّ حرف منها يدلّ على كلمة من الكلمات الأربع، ولا بد أن نفهم أنّ تفسير هذه الحروف بهذا التفسير تغطية لخداع النصارى.

(٩) يصفّق الإخوة «الفرسان الحكماء» ثلاث صفقات، مع ترديد شعار الماسونية: «حرّية ــ مساواة ــ إخاء».

(١٠) يقف المرشّح أمام الرئيس، فيضع الرئيس السيف على الكتف الأيمن للمرشح، ثم على كتفه الأيسر، ويطرق فوقه بالمطرقة، ثم يضعه على رأس المرشّح، ويطرقه بالمطرقة، وبعد ذلك يُقَبِّلُ المرشّحَ قُبْلَةَ التهنئة.

ويتلو الرئيس قرار منحه الدرجة، كما سبق بيانه لدى شرح الدرجة (١٨) إلى آخر ما يجري في هذا التكريس.

(٨)

من أقوالهم الكاشفة عن أهدافهم ومخطّطاتهم

لقد غدا متحقّقاً أنّ أساطين اليهود يعتبرون المحافل الماسونيّة بمثابة الأجهزة التي يحصلون منها على ما يريدون من أخبار، وبمثابة مراكز هامّة للدّعاية لهم، كما أنهم من وراء المحافل المنتشرة في العالم متربّعون على عرش قمتها، ويوجّهونها لتحقيق أهداف اليهوديّة العالمية، في حال أنّهم يُحيطون أنفسهم بحُجُب كثيفة، ويُغلِّفون أهدافهم بمكر كثير، حتّىٰ لا تكشفهم عيون الأمم، التي يعمل أفراد منها في خلايا الماسونية، وهم يجهلون المصير القاتم الذي ينساقون إليه هُمْ وشعوبُهم من ورائهم.

وفيما يلي طائفة من الأقوال الكاشفة عن أهدافهم ومخطّطاتهم:

(١) جاء في البروتوكول «الخامس عشر» من بروتوكولات «حكماء صهيون» أي: شياطينهم ما يلي:

«وإلىٰ أن يأتي الوقت الذي نصل فيه إلى السلطة سنحاول أن نُنْشِىء ونُضاعف خلايا الماسونيين الأحرار، في جميع أنحاء العالم، وسنجذب إليها كلّ من يصير، أو يكون معروفاً بأنه ذو روح عامّة.

هذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسيّة التي سنحصل منها على ما نريد من أخبار، كما أنّها ستكون أفضل مراكز للدعاية.

وسوف نركّز هذه الخلايا تحت قيادة واحدة معروفة لنا وحْدنا وستتألف هذه القيادة من علمائنا، وسيكون لهذه الخلايا أيضاً ممثلوها الخصوصيّون، كي نحجب المكان الذي تقيم فيه قيادتنا حقيقة، وسيكون لهذه القيادة وحْدَها الحقّ في تعيين من يتكلّم، وفي رسم نظام اليوم، وفي هذه الخلايا سنضع الحبائل والمصايد لكلّ الاشتراكيّين وطبقات المجتمع الثورية، وستكون معظم الخطط السياسية السّرّية معروفة لنا، بمجرّد تهيئتها.

وسنضم إلى عضويّة هذه المحافل الماسونية كلّ أفراد الشرطة السّرّية والعلنية

الوطنيّة والدوليّة، لأن لخدماتها قيمة عظيمة بالنسبة إلينا، فهي في وضع يجعلها قادرة على ستر خططنا، وتقديم المعاذير عن إثارة المشكلات التي تفرضها مصالحنا، وفوق هذا يكون في وُسْعِها ضرب من تحدّثه نَفْسُه بأنْ يَعْصِيَ أوامرنا.

والذين ينتسبون إلى جمعياتنا السّرّية هم في العادة مغامرون، يرغبون أن يشقُّوا طريقهم في الحياة دون جِدٍّ أو عناء، وأكثرهم من الطائشين الّذين يسهُلُ التفاهم معهم في سبيل تحقيق مصالحنا، وهم الذين يكونون قوّةً دافعةً لجهاز حركتنا.

وإذا حدث اضطراب في العالم فذلك دليل على ضرورة وجوده، لأنّ ذلك الاضطراب يهدم تماسكه المتين لمصلحتنا، فإذا وقعت مؤامرةٌ ما فَلَنْ يحمل وُقوعُها سوى دلالة واحدة، هي أن رأسها واحد، ورئيسها واحد هو من عملائنا المخلصين.

وطبيعيٌّ أن نكون نحن لا غيرنا القابضين على زمام العمل الماسوني، لأننا نحن نُحْسِنُ القيادة، وندرك غاية العمل القصوى...

ويكثر الانتساب إلى الماسونيّة من «الجويم = غير اليهود» يدفعهم الفضول، أو الطمع في نفع يُصِيبُونه، أو في تحقيق مآرب لا تتحقّق لهم بغير الانتساب إلى الماسونية، وبعضهم يرجو أن يجد الشهرة عندما يتشدّق بآرائه الحمقاء، بين يدي المحافل، مظهراً مهارته الخطابيّة، ليظفر بمديح يدغدغ عواطفه، ونحن لا نبخل به، ومستعدون لأن نغدقه بسخاء، وندع لهم الفرص التي يحقّقون بها بعض آمالهم وترضي غرورهم، فنسخّرهم لخدمة أغراضنا...

وأنتم لا تتصوّرون كيف يَسْهُل دفع أمهر الأمين «الجويم» إلى حالة مضحكة من السذاجة والغفلة، بإثارة غروره وإعجابه بشخصه، وكيف يسْهُل من ناحية أخرى تثبيط شجاعته وعزيمته بأهون خيبة، ولو بالسكوت ببساطة عن تهليل الاستحسان له، وبذلك ندفعه إلى خضوع ذليل».

* * *

(٢) وجاء في البروتوكول (الرابع) منها قولهم:

«من ذا يستطيع أن يخلع قوة خفيّة غير منظورة عن عرشها؟. وماذا يُسْتَطاع فعله

لقلب هذه القوة الخفيّة التي هي قوّتنا، ولنا في الماسونية الظاهرة حجاب غليظ بستر أغراضنا؟

إنّ المحفل الماسوني المنتشر في كلّ أنحاء العالم قناع غليظ يستر أغراضنا، ولهذا فمنهاج قوّتنا ومكانها يظلاّن في عالم الخفاء سرّاً مغلقاً يجهله العالَمُ كلُّه.

وكان من الممكن ألاّ يكون للحرّيّة ضرر، وكان من الممكن أن يكون لها في الدولة مقام كريم لا يضرّ برخاء الشعب، لو أنّ الحرّيّة قامت على الإيمان بالله والأخوّة الإنسانيّة، مجرّدة عن دعوى المساواة، التي يُثبتُ قانون الطبيعة بطلانها، فالطبيعة قائمة على وجود التفاضل في الخلق..

إنّ الناس المحكومين بالإيمان بالله سيكونون سعداء تحت رعاية رعاتهم الدّينيين، خاضعين لمشيئة الله راضين بها.

وهذا يحتم علينا أن نهدم قواعد الإيمان في قلوب الناس.. ونُحِلّ محلّها قوانين رياضيّة، وضرورات مادّية...».

* * *

(٣) وجاء في البروتوكول (الحادي عشر) منها قولهم:

«إنّ الأميين «الجوييم» كقطيع من الغنم، وإنّا الذئاب، فهل تعلمون ما تفعل الغنم حينما تنفذ الذئاب إلى الحظيرة؟

إنّها لتغمض عيونها عن كلّ شيء.

ويوجد سبب آخر يدفع «الجوييم» إلى أن يغمضوا عيونهم، إذْ نُرضيهم بإغداق الوعود عليهم، بأننا سنعيد إليهم حرّياتهم متَى تمّ لنا قَهْرُ أعدائهم، وترويض جميع الأحزاب.

لماذا ابتدعنا سياستنا ولقنّاها الأمّيين «الجوييم» دون أن نُهَيّئهُمْ لإدراك أسرارها؟

أليس ذلك رغبة منّا في الوصول إلى غاية لا يُتاح لشعبنا الوصول إليها بالوسائل النظيفة، فاضطررنا إلى اتّخاذ أساليب المكر والمراوغة.

هذا السبب هو الذي حملنا على إنشاء «الماسونيّة» التي يجهل أسرارها وغايتها أولٰئك الخنازير من «الجوييم» فوثقوا بها، وانتسبوا إلى محافلنا الماسونية التي جذبتهم مبادئها الظاهرة التي ضلّلتْهُمْ وحوّلت عنهم بَصَرَ إخوانهم في الدين، وبـذلك نُحْـدِثُ الفرقة فيما بينهم.

ومن نعمة الله أن تشتيت شعبه المختار الذي ظنّه العالم ضعفاً فيه، قـد ثبت أنّه سرّ قوته التي أفضت به إلى السيادة العالمية، ولم يبق علينا إلّا السّيـر لنقيم بنياننـا على تلك الأسس، وبذلك نحقق هدفنا المنشود».

* * *

وقضية محاربـة الماسـونيّة للدّين تبعـاً للمخطّط اليهـودي لا تحتمـل أيّ جـدلٍ أو منـاقشة، لأنّهـا من الأمور الكثيـرة الّتي كشفتها تصرّفاتهم الـدائمة، ثمّ اعتـرافـاتهم وأقوالهم المنتشرة في كثير من الوثائق الصادرة عنهم، من تصريحات وخطب وكتابات.

(٤) جاء في أقوال المحفل الماسوني الأكبر سنة (١٩٢٢م):
«سوف نقوّي حرّيّة الضمير في الأفراد، بكلّ ما أوتينـا من طاقـة، وسوف نُعْلنهـا حرباً شعواء على العدوّ الحقيقيّ للبشريّة الـذي هو «الـدّين» وهكذا سـوف ننتصر على العقائد الباطلة وأنصارها».

ومرادُهم بإعلان حربهم على الدين كلُّ الأديان باستثناء اليهودية.

(٥) وجاء في مضابط مؤتمر بلغراد الماسوني لسنة (١٩٢٢م) قولهم:
«ويجب أن لا ننسى بأننا نحن الماسونيّين أعداء للأديان، وعلينا أن لا نألو جهداً في القضاء على مظاهرها».

(٦) وفي محاضر محفل الشرق لعام (١٩٢٣م) قولهم:
«إنـه يجب أن تبقىٰ الماسـونيّة لملّة واحـدة، وعليه يقتضي محـو جميـع الأديـان ومنتسبيها من الأساس».

والمقصود من الملّة الواحدة اليهوديّة.

(٧) نشـرت جريـدة الريـاض في ٢٣ شـوال (١٤١٠هـ) و١٨ مـايـو (١٩٩٠م)

ما يلي:

باريس ـ إينا:

«صرّح رئيس المحفل الماسوني الفرنسي، وعضو الحزب الاشتراكي: «روجيه لوريه» في بيان صدر عنه مؤخراً، أنّه لا بدّ للماسونيّة من حرب صريحة ضدّ الإسلام.

وأضاف في بيانه أنّه لا يمكن الصمت تجاه الحملة الموجّهة ضدّ المحافل الماسونيّة في إفريقية من قِبَل المسلمين، لا سيما في السنغال».

(٨) جاء في نشرة ماسونية صدرت في لندن سنة (١٩٣٥م):

«إنّ أمنيتنا هي تنظيم جماعة من الناس يكونون أحراراً جنسيّاً. نريد أن نخلق الناس الذين لا يخجلون من أعضائهم التناسلية».

* * *

(٩)
نماذج من الأيمان
التي يُقْسِمُ عليها العضو الماسوني

عند كلّ درجة يُمنَحُهَا العضو من أعضاء الماسونيّة يكلّف العضو أن يقسم على حفظ الأسرار، وعدم خيانة المنظمة بشيء من الأشياء، فمن أقسامهم النماذج التالية:

نموذج أوّل:

«أُقْسِمُ بمهندس الكون الأعظم أنّني لا أُفشي أسرار الماسونية ولا علاماتها ولا أقوالها ولا تعاليمها ولا عاداتها، وأن أصونها مكتومة في صدري إلى الأبد.

أُقْسِمُ بمهندس الكون الأعظم ألاّ أخون عهد الجمعيّة وأسرارها لا بالإشارة ولا بالكلام ولا بالحركات، ولا أكتب شيئاً عنها، ولا أنشره بالطبع أو بالحفر أو بالتصوير، وأرضىٰ ـ إنْ حَنِثْتُ بقَسَمِي ـ أنْ تُحْرَقَ شفتاي بحديد محميّ، وأن تُقطَع يَدَايَ، ويُحزَّ عُنُقِي، وتُعلَّقَ جُثّتي في محفلٍ ماسوني، ليراها طالبٌ آخرُ فيتّعظ بها، ثمّ تُحْرَقَ جُثّتي، ويُذَرَّ رمادُها في الهواء، لئلاّ يبقىٰ أثَرٌ من جنايتي».

نمـوذج ثـانٍ:

«أُقسِمُ أن أنفّذ دُون تردّد حتّى المخاطرة بنفسي، كُـلّ مَا أُومَـرُ به للعشيـرة، وأنْ أُطيع على الدوام رؤسائي الشرعيين في الماسونيّـة، أميناً على جميـع أسرار الفـرسان، ولا أبـارزهم، ولا أدعـوهم للمبـارزة، وأضحّي بنفسي لتخليصهم، وأخـرج السجين منهم، مهما كلّفني ذلك من جَهْدٍ وتضحيَة، وأن أضحّي وأساعد بكـلّ قوّتي، وأكـرّس لهم حياتي حتّى الموت».

نموذج ثالث: «قَسَمُ الفارسِ الحكيم»:

«أنـا (يذكـر اسمه) أُقْسِمُ على هـذا الحسام، رمـز الشجـاعـة، بحضـور جميـع الفرسان المحيطين بي، أن لا أبوح بأسرار الدرجة الثامنة عشرة التي ستُمْنَحُ لي الآن، وهي درجة الفوارس الحكماء، ولا بالأسرار التي تُسَارُّوني بها.

وأتعهّد أن أُعمل فكرتي لتنوير جميع إخـواني، وأدافع عنهم، وأعِدُ وأُقْسِمُ بألاّ أفـارق هذه الـطريقة بـل أجتهد أن أكـون فـاضـلاً، أقـوم بـأداء الـواجب الـلازم لهـا، والمحافظة على قوانينها».

نموذج رابع: «قَسَمُ كُلّيّ الحكمةِ»:

«أنا (يذكـر اسمه) أَعِـدُ بشرفي، وبصفتي كُلّيّ الحكمـة، وأستاذاً مـاسونيّـاً، أن أبذل جهودي وقوّتي في أداء واجباتي بالأمانة، إلى المقام الذي انْتُخِبْتُ لِرِيـاسته، وأنْ أحافظ على قوانينه، وعلى النظام العام للمجلس السامي، وأُجْبِرَ الْغَيْرَ على احتـرامها، وأُطيع قرارات المجلس السامي.

أُقْسِمُ أنّني أقـطع الـروابط والصـلات، الّتي تشُـدّني لـلأقـارب والأنسبـاء، والعصبيّات، والأرحام، والقوميّة، وقادة الدّين والـدنيا، وكـلّ من حلَفْتُ له بـالطاعـة، لأرْتَبِطَ أوّلاً وأخيراً ودون قيد أو شـرط، بإخـواني المـاسـونيّين، وأدافـع عنهم، وأُنقِـذَ مسجونهم، ولا أقاتلهم، ولا أطلب مبارزتهم، حتّى ولو قاتلوني وأتَوْا مُنْكراً».

* * *

(١٠)

صُوَر من مكايد المحافل الماسونية ضدّ شعوب العالم بتوجيه من اليهودية العالمية

استخدمت الحركة اليهودية العالمية المحافل الماسونيّة وكثيراً من أعضائها أقنعة تسترت بها نفاقاً لتحقيق ما يلي:

(١) نشر مختلف المذاهب والأفكار والنظريات المدمّرة للدّين والأخلاق والنظم الاجتماعية، والسيطرة على حكومات شعوب الأرض، وقوى المال والإعلام والتعليم والسلاح والجيوش وسائر القوى حتى القيادات الدينيّة عن طريق وكلائها وعملائها والمنافقين منها.

(٢) إقامة الثورة الإنكليزية، والثورة الفرنسيّة، والثورة الشيوعيّة البلشفية، واستثمار هذه الثورات لتحقيق المخطّط اليهودي العالمي.

(٣) إقامة الحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الثانية، والحروب الإقليمية في العالم، وهم يُعِدُّون لإقامة الحرب العالمية الثالثة التي يُقَدِّرون أن تكون وسيلتهم لحكم العالم أجمع حكماً مباشراً.

(٤) إثارة الفِتَن الطائفية والقوميّة والمذهبيّة والحزبيّة، والحروب الأهلية بين الشعوب، وكثيراً ما يَتَسَتَّرُون وراء الدول النصرانية أو الإلحادية الكبرى في العالم، فهم بالنفاق يعملون بأيدي غيرهم.

(٥) خلع السلطان عبد الحميد، وإلغاء الخلافة الإسلامية، وإقامةِ رجلهم المنافق الدكتاتور «كمال أتاتورك» حاكماً مستبداً في تركيّا بعد تقسيم أرض الخلافة الإسلامية التركيّة.

(٦) معظم أئمة المذاهب الفكرية المعادية للدين والأخلاق والنظم الاجتماعية أعضاء في المحافل الماسونية، أو في إحدى بناتها، وأكثر هؤلاء يهود يبطنون اليهودية ويتظاهرون بالإلحاد، أو بدين آخر غير اليهودية كالمسيحية أو الإسلام.

وقد كتبتُ تفصيلات كافيات لهذه الأمور في كتابي «مكايد يهودية عبر التاريخ»

وكتابي «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» وكتابي: «الكيد الأحمر» فمن شاء المزيد فليرجع إليها.

* * *

(١١)

أدعية ماسونية[1]

(١) يقرأ جميع أعضاء المجلس السامي للشروق عند افتتاح جلساتهم الدعاء التالي:

«نؤمنُ بإلَـهٍ واحد، ربّ موسى وهارون، منزّل التوراة، خالق الشعب المفضّل المختار، خالق الشعوب الأخرى لخدمة المفضّل الجليل. وطننا فلسطين، الدّم الذي يجري في عروقنا دم إسرائيل، عقيدتنا خلافة الله على الأرض، بارك جلستنا هذه يا ربّ إسرائيل يا ربّ موسىٰ وهارون. آمين».

(٢) يدعو جميع أعضاء الماسون في الدرجة (٣٣) الدعاء التالي:

سنعود إلى عهد سليمان بن داود، ونبني الهيكل الأقدس، ونقرأ فيه التلمود، وننفّذ كلّ ما جاء في الوصايا والعهود، وفي سبيل مجد إسرائيل نبذل كلّ مجهود. الويل الويل للغاصبين المستعمرين، سنجعلهم قطعاً في أفواه الأسود. الانتقام الانتقام، طال المكوث في الظلام، أنْعِمْ علينا يا ربّ، أنوار القدس التي تجلّت على موآب».

(٣) يقرأ الأعضاء الماسون في طقوس الجنائز عن روح الماسوني الذي لم يبلُغْ درجة «فارس حرّ النسب» الدعاء التالي:

«يا ربّ موسى وهارون، هذا الميّت هو من أبناء «يافث» الخبيث، ولكنّه أخٌ من التائبين، عمل وضحّىٰ في معارك بناء هيكلك، ووقف سبع مرّات بين عمودي «ب وج» وأخذ النور من «م» ميم مجدك الأعلى، نستودعه في رحمتك، يا رحماناً يا رحيماً يا غياثنا».

• • •

(١) نقلاً من كتاب «الماسونية في العراء» للزعبي.

الفَصل الثاني

نَوَادِي الروتاري
إحدى بنات الماسونيّة

(١)
مقدمة

تعتبر نوادي «الروتاري» بمثابة قناع يلبسه المنافقون من اليهود ووكلائهم، لتحقيق أغراض اليهود العالمية، وهي إحدى المنظمات العالميّة الموجّهةِ سرّاً من الماسونيّة، وهي في الحقيقة إحدىٰ بناتها العاملات على مستوى شعوب الأرض جميعاً، وتلتقي أهدافها ومقاصدها السّرّيّة مع الماسونيّة، ولا تختلف مبادئها ومفاهيمها العامة عن مبادىء الماسونية ومفاهيمها، لكنها تختلف من جهة الشكل والتنظيم، وهي غير مفتوحة كالماسونية لكلّ طبقات الشعب، بل هي خاصة بطبقة المثقفين وذوي الفكر، وأصحاب المهن الراقية، واجتماعاتها هي بمثابة أسواق معلومات، تُعْرَضُ فيها الأفكار والأخبار، فتَتَلقّفها الأعينُ والآذان المتجسّسة، وتنقلها إلى بنك المعلومات الماسوني اليهودي العالمي، وأعضاء نوادي الروتاري يُسْتَخْدَمُون من حيث لا يشعرون لتحقيق توجيهات الماسونية، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والإعلامية والعسكرية وغيرها.

واجتماعات نوادي «الروتاري» تُرضِي غُرورَ الأعضاء حينما يتحدّث كلٌّ منهم في مجال اختصاصه، ويجدون فيها فرصةً للترويح عن النفس، وإشباع رغبات الاجتماع بذوي الفكر والأدب والسياسة وأصحاب الاختصاصات الأخرى.

وتحرص الماسونية على أن يكون في كل نادٍ من نوادي الروتاري أعضاء ماسونيون يوجهون تحرّكاتها، والبحوث التي تجري فيها، وأعمالها ويستثمرون ما لديها من قُوىً ورجال في مصالح وغايات الماسونية.

وحينما تُلاَحَقُ «الماسونيّة» في بلد من البلدان إذْ تنكشف لقادته مكايدُها اليهودية، ينشط الماسونيّون في متابعة تحركاتهم الماسونيّة من خلال نوادي الروتاري.

وقد انتظم في نوادي الروتاري كبارٌ من أساتذة الجامعات، وكبارٌ من الأدباء والشعراء والسياسيين وغيرهم من علية المثقفين، وربمّا كان بعضهم يجهل الكيد الماسونيّ اليهوديّ القابع فيها، فانساقوا ضمن المخططات الماسونيّة وهم لا يشعرون.

* * *

(٢)
تأسيسها وانتشارها

(١) بدأ تأسيس أول نادي روتاري سنة (١٩٠٥م) بمدينة «شيكاغو» على يد المحامي الأمريكي «بول هاريس» ثم تعدّدت هذه النّوادي.

وعرفت باسم «روتاري» لأن اجتماعات أعضائها كانت تُعْقَد في مكاتبهم بالتناوب، وكلّما اجتمعوا في مكتب آخِرِ عُضْوٍ من أعضاء النادي دار الاجتماع فَعُقِدَ في مكتب الأول وهكذا، فكلمة «روتاري» تعني الملتقىٰ الدوّار، أو الالتقاء الدوّار، ولمّا كان لمكتب كلِّ عضو من أعضاء النادي نَوْبَةٌ من الاجتماعات يجتمعون فيه، أطلق عليها اسم نوادي الروتاري.

(٢) وفي سنة (١٩٠٨م) انضم «شيرلي بري» إلى «بول هاريس» فجعله سكرتيراً لناديه، فوسّع «شيرلي بري» نشاط النادي، حتى صار منظمة كبرى ذات نوادٍ متعدّدة. وظلّ سكرتيراً لها حتى استقال منها سنة (١٩٤٢م).

وانتشرت هذه المنظمة في بريطانيا بجهود مستر «مورو» الذي كان يتقاضى عمولة عن كلّ عضوٍ جديد.

وفي سنة (١٩٢١م) صار لها فروع في فلسطين، ثم صار لها فروع في الجزائر ومراكش برعاية الاستعمار الفرنسي.

(٣) وامتدت نوادي الروتاري إلى ثمانين دولة، وصار لها (٦٨٠٠) نادٍ تضم (٣٢٧٠٠٠) عضواً قبل أن يتوفىٰ رئيسها المؤسس «بول هاريس» سنة (١٩٤٧م).

وجاء في النشرة البريطانيّة عن نوادي الروتاري لسنة (١٩٦٨م) أنّ هذه النـوادي قائمة في أكثر من (١٤٧) دولة بينها إسرائيل.

* * *

(٣)
من تعاليم نوادي الروتاري وقوانينها

(١) يُسْتَبْعَدُ الحديث حول المسائل الدينيّة في نوادي الروتاري التي يشترك في عضويّتها منتمون إلى مختلف الأديان العالمية.

(٢) لنوادي الروتاري اجتماعات أسبوعية، وعلى العضو أن لا تقلّ نسبة حضوره الاجتماعات عن ستين في المئة سنويّاً.

(٣) لا يُقْبَلُ العمالُ في عضـويّة نـادي الروتـاري، لأن هذه النـوادي مخصّصة للمثقفين، وذوي المكانة العالية في المجتمع.

والغرض من هـذا الشـرط اجتذاب الـذين يترفّعـون عن الانتسـاب للمحـافل الماسونية لأنها تجمع مختلف طبقات الشعب.

(٤) تحرص نوادي الروتاري على أن يوجد في كـلّ نادٍ عُضـوٌ من كلّ مِهْنـة من المِهَن (٧٧) المبينة لديهم في تصنيف خاص.

(٥) العضـوية تتم بـالانتقاء من أعضـاء النادي السـابقين، وليست مفتوحـة لكلّ طالب.

(٦) يجب أن يكـون في مجلس إدارة كـلّ نـادٍ شخصٌ أو شخصـان من رؤسـاء النـادي السـابقين، أو من ورثـة السّـرّ الـروتـاري الـذي وضعـه المؤسس الأوّل «بـول هاريس».

(٧) أجرى «تشارز ماردن» الذي كان عضواً في أحد نوادي الروتاري لمدّة ثلاث سنوات دراسةً لهذه النوادي فاكتشف أنه يوجد (١٥٩) عضـواً ماسـونيّاً في كـلّ (٤٢١) عضو روتاري، أي: أكثر من الثلث.

وفي بعض نوادي الروتاري كان جميع الأعضاء من الماسونيين، كما حدث في «أدنبرة ـ بريطانيا» سنة (١٩٢١م).

(٨) قيادة الماسونية لإدارات نوادي الروتاري تطبيقٌ لقرارٍ ماسوني مبيّن في محافل «نانس بفرنسا» سنة (١٨٨١م) وقد جاء في هذا القرار ما يلي:

«إذا كَوّنَ الماسونيّون جمعيّةً بالاشتراك مع غيرهم فعليهم ألاَّ يَدَعُوا أمرها بيد غيرهم، ويجب أن يكون رجال الإدارة في مراكزها بأَيْدٍ ماسونيّة، وأن تسير بوحيٍ من مبادئها».

● ● ●

الفَصْلُ الثالث

نَوَادِي اللِّيُونْز (الأُسُود)
إحْدَى بَنَاتِ المَاسُونِيَّة

(١)
مقدمة

تُعتبر نوادي «اللّيونز = الأسود» مثل نوادي «الروتاري» بمثابة قناع يلبسه المنافقون من اليهود ووكلائهم، لتحقيق أغراض اليهود العالميّة، وهي إحدى المنظمات العالميّة الموجّهة سرّاً من الماسونيّة، بل هي في الحقيقة إحدى بناتها العاملات على مستوى شعوب الأرض جميعاً، ضمن قطاع رجال الأعمال الكبار، وأصحاب الثروات والملوك والرؤساء والوزراء والأمراء.

وتلتقي أهداف نوادي «اللّيونز» ومقاصدها السّرّيّة مع الماسونيّة، حتى كثير من مفهوماتها الظاهرة المعلنة، لكنّها تختلف في بعض الشكليّات، وهي منحصرة بطبقة أكلة النصيب الأكبر من ثروات العالم، الّذين لا هَمّ لهم إلاّ الاستكثار من جمع الأموال، والاستمتاع بأكبر قَدْرٍ من متاع الحياة الدنيا ورفاهيتها ولذّاتها وزينتها، لذلك يلاحظ في اجتماعات أعضاء «اللّيونز» البذخ والترف وعرض ما يملكون من زينات ثمينة.

وتتستر نوادي «اللّيونز» بدعم المشروعات الخيرية، ونشر معاني الخير والتعاون بين الشعوب.

وأعضاء هذه النوادي يتعاونون فيما بينهم لاستغلال ثروات الأرض، واحتكارها لأنفسهم، ويعتبرون أنفسهم بالنسبة إلى سائر البشر كالأسود بالنسبة إلى حيوانات الغابات، استشعاراً بأنّهم أهل القوة والبأس والسلطان والاستئثار بخيرات الأرض دون سائر الناس، ولذلك أطلقوا على منظمتهم اسم «الأسود = اللّيونز».

(٢)
مبادئهم وتعاليمهم

(١) شعارهم الذي يردّدونه هو مثلث الماسونية وكلٌ بناتها: «الإخاء ــ الحريّة ــ المساواة».

(٢) من مبادئهم تنمية روح الصداقة بين الأفراد بعيداً عن الروابط الاعتقاديّة والدينيّة والمذهبيّة.

(٣) يتستّرون بالدعوة إلى الخير، والتعاون بين الشعوب، وإقامة المشروعات الخيرية الإنسانية، ومساعدة المكفوفين وذوي الحاجات، وتخفيف المتاعب اليومية عن المواطنين من أيّ مذهب أو ملّة، وتقديم الخدمات للبيئة المحليّة.

(٤) الاهتمام بنشر المعرفة بكلّ الوسائل غطاءً لمقاصدهم الأساسية.

(٥) الاهتمام بإقامة المسابقات الترفيهيّة، لجذب الجماهير، وصرف أنظارهم عن القضايا التي تُهم عقلاء الشعوب، وترفع مستوى الإنسانية، وتكشف أبصارها لرؤية الحقيقة.

(٥) دعم مشروعات الأمم المتّحدة لأنّها الطريق الموصل إلى سيطرة اليهود على العالم، وإقامة الدولة اليهودية العالمية التي يحلم اليهود بها، ويخطّطون ويعملون للوصول إليها بكل وسيلة.

* * *

(٣)
اكتساب العضوية

(١) شروط العضوية في نوادي «اللّيونز» تشبه شروط العضوية في «الماسونية» ونوادي «الروتاري» إلّا أنّ نوادي «اللّيونز» تصطفي أعضاءها من كبار رجال الأعمال والملوك والوزراء والأمراء والنوّاب وذوي المراكز الرفيعة في مجتمعاتهم، إذا كانوا من الذين لا يبالون بالدّين وتعاليمه والالتزام بشرائعه، ليكونوا قدوة المجتمع في التحلّل

من الدين ونشر الفساد، وليكونوا أطوع لتحقيق المخططات اليهودية السّرّية، فمن اليسير على شياطين الإنس السيطرة على هؤلاء عن طريق شهواتهم.

(٢) يُخْتار العضو لنادي «اللّيونز» من قبل مجلس إدارة النادي، ولا تُقْبل طلبات الأفراد الراغبين في الانتساب، بل على المرشّح أن ينتظر دعوته من قبل مجلس إدارة النادي وهم لا يختارون ذوي العقائد الراسخة والمبادىء الدينيّة والأخلاقيّة القويمة، ولا أصحاب الغيرة ــ الوطنية أو القوميّة ــ الشديدة، وحين يختار مجلس إدارة النادي شخصاً للعضوية يزورونه ويرغبونه ولا يكلفونه مالاً، بل قد يقدمون له هدايا.

(٣) تهتم نوادي «اللّيونز» باجتذاب السيّدات من زوجات كبار المسؤولين في الدولة، وتُسْنِدُ إليهنّ مهمّة الاتصال بالشخصيات الكبيرة، ولهنّ نوادٍ خاصّةٌ بهنّ تسمّى نوادي سيّدات اللّيونز، مع اشتراكهنّ في اجتماعات أزواجهن أعضاء النادي.

(٤) لمنح العضوية أو الترفيع في الدرجات تكريس يشبه التكريس الذي يكون في المحافل الماسونية، ولكن بصورة أخف، وعلى العضو أن يقسم بالعهد القديم على الإخلاص والكتمان، وتُقَدَّم له نسخة من العهد القديم ضمن صندوق خاص، ولا يتم منح العضوية أو الترفيع إلاَّ بموافقة الرؤساء الكبار للنوادي، وهم رؤساء المركز الرئيسي العالمي.

(٥) تبدأ الدرجات عندهم من الدرجة الثالثة عشرة، وهي في الحقيقة الأولى، فهم يعتبرون الساعات التي قبل الساعة الثالثة عشرة ساعات ليل وظلام، أي إنّ الشخص يظلّ في ظلام حتّى يصير أسداً وعضواً من أعضاء منظمة «الأسود».

وفوق الدرجة «الثالثة عشرة» التي هي الأولى في الحقيقة درجتان عزيزتان لا يصل إليهما إلاّ قلّة قليلة، من ورثة السرّ اليهودي، أمثال «هيلاسيلاسي» الذي كان قريباً ملك الحبشة، وهو يهودي من نسل داود كما يذكرون.

(٦) يَعْتَبِرُ قادةُ منظمة نوادي «اللّيونز = الأسود» أنفسهم حماةً لهيكل سليمان.

فإذا قال أحد الأعضاء في الاجتماع: بنَّاء، أو بنَّاؤون، قال الرئيس: لقد تمّ البناء، ونحن الأسود للمحافظة عليه، وهو يريد تمّ بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصىٰ، أي: اقترب تحقق بنائه.

(٤)
الهيكل التنظيمي لنوادي اللّيونز

يتكوّن كلّ نادٍ من:

(١) رئيس.

(٢) نائب رئيس أو أكثر.

(٣) سكرتير وأمين صندوق.

(٤) مجلس إدارة مؤلف من (١٢) عضواً، ويشترط أن يكون بينهم شخص أو اثنان من رؤساء النادي السابقين (والغرض من هذا الشرط إحكام القبضة على النادي حتّى لا يخرج عمّا هو مخطط له من قبل اليهوديّة العالمية والقيادة الماسونية الأمّ).

(٥) تؤلف لجان متنوعة من قبل مجلس إدارة النادي تكون مسؤولة عن تحريك الأنشطة المختلفة المحقّقة لأهداف النادي السّرّية والعلنيّة.

* * *

(٥)
صور من أعمال وأنشطة نوادي «اللّيونز = الأسُود»

(١) يردد أعضاء هذه النوادي شعار «إخاء ــ حرّيّة ــ مساواة» وعبارة: «الدّين لله والوطن للجميع».

(٢) يجري بين أعضاء هذه النوادي الحوار التالي:

س: إخواني متىٰ يعمّ السلام العالم؟

ج: إذا حكمه الأسود.

س: لماذا كان رمز انكلترا أسَدَيْن؟

ج: لأنّ هذه أسرار قديمة أخذت الآن بالظهور.

س: إلى أيّ عام تعود هذه الأسرار؟

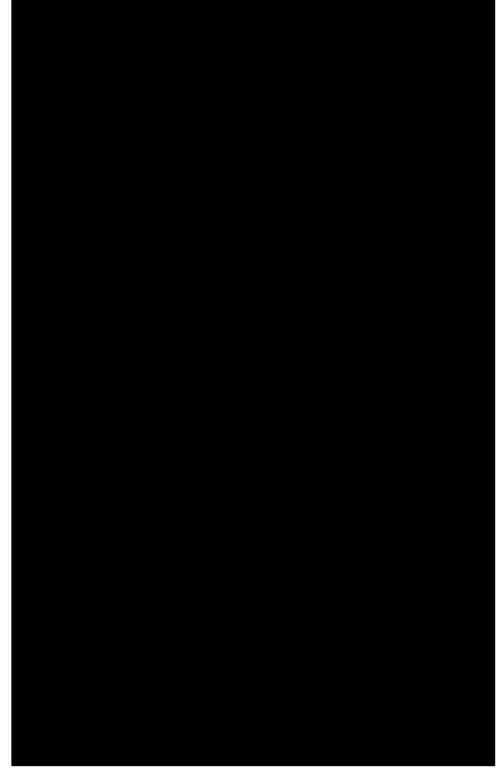
ج : تعود لعام (٣٧م). [أي : للعام الذي أسست فيه منظمة (القوة الخفية)].
ثم للعام (١٧١٧م). [أي : للعام الذي أخذت فيه القوة الخفيّة اسم الماسونية].

(٣) يركّز أعضاء نوادي الأسود في دعواتهم ومحاضراتهم على إبراز مكانة معينة لإسرائيل، ويقومون بزرع أفكار صهيونية في أدمغة الأعضاء.

(٤) تُجمع في نوادي اللّيونز المعلومات المتعلقة بالشؤون السياسية والدينيّة والاقتصادية والعسكرية وغيرها، وترسل إلى المركز العالمي للمنظمة، وهناك تُحلّل هذه المعلومات، وتوضع الخطط اللازمة والمناسبة بشأنها، فيحبطون المشروعات التي يمكن أن تضرّ بأهداف اليهود العالمية، ويشجعون المشروعات التي يمكن أن يستفيدوا منها.

(٥) يتم خلال اجتماعات هذه النوادي التعرف على المهن المختلفة، للتحكم في السوق المحليّة، والتمكن من التدخل في الشؤون الاقتصادية تدخلاً مفيداً لقادة المنظمة ومحرّكيها وموجهي دفتها.

• • •



الفَصْل الرابع

الشُّيُوعِيَّةُ
إحْدَى مُنَظَّمَاتِ النِّفَاقِ في العَالَمِ

لا أريد أن أتحدّث هنا بتفصيل عن الشرور التطبيقيّة للشيوعية، والاشتراكيّاتِ التي هي تمهيد لها، ولا عن مذهبها الاقتصادي وفساده وزيوفه، ولا عن مذهبها الإلحاديّ الشيطاني المجرم الباطل الذي لا يملك أدنى سنَدٍ فكري، فقد كنتُ كتبْتُ عن ذلك ما يكفي، في كتاب «الكيد الأحمر» الخاصّ بالشيوعية، وكتابي «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة».

ولكنّي أتحدّث هنا عن الشيوعيّة باعتبارها منظّمةً من منظّمات النفاق العالمية، إذْ لبست قناع العمل بغَيْرةٍ وإخلاص وصِدْقٍ وتفانٍ لإنقاذ العمّال والكادحين والفلّاحين، من براثن المستغلّين الإقطاعيين والرأسماليين، الّذين ليس في قلوبهم رحمة ولا شفقة نحو البائسين من طبقات الشعب.

وصدّقت جماهير العمّال والكادحين أقوال قادة هذه المنظمة العالمية المنافقة، وصدّقت شعاراتها وأفكارها، واندفعت وراءهم تضحّي بأنْفُسِها وبالملايين من سائر طبقات الشعب، تذبيحاً وتقتيلاً وسحقاً في ثورات داميات مبيدات، وعقوبات صارمات، لتوصلهم إلى السيطرة على دُولٍ صارت ذات قُوىً عظمى، تُرْهِبُ الشطر الآخر من العالم، مؤتلفه ومختلفه، وتتحدّى قواته مجتمعةً ومتفرّقة.

ثم أثبت الواقع التجريبي ما كان قد ذكره من قَبْلُ عُقَلاءُ الشعوب، والمهديُّون بهدي دين الله للناس، وأهل البصيرة بمكر أخباث الناس ومكايدهم، فسحقت هذه المنظّمة الإقطاع والرأسمالية في البلدان التي سيطرت على مقاليد الأمور فيها، واستعبدت العمال والكادحين والفلاحين جميعاً، وزادت البائسين بؤساً، والكادحين كدحاً وتعباً وشقاءً، والعمّالَ إذْلالاً وإهانة وتسخيراً، وبلغت في ظلمها للناس

ما لم يبلغه مستَعْبِدٌ مُسْتَغِلٌ من قَبلُ، من ملوكٍ طغاةٍ جبّارين، وإقطاعيّين يُسخّرون العمّال عبيداً، ورأسماليين يستغلّون كَدْح العاملين ليحصلوا على الثراء الفاحش لهم ولذويهم.

وتربّعت الأحزاب الشيوعيّة في الدول الّتي ظفرت بالاستيلاء على عروشها، تستغلّ وتستثمرُ شعوبها بصورة لم يسبق لها نظيرٌ في تاريخ الاستغلال والاستعباد البشريّ، وحقّقَتْ أهدافها التي كانت تُضمرها منذ البداية، وتُظْهر خلافها نفاقاً ومُخادعة، وبلغتِ القيادات الشيوعية من الاستئثار لأنفسها بكلّ وسائل الترف ما كانت تحلمُ به، وكان كلّ ذلك ضمن مخطّط يهودي مرسوم، ومعلوم النتيجة المدمّرة منذ البداية، إذْ كان الهدف من إقامة هذه المنظّمة والاستيلاء على شطر من العالم بدولٍ دكتاتورية حديديّة، تُسمّي نفسها كذباً ونفاقاً وبالعُنْف دُولاً ديمقراطية، هو التمهيد لامتلاك قوىً في العالم، تُمكّنُ أصحاب المؤامرة اليهود من حكم العالم كلّه شرقه وغربه، بدولة واحدة يتحكّم فيها عنصر بني إسرائيل، بطاقات كلّ شعوب الأرض ومصائرها، ويُسخّر كلّ شعوب الأرض تسخير الراعي لقطعانه من الأنعام.

وكان هؤلاء يقرّرون مُنْذ البداية في مقرّراتهم السّرّيّة أنهم لا يريدون رفاهية العمال والكادحين والفلاحين والبائسين، ولكن يريدون استغلالهم للثورة على خصومهم، ثم استعبادهم وإذلالهم.

جاء في البروتوكول الثالث من «بروتوكولات قادة الحركة الصهيونية» ما يلي:

«إننا نقصد أن نظهر كما لو كُنّا المحرّرين للعمّال، جئنا لنحرّرهم من الظلم حينما ننصحهم بأن يلتحقوا بطبقات جيوشنا من الاشتراكيّين والفوضويّين والشيوعيّين.

ونحن على الدوام نتبنّى الشيوعية، ونحتضِنُها متظاهرين بأنّنا نساعد العمال بدافع الأخوة والمصلحة العامّة للإنسانيّة، وهذا ما تبشّر به الماسونية الاجتماعية.

إنّ الأرستقراطيّة الّتي تقاسم الطبقات العاملة عملها، قد أفادها أنّ هذه الطبقات العاملة طيّبة الغذاء، جيّدة الصّحةِ، قويّة الأجسام، غير أنّ فائدتنا نحن إنّما تكون في ذبول الأمّيين وضعفهم. وإنّ قوتنا تكْمُن في أن يبقى العامل في فقر ومرض دائمين، لأننا بذلك نستبقيه عبداً لإرادتنا، ولن يجد فيمن يحيطون به قوّةً ولا عزْماً للوقوف

ضدّنا. وإنّ الجوع سيخوّل راس المال حقوقاً على العامل أكثر ممّا تستطيع سلطة الحاكم الشرعيّة أن تخوّل الأرستقراطيّة من الحقوق.

ونَحْنُ نحكُمُ الطوائف باستغلال مشاعر الحسد والبغضاء التي يؤجّجُها الضيق والفقر، وهذه المشاعر هي وسيلتنا التي نَكْتَسِحُ بها بعيداً كلّ من يَصُدُّوننا عن سبيلنا.

وحينما يأتي أوان تتويج مَلِكنا العالمي سنستمسك بهذه الوسائل نفسها، أي: نستغل الغوغاء كيما نُحطّم كلّ شيْءٍ قد يثبتُ أنّه عقبةٌ في طريقنا».

ومرّ نَيِّف وستون سنة، والدولةُ الشيوعيّة في الاتحاد السوفييتي تحكم جمهوريّاتها حكماً دكتاتورياً حديديّاً صارماً، بالعنف والقهر والعزل عن العالم الآخر، ثمّ أخذ النظام الاقتصاديُّ الماركسيُّ ينهار من داخله.

وبدأت المشكلات الاقتصادية المنذرة بالجوع القاتل لأكوام الملايين من البشر المحكومين بالنظام الماركسي تحرّك فيهم الثورات المضادّة القابعة في الخفاء، والمتعطشة لنسف النظام الشيوعي وقادته نسفاً كُلِيّاً، وأحسّ قادة النظام الأذكياء بنُذُر الخطر، فأسرعوا ينادون بالإصلاح والتغيير، والرجعة إلى نظام الاقتصاد الحرّ، خشيةَ أن تَقُومَ الثورة المضادة فتسحقهم، كما فعل قادة الثورة الشيوعية من قبلُ إذْ سحقوا خصومهم، وأقاموا نظامهم المادّي الإلحادي، ونظامهم الاقتصاديّ الاشتراكيّ المُسْرِف.

ونادىٰ العالم بأن الشيوعية تتهاوى أبنيتها، وابتهج أعداؤها بانْهيارها، وبتراجع الاشتراكيّات في مختلف دول العالم.

وهنا أخذ مخططو الأمس اليهود يتحركون شطر الدول التي تتحوّل بالتدريج للأخذ بالنظام الحرّ، بغية استغلالها، وابتلاع خيراتها وكنوزها الدفينة، عن طريق النظام الرأسمالي الذي يسيطرون عليه أيضاً سيطرة تامّة، بوسائلهم الماكرة.

وبدأت شركاتهم ومؤسساتهم تحضّر أنفسها للزحف الاستغلالي، وهي تلبس شعارات إنقاذ شعوب الدول الاشتراكيّة من ويلات النظام الاشتراكي الشيوعي الماركسي.

لقد حضر المستغِلُّ المستَعْبِدُ نَفْسُهُ بقناع جديد، إنّه ذو حقيقة باطنةٍ خفيّةٍ واحدة، ولكنّ له وجوهاً ظاهرة متعدّدة كثيرة، وكلُّ وجه منها ينافق به شعباً من شعوب الأرض، ويخدع به هذا الشعب، وهو في الوقت نفسه يخدع شعباً آخر بوجْهٍ آخر، وهكذا تتعدّد وجوهه، وأساليب مكره وخدعه ونفاقه.

إنّه يضمر الكفر بكل ما يُعْلِنُه في هذه الوجوه، ويهدف إلى تحقيق مصالحه الخاصة، من سعيه بكل الوجوه المتخالفة، والمتضادّة، الّتي يظهر بها، بعْدَ أنْ قَسَّمَ ظواهره إلى أقسام قد انفصل بعضها عن بعض، لكنّ هذه الظواهر تعمل بقوّة باطنةٍ مكتومة واحدة، أمّا هُوِيَّةُ قيادته فواحدة.

وقد كنت من الّذين يُقَدِّرون سقوط الشيوعية وكلّ المذاهب المنافية للفطرة التي فطر الله الناس عليها، منذ بدأت أكتب وأفكر في هذه المذاهب، وأُقارِنُها بما جاء في الإسلام دين الله الحقّ، من نيّف وعشرين سنة. وأذكر أنني دونت هذا في بعض ما كتبت، ولا سيما كتب الغزو الفكري، المندرجة في «سلسلة أعداء الإسلام».

ولمّا بدأت قلاع المذهب الماركسي تتساقط في الاتّحاد السوڤييتي أعتى دوله في الأرض، لم أُصَبْ بالدّهشة ولا بالاستغراب، لأنّه كان أمراً متوقعاً في نفسي، ولا سيما بعد أن ظهرت أماراته عقب دخول الاتّحاد السوڤييتي الْحَذِرِ في أفغانستان، ثم جموده، ثم تراجعه.

وعند بدايات سقوطه كنت مع أسرتي في إجازة صيفية بالدار البيضاء، كبرى بلاد المغرب العربي، مستضافين في دار أسرة كريمة جمعتنا بهم الأخوّة الإيمانية في مكة والمغرب، فكتبت بمناسبة سقوط الشيوعية القصيدة التالية، بعنوان:

المُزَيِّفُ المُخْتال

سَقَطَ الْمُخْتَالُ عَنْ صَهْوَتِهِ ... فَإِذَا الْفَارِسُ مِنْ خَمْرٍ وَطِينْ

وَإِذَا جَبَّارُهُ أُكْذُوبَةٌ ... صِبْغُ أَوْرَاقٍ عَلَى شَكْلِ عَرِينْ

مَا الَّذِي تَصْنَعُهُ آلَتُهُ ... إِنْ يَكُنْ قَائِدُهَا هَشَّ الْعَجِينْ

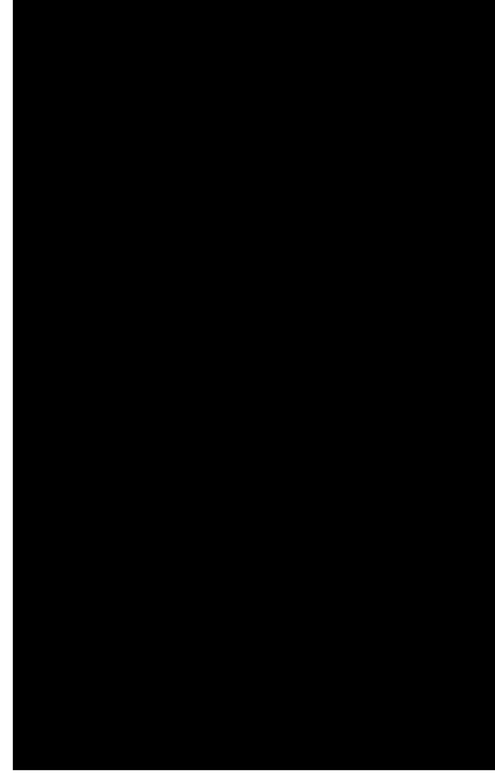
لَبِثَتْ بِالزَّيْفِ وَ«الْفُودْكَا» إِذَا ... دُعِيَتْ كَرَّتْ كَمَسْعُورٍ مَهِينْ

ثُمَّ لَمَّا اكْتَشَفَتْ وَاقِعَهَا   خَسِئَتْ تَلْهَثُ كَالْجَرْوِ الْحَزِينْ

* * *

كُلُّ مَا لَيْسَ عَلَى فِطْرَتِهِ   عُمْرُ أُكْذُوبَتِهِ بِضْعُ سِنِينْ
ثُمَّ تَمْتَدُّ لَهُ أُسْطُورَةٌ   حِينَمَا يَقْبَعُ فِي حِصْنٍ حَصِينْ
دَأْبُهُ فِيهِ رُغَاءٌ وصَدىً   وَزَئِيرٌ فِي مَكَانٍ ذِي رَنِينْ
وهويُعْطِي جُنْدَهُ حَاجَاتِهَا   لِيَظَلَّ الْحِصْنُ فِي الْحِرْزِ الْمَكِينْ
فَإِذَا الأَمْدَادُ شَحَّتْ وَجَدُوا   سَيِّدَ الْحِصْنِ هُوَ الصَّيْدَ الثَّمِينْ
ثُمَّ تَغْدُو بَيْنَهُمْ ثَائِرَةٌ   تَجْعَلُ الْحِصْنَ خَدِيثاً لِلْقُرُونْ
إِنْ أَتَى السَّائِحُ كَيْ يَنْظُرَهُ   لَمْ يَجِدْ غَيْرَ ذُبَابٍ وَطَنِينْ

الدار البيضاء ـ المغرب
في ٢ محرم ١٤١١ هجرية
و ٢٤ تموز ١٩٩٠ ميلادية



الفَصْلُ الخَامِسُ

مُنَظَّمَةُ شُهُودِ يَهْوَهْ
«أي : شُهُودُ ٱللهِ»(١)

مقدمة

ركب اليهود عربات الماسونية والروتري واللّيونز والشيوعية والرأسمالية، وسائر المنظّمات والمذاهب العالمية ذات الأهداف المرحليّة، التي جرّتها لهم بغال أشدّاء، مغفّلون عُمْيَان، أو أصحابُ أهواء وشهوات ومصالح شخصية، أو مجرمون طغاة.

وكانت هذه العربات تنقل صانعيها اليهود مرحلةً فمرحلةً لتحقيق هدفهم الأكبر، وهو حكم العالم، والسيطرةُ على كلّ شيءٍ فيه، وتسخيرُ شعوب الأرض غير اليهودية لمجدهم، ورفاهيتهم، والاستمتاع الدائم بالملك والسلطان فى الأرض كلّها.

ولمّا رأوا أنّهم قطعوا مراحل متعدّدة مقتربين من هدفهم الأكبر، وحقّقوا قدراً كبيراً من أهدافهم المرحليّة، صنعوا عربةً جديدة اسمها «منظمة شهود يهوه».

وبعد أن أتمّوا صناعة هذه العربة توجّهوا يُجَمِّعون مغفَّلينَ وأهل أهواء يسخّرونهم في جرّها، من مختلف شعوب الأرض ولا سيما الذين قالوا: إنّا نصارى.

واليهود يقدّرون أن هذه البغال البشرية سيجرّون لهم عربتهم الجديدة «منظمة شهود يهوه» لاجتياز المراحل القريبة من هدفهم الأخير، وهو حكم العالم حكماً يهودياً مباشراً، على اعتبار أنهم سادة العالم، أمّا سائر شعوب الأرض فهم قطعان من الدّوابّ مسخَّرُون بالإرادة الإلَـهيّة لرفاهية السادة اليهود من بني إسرائيل، شعب الله المختار.

---

(١) انظر التحقيق الذي جاء في مجلة الدعوة بعددها (١٣٠٧) تاريخ ١٤١٢/٣/٤هـ حول منظمة «شهود يهوه» فقد أفدت منه بالإضافة إلى أشياء كثيرة قرأتها عن هذه المنظمة.

ولمّا أمْسَتْ معظم دول الأرض المتقدمة في القوة والمال والصناعة، في هذا العصر دولاً تنتمي إلى النصرانيّة، وهي تُؤمِنُ بالمسيح عيسى عليه السلام إلَهاً، وتؤمنُ بالتثليث، فقد رأى اليهود أن يركبوا مركب النفاق، بجعل هذه العقائد النصرانيّة إحْدَى أركان عربتهم الجديدة، ليجرُها لهم الذين يتفقونهم من الشعوب التي تُؤمن بالمسيح عيسى إلهاً، وتؤمن بالتثليث، وتتطلّع إلى حكم العالم، من خلال دولة عالميّة مُوحّدة يَسُودُها السّلامُ العالميّ، في بريق التزيين الخادع الذي يصطنع اليهود صوره وأشكاله وألوانه.

اسم المنظمة:

اختار اليهود لهذه المنظمة اسم «شهود يَهْوَه» أي: شهود الله، فلفظ «يَهْوَه» عند اليهود يساوي لفظ «الله» وهو الاسم المقدّس عندهم للبارىء الخالق، الذي جعل بني إسرائيل أبناءه وأحبّاءه، وشعبه المختار كما يزعمون.

التعريف بها:

منظّمة «شهود يهوه» منظّمةٌ سرّيّةٌ عالميّة، نصرانيّةٌ في ظاهرها، يهوديّةٌ في باطنها، فللنّصارى منها اسم المسيح عيسىٰ، وعقيدة التثليث، وجنود التنفيذ العميان، ولليهود منها الأهداف الصهيونيّة، والقيادة المحركة والموجّهة والمستثمرة، فشأنُها في الباطن كشأن الماسونيّة والروتري واللّيونز.

وتكْمن خطورة هذه المنظمة في سرّيّتها تنظيماً وأهدافاً وأعمالاً في الظلام.

وهذه المنظمة ذات مبادىء، فمن مبادئها:

الإيمان بـ «يهوه» إلَهاً، وبعيسىٰ رئيساً لمملكة الله، وبهذا يوهم اليهود النصارى أنّ منظمة «شهود يهوه» فرقة نصرانية.

أمّا هدفُها فيتلخّصُ بإقامة حكومة عالميّة دينيّة دنيوية تسيطر على العالم أجمع، ولذلك أقامت تحالفاً صليبيّاً صهيونيّاً، لتحقيق هذا الهدف، والطامعون اليهود يعملون منافقين تحت مظلة الصليب لحكم العالم كلّه بإدارة واحدة.

وأمّا هيكَلُها فيتلخّصُ بما يلي:

(١) لهذه المنظمة تنظيم حركيٌّ حديديٌّ يعتمد على القوة.

(٢) لديها إمكانيات مادّيّة عظيمة.

(٣) تدعمها سائر المنظمات اليهودية. والسائرون في أفلاكها من دول العالم، والسّياسيّون العاملون النشيطون فيها.

(٤) لها فروع منتشرة في أكثر من (١٥٠) دولة في العالم.

(٥) أعضاؤها المنتمون إليها بلغوا حتى الآن قرابة مليون عضو.

نشأتها:

* ظهرت في العالم الغربي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، باسم «جمعيّة العالم الجديد».

* وفي عام (١٩٣١م) غيّرت اسمها، فصار اسمها الجديد «شهود يَهْوَه» وعندئذٍ أفصحت عن هدفها الرئيسي، وهو إقامة حكومة دينيّة دنيويّة تسيطر على العالم كلّه، مع إضمار أن تكون هذه الحكومة بأيدي اليهود الذين هم قادة منظمة «شهود يهوه» وبذلك تكون الأرض وشعوبها جميعاً في قبضتهم، كما يتصوّرون ويقدّرون، ووفق تدابيرهم التي يُدبّرونها، وأسبابهم الّتي يتّخذونها.

* ارتبط اسم هذه المنظمة في البداية باسم الراهب النصراني «تشارلز راسل» وذلك من سنة (١٨٦٢م) حتى سنة (١٩١٦م) فكانت تنسب إليه، لأنه كان رئيسها، وكانوا يعرفون أيضاً باسم «الدارسون الجُدُدُ للإنجيل».

* وخلفه في رئاسة المنظمة «فرانكلين رذرفورد» فطوّر هذا من أسلوب العمل فيها، وحدّد إطارها النظريّ وأهدافها، ولا سيّما في كتابه «سقوط بابل» الذي يُعَدُّ من الوثائق الكبرى لهذه المنظمة، وهو يرمز بلفظ «بابل» إلى كلّ الأنظمة الموجودة في العالم.

* وخلفه في رئاستها «نارثان هرمركنور» وفي عهد هذا الرئيس ازدادت تنظيماً وقوّةً، إذْ حَرِص على إقامة تنظيم حديديّ يَحْمِلُ أهداف المنظمة.

وسائل إعلامها:

لهذه المنظمة كتُبٌ ونشراتٌ خاصّة بها، مثل:

(١) مجلة باسم «برج المراقبة الصهيوني» الذي عُدّل فيما بعد إلى اسم «برج المراقبة» لإخفاء الهويّة الصهيونيّة.

(٢) مجلة «الخبر الجيّد عن الوطن» والمقصود بالوطن الحكومة العالميّة التي تسعىٰ المنظمة للوصول إليها.

(٣) كتاب «الأساس في الإيمان بعالم جديد».

(٤) كتاب «العيش بأمل نظام عادلٍ جديد».

(٥) ولهم نشرة تصدر تحت عنوان «استيقظ».

ومعظم كتبهم وصحفهم ونشراتهم توزّع مجّاناً.

مراكز قوتها في العالم:

لهذه المنظمة حاليّاً مراكز قوة في: «النمسا ـ ألمانيا ـ الدانمرك ـ فرنسا ـ بريطانيا ـ القارّة الأمريكيّة».

ومركزها الرئيسيّ هو حاليّاً في «حيّ بروكلين» بنيويورك.

ولها فروع في العديد من الدول الإسلامية.

تحركاتُها للاصطياد:

تحاول هذه المنظمة التأثير على ذوي الظروف الصعبة من مهاجري العالم الثالث، إلى البلدان التي تتركز فيها قوّتها، وذلك باستمالتهم عن طريق تسهيل أمورهم، ومساعدتهم، وتجنيدهم أنصاراً لهم ولمبادئهم في بلدانهم.

* تعمل هذه المنظمة بالتنسيق مع المؤسسات التنصيريّة، والكنَسيَّة بوجه عامّ، مستغلّة شعاراتها الظاهرة، المتَسَتِّرة بالمسيح عيسىٰ عليه السلام، وعودته، واعتبار إنجيل النصارى كتاباً مُقدَّساً لديها، وهي تفسّر نصوصاً من أناجيلهم بما يتفق وأهداف المنظمة.

* نشط أعضاء هذه المنظمة في الدخول إلى البلاد العربيّة والإسلاميّة بعد عام (١٩٧٩م) ولا سيّما التي تعرّضت للفقر، أو الجوائح والكوارث والأزمات.

وتتسلل إلى كثيرين من خلال المؤسّسات التنصيريّة الموجودة في العالم الإسلامي، باعتبارها فرقة نصرانية بحسب الظاهر، ذات فهم خاصّ للنصرانية، وقادتُها في الحقيقة يهود صِهْيَوْنيّون.

عقائد هذه المنظمة وتعاليمها:

(١) يدعون إلى عقيدة التثليث كما يلي: «يَهْوَه» أي الله و «الابن» وهو عيسى عليه السلام، و «الروح القدس».

(٢) لا يؤمن أعضاء «شهود يَهْوَه» بالآخرة والحياة بعد الموت، ولا يؤمنون بالروح وخلودها، بل يعتقدون أنّ الجنّة ستكون في الدنيا في مملكة «شهود يَهْوَه».

ومن المعلوم أن إنكار الآخرة والحياة بعد الموت هو من عقائد الصدّوقيين، إحدى فرق اليهود المنقرضة.

(٣) يعادون جميع الأديان إلّا اليهودية، ويعادون الأنظمة الوضعيّة، ويدعون إلى التمرّد عليها.

(٤) يعترفون بالكتب التي تعترف باليهوديّة، وعددها (٩١) كتاباً.

(٥) لهم معابد خاصّة بهم، يسمّونها «القاعة» أو «بيت الربّ».

(٦) من تعاليمهم أنّ الأخوة الإنسانيّة مقتصرة عليهم دون غيرهم من البشر.

(٧) يؤكّدون أنّ حرباً عالميّة تحريريّة ستقوم، وسيقودها عيسَىٰ، وأنّهم سيكونون جنوده المخلصين، فيذبحون الحكّامَ في جميع الأرض، ويُعْلنون حكومتهم العالمية.

(٨) ينتقون من الأناجيل النصوص التي تثني على اليهود، وتمجّد بني إسرائيل، وينشرونها بين أعضاء المنظمة، حتى تكون جزءاً من مفهوماتهم الثابتة.

كيفيّة التكاثر في هذه المنظمة:

بعد التعريف بأهداف المنظمة عن طريق النشرات والكتب يختار الأعضاء

السابقون الأشخاص الذين يرونهم مؤهلين للانضمام إلى المنظمة، ثم يخضع هؤلاء المرشحون لمراحل معقَّدة من الاختبارات، والشروط القاسية، نظير ما يحدث في الماسونيَّة، حين يُضَمُّ عضو جديد لمحفل من محافلها.

شعاراتها وعلاماتها:

تنقسم شعاراتها وعلاماتها إلى قسمين:

القسم الأول: علامات أساسيَّة ومركزيَّة، وهي:

(١) «الشمعدان السباعي» الذي هو رمز اليهود الديني والوطني.

(٢) «النجمة السداسية» وهي شعار إسرائيل واليهوديَّة العالمية، وهي نجمة داود عليه السلام.

القسم الثاني: ولهم أيضاً علامات فرعية، تُمَيِّزُ أعضاء المنظمة من غيرهم، وربما تكون وسيلة للتعارف فيما بينهم، كرموز التعارف بين أعضاء الماسونيَّة.

وقوع هذه المنظمة تحت سيطرة قيادة يهودية صرف:

أعضاء هذه المنظمة واقعون تحت سيطرة قيادات يهوديّة صرف، وهم يتبنَّوْن العقيدة اليهوديّة الصهيونيّة، ويعملون وفق تدبيرات وخطط يهودية صهيونيّة.

لذلك فهذه المنظمة ذات علاقات وثيقة بإسرائيل، وبالمنظمات اليهودية العالميّة، كالماسونيّة، والروتاري، والليونز، ولها علاقات وثيقة بالمنظمات الاشتراكيّة الدولية، لأنّ اليهود هم صانعوها وموجهوها وقادتها في العالم.

وتحاول المنظمة توطيد علاقاتها مع الفاتيكان، ومؤسسات التنصير العالمية، وذوي النفوذ من اليونانيين، والأرمن، وغيرهم، بغية استغلالهم لتحقيق أهداف المنظمة.

مجالات أنشطتها:

(١) وسائل إعلامها التي سبق بيانها.

(٢) التعليم، وذلك بتأسيس المدارس الخاصة.

(٣) الأنشطة الزراعيّة.

(٤) مكاتب التأليف والترجمة.

(٥) اللّجان الدينيّة العليا الخاصّة بتفسير الأناجيل والكتب اليهودية وفق مفهومات المنظمة.

(٦) التعاون مع كلّ منظمة تسير في أيّ مخطط من مخطّطات اليهود.

(٧) إقامة علاقات وثيقة مع أجهزة الاستخبارات والجاسوسيّة العالمية، لاستخدامها في تحقيق أهداف المنظمة.

الأفكار التي تنشرها المنظمة للإقناع بضرورة وجود حكومة عالميّة:

تتضمّن الأفكار التي تبثّها المنظمة في نشراتها وصحفها وكتبها للإقناع بضرورة حكومة عالمية ما يلي:

تحت عنوان «لماذا نحتاج إلى حكومة عالمية؟» تقول إحدى نشراتهم:

«كثيراً ما توحي فكرة حكومة واحدة عالميّة في يد الشخص المناسب، إنّما تُوحّدُ البشريّة بالسّلام.

والخوف من أيّ حكومة عالميّة في يد ظالم هو أنّه قد يستعبد كلّ الجنس البشري.

وبالنظر إلى أن ما يمكن ربحه أو خسارته بإقامة حكومة عالميّة هو كثير، فإنّ علينا أن نطرح السؤال التالي:

هل يستحقّ التفكير في إقامة حكومة عالميّة الاعتبار الجدّيّ؟

الجواب: نعم، تحتاج البشرية إقامة حكومة عالميّة لأسباب كثيرة، منها الأسباب التالية:

أولاً: إن النوع الصحيح من الحكومات العالمية قادر على تحقيق الأمور التالية:

(١) إيقاف التهريب الدولي للمخدرات، وبذلك تُكْبَحُ الجريمة التي تكون دوافعها تحصيل الثروات عن طريق المخدرات.

(٢) إزالة الحدود القوميّة، وتوحيد شعوب العالم، وتخليص الناس من معاناة إقامة الحدود بين الدول.

(٣) توزيع الغذاء على جميع شعوب الأرض بالتساوي، وبذلك ينعدم الجوع بين البشر.

(٤) إزالة المخزون الاحتياطي المتزايد من الأسلحة الذي يثير الرعب في قلوب الناس، وبذلك يتعلّمون العيش بسلام.

(٥) وإذا عمل الجنس البشريّ باتّحاد في ظلّ حكومة واحدة أمكن أن تختفي المشكلات الخطيرة الّتي تشغل رعايا كلّ دولة، ومنها ما يُؤثر على حياة الناس.

ثانياً: لقد علمتنا تقنية عصر الفضاء أنّ الحياة مرتبطة معاً، من أصغر المخلوقات ذات الخليّة الواحدة، إلى أعقدها، وكلّ شيء له علاقة تقريباً بشيء آخر.

وهذا المبدأ يصحّ في الدول أيضاً، ويلاحظ أنّ في دول نصف الكرة الشمالي ربع سكان العالم، لكنّها تملك تسعة أعشار صناعات الأمتعة، وتقبض أربعة أخماس الدخل العالمي، بخلاف نصف الكرة الجنوبي.

وباستطاعة الحكومة العالمية أن تفهم هذه الفروق وتوازن بين نصفي الكرة الأرضية، وتتخذ الحلول التي تعالج الفقر والمجاعة والتلوث وأخطار الطاقة النوويّة، وهذه الأمور لا تُحلّ منفصلة، إنما تُحَلُّ بشكل متكامل.

وتهاجم منظمة «شهود يَهْوَه» جميع دول العالم، وتصفُها بالقَبَليّة.

ثالثاً: لكي تنجح الحكومة العالميّة الواحدة لا بدّ من أن تتمكن من حشد موارد العالم المادّيّة والبشريّة، لتزويد حاجات فقراء العالم وإقامة المساواة بين الدول الغنيّة والدول الفقيرة.

رابعاً: منذ عام (١٩٤٥م) تشكّلت ثلاث منظمات عالميّة رئيسيّة لحفظ النظام، هي «الأمم المتحدة» في (١٩٤٥م). وحلف شمال الأطلسي «الناتو» في سنة (١٩٤٩م). وحلف وارسو سنة (١٩٥٥م).

ولكن لم تحقّق أيّة واحدة منها تقدُّماً رئيسيّاً نحو السلام العالمي، فقد هزّ العالم

منذ عام (١٩٤٥م) ما يزيد عن مئة نزاع مسلّح، بما فيها أربعون حرباً أودت بحياة ما يزيد على ثلاثين مليون نسمة.

والعالم الآن يترنّح على شفير عاصفة ناريّةٍ نوويّة، ورغم إخلاص مؤيّدي «الأمم المتّحدة» فقد برهنت على أنها عاجزةٌ، فالمشاحنات بين أعضائها تتغلب على أعمالها، والأحلاف العسكريّة تُصَوِّبُ قنابلَها مُتَقابلةً يُواجِهُ بعضها بعضاً، وتجلس «الأمم المتّحدة» متورطة في مجادلات حول من يُلامُ على سباق التسلّح.

خامساً: لكن إذا قام حاكم عادلٌ للعالم، مالِكٌ الوسيلة لتوحيد العالم في سلام، فإنّه سيتمكّن من تحقيق السلام العالمي على أفضل وجه.

سادساً: وتوصّل التفكير اليهودي الصهيوني بعد هذه المقدمات إلى أنّ «يَهْوَه» الذي خلق السماوات والأرض يَعْلَمُ ترابط أشياء الكون ببعضها، لأنّها كائنةٌ بإرادته وخلقه، وقد صار مهتمّاً بمسألة الحكومة العالمية، وإنّه اختار مديراً كاملاً ممتحناً ومجرّباً ليكون زعيماً لشعوب الأرض جميعاً، وهو أسْمَىٰ من البشر، مع أنّه ذو قرابة لكل الجنس البشري.

هذا المدير المختار هو ابنه يسوع المسيح، ويسوع المسيح هو رئيس حيٌّ فعلاً، هو ابْنُ القادر على كلّ شيء «يَهْوَه» وقد أعطاه الحكم والسلطان، وتكون الرئاسة على كتفه، ويُدْعَىٰ رئيس السّلام، وهو سيتغلّب على كلّ العقبات، ويُحْدِثُ تغييراً عالميّاً يوحّد بين شعوب الأرض بسلام.

التعقيب:

من الملاحظ أنّ ادّعاءات هذا التنظيم قائمة على التكهّناتِ حول وجود المسيح الذي يزعمونه ابناً لله «يَهْوَه» وحكمه للعالم، وإحداثه للتغييرات في كلّ العالم، وقائمة على الأوهام والأكاذيب، لجذب أصحاب العقول السقيمة، والنفوس الضعيفة، والعقائد الفاسدة.

ومن الملاحظ أيضاً أن اليهود ما يزالوان يَحْلُمون بأنّهم سيحكمون العالم، وسيربطون شعوب الناس في الكرة الأرضية بحزامٍ واحد، يكونون هم رؤوسه وقادته وملوكه، ويسعون لتحقيق هذا الحلم بكلّ وسيلة.

ولو أنهم تذكروا تاريخهم، ووضعوه نُصْب أعينهم دواماً، لعلموا أنّهم عاجزون عن أن يحافظوا على دولة غير كبيرة في رقعة من الأرض لعدّة قرون.

إنّهم لم يستطيعوا أن يحافظوا على دولتهم الواحدة الّتي كانت لهم أيام سليمان بن داود عليه السلام، بل اختلفوا وتقاتلوا فيما بينهم، فتمزّقت دولتهم، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى.

وموقع اليهودي الطبيعي غير الاستثنائي والشاذّ، هو أنهم ضُرِبت عليهم الذلّة والمسكنة، وباءُوا بغضب من الله.

أمّا حكم العالم بدولة واحدة فقد راود فاتحين كباراً، ومنهم ذو القرنين، ومع ما حقّقوا من سلطان عظيم، لم يلبث ملكهم أن انهار، وتمزّقت إمبراطورياتُهم، وعاد الناس إلى دُوَلٍ مُتَشاقَّةٍ مُتَقاتِلَةٍ مُتنافسة، وذلك لأنّ طبيعة الناس القائمة على أنّ أفرادهم ذوي إرادات حرّة، ونزعات ونزغاتٍ وأهواء ومصالح مختلفة متعارضة، لابتلائهم في ظروف الحياة الدنيا، لا يمكن أن تخضع دواماً لسلطان واحد، يُورَثُ من بعده، مهما كان ذا نظام صارم، وصاحب قبضةٍ حديديّة شديدة.

وهل استطاعت أيّة دولة متقدّمة من دول العالم المتحضرة مع ما لديها من ثروات وقوى، أن تنهي معاناة شعوبها، وأن تخلّصهم من مشكلاتهم، وأن تنهي ما في نفوس أفرادها من تنازع على السلطة؟

إنّها أوهام في أوهام، ومؤسسو المنظمة يعلمون ذلك، لكنّ حُلْم اليهود بأن يصلوا إلى حكم العالم أجمع، واستغلال كلّ ثرواته، وكلّ الجنس البشري، وأن يكونوا هم ملوك الدنيا، حُلْمٌ مالِكٌ عليهم كلّ مشاعرهم وأفكارهم، فهم يسعون لذلك بكلّ ما يملكون من حيلة ومكر ومال ووسائل شيطانيّةٍ خبيثة، ولعبتُهُمُ الجديدة في العالم هي لعبة السّلام.

وأحيل القارىء إلى مطالعة الوثيقة الثالثة من فقرة «وثائق من أقوال اليهود» في أواخر كتابي: «مكايد يهودية عبر التاريخ» فسيجد فيها أنّ دعوة اليهود إلى السلام مكيدة جديدة قدّروا أنها ستوصلهم إلى حكم العالم أجمع، واستعباده وإذلاله.

لكنّ الله عزّ وجلّ لن يمكّنهم من ذلكَ، بل سيعيدهم إلىٰ موقعهم الطبيعي الذي له صفة القاعدة، وهم الآن في حالة الاستثناء، كما قال الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

جاك تنيّ «عضو مجلس الشيوخ الأمريكي»، ورأيه في الحكومة العالمية:

جاء في كتاب «الأخوة الزائفة» الذي يعرض طائفة كبيرة من مكايد اليهود في العالم المعاصر، لمؤلفه «جاك تنيّ» عضو مجلس الشيوخ الأمريكي، في معرض حديثه عن تأسيس هيئة الأمم المتحدة، ودور اليهود فيها قوله[1]:

«ليست الحكومة العالمية مجرّد حركة يمكن فهمها وإيقافها، بل هي إعلان فريد عن هجوم ضارّ عميق الجذور، ذكيّ وحاقد، موجّه ضدّ أسس الحضارة والدين، وربّما يُمْكن لها أن تنجح في طمس شمس الحرّيّة، وإخماد الثقافة الدينيّة لعدة أجيال قادمة.

وتكمن قوّتها في إغراء ادعاءاتها، وجهل المؤمنين الجدد بها، والملاحظ أنّ أنصارها يحرصون على كتم أنفاس أعدائهم، وعدم وصول أصواتهم، وممّا يزيد في فعالية ذلك سيطرة اليهود على وسائل الإعلام والاتصال، ومن الصعب مهاجمة أساليبهم الخادعة للدهماء، والمضلّلة للجماهير.

ولكنَّ الحقيقة تظلّ غالباً مدفونة في أعماقٍ خفيّة أو نصف مستترة، وينجح فنُّ الدّعاية في تلوين أفكار الناس، وتقومُ الحواجز الذهنيّة الغربية بسدِّ الطرق أمام المنافذ المؤدّيَة إلى الحقائق المخبّاة.

---

(١) انظر الصفحة (١٤٥) منه طبع مؤسسة الرسالة (الطبعة الأولى) ترجمة: «أحمد البازوري».

وقبل تطويق القوى الخبيثة التي تحيك المؤامرات ضدّ الحرّيّة، لا بدّ أن نعرف هذه القوىٰ ونكشفها».

ويقول أيضاً في الصفحة (١٩٨) من كتابه هذا:

«وأمّا سطوة المال اليهودي فقد قويت أكثر من أيّ وقت مضى، وقوّته الرّهيبة مسيطرة في كلّ أنحاء العالم.

وفي الوقت نفسه توجد عمليّة السيطرة على العالم من خلال الأمم المتّحدة، مع أنّها غير مهيّأة حتّى الآن لإخضاع أُمم الأرض إخضاعاً تامّاً، وينتشر رجال الدعاية اليهود في كلّ مكان، في الحكومات، وفي ميدان الصحافة، وفي الإذاعات بنوعيها المسموع والمرئي، وفي الكنائس.

ولا يبدو أنّه توجد قوّة ما قادرة على إيقاف الزحف اليهودي للسيطرة على العالم، إنّهم لم يعودوا يعملون وحدهم، فالأمّيّون الذين غُسِلَتْ أدمغتهم، وأصبحوا كالببغاوات، يردّدون الدّعاية الصهيونية بحماس متقطع الأنفاس، موجودون في كلّ مكان، في مجالس الشيوخ، والنواب، وفي النوادي، وفي زوايا الشوارع».

● ● ●

خاتمة الكتاب

هـذا ما فتـح الله به عليّ فيمـا يتعلّق بالنفـاق والمنافقين، تحـديـداً، وتقسيمـاً، واستنبـاطاً من النصـوص وضوابط الفكـر، واستخراجـاً لصفـات المنـافقين، ولآثـارهم الضارة المفسدة، وبياناً لما أعدّ الله لهم من جزاءٍ عادلٍ وسوءِ مصير، ودراسةً تدبُّريّة للنّصـوص القرآنيـة التي نزلت بشـأن المنافقين مـرتَّبَةً بحسب تـرتيب نـزولهـا، ونـظرة استعراضية للمنافقين في التاريخ.

على أنّ موضوع إحصـاء أحداث المنـافقين في التاريـخ واستعراض قـادتهم من الأمور المتعذّرة بالنسبة إلى الطاقة البشـريّة، لـذلك لم يكن لـديّ إلّا أن أكتفي بعرض أبرز قادتهم وأحداثهم، ممّا تيسّر لي أنْ أظفر به لدى تتبُّعي الانتقائي غير الشـامل لمـا في مُدَوَّنات التاريخ.

وأعتقـد أنّ مـا قـدّمتـه في هـذا السِّفـر كـافٍ لعـظة المسلمين قـادةً وشُعـوبـاً، ولتحذيرهم من مكايد المنافقين، وتحذيرهم من اتّخاذ بطانةٍ منهم، الأمـر الذي يستلزم التنبُّه لصفاتهم، وظواهر سلوكهم، ووضع مَنْ تحوم حـولهم الشبهات مـوضع المـراقبة والحذر الشديد، مع عدم الركون إليهم لمجرّد انتمائهم إلى المسلمين، وادّعائهم أنّهم قد آمنوا وأسلموا، أو لمجرّد كـونهم من ذراري المسلمين يحملون الهوّيـة الإسلاميـة، فالإسلام انتماءٌ إراديٌّ شخصيٌّ، وتطبيق عمليٌّ صـادق، وليس أمراً يُـورث كما تُـورث الأنساب، ولا أمراً جبريّاً يلتصق بالإنسان كما تلتصق القومية أو بلد الولادة والنشأة.

هذه الدراسة الجديـدة الّتي لم أجد فيمـا أعلم من سبقني إلى مثلها عن النفـاق والمنافقين بالصورة الّتي انتهجتها، أقدّمها إلى الأمّة الإسلاميّة، سائلاً الله عزّ وجـلّ أن يَهَبَ هذه الأمّة المجيـدة المصطفـاة من بين الأمم رُشْدَهـا، ويمنحها البصيـرة الواعيـة اليقظة، حتّى تعمل بوصايا كتاب ربّها جلّ وعلا، وسنة نبيّها ﷺ، وحتّى لا تتكرّر لـديها

الغفلات التي دخل من أبوابها المختلفة المنافقون، فكادوها كيداً كُبّاراً، وحتّى يأخذوا الأمور بقوابلها قبل أن تستفحل، ويعلموا أنّ المنافقين هم أكْبَر الأعداء فيحذروهم، كما أمر الله عزّ وجلّ رسولَهُ فَكُلَّ مُؤْمِنٍ من بعده بقوله في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول):

﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٤﴾.

ربّنا عليك توكّلنا، فاحفظنا من النفاق، وقِنَا شرور المنافقين، ورُدّ كيدهم إلى نُحورهم، وامنحنا البصيرة لمعرفتهم والحذر منهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى سائر النبيين والمرسلين.

مكة المكرمة

في يوم الإثنين ٢٤ جمادى الثانية ١٤١٢هـ
و ٣٠ كانون الأول ١٩٩١م

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
(١٤) ممن ذُكر من المنافقين من أحبار اليهود: سعْد بن حنيف ـ نُعْمان بن أوفى ـ عثمان بن أوفى ـ رافع بن حُرَيملة ـ رفاعة بن زيد بن التابوت ـ سلسلة بن برهام ـ كنانة بن صُوريا ـ زيد بن اللّصيت	٥٣١
المقولة الثانية: حول طائفة من أحداث المنافقين في عصر الرسول ﷺ	٥٣٣
الفصل الثالث: منافقون عبر تاريخ المسلمين بعد عصر الرسول ﷺ	٥٤٥
وفيه سبع مقولات:	
المقولة الأولى: مقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه	٥٤٦
المقولة الثانية: المنافق اليهودي عبد الله بن سبأ وخباثته الخطيرة في تاريخ المسلمين	٥٤٩
المقولة الثالثة: المنافق اليهودي (أو المجوسي) ميمون بن ديصان القدّاح، وخباثته الخطيرة في تاريخ المسلمين	٥٧٥
المقولة الرابعة: المنافق ابن العلقمي وخيانته للدولة الإسلامية وخليفتها العباسي المستعصم بالله محمد بن الظاهر	٥٨٥
المقولة الخامسة: يهود الدونمة المنافقون ودورهم في سقوط الخلافة العثمانية وإقامة العلمانية	٥٨٨
المقولة السادسة: منظمة البابية فالبهائية إحدى المنظمات المنافقة	٥٩٩
المقولة السابعة: منظمة القاديانية	٦١٦
القسم الرابع	
منظمات نفاق عالميّة ذات شعارات إنسانية عامة	
تظهرها لتحقيق رغبات خاصة تُبطنها	
الفصل الأول: الماسونية منظمة نفاق عالمية	٦٣١
الفصل الثاني: نوادي الروتاري إحدى بنات الماسونية	٦٥٩
الفصل الثالث: نوادي اللّيونْز (الأسُود) إحدى بنات الماسونية	٦٦٣
الفصل الرابع: الشيوعية إحدى منظمات النفاق في العالم	٦٦٩
الفصل الخامس: منظمة شهودُ يَهْوَهْ (أي: شهود الله)	٦٧٥
خاتمة الكتاب	٦٨٧

●●●

آثار المؤلف

أولاً ـ في سلسلة أعداء الإسلام:

(١) مكايد يهودية عبر التاريخ

(٢) صراع مع الملاحدة حتى العظم

(٣) أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها.

«التبشير والاستشراق والاستعمار»

(٤) الكيد الأحمر.

«دراسة واعية للشيوعية»

(٥) غزوٌ في الصميم.

«دراسة واعية للغزو الفكري والنفسي والخلقي والسلوكي في مجالات التعليم المنهجي والتثقيف العام»

(٦) كواشف زيوف في المذاهب الفكريّة المعاصرة

(٧) ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ مع دراسة شاملة للنصوص القرآنية في النفاق والمنافقين

ثانياً ـ في طريق الإسلام:

(١) العقيدة الإسلامية وأسسها

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها

(٣) براهين وأدلّة إيمانية

(٤) الصيام ورمضان في السنة والقرآن.

«دراسة في طريق بحوث فقه الكتاب والسنة»

(٥) أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها

(٦) روائع من أقوال الرسول.

«دراسات لغوية وفكرية وأدبيّة»

(٧) الأمة الربّانية الواحدة

ثالثاً ـ دراسات قرآنية:

(١) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ

(٢) تدبر سورة (الفرقان)

(٣) تفسير سورة (الرعد)

(٤) أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع

(٥) نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد.
«دراسة في طريق التفسير الموضوعي»

رابعاً ـ حول الأدب الإسلامي:

(١) مبادىء في الأدب والدعوة

(٢) ديوان آمنت بالله (شعر)

(٣) ديوان ترنيمات إسلامية (شعر) للنشيد

(٤) ديوان أقباس في منهاج الدعوة وتوجيه الدعاة

خامساً ـ كتب متنوعة:

(١) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة

(٢) بصائر للمسلم المعاصر

.. وغير ذلك من متفرقات.

● ● ●